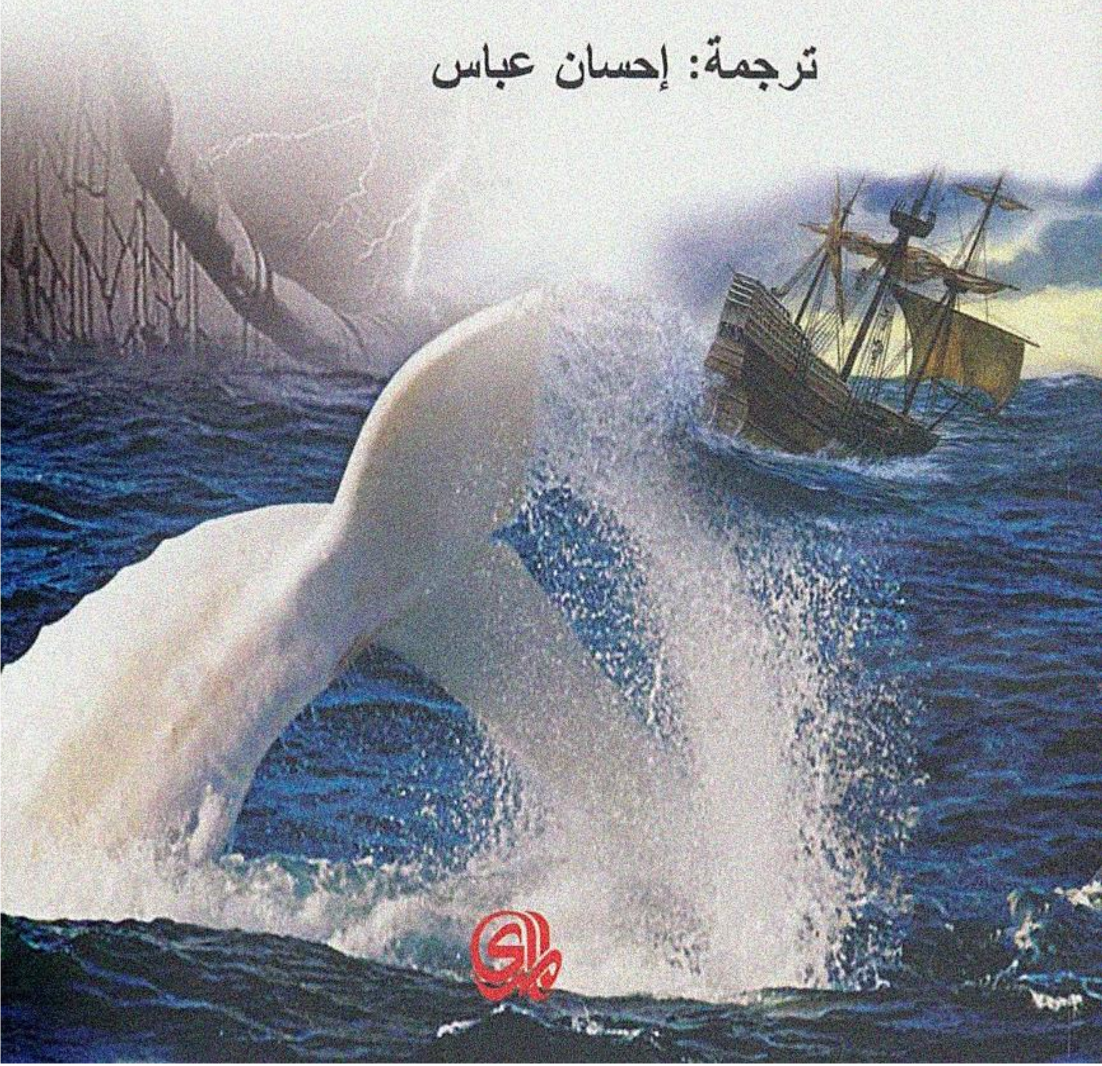
أعمال خالدة ٢

هرمان ملڤل

موبي ديك

ترجمة: إحسان عباس



موبي ديك

هرمان ملفل

موبي ديك

ترجمة

د. إحسان عباس

أعمال خالدة
٢

Author: Herman Melville
Title: Moby Dick
Translator: Dr. Ihsan Abbas
Cover designed by: Roula Majed
P.C.: Al-Mada
First Edition: 1998
Second Edition: 2014

المؤلف: هرمان ملفل
عنوان الكتاب: موبي ديك
ترجمة: د. إحسان عباس
تصميم الغلاف: رولا ماجد
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ١٩٩٨
الطبعة الثانية: ٢٠١٤

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول
تلفون: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ - تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo.com

ISBN: 978-2843050978

فصل في الاشتقاق

اعـده مـعلم مـسلول كـان يعـمل

اثناء الحـيـاة في مـدرسـة اعـدادية

ذلك المعلم الشاحب ، مهلهل الرداء والقلب والجسد واللبّ ، أذكره كأنني أراه . كان دائماً ينفض الغبار عن معجماته وأجرومياته القديمة ، بمنديل عجيب الطراز ، مزخرف ـ على نحو ساخر ـ بكل الاعلام البهيجة التي ترمز الى جميع الأمم المعروفة في العالم . وكان يروقه ان ينفض الغبار ايضاً عن ا لمعلومات النحوية في ذاكرته ، فذلك امر كان يذكّره ـ في لطف ودیع ـ بأنه ينتمي الى أهل الفناء .

حين تعين الآخرين على أن يتعلموا ، وتلقنهم اسم الحوت في لغتنا ، مسقطاً ـ بطريق الجهل ـ من اسمه حرف « هـ » H ، وهو الحرف الذي يمنح الكلمة مغزاها ، فأنت تلقنهم ما هو بعيد عن الصواب .

(هكليوت)

هويل... وفي السويدية والدنمركية : « هوال » ـ اسمه مأخوذ من الاستدارة أوالتكوّر ، لأن الفعل « هوالت » في الدنمركية تعني « تقوس » أو « تقبب » .

(قاموس وبستر)

هويل... اشتقاق مباشر من الهولندية أو الألمانية ، ففي الألمانية « ويلن » والصفة منها « ويليان » تعني « يلتوي » أو « يلتفت » .

(قاموس رتشاردسن)

ح ت	بالعبرية
ق و ط س	باليونانية[1]
ق ي ط س	باللاتينية[1]
هُوَيل	بالانجلوسكسونية
هوالت	بالدنمركية
وال	بالهولندية[1]
هوال	بالسويدية
هويل	بالانجليزية
هويل	بالاسلندية
بلّين	بالفرنسية
بلّينة	بالاسبانية[1]
بيكي ـ نويه ـ نويه	بالفيجية
بيهي ـ نويه ـ نويه	بالارومانجونية

(١) دخلت كلمة «القاطوس» في اللغة العربية إلا أن بعض المصادر أوردتها خطأً بالفاء (أنظر مثلاً حياة الحيوان للدميري) وكذلك كلمة «البلينة» عرفها الأندلسيون فقد لقب سعيد بن عثمان القرشي بالبلينة (جذوة المقتبس للحميدي ، ٢١٤) وقال ابن سعيد ، البلينة حوت كبير يعرف بدابة البحر (المغرب ١ ، ١٩٢) وتُعرّب لفظة whale في المصادر القديمة على صور مختلفة منها الفال والوال والاوال والافال .

مقتطفات

أعدّها مساعدُ لخازن مكتبة مساعد

ستروِن ، أيها القراء ، أن هذا الحفار النقّاب ، أن تلك الأرضة النفاذة التي أسميها مساعد الخازن المساعد ، قد تغلغل في أقبية المكتبات وسراديبها الطويلة ، ملتقطاً الاشارات المتناثرة الى الحيتان ايّان وجدها ، من كتب دينية أو دنيوية . لذلك ليس عليكم أن تأخذوا هذا الخليط من الأقوال ، وإن كان صحيح النسبة ، وتعدوه في جميع الأحوال كتاباً موثوقاً معتمداً في علم الحيتان لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فما أبعد هذه الأقوال من ذلك! إذ أن المقتطفات المنقولة عن المؤلفين القدامى بعامة وعن الشعراء المذكورين في هذا الثبت ، إنما تعد قيّمة أو ممتعة من حيث أنها تعطي نظرة خاطفة عما قالته الأمم والأجيال العديدة ـ ومنها جيلنا ـ أو تصوّرته أو تغنت به ـ على نحو مختلط ـ عن «اللوياثان» .

إذن وداعاً يا مساعد المساعد المسكين ، الذي أمثل أنا منه دور الشارح المعلّق . إنك لتنتمي الى تلك القبيلة الشاحبة اليانسة التي لا تستطيع أية خمرة في هذا العالم أن تبعث في عروقها دفئاً ، قبيلة لو وضعتَ إزاء شحوبها تلك الصفراءَ التي لا تنزل الأحزان ساحتها لبدت قانئة كأنها الفرصاد ، قبيلة يحب المرء أن يعاشرها أحياناً ويحسّ إحساسها بالمسكنة والتعاسة ، ويغدو مرحاً مطراباً على طعم العبرات ، ويقول لأبنائها في غلظة وجفاء ، وشؤونه دافقة وكأسه خواء ، وحزنه مشوب بشيء من الجذل والرضاء : «دعوا عنكم هذا العناء ، يا مساعدي المساعدين! » كلما ازددتم كداً لإرضاء هذا العالم ، زاد ما تلقونه من البخس ونكران الجميل أبداً . لتمنيت أنني أستطيع أن أوطنكم هامبتون كورت أو التويلري[1] بعد أن

---

(١) في هامبتون كورت قصر ملكي زاره ملفل في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٩ ولابد أنه مرّ في إحدى جولاته الباريسية بقصر التويلري ، وكان هذان القصران قد اتخذا متحفين في أيام ملفل ، كما أن التويلري كان مقر لويس نابوليون الذي انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٨٤٨ ونودي به امبراطوراً عام ١٨٥٢ .

أخليهما ممن يحلهما . لكن تجرعوا عبراتكم ، وسارعوا الخطى صعوداً الى الصاري الملوكي بكل ما أوتيتموه من قوة ، لأن أصدقاءكم الذين تقدّموكم على الطريق أخذوا يخلون السموات السبع ويحلّون لاجئين لدى الملائكة المتخمين : جبريل وميكال ورفائيل ، ليحولوا بينكم وبين الحلول فيها . في هذا العالم تقرعون قلوباً مشقوقة بقلوب ، أما في العالم الآخر فإنكم ستقرعون كؤوساً سليمة بكؤوس!

فخلق الله الحيتان[1] العظام .

(التكوين ١ : ٢١)

[اللوياثان] يضيء السبيل وراءه فيحسب اللج أشيب .

(أيوب ٤١ : ٣٢)

وأما الرب فأعد حوتاً عظيماً ليبتلع يونان .

(يونان ١ : ١٧)

هناك تجري السفن ؛ لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه .

(مزامير ١٠٤ : ٢٦)

في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان ، الحية الهاربة ، لوياثان ، الحية المتحوّية ، ويقتل التنين الذي في البحر .

(أشعيا ٢٧ : ١)

وأيما شيء اقترب من واقوصةِ[2] فكَّي ذلك الوحش ، سواء أكان حيواناً أم قارباً أم صخرة ، انحدر في تلك «البالوعة» الوبيلة المنهومة ، وتلاشى في خليج كرشه الذي لا يعرف له قرار .

(الفقرة ٣١ من كتاب الأخلاق لفلوطارخس)

وينتج في البحر الهندي أكثر الأسماك وأكبرها ، ومن بينها الحيتان والخطّارات التي تسمى البلّينات ويبلغ الواحد منها في مساحته أربعة أفدنة (٦٤٠ قدماً مربعاً) أو أربعة أرفينات ـ والأرفين ٠,٨٤ من الفدان .

(بليني ٩/٢ : ٤)

ولم نكن قد تقدمنا مسافة يومين في البحر حتى ظهر لنا عند الشروق عدد كبير من الحيتان ووحوش البحر الأخرى وكان أحد الحيتان بالغ الجسامة... انتحى نحونا ، فاغر

---

(١) في الترجمة العربية : التنانين .

(٢) الواقوصة ترجمة لكلمة chaos (قاووصة) ومعناها الهوة ، وقد عرفها العرب بهذا الاسم ، وبها سمي المكان .

الشدقين وهو يرفع الموج من كل جانب ، ويخبط الماء أمامه زبداً .

(التاريخ الصحيح للوقيان ـ الكتاب الأول)

وزار هذه البلاد أيضاً ليصيد الحيتان ، ولعظامها قيمة بالغة لما فيها من أنياب ، وجلب بعضاً منها للملك... وخير الحيتان يصاد في هذه البلاد ، وبعضها يبلغ ٤٨ ياردة في طوله وبعضها يبلغ خمسين ، وقال إنه أحد ستة صادوا ستين حوتاً في يومين .

(حديث شفوي جرى على لسان من اسمه اوثر او
أوكثر ودونه الملك ألفرد عام ٨٩٠ ب .م .)

كل الأشياء حيوانات كانت أو قوارب ، إذا هي دخلت الخليج المخيف الذي يسمى فم الحوت ، غربت في التوّ ، وأصبحت أثراً بعد عين إلا سمك القوبيون البحري فإنه يلوذ الى ذلك الكهف مطمئناً وينام فيه .

(مونتين ـ في «دفاع عن ريموند سيبند»)

لنهرب! لنهرب! حاز روحي الشيطان الرجيم إن لم يكن هذا هو اللوياثان الذي وصفه النبي موسى العظيم في سيرة أيوب الصبور .

(رابليه)

وكان كبد هذا الحوت يساوي ما تحمله عربتان .

(حوليات استو)

[اللوياثان] العظيم الذي يجعل العمق يغلي كالقِدر .

(ترجمة اللورد بيكون للمزامير[1])

أما فيما يتصل بالحجم الهائل الذي تكون عليه الحيتان أو الأرخ[2] فليس لدينا شيء يقيني ، ولكنها تطبق شحماً حتى أن كمية الدهن التي تستخرج من حوت واحد تفوق حدّ التصديق . .

(بيكون في «تاريخ الحياة والموت»)

---

(١) قلت : هذا ورد في سفر أيوب ٤١ : ٣١ .

(٢) في الأصل ork وصوابها orc وهي من اللاتينية orca وتعني الحوت أو الفرمبوز أو ما يشبهه .

خير ما في الأرض لعلاج جرح دخيل هو زيت الحوت .

(الملك هنري الرابع ١ ، ٣/٥٧-٥٨)

كأنه حقاً حوت .

(هملت ٣/٢ ، ٣٩٩)

لم تجده شيئاً براعة الحجام ، وكان عليه
إن شاء الشفاء ، أن يعود كرّة أخرى
الى الذي سبب جرحه ، حين رماه بسهم عاثر
شكّ به صدره ، وابتعث فيه الألم المبرّح ،
عودةَ الحوت الجريح المنطلق في عرض البحر نحو الساحل .

(من قصيدة "The Fairie Queen"
لسبنسر ٦/ النشيد ١٠/ القطعة ، ٣١)

جسيم كالحيتان التي إذا تحركت أجسامها في البحر الساكن تخبط البحر بها كأنه يغلي .

(من أقوال السير وليم دافنانت في «مقدمة على جندبرت»)

للناس الحق في أن يتساءلوا عن ماهية زيت الحوت ، لأن العالِم أوزمان يقول دون مواربة في مؤلف له قضى في كتابته ثلاثين عاماً : «إننا لا نعرف ما هو» .

(«في زيت الحوت ، وحوت العنبر»
للسير توماس براون ٣ ، ٢٦)

كأنه طالوس ذو «الفَلَقة»[١] الحديثة ، الذي ذكره سبنسر ،
ينذر بالويل والثبور بذيله المهول .
وهو يحمل حرابهم المثبتة
وعلى ظهره تبدو غابة من أسنّة .

(معركة جزائر سومر لادمند والر ـ النشيد الثالث)

---

(١) الفلقة هي الكلمة اللاتينية flagellum وتعني في الأصل «السوط» .

بقدرة فنان خلق ذلك اللوياثان العظيم الذي يسمى في اللغة اللاتينية Civitas (بمعنى كيان دولة) وليس هذا الكيان إلا إنساناً مصطنعاً .

(العبارة الأولى في كتاب «لوياثان» لهوبز)

وابتلعها منصول [الروح الإنساني] الغبيّ دون مضغ كأنها كانت سمكة صغيرة في فم حوت .

(رحلة حاج لبنيان)

ذلك الحيوان البحري ، اللوياثان
الذي جعله الله من بين مخلوقاته
أعظم ما يسبح في الماء .

(الفردوس المفقود ٧/٤١٢-٤١٦)

ـ هناك اللوياثان
أعظم المخلوقات ، في البحار
ممتداً كأنه برزخ ، ينام أو يسبح ؛
ويبدو كأنه أرض تتحرك ،
فإذا فغر فاه تجرع بحراً ،
وإذا نفث زفيره أصدر بحراً .

(المصدر نفسه)

الحيتان الجبارة التي تعوم في بحر من ماء وفي داخلها تعوم بحار من زيت .

(الدولة الدينية والدنيوية لتوماس فلر)

تستلقي اللوياثانات الضخمة خلف قنة بحرية
متربصة بفرائسها ،
ولا تطاردها ، وإنما تبتلع السرب
الذي يضلّ طريقه ذاهباً خلال الأشداق المفتوحة .

(سنة الأعاجيب (١٦٦٦) للشاعر جون دريدن)

وحين يكون الحوت عائماً عند كوثلة السفينة يقطعون رأسه ويجرونه بواسطة قارب

فيقربونه من الشاطئ قدر المستطاع ، ولكنه لو جرَّ في ماء ارتفاعه اثنا عشر قدماً أو ثلاثة عشر للامس الأرض .

(عشر سفرات الى سبتزبرجن لتوماس
إدج مضمنة في رحلات بركاس)

وفي طريقهم رأوا حيتاناً كثيرة تمرح في البحر ، وهي في عبث ترسل الماء عالياً من خراطيمها ونفاثاتها التي جعلتها الطبيعة في أكتافها .

(رحلات السير توماس هربرت في آسيا وأفريقية)

وهنا رأوا كتائب ضخمة من الحيتان حتى اضطروا الى السير بحذر بالغ لئلا تتسرب بهم سفينتهم عليها .

(التطواف السادس لشوتن)

وأبحرنا من إلب والريح شمالية شرقية في سفينة تدعى « يونان في جوف الحوت »... بعض الناس يقولون إن الحوت لا يستطيع أن يفتح فمه ، إلا أن هذا قول خرافي... وكثيراً ما يصعدون الصواري ليروا إن كانوا يستطيعون أن يبصروا حوتاً ، لأن من سبق غيره الى رؤيته نال « دوقة » لقاء تعبه... وقد أخبروني عن حوت اصطيد قريباً من شتلند ، وأنهم وجدوا في كرشه برميلاً من سمك الرنجة... وأخبرني أحد حواتينا أنه صاد مرة حوتاً في سبتزبرجن وكان أبيض اللون .

(رحلة الى جرينلاند عام ١٦٧١ من مجموعة هاريس)

وقد ألمت بهذا الشاطئ (شاطئ فايف) حيتان عديدة ؛ وفي عام ١٦٥٢ أحضر من عظم الحوت ما طوله ثمانون قدماً ، وقد خبروني أن وزن البلين بلغ ٥٠٠ وزنة عدا كمية كبيرة من الزيت ، أما الفكان فقد اتخذا في بوابة حديقة في بتفرن .

(فايف وكنروس لسيبولد)

وقد وافقت أنا نفسي على أن أجرب السيطرة على حوت عنبر وأن أقتله لأني لم أسمع بأن واحداً من ذلك النوع قتله إنسان ، لما هو عليه من عنف وسرعة .

(رسالة من رتشارد استافورد بعثها
من جزائر برمودا ، «١٦٦٨»)

حتى الحيتان في البحار
تطيع أمر الجبّار

(كتاب المطالعة الأولي)

ورأينا أيضاً الجمّاء الغفير من الحيتان الضخام ؛ فإزاء كل حوت في البحار الشمالية ـ أستطيع أن أقول ـ هناك مائة في البحار الجنوبية .

(رحلة القبطان كاولي حول الكرة الأرضية عام ١٧٢٩)

... ويصاحب نَفَسَ الحوت رائحة لا تطاق حتى أنها لتحدث خللاً في الدماغ .

(أمريكا الجنوبية لأولاو)

الى خمسين حورية من ذوات المقام الرفيع
نعهد بالمسؤولية الكبرى ، وهي إلباسها الصّدار ،
وقد طالما عرفنا أن تلك الدرع ذات الطاقات السبع تعجز واهنة
وإن كانت محشوّة بالأطواق ، مزوّدة بأضلاع حوت .

(الكسندر بوب ، اغتصاب الخصلة ،
النشيد الثاني ، الأبيات ١١٧-١٢٠)

إذا قارنا حيوانات البر من حيث الجسامة بالحيوانات التي تتخذ الأعماق مثابة لها وجدنا الأولى زرية لدى المقارنة ، فالحوت دون ريب أعظم الحيوانات خلقة .

(التاريخ الطبيعي لجولد سمث)

إذا كنت تريد أن تكتب أسطورة للسمك الصغير ، فقد تجعلها تتحدث كالحيتان العظيمة .

(من جولد سمث الى جونسون كما أوردها بوزول)

وبعد الظهر لاح لنا ما حسبناه صخرة ثم تبيّنا أنه حوت ميت قتله بعض الآسيويين وكانوا يجرونه نحو الساحل . وبدا لنا أنهم يحاولون أن يخفوا أنفسهم وراء الحوت لكي لا تقع أعيننا عليهم .

(رحلات كوك)

أما الحيتان الضخمة فقلما يتجاسرون عليها بهجوم ، فهم يخشون بعضها حتى أنهم إذا كانوا في عرض البحر خافوا أن ينطقوا بأسمائها ، وهم يحملون معهم في قواربهم الروث والجير وخشب العرعر وبعض المواد الأخرى من هذا القبيل كي يخيفوها ويمنعوها من أن تدنو منهم .

(رسائل اونو فون ترويل عن رحلة
بانكس وزولاندر الى اسلندة عام ١٧٧٢)

وحوت العنبر الذي صادفه بعض النانتوكتيين ، حيوان عنيف نشيط يتطلب لباقة وجرأة عظيمتين في الصيادين .

(ذكريات عن صيد الحيتان كتبها توماس جفرسن
الى الوزير الفرنسي ارمان مارك عام ١٧٧٨)

وأستميحك يا سيدي : أي شيء في العالم يضاهيه .

(من خطاب ادمند بيرك في البرلمان (٢٢ آذار ١٧٧٥)
أشار فيه الى حرفة صيد الحيتان لدى أهل نانتوكت)

اسبانيا ـ تلك حوت ضخم جانح على شواطئ أوروبا .

(ادمند بيرك ـ نسيت اسم المصدر)

وعشر الدخل العادي للملك ، وهو يعتمد على اعتباره حارساً حامياً للبحار من القراصنة واللصوص ، إنما هو حقه في السمك الملكي ، وهو الحوت والاسطرغون ، فإذا قذف الموج بهذين الصنفين على الشاطئ أو اصطيدا على مقربة منه ، كانا ملكاً للملك .

(وليم بلاكستون ـ في تعليقات على قوانين
انجلترا ، الكتاب الأول ، الفصل : ٨)

وعلى التوّ ينتحي البحارة لعبة الموت :
فيرفع ردمند فوق رأسه ، مسدّداً ،
السنان المشحوذ ، ويرقب كل ناحية .

(سفينة تتحطم لفالكونر ـ النشيد الثاني)

وتلألأت لامعة السقوف والقباب والجرسيّات
وانطلقت الصواريخ من نفسها
لتعلق نارها التي تبقى لحظة
حول قبة السماء .
ومن أجل أن لا يتفوق عنصر النار على عنصر الماء
أخذ البحر المحيط يطغى سامقاً
ينفثه في الفضاء حوت ،
ليعبر عن فرحٍ مستحكم الطغيان .

(كوبر ـ قصيدة في زيارة الملكة للندن ، الأبيات ١٣-٢٠)

ويقذف هو بسرعة هائلة عشرة جالونات أو خمسة عشر من الدم من قلبه لدى ضربة واحدة .

(حديث جون هنتر عن تقطيع حوت ـ صغير الجرم)

إن فوهة الأبهر (الأورطي) في الحوت أكبر سعة من فوهة الأنبوب الرئيسي في المنشآت المائية عند جسر لندن ؛ أما الماء الهادر في مروره خلال ذلك الأنبوب فإنه أقل زخماً وسرعة من الدم المنبثق من قلب الحوت .

(اللاهوت لبيلي)

الحوت حيوان ثديي دون رجلين خلفيتين .

(بارون كوفييه)

وعلى الدرجة الأربعين جنوباً رأينا حيتان عنبر لكنا لم نصد شيئاً منها إلا في أول أيار (مايو) إذ كان البحر حينئذ مغطى بها .

(رحلة كولنت لتوسيع نطاق التحويت لصيد حوت العنبر)

في العنصر الطليق من دوني كانت تعوم
وتتغالب وتغوص ، عابثةً أو مطاردة ، أو في عراك ،
أسماك من كل لون وشكل وصنف ،
تعجز اللغة عن تصويرها ، وما رأى مثلها الملاحون ،

من الحوت المخوف حتى ملايين الصغار التي تسكن كل موجة
وقد تجمعت في أسراب ضخمة كأنها جزر عائمة
تقودها غرائز خفية خلال ذلك اليباب المائي
الذي لا يحفظ أثراً ، وإن كان يهاجمها من كل جانب
أعداء ذوو نهم وضراوة .
حيتان وقرشان وهولات ، مسلحة في مخاطمها أو الأشداق ،
بسيوف ومناشر وقرون ملوية أو أنياب خطّافية .

(العالم قبل الطوفان لمونتجومري)

أنتما أيها الرَّبّان : ايو وبايان ، تغنيا
لملك الرعايا المزعنفة
فليس في الأطلسي المديد
حوت أقوى من هذا الحوت
ولا يتطوف حول البحر القطبي
حوت أشد منه سمنة وترارة

(مجد الحوت لشارل لام)

في عام ١٦٩٠ كان نفر من الناس يرقبون ، من فوق ربوة عالية ، الحيتان وهي تنفث وتتعابث ، حين قال أحدهم وهو يشير الى البحر ـ هناك مرج أخضر سيذهب إليه أحفادنا طلباً للخبز .

(تاريخ نانتوكت لعبيد ماسي)

وصنعت لي ولسوزان كوخاً وجعلت الباب على شكل قنطرة قوطية ، حين نصبت هنالك عظام فكّ الحوت .

(قصص حكيت مرتين لهوثورن
ـ من حكاية «العم القروي»)

وجاءت لتوصي ببناء نصب تذكاري لحبيبها الأول الذي كان قد قتله حوت في المحيط الهادي منذ ما لا يقل عن أربعين سنة .

(المصدر نفسه ـ من حكاية «ضربات بازميل»)

فأجاب توم : «لا يا سيدي هذا حوت أثين ، لقد رأيته ينفث ، فنصب قوسَي قزح في الجوّ كأجمل ما يحلو لإنسان أن يرى . ذلك برميل زيت نادر .

(الربان لجيمس فنيمور كوبر ، الفصل ، ١٧)

وجاءوا بالجرائد فرأينا في «صحافة برلين» أن الحيتان قد استحضرت فوق المسرح عندهم .

(أحاديث بين أكرمان وجوته ، ٣١ كانون الثاني ١٨٣٠)

فأجبت : «رباه! ما بالنا يا سيد (تشيز)! ، لقد شقّ الحوت سفينتنا» .

(خبر عن تحطم الحواتة «اسكس» من نانتوكت وقد هاجمها حوت عنبر وحطمها تحطيماً في المحيط الهادي ، وكان الضابط الأول فيها هو اوين تشيز ، وهو الذي كتب هذا السرد ، نيويورك ١٨٢١)

جلس بحار ذات ليلة في مرقبه
والريح طليقة تنفخ نايها
وضوء القمر الشاحب حيناً يلتمع وحيناً يخبو
ويتلألأ لهب الفوسفور في مجرّ الحوت
وهو يتوثب في الماء .

(من قصيدة البحار الغريق «الأبيات ١-٥» لاليزابث اوكس سمث)

وكان طول الحبل الذي سحب من مختلف القوارب المنهمكة في صيد الحوت يبلغ معاً ١٠٤٤٠ ياردة أو قرابة ستة أميال انجليزية... وأحياناً يهز الحوت ذنبه الراعب في الفضاء فيفرقع كأنه سوط ويتردد صداه على مسافة ثلاثة أميال أو أربعة .

(سكورسبي)

فإذا جن جنون حوت العنبر المستشيط غضباً بالآلام التي يتلقاها من هذه الهجمات الجديدة تقلب ظهراً لبطن ، ونصب رأسه الضخم وانقض بفكيه المفتوحين ناهشاً كل شيء حوله ؛ ويندفع نحو القوارب برأسه ، فتنقلب أمامه في سرعة فائقة وأحياناً تتحطم تحطماً

تاماً... ولعلّ مما يبعث الدهشة البالغة أن يغفل الناس إغفالاً تاماً التأمل في عادات حيوان فذ ، هام (من الزاوية التجارية) ـ كحوت العنبر ـ أو أن تكون تلك العادات قد استثارت قليلاً من الفضول لدى عديد من المتطلعين ، وفيهم عدد جمّ من ذوي الكفاية ، الذين سنحت لهم في السنوات الأخيرة أوفر الفرص وأشدها مواتاة لمشاهدة عادات الحيتان .

(تاريخ حوت العنبر تأليف توماس بيل ١٨٣٩)

والقشلوط (حوت العنبر) ليس فحسب أحسن سلاحاً من الحوت الأثين (حوت جرينلاند) من حيث أن له سلاحاً مخيفاً على طرفي جسمه ، وإنما هو أيضاً يبدي ـ في أكثر الأحوال ـ ميلاً لاستعمال أسلحته بطريق العدوان ، وعلى نحو فني جسور مؤذٍ معاً ، وهذا يؤدي بالناس الى أن يعدوه أخطر حيوان يهاجمونه بين جميع الفصائل المعروفة من عشيرة الحوت .

(رحلة تحويت حول الكرة الأرضية
لفردريك دبل بنيت ١٨٤٠)

١٣ تشرين الأول (أكتوبر) : وسمعنا من يهتف من أعلى الصواري : «هناك ينفث!»
فقال القبطان : «كم يبعد ؟»
ـ $\frac{٣}{٤}$ ٣٣ درجة يا سيدي .
ـ ارفع الدفة . أثبت!
ـ أثبتّها يا سيدي .
ـ أنت في رأس الصاري ، هل ترى هذا الحوت الآن ؟
ـ أجل . أجل سيدي! سرباً من حيتان العنبر . هناك ينفث! هناك يثب!
ـ اهتف . اهتف كلما رأيته!
ـ سمعاً سيدي! هناك ينفث ـ هناك ـ هناك ـ هناك ينفث ـ ينـ ـ ننن ـففففا
ـ كم يبعد ؟
ـ ميلين ونصف .
ـ يا للبرق والرعد! أعلى هذا القرب! ادعوا الجميع!

(صور من رحلة تحويت لروس براون ١٨٤٦)

إن سفينة التحويت «جلوب» التي حدثت على ظهرها هذه الحوادث المرعبة ـ ونحن بسبيل سردها ـ تنتمي الى جزيرة نانتوكت .

(قصة التمرد على السفينة جلوب
كتبها ورثاء لاي وهسي ١٨٢٨)

ولما أن لحق به الحوت الذي كان قد جرحه ، تجنب هجمته بعض الوقت بحربة ، ولكن الحيوان المتسخط انقض في النهاية على القارب ، ولم يحمه ويحم رفاقه منه إلا قفزهم في الماء عندما رأوا أن هجمته محتومة لا يمكن تلافيها .

(يوميات الأسفار والرحلات ، لتيرمان وينت ـ
بوسطن ١٨٣٢ ، المجلد الأول ، الفصل الأول)

وقال السيد وبستر : «إن نانتوكت نفسها حصة فذة خاصة من الدخل القومي ؛ سكانها عددهم ثمانية آلاف أو تسعة يعيشون هنا في البحر ، ويضيفون إضافة كبيرة كل عام الى الثروة الوطنية بحرفة تعد من أجرأ الحرف وأشدها تطلباً للمثابرة والدأب .

(من خطاب دانيل وبستر في مجلس الشيوخ
الأمريكي ، ألقاه بمناسبة طلب إقامة حاجز
عند الميناء في نانتوكت ، عام ١٨٢٨)

ووقع الحوت عامداً فوقه ولعله قتله في لحظة .

(الحوت وصيادوه أو مخاطرات الحوات وسيرة
الحوت ، استقاها القس هنري ت . شيفر في
رحلة العودة الى الوطن من القومودور بريبل)

فأجاب صموئيل : «إذا نأمت نأمة بعثت بك الى الجحيم» .

(حياة صموئيل كومستك (المتمرد) كتبها
أخوه وليم كومستك ، وهي صورة أخرى من
قصة التمرد على ظهر الحوالة «جلوب»)

إن رحلات الهولنديين والانجليز الى المحيط الشمالي ، لعلهم يكتشفون طريقاً الى الهند من خلاله ، فتحت أمامهم ، وإن أخفقوا في هدفهم الأول ، المَواطن التي تأوي إليها الحيتان .

(القاموس التجاري لمك كولك)

هذه الأمور تتم في تبادل ، فالكرة ترتد لتنط الى الأمام مرة أخرى ؛ وها هم الحوّاتون بعد أن انكشفت لهم المواطن التي تأوي إليها الحيتان ، قد وقعوا ـ فيما يبدو ـ على دلائل جديدة تؤدي بهم الى ذلك الممر الشمالي الغربي الخفيّ .

(من «شيء» لم ينشر)

من المحال أن يصادف المرء حوّاتة في البحر دون أن يدهشه مظهرها المألوف . فللسفينة ذات الأشرعة القصيرة التي يقف رقباؤها على رؤوس الصواري يمعنون النظر اللهيف في البسيط الممتد من حولهم ، هيئة تختلف اختلافاً كلياً عن تلك السفن المنهمكة في رحلة منتظمة .

(التيارات والتحويت ـ البعثة الأمريكية)

لقد ذكر المشاة في جوار لندن وفي جهات أخرى أنهم رأوا عظاماً مقوسة قد نصبت في الأرض ، إما لتكون أقواساً في البوابات أو مداخل للمخادع ، ولعلهم أنبئوا أن هذه العظام أضلاع حيتان .

(حكايات عن حوّات في المحيط المتجمد الشمالي)

ولم يدرك البيض أن سفينتهم قد حازها غصباً المتوحشون المسجلون بين الملاحين إلا حين عادت القوارب من مطاردة تلك الحيتان .

(خبر صحفي عن اغتصاب الحواتة هوبموك واستعادتها)

من المشهور المتعارف أنه قلما يرجع أحد من بحارة الحواتات (الأمريكية) في السفن التي أبحروا على ظهورها .

(رحلة في قارب تحويت لجيمس رودس)

وفجأة انفرج الماء عن كتلة هائلة انطلقت عمودياً في الفضاء وإذا بها حوت .

(مريام كوفن أو صياد الحيتان لجوزف هارت)

حقاً إن الحوت يزرق بالحراب ، ولكن تدبر لنفسك كيف يمكنك أن تسوس مهراً أرناً لم يروض من قبل بربط حبل ـ محض ربط ـ عند عجب ذنبه .

(فصل في التحويت على الأرينات وتويجات الصواري)

وفي إحدى المرات رأيت اثنين من هذه الحيوانات الهائلة (الحيتان) وربما كانا ذكراً وأنثى يسبحان في بطء ، متعاقبين ، على مرمى حجر أو أقل من الشاطئ (شاطئ ترا دل فويجو) الذي تمد فوقه شجرة الزان أغصانها .

(رحلة عالم طبيعي لدارون)

«جميعاً الى المؤخرة!» كذلك هتف الضابط حين استدار فرأى فكّي حوت عنبر فاغرين ، قرب رأس القارب ، وهما يهددانه بخراب وشيك . «إلى المؤخرة جميعاً ، نجاةً بأنفسكم!» .

(وارتون صياد الحوت)

تذرعوا بالبشر يا فتياني ، وبرباطة الجأش ،
حين يغرز الزراق الجسور رمحه في الحوت .

(أغنية نانتوكتية)

آه يا للحوت الفذ الفريد ، بين العاصف والنكباء ،
يظل في بيته في الماء
مارداً في قوته ، حيث القوة هي عين الحق
وملكاً على البحر المديد ، الذي لا تعرف له حدود .

(أغنية الحواتين)

١

تباشير

قبل بضع سنوات ، لاأدري عددها على وجه الدقّة ، كنت أنا ـ وليكن اسمي الذي أُعرف به هو اسماعيل ـ خالي الوفاض من الدراهم أو كالخالي ، ولم يعد على البرّ شيء يبعث المتعة في نفسي ، فخطر لي أنني قد أقضي بعض الوقت مبحراً[١] وأرى الجزء المائي من العالم . ذلك أنني كلّما أحسست بالتجهّم يرتسم حول شفتي ، كلّما أحسست في روحي بشيٍ من رطوبة تشرين ونضحه البليل ، كلّما وجدت نفسي أقف ، وقفةَ المأخوذ ، أمام دكّانٍ التوابيت ، وأشيّع كلّ جنازة صادفتها في الطريق ، بل قلْ كلّما سيطر عليّ الشعور بالمرّة السوداء ، حتّى أصبحت بحاجة الى وازع أخلاقي رادع يحول بيني وبين الضرب في الشوارع وتسديد اللكمات المحكمة الى رؤوس السابلة ، كلّما كنت في مثل تلك الأحوال أحسست أنه قد آن لي أن أركب البحر بأقصى ما أستطيعه من سرعة ، فذلك هو ماأوثره إن آثر غيري المسدّس والرصاص . في رباطة جأش المتفلسف ألقى كاتو[٢] بنفسه على سيفه ، أمّا أنا فإنّي أتوجّه نحو السفينة في هدوء . وليس في هذا ما يثير استغراباً ، فلو أنّ الناس على اختلاف درجاتهم عرفوا هذا الأمر لأصبحوا بين الحين والحين يشركونني مشاعري نحو البحر أو يكادون .

ها هي مدينة منهاتو البحريّة ، يلفّها نطاق من الأرصفة كما تلتف الحواجز المرجانيّة حول الجزائر الهندية ، ويكللها زبد البضائع من كلّ ناحية ، وشوارعها جميعاً تفضي بك الى البحر ، يميناً جعلت وجهتك أو شمالاً ، وعند أقصاها يقع ذلك السدّ العتيد الذي تغسله

---

(١) قام ملفل في الواقع بعدة رحلات بحرية ، أولها رحلة من نيويورك الى ليفربول عام ١٨٣٩ .

(٢) يعني ماركوس بوركيوس كاتو (٩٥ ـ ٤٦ ق . م) حفيد كاتو الرقيب ، انتحر بعد مقتل بومبي لئلا يقع أسيراً في قبضة يوليوس قيصر وقيل إنه قضى آخر ليلة من حياته يقرأ « الفيدون » لأفلاطون .

الموجات وتنعشه النسمات ، وإذا كنت في الطرف الآخر من المدينة لم تره لأن بينك وبينه مسيرة بضع ساعات . تأمّل عند ذلك السّد الحاجز جماهير المحدّقين في الماء .

أو إنْ شئت فطوّف أرجاء هذه المدينة في أصيل يوم حالم قد أخلد الناس فيه الى الراحة ، توجّه من «ثنيّة كورلير» الى «مزلقان كوينتي» ومن ثمّ انعطف شمالاً ماراً بهوايتهول ، فماذا ترى ؟ آلافاً مؤلفة من الأحياء ، قد استبحروا في تأمّل الماء ، كأنهم حرّاس صامتون قد انبثّوا في كلّ الأرجاء ، بعضهم يتّكىء على الأسيجة ، وبعضهم يجلس على مشارف الأرصفة ، وبعضهم يمدّ عينيه فوق جنبات السفن القادمة من الصين ، وآخرون قد أمعنوا في تسلّق الحبال كأنهم يحاولون أن يبزوا من عداهم في تفرّس الماء . هؤلاء جميعاً أبناء البر يقضون ستّة أيّام في كلّ اسبوع سجناء خلف جدران من الخشب والطين ، مشدودين الى مكاتبهم ، مسمّرين في مقاعدهم ، مقيّدين عند مناضدهم . ما السّر ؟ هل اختفت من الأرض مروجها الخضر ؟ ماذا يصنع هؤلاء الناس عند البحر ؟

انظر! ها هي أفواج أخرى عامدة الخطوات نحو الماء كأنّما تريد أن تغوص فيه . يا عجباً! لا شيء يرضيهم دون الوقوف على حافة الماء ، فإمّا التخطّر تحت المشارف الظليلة في تلك المصانع فإنه لا يرضيهم ، بل إنهم يقتربون من الماء اقتراب من يودّ أن يعانقه دون أن يقع فيه ، وهناك يقفون صفوفاً تبلغ الأميال أو الفراسخ طولاً . كلّهم من سكّان البرّ ، وفدوا من الزقاقات والمنعطفات ، والشوارع والطرقات ، جاءوا من جميع الجهات ، واتّحدوا جميعاً عند الماء ، أترى القوّة المغناطيسية في إبر البوصلات المستعملة في تلك السفن قد اجتذبتهم نحوها ؟

ثمّ هبْ أنّك كنت في الريف ، في منطقة مرتفعة ذات بحيرات ، واسلك أيّ مسرب شئت ، وأنا على يقين أنّ كلّ مسرب يقودك الى سرارة الوادي ، وهناك تجد نفسك قد وقفت عند حوض في جدول . إنّ في الماء لسحراً ، وإنْ شئت على ذلك برهاناً فاعمد الى رجل هوّامة في أحلامه غريق في مطاويها ، ثمّ اسنده حتّى يقف على قدميه ، وادفع به حتّى يمشي ، تجد أنه يقودك ـ دون أن يضلّ ـ الى الماء ، إن كان في تلك البقعة ماء . وإنْ ظمئت وأنت في الصحراء الأمريكيّة الكبرى فاعمد الى هذه التجربة إن كان في القافلة أستاذ سابحٌ في غيوب الميتافيزيقا فكلّ الناس يعلمون أنّ التأمّل الفكري والماء قرينان الى الأبد .

وها هو فنّان يريد أن يختار للصورة التي يرسمها منظراً خلاباً من مناظر وادي ساكو[1] هو أشدّها إمعاناً في الحلم وأكثفها ظلالاً ، وأهدأها وأكثرها سحراً وخلابةً . فما أهم عنصر

---

(١) نهر ساكو ، ينبع من قاعدة جبل وشنطن ويجري الى الجنوب ويصب في الأطلسي عند مين .

يدرجه في الصورة ؟ سيرسم ، ولابدّ ، شجرات جذوعها مجوّفة كأنّ في داخلها ناسكاً يحمل صليبه ، وهناك يبسط المرج الغافي ، وهنا القطيع الجاثي ، ويجعل عند الطرف الأقصى كوخاً يتصاعد منه الدخان الواهي ، وتتغلغل في الغابة النائية طريق متعرّجة تبلغ أنوف الرّعان الغارقة في زرقة الأفق . وتظهر الصورة على هذا النحو سابحة في غيبوبة النشوة ، وشَجرة الصنوبر تنثر تنهّداتها فوق رأس الراعي كأنها أوراق تتساقط . إلا أنها رغم ذلك كلّه صورة باهتة لاحياة فيها لو لم تكن عين الراعي معلّقة بالجدول السّحري الذي يترقرق أمامه . اذهب في زورة الى منطقة السهوب الشاسعة (البريري)[١] في شهر حزيران (يونيه) حيث تغرق رجلاك حتّى الركبتين بين أزهار الزنابق على مدى عشرات من الأميال . لكن ما السحر الذي تفتقر اليه تلك المنطقة ؟ ـ هو الماء ـ فليس فيها قطرة منه . ترى لو كانت نياجرا شلالاً من الرمل أكنت تقطع آلاف الأميال من أجل أن تراه ؟ وحين تسلّم شاعر تنسي البائس[٢] قبضتين من الفضّة ، لماذا تراه وقف يميّل بين شراء معطف هو في أشدّ حاجة اليه وبين أن يستغلّ نقوده في رحلة الى شاطىء روكوي يقوم بها راجلاً ؟ لِمَ يكاد كلّ غلام جزل سليم ذي روح جزلة سليمة يتوق ـ بين الحين والحين ـ توقان المجنون للذهاب الى البحر ؟ لِمَ كان الفُرس القدماء يعدّون البحر مقدّساً[٣] ؟ لِمَ جعل الإغريق للبحر ربّاً عدّوه أخاً لرب الأرباب نفسه[٤] ؟ حقّاً إنّ لذلك كلّه مغزى . وأعمق من هذا مغزى قصّة الفتى « نرجس » فإنه حين عجز عن أن يمسك خياله الوديع المتمثّل أمامه في النبع ، وعذّبه شعوره بعجزه ، ألقى نفسه في الماء وآثر الغرق . ونحن أنفسنا نرى ذلك الخيال في كلّ نهر وكلّ بحر ، ذلك هو خيال شبح الحياة ، الخيال الروّاغ الذي لانستطيع أن نضمّ عليه جمع اليد ، وذلك هو السّر في كلّ ما هنالك .

وإذا قلت أنّ من عادتي أن أذهب الى البحر حين أحس بدوائر من التجهّم تنعقد حول عيني ، وحين أحسّ بضيق في التنفّس ، فلست أعني أنني أذهب الى البحر في صورة رحالة مسافر ، إذ المسافر لابدّ له من كيس ، وما الكيس إلا خرقة إذا كان فارغاً لاخشخشةَ له ، ثمّ إنّ المسافرين يصابون بدوار البحر ، ويعتريهم النكد والتحفّز للشجار ، ويأرقون ولا يجدون لأنفسهم متعاً . كلا . ولا أذهب الى البحر في صورة كومودور أو قبطان أو طبّاخ ، وإن كنت أعرف شؤون الملاحة . بل أتخلّى عمّا في هذه الوظائف من مجدٍ ورفعة لمن كان

(١) في الإنتقال الى الغرب في منتصف القرن التاسع عشر كان لمنطقة السهوب سحر جذّاب يأسر نفوس الأمريكيين .
(٢) لاأحد يدري الى من يشير ملفل في هذه العبارة ، ولعلّ المقصود هو بايارد تيلور الذي كان يكثر من الرحلة ماشياً .
(٣) ذكر هيرودتس أنّ المجوس يقدّمون الضحايا والقرابين للشمس والقمر والتراب والنار والماء والريح .
(٤) هو بوسيدون أخو زفس في الأساطير الإغريقية .

يهواها ، ذلك أنّي أمقت كلّ ما يعده الناس مشرّفاً محترماً من ضروب الكدح والمحن والبلايا ، أيّاً كان نوعها . فأنا أحبّ أن أهتم بشؤون نفسي دون أن أهتم بالسفن والمركبات المثلّثة الأشرعة والمثنّاة والشواني وهلم جرّا . وأنا أقرّ أنّ وظيفة الطبّاخ ذات مجدٍ وفير ، إذ الطبّاخ في السفينة يشبه أن يكون ضابطاً ، ومع ذلك لم يخطر لي أبداً أن أشوي الفراخ ، مع أنّ الفرخة إذا شُويت ، وأضيف اليها القدر اللازم من الزبد ، ومُلّحت وتبّلت في إحكام ، فلن تجد أحداً مثلي يستطيع أن يتحدّث عنها باحترام ، إن لم أقل بتوقيرٍ وإجلال . إنّ شغف المصريين القدماء بأبيس المشويّ وبفرس الماء المحمّرة هو الذي حدا بهم الى وضع مومياءات هذين الحيوانين في مخابزهم الضخمة التي يسمّونها «الأهرام» .

غير أنّي حين أذهب الى البحر أختار أن أكون بحّاراً بسيطاً يقف أمام الصاري ، ويسبر غور الماء أمام منارة السفينة ، ويصعد الى قمّة الصاري الملكي . حقّاً إنّ رؤسائي يأمرونني بهذا أو ذاك ، فأقفز من دقل الى دقل كأنني جندب ينطّ في المروج الربيعيّة ، ومثل هذا الأمر في البدء يكون مثار غمٍّ وكآبة ، إذ يجرح شعور المرء بالإعتزاز ، وبخاصة إنْ كان ينتمي الى إحدى العائلات العريقة[1] كبني رينسلار وبني راندولف والهرد كانوتيين . ولعلّه أشدّ شيء مساساً بالكرامة الذاتيّة إن كان المرء ـ قبل أن يغمس يده في برميل القار ـ معلّماً في مدرسة ريفيّة ، يحرّك يده الآمرة الناهية أمام طلابه ، فيجعل أطولهم قامة يقف في رهبةٍ وخشوع . دعني أؤكّد لك أنّ النقلة من وظيفة معلّم الى مهنة بحّار أمرٌ جادٌّ مرهف لايستطيع المرء أن يصرّ بأسنانه مكشّراً وهو يأخذه على عاتقه إلا إذا أثار حماسته لقبوله فيلسوفٌ مثل سنكا وسائر الرواقيين . إلا أن حدّة هذا الشعور تتضاءل بمرور الزمن .

أيّ عار في أن يستدعيني قبطان فظّ عبوسٍ ويأمرني أن أحضر مكنسة أنظّف بها ظهر السفينة ؟ تُرى أيّ درجة تبلغها هذه المهانة ـ أعني أيّ وزن تبلغه ـ في ميزان الإنجيل ؟ هل ينحطُّ قدري في نظر جبريل ـ سيّد الملائكة ـ لأنّي خففت بإحترام ملبياً أوامر ذلك الفظّ العبوس في ذلك الأمر عينه ؟ خبّروني أيّنا ليس خادماً ؟ اذن فمهما يأمرني القبطان العجوز ، ومهما يصيبني من صفعاته ولطماته فإنّي أراني راضياً لأنّي أعلم أنه لم يأت شيئاً إدّاً ، ولأنّي على يقين أنّ كلّ إنسان تقدّم له الخدمة على نحو أو آخر ، أي على نحو مادي أو معنوي ، وهكذا تدور اللطمة فتصيب كلّ الوجوه ، وتنزل اللكمة على كلّ منكب ، وحين أعلم كلّ ذلك يستولي عليّ الرضى .

---

(١) كانت عائلة ملفل نفسه عريقة ، اشتهر منها غير واحد ، وكان هو نفسه معلّماً ، والقطعة الأولى التي جعل عنوانها «فصل في الاشتقاق» وتحدث فيها عن المعلّم الشاحب المسلول إنّما يشير فيها الى نفسه في أغلب الظن ، ولعلّه أراد أن يقرن نفسه بمعلّمين صاروا أدباء مرموقين مثل روسو والدكتور جونسون .

ثمّ أنا أذهب الى البحر في صورة بحّار لأنّي أتقاضى أجراً عن كلّ أتعابي ، أمّا الذي يركب البحر مسافراً فإنه لايقبض درهماً واحداً ـ فيما أعلم . بل الأمر على النقيض إذ على المسافر أن يدفع أجراً وفي هذا نفسه كلّ ما في الكون من فرق بين الدفع والقبض . وربّما كان الدفع أسوأ عاقبة انزلها بنا لصّا الجنّة[١] . أمّا القبض ، فهل شيء يوازيه ؟ إنّ الحيويّة الوديعة التي يبديها المرء وهو يقبض نقوداً غاية في إثارة الإعجاب ، هذا مع أننا جميعاً نعتقد مخلصين أنّ المال أصل كلّ الشرور الدنيوية ، وأنّ الغني لايدخل باب السماء إلا حين يدخل الجمل في سمّ الخيط . ماأسرع ما نسلّم أنفسنا الى التهلكة راضين مستبشرين!

ثمّ أنا أختار دائماً أن أكون بحّاراً لأنّي أمارس رياضة بدنيّة مفيدة واستنشق هواءً نقيّاً عند منارة السفينة ، إذ الأمر في السفينة كالأمر في العالم الذي نسكنه ، أعني أنّ الرياح في المقدّمة أشدّ انتشاراً من الرياح في الكوثلة (هذا إذا أنت لم تنقضِ الحكمة الفيثاغورية السائرة)[٢] ولذلك فإنّ البحارة عند منارة السفينة يستنشقون الهواء أوّلاً ثمّ يسلّمونه الى الكومودور في موضعه خلف الدقل الكبير ، فيستنشقه وقد تبدّد جوهره ، وهو يظن مخطئاً أنه أوّل من يتلقّاه ، وبمثل هذه الطريقة يتحكّم المرؤوسون في رؤسائهم في شؤون أخرى ، والرؤساء غافلون عمّا يجري . لقد عبّأت رئتي من هواء البحر عدّة مرّات وأنا بحّار تاجر ، فما الذي أوحى اليّ أن أذهب هذه المرّة في رحلة لصيد الحيتان ؟ إنّ مصرّف الأقدار المحجوب وراء الغيب الذي يرعاني في كلّ خطاي ، ويحفزني سرّاً الى عمل ما أعمل ، ويسيطر عليّ بطريقة لاأستطيع تفسيرها ، هو وحده القادر على أن يجيب عن هذا السؤال . ولاريبَ في أنّ رحلتي هذه لصيد الحيتان تمثّل جانباً من ذلك المخطط العظيم الذي رسمته عناية الله منذ الأزل ، فقد جاءت نوعاً من الراحة القصيرة ، نوعاً من النغم المفرد بين فصلين كبيرين من رواية . ولعلّ ما خطّ في اللوح المحفوظ إنّما كُتب على النحو الآتي :

التنافس على الجولة الإنتخابيّة الكبرى لرئاسة الجمهوريّة في الولايات المتّحدة[٣]

رحلة لصيد الحيتان يقوم بها شخص يدعى اسماعيل

معركة دامية في أفغانستان[٤]

---

(١) في هذا إشارة الى قصة آدم وحوّاء .

(١) تنص الحكمة الفيثاغوريّة على الإمتناع عن أكل الفول « فذلك خير للمعدة ، وهذا يجعل الرؤى في النوم أقل اضطراباً وأشدّ هدوءاً » .

(٣) لعله يشير الى انتخابات عام ١٨٤٠ قبل إبحاره على السفينة أكوشنت .

(٤) قامت في كابول ثورة عام ١٨٤١ قتل فيها عدد من الضبّاط الانكليز .

لماذا خصّص لي مديرو المسرح ، أعني الأقدار ، هذا الدور الخسيس ، دور صيد الحيتان ؟ ولِمَ قدّروا لغيري أدواراً كبرى في تراجيديّات سامية ، وأدواراً قصيرة سهلة في كوميديّات ظريفة ، وأدواراً مفرحة في مجونيّات ضاحكة ؟ لست أعرف لذلك جواباً ملائماً ولكنّي حين أستعيد في ذاكرتي جميع الظروف والملابسات ، أعتقد أنّي قد أتبيّن بصيصاً يفصح عن جانب من المنابع والدوافع التي تسلّلت اليّ ماكرةً تحت شتّى ضروب التنكّر والتخفّي ، وأغرتني بالشروع في أداء ذلك الدور الذي قمت به ، هذا الى أنها داهنتني فجرّتني الى التوهّم بأنّ ما أدّيته إنّما اخترته بمحض إرادتي الحرّة السديدة وحكمتي الرشيدة .

وأقوى هذه الدوافع فكرةٌ مهيمنةٌ عن الحوت الكبير نفسه ، فمثل هذا الوحش المهوّل الغامض يثير لديّ رغبة في الكشف والتطلّع . ثمّ تلك البحار الموحشة النائية حيث يتدحرج الحوت بجثة كالجزيرة ضخامةً ، وأخطار الحوت ، تلك الأخطار التي لا أستطيع أن أتحدّث عنها أو أسمّيها بأسمائها ، وما يصحب ذلك من عجائب تقدّمها آلاف المرئيات والمسموعات عند محاذاة بتاغونيا ، كلّ هذه الأمور كانت عوامل تحكّمت بي لتوجّهني الى غايتي . وقد تعجز هذه الأمور نفسها على أن تغري أناساً آخرين ، أمّا أنا فإنّي امرؤ تعذّبه الحُرقة الدائمة نحو الأمور النائية . فأنا أعشق الإبحار في بحار ممنوعة والنزول على شواطىء موحشة همجيّة . وأستطيع ، دون أن أغفل عمّا هو خير ، أن أسرع الى إدراك الرعب ، كما أستطيع أن أكون مع الرعب على وئام ـ وليتهم يسمحون لي بذلك ـ إذ من الخير أن يكون المرء على وفاق مع كلّ ما في المكان الذي يحلّ فيه نزلاء .

لهذه الأسباب جميعاً رحبت صدراً برحلة صيد الحيتان ، وكأنّ عالم الأعاجيب فتح أبوابه أمامي على مصاريعها . وبين الأخيلة الغريبة التي حدتني الى غايتي أخذت تحوّم في آفاق روحي ، مثنى مثنى(١) ، مواكبُ مسترسلة من الحوت لاتنتهي ، وبينها جميعاً أرى شبحاً عظيماً مقلنساً كأنه تلّة ثلجيّة في الفضاء .

---

(١) يقارن ملفل هنا بين ازدواج الأخيلة في آفاق روحه وبين دخول الحيوانات في سفينة نوح «من كلّ زوجين اثنين» مشبّهاً روحه بالسفينة .

٢

حقيبة من القماش

دسست قميصاً أو اثنين في حقيبة قماشية عتيقة وطويتها تحت ذراعي ، وشرعت في رحلتي نحو رأس هورن والمحيط الهادي ، فغادرت مدينة منهاتو الطيبة القديمة ووصلت نيوبدفورد[1] دون إبطاء ، وكانت ليلة سبت في شهر كانون الأوّل (ديسمبر) ، ولشدّ ماكانت خيبة أملي حين علمت أنّ سفينة الركاب الصغيرة كانت قد أقلعت الى نانتوكت وأنّ ليست هناك من وسيلة لبلوغ ذلك المكان حتّى يوم الاثنين التالي .

إنّ معظم الشبّان الذين يرشّحون أنفسهم لتلقّي آلام صيد الحيتان وعقوباته يقفون في نيوبدفورد كي ينطلقوا من ثمّ في رحلتهم ، غير أنّي لم أكن أريد ذلك ولا خطر لي في بال ، إذ كنت قد أزمعت أن أبحر في سفينة نانتوكتية ، وذلك لأنّ شيئاً جميلاً مثيراً يتّصل بكلّ شيء ذي علاقة بتلك الجزيرة القديمة الشهيرة ، وكان ذلك الشيء الجميل المثير يبعث في نفسي سروراً وارتياحاً . نعم كانت نيوبدفورد قد أخذت تدريجياً تحتكر مهنة صيد الحيتان ، حتّى أصبحت نانتوكت القديمة المسكينة متخلّفة عنها في هذا المضمار ، ولكن هذه الثانية هي أمّ الأولى - هي صور التي ولدت قرطاجة - هي المكان الذي جُرّ فيه أوّل حوت أمريكي قتيل الى البرّ . هل تجمّع الحوّاتون الأُول - أولئك الرجال الحمر في قواربهم ليطاردوا الحوت (اللوياثان) ، إلا في نانتوكت ؟ ومن أين - إلا منها - اندفعت أوّل سفينة مغامرة وحيدة الصاري وقد شحنت فيها حمولة من الحصى - كذلك تقول القصّة - لتخذف بها الحيتان ، حتّى يكتشف الصيادون مدى اقترابها فيقذفوها بالرمح المريّش من محاذاة الدقل المائل الأمامي .

كان عليّ أن أقضي في نيوبدفورد ليلة ويوماً ، وليلة أخرى تتلوهما ، قبل أن أستطيع

(١) على الساحل الجنوبي من ولاية مساشوست ، على الضفّة الغربية من نهر أكوشنت ، أما فيرهافن فتقع على الضفة الشرقية ، وقد زار ملفل مدينة نيوبدفورد عام ١٨٤٠ يوم كانت أهم ميناء لزيت حوت العنبر .

الإقلاع الى الميناء المقدور ، ومن ثمّ وجدتني أفكّر في أمر الطعام والمنام . وكانت ليلة مريبة السحنة ، لا بل قاتمة شديدة القتام والكآبة ، مكفهرّة قارسة البرد . ولم أكن أعرف أحداً في تلك المدينة . وسبرت غور جيبي بأصابع قلقة كأنها الخطّاف فلم ترجع اليَ إلاّ ببضع قطع من الفضّة . ووقفت في وسط شارع مقفر ، وقد طرحت حقيبتي على عاتقي ، أقارن بين جهمة الأفق في الشمال وظلمته جهة الجنوب ، وفي وقفتي قلت لنفسي : حيثما ولّيت وجهك يا اسماعيل ، حيثما قدّرت لك حكمتك أن تأوي الى نزل في هذه الليلة ، ياعزيزي اسماعيل ، فكن على يقين من أن تسأل عن الأجر قبل أن تتورّط ، ولكن لاتمعن في التدقيق .

وذرعت الشوارع بخطىً متردّدة وجاوزت لافتة « الرماح المتقاطعة » . ولكن كان يبدو لي المكان الذي وصلت اليه باهظ التكاليف مفرطاً في المرح ، ومن أمامي كانت « حانة الحوت المسيّف » ترسل من نوافذها الحمر اللامعة أشعّة فيّاضة حتّى لقد بدا لي أنها أذابت الثلج والجليد المتراكم من أمام الحان ، إذ كانت كلّ بقعة سواها تحمل من الصقيع المتجمّد طبقة يبلغ سمكها عشر بوصات وتكوّن رصيفاً صلباً كالإسفلت ، وكان ذلك نفسه يكربني حين أنقل قدميَ على النتوءات الصوّانيّة ، لأنّ الخدمات الشاقة المضنية التي أدّاها نعلاي جعلتهما في حالة بائسة مزرية . وخطر لي مرّة أخرى أن المكان باهظ التكاليف مفرط في المرح ، وتوقّفت لحظة لأرقب اللألاء المنساب على أرض الشارع ، وأسمع قرع القوازيز والأكؤس في الداخل . وأخيراً قلت لنفسي : امضِ بنا يا اسماعيل ، ألستَ تسمع ؟ هيّا ابتعد من أمام الباب فإنّ حذاءيك المرقّعين يعرقلان المرور . ومضيت ، تقودني الغريزة في الشوارع المتّجهة نحو الماء ، إذ عند الشاطىء أجد ـ ولا ريب ـ أرخص الحانات والفنادق إن لم أقل أرحبها صدراً .

ياللشوارع الخاوية! كِسَفٌ من ظلماتٍ على الجانبين لا بيوت ، وهنا وهناك ذبالةٌ تنوس كأنّها شمعة منصوبةٌ في قبر . في تلك الساعة من الليل ، وفي آخر يوم من أيّام الاسبوع بدا ذلك الحيّ من المدينة كأنه خراب مهجور . ولكن سرعان مابلغت ضوءاً يعلوه الدخان منبعثاً من مبنى داني السقف واسع الباحة ، بابه مفتوح على مصراعيه كأنّما يرحّب بالداخلين ، وعليه سمة من الاستخفاف وعدم الإكتراث كأنّما أقيم ليفيد منه الجمهور ، ودخلت . وكان أوّل مافعلت أن وقعت متعثّراً بصندوقٍ للرمادِ في الدهليز . وحين كادت الذرّات المتطايرة تخنقني كنت أقول لنفسي : يالهذا البلد! أترى هذا رماد عامورة التي احترقت ؟ وتذكّرت « الرماح المتعارضة » « والحوت المسيّف » ، وقلت : لابدّ أن تكون هذه هي « المصيدة » ، ولملمت نفسي واستجمعت ناهضاً . وتقدّمت وأنا أسمع صوتاً عالياً يصدر من الداخل وفتحت باباً داخليّاً ثانياً .

وبدا لي كأنني أشهد البرلمان الأسود الكبير منعقداً في ظلمات توفه(الجحيم)[١] ، وإنّ مئات الوجوه تلفّتت في مقاعدها تتفرّس في القادم ، ومن دونها ملاك المنية الأسود يرتّل في كتاب فوق منبر ، كان المكان كنيسة للزنوج وكان حديث الواعظ عن ظلمة الظلام وعن البكاء والعويل وتحريق الأرّم هنالك . وتمتمت بيني وبين نفسي وأنا متردّد حائر : واهاً لك يا اسماعيل ، ما أتعسَ القِرى عند لافتة «المصيدة» .

وتقدّمت فبلغت أخيراً ضوءاً خافتاً غير بعيد عن أحواض السفن ، وسمعت في الفضاء صريراً بائساً ، وتطلّعت الى أعلى فرأيت علامة تتأرجح فوق باب وعليها طلاء أبيض يمثّل ـ على نحو باهت ـ فوّارة طويلة منتصبة ذات رذاذ ضبّابي وقد كتب تحتها : «حانة النفّاث لصاحبها بطرس التابوتي» .

وقلت لنفسي : تابوت ؟ نفّاث ؟ لفظتان كريهتان في تلك الحال . غير أنهم يقولون إنّ كلمة التابوت اسم شائع في نانتوكت ، وأظنّ أن بطرس هذا هاجر منها الى هذا البلد . ولمّا بدا لي النور باهتاً والمكان ـ لأوّل وهلة ـ هادئاً ، وبدا البيت الخشبي الصغير الذي تشعّث كأنما عُمّر من خرائب منطقة التهمتها النيران ولمّا أوحت لي اللافتة المتأرجحة أنّ الصرير الذي ترسله إنّما هو قرقعة الفقر والتعاسة ـ لمّا بدا كلّ ذلك كذلك قلت : لابدّ أن تكون هذه البقعة أرخص نزل ، وخير مكان تقدّم فيه قهوة الحمص .

كان نوعاً من البيوت غريباً ـ داراً قديمة تنتهي بَجَملون مفلوج من أحد جانبيه ـ إن صحّ التعبير ـ مائل على شقّه الآخر في أسى ، وتقع الدار عند زاوية حادة كئيبة حيث تظلّ الريح العاصفة أوروكليدون[٢] ترسل عواءً أسوأ من كلّ عواء كانت ترسله من حول سفينة بولس المسكين . وعلى ذلك فإنّ أوروكليدون نسيم قوي منعش لكلّ من استكنّ في البيت ، ووضع رجليه على المدفأة ليدفئهما قبيل النوم . يقول مؤلّف قديم أملك أنا من كتابه النسخة الوحيدة التي استعصت على الفناء : « حين تحكم على هذه الريح العاصفة التي تسمّى أوروكليدون فيجب أن تعيّن من أيّة الزاويتين تنظر اليها ، لأنّ الإختلاف بينهما ينشىء فرقاً مدهشاً في حكمك : أأنت ترمقها من وراء الشبّاك الزجاجي حيث يتجمّع الصقيع كلّه في الجانب الخارجي ، أم أنت ترقبها من خلال النافذة العارية التي لاإطار لها ، حيث يتجمّع الصقيع في الجانبين

---

(١) توفة : اسم مرتفعات في وادي ابن هنوم حيث جعل الاسرائيليّون الجاحدون أبناءهم يمرّون خلال النار الى الصنم في موكب ضلال وجحود (ارميا ٧ : ٣١ ـ ٣٢) . وذكره ملتن في «الفردوس المفقود» (١ : ٣ـ ٤) وقال : توفة هناك وجهنّم السوداء . . . ولعلّ ملفل رأى في نيوبدفورد كنيسة للزنوج فقد كان لهم فيها كنيسة يوم ذهب في السفينة الاكوشنت .

(٢) هي الريح التي حطمت سفينة بولس ، جاء في أعمال الرسل (٢٧ : ١٤) ولكن بعد قليل هاجت عليها ريح زوبعيّة يقال لها أوروكليدون .

الخارجي والداخلي ، وحيث يكون شخص الموت هو الزجاج الوحيد » . وحين خطرت هذه العبارة ببالي قلت في نفسي : حقاً أيها الأديب القديم إنك لذو منطقٍ سديد . نعم هاتان العينان هما النافذتان وجسدي هذا هو الدار ، ياليت الناس رأبوا هذه الصدوع وسدّوا هذه الثقوب وجعلوا هنا وهناك سطاماً أو نسالة . لكن لاتَ حينَ اصلاحٍ وترميمٍ . فقد تكوّن الكون ، ووضع حجرَ الزاوية في البناء ، وسوّيت الشظايا منذ مليون عام . مسكين هو لعازر يغرز أسنانه كالمنشار في صوّةٍ من الصوى ليتّخذها وسادة ، وترتجف فوقه أسماله كلّما اهتزّ وارتعش ، وقد يسدّ كلتا أذنيه بالخرق ، وقد يضع في فمه قرصة قمح ، ومع ذلك فإنّ هذا كلّه لن يحميه من الريح العاصفة أوروكليدون . ويقول دايفس الشيخ[1] وهو ملفّع بمعطفه الحريري الأحمر (ومن بعد أصبح لديه معطف أشد حمرة من الأول) : أوروكليدون! أح! أح! ماأجملها من ليلة ذات صقيع! ماأشدّ لألاء الجوزاء! أيّ أنوار تجيء من الشمال ؟ دع المتحدّثين يتحدّثون عن المناخ في صيفهم الشرقي ذي الاهراء الخالدة وأعطني الحق في أن أصنع لنفسي صيفاً بإيقاد النار .

لكن مارأي لعازر ؟ هل يستطيع أن يدفئ يديه الزرقاوين بأن يرفعهما في وجه الأنوار الشمالية العظيمة ؟ ألا يؤثر لعازر أن يكون في سومطره بدلاً من أن يكون هنا ؟ ألا يؤثر أن يستلقي على خطّ الإستواء ؟ بلى أيها الأرباب! بل يؤثر أن يذهب الى قرارة السعير ليبعد عن نفسه هذا الزمهرير .

فإذا قلت لك أن لعازر استلقى هناك منطرحاً ورأسه على الصوّة أمام باب دايفس فهذا أمر أشدّ إثارة للدهشة من أن تسمع بأنّ جبلاً من الجليد قد أرسى عند إحدى جزائر مالوقا[2] . غير أنّ دايفس نفسه يعيش كأنه قيصر روسي في قصر من الجليد[3] مصنوع من التنهّدات المتجمّدة ، وبما أنه رئيس هيئة اجتماعيّة تحرّم الخمور فإنه لايشرب إلا العبرات الحرار التي يسكبها اليتامى .

ولكنْ حسبنا بكاء فنحن ذاهبون لصيد الحوت ، ولابدّ لنا من دموع غزيرة من بعد . أمّا الآن فلنكشط الجليد عن أقدامنا المتجمّدة ، ولنحاول أن نرى أيّ نوع من المكان هو حانة « النفّاث » .

---

(١) وردت قصة لعازر والرجل الغني في إنجيل لوقا(١٦ : ١٩ـ ٢١) ولم يعيّن الإنجيل اسم ذلك الغني . وإنما ورد اسمه DIVES في بعض كتب الرحلات .

(٢) جزائر مالوقا أو جزائر البهار تشمل كلّ الجزر الواقعة في أرخبيل الملايو .

(٣) كان يقام في بطرسبورج قصر من الجليد كلّ عام يضوأ بالشموع والمشاعل خلال أحد الأعياد .

٣

حانة النفاث

إذا أنت دخلت حانة النفاث التي تنتهي بجملون وجدت نفسك في مدخل فسيح متطامن مضلّل ، ذي طراز عتيق من الأفاريز ، يذكّر المرء بهيكل سفينة عتيقة قبيحة المنظر . وقد علق في أحد جوانبها لوحة زيتيّة كبيرة ، لوث الدخان صفحتها وانطمست معالمها ، حتّى أنّك لا تستطيع أن تستبين فكرتها وأنت تنظر اليها تحت الأضواء المتعارضة غير المتكافئة التي كشفتها لعينيك عند دخولك إلا بالتفرّس المستمر والزيارات المتكرّرة المنظّمة ومساءلة الجيران . إنها كتل من الظلال والأخيلة لامغزى لها حتّى تكاد تظنّ أنّ الرسام الذي أوجدها فنان شاب طموح كان يعيش في عصر سواحر نيوانجلند وحاول أن يمثّل بها صورة الفوضى الكونية حين تلمسها كف السحر . بعد قسطٍ كبير من التأمّل المخلص والتفكّر المثابر المكرور ، وبعد أن تفتح النافذة الصغيرة الواقعة نحو الخلف من المدخل ، تستنتج أخيراً أنّ هذه الفكرة التي خطرت لك ـ أيّاً كان حظّها من الغرابة ـ لها مايؤيّدها .

غير أنّ أشد مايحيّرك في الصورة ويعييك فهمه منها إنّما هو كتلة طويلة لدنة مهولة سوداد تتذبذب في وسط الصورة فوق خطوط ثلاثة زرق معتّمة عمودية عائمة في زبد لايعرف كنهه . إنها صورة بليلة موحلة نزّازة طحلبيّة لو رآها امرؤ عصبي المزاج لتركته مشتّت الخواطر ، غير أن فيها لوناً من الروعة يعزّ على التحديد والتصوّر الكامل ، ولايُدرك إلا بعض ادراك ،. لوناً يأسرك ويوثّق عينيك بها حتّى لتقول : آليت على نفسي لأجدنّ مغزى هذا الرسم العجيب .

وتتساءل على مخيلتك توّاً خواطر برّاقة إلا أنها ـ ويالَلأسف ـ خادعة : إنها صورة البحر الأسود وقد هبّت عليه النسمات في منتصف الليل ، إنها الصراع الشاذ بين العناصر

الأربعة ، هي مرج أتلفه حاصب ، لعلّها منظر شتائي في هيبربور ، ربّما كانت صورة إنفجار نهر الزمن الذي يحتضنه الجليد على الجانبين . ثمّ تتراجع هذه الخيالات حسيرة أمام ذلك الشيء المهول الذي يحتل وسط الصورة ، لأنّك إذا عرفت سرّه ، فكل ماعداه هيّن ميسور . على رسلك! أليس فيه شبه يسير من سمكة ضخمة بل شبه من الحوت العظيم نفسه ؟

والواقع أنني عرفت فكرة الفنان ، وكان ماتوصّلت اليه نظرية حاسمة كوّنتها بنفسي ، إلا أنّ بعضها مبنيّ على آراء جمعتها من شيوخ كثيرين تحدّثت اليهم في الأمر ، وخلاصة ما هنالك أنّ الصورة تمثّل رجلاً من رأس هورن في عاصفة شديدة ، وقد غاصت سفينته هنالك فأصبحت شبه غريقة لايرى منها إلا صواريها الثلاثة معطّلة ، وفي الصورة حوت ساخط محنق يريد أن ينقضّ على السفينة ، وتكاد تقول إنه لشدّ تحفّزه سيتسنّم في وثبته رؤوس الصواري الثلاثة .

أمّا الجدار المواجه للمدخل فقد علّقت عليه صفوف من الهراوات الضخمة والحراب ، وبعضها قد رصّع بأسنان لامعة تشبه مناشير العاج ، وبعضها الآخر قد جعلت عليه جمّة من خصل شعر الإنسان ، وكانت إحداها في هيئة منجل ذي مقبض ضخم تتأرجح يمنة ويسرة كأنها القطّاع الذي خلفه في عشب حصده حديثاً حصاد طويل الذراع . وحين يحدّق فيها الناظر تعتريه رعشة ودهشة : ترى أيّ متوحّش مخيف آكل للحوم البشرية كان يحمل هذه الأداة المرعبة المذرّبة ليحصد بها الأرواح كأنه الموت . وبين هذه الأدوات حراب ورماح قديمة صدئة ممّا يستعمل في صيد الحيتان ، وكلّها مكسّر مشوّه . ولبعض هذه الأسلحة قصص وحكايات : بهذه الحربة التي كانت ذات يوم طويلة وأصبحت اليوم معقوفة على نحوٍ غريب ، قتل ناثان سوين[1] ، منذ خمسين عاماً ، خمسة عشر حوتاً بين شروق الشمس وغروبها . وذلك الرمح الذي غدا اليوم مثل البريمة ، قذف في بحار جاوه ، فأصاب حوتاً ندّ به هارباً ، وبعد سنوات قتل ذلك الحوت بعيداً عن رأس بلانكو[2] . لقد دخل سنّ الرمح في جسمه عند الذنب ثمّ تسرّب فيه أربعين قدماً كاملة ، كما تتسرّب الإبرة القلقة وتتغلغل في جسم الإنسان ، وأخيراً وجد ذلك السنّ دفيناً في حردبته .

فإذا أنت عبرت هذا المدخل المعتّم ومضيت في الطريق ذات الأقواس المتدنية ، ولعلّها طريق تخترق ماكان في الأيام القديمة مدخنة ضخمة فوق مواقد تحيط بها من كلّ جانب ، فإنّك تدخل الغرفة العامة ، وهذا مكان أشدّ ظلمة من الأوّل منخفض السقف ، قد صفّت في سقفه « مورينات » خشبية ضخمة ، وفرشت أرضه بألواح خشبية قديمة متغضّنة ، حتّى

---

(١) لعلّه هو نفسه الحوّات الذي سيتحدّث عنه فالج في أواخر الفصل ١٨٠ باسم نات سوين .

(٢) هناك عدّة مواقع تعرف بهذا الاسم ، ولعلّ المعنى هنا هو الرأس بلانكو (الأبيض) في بيرو شمالي بايتا .

لتكاد تتخيّل وأنت تدوس عليها أنك تمشي على أرض « قمرات » سفينة عتيقة ، وبخاصة في تلك الليلة التي تعوي فيها الريح وتهزّ هذه الفُلك البالية الراسية في تلك الزاوية هزّاً عنيفاً . وفي أحد الجوانب تقوم مائدة مديدة قميئة تشبه الرفَ قد غطّيت بصناديق زجاجيّة مصدوعة مشدوخة ، تملؤها أشياء نادرة علاها الغبار ، جمعت من أقصى أرجاء المعمورة . وفي الزاوية القصوى من الغرفة يقوم كهف معتّم هو خزانة الشراب « البار » ، وشكله محاكاة غير متقنة لرأس حوت ، وأيّاً كان شأنه فهناك فكّ الحوت المقوّس ، وهو من السعة بحيث يمكن لعربة أن تمرّ تحته . وفيه رفوف مهترئة صفّت عليها الأباريق القديمة والقناني والقوازيز . وبين فكّي هذا الدمار الوحي شيخٌ بالٍ صغير الجسم منهمك في عمله كأنه يونان آخر ملعون (بل إنهم ينادونه باسم يونان)[١] وهو يبيع البحّارة البُحران والموت ـ لقاء مالهم ـ بيعَ الغلاء .

كريهة هي الأقداح التي يصبّ فيها ذلك السمّ . اسطوانيّة الشكل من خارج هي تلك الكؤوس الخبيثة الخضر الجاحظة أمّا في داخلها فإنها تستدق وتستدق حتّى تفضي الى قرارة خادعة ، وقد رصّع الزجاج ـ دون إتقان ـ بخطوط متوازية تحيط بهذه الأقداح التي تشبه ممسحة الأقدام . يقول الشارب : صبّ حتّى هذه العلامة ، وذلك يكلّفه بنساً واحداً ، فإذا بلغ الشراب العلامة التالية كلّف بنسين ، وهلمّ جرّا حتّى تمتلئ الكأس ـ وهي المكيال الذي يستعمله أهل رأس هورن ـ وثمنها شلن واحد .

وحين دخلت المكان وجدت عدداً من البحّارة الشبّان قد تجمّعوا حول طاولة يتفحّصون على ضوءٍ خافت « عينات » متنوّعة من تحف صغيرة يصنعها البحّارة ويسمّونها Skrimshander[٢] ، وبحثت عن صاحب الحان ، وحين لقيته أخبرته أنّي أريد غرفة ، فأجابني أنّ داره مليئة بالناس وليس فيها سرير واحد خالٍ ، ثمّ استدرك وهو يدقّ على جبهته بيده : « على رسلك! لاأظنّ لديك مانعاً في أن تشارك صيّادَ حيتان غطاءه ؟ أليس كذلك ؟ أعتقد أنّك ذاهب للتحويت ، ومن الخير لك أن تتعوّد هذا الأمر » .

وأخبرته أنني لم أحبّ أبداً أن أشارك شخصاً آخر فراشه ، وإذا كان عليّ أن أفعل ذلك أبداً ، فهذا شيء يعتمد على هويّة الحوّات ، فإن لم يكن لديه ـ أي رب النزل ـ مكان آخر يهيّئه لي ، ولم يكن لدى الحوّات ممانعة وتشدّد ، فإني لا أوثر أن أشارك أيّ أمرئ شريف لحافه على أن أضرب في شوارع مدينة غريبة في مثل تلك الليلة المريرة .

ـ « كذلك قدّرت! حسناً . تفضّل . عشاء ؟ أتريد عشاءً ؟ سيكون العشاء جاهزاً توّاً » .

---

(١) انظر الفصل التاسع في مايلي .

(٢) أخذت معنى هذه الكلمة من تعريف ملفل لها في الفصل ٥٧ وهي كلمة سامية مختلف في تهجئتها ، وأشيع صورها Scrimshaw .

وجلست على « مدٍّ » خشبي قديم ، تخدّد وجهه كأنه مقعد فوق السدّ العتيد في منهاتو ، ورأيت في أحد طرفيه فعل نوتي دؤوب أخذ يزيّنه بمديته الصغيرة ، وتخيّلته كيف انحنى وأكبّ يعمل في حفر المسافة الواقعة بين رجليه ، وقلت لنفسي : لعلّه جرّب مهارته في سفينة مطلقة الأشرعة إلا أنه لم يحرز نجاحاً .

وأخيراً دعي أربعة أو خمسة منّا الى تناول الطعام في غرفة مجاورة ، كانت باردة كأنها ايسلندة ، لا نار فيها أبداً ، إذ زعم ربّ النزل أنه يعجز عن القيام بإعدادها ، ولم يكن ثمّة سوى شمعتين كنيبتين مصنوعتين من الشحم وقد وضعت كلّ منهما في غلافٍ مفتول . وسررنا إذ قيّض لكلّ منّا أن يزرّ « صدرة السعدان »[1] على جسمه ، وأن يرفع الى شفتيه كوباً من الشاي الساخط فوق أصابع تجمّدت أو تكاد . إلا أنّ السفرة كانت من النوع الخصب الغني إذ لم تقتصر على اللحم والبطاطس ، وإنّما كانت تشمل أيضاً الفطير السّكري . يالله! فطير للعشاء! وأقبل شاب يلبس معطفاً أخضر سميكاً على ذلك الفطير إقبالاً مفزعاً مروّعاً .

فقال ربّ النزل : « يا بني أنا متيقّن أنّ الكابوس سيتلبّسك الليلة » .

فهمست : « أيها السيّد ، هذا الفتى لاأظنّه الحوّات ، أتراه هو ؟ » .

فقال ربّ النزل وقد ارتسمت على وجهه إمارات مرح شيطاني : « لا . لا . إنّ الحوّات فتى ذو سحنة سوداء وهو لا يأكل الفطير أبداً . أبداً لا يأكله . لا يتناول إلاّ الشرائح المشويّة ويحبّها حبّاً جمّاً » .

فقلت : « قبّحه الله ، ولكن أين هو هذا الحوّات ؟ أهو هنا ؟ » فأجابني : « سيحضر عمّا قليل » .

وبدأ الريب يساورني في أمر هذا الحوّات الأسود ، وما استطعت لريبي دفعاً . ثمّ حزمت أمري وقلت لنفسي : إذا إتّفق أن نمنا تحت لحافٍ واحد فعليه أن يخلع ثيابه وأن يأوي قبلي الى السرير .

انتهى العشاء ، وعادت الجماعة الى غرفة الشراب ، وإذ لم أكن أعرف ما يمكن أن أفعله قرّرت أن أصرف ماتبقّي من المساء في المشاهدة والتطلّع .

وعلى التوّ سمعنا جلبة في الخارج ، وصاح ربّ النزل وهو يبادر للنهوض : « هؤلاء بحارة الباخرة « الغرمبوز »[2] » . رأيتها اليوم على مسافة من الميناء . استغرقت رحلتها ثلاث سنوات . سفينة محمّلة بالمشحونات . مرحى . أيّها الفتيان ، سنسمع آخر الأنباء من جزر فيجي » .

---

(١) هي صدرة ضيقة يلبسها البحّارة .

(٢) الغرمبوز : اسم لنوع من الحيتان ، سيجيء تصنيفه في الفصل ، ٢٢ ، وقد قال فيه ملفل هنالك : « يرى بعض الصيادين أنّ ظهوره ارهاص بأنّ حوت العنبر العظيم على الاثر » .

وسمعنا وقع أحذية البحارة في المدخل . وانفتح الباب على مصراعيه ، ودلف الينا مجموعة غريبة من الملاحين ، تدثّروا بمعاطفهم البحرية الخشنة ، وقنّعوا رؤوسهم بغفارات صوفية كلّها بالٍ ممزّق ، وقد تلبّدت لحاهم بما علق بها من ذلاذل جليدية ، وكأنهم في ذلك الزيّ قطيع من الدببة انطلقوا من لابرادور . لتوّهم نزلوا البرّ من قاربهم ، وكان هذا أوّل بيت يدخلونه ، فلا عجب إذن أن يمموا عامدين صوب فك الحوت ، أعني خزانة الشراب ، فتلقّاهم يونان العجوز الأعكش ـ في حركته الدائبة ـ وأترع الكؤوس ـ في الحال ـ لهم جميعاً . وكان أحدهم يشكو «نزلة» في الرأس ، لذلك مزج له يونان دواءً كالقطران من شراب الجنّ والدبس معاً ، وأقسم أنه سيّد الأدوية جميعاً لعلاج أنواع البرد والزكام ، أيّاً ما كان عمر المرض وقدرته على المقاومة وسواء في ذلك أعَلِقَهُ المريض عند شاطىء لابرادور أو وهو في مهبّ الريح الصادرة عن جزيرة ثلجية .

وسرعان ماصعد الشراب الى رؤوسهم ، مثلما يفعل دائماً ، حتّى ولو كان شرابه أخبث السكّيرين الذين نزلوا الى البر حديثاً ، فبدأوا يثبون ويصخبون .

ولمحتُ أنّ أحدهم يقف متنحّياً عن رفاقه . لم يكن يرغب في أن يفسد عليهم جذلهم بما يعلو وجهه من صحوٍ رزين ، إلاّ أنه على الجملة تحاشى أن يحدث صخباً كصخبهم ، وراقني هذا الرجل على التوّ ، وبما أنّ أرباب البحر قد قدّروا له أن يكون من بعد رفيقي في السفينة (أمّا عند هذا الحدّ من قصّتي فهو رفيق في نزل) فإنّي سأجرّب قلمي في وصفه : تبلغ قامته ستّة أقدام ،ذو كتفين مهيبتين وصدر كخزّان الماء في السفينة ، وقلّما رأيت لدى رجلٍ ما رأيت فيه من قوّة عضليّة . كان وجهه برونزي اللون ملوّحاً بالشمس ، فإذا انفرجت شفتاه عن أسنانه التمعت بشدّة ، وفي الظلال العميقة المطيفة بعينيه ذكريات حائمة لاتبعث في نفسه كثيراً من الجذل . وحين سمعت صوته عرفت أنه من أهل الجنوب ، وقدّرت حين رأيت قامته الجميلة أنه أحد الجبليين الفارعين من سلسلة اليغانيا في ولاية فرجينيا . وعندما بلغت العربدة لدى رفاقه ذروتها انسلّ خارجاً دون أن يلحظه أحد ، ولم أره إلا عندما أصبح رفيقي في البحر . وفي بضع دقائق افتقده رفاقه ، ويبدو أنه كان أثيراً لديهم جميعاً ، فرفعوا عقانرهم يصيحون : «بلكنجتون . بلكنجتون . أين بلكنجتون ؟» وانطلقوا من البيت يبحثون عنه .

أصبحت الساعة تقترب من التاسعة وبدا كأنّ قوى غيبيّة ضربت على الغرفة غشاء من الهدوء بعد ذلك القصف ، وبدأت أهنّىء نفسي على خطّة صغيرة خطرت لي قبيل قدوم البحّارة :

لا إنسان يؤثر أن يكون أحد اثنين في سرير واحد ، بل لعلّ المرء يتحاشى أن يشارك أخاه لحافه . لست أدري لِمَ كان ذلك كذلك ولكنّي أعلم أنّ الناس يفضّلون الوحدة حين ينامون . وإذا كان الأمر أن ينام المرء مع شخص غريب لايعرفه في فندق غريب في مدينة غريبة ، وذلك الشخص الغريب صيّاد حيتان فإنّ اعتراضاته تتوالى الى ما لا نهاية . وليس في الوجود سبب يجعلني دون سواي من الناس ، وأنا البحّار ، أشارك رجلاً آخر فراشه ، ذلك أنّ البحارة لا يشاركون غيرهم أسرّتهم وهم في البحر ، مثلما أنّ العازبين من الملوك لا يفعلون ذلك وهم على البر . حقّاً إنهم جميعاً ينامون في غرفة واحدة ولكن لكلّ امرئ منهم ارجوحته ولكلّ منهم بطّانيته ، وكلّ منهم يستقلّ بإهابه .

وكلّما أنعمت التفكير في أمر ذلك الحوّات ازداد مقتي لفكرة النوم معه . وكان من حقّي أن أفترض أنه مادام صيّاداً فإنّ الكتان الذي يلبسه أو الصوف ـ حسبما كان الأمر ـ قد يكون من أقل الأنواع نظافة أو أنه على وجه اليقين ليس من أجملها . وبدأت أختلج حتّى عمّ الإختلاج بدني كلّه ، ثمّ : لقد مضى قطع كبير من الليل وقد آن لذلك الحوّات الأريب أن يعود وأن يكون قد ذهب إلى السرير ، هب أنه جاء وأوى الى فراشه فوق جثّتي في منتصف الليل ـ كيف أعلم من أيّ وكرٍ لعينٍ انسلّ قادماً ؟

ـ « ربّ النزل! غيّرت رأيي حول ذلك الحوّات ـ لن أنام معه وسأجرّب هذا المقعد » .

ـ «اعمل مايرضيك . آسف إذ لا أستطيع أن أقدّم لك غطاء طاولة لتستعمله مفرشاً . وهذا الخشب كزّ لعين» ، وأمرّ يده يتحسّس مافيه من عقد وأخاديد . «لكن مهلاً ياتحفتي الصغيرة! ، لديّ في غرفة الشراب فارة نجّار . سأكفل لك الراحة المسترخية هنا» . وما أن تفوّه بهذه الكلمات حتّى أسرع فأحضر الفارة ، ونفض الغبار أوّلاً عن المقعد بمنديله الحريريّ العتيق ، ثمّ انحى على الخشبة سحجاً قويّاً وقد كشّر عن أنيابه كالقرد . وأخذت النشارة تطير يمنةً ويسرةً حتّى ارتطمت الفارة أخيراً بعقدةٍ عقداء لايمكن تحطيمها . وكاد ربّ النزل أن يوهن رسغه وأنا استحلفه أن يكف ، فإنّ السرير قد أصبح أملس ناعماً ممهّداً لجنبي ، ولست أعلم كيف يمكن لأيّ سَحْجٍ في الكون أن يصنع ريش نعام من لوح خشب الزان . ورسم ربّ النزل تكشيرة أخرى وأخذ يجمع النشارة وألقى بها في الموقد الكبير القائم في وسط الغرفة ومضى لطيّته وخلفني في تفكير قاتم .

قست طول المقعد فوجدته ينقص قدماً عمّا يكفيني ، وقلت : ذلك أمر ميسور الحلّ إذا أنا وصلت به كرسيّاً ، ولكنّي وجدت عرضه ينقص قدماً أيضاً ، وكان المقعد الآخر في الغرفة أعلى من الذي سحج بالفأرة بمقدار أربع بوصات ، فلا أمل في جمعهما معاً . وضعت

المقعد الأوّل طوليّاً في البقعة الوحيدة الخالية بموازاة الحائط وتركت بينه وبين الحائط فضاءً صغيراً ليطمئن فيه ظهري ، ولكن سرعان ماوجدت أنّ تيّاراً من الهواء البارد تدفّق عليّ من تحت اسكفّة الشبّاك ، فاستيقنت أنّ هذه الخطّة لاتجدي شيئاً خصوصاً وأنّ تياراً آخر من الباب الخائر الكسيح أخذ يلتقي بالتيار المندفع من الشباك ويكوّن الإثنان سلسلة من الدوّامات الصغيرة بجوار البقعة التي قدّرت أن أمضي الليلة فيها .

وقلت لنفسي : ليت الشيطان يحضر ذلك الحوّات ، لكن مهلاً! ألا أستطيع أن أكسب الجولة منه فأغلق الباب بالمزلاج من داخل ، وأثب إلى فراشه ثمّ لا أستيقظ ولو سلّطوا على الباب أعنف الدقّ ؟ بدت لي فكرة غير رديئة ثمّ نفيتها عن خاطري عندما أعدت فيها النظر ، اذ من يدري ، ربّما وجدت الحوّات في الصباح ، حين أطلّ من الغرفة ، واقفاً في المدخل على أهبة أن يجندلني أرضاً .

ونظرت حولي مرّة أخرى فلم أجد فرصة ممكنة لقضاء ليلة محتملة إلا في سرير شخص آخر ، وعندئذ بدأت أحسّ أنني ربّما غرست في نفسي هوىً لاداعي له ضدّ حوّات لا أعرفه ، وقلت : أنتظر برهة فقد يهبط عليّ قبل مضي وقت طويل ، عندئذ أتفرّس فيه وربّما وجدنا الرفقة في سريرٍ واحدٍ سارّة . لا أحد يدري .

وظلّ النزلاء الآخرون يفدون واحداً واحداً ومثنى مثنى وثلاث ثلاث ويذهبون الى النوم إلا هو فلم يلح له طيف . وقلت : «ربّ النزل! أيّ نوع من الفتيان هو ـ أيتأخر دائماً في عودته ؟» وكانت الساعة قد كادت تدقّ الثانية عشرة .

وابتسمَ ربّ النزل ابتسامته الواهية مرّة أخرى وبدا كأنّ شيئاً يجاوز إدراكي يدغدغه بقوّة . وأجابني قائلاً : «لا . على وجه العموم هو طير لايغيب عن عشّه . ينام باكراً وينهض باكراً . نعم هو الطائر الذي يلتقط الدودة . غير أنه خرج الليلة يبيع متجوّلاً ، ولست أدري أي شيء أخّره ، إلا أن يكون قد عجز عن أن يبيع رأسه» .

«عجز عن أن يبيع رأسه ؟! أيّ قصّة محيّرة هذه التي تقصّها عليّ ؟» واستبدّ بي الغضب ، ومضيت أقول : «هل تودّ أن تقول إنّ هذا الحوّات منهمك ليلة السبت هذه ، أو على الأصحّ صباح الأحد ، في عرض رأسه للبيع في المدينة ؟» .

فقال : «تماماً . وقد قلت له أنه لن يستطيع بيعه هنا ، لأنّ السوق بلغت حدّ الإكتفاء أو يزيد» .

فصرخت : «حدّ الإكتفاء من أيّ شيء ؟»

ـ «من الرؤوس يقيناً . أليس في العالم رؤوس كثيرة جداً ؟»

فقلت : « أودّ أن أصارحك أيها السيد ، من الخير لك أن تكفّ عن غزل هذا الخيط . فأنا لست غرّاً غمراً » .

فقال وهو يبري من العصا خلالاً يغرزه بين أسنانه :

« لعلّك لست غرّاً ، ، ولكنّي أظنّ أنّ وجهك سيسودّ إذا سمع ذلك الحوّات أنّك تسخر من رأسه » .

فقلت وقد هاج غضبي من جرّاء هذا الخلط الذي لا أجد له تعليلاً وصاحب النزل يواجهني به : « بل سأكسر ذلك الرأس » .

فقال : « ولكنه مكسور » .

قلت : « مكسور! تعني أنه مكسور ؟ »

ـ « دون ريب . وذلك هو السبب الذي يحول دون بيعه ، فيما أحسب » .

عندئذ انتحلت بروداً كبرود جبل هقلا إبان عاصفة ثلجيّة وقلت له : « أيها السيّد ، يارب النزل ، كفَّ عن بَريْ هذه العصا . علينا أنا وأنت أن يفهم أحدنا الآخر ، وأن يتمّ ذلك دون إبطاء . ها أنا أجيء الى دارك لأكتري سريراً فتقول لي : لا أستطيع أن أقدّم لك إلا نصف سرير إذ النصف الثاني أصبح من نصيب رجل حوّات لم أره أنا بعد ، بينا تصرّ أنت على أن تخبرني عنه أشد القصص إثارة للحيرة والهياج ، كأنما تريد أن تولّد في نفسي شعوراً مقلقاً نحو رجل قرّرت أن يكون شريكي في سرير ـ والشراكة في السرير ، أيها السيّد ، ألفة وثيقة سرّية من أرفع طراز ، فأنا أطلب اليك أن تدلّني على هويّة هذا الحوّات وماهيّته وهل اذا اعتبرت الأمر من كافة وجوهه ـ أظلّ سالماً اذا أنا قضيت الليلة معه . وأودّ في المقام الأوّل أن تكفَّ عن سرد تلك القصة ـ قصة بيعه لرأسه ـ فإني أعدّها ، إن هي صحّت ، شاهداً قوياً على جنونه المطبق ، وما كنت لأنام مع رجلٍ مجنون . وأنت ياسيدي ، أعني أنت ياربَّ النزل ، أي أنت نفسك ياسيدي ، حين تحاول عامداً متعمّداً أن تغريني بالمبيت معه تعرّض بذلك نفسك للمقاضاة على جرم » .

وأخذ ربّ النزل نفساً طويلاً وقال : « اشهد انّ هذه موعظة طويلة من فتىً يشتد به الهياج فيرسل هُجرَ القول أحياناً . هدّىء من روعك . هذا الحوّات الذي حدّثتك عنه وصل حديثاً من البحار الجنوبية حيث اشترى عدداً من الرؤوس الزيلندية المحنّطة (طُرفة من الطُرف كما تعلم) وقد باعها جميعاً إلا واحداً ذهب يسعى ليبيعه الليلة ، إذ غداً هو الأحد ، ولا معنى لأن يجوب الشوارع ليبيع رؤوس آدمية والناس غادون الى الكنائس . لقد أراد أن يفعل ذلك يوم الأحد الماضي فاستوقفته وهو خارج من الباب ومعه أربعة رؤوس قد سلكها في خيط حتّى كأنها « مشكاك » من البصل .

هذا الشرح فسّر ما ظلّ لولاه لغزاً لا يحلّ ، ودلّني على أنّ ربّ النزل لم يخطر له أن يسخر منّي . ولكن ما هي نظرتي أنا ـ في الوقت نفسه ـ الى حوّات مكث طوال ليلة السبت حتّى أدركه صبح الأحد وهو منهمك في عمل وحشي ، أعني بيع رؤوس موتى وثنيين ؟

ـ « صدّقني أيها السيّد إنّ هذا الحوّات رجل خطر » .

فردّ قائلاً : « هو رجل لايخلّ بدفع الأجر . لكن هيّا لقد فات الليل . ومن الخير أن تجرّب بختك ـ فالسرير مريح . نمت فيه أنا وزوجتي سال ليلة اقتراننا . فهو يتّسع لإثنين يسرحان فيه ويمرحان . سرير جبّار كبير . كانت سال قبل أن نتخلّى عنه تضع عند قاعدته ابنينا سام وجوني الصغير . لكنّي في إحدى الليالي رأيت مناماً وأخذت أتقلّب وأنا نائم ، كما أنّ سام وقع على الأرض وكاد يكسر ذراعه . بعدئذ قالت لي سال : لاخير فيه . تعال معي . سأدعك تلقي عليه نظرة خاطفة . وعندها أضاء شمعة وحوّلها نحوي وأشار اليّ أن أتبعه . غير أنّي وقفت متردّداً . ونظر هو الى الساعة في الزاوية وهتف قائلاً : « أقسم أن الأحد قد حل . لن ترى ذلك الحوّات الليلة . لقد ألقى مراسيه في مكان آخر . تعال . بالله عليك تعال . ألا تجيء ؟ » .

نظرت في الأمر برهة وتبعته على الدرج ، فأدخلني غرفة صغيرة باردة كالمحارة ، مؤثثة بسرير ضخم يتّسع حقاً لأربعة حوّاتين ينامون فيه وقد افترشوا صدورهم .

وضع ربّ النزل الشمعة على صندوق بحري قديم عجيب يؤدّي مهمّتين : فهو حامل للمغسلة وهو طاولة متوسّطة ، وقال : « يلاّ... الى الراحة . وتصبح على خير » . ورفعت عيني عن السرير وتحوّلت لأنظر اليه فوجدته قد غادر الغرفة .

انحنيت فوق السرير بعد أن طويت غطاءه . لم يكن شيئاً بالغ الأناقة ولكنّه كان مظنة التحمّل للإمتحان . أدرت بصري في الغرفة فما رأيت الى جانب السرير والطاولة المتوسّطة من أثاث سوى رف خشن ، والجدران الأربعة ، ولوحة من الورق ترتسم عليها صورة رجل يطعن حوتاً . أمّا الأشياء التي وضعت في الغرفة وليست من أثاثها الدائم فقد رأيت منها أرجوحة مطوية ملقاة على الأرض في إحدى الزوايا ، ورأيت كيساً بحرياً كبيراً يحوي ملابس الحوّات وهو لا ريب يقوم في البحر مقام الحقيبة على البر . وهناك أيضاً على الرف فوق الموقد صنّارات غريبة من عظام السمك ، ورمح مريّشٌ طويل عند رأس السرير .

لكنْ ماهذا الملقى على الصندوق ؟ رفعته وقرّبته من النور ، لمسته وشممته ، حاولت كلّ وجه ممكن لأصل الى رأي مقنع في شأنه ، لا أستطيع أن أشبّهه إلا بممسحة الأرجل التي توضع عند الباب ، وقد زخرفت حوافيه بجلاجل صغيرة رنّانة كريش الشيهم المدهون الذي

يزخـرف به الهنود أحـذيتـهم . وفي وسط هذه المـمـسحـة ثقب أو شقّ مثل الذي تراه في البرانس التي يلبسـهـا أهل أمريكا الجنوبية . ولكن أيصحَ لحوّات عاقل أن يلبس ممسحة أرجل ويتخطّر في شوارع أيّ مدينة مسيحية وهو في ذلك الزيّ التنكّريّ ؟ لبست ذلك الشيء لأجرّبه فأثقلني كأنه زنبيل إذ كان جاسياً خشناً سميكاً ، وخيّل اليّ أنه أيضاً رطب كأنّ الحوّات العجيب لبسه في يومٍ ماطر . تقدّمت نحو قطعة من مرآة مثبّتة في الجدار فلم أرَ في حياتي منظراً كالذي رأيت . انتزعت نفسي منه بعجلة حتّى لأحسَست بوثءٍ في عنقي .

جلست على حافة السرير وبدأت أفكّر في الحوّات بيّاع الرؤوس ، وممسحته التي يرتديها ، وبعد أن قضيت في التفكير فترة في جلستي تلك نهضت وخلعت صدارة السعدان ، ووقفت في وسط الغرفة مفكّراً . ثمّ نزعت معطفي ومضيت أفكّر وأنا ما أزال ألبس قميصي . غير أنّي بدأت أشعر بشدّة البرد بعد أن نزعت بعض ثيابي ، وتذكّرت ماقاله صاحب الدار عن الحوّات وأنه لن يعود تلك الليلة الى البيت إذا فات أوان عودته ، وعندئذ كففت عن التفكير ، وجذبت سروالي ونعليَ في سرعة ، وأطفأت الشمعة وأويت الى الفراش وخليت نفسي في رعايه الله .

هل كانت الحشيّة محشوّة بأقراص القمح ؟ هل كانت محشوّة بكسر من الخزف ؟ لست أدري . غير أنّي تقلّبت طويلاً ولم يراوح النوم عيني وأخيراً ذهبت في تهويمة خفيفة وكدت أقلع نحو أرض «النعاس» حين سمعت وطئاً ثقيلاً في الممرّ ورأيت بصيصاً من نور يتسرّب الى الغرفة من تحت الباب .

نجّني يارب ، فـهـذا هو الحـوّات ولابدّ . ذلك هو الجـهـنّمي بيّـاع الرؤوس . وظللت متمدّداً ، وآليت أن لا أفوه بكلمة الا حين يكلّمني . ودخل الغريب الغرفة يحمل الشمعة في يد والرأس الزيلندي نفسـه في الأخرى ووضع الشـمـعـة ، غيـر قريب منّي ، على الأرض في إحدى الزوايا ، ثمّ أخذ يعمل في فكّ عقد الحبل عن الكيس الذي أشرت من قبل الى وجوده في الغرفة . وكان بي شوق جامح لرؤية وجهه إلا أنه أبقاه منزوياً عنّي مدّة وهو يعالج حلّ الرباط . فلمّا انتهى من ذلك استدار اليّ . ياالله! أيّ منظر! ياله من وجه! وجه ذو لون أصفر ميّال للأرجواني قاتم تتخلّله بقع سود كبيرة متناثرة . نعم هو كما قدّرت . رفيق مرعب . كان في شجار نال فيه جراحاً رهيبة وعاد لتوّه من عيادة الجرّاح . وإتّفق في تلك اللحظة أن أدار وجهه نحو النور فإتّضح لي أنّ البقع السود على وجنتيه لايمكن أن تكون أبداً ضمّادات مثبّتة . إنّما هي لطخات . ولم أدر في البدء كيف أفسّر هذا الأمر ولكن سرعان ماخطر لي طائف من الحقيقة : تذكّرت قصّة رجل من البيض ـ حوّات أيضاً ـ وقع بين المتوحّشين

فوشموه بميسمهم ، وخلصت الى أنّ هذا الحوّات أيضاً قد وقع في مغامرة مماثلة أثناء رحلاته البعيدة . ثمّ قلت مناجياً نفسي : أيّ ضير في هذا ؟ هذا هو مظهره وحسب . والمرء قد يكون شريفاً مهما يكن لون بشرته . ولكن كيف أفسّر سحنته التي لا تنتمي الى الأرض ، أعني ذلك الجزء من وجهه الذي لاعلاقة له ببقع الوشم ، قد يكون طبقة اكتساها وجهه من تلويح شمس الإستواء ، لكنّي لم أسمع في حياتي أنّ الشمس تدبغ بشرة إنسان بلون أصفر مائل الى الأرجوان . على أيّة حال أنا لم أعش في البحار الجنوبية ولعلّ الشمس هنالك تحدث مثل هذه الآثار الغريبة في البشرة . وبينما كانت هذه الأفكار تعبر خلال رأسي كالبرق ، لم يتنبّه الحوّات لي أبداً ، بل فتح كيسه بعد جهد وبدأ يعيّث فيه واستخرج منه نوعاً من الطبرزين وكيساً من جلد الصّيل لايزال الشعر عليه ، ووضع هذين على الصندوق القديم القائم في وسط الغرفة ثمّ تناول الرأس الزيلندي - وهو شيء فظيع حقاً - ودسّه في الكيس . ثمّ خلع قبّعته - وكانت قبّعة محرّدة جديدة ، ففاجأني بمفاجأة جديدة إذ كان رأسه خالياً من الشعر - ممسوحاً منه تماماً - إلاّ جميمة في يافوخه قد عقصها عند جبهته . وتبدّى رأسه الأصلع ذو اللون الأرجواني لكل ذي عينين كأنه جمجمة متعفّنة . ولولا أنّ ذلك الغريب كان يقف بيني وبين الباب لإنطلقت منه هارباً بأسرع مَا ألتهِمُ العشاء .

بل لعلّني فكّرت في أن أنسلَ من الشبّاك لولا أنني تذكّرت أنّ الشبّاك يفضي الى فضاء الطابق الثاني . لست امرءاً جباناً ، ولكن أبلس عليَ فلم أدرِ ماذا أصنع بهذا الوغد الأرجوانيّ بيّاع الرؤوس . والجهل ابٌ للخوف . وبما أنّي وجدتني في منتهى الحيرة والتردّد إزاء هذا الغريب فإنّي أعترف بأنّ الخوف منه تملّكني حتّى كأنّ الشيطان نفسه هو الذي دخل عليّ غرفتي في صمت الليل البهيم . بل بلغ بي الخوف مبلغاً جعلني أخشى أن أخاطبه حينئذ وأن أطلب اليه جواباً مقنعاً عمّا كان يبدو لي فيه لغزاً غير قابل للتفسير .

وفي أثناء ذلك مضى هو يخلع ملابسه وكشف في النهاية عن صدره وذراعيه ، وأقسم أنّ هذين الجزءين المستورين من جسده كانا موشومين بتلك البقع السود نفسها ، فكأنّما خاض حرباً كحرب الثلاثين ونجا منها بلفافة من «اللزقات» اتّخذها قميصاً . بل إنّ رجليه كان يغطّيهما الوشم وإذا نظرت اليهما حسبت عدداً من الضفادع الخضر يتسلّق جذع لينةٍ صغيرة ، وتجلّى لي أنّه لابدّ أن يكون وحشاً مقيتاً أو ماشابه ذلك ، نقله حوّات من البحار الجنوبية على ظهر سفينته ونزل به في هذا البلد المسيحي . وارتعشت إذ جرى ذلك في خاطري . وهو أيضاً بائع رؤوس ولعلّها رؤوس إخوته ، وربّما أعجبه رأسي ، ياللهَ! انظر الى هذا الطبرزين!

ولكنْ لم تبقَ لديَ فرصة للإرتعاش لأنَ الرجل المتوحّش أخذ في شيء ملك عليَ انتباهي وأقنعني بأنه وثني ولابدّ ، فقد اتّجه الى برنسه الثقيل[١] أو قبائه أو قفطانه ، وكان قد علّقه على الكرسي ، وعبَث في جيوبه واستخرج بعد البحث صورة غريبة صغيرة مشوّهة محدودبة الظهر ولونها يشبه تماماً لون طفل كونغويّ ابن ثلاثة أيّام . وعندما تذكّرت الرأس المحنّط كدت أظن في البداية أنَ هذا القزم الأسود كان طفلاً حقيقياً محنّطاً أيضاً ، ولكنّي حين رأيته لا لدونة فيه وإنه كان يلتمع كأنه الأبنوس المصقول ، استنتجت أنه لابدَ وأن يكون صنماً خشبياً ، وقد كان حقّاً كذلك .

ذلك أنَ الوحش اتّجه نحو الموقد الخالي وأزاح اللوحة المغطّاة بالورق ونصب أحدبه القميء كأنه بيدق الشطرنج بين حديدتي الوجاق ، وكانت جوانب المدخنة واللبنات المرصوفة في داخلها مغشاة بالكتّن ، حتّى لتصوّرت أنَ هذا الموقد كان خير معبد صغير أو مزار لصنمه الكونغوي .

وتخازرت محدّقاً في التمثال الذي استتر عنّي نصفه وأنا أحسَ بالقلق والتململ في الوقت نفسه ـ وحدّدت البصر لأرى الخطوة التالية . فرأيته يستخرج أوّلاً حفنة من النشارة من جيب برنسه ويضعها بإعتناء أمام الصنم ثمّ يضع في قمّتها قطعة من بسكويت المراكب ويقرّب اليها شعلة المصباح ويوري النار في النشارة ليجعل منها لهباً قربانياً . وفي الحال يقرّب أصابعه من النار بسرعة ويسحبها بسرعة أشدّ ، عدّة مرّات (وبهذا لسعتها النار وآذتها لسعاتها فيما يبدو) وأخيراً وفق الى استخراج قطعة البسكويت ثمّ هدأ النار وفرّق الرماد وقدّمها في إجلالٍ لزنجيه الصغير ، ولكنَ ذلك الشيطان الصغير لم يبدُ عليه أنه أحبَ هذه الوجبة الجافة أبداً فلم يحرّك شفتيه . وقد رافق هذه الشعائر الغريبة أصوات حلقية أشدّ غرابة كان يرسلها ذلك المتعبّد الذي بدا كأنّما كان يرتّل ترنيمة أو لعلّه يغنّي مزموراً وثنياً أو شيئاً شبيهاً به ، وكان وجهه أثناء ذلك كلّه يختلج على نحوٍ بالغ الشذوذ . وأخيراً أطفأ النار ، وتناول الصنم دون خشوع أو إجلال ، ودسّه في جيب برنسه في اكتراثٍ قليل كأنّما كان صيّاداً يدسّ ديك السلوى الميّت في جعبته .

زادت هذه الأعمال الشاذة من قلقي ، ولمّا أبصرت الدلائل كلّها تدل على أنه قد أنهى أعماله وأنه سيثب في السرير الى جانبي تصوّرت أنَ الوقت قد حان ، قبل أن ينطفيء النور ، لأحطّم ربقة السحر التي كانت تقيّدني ، وإذا ضيّعت هذه الفرصة فقد ضاعت للأبد .

---

(١) استعمل المؤلّف كلمة grego ويرى بعض المعلّقين أنها تركيّة الأصل ، قلت : ولعلّها هي القرقل بالعربية ، والعامة يقولون القرقر .

إلا أنّ الفترة التي بدّدتها في التهيؤ لما أريد أن أقول كانت ضربة قاضية فقد تناول الطبرزين عن الطاولة وتفحّص رأسه لحظة ثمّ قرّبه من النور وقد جعل مقبضه في فمه ونفث سحباً كثيفة من دخان الطباق وفي اللحظة التالية انطفأ النور وقفز الوحش ، وكدوسه[١] ـ وهو ماحسبته طبرزيناً ـ بين أسنانه ، الى السرير بجانبي فلم أتمالك من أن تندّ عنّي صيحة ـ حشرجة دهشة ـ جعلته يشعر بوجودي .

وتمتمت متلعثماً بما لا أدريه ، وتدحرجت مبتعداً عنه نحو الجدار ثمّ استحلفته . أيّاً كان ومهما يكن ، بأن يبقى هادئاً وأن يدعني أنهض وأشعل المصباح مرّة أخرى . إلا أنّ الأصوات المنبعثة من حلقه أقنعتني على التوّ أنه أساء إدراك ما أعنيه .

وأخيراً قال : « أيّ شيطان أنت ؟ لاتتكلّم أنت . وإلاّ أقْتُلْ » . وما أن نطق بهذه الكلمات حتّى مضى الكدوس يلتمع من حولي في الظلام .

فصرخت : « ياربّ النزل! بحقّ الله! يابطرس التابوتي ، ياربّ النزل . اشهد! ياتابوتي! ياملائكة! خلّصوني! » .

فهمهمَ المتوحّش مرّة أخرى يقول : « احكِ . خبّر أنا من هو أنت وإلاّ ملعون أقتلك » بينا كانت جذبات الأنفاس من الكدوس تطيّر رماد الطباق الساخن من حولي حتّى لحسبت أنّ منامتي ستحترق . ولكنْ شكراً لك ياربّ! ففي تلك اللحظة دخل صاحب النزل الى الغرفة وبيده شمعه ، فقفزت من السرير وجريت نحوه .

فكشّر عن أنيابه وهو يقول : « لاتخف الآن ، إنّ كويكوج[٢] هنا لن يمسّ شعرة في رأسك » .

فصحت فيه : « كفّ عن التكشير . لماذا لم تخبرني أنّ ذلك الحوّات الجهنّمي من أكلة لحوم البشر ؟ »

ـ « ظننت أنّك تعرف ذلك . ألم أخبرك أنه ذهب يبيع الرؤوس في المدينة ؟ ولكنْ اهدأ الآن واذهب لفراشك . اسمع ياكويكوج . أنت تسمع كلامي ، أنا اسمع كلامك . هذا ينام في فراش معك . سامع ؟ »

فهمهم كويكوج قائلاً : « تمام » . ومضى ينفث دخان الكدوس وهو جالس في السرير .

---

(١) الكدوس : كلمة دارجة في السودان تدل على مانسمّيه « الغليون » أو مايسمّى « الشبك » في التركية ، وقد اتّخذته للدلالة على الغليون ذي الساق الطويلة مرادفاً للشبك ، وقصرت كلمة « الغليون » على ماكانت ساقه قصيرة .

(٢) إن لم تكن هذه الشخصية من نسج الخيال فإنّ ملفل قد نظر في تصويرها الى ماربونا من تاهيتي وقد أعجبه فيه قوة شعوره القومي واعتزازه بوطنه وسمّاه « فيلسوف الطبيعة » الوثني المتأبّد الذي كان ينتقد الرذائل والحماقات المسيحية في بلاط تاهيتي . وهو مثل كويكوج في مظهره ودربته في التحويت ومزاجه الفلسفي . ولاريب في أنّ كويكوج هو الشخصيّة الوحيدة التي تستأثر بالحب في القصّة كلّها .

ثمَ أشار الي َبكدوسه وهو يقول : « تعال تنوم » ، ورمى الملابس الى ناحية . فعل ذلك بطريقة لا أعدَها مهذَبة فحسب بل هي في الواقع لطيفة عطوفة . ووقفت أنظر اليه لحظة فوجدته على رغم الوشم الذي يغمر جسمه متوحَشاً نظيفاً مليح المنظر . وقلت لنفسي : ما هذا الازعاج الذي قمت به ؟ الرجل إنسان مثلي ولديه من الأسباب مايجعله يخافني مثلما أخافه . من الخير أن ينام المرء مع متوحَش صاحٍ من أن ينام مع مسيحي سكران .

وقلت مخاطباً ربَ النزل : « قل له أن يخبّىء عنّي هذا الطبرزين أو الكدوس أو أيّاً كان اسمه ، قل له بإختصار أن يتوقّف عن التدخين وعندئذ أدخل السرير الى جانبه ، ولكنّي لا أستطيع أن أتصور رجلاً يدخّن في الفراش الى جانبي . هذا أمر خطر . ثمَ تذكّر أنني لم أؤمَن على حياتي » .

وتحدَث ربَ النزل بهذا الى كويكوج فأذعن ، ثمَ أشار اليّ ـ في تهذيب ـ أن أدخل السرير ، وابتعد الى أحد الجانبين كأنه يقول لي : لن أمسَ أي عضو من أعضائك .

فقلت : « طاب مساؤك يارب النزل . تستطيع أن تمضي » . وأويت الى الفراش ولا أذكر أنّي نمت في حياتي خيراً من تلك النومة .

٤

غطاء السرير

حين استيقظت في صباح اليوم التالي لدن طلوع الفجر وجدت ذراع كويكوج ملقاة عليّ في هيئة ودّية حانية لامثيل لها ، حتّى لو أنّ أحداً رآني على تلك الحال لحسبني زوجته . كان غطاء السرير لفقاً من رقع مليئة بأشكال ملوّنة صغيرة بعضها مثلّث وبعضها مربّع ، وأشهد أنني حسبت ذراعه قطعة من ذلك الغطاء المرقّع ، إذ كانت موشومة بأشكال مسترسلة متشابكة كأنها تيه في قصر كريتي والبقع عليها متفاوتة الظلال لاتتشابه منها اثنتان ، وذلك ربّما كان مردّه فيما أظن الى أنه كان يبقي ذراعه وهو على السفينة في الشمس والظلّ ـ دون نظام ـ ويحسر كمّي قميصه على مسافات متفاوتة كلّ يوم . وحين تنبّهت من نومي كان قد ألقى جانباً من ذراعه على الغطاء ، فلم أستطع أن أميّزها من ذلك اللحاف لأنّ لونيهما تداخلا وامتزجا ، ولولا إحساسي بالثقل والضغط لما استطعت أن أقول أنّ كويكوج كان يحتضنني .

كانت إحساساتي غريبة . دعني أحاول تفسيرها : إنّي لأذكر حادثة مماثلة بعض الشيء وقعت لي حين كنت طفلاً . أكانت حقيقة أو حلماً ـ ذلك شيء لم أستطع أن أجزم به . وهذه هي الحادثة : كنت أقطّع شجرة قبّار أحسبها كانت تحاول أن تزحف متسلّقة المدخنة ، إذ كنت قد رأيت أحد عساليجها قبل بضعة أيام يمتد سابحاً فيها . وجرّتني ظئري ، زوجة أبي ، من رجليّ واستخرجتني من المدخنة ـ وكان من عادتها أن تضربني دائماً بالسوط أو أن ترسلني الى السرير دون عشاء ـ إلا أنها هذه المرّة دفعتني الى النوم مع أنّ الساعة كانت الثانية بعد ظهر الحادي والعشرين من شهر حزيران (يونيه) ، وهو أطول يوم في السنة في هذا النصف الذي نعيش فيه من الكرة الأرضية . كنت مروّع المشاعر ولكنّي لم أكن أملك لنفسي نفعاً ولاضراً ، فصعدت الدرج الى غرفتي الصغيرة في الدور

الثالث ، ونزعت عنّي ثيابي بقدر ما أستطيع من بطء ، رجاء قتل الوقت ، ثمّ اندسست في الفراش وأنا أرسل تنهّدة مريرة .

اضطجعت هناك مكروب النفس أحسب أنه ستنقضي ستّ عشرة ساعة قبل أن أرجو خلاصاً وانعتاقاً . ستّ عشرة ساعة في الفراش! حين أتصوّر ذلك يتحدر الوجع في الصلب من ظهري ، وقد كان النور شاملاً ، والشمس ترسل أشعتها من النافذة ، والعربات في الشارع تحدث جلجلة مدويّة ، والأصوات الفرحة الجذلى تملأ جوانب البيت ،وازداد إحساسي سوءاً على سوء ، فنهضت من الفراش وارتديت ثيابي وهبطت الدرج في خفة ونعومة ،اذ مشيت في جوربي دون حذاء ، وعمدت الى حيث كانت زوجة أبي ، وفجأة ألقيت نفسي ضارعاً على قدميها ، ورجوتها أن تحسن اليّ العقوبة فتجلدني دون هوادة لسوء سلوكي ، أن تصنع أيّ شيء تريده إلا أن تحكم عليّ بالحبس في الفراش طوال وقت ثقيل ممل لايطاق . ولكنّها كانت إذا عُدَّتْ زوجاتُ الآباء خيرهُنَّ وأحسنهنَّ ضميراً ، فقد أبت الا أن تعيدني الى الفراش . واستلقيت هنالك ساعات عديدة وأنا في تمام اليقظة شاعراً أنني لم أبلغ من السوء مثلما بلغت حينئذ ، ومن بعد عرفت ممّا حلّ بي من مصائب لاحقة كبيرة أنني في ذلك اليوم تجرّعت حقّاً أسوأ المصائب جميعاً . ويبدو أنني أخيراً تردّيت في تهويمة ذات كوابيس مضطربة . وأفقت منها ببطء وأنا لاأزال شبه غارق في الأحلام ، وفتحت عيني فإذا الغرفة التي كانت تسبح في ضوء الشمس قد تغلّفت بحجب الظلام . وأحسست على التوّ هزّة تسري في كياني كلّه . لم أعد أرى أو أسمع شيئاً . إلاّ أنّ يداً من الغيب كانت تبدو مطمئنّة في يدي . كانت ذراعي على الغطاء وكان الشكل الصامت الذي يعزّ أن أتصوّره أو أن أعرف له اسماً ، أو قل ذلك الطيف صاحب تلك اليد يجلس على مقربة من سريري . وظللت مستلقياً هنالك زمناً حسبته أجيالاً مركومة فوق أجيال ، وأشدّ المخاوف ترويعاً قد جمّدت جسمي ، وأنا لا أجرؤ على سحب يدي ، غير أنّي كنت أتصوّر أنّي لو حرّكتها مدى بوصة واحدة لإنخلعت من حولي الربقة السحرية المفزعة . ولست أدري كيف انحسر عنّي هذا الإحساس أخيراً إلاّ أنّي حين استيقظت في الصباح تذكّرته وجسمي ينتفض ، ومن بعده ظللت أيّاماً وأسابيع وأشهراً وأنا ذاهل في ثنايا محاولاتي المحيّرة لتفسير ذلك اللغز ، لا بل إنني ماأزال حتّى هذه الساعة أحاجي نفسي به أحياناً .

لابل عدِّ عن شعوري بالخوف الرهيب تجد أنّ إحساساتي حين شعرت بتلك اليد من الغيب في يدي مشبهةٌ في غرابتها لتلك الإحساسات التي ذقتها حين استيقظت ووجدت ذراع كويكوج الوثني تطوّقني . ثمّ انبعثت أحداث تلك الليلة الماضية واحداً إثر واحد حيّة

مجسّدة في ذاكرتي ، ثمّ توارت عنّي ولم يبقَ حيّاً في نفسي إلاّ ما أنا فيه من ورطة مضحكة . حاولت أن أزيح ذراعه ـ أن أفكّ قبضته الزوجية عنّي ـ إلا أنه ظلّ على استغراقه في النوم يحتضنني دون فكاك ، حتّى كأنه يوحي بأنه لا شيء يفرّقنا إلا الموت . عندئذ حاولت أن أوقظه ـ « كويكوج! » إلا أنّ الشخير كان هو جوابه الوحيد على نداءاتي . فتدحرجت مبعداً وأنا أحسّ كأنّ عنقي مطوّقة بإنشوطة ، وفجأة أحسست بخدش طفيف ، فنحيت الغطاء عنّي وإذا بي أرى الكدوس نائماً الى جانب الرجل المتوحّش كأنه وليد ذو وجه أسجح . يالهذا « الكبيس » الطريف! أنا في سرير في بيت غريب في رائعة النهار مع متوحّش وكدوس : « كويكوج . بحق الخير ، باسم الإنسانيّة ، استيقظ! » وبعد جهدٍ أنفقته في التقلّب وفي عتاب جهوري مسترسلٍ على أنه لايليق به أن يحتضن رجل مثله احتضان الزوج لزوجته أفلحت بأن أنتزع منه نخرة فسحب ذراعه على التوّ ، وانتفض كلّه انتفاضة كلب من كلاب نيوفوندلاند خارجٍ من الماء[1] ،وجلس في السرير متيبّساً كأنه انبوبة الرمح ، ينظر اليّ ويفرك عينيه كأنه لايتذكّر كيف إتّفق لي أن نمت الى جواره ، وإن كان يبدو أنّ خيطاً رفيعاً من شعاع التذكّر أخذ يلتمع في رأسه وينبّهه الى أنه يعرف عنّي شيئاً ما . وفي أثناء ذلك بقيت ساكناً أرمقه إذ كادت ريبتي فيه تتلاشى ، وأصبحت أميل الى رؤية ذلك المخلوق الغريب عن كثب . ولمّا بدا أنّ ذاكرته قاربت أن تتبيّن شخص رفيقه في السرير ، وعندما تقبلّتْ هذه الحقيقة الواقعة دون نفور ، قفز من الفراش الى الأرض ، وجعلني أفهم بما رسمه من إشارات وأصوات أنه ـ إن كان ذلك يسرّني ـ سيلبس ثيابه أوّلاً ثمّ يتركني لألبس ثيابي بعد ذلك مخلياً الغرفة كلّها لي . فقلت في نفسي : كويكوج! هذا اقتراح ، في مثل هذه الظروف ، دالّ على سمو الذوق والتهذيب . قل ما تشاء غير أنه لا مراء في أنّ لهؤلاء المتوحّشين إحساساً باللياقة واللطف فطرياً ، وهم مطبوعون على التهذيب ، وذلك شيء عجيب . وأنا أثني بهذا ثناءً خاصاً على كويكوج لأنه عاملني بقسط وفير من حسن الأدب والإحترام بينما كنت أنا آثماً في حقه بشدّة الجفاء والفظاظة . وأخذت أحدّجه بنظراتي وأنا في السرير وأراقب المراحل التي يمرّ بها في اللبس والزينة ، وانتصر حبّ الاستطلاع عندي ـ فترة ـ على أصول اللياقة والأدب . ذلك أنه لايتاح لك أن ترى إنساناً مثل كويكوج كلّ يوم ، ولذلك كان هو وطرائقه جديرين بالتطلّع وإن جافى ذلك المعهود من التزام بآداب السلوك .

---

(١) هذه صورة مستمدّة من واقع كان ملفل يعرفه حق المعرفة إذ كان يقتني كلباً من كلاب نيوفوندلاند .

بدأ لبسه من قمّة الجسم . فثبّت قبّعته المحرّدة الطويلة على رأسه ، ثمّ أتبع ذلك وهو مايزال دون سروال بالبحث عن حذائه . ثمّ كانت الجولة الثانية أنه اندسّ في الفراش وحذاؤه في يده وقبّعته على رأسه . أمّا لماذا صنع ذلك فأمر يقضي منه العجب ولا أدري له وجهاً ، غير أنّي استنتجت من اللهاث والطحير العنيف المتنوّع أنه كان جاهداً في لبس نعليه . لم أسمع بقانون من قوانين الإحتشام يتطلّب من المرء أن ينزوي عن أعين الناس حين يلبس حذاءه ، إلاّ أن كويكوج ـ كما ترى ـ كان مخلوقاً في مرحلة إنتقاليّة ، لا هو شرنقة ولا هو فراشة[1] . كان قد أحرز من التهذيب مايبرز به خشونته بأغرب طريقة ممكنة . وهو لم يكن قد أكمل تعليمه بل كان مايزال في الصفوف الدنيا ، ولو لم يكن قد أصاب قسطاً يسيراً من التحضّر فلعلّه ماعنى نفسه بكلّ مايتّصل بالحذاء ولبسه . ولكنه لو لم يكن قد احتفظ بقسط من الهمجية لما تصوّر أن يندسّ في الفراش كي يلبسه . وأخيراً برز من السرير وقبّعته قد تبعّجت وتهدّلت فوق عينيه وأخذ حذاؤه يصرّ وقدمه تظلع في جنبات الغرفة ، حتّى كأنه لم يتعوّد لبس الحذاء ، وحتّى كأنّ حذاءه الرطب المتغضّن المصنوع من جلد البقر الذي لم يهيّأ على قدر قدميه فيما أرجح ، كان يعتصر قدميه فيعذّبه ويؤلمه أوّل ما يلبسه في صباح بارد مرير .

وارتفع ضوء النهار فرأيت النافذة دون ستارة ، ووجدت الشارع ضيّقاً ، ولضيقه يستطيع من في البيت المقابل أن يرى بوضوح كلّ مايجري في غرفتنا ، ويلحظ شخص كويكوج في حال تنافي الحشمة واللياقة ، وهو يتخطّر عارياً إلا من قبّعته وحذائه ، وحين اتّضح لي ذلك رجوته ، ملحفاً متلطّفاً ، أن يسرع في قضاء ماتبقّى من لبس وزينة ، وأن يضع عليه سرواله ـ على وجه الخصوص ـ بأسرع مايمكنه . فامتثل لما طلبت وتوجّه الى الماء . في مثل هذا الوقت أعني في الصباح يبدأ أيّ مسيحي بغسل وجهه ، ولكنّ لشدّ مادهشت حين رأيت كويكوج يكتفي بقصر الغسل على صدره وذراعيه ويديه . ثمّ لبس صدارته وتناول قطعة من الصابون الصلب كانت على الطاولة المتوسطة التي تمثّل أيضاً حامل المغسلة ، وغمسها في الماء وأخذ ينشر الرغوة منها على عارضيه وبدأت أرقب لأرى أين يخبئ الموسى ، عندما تناول ـ ياللعجب العجاب ـ الرمح المريّش الذي يستعمله الحوّاتون من زاوية السرير ونزع منه القناة واستلّ سنان الرمح وشحذه قليلاً على حذائه ثمّ تقدّم من قطعة المرآة المثبّتة في الحائط وأخذ يحتّ شعر عارضيه بشدّة ،

---

(١) قارن هذا بقول جوته في سيرة حياته : «وفي هذا الصدد يبدو أشدّ الناس حيويّة وحذاقة كالفراش . مهما يكن حالهم في طور الدودة فإنهم ينفضون عنهم غشاء اليفعة الذي فيه نموّا حتّى اكتمل بهم النموّ» .

أو قلْ أخذ «يحوّتهما» . وقلت لنفسي : هذا ياكويكوج استخدام لخير الآلات الحادة التي يصنعها روجر في انتقام وتشفٍ ، ومن بعد قلّ عجبي من هذه الحلاقة حين أصبحت أعرف أيّ نوع مرهف من الفولاذ يتّخذ في صنع السنان ، وكيف أنّ شفرتيه الطويلتين المستقيمتين تظلاّن دائماً غاية في المضاء .

أنجز كويكوج بقيّة زينته وغادر الغرفة في خيلاء وقد تلفّع بصدارة السعدان . وهو يتلعّب برمحه كأنه عصا المارشاليّة .

٥

الفطور

لبست ثيابي بسرعة وهبطت الى غرفة الشراب وحيّيت ربّ الدار المقلّص الشفتين دائماً تحيّة الأنس والإرتياح فلم أكن أضمر نحوه ضغينة وإن عابثني غير قليل في أمر رفيقي في السرير .

على أيه حال أنا أرى الضحكة الطيّبة شيئاً قوياً طيّباً بل هي شيء طيّب نادر بالغ الندرة . وفي هذا ما يؤسف له . فإنّ كان شخص امرىء يصلح لدى امرىء آخر للتندّر والدعابة فإنّي أنصحه بأن يكون رحب الصدر فيتقبّل بترحاب أن يضحك ويُضحك الآخرين . ومن كان على حظٍّ كبير ممّا يضحك الناس منه فكن على يقين من أنّ فيه من الخصائص فوق مانتصوّره .

كانت غرفة الشراب مكتظّة بالنزلاء الذين توافدوا في الليلة السابقة ولم يكن قد أتيح لي أن أتعرّف إلى ملامحهم . كانوا جميعاً من المهتمّين بالحيتان : على اختلاف في الدرجات والحرف فمنهم الضبّاط الكبار ومنهم ضبّاط الصفّ الثاني وضبّاط الصفّ الثالث ، ومنهم نجّارون بحريّون ونحاسون بحريّون وحدّادون بحريّون ومنهم الصيّادون بالرمح وأصحاب السفن ، فئة من السمر ذوي السواعد المفتولة واللحى الكثّة والشعر الأشعث المعثكل ، يلبسون صدارات السعدان بدلاً من الجلباب الصباحيّ .

تستطيع دون عناء أن تحزر منذ متى نزل كلّ واحد منهم على الساحل : هذا الشاب ذو الخدّ الفاره ، يشبه في لونه الإجاصة التي سفعتها الشمس ورائحته تكاد تكون مسكية كشذاها . حين تراه تقول إنه لم يمض عليه ثلاثة أيّام منذ أن ألقى العصا من رحلته الهندية . وذلك الذي يجلس الى جانبه أخفّ ظلالاً منه وقد تقول إنّ فيه مسحة من الخشب الأخضر ، وعلى سحنة الثالث بقايا من صحمة استوائية إلاّ أن سائرها قد انقشع اذن فلا ريب

في أنه مقيم على البر منذ أسابيع . ولكنّ أيّهم يجلو عليك عارضاً مثل عارض كويكوج ؟ ـ ذلك عارض معلّم بجدائد من الأصبغة فكأنه منحدرات الأنديز الغربية يريك في نسقٍ واحد مناطق مناخيّة متفاوتة ، واحدة اثر أخرى .

صاح ربّ الدار : هيّا ، ودفع الباب على مصراعيه ، فدخلنا لنتناول طعام الفطور .

يقولون إنّ الرجال الذين رأوا الدنيا يصبحون ذوي سجاحة واطمئنان في تصرّفاتهم ، ولباقة وكياسة بين رفقتهم . هذا لايصحّ دائماً فإنّ لديارد الرحالة المشهور ابن نيوانجلند ومنجو بارك الاسكتلندي(١) كانا بين الناس أقلّهم ثقة بأنفسهم في الأبهاء والقاعات . ولكن ربّما كان اجتياز سيبيريا في زلاجة تجرّها الكلاب(٢) وذلك هو مافعله لديارد ، وربّما كان مشي المتوحّد الجائع في قلب افريقيا السوداء ، وذلك هو النصيب الذي فاز به منجو ثمرةً لأسفاره ، أقول ربّما كان هذا أو ذاك النوع من الأسفار لايعدّ خير وسيلة لإحراز قسط كبير من الجاذبية والذلاقة الاجتماعية . ثمّ إن ذلك الألق الجذّاب في المجتمع يحرزه المرء في أيّ مكان .

أثار هذه التأمّلات في خاطري أننا بعد أن جلسنا الى المائدة منّيت نفسي وهيّأتها لسماع قصص كثيرة عن صيد الحيتان . ولشدّ ماكانت دهشتي حين وجدت كلّ رجل في الجالسين يلوذ بالصمت العميق . بل استولت عليهم جميعاً الحيرة والإرتباك . أجل . ها هنا فئة من كلاب البحر ، كثيرون منهم ، دون ومضة من خجل ، واجهوا الحيتان الهائلة في البحار الهائجة ـ التقوا بمن هم غرباء عنهم ـ بارزوا الحيتان وصرعوها دون أن يطرف لهم جفن . وهاهم يجلسون هنا على مائدة الإفطار وكلّهم شركاء في المهنة متقاربون في الأذواق ينظر أحدهم الى الآخر في استحياء كأنهم لم يفارقوا حظائر الأغنام بين الجبال الخضر . منظر غريب! هذه الدببة الحيّة! هؤلاء الحوّاتون الباسلون الخوّارون!

أمّا كويكوج ، وما أدراك ما هو ، فقد جلس بينهم واتّفق أن كانت جلسته في صدر المائدة ، بارداً كأنه الذلذل الجليدي . يقيناً لاأستطيع أن أثني على حظّه من الأدب في هذا المقام . فإنّ أشدّ الناس إعجاباً به لا يستطيع أن يجد مسوّغاً يبرّر إحضاره رمح الصيد الى مائدة الطعام واستعماله هناك دون احتفال بمشاعر الآخرين ، فقد كان يمدّه الى الطرف

---

(١) جون لديارد (١٧٥١ ـ ١٧٨٩) قضى أربع سنوات في جزائر المحيط الهادي في رحلة مع الكابتن كوك (١٧٧٦ـ١٧٨٠) وقطع سيبيريا في عربة تجرّها ثلاثة خيول (صيف ١٧٨٧) وأتّهم بأنه جاسوس فرنسي فأعيد في عربة الى موسكو ثمّ طرد من روسيا عند الحدّ البولندي (نيسان ١٧٨٨) . أمّا منجو بارك (١٧٧١ ـ ١٨٠٦) فقد عرف برحلاته في داخل افريقية(١٧٩٩) وبين الرجلين مشابه كثيرة .

(٢) خطأ من ملفل ، والصواب : تجرّها الخيول .

القصي من المائدة ، وفي ذلك ما فيه من خطر بالغ على رؤوس الحاضرين ، ويغرزه في شرائح اللحم ويقرّبها الى صحنه . إلا أنه فعل ذلك في هدوء وكلّنا نعلم أنَ الناس يرون أنَ من أدّى أمراً في هدوء فقد أدّاه في ظرف وكياسة .

لن نتحدّث في هذا المقام عن كلّ الشذوذات لدى كويكوج وكيف أنه تجنَب القهوة والكعك الساخن ، ووجّه همّه مجتمعة نحو شرائح اللحم حتّى أتى على أكثرها .

يكفيني أن أقول أنه بعد انتهاء الفطور انسحب مع سائر القوم الى القاعة العامة ، وأشعل كدوسه الشبك ، وجلس هناك في هدوء يهضم الطعام ويدخّن ، وقبّعته التي لا تفارقه أبداً جاثمة على رأسه ، بينا اندفعت خارجاً لأقوم بجولة في البلد .

٦

الشارع

إذا كانت الدهشة قد تملّكتني حين لمحت - أوّل مرة - همجياً مثل كويكوج يتجوّل في مجتمع مهذّب في مدينة متحضّرة فإنّ تلك الدهشة سرعان ما انحسرت عنّي حين قمت بأوّل جولة صباحيّة خلال شوارع نيوبدفورد .

كلّ ميناء ذي شأن كثيراً ما يعرض لك في الشوارع العامة القريبة من دار الصناعة (الترسانة) أغرب السحن التي تنتمي الى مختلف جهات العالم وتعجز الواصفين . حتّى أنّك لترى في شارعي برودواي وشسنت[١] بحّارة من حوض المتوسّط يزحمون النساء المروّعات أحياناً . وليس شارع ريجنت[٢] نائياً على بحارة جزر الهند الشرقية (العسكر) والملايو . وفي بومباي - وفي أبولو جرين منها - يعيش أمريكيّون يرعبون الأهالي أحياناً ، إلاّ أنّ نيوبدفورد تفوق في هذا الشأن كلّ شارعي ووتر ووابنج[٣] . ففي هذين الشارعين ترى بحّارة فحسب أمّا في نيوبوفورد فترى متوحّشين يتوقّفون ليتحدّثوا في زوايا الشوارع - متوحّشين لم تفارقهم وحشيّتهم وكثير منهم مايزال يحمل على عظامه لحماً نجساً ، وذلك ممّا يجعل الغريب يحملق في الوجوه محدقاً . وترى أبناء جزر فيجي وغيرهم من البدائيين ونماذج غريبة من محترفي صيد الحيتان يتجوّلون في الشوارع دون أن يثيروا التفاتاً ، كما ترى أيضاً مناظر أخرى أشدّ غرابة وأكثر إثارة للضحك . وفي كلّ اسبوع يصل الى هذه المدينة عشرات من أغرار فيرمونت ونيوهامبشير وكلّهم متعطّشون للربح والمجد من صبد الأسماك ، وأكثرهم شبّان ذوو أجسام قوية ، أناس عاشوا على قطع الأخشاب ورأوا أن يلقوا الفأس

---

(١) الشارع الأوّل في نيويورك والثاني في فيلادلفيا .
(٢) اسم شارع بلندن .
(٣) ووتر في لفربول ، ووابنج في لندن .

ويعتقلوا حربة الصيد وأكثرهم أغرار خضر الوجوه كأنهم الجبال الخضر التي جاءوا منها ، وتحسبهم في بعض الأمور الأخرى قد تقدّمت بهم السن بضع ساعات . تأمّل! ذلك شاب يخب عند الزاوية ويلبس قبّعة محرّدة ومعطفاً كذنب الخطّاف «فراك» ويتمنطق بحزام بحّار ومدية مغمدة . وهذا آخر يلبس السوتر والعباءة البمبازية .

وإذا الريفي أخذ في التأنّق عجز عن أن يباريه الغرانقة المتأنّقون من أبناء المدن ـ وأعني بذلك «غندور» الريف المتغطرس السادر الذي إذا هبّ ليحصد الفدانين اللذين يملكهما ـ في أيام القيظ ـ لبس قفازاً من جلد الغزال كي لا تلوّح الشمس يديه . فإذا صمّم هذا «الغندور» الريفي على أن يحرز سمعه فائقة ، ويسلك نفسه في عصبة صيد الحيتان ، فلابدّ لك من أن ترى الأمور المضحكة التي يأتيها حين يبلغ الميناء ، فهو إذا أراد أن يجعل زيّه البحري ينمّ عليه أوصى الخيّاط أن يضع له أزراراً جرسيه الشكل على صدارته ، وأن يزوّد سرواله الخيشي بالسيور . مسكين أنت يا ابن التبن والقش! ماأسرع ماتنفرط تلك السيور في أوّل هبّة ريح ضارية حين تُلقى أنت وسيورك وأزرارك وكلّ ما لديك بين فكّي العاصفة .

لكنّ إيّاك أن تظن أنّ هذه المدينة الشهيرة لاتقدّم لزائرها إلا الحوّاتين والمتوحّشين والمتغندرين . لا بل إنّ نيوبدفورد أغرب شأناً ممّا تتصوّر . ولولانا ـ نحن رجال الحيتان ـ لظلّت تلك البقعة من الأرض حتّى اليوم دويّة مقفرة كأنها ساحل لابرادور . وبعض الريف الممتد من خلفها يفزع المرء منظره لأنه أجرد قاحل . ولعلّ المدينة نفسها من أكثر الأمكنة غلاءً في نيوانجلند جميعاً . نعم إنها بلد الزيت . ولكنها ليست مثل أرض كنعان بلد القمح والخمر . ولا تتدفّق في شوارعها أنهار اللبن ، ولاترصف تلك الشوارع في أيام الربيع بالبيض الطازج ، ورغم ذلك كلّه فلن تجد في كلّ امريكا بيوتاً كبيوتها أبّهة وفخامة ، أو كمنتزهاتها وجنّاتها وفرة ونضارة . من أين تلك الجنّات ؟ كيف غرست في بقعة ريفيّة لم تكن إلا مطرحاً لخبث المعادن ؟

إذا شئت جواباً على هذا السؤال فإذهب وانظر الى الرموز التي تمثّلها رماح الصيد الحديدية المريّشة حول ذلك الصرح العالي . أجل . إنّ تلك البيوت الجبّارة والجنائن الزاهرة إنّما انبثقت من الأطلسي والهادي والهندي . إنّها اصطيدت من أعماق البحر وجرّت حيث نصبت . هل يستطيع السيّد اسكندر[١] أن يعمل مثل هذا العمل العظيم ؟

والناس يقولون : إنّ الأباء في نيوبدفورد يدفعون المهور لخطّاب بناتهم حيتاناً

---

(١) ساحر ألماني كان يؤدي ألعابه السحرية في مسارح نيويورك بين عامي ١٨٤٥ ـ ١٨٤٩ .

ويفرّقون على القريبات حصصاً من البربوز . لابدّ من أن تذهب الى تلك المدينة لتشهد عرساً رائعاً فالناس يقولون إن في كلّ بيت هناك أحواضاً من الزيت وفي كلّ ليلة يوقدون ، دون حساب ، شموعاً من شحم العنبر تبلغ مثل قاماتهم طولاً .

من اللاذّ أن ترى المدينة في فصل الصيف ـ فهي مليئة بأشجار الغُرب الجميلة ، والشوارع التي تظلّلها الأشجار الخضراء ذات الأزهار الذهبية . وفي شهر آب (اغسطس) يقدم الشاه بلوط الجميل الوفير الذي يشبه الشمعدانات ـ يقدّم للعابرين عناقيد من براعمه في أشكال مخروطية مستقيمة مستدقّة . الفن ذو قوّة مهيمنة فقد أضاف ربعاناً مشرقة من الأزهار الى تلك النفايات من الحجارة العقيمة التي طرحت آخر يوم خلق فيه العالم .

ونساء نيوبدفورد : إنهنّ يزهرن إزهار الورد الأحمر في بلدهنّ . إلا أنّ الورد لا يترعرع إلا في الصيف ، أمّا جمال خدودهنّ فإنه دائم كضوء الشمس في السّماء السابعة . لاتستطيع أن تجد لتورّدهنّ مثيلاً في أيّ مكان إلاّ في سالم ، فقد أخبرني الثقة أنّ أنفاس الفتيات فيها تنفث مسكاً ، حتّى أنّ عشّاقهنّ من البحارة يتنسّمون شذاهنّ العطر وهم على أميال من الشاطىء وكأنّما يقتربون من « جزر البهار » بدلاً من « رمال المتبررين الغيارى » .

٧

المعبد

يقوم في هذه المدينة التي تسمّي نيوبدفورد معبد صيّادي الحيتان وقليل هم الصيّادون ذوو الأمزجة المتقلّبة الذين يتراخون عن القيام بزيارته في أحد أيّام الآحاد ماداموا يزمعون الإبحار وشيكاً الى المحيط الهندي أو الهادي . وأنا على يقين بأنّ تلك الزيارة لم تفتني .

فعندما عدت من جولتي الصباحيّة الأولى خففت مرّة أخرى لقضاء هذا الارب ، وقد تغيّرت السماء من حال صفاء وشمس وبرودة الى ضباب ومطر مصحوب بالبَرَد . لذلك تلفّعت بسترتي الخشنة المصنوعة من قماش يسمّونه «جلد الدب» ، واتّخذت وجهتي في مقاومة العاصفة العنيدة . وعندما دخلت المعبد وجدت جمعاً مشتّتاً صغير العدد من البحارة ونسائهم وأراملهم . وكان يغشى الوجود صمت مخيّم لايمزّقه بين الحين والحين سوى زعقات العاصفة . وقد ابتعد كلّ مصلٍّ عن أخيه عامداً كأنّ كلّ حزن صامت كان مقصوراً على صاحبه فهو لايفضي به الى غيره . ولم يكن القسّيس قد وصل فوقف كلّ فريق صامت من الرجال والنساء يرمقون شواهد رخامية عديدة ذات حوافٍ سود قد غرزت في الجدار على جانبي المنبر . ويشبه أن يكون ماكتب على ثلاثة منها كما يلي : وإن كنت لاأدّعي أنّ هذا هو النصّ الحرفي :

وقفاً على ذكرى جون تلبوت الذي غرق وهو في الثامنة عشرة قريباً من جزيرة الدمار ، حذاء ساحل باتاغونيا في غرة تشرين الثاني عام ١٨٣٦ . نصبت هذه اللوحه اخته لذكراه .

وقفاً على ذكرى روبرت لونج وولس إلري وناثان كولمان وولتر كاني وسيث ماسي وصموئيل جلايج ، وهم من بحارة السفينة «اليزا» التي جرها حوت فأغرقها على مبعدة من البر في المحيط الهادي في ٣١ كانون الأوّل ١٨٣٩ وقد أقام هذا النصب الرخامي رفاقهم الناجون .

وقفاً على ذكرى المرحوم القبطان حزقيال هاردي الذي قتله وهو في مقدم قاربه حوت العنبر عند ساحل اليابان في الثالث من آب ١٨٣٣ وقد نصبت أرملته هذه اللوحة لذكراه .

بعد أن نفضت البرد عن قبّعتي وسترتي اللتين كساهما الجليد بطبقة زجاجية اتّخذت مجلسي عند الباب ، وتلفّت يمنة ويسرة ، فأدهشني أن أرى كويكوج قريباً منّي ، كان مثابراً بجدّية المشهد فارتسمت على ملامحه نظرة المندهش الذي ثار في نفسه حبّ استطلاع ظامىء . وكان هذا المتوحّش هو الشخص الوحيد الذي لحظ دخولي ـ فيما يبدو ـ ذلك أنه كان الأمّي الوحيد بين الناس ، ومن ثمّ لم يكن قد شغل بقراءة تلك النقوش الجامدة على الجدار . لست أدري هل كان في الجمع أحد أقرباء البحّارة الذين كتبت أسماؤهم على الرخام ، غير أنّي أعلم أنّ مايدوّن من أحداث مهنة الصيد على الشواهد والنصب كثير العدد ، وكثيرات هنّ النساء الحاضرات اللواتي كنّ يحملن على وجوهنّ سمات حزن لايريم ، إن هنّ لم يتسلّبن ثياب الحداد ، حتّى لأحسست مستيقناً أنه قد احتشد أمامي أولئك الذين يبتعث الأسى في قلوبهم الملتاعة منظر تلك اللوحات الكئيبة وينكأ جراحهم القديمة .

أوهِ يامن يرقد موتاهم بين العشب الأخضر! يامن إذا وقفوا بين الأزهار قالوا : هنا ، هنا يرقد الأحبّة! إنكم لتجهلون الوحشة التي تعشش في تلك الصدور . أي فراغ مرير في ذلك الرخام ذي الإطار الأسود الذي ليس تحته رفات! أيّ يأس في هذه المنقوشات الثابتة!

أيّ خلاء مميتٍ وكفرٍ محرّم في تلك الأسطر التي تهضم الإيمان وجوده وتنكر البعث على الأحياء الذين قضوا دون أن تخطّ لهم قبور . لو نصبت هذه اللوحات في مغارة الفيلة(١) لكانت أيضاً في موضعها الملائم .

في أيّ فريق من المخلوقات الحيّة يدرج موتى بني الإنسان ؟ لِمَ يقول المثل السائر فيهم : إنهم لايحكون حكايات وإن كانت لديهم أسرار تزيد على رمال عالج ويبرين ؟ كيف نقرن باسم الذي فارقنا أمس الى العالم الآخر كلمة كافرة مرموقة ، ولانمنحه هذا الحق إذا شاء أن يبحر الى أقصى بقعة في هذا العالم الحيّ ؟ لمَ تدفع شركات التأمين تعويضات عن موت من يعدّون خالدين ؟ في أي شلل خالد كسيح وغيبوبة مميتة يانسة يقبع آدم القديم الذي مات منذ ستّين قرناً كاملة ؟ مابالنا مانزال نرفض أن نتعزّى عمّن لانفتأ نؤمن - رغم ذلك - إنهم يقيمون في نعيم مقيم ؟ لِمَ يحاول الأحياء جميعاً أن يخرسوا الأموات جميعاً ، مع أنّ إشاعة تروى كيف سمع صوت الدقّ في أحد القبور تكفي لترعب مدينة كبيرة ؟ هذه الأشياء جميعاً ليست دون معنى .

إلاّ أنّ الإيمان كالثعلب يجد غذاءه بين القبور ، ومن الريب الميتة يستجمع أشد آماله حياة ونضرة .

لقلّما يحتاج القارىء أن أخبره بأي مشاعر تأمّلت تلك الشواهد الرخامية وأنا على أهبة السفر الى نانتوكت ، وكيف أنني على ضوء ذلك اليوم الحزين المظلم - وهو ضوء خافت - قرأت مصير صيّادي الحيتان الذين مضوا قبلي عل الطريق . نعم يا اسماعيل ، إنك قد تواجه مثل ذلك المصير . غير أنّ المرح عاودني على نحوٍ ما : مغريات ممتعة تحفزني على الرحلة ، فرصة ذهبية لتحسين الحال - فيما يبدو - أجل : فإنّ قارباً مخروقاً يجعلني خالداً بالبراءة التي يمنحنيها بعد أن كنت من أبناء الفناء . نعم إنّ في مطاردة الحيتان موتاً - إلا أنه إزجاء للإنسان في أحضان الأبدية على نحوٍ سريعٍ صامتٍ ملهوج . ثمّ ماذا نجد في أحضان الأبدية ؟ هبْ أننا أخطأنا خطأً فادحاً في فهم مسألة الحياة والموت . هبْ أنّ مايسمّونه على هذه الأرض « ظلّي » إنّما هو جوهري الصحيح ، هبْ أننا حين ننظر الى الأمور الروحية نشبه السرطان الذي يرى الشمس من خلال الماء فيظن أنّ الماء الكثيف هو أشدّ نوع من الهواء شفافية . هبْ أن جسدي ليس إلاّ الحمى الذي يأوي اليه وجودي الأفضل . بل في الواقع ليأخذ جسدي من شاء - أقول ليأخذه - فإنه ليس أنا . مرحى ثلاثاً لنانتوكت وليأتِ القارب المخروق والجسم الموهون متى شاءا ، إذ أنّ جوبتر نفسه يعجز عن أن يخرق روحي .

---

(١) مغارة قرب بومبي بالهند والى جانبها ست مغاور صغيرات . وهي وقف على عباد شيفا المدمر الذين يؤثرونه على فشنو الحافظ . وكانت مزيّنة بالتماثيل .

٨

المنبر

لم أكن قد جلست طويلاً حين دخل رجل ذو وقار جليل ، وما أن استدار الباب الذي تصفعه العاصفة على عقبيه مرحّباً بقدومه حتى توجّهت الأنظار اليه متطلّعة عجلى ، وكان ذلك دليلاً على أنّ هذا العجوز الجليل هو القسّيس . أجل . كان هو الأب مابل المشهور ، فكذلك كان يدعوه صيّادو الحيتان ، وكان بينهم أثيراً مرموقاً . وفي شبابه كان بحّاراً وحوّاتاً إلا أنه منذ عدّة سنوات نذر حياته للتبشير والوعظ . وأثناء كتابة هذه السطور كان قد بلغ من العمر الفصل الشتائي من شيخوخة صحيحة سليمة ، أعني ذلك النوع من الشيخوخة الذي يخيّل اليك أنه يفضي الى شباب ثانٍ مزدهر ، إذ كان يلمع في أثلام تجعّداته ألق وديع من نضارة آخذة بالنمو ، كأنها خضرة الربيع تتفلّت للظهور من تحت ثلوج شباط . وكلّ من سمع قصّته من قبل فلابدّ من أن يتلقّاه باهتمام بالغ ، إذ كانت قد رسّخت عنه في النفوس خصائص اكليروسية تعزى الى حياة المخاطر البحرية التي خاضها في شبابه . وعندما دخل لحظت أنه لم يكُ يحمل مظلّة ، ولم يأتِ على وجه اليقين في عربة ، إذ أنّ قبّعته التربولين كانت تقطّر برداً ذائباً ، وسترته الكبيرة المصنوعة من قماش الملاحين تكاد تشدّه الى الأرض بثقل ما امتصّته من ماء . مهما يكن من شيء فقد نزع عنه قبّعته ومعطفه وخفّه ، واحداً إثر آخر ، وعلّقها في فجوة صغيرة في الزاوية المجاورة له ، وحين ارتدى ثياباً مناسبة تقدّم بهدوء نحو المنبر .

وكان منبراً ككل المنابر القديمة في طرازها ، عالياً بالغ العلو ، وبما أنّ الدرج العادي الصالح لمثل هذا الإرتفاع يكوّن مع الأرض زاوية طويلة فيبتلع مساحة المعبد - وهي بطبيعتها صغيرة - لذلك قام المعماري امتثالاً لإرشادات الأب مابل ببناء منبر دون درج ، متّخذاً عوضاً عنه سلّماً جانبيّاً قائماً كالسلالم التي تستعمل في الصعود الى السفن من قارب في

البحر .وقام زوج أحد قباطنة الحوّاتين فتبرّعت للمعبد بزوجين جميلين أحمرين مبرمين من الكرور . ولمّا كان المنبر نفسه متقن الرأس مدهوناً بلون كلون خشب الماهوغاني فقد كان التدبير جملة ، إذا أنت اعتبرت حال المعبد ، يدلّ على ذوق طيّب . توقّف الأب مابل لحظة عند قاعدة السلّم وقبض بكلتا يديه على عقدتي الحبل البارزتين للزينة ، وألقى نظرة الى فوق ، ثمّ وضع يداً على يد ، وأخذ يصعد مرقاة إثر مرقاه في رشاقة تليق بالبحارة ، إلا أنها أيضاً مشفوعة بالوقار ، كأنّما يصعد الى قمّة الدقل الرئيس في سفينته .

وكانت مراقي هذا السلّم الجانبي ، حسبما هي الحال في كلّ السلالم المتأرجحة ، مصنوعة من حبال مغلّفة بالقماش وليس فيها خشب إلا في العوالق ، ولذلك كان في كلّ مرقاة مفصل . وحين لمحت المنبر أوّل مرّة لم يفتني أنّ هذه المفاصل إذا كانت تصلح للسفينة فإنها في حال المنبر تبدو غير لازمة . غير أنّي لم أكن قد تهيّأت لأرى الأب مابل بعد أن رقي في منبره يستدير ببطء ، وينحني فوق المنبر ، ويعمد الى جرّ السلّم مرقاة إثر مرقاة ، حتّى يودعها جميعاً لديه ، وقد أصبح ممتنعاً متحرزاً في «سفينته» الصغيرة .

وتفكّرت في هذا الأمر بعض الوقت دون أن أفهم وجه السرّ فيه . ذلك أنّ الأب مابل كان قد أحرز شهرة واسعة في الإخلاص والتأله ولذلك لم يتّجه بي الريب الى أنه كان يجرّ على نفسه سوء السمعة بمثل هذه الحيل المسرحية ، وقلت في نفسي : لا . لابدّ من سبب وجيه لهذا . ثمّ لابدّ أن يكون هذا الأمر رمزاً لشيء غير مرئي . ألا يجوز أنه بهذه العزلة الجسمانيّة يرمز الى انعتاقه الروحي - بعض الوقت - من أسر العلائق والروابط الدنيويّة ؟ أجل إنّ هذا المنبر وقد طفح بخمر الكلمة ولحمها يمثّل حمىً حصيناً دائم المدد للرجل المؤمن - فيما أرى - كأنه قلعة شاهقة[1] مزوّدة ببئر من الماء المعين داخل أسوارها .

إلا أنّ السلّم الجانبي لم يكن هو وحده المظهر الغريب في ذلك المكان ، بل كانت هناك شؤون أخرى استمدّها القسّيس من وحي أعماله البحرية السابقة ، منها صورة كبيرة تمثّل سفينة جرينة تصارع عاصفة عنيفة عند شاطىء عاصف ذي صخور سود وموجات بيض . وقد علقت هذه الصورة بين الشاهدين الرخاميين القائمين على جانبي المنبر ، وزيّن بها الحائط الذي يمثّل ظهر المنبر نفسه ، وفوق الغيمات السابحات والسحب السود المتدحرجة كانت تعوم جزيرة صغيرة من نور الشمس يبزغ منها وجه مَلَك ، وهذا الوجه

(١) في الأصل كأنه : Ehrenbreitstein وهي قلعة زارها ملفل عام ١٨٤٩ .

المتألّق يرسل فلكة من الشعاع على ظهرالسفينة المتقاذفة ، شبيهة بذلك الطبق الفضّي الذي طمعت به الربعة خلف الدقل الأعظم في سفينة «النصر» حيث سقط «نلسون»[٢] . وكأنّ الملاك يقول : «أيتها السفينة الكريمة . تقحّمي ، اندفعي ، قدّمي دفّة جسورة . ها هي الشمس تشقّ الدجن ، والسحب تنحسر متدحرجة ، والزرقة الصافية قد أصبحت وشيكة» .

ولم يكن المنبر نفسه بنجوة من أثر الذوق البحري الذي خلق السلّم والصورة بل إنّ مقدّمته «المفَرْوَزة» كانت تشبه القيدوم السامق في السفينة ، وكان وضع الكتاب المقدّس على قطعة بارزة من حلية التدوير إنّما هو محاكاة للمنقار الحديدي أو المَلْوى في السفينة .

أيّ شيء أشدّ من هذا احتفالاً بالمعنى ؟ إذ المنبر هو مقدّم هذه الأرض وكلّ شيء عداه يجيء في المؤخّرة ، والمنبر هو الذي يقود العالم ويهديه ، منه تلمح عاصفة الغضب الالهي أوّل ما تلمح ، ولابدّ للقيدوم من أن يتلقّى الصدمة الأولى ، منه يتوجّه الدعاء الى ربّ الرياح - رفيقة كانت أو عنيفة - لكي يرسلها رخاء طيبة . أجل إنّ العالم سفينة مبحرة ، لمّا تستكمل رحلتها ، والمنبر فيها هو قيدومها .

(٢) «النصر» Victory اسم سفينة نلسون وهي في ميناء بورتسموث ، وقد رآها ملفل علم ١٨٤٩ .

٩

الموعظة

نهض الأب مابل ، وأمر الناس المتفرّقين أن يتجمّعوا ، بصوت لطيف يوحي بسلطان وديع : «أنتم في ميمنة السفينة ، قفوا جانباً ، اتّجهوا نحو ميسرة السفينة . وأنتم في الميسرة ، تجمّعوا ، هيّا الى الميمنة ، جميعاً توسّطوا السفينة ، توسّطوا» .

تحرّكت الأحذية البحرية الثقيلة بين المقاعد وأرسلت دمدمة غير عالية ، وبعثت أحذية النساء حسيساً ، ثمّ هدأ كلّ شيء ، واتّجهت الأعين نحو الواعظ .

تريث هنيهة ثم جثا على ركبتيه عند مقدمة المنبر ، وطوى يديه الكبيرتين السمراوين أمام صدره ، وشخص بعينيه المغمضتين ، ودعا دعاء قانتاً حتى خيّل أنه راكع يصلي في قاع البحر .

وحين انتهى من ذلك أخذ يقرأ الترنيمة التالية في نغمات مستطيلة جليلة كأنها صوت جرس مسترسل في سفينة مشرفة على الغرق في ضباب البحر . إلا أنه غيّر أسلوبه في المقطعين الأخيرين واندفع في تهلّل وابتهاج مجلجل يرتّل قائلاً[١] :

أضلاع الحوت وما في الحوت من مفزعات
نشرت فوقي ظلاماً كثيفاً
وتدافعت من حولي أمواج ساقها الله مضوأة بنور الشمس
فرفعتني ثمّ هوت بي وطوّحت بي للأجل المحتوم

---

(١) لعلّ ملفل هو ناظم هذه الانشودة الدينية ، فلم يعثر أحد لها على أصل في كتاب آخر .

ورأيت جهنّم وقد تفلّعت أحشاؤها
وهي تتميّز بآلام وأحزان أبدية
لايقدر على وصفها إلا من كابدها ،
واهاً لي . لقد كنت أهوي في لجج اليأس .

وفي محنتي السوداء دعوت ربّي
حين كنت أجحده ربّاً
فسمع الله شكاتي
ولم يعد بطن الحوت لي محبساً

وبادر مخفّاً الى خلاصي
كأنّما انطلق به دلفين كالشعاع
وتجلّى لي وجه الرب منقذي
رهيباً ، متلألئاً كخطفة البرق

ستظلّ ترنيمتي الى الأبد
تعيد ذكرى تلك الساعة الرهيبة البهيجة
لله المجدُ خالصاً
فهو القويّ الذي وسعت رحمته كلّ شيء .

شارك جلّ المصلّين في ترديد هذه المناجاة فتعالت على عواءالعاصفة ، وتلا ذلك توقّف قصير الأمد ، وقلّب الواعظ ببطء صفحات التوراة ، وأخيراً قال وهو يطوي يده على الصفحة المبتغاة : «أحبابي رفاق البحر ، قفوا عند الجملة الأخيرة من الاصحاح الأوّل في سفر يونان حيث يقول : «وامّا الربّ فأعدّ حوتاً عظيماً ليبتلع يونان» .

«يارفاقي البحارة . يحوي هذا السفر إصحاحات أربعة ، أو خيوطاً أربعة ، فهو من أصغر القوى في حبل الكتاب المقدّس القويّ المفتول . أيّ أعماق روحيّة يسبرها حبل يونان المديد! أيّ عبرة حفيلة نستمدّها من هذا النبي! أيّ شيء سامٍ هي تلك الأنشودة في جوف الحوت! مأأشبهها بالموجة في عنفها وعظمتها! إننا لنحسّ الطوفان يندفع من فوقنا ، وإننا

نقمس معه الى أغوار الماء حيث ينزوي جنّ البحر ، ومن حولنا أعشاب البحر وكلّ مافيه من حمأة . ولكن أيّ درس هذا الذي نتعلّمة من سفر يونان ؟ يارفاقي البحّارة إنه لدرس ذو طاقتين : درس لنا بني الإنسان المذنبين ، ودرس لي أنا قائد سفينة الحيّ القيّوم . هو درس لنا جميعاً ـ نحن المذنبين ـ لأنه قصة الخطيئة وقساوة القلب والمخاوف التي استفاقت فجأة والعقاب العاجل والتوبة والصلوات والنجاة والفرح الذي غمر يونان . وقد كانت خطيئة ابن أمتاي ـ كخطيئة جميع الآثمين من الناس ـ هي عصيان أوامر الله إصراراً حين وجدها أوامر شاقة . لايهمّنا ماذا كانت تلك الأوامر ، وكيف ألقيت اليه ، غير أنّ كلّ مايأمرنا الله أن نفعله يشقّ علينا فعله ، تذكّروا هذا واعلموا أنه من ثمّ يأمرنا بدلاً من أن يسعى لإقناعنا . وإذا كنّا نطيع الله فعلينا أن نعصي أنفسنا ، وفي عصياننا لأنفسنا تكمن الصعوبة في امتثالنا لأوامر الله » .

« لم يقتصر يونان على العصيان بل ذهب يسخر من الله بالفرار من وجهه . ظنّ أنّ سفينة صنعها الآدميون قد تحمله الى بلاد ليس لله فيها سلطان ، وكلّ السلطان فيها إنّما هو لقباطنة هذه الأرض . فتوارى في أرصفة يوبا يبحث عن سفينة متوجّهة الى ترشيش ، وربّما كان يكمن في هذا نفسه معنى خبيء لم يتنبّه له أحد حتّى اليوم . إذ أنّ ترشيش لم تكن سوى مدينة قادش الحديثة ، ذلك مايقول به العلماء . وأين هي قادش يارفاق البحر ؟ في اسبانيا أبعد مكان من يوبا يمكن أن يبحر اليه يونان في الأيام القديمة ، حين كان الأطلسي مايزال بحراً مجهولاً أو يكاد . ذلك لأنّ يوبا ـ وهي يافا الحديثة يارفاق البحر ـ تقع على ساحل المتوسّط ، أو البحر الشاميّ ، وتبعد عنها ترشيش أو قادش مايزيد على ألفي ميل غرباً ، وراء مضيق جبل طارق . ألستم ترون يارفاقي البحارة أنّ يونان كان يحاول أن يمعن هرباً من وجه الله حتّى ليقطع العالم من طرف الى طرف ؟ يالك من رجل تعس! أيّها الحقير الذي يستاهل كلّ ازدراء! أتريد أن تختفي عن إلاهك بقبّعة منكفئة الحوافي[1] وعين منكسرة! وأنت تنسلّ بين حشود السفن كالخارب اللصّ تريد أن تعبر البحار! كان مضطرباً تخونه نظراته وملامحه ، ولو كانت في تلك الأيام شرطة لقبضت على يونان قبل أن يلمس ظهر السفينة بشبهة اقترافه جرماً . ماأوضح ماتنبىء أحواله أنه هارب : لا متاع ولا صوان للقبّعة ولا وليجة ولا كيس أمتعة ، ولا أصدقاء يصحبونه الى الرصيف مودّعين . وبعد بحث وتسلّل كثير يجد أخيراً سفينة ترشيش وهي تتلقّى آخر البضائع من مشحوناتها ، وحين

(١) كذلك كانت قبعة آخاب منكفئة الحوافي ، انظر الفصل ، ٣٠ (الجملة الختامية) .

يخطو على ظهرها ليقابل قبطانها في قمرته يتوقف البحارة جميعاً عن رفع البضائع ليبصروا هذا الغريب وعينه المشؤومة . فيدرك يونان ذلك ويحاول عبثاً أن يبدي أمارات الثقة والإطمئنان . وعبثاً يحاول أن يمتحن أثر ابتسامته التاعسة ذلك أنّ حدساً قوياً يلهم البحارة أنه لايعقل أن يكون بريئاً ، فيهمس أحدهم للآخر في جدّ ظاهره هزل ويقول : « جاك ، لقد سرق مال أرملة » . أو يقول : « جو ، ألستَ تبصره ؟ إنه زوج اثنتين » . أو يقول : « هاري أيها الفتى! إنّي لأظنّه الزاني الذي هرب من السجن في عامورة القديمة ، أو لعلّه أحد القتلة الهاربين من سدوم » . ويجري آخر ليقرأ الإعلان المثبّت على أسوار الرصيف الذي تأوي اليه السفينة وفيه جائزة بخمسمائة قطعة ذهبية لمن يرشد الى قاتل أبيه ، وفيه أوصاف القاتل . فيقرأ ناقلاً عينيه بين يونان تارة والإعلان تارة أخرى بينا يتجمهر رفاقه البحارة الذين يشاطرونه شعوره حول يونان على أهبة أن يلقوا القبض عليه ، فيرتعد يونان المرتاع ، ويستنجد بكلّ جرأته لترتسم الجرأة في قسمات وجهه فلا يزداد في أعينهم إلا جبناً . فهو لايريد أن يعترف بأنه مشبوه ولكنّ ذلك نفسه شبهة قوية ، غير أنه يفيد من ذلك الى أقصى حد ، وعندما يجد البحارة أنه ليس هو الموصوف في الإعلان يطلقون سراحه فيهبط الى القمرة » .

« فيصيح القبطان وهو جالس الى طاولة عمله ، يعد الأوراق لتقديمها للجمارك : « من هذا ؟ » ـ من هذا ؟ سؤال هيّن ولكنه يقع على سمع يونان وقوع الصاعقة ويكاد يستدير هارباً إلا أنه يتظارف قائلاً : « أودّ أن أسافر على هذه السفينة الى ترشيش . هل بقي لإبحاركم وقت طويل ياسيّدي ؟ » . حتّى هذا الوقت لم يكن القبطان قد تطلّع الى يونان وإن كان ماثلاً أمامه ، ولكنه ماكاد يسمع ذلك الصوت الأجوف الخاوي حتّى يرميه بنظرة فاحصة . وأخيراً يجيبه في أناة : « نبحر مع ارتفاع المدّ التالي » ، ومايزال محدّد البصر اليه . فيقول يونان : « ألا تبادرون للإبحار قبل ذلك ياسيّدي ؟ » فيقول القبطان : « إبحارنا مع المدّ مبادرة يرضى بها كلّ مسافر شريف » . واهاً لك يايونان! هذه طعنة أخرى . ولكنه يسرع فيحوّل فكر القبطان عن الإمعان في هذه البادرة من الريبة ويقول : « سأسافر معكم . أجرة السفرـ كم تبلغ ؟ سأدفع على التوّ » . من أجل ذلك نوّه « سفر يونان » بأمر الدفع كأنه يوحي لنا بأنّ ذلك أمرٌ يجب ألا نغفل عنه في هذه القصة إذ ورد فيه : « فدفع أجرتها » أي قبل أن تنشر السفينة أشرعتها . وإذا قرأت هذه العبارة في قرائنها وجدتها حافلة بالمعنى » .

« وكان قبطان تلك السفينة يارفاقي البحارة حصيفاً ألمعياً يستطيع بنافذ بصره أن

يستشف الجريمة لدى أيّ امرىء اقترفها ، إلاّ أنّ جشعه لم يكن يسمح له أن يفضحها إلاّ إن كان مقترفها مفلساً . إنّ الخطيئة التي تستطيع أن تدفع الأجرة في هذا العالم ، يارفاق البحر ، تسافر حرّة طليقة دون أن تحتاج الى وثيقة سفر ، ولكن إن كانت الفضيلة مسكيناً مدقعاً أوقفوه عند كلّ الحدود . لذلك شاء القبطان أن يختبر انتفاخ هميان يونان قبل أن يدينه علناً ، فتقاضى منه ثلاثة أضعاف الأجرة التي يدفعها أمثاله ، وامتثل يونان لهذا الاشتطاط ودفع . وكان القبطان يعرف أنّ يونان هارب إلا أنه صمّم في الوقت نفسه على أن يساعد الهرب الذي يعبّد طريقه بالذهب . ولكنْ حين استخرج يونان كيس نقوده كانت الريب الفطنة ماتزال تساور القبطان . فنقر كلّ قطعة ليجد فيها زيفاً مبهرجاً فما وجد شيئاً من ذلك فتمتم يقول : « على أيّ حال لا أراك مبهرجاً » ، وقيّد اسم يونان بين المسافرين . فقال له يونان : « عيّن لي غرفتي ياسيدي ، فأنا امرؤ قد أنهكني السفر ، وبي حاجة الى النوم » . فقال القبطان : « ذلك يبدو في ملامحك . هناك غرفتك » فدخلها يونان وكان يودّ لويقفلها لولا أنّ المفتاح لم يكن موجوداً . وعندما سمعه القبطان يتلمّس مغلاقها متحامقاً ، ضحك ضحكة خافتة وتمتم بشيء عن أبواب مخادع المتّهمين التي لايسمح لهم أن يقفلوها من داخل . وألقى يونان نفسه وهو أشعث أغبر مرتدٍ كلّ ثيابه فوق سريره ، وأحسّ كأنّما سقف الغرفة الصغيرة جاثم على جبهته ، وأخذ يلهث وهو مبهور الأنفاس في هواء محصور . وأحسّ وهو في ذلك الوكر المتضايق وقد نزل دون خطّ الماء ببوادر نذر الشؤم التي تسبق الساعة الخانقة ، ساعة يطويه الحوت في أدقّ مسالك أحشائه » .

« وكان في غرفة يونان قنديل معلّق يتأرجح تأرجحاً واهناً وقد شدّ عند وسطه الى الجدار بلولب . وعندما ترنّحت السفينة نحو الرصيف بسبب ثقل الرزم الأخيرة التي قذفت فيها بقي القنديل واللهب وكلّ ما يتّصل بهما في وضع انحراف مستمر بالنسبة للغرفة وإن كانت حركتها خفيفة ، ومع أنه كان في الحقيقة مستقيماً استقامة لاتخطئها العين فإنه جلا للعين المستويات الكاذبة الخادعة التي كان معلّقاً بينها . وكان القنديل يُرعب يونان ويُخيفه . وفيما كان مضطجعاً على سريره أخذت عيناه المتعبتان تدوران في أرجاء المكان ، ولم يجد الهارب الذي وجد ملجأ لنفسه أيّ ملاذ لنظرته القلقة ، ولكنّ التناقض في وضع القنديل مايزال يثير الرعب في نفسه ، فأرض الغرفة وسقفها وجوانبها تبدو جميعاً مائلة . فيئن يونان قائلاً : كذلك هو ضميري معلّق في داخل نفسي على استقامة ، وكذلك هو يتلهّب مضيئاً إلاّ أنّ الغرفة التي تحتلّها روحي مائلة » .

« بعد مصارعة أليمة مرّت على يونان في سريره أثقله عبء تعاسته الباهظة ، وقد هوى

به يغرقه في أعماق النوم ، كأنه سكير أوى الى فراشه بعد ليلة من العربدة وهو مايزال يترنّح ، الا أنّ ضميره يخزه مثل وثبات فرس رهان روماني يزداد شداً كلّما أهوى عليه صاحبه بسوطه المدبب بالفولاذ ، أو كأنه امرؤ في تلك الورطة التاعسة يدور ويدور في نوبة دوار ، داعياً الله أن يفنيه كي تمر النوبة ، وأخيراً يحس وهو في غمرة الويل خدراً عميقاً يتسلّل الى جسمه مثلما يتسلّل في النهاية إلى امرىء ينزف حتّى يموت ، إذ الضمير هو الجرح وليس ثمّة ما يوقف نزيفه » .

« وحان وقت المدّ وألقت السفينة حبالها ، وانسابت على وجه الماء مبتعدة عن الرصيف ، وهي منحنية متجهة صوب ترشيش وليس عليها علامة من التهلل والاستبشار ، تلك السفينة يارفاق كانت من أوائل السفن التي اتّخذت للتهريب ، وكانت البضاعة المحظورة هي يونان ، غير أنّ البحر يثور لأنه يأبى أن يحمل ذلك العبء الشرّير ، فتهبّ عاصفة مخيفة وتكاد السفينة أن تنشقّ . حينئذ يهيب رئيس النوتية بالأيدي لتخفيف حملها ، فتطرح الصناديق والرزم والجرار وتسمع جلبتها وهي تلقى في الماء . وفيما الريح تزعق والرجال يصرخون وكلّ لوح خشبي فوق رأس يونان يجأر بالأنين من شدّة وطء الأقدام عليه ، إذ ذاك كان يونان يغطّ في نومه الشنيع ، والجلبة هذه تشتد من حوله . فهو لا يرى سماء سوداءأو بحراً غاضباً ولايحسّ بالخشب المترنّح ، ولايسمع ولاينصت لاندفاعة الحوت القويّ ، وهو يشقّ البحار خلفه بشدق مفتوح . نعم يارفاق ، كان يونان قد نزل في جوف السفينة ، وهو ما أقدّر أن يكون سريراً في قمرة ، وكان مستغرقاً في النوم ، إلا أنّ القبطان المرتاع يجيء اليه ويصرخ في اذنه التي حلّ بها الوقر : « ماذا تعني أيها النائم! انهض! » فيهبّ من نومه فزعاً لدى سماع الصيحة المخيفة ، وينهض مترنّحاً على قدميه ، ويتعثّر متّجهاً نحو ظهر السفينة فيمسك بحبل ويلقي نظرة على البحر . وفي تلك اللحظة تثب نحوه إحدى الموجات وثبة النمر ، مندفعة من جانب السفينة نحو قمّتها . وتثب في السفينة موجة اثر موجة ، وإذ لا تجد منفذاً كي تتسرّب منه تجري هادرةً نحو مقدمة السفينة ومؤخّرتها حتّى يشرف النوتية على الغرق والسفينة ماتزال طافية . ومثلما يبدي القمر الشاحب وجهه المفزع من الأخاديد العميقة المنحدرة في الظلمة المطلّة عليها ، كذلك يرى يونان وهو مبهور ، الدقل المائل وهو يمتد في الفضاء ثمّ يراه وقد توجّه الى أسفل نحو الأعماق الهائجة » .

« أفواج من الرعب إثر أفواج اندفعت تصرخ في روحه . الهارب من وجه الله انفضح أمره ممّا كان أبداه من مداهنة وتولاه من تملّق . عرفه البحارة بسيماه . غَلَتْ ريبتهم في

أمره . أرادوا أن يفوّضوا الأمر الى حكم السماء ليكشف وجه الحقيقة ، فلجأوا الى القرعة ليروا بسبب من ثار ذلك النوء المخيف . وقعت القرعة على يونان . وإذ استبان الأمر تألبوا محنقين يقذفونه بالأسئلة : ماهو عملك ومن أين أتيت ؟ ماهي أرضك ؟ ومن أيّ شعب أنت ؟ تأمّلوا يارفاق البحر مسلك يونان : سأله البحارة ملحفين متطلّعين عن هويّته وأرضه فلم يتلقّوا منه جواباً على هذه الأسئلة فحسب بل أجابهم عن سؤال لم يوجهوه اليه ، يد الله القوية هي التي انتزعت منه ذلك الجواب الذي لم يطلب ، حين صاح يقول : «أنا عبراني وأنا خائف من الربّ إله السماء الذي صنع البحر والبرّ» .تخافه يايونان! ماأحسن أن تخاف الله إذن! ودون مواربة يفضي باعترافه كلّه . وعندئذ يزداد النوتية رعباً وإن كانت أنفسهم تفيض بالرثاء لحاله . ذلك أنّ يونان لم يتضرّع الى الله طالباً الرحمة إذ كان يخشى ألا يستجيب الله دعاءه وهو الذي أورط نفسه في ظلمات الهرب من وجهه ، وإنّما أهاب ذلك التعس بالنوتية أن يأخذوه ويطرحوه في البحر ، إذ كان يعلم أنّ ذلك النوء العظيم إنّما ثار بسببه ، وحينئذ استثيرت شفقتهم عليه ، وتلمّسوا وسائل أخرى كي ينجّوا السفينة ، وذهبت محاولاتهم سدى ، واشتدّ عواء العاصفة الغاضبة ، فرفعوا الى الله يداً داعية ، وأمسكوا يونان بالأخرى وطرحوه في البحر وهم كارهون .» .

«هاهو يونان يهوي الى الأعماق كأنه المرساة المطروحة .وإذا السكون ينبسط من قبل المشرق ، فيكفّ البحر عن الهياج ، ويحمل يونان العاصفة معه ،مخلّفاً ماءً هادئاً وراءه ، ويتخطّفه وهو هابط جوف الهياج الجامح حتّى لايكاد يعي اللحظة التي ينزل فيها بين شقّي شدقين أهرتين فاغرين لتلقيه ، ويطبق الحوت وراءه كلّ أنيابه العاجية كأنّها مزاليج بيض يقفل بها باب سجنه . وصلّى يونان الى الرب إلاهه من جوف الحوت . تأمّلوا صلاته وخذوا منها عبرة راجحة . ذلك أنّه وهو الآثم لم يبكِ ولم يعول طالباً الخلاص الفوري . بل كان يحسّ أنّ العقوبة التي نزلت به عادلة فهو يُسلم أمر خلاصه لله ، ويقنع هو نفسه بشيء واحد رغم ضروب آلامه وعذابه : وذلك الشيء هو أن يعود فينظر الى هيكل قدس الرب . وهذه يارفاق البحر توبة نصوح خالصة إذ ليس فيها الإلحاف بطلب المغفرة وإنّما فيها الشكران على العقاب . وإذا شئتم أن تعرفوا مبلغ رضى الرب عن عمل يونان دلّكم عليه إن الله نجّاه في آخر الأمر من البحر والحوت . رفاقي! لست أعرض صورة يونان أمام أنظاركم لتحاكوه في خطيئته وإنّما أعرضها عليكم لتقتدوا بطريقته في الندم والتوبة . لا تقعوا في الإثم ولكن إن وقعتم فيه فتوبوا الى الله منه كما فعل يونان» .

وحين كان يرسل هذه الكلمات كان زئير العاصفة الصارخة المتحرّفة في خارج المعبد

كأنّما يضفي قوّة جديدة على الواعظ ، وكأنّما كان الواعظ نفسه وهو يصف العاصفة البحرية امرءاً تتلاعب به عاصفة . إذ كان صدره يعلو ويهبط كأنّ فوقه جرثومة تراب ، وكان ذراعاه وهو يطوّح بهما كالعناصر وهي تتقاتل متصارعة ، وكانت الرعود التي تتدحرج عن جبهته القاتمة والبروق التي تثب من عينيه تجعل مستمعيه البسطاء ينظرون اليه في خوف سريع غريب عليهم .

ثمّ غشت السكينة نظرته حين أخذ يقلّب صامتاً صفحات الكتاب مرّة أخرى ، ووقف دون حراك ، مغمض العينين ، مدى لحظة ، كأنه كان في النهاية يناجي ربّه ويناجي نفسه .

ثمّ مال بجذعه الى الأمام نحو المستمعين ، وطأطأ رأسه في وضع يدلّ على أعمق ضروب التواضع وعلى أشدّها رجولة في آنٍ معاً وقال :

« يا رفاق البحر . إنّ الله قد وضع عليكم إحدى يديه أما أنا فقد بسط عليَّ يديه كلتيهما . لقد قرأت لكم على ضوء خافت ينساب من نفسي العبرة التي علّمناها يونان ـ نحن الآثمين ـ فهي عبرة لكم ولكنّ العبرة لي من قصّة يونان أقوى لأنّي أشدّ منكم آثاماً . كم أحبّ أن أنزل عن قمّة هذا الصاري وأجلس بينكم فوق عنبر السفينة ، وأصغي كما تصغون بينا يقرأ لي أحدكم العبرة الأخرى ، العبرة الأقوى التي يعلمنيها يونان ـ أنا قائد سفينة الحيّ القيوم . كان يونان مثلي ربّاناً ، نبيّاً مسيحاً ، ينطق بالحق ، أمره الله أن ينادي بالحق أهل نينوى الذين صعد شرّهم أمام الربّ ، فخشي العداوة التي قد يثيرها وهرب ناكلاً عن أداء رسالته ، ومضى يريد أن يفرّ من وجه واجبه ووجه ربّه بالإرتحال في سفينة مقلعة من يافا . لكن حيثما ولّى المرء وجهه فثمّ وجه الله . فلم يبلغ يونان ترشيش ، وأتاه وعيد الله في صورة حوت ابتلعه وأهبطه الى قرارة المصير ، وانحرف به في سرعة خاطفة الى العمق « في قلب البحار » ، حيث حومات الأعماق اجتذبته عشرة آلاف قامة الى القرار ، « والتفّ عشب البحر برأسه » ، وعجّت فوقه جميع ويلات الماء . وحين كان على عمق لايبلغه أي مسبار بحري ـ « من أحشاء الجحيم » ـ حين كان الحوت قد أرسى على أقصى عظام المحيط ، سمع الله من الظلمات نداء النبي التائب السجين . وأمر الرب الحوت فجاء من عالم البرد الزمهريري وظلمة البحر يتضرّب صعدا نحو الدفء والشمس المنعشة ومتع الهواء والأرض « فقذف يونان الى البر » . وحين صدرت كلمة الله الى يونان مرّة أخرى ، وكان يونان مشجّجاً منهوك القوى وفي أذنيه اللتان تشبهان محارتين طنين البحر ، امتثل أمر ربّه . أيّ أمر ؟ أن يصدع بالحق في وجه الباطل ـ ذلك هو الأمر » .

« هذه هي العبرة الأخرى التي أستمدّها من قصّة يونان يارفاق وويل لربّان الحيّ القيّوم

الذي يستخفّ بها ، ويل لمن ألهته هذه الحياة الدنيا عن أداء فروض الكتاب ، ويل لمن أثار فتنة أطفأ الله نارها ، ويل لمن يبتغي أن يترضّى الناس أكثر ممّا يخوّفهم ، ويل لمن كانت سمعته آثر لديه من عمل الخير ، ويل لمن لايستدعي الهجنة الى نفسه في هذه الدنيا ، ويل لمن يتجنّب الحق وإن كان الباطل منجاة ، ويل لمن يعظ غيره ولا يتّعظ! ـ كما قال القدّيس بولس[١] » .

وتدلّى رأسه ونأى عن نفسه لحظة عاد بعدها فرفع رأسه الى القوم والبشر يلتمع في عينيه ، حين صرخ في حماسة ربّانيّة : « لكن يارفاق السفينة : في ميمنة سفينة كلّ ويل مسرّة حقيقية[٢] ـ طوبى حقة ـ وقمّة تلك المسرّة موغلة في سموقها بأكثر ممّا يوغل الويل في انحداره العميق . إذا أنتم قستم علوّ الصاري الكبير حتّى الصفحة المعدنية في رأسه وانخفاض الكلزون ـ أو اللوح المثبّت في قاعدة السفينة ـ ألستم تجدون علوّ الأول أكثر من انخفاض الثاني ؟ طوبى[٣] سامقة شاهقة روحيّة ـ لمن عرّض نفسه الصليبة ضدّ الأرباب والقباطنة المستكبرين في هذه الأرض . طوبى لمن أسعفته ذراعاه القويّتان حين تغرق سفينة هذا العالم الحقير الخائن ـ . طوبى لمن لم يسمع في الحقّ لومة لائم وإنّما يقتل الآثام ويحرقها ويهدمها ، وإن كان يستلّها من تحت ثياب القضاة والحكّام ـ . طوبى ـ شاهقة نبيلة ـ لمن لايقرّ بشرع سوى شريعة الله وبربّ سوى ربّه ومن أخذته الحمية للسماء،وحدها ـ . طوبى لمن إذا احتشدت كلّ أمواج بحار الرعاع الهائجة المائجة لم تزحزحه عن قاعدة سفينة الأجيال ـ . طوبى خالدة لذيذة لمن يقول حين يضجعونه في لحده : ربّاه ـ أنت يامن عرفتك بصولجان سطوتك ـ ها هنا أرقد ، خالداً كتبت لي أن أكون أو فانياً . لقد سعيت لأكون من حزبك لا لأكون من حزب الدنيا أو من حزب نفسي . غير أنّ هذا ليس أمراً ذا بال فإنّي لاحقّ لي بالخلود ، إذ الخلود لوجهك ، وما هو الإنسان حتّى يطلب البقاء . والبقاء صفة خالصة لربّه » .

لم يزد ، وإنّما لوّح بيده نحو الرؤوس ينشر فوقها البركات ، ثمّ غطّى وجهه بيده ، وبقي راكعاً وحيداً في موضعه ، حتّى فصل القوم جميعاً .

---

(١) يشير الى ١ كورينثوس ٩ : ٢٧ « بل أقمع جسدي واستعبده ، حتّى بعد ماكرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً » .

(٢) لاحظ أنّ اسم السفينة في الفصل : ١٣١ هو « مسرة » ، وهي آخر سفينة التقت بها الباقوطة .

(٣) تأمّل التوازن بين تكرير كلمتي « ويل » و « طوبى » في هذه الموعظة .

١٠

صديق حميم

حين رجعت من المعبد الى حارة النفاث وجدت كويكوج هناك وحده ، إذ كان قد غادر المعبد قبل نثر البركات ، وكان يجلس على مقعد أمام النار ، وقدماه على وجاق المدفأة ، وقد قرّب من وجهه صنمه الزنجي الصغير بإحدى يديه ، وأخذ يحدّد النظر في وجه الصنم ويعبث عند أنفه بمديته ، وهو في أثناء ذلك يهمهم لنفسه بطريقته الوثنيّة .

ولمّا قطعت عليه وحدته نحّى التمثال من يده ، وذهب توّاً الى الطاولة وتناول عنها كتاباً كبيراً ، ووضعه على ركبتيه وأخذ يعد صفحاته على نحوٍ لا يختلّ ، إذ كان يقف لحظة بعد كلّ خمسين صفحة ـ فيما تصوّرت ـ وينظر من حوله نظرات فارغة ثمّ يتفوّه بصفير طويل مفرغر من الدهشة ، ثمّ يبدأ في عدّ الخمسين التالية ، ويبدو أنه كان في كلّ مرّة يبدأ بواحد كأنّما كان يعجز عن أن يتجاوز الخمسين في عدّه ، وبعد أن كثر لديه عدد الخمسينات معاً ثارت دهشته من كثرة عدد الصفحات .

جلست أرقبه بإهتمامٍ بالغ : كان متوحّشاً وكان وجهه مشوّهاً ـ حسب ذوقي ـ تشويهاً بالغاً مفزعاً ومع ذلك فقد كان في قسماته ما لا يوصف بإثارة النفور . إنّ المرء لايستطيع أن يخفي حقيقة روحه ، وكذلك كان حال كويكوج ، فإنّي أظن أنّني رأيت من خلال وشمه الغريب آثار قلب بسيط شريف ، ورأيت في عينيه النجلاوين العميقتين اللتين تتلهبان سواداً وجسارة أمارات روح تستطيع أن تتحدّى ألف شيطان . زد على هذا أنّ هذا الوثني كان يطيف به منزع رفيع لم تستطع أن تشوّهه خشونته وفظاظة منبته . كان يبدو لي إنساناً لم يعرف الملق ولا يد الدائن العليا . وكان رأسه حليقاً وقد اتّخذت جبهته سمتاً متطلّقاً المعيّاً بالنسبة لرأسه وبدت أعرض ممّا هي في حقيقتها . أتراها كانت كذلك إذ كان رأسه حليقاً ؟ ذلك شيء لا أجرؤ على الجزم به ، ولكنّي على يقين من أنّ رأسه كان رأساً ممتازاً إذا نظرت

اليه من زاوية عِلم القوى العقلية ، وقد يبدو مضحكاً ، غير أنه ذكّرني برأس الجنرال واشنطن كما نراه في تماثيله المعروضه للناس ، ففيه ما في رأس واشنطن من إنحدار مقعنس متدرّج بانتظام فوق الحاجبين وهما لديه أيضاً حاجبان شديدا البروز كأكمتين طويلتين يتكاثف الشجر في قمّتيهما . كان كويكوج هو جورج واشنطن وقد تطوّر في اتّجاه بداني .

وبينما كنت أرقبه عن كثب وأنا كأنّما أوهم في الوقت نفسه أنني أنظر الى العاصفة من النافذة لم يتنبّه هو لوجودي ، ولاعنى نفسه أن يلقي عليّ نظرة واحدة وإنّما بدا أنه منهمك كلّ الإنهماك فِي عدّ صفحات ذلك الكتاب العجيب . وإذ تذكّرت كيف كنّا ننام معاً على وئام في الليلة السابقة ، وبخاصّة إذ تأمّلت تلك الذراع الحانية التي وجدتها تطوّقني حين صحوت في الصباح ، خيّل اليّ أنّ قلّة احتفاله بي أمرٌ مستغرب . غير أنّ المتوحّشين كائنات غريبة ولايعرف المرء بدقّة أحياناً كيف يعاملهم . فهم يبدون أوّل الأمر مصدر رهبة بالغة ، وتبدو السكينة المطمئنّة في بساطتهم حكمة سقراطيّة . ولحظت أيضاً أنّ كويكوج لم يكن على شيء من الانسجام ـ أو لعلّه كان على انسجام قليل ـ مع البحارة الآخرين في الحان . فلم يحاول أن يباشر التعرّف الى أحد منهم ، بل بدا أنه لا يرغب في أن يوسّع دائرة معارفه . كلّ هذا لفتني بأنه شيء فذّ فريد ثمّ كررت فيه النظر فوجدت فيه أيضاً شيئاً من الروعة . ها هنا رجل ابتعد عن وطنه عشرين ألف ميل عن طريق رأس هورن ، وهَو الطريق الوحيد الذي يبلغه الى وطنه ، وقد رماه القدر بين ناس غرباء عنه فكأنّما ألقاه في كوكب المشتري ، ومع ذلك كان مسترسل الطمأنينة محتفظاً بأقصى حظ من الهدوء والرصانة ، قانعاً بصحبة نفسه ، غير متعدّ طوره . وفي هذا ـ دون ريب ـ مسحة من فلسفة جميلة ؟ وإن كان هو لم يسمع على وجه اليقين بما نسمّيه فلسفه ، ولكنْ لعلّنا إن شئنا ، نحن الفانين ، أن نكون فلاسفة حقّاً فعلينا ألا نعي أننا نعيش عيش الفلاسفة أو نسعى لنكون كذلك . وكلّما سمعت بأنّ زيداً أو عمراً من الناس يرى في نفسه أنه فيلسوف فإنّي أستنتج ـ كما استنتجت العجوز المصابة بسوء الهضم ـ أنه « قد كفّ عن تناول الهاضوم » ، ولابدّ .

جلست في تلك الغرفة المتوحّدة والنار تتلهّب في غير حدّة ، وإنّما هي في مرحلة لطيفة من التوقّد وقد خفتت فيها حدّتها التي أدفأت الهواء فأصبحت تصلح لمتعة النظر . جلست وأطياف المساء وأشباحه تتجمّع حول النافذة وتسرق النظر الينا في صمت ، نحن الإثنين الوحيدين ، والعاصفة تهدر في الخارج في تموّجات مهيبة ، وفي جلستي تلك أخذت أحسّ بمشاعر غريبة ،أحسست شيئاً يذوب ويتهاوى في دخيلة نفسي ، لن أوجّه بعد اليوم قلبي الممزّق ويدي المجنونة ضدّ عالم المخلب والناب ، فهذا المتوحّش الذي ينشر الطمأنينة من

حوله قد افتدى العالم . ها هو يجلس هناك وقلّة إكتراثه بالأشياء تنبىء عن طبيعة لايندسّ فيها نفاق الحضارة وخدعها المستعذبة . نعم هو وحشي المنبت ، يحلو للمرء أن يراه ، ولكنّي بدأت أحسّ أنني أنجذب اليه على نحوٍ غريب ، والمغناطيس الذي يشدّني نحوه هو تلك الأمور التي تنفر منه معظم الآخرين ، وقلت لنفسي : سأجرّب صداقة امرىء وثني بعد أن برهن اللطف المسيحي على أنه تودّد أجوف . وقرّبت مقعدي منه ورسمت بعض الإشارات والحركات الودّية ، باذلاً ما في وسعي من جهد لأتحدّث اليه أثناء ذلك ، ولم يكترث هو بهذه البوادر الودّية أوّل الأمر ، غير أنّي حالما أشرت الى كرم ضيافته في الليلة الماضية عانى صوغ عبارة يسألني فيها : هل سنكون رفيقيّ سرير مرّة أخرى ؟ فأجبت أنْ نعم ، وخيّل اليّ أنه استشعر الرضى أو لعلّه أبدى ارتياحه بما عدّه تقديراً .

ثمّ أخذنا نقلّب صفحات الكتاب معاً ، وحاولت أن أشرح له الغاية من الطباعة ومعنى الصور القليلة التي احتواها الكتاب وسرعان ما أثرتُ اهتمامه ، ومن ثمّ انتقلنا نهذرم ، بأقصى مانستطيع ، حول المناظر الخارجية المتنوّعة التي لابدّ للمرء من أن يراها في هذه المدينة الشهيرة . وفي التوّ اقترحت عليه أن نشترك في التدخين فأخرج كيدوسه وجرابه وعرض عليّ في هدوء أن أسحب أنفاساً . وجلسنا نتبادل سحب الأنفاس من ذلك الشبك العجيب وجعلناه يتنقّل فيما بيننا في انتظام .

إن كان قد تسلّل الى صدر ذلك الوثني شيء من جليد اللامبالاة نحوي فإنّ هذه الأنفاس الممتعة المؤنسة قد أذابت ذلك الجليد وجعلتنا خدنين ، فقد ألفني على نحوٍ طبيعي عفوي مثلما ألفته ، وعندما انتهينا من التدخين ضغط جبينه على جبيني وطوّقني عند الخصر وقال : « منذ اليوم تمّ اقتراننا » ، وهذا يعني في لغة بني قومه أننا قد أصبحنا صديقين حميمين ، وأنه قد يقدّم حياته من أجلي مغتبطاً إذا استدعى الأمر ذلك . لو أنّ أحد أبناء وطني بادهني هذه الوقدة المفاجئة من الصداقة لقلت ذاك تسرّع لاتحمدُ عقباه ، ولأحطتُ حماسته المندفعة بالشكّ والريبة ، غير أنّ هذه النظرة القديمة الى معنى الصداقة لا تنطبق على هذا المتوحّش الساذج .

ذهبنا معاً الى الغرفة بعد تناول العشاء وتبادل الحديث الودّي والتدخين . فأهداني الرأس المحنّط الذي لديه ثمّ استخرج كيس الطباق الكبير وتلمس بأصابعه ما تحت الطباق ، وأخرج ثلاثين دولاراً فضّياً ونشرها على الطاولة وقسّمها بالتساوي قسمين بطريقة آلية ، ودفع بأحدهما نحوي وقال : هذه حصّتك . وكان عليّ أن أعترض إلاّ أنه أسكتني حين سكبها في جيوب سروالي ، فتركتها حيث اطمأنّتْ . ثمّ قام يؤدّي صلوات المساء فأخذ صنمه ،

وأزاح اللوح المغطّى بالورق ، وظننت من بعض الإشارات والأعراض أنه يرغب في أن أشاركه صلواته ، ولمّا كنت أعلم ما سوف يتلو فكّرت لحظة : ترى إذا دعاني فهل أطاوعه أو لا ؟

كنت مسيحيّاً متديّناً ، ولدت ونشأت في أحضان الكنيسة المشيخيّة (البرسبتيرية) المعصومة . كيف أتّحد مع هذا الوثني البدائي وأعبد قطعة من الخشب ؟ ولكنّي قلت لنفسي : ما هي العبادة ؟ أتظن يا اسماعيل أنّ إلهك العظيم ربّ السماء والأرض - ربّ الوثنيّين وغيرهم - يمكن أن يغار من قطعة تافهة من الخشب الأسود ؟ مستحيل . لكن ما العبادة ؟ - الإمتثال لإرادة الله ، تلك هي العبادة . وماهي إرادة الله ؟ - أن أعمل لإخوتي بني الإنسان ما أحبّ أن يعمله بنو الإنسان من أجلي ، تلك هي إرادة الله . وكويكوج أخ لي في الإنسانيّة فما الذي أرغب أن يعمله من أجلي ؟ أن يؤدّي العبادة معي على حسب المذهب المشيخي . إذن فعليّ أن أتّحد معه . إذن فعليّ أن أصبح عابد صنم . لذلك أشعلت النشارة ونصبت الصنم الصغير البريء وقدّمتُ اليه بسكويتاً محروقاً أنا وكويكوج وانحنيت له بالسلام مرّتين أو ثلاثاً وقبّلت أنفه . وحين انتهينا من ذلك خلعنا ملابسنا وذهبنا الى السرير وقد إطمأنّ ضميرانا وأصبحنا في سلام مع العالم كلّه . غير أننا لم ننم قبل أن نتبادل قليلاً من الحديث .

ليس في الدنيا مكان للمكاشفة بالأسرار بين الأصدقاء مثل السرير ، ولاأدري لِمَ كان ذلك كذلك . يقولون إنّ الرجل وزوجه يفتح أحدهما للآخر أعماق روحه في السرير ، وبعض الأزواج الشيوخ كثيراً مايستلقون ويتحدّثون عن الأيام الخوالي حتّى الصباح . كذلك استلقيت أنا وكويكوج في عرس قلبين ، قرينين مطمئنين متحابّين .

١١

المنامة

اضطجعنا في السرير نثرثر ، وتدركنا سُنَة قصيرة فنذوق النوم غراراً ثمّ نصحو ، وبين الحين والحين كان كويكوج يطرح ـ في حنوّ ـ رجليه السمراوين الموشومتين فوق رجليّ ثمّ يسحبهما . كنّا على غاية من الألفة والإنطلاق والطمأنينة . ومن حلاوة السَمر انقشعت عن عيوننا أخيراً كلّ أثار النعاس ، وشعرنا كأننا قد أخذنا قسطنا من النوم وصحونا ، وإن كان الصبح مايزال نائياً عنّا في الغيب .

نعم استكملتْ يقظتنا حتّى بدأ الإضطجاع يبدو لنا متعباً ، وقليلاً قليلاً وجدنا أنفسنا نجلس ، والثياب مطوية من حولنا ، وسندنا ظهرينا الى ظهر السرير وقد جعلنا ركبنا الأربع متقاربة في هيئة تشبه الحبوة ، وانحنينا بحيث يتّجه الأنف نحو الركبتين كأنّما النقرة بينهما مدفأة نستمدّ منها الحرارة . كنّا نحسّ بعذوبة واسترخاء ، وازداد احساسنا بذلك إذ كان البرد قارساً في الخارج ، ولابدّ أنه كان قارساً في الداخل إذ نحن تجاوزنا ثياب النوم ، فقد كانت الغرفة دون نار . أقول : ازداد إحساسنا بذلك لأنّ المرء إن شاء أن يستمتع دفء الجسد فلا بدّ له من أن يدع جزءاً من جسمه عرضة للبرد ، إذا ليس هناك من صفة في العالم تتّخذ لها وجوداً متعيّناً دون أن توضع موضع المفارقة لصفة أخرى . ليس هناك شيء قائم بذاته . إذا أوهمت نفسك أنّك مرتاح وأنه قد مضى عليك وقت طويل وأنت كذلك فاعلم أن صفة الراحة لم تعد تنطبق عليك . ولكن إن كنتَ مثلي ومثل كويكوج في السرير قد جعلت أرنبة أنفك أو يافوخك يحسّ بالبرد قليلاً فهناك تشعر شعوراً عاماً بأنّك في دفء ممتع حقيقي . لهذ السبب يجب ألا تزوّد غرفة النوم بالنار فهذا من عيوب الترف في حياة الأغنياء . إذ أنّ ذروة السرور في لذّة الدفء هي أن لا يفصل بينك أنت وماتهوّم فيه من جمام وبين برد الهواء في الخارج شيء سوى البطانيّة ، عندئذ تستلقي كأنّك قبس دافىء في جوف بلوزة قطنيّة .

كنّا قد اتّخذنا هذه الحبوة بعض الوقت حين خطر لي فورا أن أفتح عيني ، ذلك أنني كنت بين ملاءتي السرير ، ليلاً أو نهاراً ، نائماً كنت أو يقظان ، فإنّ من عادتي دائماً أن أبقي عينيّ مغمضتين لكيما أستغرق في الشعور بالاسترخاء في السرير . وما من امرىء يستطيع أن يحسّ بهويّته الحق إلاّ وعيناه مغمضتان ، كأنّما الظلمة هي العنصر الذي يتكوّن منه جوهرنا ، وإن كان النور أكثر انسجاماً مع الطبيعة الطينية فينا . فلمّا فتحت عينيّ وخرجت من الظلمة الراضية التي خلقتها لنفسي الى ظلمة جاهمة مفروضة عليّ لا يتخلّلها ضياء في الثانية عشرة ليلاً أصابني انتكاس وبيلْ . ولذا أمنت على اقتراح كويكوج بأنه قد يكون من الخير أن نشعل المصباح مادامت يقظتنا مستكملة ، ثمّ هو قد شعر برغبة لاهفة الى بضعة أنفاس هادئة من كدوسه . لقد أصابني نفور حاد في الليلة الماضية من تدخينه في السرير ولكنْ ألا ترون كيف أصبح الهوى العنيد المتصلّب مرناً ليّناً حين يحاول الحبّ أن يحنيه ؟ فأصبح أحبّ شيء إليّ أن أرى كويكوج يدخّن الى جانبي ونحن في السرير لأنه كان في تلك الحال يبدو في فرح عائلي لطيف . ولم أعد أبدي اهتماماً لا مسوّغ له بعقد التأمين الخاصّ بربّ النزل . وإنّما أصبحت أعنى بالطمأنينة المكتنزة الخاصة الناجمة عن مشاركة صديق صدوق في كدوسه وسريره . وتبادلنا الشبك فيما بيننا وقد طرحنا سترتينا الخشنتين على أكتافنا حتّى انعقد فوقنا ـ في بطء ـ ظلة زرقاء من الدخان يتخلّلها ضوء المصباح الذي أشعلناه قبيل ذلك .

هل كانت تلك الظلّة المتموّجة هي التي طوّحت بذلك الإنسان البدائي الى مشاهد الماضي ؟ لست أدري ، غير أنه تحدّث عن وطنه ، وكنت توّاقاً الى سماع تاريخه ، فرجوته أن يمضي في الحديث ، فامتثل في سرور ورضى . حينئذ لم أحسن فهم كثير من كلماته إلا أنّ ما أفضى إليّ به من بعد حين أصبحت أكثر ألفة بتعبيراته «المكسّرة» يجعلني الآن قادراً على أن أقدّم قصّته كلّها أيّاً كانت وقائعها في هذا الموجز الذي أسرده .

١٢

موجز سيرة

كان هذا الرجل من أبناء كوكوفوكو وهي جزيرة تقع الى الغرب والجنوب ، وليس لها على المصورات الجغرافية وجود ، فالأماكن الحقّة لا تدرج على تلك المصوّرات أبداً .

وحين كانَ حديثَ الولادة يجري كأنه حيوان بريّ في أرجاء الغابات وهو يخصف عليه تباناً من الحشيش ، فتتبعه المعزى قاضمة عنه كأنه شجيرة خضراء ، في ذلك الحين تغلّغت في روحه الطمّاحة رغبة جيّاشة ليعرف عن دنيا المسيحية أكثر ممّا يستطيع أن يراه في أنموذج أو اثنين من صيّادي الحيتان .

كان والده رئيساً كبير المقام ، كان ملكاً ، وكان عمّه رأس الكهنة ، وكان إذا ذكر النسب الامومي يستطيع أن يفخر بأنّ له خالات تزوّجن محاربين باسلين لايغلبون . كان الدم الذي يجري في عروقه ممتازاً ـ إذ كان ملوكيّاً ، وإن كنت أخشى أنه للأسف قلّل من النسبة الملوكيّة فيه بنزوعه في شبابه الجاهل الى أكل لحوم البشر .

وذات يوم زارت سفينة قادمة من ميناء ساج[١] الخليج الواقع في مملكة أبيه ، وتلمّس الشاب أن يسافر الى أرض مسيحية ، إلاّ أنّ السفينة كانت مزوّدة بما يكفيها من بحّارة ولذلك رَدّتْ طلبه بازدراء ، ولم ينجح نفوذ والده في تذليل ذلك الردّ ، غير أنّ كويكوج أقسم أن يحقّق ما تصبو اليه نفسه ، فدفع بزورقه وحيداً الى مضيق بعيد كان يعلم أنّ السفينة لابدّ أن تجتازه حين تغادر الجزيرة ، وكان على أحد جانبيه حاجز مرجاني وعلى الجانب الثاني برزخ منخفض من الأرض تغطّيه غابات المنجروف التي تنمو وتترعرع في الماء ، فخبأ زورقه وهو عائم بين تلك الغابات جاعلاً مقدّمته قِبَلَ البحر وجلس هو على كوثلة

---

(١) قرية صغيرة على الساحل الجنوبي ، على مقربة من الطرف الشرقي من لونج آيلاند .

الزورق وقد أمسك بالمجذاف منخفضاً بيده ، فلمّا جاءت السفينة تنساب على الماء انطلق من مكمنه كالبرق الخاطف وتعلّق بجانبها وركل بقدمه زورقه فقلبه رأساً على عقب وأغرقه ، وتسلّق السلاسل ، ورمى نفسه مستجمعاً كلّ طاقته على ظهر السفينة ،وقبض على مزلاج حلقي هنالك وأقسم أن لا يفلته ولو قطّعوه إرباً إرباً .

هدّده القبطان بأنه سيقذف به في الماء ، فذهب تهديده سدى ، علقَ سيفَ بحّارٍ فوق معصميه العاريين ، ولكنّ كويكوج ـ وهو ابن ملك ـ لم يطرف له جفن . وأعجب القبطان بهذه الجراة المستيئسة وبرغبته الفذّة في أن يزور دنيا المسيحية ، فلان شماسه أخيراً وأخبره أنه يتقبّله على الرحب والسعة . إلاّ أنّ هذا الشاب المتوحّش الأريب ، هذا الرجل الذي كان في بلده وريث عرش لم يرَ أبداً قمرة القبطان ، وإنّما وضعوه بين البحارة وجعلوا منه صيّاد حيتان . ومثلما كان القيصر بطرس الأكبر راضياً أن يكدّ في أحواض السفن في مدن أجنبيّة[1] ، كذلك كويكوج لم يأنف من كلّ ماقد يلحق به الهوان ، إذ هو استطاع بذلك أن يكسب القدرة على تنوير بني وطنه الأمّيين وتثقيفهم .وقد قال لي أنه كانت تحدوه في أعماقه رغبة عميقة في أن يحرز بين المسيحيين تعلّم الفنون والوسائل التي تجعل قومه أسعد حالاً ممّا كانوا عليه ، بل يريد إن صحّ له ذلك أن يجعلهم خيراً ممّا كانوا . ولكنْ واأسفاه! فإنّ تصرّفات الصيّادين أقنعته بأنّ المسيحيين قد يكون فيها التعساء والأشرار وأنهم قد يتفوّقون في تعاستهم وشرورهم على رعايا أبيه الوثنيين . وأخيراً وصل مرفأ ساج ورأى مايفعله البحارة هنالك ثمّ ذهب الى نانتوكت ورأى في أيّ الوجوه ينفقون أجورهم هنالك أيضاً ، وعندئذ قال كويكوج المسكين لنفسه : واضياعَ جهداه! هذا عالم شرير أينما ولّى الإنسان وجهه . سأظلّ وثنياً حتّى أقضي نحبي .

وهكذا عاش بين هؤلاء المسيحيين وتزيّا بزيّهم وانتحل رطانتهم وهو وثني عريق في أعماقه . وهذا هو وجه الغرابة في عاداته وإن كان قد نأى عن وطنه منذ زمن .

وألمحت اليه متسائلاً : لماذا لا يفكّر في العودة الى بلده ليتوّج فيها ملكاً ، إذ هو قد يعدّ أباه في الموتى الفانين بعد أن أصبح شيخاً همّاً ضعيفاً . فأجابني بأنه لم يحن أوان ذلك بعد ، وأضاف يقول : إنه يخشى أن تكون المسيحية ـ أو أهلها بالأحرى ـ قد جعلوه غير ملائم لإرتقاء عرش نقي خالص توارثه ثلاثون ملكاً وثنيّاً قبله . وقال : إنه قد يعود مع

---

(١) بطرس الأكبر (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥) سافر متنكراً باسم بطرس ميخايلوف ودرس عدّة فنون وعلوم في مدن ألمانيا وهولندء وقضى بضعة أشهر من عام ١٦٩٨ عاملاً في دار الصناعة بمدينة دبتفورد بإنجلترا يتعلّم بناء السفن ، كي يدخل فنون أوربا الغربية وصناعاتها الى روسيا .

الزمن حين يحسّ أنه قد استعاد «العماد» الوثني مرّة أخرى . أمّا هدفه قبل ذلك فهو أن يطوف مبحراً ، وأن يبذر «زوانه» في المحيطات الأربعة جميعاً . لقد جعلوا منه حوّاتاً وأصبح رمح الصيد الشائك في يده بديلاً عن الصولجان .

وحين وقف الحديث عند ما يزمع أن يؤدّيه في المستقبل سألته ما الذي ينوي أن يفعله في الحاضر الراهن فوراً ؟ فأجابني بأنه عائد الى البحر آخذ في حرفته القديمة . عندئذ أخبرته أنّ صيد الحيتان هو هدفي أيضاً ، وأعلمته أنني أنوي الإبحار الى نانتوكت إذ هي خير ميناء يبحر منه الصياد المغامر ، أعني خير ميناء يعدُ بصيد وفير . فقرّر حالاً أن يرافقني الى تلك الجزيرة وأن يسافر معي على السفينة ذاتها ، ونكون معاً في نوبة واحدة ، وقارب واحد ، وعلى مائدة واحدة . وبإيجاز : سيشاركني في كلّ ما يقدّر لي ، ويداي الإثنتان بين يديه ، وقد غمست الأيدي معاً بجرأة في «وجبة» العالمين اللذين ننتمي اليهما . فوافقت على كلّ ما قاله وأنا جذل فقد كنت أحمل له ودّاً ، وكان الى ذلك حوّاتاً مدرّباً ، ومن كان مثله لم يعجز عن أن يكون ذا نفعٍ عظيم لامرئ مثلي يجهل كلّ شيء عن أسرار صيد الحوت وإن كان يعرف البحار معرفة الملاحين التجّار .

وانتهت قصّته عند آخر نفس اجتذبه من «الشبك» فعانقني وضغط جبهته على جبهتي وأطفأ النور ، فتباعدنا أحدنا عن الآخر كلّ الى ناحية ، وارتمينا توّاً في أحضان النوم .

١٣

عربة يد

في صباح اليوم التالي ـ وهو يوم الاثنين ـ تخلّصت من الرأس المحنّط حين دفعته الى حلاّق ليعرض عليه جمّة من الشعر المستعار ، وبعد ذلك دفعت ما عليّ وما على صديقي من حساب مستغلاً النقود التي أعطانيها ذلك الصديق . ويبدو أن ربّ النزل والنزلاء جميعاً أحسّوا على نحوٍ مدهش بالغيرة من هذه الصداقة المفاجئة التي نبتت بيني وبين كويكوج ، وخصوصاً وأنّ بطرس التابوتي ـ رب النزل ـ حكى لي عنه حكايات موغلة في الاسراف والغلوّ فأخافني من الشخص نفسه الذي أصبحت اليوم أرافقه .

استعرنا عربة يد ونقلنا أشياءنا وفيها حقيبتي القماشية البائسة وفيها من أمتعة كويكوج كيسه الخيشي وأرجوحة نومه ، ومضينا منحدرين الى « الطحلبة » تلك السفينة الصغيرة المثناة الشراع الراسية عند رصيف الميناء على أهبة الإقلاع الى نانتوكت . وبينما كنّا سائرين كان الناس يحملقون فينا ، ولم تتجه أنظارهم كثيراً الى رفيقي إذ تعوّدوا أن يروا متوحّشين مثله في شوارع بلدهم ، وإنّما كانوا يحدّقون لرؤيتنا أنا وإيّاه في صحبة وثيقة : غير أنّا لم نعرهم اهتماماً وظللنا ندفع العربة ، كل بدوره ، وكان كويكوج يقف بين الحين والحين ليسوّي الغمد على ريش رمحه . فسألته لِمَ يحمل مثل هذا الشيء المزعج على الساحل ، أليست كلّ السفن المخصّصة لصيد الحيتان مزوّدة بالرماح الصالحة للصيد ؟ فأجابني على هذا السؤال بما فحواه : إنّ ماألمعت اليه حق تماماً ولكنه ذو مقة خاصة لرمحه إذ هو من مادة مضمونة مجرّبة في عديد المعارك وقد أصبحت قلوب الحيتان مألفاً لسنانه . أي أنّ كويكوج ـ بعبارة موجزة ـ كان لأسباب خاصة يؤثر سلاحه مثلما أنّ الحصادين الذين يستأجرون للحصاد في حقول المزارعين يذهبون الى عملهم وقد حملوا مناجلهم الخاصة بهم وإن لم يكونوا مجبرين على أن يتزوّدوا بها .

وإذ نقل العربة من يدي الى يده قصّ عليّ قصّة مضحكة عن موقفه من أوّل عربة يد يشاهدها . كان ذلك في مرفأ «ساج» ويبدو أنّ أصحاب السفينة التي ركبها أعاروه عربة لكي ينقل فيها صندوقه الثقيل الى الفندق الذي ينزله ، ومن أجل ألاّ يقال أنه يجهل كيف يستعملها ـ والواقع أنه كان على جهل تام بطريقة استعمالها ـ وضع صندوقه عليها وربطه ربطاً محكماً ، ثمّ حمل العربة على منكبه ومضى يشقّ الرصيف . قلتُ له : «أوه ياكويكوج ، أظنّ أنّك كنت تعرف خيراً ممّا فعلت ، ترى ألم يضحك الناس من ذلك ؟» .

فلمّا سمع ذلك منّي حكى لي قصّة أخرى . قال : إنّ الناس في جزيرة روكوفوكو يعصرون في حفلات الأعراس الماء العطر من أثمار جوز الهند الفتيّ في سقاء يقطيني مدهون يشبه الكأس الذي يصبّ فيه شراب البنش . وهذا الكأس ـ أو لنسمّه الرفد ـ يمثّل دائماً واسطة العقد في الزينة على البساط المجدول حيث يقام الإحتفال . وذات يوم وقفت في ميناء روكوفوكو سفينة تجارية كبيرة ، ودعي قائدها الى عرس أخت كويكوج ، وكانت أميرة جميلة يُزهف بها العمر نحو الحادية عشرة . وكان القبطان من أيّ وجه اعتبرته يعدّ سيّداً جليل المظهر عارفاً بأصول اللياقة وآدابها ، بما يليق بقبطان في سفينة . فلمّا اجتمع الضيوف جميعاً في كوخ العروس ـ وهو من البوص الهندي ـ دخل القبطان وقد خصّص له مجلس الشرف ، فجلس عند ذلك الرفد بين رأس الكهنة وجلالة الملك ، والد كويكوج ، وحين انتهوا من تقديم التحميد والدعاء ، ـ فأولئك الناس يبدأون أيضاً بالتحميد وقد أخبرني كويكوج أنهم يفعلون حينئذ خلاف مانفعل ، فنحن ننظر ، إذ نردّد أدعية الشكر ، الى الصحاف المنشورة بين أيدينا ، أمّا هم فيقلّدون طيور البطّ ، وتشرئبّ أعناقهم وأعينهم نحو الوهاب العظيم الذي يمنحنا جميع الأعياد والاحتفالات ـ أقول : حين انتهوا من تقديم التحميد افتتح رأس الكهنة المائدة بالشعائر الخالدة التي عاشت عليها الجزيرة ، أي بأن غمس أصابعه الميمونة التي تفيض بركة ، في الرفد ، قبل أن يدار العصير المبارك على الشاربين . ولمّا رأى القبطان أنه يجلس الى جنب رأس الكهّان وبعينيه فعل ذلك الكاهن الأعلى مافعل ، وظنّاً منه أنه مادام قبطاناً لسفينة فهو مقدّم على مَلِكٍ لايملك إلاّ جزيرة ، وبخاصة وهو ضيف في دار الملك ـ أقول : لذلك تقدّم ذلك القبطان ـ غير مبالٍ ـ وغسل يديه في ذلك الرفد ظانّاً أنه قدح كبير تغسل فيه الأيدي . وقال كويكوج : «تفتكر ماذا ؟ أما ضحك منه قومنا ؟» .

وأخيراً دفعنا أجرة السفر وأودعنا الأمتعة ووقفنا على ظهر تلك الشانية ، فنشرت شراعيها وانسابت على نهر آكشنت . وعلى أحد الجانبين تجلّت نيوبدفورد وقد امتدّت

شوارعها صفوفاً ، والأشجار التي يغطّيها الثلج تتلألأ في الفضاء البارد وقد كُدّست على أرصفتها تلال وجبال من براميل فوق براميل ، وقد تلاصقت سفن صيد الحيتان التي تجوب العالم ووقفت صامتة بعد أن أرست سالمة هنالك في نهاية مطافها . بينما كان ينبعث من سفن أخرى أصوات النجارين وصانعي البراميل وقد اختلطت بضجيج النيران والأفران لإذابة القار ، وكلّ ذلك ينبئ عن التأهب لرحلات جديدة . فما تنتهي أخطر سفرة وأطولها حتّى تبدأ ثانية ، وما تكاد تنتهي الثانية حتّى تبدأ ثالثة وهلمّ جرّا الى الأبد . ذلك هو الدءوب الدائب ، بل تلك هي الفداحة الباهظة ، في كلّ السعي الإنساني على الأرض .

النسيم المرتعش يزداد طلاقة وترويحاً عندما يحتضن بسيط الماء ، و« الطحلبة » الصغيرة تنثر الزبد المتسارع عن مقدّمتها كما ينفث المهر الفتيّ أنفاسه . كيف كنت أتنفّس ذلك الهواء الجهنّمي! ما أشدّ ما احتقر الأرض ذات الحواجز والأتاوات والجوازات! تلك الطريق العامة التي خدّدتها نعال العبودية وحوافرها! وتحوّلت الى الإعجاب بعظمة البحر الذي لاتنطبع فيه آثار .

ويبدو أنّ كويكوج كان يرد موردي ويشرب من دنّ كدنّي ويترنّح مثلّ ترنّحي ، فقد تفاجت فتحتا أنفه الأسمر وابتسم جذلان ابتسامة كشفت عن أسنانه المشحوذه المحددة . وطارت بنا السفينة ، وكسب عرض البحر الجولة ، وأدّت « الطحلبة » شعائر الولاء لهيمنة الريح ، فانحنت إجلالاً وانغمرت مقدّمتها كأنّها عبد بين يدي سلطان ، وكلّما مالت الى جانب انبعثنا نميل معها ، وكلّ كرّ من كرورها يجلجل كأنه سلك معدني ، والصاريان الطويلان ينكبّان كأنهما قصبتان هنديّتان في وجه إعصارٍ بريّ . وانهمكنا في هذا المشهد المترنّح حين كنّا واقفين أمام الدقل المائل الغاطس ، حتّى لقد مرّ علينا وقت لم نلحظ فيه النظرات الساخرة التي كان يسدّدها الينا المسافرون وهم مجموعة من الحمقى تعجّبوا من أن يكون إثنان من الناس على مثل هذه الصحبة ، كأنّ الرجل الأبيض شيء أرفع من الزنجي الذي فقد البياض . لكنْ كان هناك بعض الحمقى والمتغطرسين تدلّ صفرتهم الشاحبة على أنهم جاءوا من قلب الضغينة ومن سويداء الغيرة . وفاجأ كويكوج أحد هؤلاء الأيفاع الأغرار وهو يحاكيه ساخراً من وراء ظهره . وظننت أنّ ساعة ذلك المتغطرس قد دنت ، فقد نحّى ذلك المتغطرس المفتول الساعد رمحه ، وأمسك بالفتى من ذراعيه وطوّح به في رشاقة وقوّة خارقة في الفضاء ، ثمّ ضربه على كفله في انقلابة ، فأرسى على قدميه ، وصدره يكاد أن ينشقّ ، وأدار كويكوج ظهره غير مكترث وأشعل كدوسه ودفعه اليّ لأسحب منه نفساً .

فصرخ المتغطرس وهو يجري نحو الضابط : « كبتان! كبتان... هذا شيطان » وصاح

القبطان ، وهو ضلع عجفاء ، فيما هو يمشي في خيلاء نحو كويكوج : «أنت . هناك . بحقّ الشياطين ماذا تعني بذلك ؟ ألا تدري أنك قد تقتل الفتى ؟» .

فقال كويكوج وهو يلتفت نحوي بلطف : «هو ، يقول ماذا ؟» قلت : «يقول لك أنك كدت تقتل ـ هو» وأشرت الى ذلك الغرّ المرتعد .

فصرخ كويكوج وهو يلوي قسماته الموشومة في تعبير من الإزدراء غريب : «أنا أقتل هو ـ سمكة هو صغيرة!! إنّ كويكوج يقتل ـ هُ ـ حوتاً كبيراً» .

فزأر القبطان يقول : «أنا أقتلك يا آكل لحوم البشر إذا أنت قمت بإحدى حيلك ها هنا على هذه السفينة . فاحذر ثمّ احذر» .

في تلك اللحظة آنَ الآوان لكي يكون القبطان نفسه على حذر ، ذلك أنّ الضغط الهائل على الشراع الأكبر قد فصل الحبل الذي يضبط زاوية الشراع ، وأخذت السارية الكبرى التي بها تمتدّ قاعدة الشراع ـ ولنسمّها المشحان ـ تتأرجح من جانب الى جانب وتكنس في حركتها الجزء الخلفي من ظهر السفينة . أمّا المسكين الذي عَنُفَ عليه كويكوج فقد اكتسحته وألقته في البحر . وعقد الخوف الأيدي جميعاً عن الحركة ، ولو حاولتْ يد أن تمتد الى السارية لتثبّتها لكان ذلك هو الحمق عينه . فقد كانت تطير يمنة ويسرة وتعود ثانية في أقل من لمح البصر وفي كلّ لحظة تكاد تتطاير الى شظايا . فلم يعمل أحد شيئاً ولم يُبدُ أنّ شيئاً يمكن أن يُعمل . أمّا الذين على الظهر فاندفعوا نحو المقدّمة ووقفوا يرقبون السارية ـ المشحان ـ كأنّها الفكّ الأسفل من حوت محنق يستشيط غضباً . وفي غمرة هذا الفزع المشلول انحنى كويكوج برشاقة على ركبتيه ، وزحف تحت متأرجَح السّارية ، وأمسك بحبل ، وأوثق أحد طرفيه الى الجانب الواقع فوق ظهر السفينة ، ثمّ قذف الطرف الثاني كأنه أنشوطة ، وأعلقه حول السارية وهي تتأرجح فوق رأسه ، وفي الهزّة التالية أعلق السارية نفسها وثبّتها ، وبذلك سلم كلّ شيء . واندفعت الشانية مع الريح ، وبينما كانت الأيدي تعالج القارب في المؤخرة ، نزع كويكوج ثيابه حتّى الخصر ، ووثب من الجانب وثبة متقوّسة حيوية طويلة . وظللنا نراه مدّة ثلاث دقائق أو أكثر وهو يسبح كأنه كلب ، يلقي ذراعيه الطويلتين على استقامة أمامه ، وأحياناً يبرز كتفيه المفتولين من خلال الزبد الذي يجمّد الأطراف . ونظرت الى ذلك الرفيق العظيم الرائع فلم أرَ شخصاً يتطلّب إنقاذاً . لأنّ ذلك الفتى الغرّ كان قد احدر الى الأعماق . غير أنّ كويكوج انطلقَ عمودياً من خلال الماء ولمح ما حوله في لحظة ، ثمّ ـ كأنّما عرف الأمور على حقيقتها ـ غاص واختفى عن الأنظار . وبعد بضع دقائق ظهر ثانية وإحدى ذراعيه تضرب الماء ، والأخرى تجرّ شيئاً لا حياة فيه .

فالتقطهما القارب حالاً ، واستعيد المتغطرس المسكين ، وصفّقت الأيدي جميعاً تحيّي كويكوج ، وسأله القبطان المغفرة ، ومنذ تلك الساعة التصقتُ به كأنني محارة ، الى أن غاص كويكوج المسكين آخر غوصة طويلة .

أهناك مثل انكاره للذات ؟ لم يتصوّر أنه يستحق نيشاناً من الجمعيّات الإنسانيّة العظيمة . لم يطلب شيئاً سوى الماء ـ الماء القراح ـ حتى يزيل عنه الملوحة ، وإذ فعل ذلك لبس ثياباً جافةً وأشعل كدوسه وأسند ظهره الى جدار السفينة ونظر الى من حوله في دماثة وكأنه يقول لنفسه : «هذا عالم مشترك يتبَادل الناس التعاون في كلّ بقعة من بقاعه ، ونحن المتوحّشين آكلة لحوم البشر لابدّ من أن نساعد هؤلاء المسيحيين» .

١٤

نانتوكت[١]

لم يحدث في السفرة شيء آخر يستحقّ أن يذكر وهكذا وصلنا نانتوكت سالمين بعد جريٍ جميل .

نانتوكت! خذ خريطتك وأنظر اليها . تأمّل أيّ بقعة تحتلّها في هذه الأرض وكيف تقع ، حيث تقع ، بعيدة عن الشاطئ ، متوحّدة أكثر من فنار أديستون . انظر اليها ـ ماهي إلاّ كثيب رمل أو حِقْف ، كلّها شاطئ ليس وراءه أرض . فيها من الرمل أكثر ممّا قد تستعمله في خلال عشرين سنة بديلاً عن ورق النشّاف . ولو حدّثك عنها بعض الظرفاء المغامرين لأخبروك أنهم يزرعون العشب نفسه فيها لأنه لا ينبت وحده برّياً وأنهم يستوردون أشواك كندا ، وأنهم يبعثون الى ماوراء البحار لجلب سدّادة يمنعون بها تسرّب الزيت من برميل ، وإنّ قطع الخشب من نانتوكت تحمل وتنقل كأنّها شظايا من الصليب الحقيقي بروما . وإنّ الناس هناك يزرعون «الفطر» أمام بيوتهم لكي يجلسوا في ظلّه إبان القيظ ، وأنّ سنبلة واحدة من النبات تكوّن واحة وثلاث سنابل تنبت على مدى مسيرة يوم تمثّل سهوباً شاسعة ، وأنهم يلبسون أحذية للمشي في الرمل المهيل كتلك التي يستعملها أهل لابلاند للمشي على الثلج وأنهم محاطٌ بهم مطوّقون محصورون من كلّ وجه معزولون قد جعل المحيط بلدهم جزيرة محضاً حتّى أنهم ليجدون البزّاق عالقاً بكراسيهم وموائدهم كما يعلق بظهور السلاحف البحرية . إلاّ أنّ هذه الشطحات لاتدل إلاّ على أنّ نانتوكت ليست هي إلينوي .

تأمّل هذه القصّة المأثورة العجيبة عن استيطان الرجال الحمر لهذه الجزيرة . تقول

(١) جزيرة تقع على بعد ٢٧ ميلاً الى الجنوب من رأس كد ، وأكبر مدنها تسمّى نانتوكت .

الأسطورة : في سالف الأزمان خات نسر على ساحل نيوانجلند وطار يحمل وليداً هندياً في مخالبه . وأعول الوالدان وهما يريان طفلهما وقد غاب عن أنظارهما فوق الأمواه المترامية فعزما على اللحاق به في الإتّجاه نفسه ، وأبحرا في زورقيهما وبعد سفرة خطيرة استكشفا الجزيرة ، وهناك وجدا علبة عاجيّة صغيرة ، وما كانت سوى هيكل الوليد الهنديّ المسكين .

أيّ عجب ، وأهل نانتوكت يولدون على الشاطىء ، في أن يألفوا البحر مصدراً لعيشهم . كانوا أوّل الأمر يجمعون السرطان من الرمل ، فلمّا اشتدّت جرأتهم خاضوا الماء بشباكهم بحثاً عن سمك المقريل ، فلمّا أن شبّت دربتهم انطلقوا في قواربهم يصيدون البكلاه (سمك القد) . وأخيراً أنزلوا في الماء اسطولاً من السفن التجارية الكبرى واستكشفوا العالم المائي ، وطوّقوه بنطاق من الملاحة ، وأطلّوا على مضايق برنج ، وفي كلّ فصل وفي المحيطات جميعاً شنّوا حرباً أبديّة على أكبر جرم حافل بالحيويّة ، تخلّف بعد انحسار الطوفان ، أشدّها هولاً وأكثرها ضخامة أعني ذلك الجبّار كأنه هملايا ، ذلك الماموث الذي يعيش في البحر المالح ، ويكسوه شؤم قوّة خفيّة ، حتى أنّ الهلع الذي ينشره ، يخشى أكثر ممّا تخشى هجماته الجرينة الحاقدة .

هكذا جاب أهل نانتوكت العراة ، نُسّاك البحر ، العالمَ المائي وفتحوه ، صادرين من جرثومة النمل التي يسمّونها جزيرة ، وكأنّ كلّ واحد فيهم هو الإسكندر الكبير . وجزأوا بينهم الأطلسي والهادي مثلما اقتسمت بولندة ثلاثُ من قوى القراصنة . إذا شاءت أمريكا أن تضيف المكسيك الى تكساس وأن تكدّس كوبا فوق كندا فلتفعل ، وليحتشد الإنكليز في طول الهند وعرضها مكاثرين أهلها عدداً ، وليركّزوا علمهم الشهير على قرص الشمس . غير أنّ ثلثي هذه المعمورة المؤلّفة من برٍّ وبحر من نصيب ابن نانتوكت ، لأنّ البحر منها هو نصيبه ، فهو يتملّكه مثلما يحرز الأباطرة امبراطورياتهم ، وليس للبحارة الآخرين من حقّ فيه إلاّ العبور وما السفن التجارية إلاّ جسورُ ومعابر ، وما الحربية منها إلاّ قلاع عائمة . وقد يذهب القراصنة وقباطنة السفن الخاصة في مسالك البحر كما يفعل قطّاع الطرق على البر ولكنّهم لا ينهبون إلاّ سفناً ليست لأهل نانتوكت ولايقتطعون أيّ أجزاء أخرى من الأرض دون أن يحاولوا استمداد عيشهم من أغوار الماء العميق . إلاّ ابن نانتوكت وحده فإنه هو الذي يقطن البحر ويقيم المآدب والحفلات فوق مياهه ، هو وحده على حدّ قول التوراة : « ينزل اليه في سفن »(1) ،

---

(1) من المزامير ١٠٧ : ٢٣ ـ ٢٤ « النازلون الى البحر في السفن العاملون عملاً في المياه الكثيرة ، هم رأوا أعمال الربّ وعجائبه في العمق » .

ويفلحه ذهاباً وإياباً كأنه مزرعته الخاصّة ، فيه بيته ، وفيه موطن عمله ، وعمله دائب لايوقفه طوفان كطوفان نوح ، ولو كان طوفاناً يكتسح كلّ الملايين في الصّين . هو يعيش في البحر كما تعيش ديوك السهوب في السهوب ، يختبىء بين الأمواج ويتسلّقها كما يتسلّق صيّادو الأروى جبال الألب . تمضي عليه سنوات لايعرف فيها البرّ ، فإذا نزل على البرّ أخيراً وجد فيه رائحة عالم آخر ، أغرب من القمر في نظر ابن الأرض . ابن نانتوكت كطيور النورس التي لا برّ لها ، تطوي جناحيها عند الغروب وتهدهد نفسها للنوم بين الأمواج . وهو عندما يجنه الليل نائياً عن البرّ يلفّ أشرعته ويخلد الى الراحة وتحت وسادته نفسها تندفع قطعان من الفظّ والحيتان .

١٥

الشودر

كان المساء قد أظلَ حين أرست «الطحلبة» الصغيرة في هوادة ، ونزلتُ أنا وكويكوج الى الشاطئ ، ولم نكن نستطيع في تلك الساعة المتأخّرة أن ننجز عملاً سوى أن نبحث عن عشاء ونزل . وكان صاحب حان النفاث قد أوصى بنا ابن عمّه هوسيا هسي (آل السليط) من عائلة «القدور المجربّة»[١] ، وأكّد لنا أنه صاحب فندق من أحسن الفنادق في نانتوكت كلّها ، وأضاف يقول : إنّ ابن العمّ هوسيا مشهور بأطباق الشودر . أي أنّه بإيجاز ألمح إلينا أنّ خير مانفعله هو أن نجرّب وجبةً عند عائلة «القدور المجرّبة» . ولكنه حين وصف لنا كيف نهتدي الى الفندق قال : إجعل على يمينك مستودعاً أصفر اللون حتّى تواجه كنيسة بيضاء على اليسار ، واجعل الكنيسة على اليسار حتّى تنعطف نحو اليمين بعد ثلاثة منعطفات ، فإذا فعلت ذلك فإسأل أوّل رجل تلقاه عن ذلك المكان ـ وحين تذكّرنا هذه التعليمات الملتوية حيّرتنا بادئ الأمر ، وبخاصة وأنّ كويكوج أصرّ على أن المستودع الأصفر ، وهو بداية إنطلاقنا ، لابدّ أن يكون على اليسار ، بينما فهمت أنا من بطرس التابوتي أنه على اليمين . مهما يكن من شيء أخذنا نخبّط في الظلام ، وبين الحين والحين نطرق باب امرئ آمن مطمئن لنسأله عن الطريق حتّى وصلنا أخيراً الى شيء لا مدبّ فيه للخطأ .

فقد رأينا أمام الباب العتيق قدرين ضخمتين من الخشب مدهونتين باللون الأسود ، معلّقتين في أذنين كأذني الحمار ، وتتدلّيان من ساريتين أفقيّتين مسمّرتين على دقل كبير مغروز أمام ذلك الباب . وقد نشر قرنا تينك الساريتين من الجانب غير المواجه حتّى بدا

(١) الأصح أن يقال «قدور التصفية» Try..Pots ، وإنّما آثرت شيئاً من المباينة للأصل رجاء الإيحاء بالقدرة على الطبخ .

ذلك الدغل غير بعيد الشبه بالمشنقة ، ولعلّني كنت حينئذ مسرفاً في التقاط الإنطباعات التي تأدّت اليّ من ذلك المنظر ، ولكنّي لم أملك أن أحدّق في تلك المشنقة إلاّ وأنا استشعر ريبة غامضة ، وأحسست في عنقي بشيء من التصلّب وأنا أحدّق في القرنين اللذين لم ينشرا . نعم هما اثنان ، واحد لي وواحد لرفيقي ، وقلت لنفسي : هذا كلّه نذير شؤم يقتفي خطواتي : حين نزلت في أوّل ميناء للصيد كان صاحب النزل الذي حللت فيه تابوتياً . وفي معبد الصيّادين كانت شواهد القبور تحدّد النظر في وجهي . وها هنا مشنقة! وهذان زوجان من القدور السود الضخام! أتراهما يلمحان تلميحاً مواربأ الى درك الجحيم السفلي!

استردّني من التهويم في هذه الأفكار منظر امرأة كلفاء ، ذات شعر أصفر وعباءة صفراء ، واقفة في دهليز الفندق تحت مصباح بليد أحمر متأرجح يبدو شبيهاً بعين مطروفة ، وقد اشتبكت مع رجل ذي قميص صوفي أرجواني في سباب ظريف . كانت تقول للرجل : « انصرف وإلاّ... عفّرت الأرض بك » . فقلت : « هيّا ياكويكوج . لقد وصلنا ، فتلك هي زوجة السيّد هسي » .

وكذلك كانت ، إذ أنّ السيّد هوسيا « السليط » كان قد سافر ، وترك لزوجته أن تشرف بما لديها من كفاية تامّة على كلّ أعماله . وعندما أعلنّا عن رغبتنا في العشاء والمنام أرجأت زوجة « السليط » أمر السباب مؤقّتاً وأدخلتنا الى غرفة صغيرة ، وأشارت الينا بالجلوس الى مائدة تناثرت فوقها بقايا وجبة استهلكت قبيل قليل ، ثمّ استدارت نحونا وقالت : « بكلاه أو حلزون ؟ » .

فقلت في أدبٍ جمّ : « ما شأن البكلاه يا ستّي ؟ » .

فردّت : « بكلاه أو حلزون ؟ » .

فقلت : « حلزون للعشاء ؟ وبارد أيضاً أهذا ما تعنينه ؟ ولكن هذا استقبال فاتر حلزوني في وقت الشتاء . أليس كذلك يا مسز « سليط » ؟

ولكنْ لمّا كانت في عجلة تودّ أن تستأنف شتم الرجل ذي القميص الأرجواني ، وكاد هو أن ينتظر استئناف ذلك في المدخل ، ولمّا لم تسمع من كلماتي شيئاً سوى لفظة « حلزون » أسرعت نحو باب مفتوح يؤدّي الى المطبخ وصرخت : « حلزون لإثنين » واختفت عن أنظارنا .

فقلت : « كويكوج ، هل تظنّ أننا الإثنين نستطيع أن نكتفي في عشائنا بمحارة واحدة ؟ » .

وانطلق من المطبخ بخار دافىء لذيذ الشذا كذّب ماحسبناه رجاءً خائباً ، وعندما حضر الشودر يعلوه البخار انحلّ اللغز بما تطيب له النفس . أصيخوا اليّ ياأحبّتي! كان ذلك الطبق مصنوعاً من حلزون صغير غضّ ، لاتكاد الواحدة منه تتجاوز حبّة البندق ، وقد مزج ببسكويت السفن مسحوقاً ، وشرائح من لحم الخنزير رقيقة مملّحة ، وقد غذّي كلّ ذلك بالزبدة ، وأُدم بقدر سخيّ من الفلفل والملح ، وكانت الرحلة البرود قد شحذت شهوتنا للأكل ، وخاصّة كويكوج حين رأى طعامه البحري الأثير أمامه ، والشودر متقن غاية في ذلك ، فالتهمنا مابين أيدينا بسرعة فائقة . وحين سندت ظهري لحظة فكّرت في ما صاحت به زوجة «السليط» وهي تعلن للطبّاخين مايجلبونه للنزلاء من بكلاه أو حلزون قلت : سأقوم بتجربة صغيرة ، فتقدّمت الى باب المطبخ وقلت : «بكلاه» بصوت جهوري ، وعدت الى المائدة . فانبعث البخار اللذيذ مرّة أخرى في بضع لحظات إلاّ أنه كان ذا شذا مباين للأوّل ، وفي وقت غير طويل وضع أمامنا طبق من شودر البكلاه .

استأنفنا الجدّ ، وفيما كنّا نجيل الملاعق في صينيّة الطعام ، قلت لنفسي : أتراه يؤثّر في الرأس . وإلاّ لماذا جرى ذلك الوصف العيّاب عن ناس يقال فيهم : هؤلاء ذوو رؤوس شودريّة ؟ «انظر يا كويكوج أليس ذاك الذي في صحنك أنكليسُ حيّ ؟ أين رمحك ؟» .

كان فندق «القدور المجرَّبة» أشد المحلاّت التي تقدّم السمك إمعاناً في «السمكيّة» ، وبحق ما استحقّ تلك التسمية ، إذ كانت القدور دائماً تقرقر بالشودر . فهو طعام الفطور وطعام الغداء وطعام العشاء ، ، حتّى ليبدأ المرء المقيم هنالك يتحسّس حسك السمك خارجاً من ثيابه . وأمام الدار باحة قد رصفت بصدف الحلزون . ثمّ أنّ زوجة «السليط» تلبس عقداً مصقولاً من فقرات سمك البكلاه ، وزوجها يحتفظ بسجل حساباته مجلّداً بجلد قرش فاخر عتيق . حتّى الحليب له نكهة السمك ، ولم أستطع أن أفسّر ذلك إلاّ حين قمت بجولة ذات صباح على الشاطىء بين قوارب بعض الصيادين ورأيت بقرة هوسيا المخطّطة تتغذّى على قمامة من بقايا السمك ، وكانت تسير على الرمل وقد علق في كلّ حافر من حوافرها رأس سمكة البكلاه وأنا أؤكّد لكم أنّها كانت تبدو محذوّة منتعلة .

ختمنا العشاء فتسلّمنا مصباحاً وقدّمت لنا زوجة «السليط» كلّ التعليمات المتعلّقة بأقصر طريق تبلغنا غرفة النوم . ولكنْ بينما كان كويكوج يتأهّب ليتقدّمني صاعداً الدرج مدّت السيّدة اليه يدها وطلبت اليه أن يسلّمها رمحه ، إذ أنّ إدخال الرمح الى إحدى الغرف أمر غير مسموح به . فقلت لها : «ولِمَ لا ؟ كلّ حوّات عريق ينام والى جانبه رمحه . لِمَ لا ؟» فقالت : «لأنّ ذلك خطر . منذ أن عاد استجز الشاب من رحلته التعيسة وليس معه إلاّ

أربعة براميل من الجعة بعد أن غاب أربع سنوات ونصف سنة ، ووجد ميّتاً في الطابق الأوّل الخلفي ورمحه الى جانبه ـ منذ ذلك الحين لا أسمح للنزلاء أن يأخذوا هذه الأسلحة الخطيرة الى غرفهم ليلاً ، وعلى هذا ياسيّد كويكوج (وكانت قد حفظت اسمه) سآخذ هذه الحديدة منك وأحتفظ لك بها حتّى الصباح . ولكن أيّ شودر تريدان في فطور الغد ؟ البكلاه أم الحلزون ؟ » .

قلت : « كليهما ، وليكن مع ذلك على سبيل التنويع زوجان من سمك الرنجة المدخّن » .

١٦

السفينة

في السرير تدبّرنا خططنا من أجل الغد ولكنْ ثار عجبي وقسط غير قليل من اهتمامي حين أعلمني كويكوج بأنه قد كان مثابراً على استشارة يوجو[١] - إلهه الأسود الصغير - وأنّ يوجو أخبره مرّتين أو ثلاثاً ، وأصرّ عليه في كلّ مرّة إصراراً شديداً ، بأن لانذهب سويّة بين أسطول الصيد في الميناء لنختار معاً السفينة التي نبحر عليها ، أقول : إنّ يوجو نبّه في حرارة وإخلاص الى أنّ اختيار السفينة يجب أن يكون منوطاً بي وحدي ، إن شئنا أن يظلّ يوجو مقيماً على رعايتنا ، ومن أجل ذلك وقع اختيار يوجو على سفينة ، لو تركتُ أنا اسماعيل لشأني لوقع عليها اختياري دون خطأ ، كأنّ الحظّ هو الذي قدّر أن تكون من نصيبي ، وعليّ أن أبحر في تلك السفينة على الفور ، بصرف النظر في الحال الراهنة عن كويكوج .

نسيت أن أذكر أنّ كويكوج كان في أمور عديدة يضع ثقة كبيرة في براعة يوجو وحسن تقديراته ، وتنبؤاته المدهشة ، وأنه كان يحبوه إعظاماً بالغاً ويرى فيه إلهاً طيّباً حسن النوايا على الجملة ، وإن لم تكن خططه الخيّرة ناجحة دائماً .

ولمّا كانت خطّة كويكوج هذه ، أو قلْ خطّة يوجو ، تمسّ اختيار السفينة التي نبحر عليها وجدتني أواجهها بشيء من التكرّه . نعم أنا لم أعتمد أيّ اعتماد على حكمة كويكوج لكي يدلّ على خير سفينة تحملنا وتحمل مقدّراتنا في أمان . ولكنْ حين تبدّدت جميع اعتراضاتي.فلم تحرّك شيئاً في كويكوج اضطررت الى التسليم ، وعلى ذلك تأهّبت للشروع في هذا العمل بطاقة وقوّة مندفعة حاسمة لكي أسوّي ذلك الأمر الصغير التافه على عجل . وفي

(١) يذكر اسمه بلفظة ياجوج ولكن لعلّ ملفل لم يطّلع على هذا ، واختار اسماً مقارباً لما يعرفه من أسماء في البحار الجنوبيّة .

صباح اليوم التالي خلفت كويكوج مع يوجو قابعين في غرفة نومنا الصغيرة ، إذ يبدو أنّ ذلك اليوم كان عندهما رمضان أو يوم صيام وخشوع وصلاة . كيف كان كويكوج يؤدّي هذه الشعائر ؟ ذلك سرّ لم استطع استكشافه فإنّي وإن كنت حاولت ممارستها مرّات عديدة لم أستطع أن أحكم صلواته ولابنودها التسعة والثلاثين . تركت كويكوج صائماً وكدوسه بين شفتيه ، ويوجو يدفىء نفسه على نار النشارة القربانيّة ، وذهبت في جولة بين السفن . وبعد تجوال طويل واستفسارات غامضة علمت أنّ هناك ثلاث سفن مزمعة على رحلة تستغرق ثلاث سنوات ، وهي «زوجة الشيطان» و«اللقمة السائغة» و«الباقوطة»[١] . أمّا الأولى فلست أدري من أين جاء اسمها وأمّا الثانية فاسمها واضح وأمّا الباقوطة فأنتم تذكرون دون ريب أنه اسم قبيلة مشهورة من هنود مساشوستس انقرضت كما انقرض الميديّون . أمعنت النظر في «زوجة الشيطان» وتفحّصتها متطلّعاً ثمّ قفزت منها الى «اللقمة السائغة» وأخيراً وصلت ظهر «الباقوطة» وتأمّلتها لحظة وقرّرت أخيراً أنها هي السفينة التي نريدها .

لعلّك رأيت في زمانك كثيراً من السفن الفرهة الأنيقة ، لعلّك رأيت ذوات الأشرعة المربّعة ، والينكات اليابانيّة كأنها الأطواد ، والجليوات الهولنديّة التي تشبه البطّ الأمريكي ، وغيرها ، ولكنْ صدّقني إن قلت لك انك لم ترَ سفينة قديمة نادرة المثال كالباقوطة ، تلك السفينة العتيقة التي يعزّ وجود مثلها حقّاً . كانت سفينة من الطراز القديم أقرب الى الصغر ، تحمل ملامح الخطّاف ذي الطراز العتيق ، طال تمرّسها وتقلّب الجوّ بها بين عاصفٍ وساكنٍ في المحيطات الأربعة ، فاسودّت سحنة هيكلها كأنّها جندي فرنسي حارب في مصر وسيبريا على السواء . وتبدو مقدّمتها الجليلة وكأنّها قد التحت . فقدت صواريها الأصلية في إحدى العواصف وركّبت لها صوارٍ جديدة قطعت من موضع على ساحل اليابان ، وانتصبت كأنها أصلاب ملوك كولون الثلاثة القدماء[٢] . أمّا ظهرها فقد بلي وتغضّن كأنّ الحجر الذي نهكته أيدي الحجّاج الذين يؤمّون كنيسة كانتربري حيث لقي توماس بيكت مصرعه . غير أنه أضيف الى هذه العناصر القديمة فيها ملامح جديدة مدهشة تتّصل بذلك العمل الفذّ الذي اضطلعت به نصف قرن أو يزيد ، ويعزى كثير من هذه الترميمات والتحسينات الى فالج القبطان العجوز الذي ظلّ يدير شؤونها سنوات عديدة قبل أن ينتقل الى قيادة سفينة يملكها وقبل أن يصبح اليوم بحّاراً متقاعداً وواحداً

---

(١) Pequod .

(٢) المجوس الثلاثة الذين أتوا بالهدايا الى عيسى في مهده ، قيل إنهم مدفونون في كولون .

من أصحاب الباقوطة . فإن فالج هذا في أثناء رئاسته قد بنى فوق المظاهر الأصيلة العجيبة ورصّعها بأناقة في المادة والرسم لايلحق بها شيء إلاّ الدرع الخارجي المنقوش أو القاع في سفينة ثوركل هيك . فكساها كأنها امبراطور حبشي اثقلت عنقه زخارف ثقيلة مدلاَة من العاج المصقول ، وجاءت كأنّها نصب تذكاري . سفينة في صورة إنسان بدائي مستوحش زيّن نفسه بعظام منقوشة استلّها من أجسام أعدائه . وأمّا جوانبها المفتوحة غير المفروزة فوق الظهر العلوي فقد زيّنت ، كأنّها فكّ واحد مديد ، بأنياب حوت العنبر الحادة ، وقد زجّت الأنياب هنالك بدلاً من المسامير لكي تشدّ أعضادها وأمراسها . وهذه الأمراس لا تخترق خشباً وإنّما تمرّ برشاقة عن بكرات من عاج البحر . أمّا عند دفتها الرزينة فإنها بدلاً من أن تتواضع فتتخذ عجلاً دوّاراً ركّزت هنالك مخلاً ، جعلته كتلة واحدة منحوتة نحتاً عجيباً من فكّ عدوّها اللدود ، ذلك الفك السفلي المستدقّ الطويل . فكان القيمُ على الدفّة إذا وجهها في عاصفة أحسّ كأنه تتري يكبح جواده المنطلق بإمساكه من فكّه . سفينة كريمة إلاّ أنها صورة للكآبة وكلّ شيء كريم فيه مسحة من الأسى الكئيب .

وعندما أجلت طرفي خلف الدقل الأعظم على الربعة المؤخرة من السفينة بحثاً عن مسؤول لكي أقيّد اسمي بين المشتركين في الرحلة لم أرَ في بادىء الأمر أحداً ، ولكنّ بصري لم يستطع أن يتجاوز شيئاً منصوباً كالعريش أو الكوخ الهندي على مسافة يسيرة خلف الصاري الرئيس . وبدا لي أنه ليس سوى مثابة مؤقتة تستخدم في الميناء . كان مخروطيّ الشكل يبلغ ارتفاعه زهاء عشرة أقدام ويتألّف من صفائح طويلة ضخمة من العظم الأسود اللدن أخذت من الأجزاء الوسطى والعليا في فكّي الحوت الاثنين ، وقد غرست بحيث وقعت نهاياتها المستعرضة على ظهر السفينة ، وسلكت دائرة من هذه الصفائح معاً ، وانحدرت أحداها نحو الأخرى في تبادل ، ثمّ ضمّت عند الذروة في نقطة مقنزعة حيث الألياف المسترسلة المكسوّة بالشعر تتموّج جيئة وذهوباً كأنها العقدة العليا على رأس الشيخ المسنّ رئيس قبيلة بوتوتامي . وتنفتح في مواجهة مقدم السفينة فتحة مثلّثة الشكل حتّى أنّ من كان في داخلها يستطيع أن يشرف على المنظر كاملاً أمامه .

وبعد لأي وجدت واحداً منزوياً بعض انزواء في هذا العريش الغريب ، وأوحى لي منظره أنه رجل مسؤول ، وأنه كان يستمتع وقت الظهيرة ، حين يتوقّف العمل في السفينة ، بالارتياح من عبء الأمر والنهي . كان جالساً على كرسي قديم الطراز من خشب البلّوط

غطّي بمنعرجات من الزخارف ، وقاعدته مصنوعة من ضفائر قويّة من المادة المرنة نفسها التي صنع منها العريش .

ربّما لم يكن في مظهر ذلك الرجل المسنّ شيء متميّز . كان أسمر مفتول الساعدين كغيره من قدامى البحارة ، وقد أثقل جسمه بما لفّه حوله من قماش البحارة الأزرق وفصّله على طراز الكويكريين ، إلاّ أنّ شبكة من الغضون الدقيقة جميلة صغيرة كانت تتشابك حول عينيه ، ولعلّها من آثار إبحاره المستمر في عواصف جانحة قاسية ، كان هو في أثنائها يتطلّع نحو مهبّ الريح ، وهذا يجعل العضلات حول العينين تنكمش وتتقلّص ، ومثل هذه التجعّدات ذو أثر كبير في من كان عبوساً متجهّماً .

قلت وقد تقدّمت الى باب العريش : «أأمامي قبطان الباقوطة ؟» فأجاب :

ـ هبْ أنه قبطان الباقوطة فما تريد منه ؟

ـ كنت أفكّر أن أبحر .

ـ كنت! أحقّاً كنت! أرى أنّك لست من أهل نانتوكت ـ هل إتّفق أن سافرت على سفينة مخروقة ؟

ـ أبداً ياسيّدي .

ـ اذن ـ أجرؤ على أن أقول إنك لا تعرف شيئاً عن صيد الحيتان .

ـ لا شيء يا سيدي ولكنّ لا شكّ في أنني سأتعلّم في وقت قصير . لقد سافرت عدّة سفرات في الخدمة التجارية ، وأظن...

ـ الخدمة التجارية عليها اللعنة! لاتكلّمني بهذه اللهجة . أترى تلك الرجل ؟ سأنزع تلك الرجل من قفاك إذا تكلّمت اليّ عن الخدمة التجارية مرّة أخرى . ياسلام على الخدمة التجارية! أظنّك تحسّ بالخيلاء لأنّك خدمت في سفن التجارة . أغرب يارجل عن وجهي . ما الذي تريده من صيد الحيتان ؟ أمرك مريب . أليس كذلك ؟ لم تكن في حياتك قرصاناً ، هل كنت ؟ لم تسرق آخر قبطان عملت تحت أمرته ، هل سرقته ؟ لا تفكّر في قتل الضبّاط حين تعمل في البحر ؟

أقسمت اني بريء من كلّ تلك الأمور . وفهمت أنّ هذا البحّار العجوز كشأن رجل كويكري منعزل من أهل مانتوكت يخفي تحت هذه الأعاريض شبه الساخرة هوىً لبلده وتعصباً له ، وانه لا يثق في الغرباء إلا إن انطلقوا من رأس كود أو من فنيارد .

ـ لكن ماالذي يجذبك الى صيد الحيتان ؟ أودّ أن أعلم قبل أن أوافق على إبحارك .

ـ أودّ ياسيّدي أن أعرف ماهو صيد الحيتان . أريد أن أرى العالم .

ـ تريد أن تعرف ما هو صيد الحيتان ، مش كده ؟ هل ألقيت نظرة على القبطان آخاب[1] ؟

ـ من هو القبطان آخاب ، يا سيّدي ؟

ـ معلوم ، معلوم ، أدركت ذلك . القبطان آخاب هو قبطان هذه السفينة .

ـ اذن فأنا مخطئ . ظننت أنني أكلّم القبطان نفسه .

ـ إنّك تكلّم القبطان فالج ، ـ ذلك هو الذي تكلّمه ، أيها الشاب . أنا والقبطان بلدد مسؤولان عن إعداد الباقوطة للابحار وإنها مزوّدة بكلّ ماتحتاجه ، بما في ذلك الملاحون . نحن من أصحابها ووكلائها ، ولكن أعود فأقول : إذا كنت تريد أن تعرف ماهو صيد الحيتان ـ كما أخبرتني ـ فإنّي أستطيع أن أضعك حيث تعرفه قبل أن تربط مصيرك به وتتورّط فتفوت عليك فرصة التراجع . ألق نظرة على آخاب القبطان أيها الشاب وسوف تجده ذا رجل واحدة .

ـ ماذا تعني يا سيّدي ؟ هل أفقده الرجل الأخرى حوت ؟

ـ أفقده إيّاها حوت! أيها الشاب اقترب منّي : بل افترسها وامتضغها وضرّسها بأنيابه أشدّ ذي ناب وحشي مزّق سفينة . آه . آه .

ذعرت لحماسته وربّما استثارني قليلاً ما أودعه في آهاته الختاميّة من أسى عميق ، غير إنّي قلت بكل ماأستطيع من هدوء « ما تقوله صحيح دون ريب ياسيّدي ، ولكن لعلّ ذلك الحوت عينه كان ذا شراسة متميّزة ، ولو خلّيتني لتقديري لاستنتجت ما حكيته لي من تلك الحادثة نفسها » .

ـ انتبه أيها الشاب . إنّ رئتيك نخب هواء . أظنّك لاتخادعني في القول . مؤكّد أنّك مارست البحر قبل اليوم . أمتأكّد أنت ؟

قلت : « سيدي ظننت أنني أخبرتك بأنّي قمت بأربع رحلات في التجا ـ » .

ـ أعفني من ترديد هذا! تذكّر ماقلته أنا عن الخدمة التجارية ـ لا تثقل عليّ ـ لاأحبُ أن أسمع ترديدك . لكن دعنا نتفاهم . لقد ألمحت اليك بما تعنيه مهنة صيد الحيتان . ألاتزال تحسّ أنّك تميل اليها ؟

ـ نعم يا سيّدي .

---

(١) الاسم في العبرية يعني أخا الأب أي العم ، ودراسة شخصيته في هذه القصة تحتاج مساحة واسعة ، يكفي أن يقال أن ملفل استغلّ في تصويره شخصية بروميثيوس والشيطان عند ملتن وبعض خصائص الشخصيّات الكبرى عند شكسبير وخاصة في المناجيات الذاتيّة .

ـ حسناً . أأنت المرء يستطيع أن يسدّد رمحاً الى زور حوت حيّ ثمّ يقفز وراءه ؟ أجب بسرعة .

ـ نعم يا سيدي إذا لم يكن بد من ذلك ، لا . إنّك تقول هذا لتتخلّص منّي وهذا ما لا أتصوّره .

ـ حسناً ثانية! إذن فأنت لاتريد فحسب أن تذهب في صيد الحيتان لتعرف بالتجربة ماهو ذلك الأمر ولكنّك تريد أيضاً أن تذهب لترى العالم ؟ أليس ذلك ماهو قلته ؟ أظنّ ذلك . إذن تقدّم هنالك خطوة وانظر حال الجوّ من مرقب الجو وأخبرني ماذا ترى .

وقفت هنيهة وقد حيّرني هذا المطلب الغريب لأنّي لم أعرف تماماً طبيعته : أهو مزاح أم جدّ . ولكنّ فالج القبطان استجمع كلّ تجعّدات وجهه في عبسة واحدة وأمرني بتحقيق الهمّة .

تقدّمت ونظرت من المرقب فلمحت السفينة التي تتأرجح مع التيّار في مرساها وقد مالت ميلاً موارباً نحو المحيط الفسيح . كان المنظر شاسعاً لاحدود له إلا أنه كان مملاً موحشاً ، ولم أرَ فيه إلا استرسالاً لايتخلّله شيء من تنوّع .

وعدت فقال فالج : « طيّب ماذا تقول ؟ ماذا رأيت ؟ » فأجبت : «لم أرَ شيئاً ذا بال ، لم أرَ إلا الماء . آفاق بعيدة وعاصفة مصحوبة بالغيوم على وشك أن تهبّ» .

ـ طيّب . ماذا تظنّ في رؤيتك للعالم ؟ أتريد أن تدور حول رأس هورن كي تراه بوضوح ؟ ألا تستطيع أن ترى العالم من حيث أنت واقف ؟

زعزعني هذا القول ، ولكنّي لابدّ أن أذهب في صيد الحيتان ، وأنا أريد ذلك ، والباقوطة سفينة كأيّ سفينة أخرى حسنة ـ بل لعلّها خيرهنّ . وأعدت هذا الذي مرّ في خاطري على مسامع فالج . فلمّا رأى عزمي وحزمي أبدى موافقته على إبحاري في تلك السفينة . ثمّ أضاف قائلاً : «وتستطيع أن تمضي الأوراق على التوّ . تعال معي» . وما أن قال ذلك حتّى تقدّمني نازلاً الى القمرة .

على الطرنسوم ـ أو الخشبات التي تتّخذ مقعداً في كوثلة السفينة ـ رأيت ما خلته أغرب الصوّر وأشدّها إثارة للدهشة . عرفت من بعد أنّ الجالس هنالك هو بلدد القبطان الذي كان من أكبر الشركاء المالكين لتلك السفينة . أمّا الحصص الأخرى فكانت ـ كما هي الحال أحياناً في تلك الموانئ ـ ملكاً لجمهور من المساهمين من أرامل وآباء لاأبناء لهم وقاصرين تحت الوصاية ، وكلّ فرد منهم يملك قيمة رأس خشبة أو قاعدة لوح أو مسماراً أو اثنين في السفينة . إذ الناس في نانتوكت يستثمرون أموالهم في سفن صيد الحيتان مثلما يستثمر غيرهم الأموال في الأسهم الدوليّة التي تأتي بربح وفير .

كان بلدد مثل فالج ومثل كثيرين من أبناء نانتوكت كويكرياً في مذهبه ، إذ أنّ تلك الطائفة كانت أوّل من استوطن تلك الجزيرة ولايزال سكّانها الى اليوم يحتفظون بخصائص أبناء هذه الطائفة ومميّزاتهم على نحوٍ غير قليل . إلاّ أنّ أموراً غريبة وغير متجانسة قد حوّرت من تلك الخصائص والمميّزات بما زادت عليها وانقصت منها . فبعض هؤلاء الكويكريين من أشدّ البحّارة والصيّادين نزوعاً لسفك الدماء . فهم كويكريون محاربون ، يحبّون الثأر والإنتقام .

ومن العادات الشائعة في الجزيرة أن يسمّي الآباء أبناءهم بأسماء ممّا ورد في التوراة . وبينهم رجال يحملون تلك الأسماء وينتحلون في طفولتهم طريقة التخاطب الكويكرية القائمة على التبجيل باستعمال « أنتم » و« أنتمو » وتجري بها ألسنتهم كأنها سليقة فيهم ثمّ تمتلىء حياتهم من بعد بمغامرة مستبسلة جريئة لا تعرف حدوداً ، فيمزجون بهذه الخصائص المميّزة التي شبّ بهم العمر عنها آلافاً من أعمال الجرأة والإقدام لو أضيفت الى ملك اسكندنافي أو وثني روماني من أبطال الملاحم لصلحت له وصلح لها . وحين تجتمع هذه الأمور في رجل ذي قوّة طبيعيّة فائقة ، ذي دماغ كرّي وقلب كبير ، وقد أعانه على أن يفكّر تفكيراً مستقلاً مبتوت الصلات بالموروث ما أتيح له من هدوء وانفراد ـ اللياليَ الطوال ـ في يقظاته الليلية في المياه النائية تحت كواكب لا نراها نحن في مناطقنا الشماليّة ، رجلٍ يتلقّى كلّ أثر للطبيعة غضّاً ـ سواء أكان عذباً أو مريراً ـ من صدرها البكر المطواع المؤتمن ، وبذلك يتعلّم بعون من الفوائد العارضة لغةً جريئة رفيعة حادّة ، فإنّ ذلك الرجل في ميزان أمة كاملة يعدّ مخلوقاً جليل القدر قويّ النفس يصلح للتراجيديّات السامية ، وحين تسيطر عليه علّة من العلل مستقرّة في أعماق طبيعته وينقاد هو لها بما يشبه أن يكون رضى واختياراً فإنّ ذلك من الزاوية المسرحيّة لايزري به سواء أكانت العلّة فيه وراثة أو اكتساباً . ذلك أنّ كلّ الرجال العظماء من الزاوية التراجيديّة إنّما يكونون كذلك بسبب مافيهم من علّة . ثقوا أيّها الشبّان الطامحون أنّ العظمة الإنسانيّة مرض ، ولكنّا لانتحدّث عن هذا بل عن شيء آخر ، نتحدّث عن رجل إن يكنْ فذاً فإنّما ذلك ناجم عن وجه آخر من وجوه الكويكرية فيه وقد وقعت عليه ظروف فرديّة فحوّرته وغيّرته .

كان القبطان بلدد كزميله فالج صيّاداً ثريّاً متقاعداً . إلاّ أن فالج لم يكن يهتم قدر قلامة ظفر بما يدعى أمور الجدّ والرصانة ، بل كان يعدّ هذه الأمور عينها لبّ التفاهة ونقاوتها . وفي هذا كان بلدد يختلف عنه إذ أنه لم ينل فحسب تعليمه وثقافته على أشد مبادىء الطائفة الكويكرية في نانتوكت تنطّعاً وتزمّتاً ، بل إنّ حياته البحرية من بعد ،

ومنظر كثير من العرايا الجميلات في الجزر حول هورن كلّ ذلك لم يزحزح ذلك الكويكري المتشدّد قيد شعرة ، ولم يغيّر خيطاً واحداً في زيّه وملبسه . وعلى هذا الثبات الراسخ فإنّ طبيعة بلدد كانت عرضة للتقلّب . نعم إنّ وازع الضمير قد حال بينه وبين أن يحمل السلاح ضدّ غزاة البر إلاّ أنه كان يغزو المحيطين الأطلسي والهادي غزوات لاتقف عند حدّ ، ومع أنه كان خصماً لدوداً لسفك الدم الإنساني ، إلاّ أنه أهرق وهو يلبس معطفه الضيّق أطناناً على أطنان من دم الحوت العبيط . كيف كان بلدد التقي في أمسيات التأمّل يوفّق بين هذه الأمور المتناقضة من ذكرياته ؟ ذلك الشيء لست أدريه ، ولكن يبدو أنّ خاطره كان مطمئناً ، ولعلّه أرسى منذ عهدٍ طويل عند استنتاج حكيم عاقل يقضي بأنّ دين المرء شيء وإنّ هذا العالم العملي شيء آخر . هو عالم يدفع حصصاً وأسهماً . وذلك شيء هام عند رجل مثل بلدد نشأ أجيراً في قمرة يلبس ثياباً قصيرة من أخشن الأصواف ، وارتقى الى حوّات ذي صدارة واسعة كأنّها كرش الشبوط ، ثمّ أصبح قائداً لقارب ثمّ رئيس ضبّاط ثمّ قبطاناً وأخيراً صاحب سفينة . واختتم بلدد حياة المغامرة كما ألمحتُ من قبل بالتخلّي عن أيّ نشاط عملي في سن الستّين ، ووقف أيّامه الباقية على تسلّم الدخل الطيّب الذي يرد اليه ، في هدوء .

ويؤسفني أن أقول إنّ بلدد شُهِرَ بأنّه فظّ عاتٍ جبّار وأنه كان في سفراته البحريّة سيّداً مريراً قاسياً . وقد أخبروني في نانتوكت ، وإن كان ماقالوه غريباً ، أنه حين أبحر حوّاتاً على ظهر حوّاتة تسمّى « كاتيجوت » فإنّ ملاحيه حين عادوا الى الوطن نقلوا جميعاً الى المستشفى وقد أنهكهم الألم والإعياء . وأقل مانقوله فيه أنه وهو الكويكري التقي ، كان قاسي القلب غليظ الكبد . ومع ذلك فهم يقولون انه لم يكن يستعمل السباب مع ملاحيه ولكنه كان يستنزف منهم قدراً مسرفاً من الجهد الجائر الثقيل . فكان إذا حدّد عينه العسليّة المصفرّة في أحد البحّارة يوم كان رئيس ضبّاط في سفينته جعله يشعر بأنه أصبح ثائر المزاج عصبيّاً حتّى أنّ البحّار ليمسك بأيّ شيء ـ مطرقة كان أو مثقباً ـ ويتوجّه من فوره الى العمل في شيء ما ، أيّ شيء كان ، بحمية كأنها حمية المجنون . كان التراخي والكسل يتلاشيان أمامه وكان تكوينه الجسماني يعكس صورة عن طبيعته النفعية ، فكان جسمه الطويل الضامر لايحمل لحماً زائداً ولا لحية مسترسلة ، بل كانت ذقنه ذات زغب ناعم مقتصد كالزغب المنجرد على قبّعته ذات الحافة الواسعة .

كذلك كان الشخص الذي رأيته يجلس على الطرنسوم حين تبعت فالج القبطان هابطاً الى القمرة . كانت المسافات بين الدكّات صغيرة وهناك جلس بلدد الشيخ منتصباً كالوتد ،

وكان يجلس دائماً هذه الجلسة فلا يتكىء كي لا ينجرد الزغب عن معطفه . وكان قد وضع قبّعته الواسعة الى جانبه وجعل رجليه متقاطعتين في تصلّب ، وزرّ رداءه الصوفي حتّى الذقن ، وألقى النظارة على أنفه وبدا مستغرقاً يقرأ في مجلّد ضخم .

صاح فالج : « مرّة أخرى تكبّ عليها يابلدد ؟ مش كده ؟ منذ ثلاثين سنة وأنت تدرس أسفار الكتاب ، حسب علمي ، أين وصلت يا بلدد ؟ » .

وكأنّ بلدد تعوّد منذ عهد بعيد أن يسمع هذا الحديث المستخف من صديقه القديم ، فصعّد بصره في هدوء دون أن يلحظ مايحمله صديقه من استهانة ، وحين رآني نظر مرّة أخرى نحو فالج متسائلاً .

فقال فالج : يقول إنه صاحبنا ، سيبحر على السفينة ، فقال بلدد في نغمة جوفاء وقد تحوّل اليّ : « أتريدون ذلك ؟ » فقلت لاشعورياً : « نريد » ، وقد كان هو كويكرياً متحمّساً وبلغة التبجيل يتحدّث .

فقال فالج : « ما رأيك فيه يا بلدد ؟ » .

فقال بلدد : « ينفع » ورمقني ثمّ مضى يقرأ في كتابه في لحن هامس مسموع .

تصوّرته أغرب كويكري عجوز وقعت عليه عيناي وبخاصّة حين قارنته بصديقه وزميله القديم فالج الذي يحبّ الضجيج والعجيج . غير إنّي لم أقل شيئاً بل تطلّعت من حولي بنظر حديد . فتح فالج صندوقاً واستخرج منه عقداً من عقود العمل في السفينة ووضع أمامه دواة وقلماً وجلس الى طاولة صغيرة ، وبدأت أفكّر أنه قد آن الأوان لكي أقرّر بيني وبين نفسي أيّ شروط أرضى أن أنزل على حكمها من أجل هذه الرحلة . وكنت أعلم أنهم في التحويت لايدفعون أجوراً وإنّما يتسلم العاملون ، بما في ذلك القبطان نفسه ، حصصاً معيّنة من الربح يسمّونها « الانصباء » lays وهذه تتناسب ودرجة الأهميّة التي تناط بكلّ واجب من واجبات عصبة السفينة . وكنت أعلم أنّ غرارتي في ميدان التحويت لن تقسم لي نصيباً كبيراً ، ولكنْ بما أنّي عرفت البحر وأستطيع توجيه السفينة وربط الحبل وجدله وكلّ ما إلى ذلك ، فإنني لم أشكّ من كلّ ما سمعته في أنهم سيقدّمون لي على الأقل النصيب رقم ٢٧٥ أعني هذا الجزء من صافي غلّة الرحلة ، أياً كان مقداره في النهاية ؛ ومع أنهم يسمون هذا النصيب باسم « النصيب البطيء » فإنه خير من لا شيء ، وإذا كانت رحلتنا موفّقة فإنه يكاد يفي بثمن الثياب التي سأبليها خلالها ، دع عنك أمر الطعام خلال ثلاث سنوات وذلك ما لا أدفع فيه مليماً واحداً .

قد يظنّ من يسمع هذا أنّ هذه طريقة بائسة لجمع قدر محترم من المال ـ نعم هي كذلك ، طريقة جد بائسة حقّاً ، ولكنّي أنا ممّن لايحفلون بالثراء وأنا قانع من الدنيا إذ هي

زوّدتني ـ لقاء عملي ـ بالطعام والمأوى مادمت أحمل هذه الشارة الجاهمة ، شارة « الغيمة الكهربية » . وعلى الجملة قدّرت أنّ النصيب الخامس والسبعين بعد المائتين شيء معتدل ولكنّي لن أندهش اذا ما عرضوا عليّ النصيب المائتين إذا هم اعتبروا أنني عريض الكتفين جزل البنية .

وعلى رغم ذلك فإنّ شيئاً جعلني قليل الثقة بعض الشيء في تسلّم حصّة سخيّة من الأرباح ، فقد سمعت على البرّ شيئاً عن القبطان فالج وعن بلدد خدنه العجوز غير المسؤول وأنهما المالكان الكبيران للباقوطة ومن ثمّ ترك سائر الشركاء الموزّعون ذوو الحصص الصغيرة أمر إدارة شؤون السفينة جميعاً لهذين الرجلين . وما عرفت إلاّ أن بلدد الشيخ البخيل قد يكون لديه الكثير ممّا يقوله في الأيدي التي تعمل في سفينته وبخاصّة وقد وجدته على ظهر الباقوطة مطمئناً في قمرته يقرأ التوراة كأنه جالس أمام الموقد في بيته . وبينما كان فالج يحاول ـ عبثاً ـ أن يصلح قلماً بمطواة ، كان بلدد العجوز ـ لدهشتي البالغة ـ إذا قدّرت أنه شريك هام في الإجراءات المرتقبة ـ بلدد هذا لم يعرنا اهتماماً ومضى يتمتم لنفسه ويقرأ : « لا « تنصبوا » لكم كنوزاً على الأرض ، حيث يفسد السوس... » .

فقاطعه فالج قائلاً : « طيّب ياقبطاننا بلدد . ماذا تقول ؟ أيّ نصيب نفرضه لهذا الشاب ؟ » .

فأجابه وكأنّ صوته منبعث من القبر :« إنّكم تعرفون هذا خيراً منّي ، النصيب السابع والسبعون بعد السبعمائة (٧٧٧) ليس كثيراً ، أليس كذلك ؟ » ويمضي فيقرأ : « حيث يفسد السوس والصدأ ولكن « انصبوا »[١]... فقلت لنفسي : لاتنصبوا ، حقّاً ، وأيّ نصيب! السابع والسبعين بعد السبعمائة! يابلدد العجوز أنت مصرّ على أنني ، أنا من الناس ، لن أنصب لنفسي « أنصباء » على هذه الأرض حيث السوس والصدأ يفسدان ، هذا « نصيب بطيء » غاية في البطء حقّاً ، ومع أنّ كبر الرقم قد يخدع المرء الذي يعيش على البر إلاّ أنّ أقل حساب يبيّن أنّه وإن كان رقماً كبيراً فإنّك حين تجعله جزءاً وتسمّيه الجزء السابع والسبعين بعد السبعمائة فإنّ هذا الجزء من الفارذنج Farthing أقل بكثير جداً من ٧٧٧ دبلون ذهبي . كذلك جرت هذه الخواطر في نفسي حينئذ .

فصاح فالج : « عمى بعينك يا بلدد . أتريد أن تغبن هذا الشاب ؟ يجب أن يأخذ أكثر من ذلك » .

---

(١) النص في متّى ٦ : ١٩ « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ... بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء... » وقد استعملت كلمة « انصبوا » لأنّ المؤلّف يتلاعب بالأجناس بين هذه اللفظة ولفظة « نصيب » .

فأجاب بلدد دون أن يرفع عينيه : «النصيب ٧٧٧» ثمّ مضى يتمتم : «لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً» .

فقال فالج : «سأسجّل اسمه إزاء النصيب الثلاثمائة . أتسمع ذلك يا بلدد ؟ أقول : النصيب الثلاثمائة» .

فوضع بلدد كتابه واستدار نحوه في هدوء وقال : «قبطان فالج ، قلبك سخي ، ولكن عليك أن تعتبر الواجب المنوط بك تجاه الشركاء الآخرين في السفينة ـ من أرامل وأيتام وغيرهم ـ وإذا كافأنا أتعاب هذا الشاب بسخاء فنحن قد نختطف الخبز من أفواه هؤلاء الأرامل وأولئك الأيتام . النصيب السابع والسبعون بعد السبعمائة ياقبطان فالج» .

فزأر فالج وقد توقّف وأخذ يذرع أرض القمرة : «ويلك يابلدد ، سحقاً لك! لو اتّبعت مشورتك في هذه الأمور لسحبت حيثما اتّجهت ضميراً مثقلاً يكفي ليغرق بثقله أكبر سفينة أبحرت حول رأس هورن» .

فقال بلدد في ركانة : «قبطان فالج قد يجرّ ضميرك عشر بوصات من الماء أو عشر قامات ، ذلك ما لا أدريه ، ولكنْ بما أنك ماتزال يافالج رجلاً سادراً في آثامه غير تائب منها فإنّي أخشى أن يكون ضميرك مثقوباً وأنه في النهاية سيغرقك في الدرك الأسفل من الجحيم ، ياقبطان فالج» .

ـ «الدرك الأسفل ، الدرك الأسفل! إنّك تهينني أيّها الرجل ، تهينني بما تعجز الطبيعة الإنسانيّة عن أن تطيقه . من الغضب المشتط أن تقول لأخيك الإنسان أنه صائر الى الجحيم . ديدان ونيران! يابلدد أعدّ ما قلته عليّ ، واستثر غضبي ، لكن أنا ، أنا نعم أنا سأبتلع بطيخة مثلّجة على حالها . أخرج من القمرة يامنافق ياأصفر ياأبجر ياابن البندقية الخشبية ، لأطمسنّ أثرك» .

وحين أرعد بهذه الشتائم اندفع نحو بلدد إلاّ أنّ هذا تحاشاه عندئذ في سرعة عجيبة مواربة منحدرة .

أفزعتني هذه السَّورة الصاخبة بين اثنين كبيرين مسؤولين من مُلاّك السفينة ، وشعرت أنّ نفسي أخذت تزهد في الرحلة وتودّ أن تتخلّى عن الإبحار في سفينة : ملكيّتها موضع شبهة ، وإمرْتها عرضة للنزوات ، فخرجت لأمنح بلدد منفذاً إذ كان دون ريب جامح الرغبة في أن يختفي من وجه غضب فالج المندلع . ولشدّ مادهشت حين رأيته يجلس مرّة أخرى على الطرنسوم في هدوء ودون أن تكون لديه أدنى رغبة في الانسحاب . ويبدو أنه قد ألف القبطان فالج العاصي وتعوّد أساليبه . أمّا فالج فإنه بعد أن نفّس عن غضبه لم يبق لديه شيء

منه فيما يبدو ، فجلس أيضاً كالحمل الوديع ، وإن ظلّ يرتعش قليلاً كأنَ أعصابه كانت ماتزال ثائرة . وأخيراً صفّر : «أف . ف . أظنّ الريح تتّجه معاكسة . بلدد كنتَ في الماضي ماهراً في شحذ الأسنّة ، أصلح هذا القلم ، من فضلك ، إنّ مديتي تحتاج تجليخاً . أحسنت ، شكراً لك يابلدد . أمّا أنت أيها الشاب ، اسمك اسماعيل ، أليس كذلك ؟ سأسجّل اسمك هنا يااسماعيل ، أزاء النصيب الثلاثمائة» .

فقلت : «أيها القبطان فالج إنّ معي صديقاً يريد أن يبحر أيضاً فهل آتي به غداً ؟» .

فقال فالج : «أكيد . أحضره ، ونحن نرى في أمره» . فأرسل بلدد أنة ورفع رأسه من الكتاب بعد أن كان قد دفنه فيه وقال : «أيّ نصيب يريد ؟» .

فقال فالج : «اوه! لاتهتم بهذا يابلدد» . ثمّ التفت اليّ وقال : «هل سبق له أن مارس التحويت ؟» .

ـ قتل من الحيتان أكثر ممّا أستطيع عدّه أيها القبطان .

ـ طيّب ، إذن أحضره معك .

ومضيت بعد أن وقّعت على الأوراق لايخالجني ريب في أنني أدّيت عملاً طيّباً في ذلك الصباح ، وأنّ الباقوطة هي السفينة نفسها التي قدّر يوجو لي ولكويكوج أن تنقلنا حول الرأس .

وما أن مشيت غير بعيد حتّى بدأت أحدّث نفسي بأنني لم أرَ القبطان الذي سأبحر معه . هذا مع أنّ سفينة صيد الحيتان في أحوال كثيرة قد تعدّ إعداداً كاملاً ويحضر فيها جميع الملاحين قبل أن يظهر القبطان للأعين ويأتي ليتسلّم القيادة . إذ تكون الرحلات أحياناً طويلة وتكون فترات الراحة على البرّ في الوطن بالغة القصر ، فإن كان القبطان صاحب عائلة أو مصالح تشغل باله فإنه لايعنّي نفسه كثيراً بأمر السفينة في الميناء وإنّما يتركها لأصحابها حتّى يكون كلّ شيء قد أعدّ للإنطلاق في البحر . غير أنّ إلقاء نظرة عليه أمر مستحسن قبل أن يصبح الإنسان في عهدته بعهد لاينقض . فعدت أدراجي ودنوت من فالج القبطان محيّياً وسألته أين يمكن أن أجد القبطان آخاب .

ـ وماذا تبغي منه ؟ لقد حقّقت ماتريد ، وسوف تبحر على السفينة .

ـ هذا صحيح ولكنّي أحب أن أراه .

ـ لكنّي لا أظنّك تستطيع ذلك في الحاضر . لست أدري ما أمر القبطان على التمام ولكنه لايبارح بيته ، كأنه مريض ومنظره لا يوحي بذلك ، والواقع أنه ليس مريضاً ، ولكنه غير معافى تماماً . على أي حال أيها الشاب أنه لا يستقبلني دائماً ولذلك لا أتصوّر أنه

يستقبلك . هو شخص غريب الأحوال ـ ذلك القبطان آخاب ، كذلك يظنّ بعض الناس ولكنّه إنسان طيّب . ستحبّه كثيراً ، لا خوف ، لا خوف . رجل جليل هو القبطان آخاب ، مقدّس ربّاني لا يعرف التقوى . لايتكلّم كثيراً فإذا تكلّم ، فما عليك إلا أن تنصت . حذارِ ياهذا ، إنّ آخاب فوق مستوى العامة ، درس في الكلّيات وعاش بين أكلة لحوم البشر . ألِفَ عجائب أعجب من الأمواج ، وأثبت حربته المتألّقة في أعداء أقوى وأغرب شأناً من الحيتان ، حربته ، أجل ، أنفذ سنان وأسدّه في كلّ الجزيرة . آه إنه ليس بالقبطان بلدد ، وليس القبطان فالج . إنه آخاب ، ياغلام ، آخاب القديم كما تعلم كان ملكاً متوّجاً .

ـ وأعلمُ أنه ملك شرّير ، وعندما ذبح ذلك الملك الشرير ، أما ولغت الكلاب في دمه ؟

فقال فالج وفي عينيه معنى كاد يفزعني : «تعال اليّ ، اقترب ، اقترب . اسمع أيّها الفتى لاتتفوّه بمثل هذا الكلام على ظهر الباقوطة . لاتتفوّه به في أيّة بقعة . إنّ القبطان آخاب ليس هو الذي اختار اسمه لنفسه ، وإنّما كانت نزوة حمقاء جاهلة من أمّه الخرقاء التي ماتت عنه وعمره اثنا عشر شهراً ، ومع ذلك فإنّ تستغ المرأة الهندية العجوز في جايهيد قالت إنّ ذلك الإسم قد يحمل النذر ويكون نبوياً . وقد يحدثك حمقى آخرون مثلها بمثل ماقالت . لكنّي أودّ أن أحذّرك . فتلك أكذوبة محض ، أنا أعرف القبطان آخاب معرفة حسنة ، سافرت معه ضابطاً منذ سنوات ، أعرف ما هو ـ طيّب ـ لاأعني أنه طيب تقي مثل بلدد ، وإنّما أعني أنه طيّب شتّام ، يشبهني إلاّ أنه يفوقني كثيراً . أجل أجل أنا أعلم أنه لم يكن في حياته كثير المرح ، وأنا أعرف أنه في عودته الى الوطن فقد عقله فترة ولكنْ كان السبب في ذلك هو الآلام الحادة النافذة في جذعه النازف بالدماء ، وذلك أمر يعرفه من خَبِره . وأعلم أيضاً أنه منذ فقد رجله في آخر سفرة بسبب الحوت اللعين أصبح متقلّب المزاج ، متردّد الطباع يائساً ، متوحّشاً أحياناً ، ولكن كلّ ذلك يزول . ودعني أخبرك وأؤكّد لك ، دفعة واحدة ، أيها الشاب أنّ من الخير لك أن تبحر مع قبطان طيّب متقلّب المزاج على أن تبحر مع قبطان بشوش سيئ الطباع . إذن وداعاً ، ولا تظلم القبطان آخاب لأنه يحمل اسماً شرّيراً ، ثمّ تذكّر أيها الفتى أنّ له زوجة لعلّه لم يمض على زواجه منها ثلاث رحلات ، فتاة حلوة وديعة راضية بما قدّر لها . تدبّر هذا ، ذلك الشيخ قد أولد هذه الفتاة الحلوة ولداً . أتعتقد إذن أنه يمكن أن يكون لدى آخاب أذى مطلق لا يُكبح ؟ لا . لا . يا بنيّ إن كان آخاب ذا عاهة ممقوتاً منهوك القوى فإنّ لديه جوانب إنسانيّة» .

وحين بارحته امتلأت نفسي بالأفكار ، ذلك أنّ ما انكشف لي عن القبطان آخاب ملأ جوانحي بغموض غريب من التألّم له ، وشعرت حينئذ بعطف عليه وأسف من أجله ، لكنّي لم أدرِ لماذا غمرني ذلك الشعور إلا أن تكون نكبته بفقدان رجله هي السبب . ومع ذلك شعرت برهبة غريبة منه ، إلاّ أنها نوع من الرهبة لا أستطيع أن أصفه ، فإنه لم يكن رهبة على وجه الدقة لكنّي لست أدري ماهو ، غير أنّي أحسست به ينفرني من الرجل ، بيدَ أنّي شعرت بما يشبه أن يكون جزعاً فيما حسبته لغزاً فيه ، لغزاً بنسبة القدر الضئيل الذي عرفته عنه . ومهما يكن من شيء فقد انطلقت أفكاري ـ من بعد ـ في وجهات أخرى ، حتّى تلاشى وجود آخاب المبهم من مخيّلتي عندئذ .

١٧

الصوم[١]

كان كويكوج قد نذر الصوم ، وهو على أن يستمرّ فيه طوال اليوم ، ولذلك لم أشأ أن أزعجه بالعودة المبكّرة ، وقرّرت أن أرجع عندما يجنّ الليل ، ذلك أنّي أكنّ أبلغ احترام نحو الفروض الدينية التي يمارسها أيّ امرىء كان ، مهما تكن مضحكة ، ولا أجد في قلبي نزوعاً الى التهوين من شأن عُبّاد أي دين حتّى ولو كان أولئك العبّاد قرية من النمل يعبد أهلها الكمأة ، أو لو كانوا بعض المخلوقات التي تعيش في نواحٍ من أرضنا وتنحني على نحوٍ من العبودية ، غير معهود إلاّ على هذا الكوكب ، أمّا جذع رجل إقطاعي منوفٍ مريضٍ لا لشيء إلاّ لأنه يملك أملاكاً مترامية الأطراف ويؤجّرها باسمه .

أقول : علينا نحن الصالحين أتباع المذهب المشيخي أن نرْحُبَ صدراً بهذه الأمور فلا نتصوّر أنفسنا أعلى مقاماً من سائر الناس ، وثنيين كانوا أوغير ذلك ، لما لديهم من تصوّرات ممرورة في شؤون دينهم ، هذا كويكوج كان يستطعم أشد الخواطر سخفاً عن يوجو وعن صومه . وماذا في هذا ؟ كان كويكوج يظنّ أنه يعرف ماهو بصدده ، فيما أخمّن ، ويبدو أنه كان راضياً بذلك ، فليطمئن حيث وجد رضاه وطمأنينته ، وكلّ مجادلاتنا معه لن تجدي شيئاً . إذن لندعه وشأنه ، أنزل الله علينا جميعاً رحمته ، مشيخيين كنّا أو وثنيّين إذ أننا جميعاً نمشي برؤوس « مشعورة » تحتاج صدوعها رأباً .

وحين قدّرت أنّ صلواته وشعائره لابدّ أن تكون قد انتهت ، توجّهت عند المساء الى غرفته وقرعت الباب ، فلا جواب ، حاولت أن أفتحه فوجدته مغلقاً من داخل . ناديت من ثقب المفتاح في لطف : « كويكوج! » ، فلم أجد إلاّ الصمت الشامل . «أقول : كويكوج!

(١) في الأصل : رمضان .

لِمَ لا تتكلّم ؟ هذا أنا ـ اسماعيل» . ولكنَ كلّ شيء بقي صامتاً ساكناً . بدأ الفزع يساورني فقد غبت عنه زمناً كافياً ، وأخشى أن يكون قد ألمّ به نوبة من التشنّج . نظرت من ثقب المفتاح ، ولكنّ الباب كان يواجه زاوية شاذّة في الغرفة ، ولذلك كان المنظور من خلل الثقب شيئاً شاذاً مشوّوماً إذ لم أستطع أن أرى إلاّ جزءاً من مرقاة السرير وخطّاً في الحائط ولا شيء سوى ذلك ، ودهشت حين رأيت قناة رمح كويكوج التي كانت ربّة النزل قد أخذتها منه في المساء السابق قبل أن نأوي الى الغرفة مركوزة الى الجدار . قلت لنفسي : هذا غريب ولكن بما أنّ الرمح على أية حال موجود ، وبما أنّ كويكوج قلّما يخرج دون أن يعتقله اذن فهو موجود ولابدّ في الغرفة . وليس في هذا التقدير أدنى خطأ . صحت : «كويكوج! كويكوج» ـ كلّ شيء هادىء ساكن . حدث شيء ما ولابدّ . أصيب بالسكتة! حاولت أن أستعمل العنف في دفع الباب فقاومني بعناد . هبطت الدرج راكضاً ، وأفضيت بما في صدري من ظنون لأوّل شخص صادفته ـ وكان هو الخادمة ، فصرخت : «لا! لا! قَدَّرْتُ أنّ هناك أمراً . ذهبت لأسوّي السرير بعد الفطور فكان الباب مقفلاً ولاتسمع في الداخل نأمة . وظلّ الصمت شاملاً حتّى هذه اللحظة . وقلت : لعلّكما خرجتما معا وأقفلتما الغرفة حفاظاً على ما فيها من أمتعة لكما . لا! لا! ستّي! سيّدتي! قَتْل! مسز هسي! سكتة!» وجرت وهي تردّد هذه الصيحات نحو المطبخ وأنا على أثرها .

برزت مسز هسي (السليط) لدى سماع الصوت وفي إحدى يديها بوطة الخردل وفي الأخرى وعاء الخلّ وقد فرغت لتوّها من الإشراف على المواعين ومن شتم خادمها الغلام الأسود في أثناء ذلك .

صرخت : «مستودع الخشب! أين الطريق اليه ؟ كرمال الله اركضوا ، أحضروا شيئاً نكسر به الباب ، الفأس! الفأس! أصابته نوبة يقيناً!» وفيما قلت ذلك اندفعت أصعد الدرج فارغ اليد على غير هدى ، فاعترضت زوجة (السليط) طريقي ببوطة الخردل ووعاء الخلّ وبكلّ خروع يتقمّصه وجهها :

ـ « مابك أيها الشاب ؟ »

ـ «فأساً! كرمال الله! أسرعوا الى الطبيب ، واحد منكم ، بينما أنا أكسر الباب» .

فقالت ربّة البيت وهي تضع وعاء الخلّ على الأرض بسرعة لتكون إحدى يديها حرّة طليقة : «اسمع! اسمع . ألأنت الذي تتحدّث عن كسر أحد أبوابي!» وفيما هي تقول ذلك قبضت على ذراعي : «ما لك! ما بك أيها البحّار ؟» .

بكلّ ما أستطيعه من هدوء وسرعة أفهمتها القصة جميعاً ، فضربت بوعاء الخلّ جانب أنفها دون وعي ، واستغرقت لحظة تفكّر ، ثمّ هتفت : «لا! لم أره منذ أخذته منه» وجرت الى غرفة صغيرة تحت اسكلة الدرج ، وأجالت فيها عينيها وعادت تقول إنّ رمح كويكوج قد اختفى منها . وصاحت : «قتل نفسه . هذه حادثة استجز التعيسة تتكرّر ـ ضاع شرشف آخر ـ كان الله لأمه المسكينة! سيخرب بذلك بيتي ـ ألهذا الفتى المسكين أخت ؟ أين هي ؟ بتي! اذهبي الى سنارل الخطّاط قولي له أن يصنع لي لافتة يكتب عليها : «الانتحار ممنوع والتدخين ممنوع في القاعة» ـ بهذا نقتل عصفورين بحجر . نقتل ؟ رحم الله روحه . ماهذه الدوشة ؟ أنت أيها الشاب . قف عندك ؟ .

وجرت خلفي وأمسكت بي وأنا أحاول مرّة أخرى أن أفتح الباب بالقوّة : «لا أسمح بهذا ، لا اسمح بإتلاف ممتلكاتي . اذهب الى صانع الأغلاق ، هناك واحد على بعد ميل . قف عندك» ثمّ وضعت يدها في جيبها وقالت : «هذا مفتاح مناسب ، فيما أظن . لنجرّبه» وأدارت المفتاح في المغلاق ولكن وأسفاه بقي المزلاج الداخلي مثبّتاً لا يتحلحل .

فقلت : «لابدّ من كسره» ، وجريت هابطاً قليلاً عن باب المدخل ، تهمماً بالإنقضاض ، حين أمسكت بي ربّة النزل ، وحلفت أنّي لن أحطّم شيئاً من عقاراتها ، ولكنّي نزعت نفسي من قبضتها واندفعت وألقيت جسمي وأنا مندفع ضدّ الباب ، فانفتح محدثاً جلبة شديدة ، وحين ارتطمت الأكرة بالجدار نثرت الجير حتّى السقف وهناك رأيت ، يالله! كويكوج جالساً رابط الجأش مطمئن النفس في وسط الغرفة تماماً وقد تقرفص على فخذيه وحمل يوجو على نافوخ رأسه . ولم يلتفت لا الى هذه الناحية ولا الى تلك وإنّما جلس كالتمثال المنصوب دون أن تبدر منه دلالة على الحياة والحركة .

قلت وأنا أتقدّم نحوه : «كويكوج ؟ ما دهاك ؟» .

وقالت ربّة النزل : «طبعاً لم يجلس هذه الجلسة طوال اليوم . أتراه فعل ؟»

ولكنّا رغم ماقلناه لم نستطع أن نستخرج منه كلمة واحدة ، وكدت أهمّ بأن أدفعه لكي يغيّر جلسته لأنها كانت غير محتملة ، فهي مؤلمة معقّدة للأعصاب على نحوٍ شاذ ، وبخاصّة وأنّ الدلائل تشير الى أنه جلس كذلك ثماني ساعات أو عشراً واستمرّ على ذلك دون أن يتناول طعاماً . .

قلت : «مسز هسي هو حيّ على أيّة حال ، فإذا تكرمت اتركينا وسأتولّى النظر أنا نفسي في هذا الأمر الغريب» .

وأغلقتُ الباب وراءها وحاولتُ أن أقنع كويكوج بأن يجلس على كرسي ، وسدىً

ماحاولت . ظلّ حيث هو ، توسّلت بكلّ أسباب اللطف والأدب ولكنْ كان ردہ الوحيد على ذلك أنه بقي لاينتقل خطوة ولاينبس بكلمة ولا ينظر اليّ ولا يلحظ وجودي ولو لمحاً .

وقلت لنفسي . عجيب أمره . أيكون هذا جزء من الصوم لديه ؟ أتراهم يجلسون القرفصاء وهم صائمون في وطنه ؟ هو كذلك ولابدّ ، أجل! هذا جزء من عقيدته فيما أظن . طيّب لأتركه حيث شاء فإنه سينهض ـ دون ريب ـ عاجلاً أو آجلاً . شكراً لله لأنه لايستطيع أن يبقى كذلك أبداً . ثمّ إنّ صومه لايحلّ إلاّ مرّة في العام . ولاأظنّه ملحّاً مادام كذلك .

ذهبت الى العشاء . وبعد أن جلست وقتاً طويلاً أنصت الى قصص مسهبة يقصّها بعض البحّارة الذين عادوا لتوّهم من رحلة يسمونها مجازاً « حلاوة البرقوق » (ويعنون بها رحلة قصيرة لصيد الحيتان في المحيط الأطلسي دون سواه) . أقول : بعد أن أصغيت الى هؤلاء الصيادين حتّى ناهزت الساعة الحادية عشرة صعدت الى غرفة النوم وأنا على مثل اليقين أنّ كويكوج حينئذ قد ختم صيامه . ولكن خاب ماظننته يقيناً فقد كان مايزال حيث خلفته لم يتزحزح قيد أنملة . فبدأ استيائي منه يثور ، ذلك أنه كان من البلادة واللوثة المحض أن يجلس القرفصاء يوماً ونصف ليلة في غرفة باردة وقد وضع على رأسه قطعة من الخشب :

ـ « بحقّ السّماء يا كويكوج انهض وتحلحل ، قمْ تناول بعض الطعام إنّك تُميت نفسك جوعاً ، تقتل نفسك يا كويكوج » . غير أنه لم ينبس ببنت شفة .

عزمت وقد يأست من أمره أن آوي الى الفراش وأنام ، ولاريب في أنه سيلحق بي بعد وقت غير طويل . غير أنّي قبل أن أستدير منصرفاً تناولت صدارتي الثقيلة التي تسمّي جلد الدب وألقيتها عليه إذ كانت الليلة توحي بأنها ستكون قارسة البرد ، ولم يكن يرتدي شيئاً سوى سترته المستديرة . ومضى وقت وأنا عبثاً أحاول أن أستجلب النعاس . كنت قد أطفأت الشمعة ولكن خطر لي أنّ كويكوج على بعد أربعة أقدام جالسٌ تلك الجلسة المرهقة متصلّباً متخشّباً وحده في الظلام ، فملأني هذا الخاطر شعوراً بالتعاسة ، تصوّروا حالي نائماً طوال الليل في غرفة واحدة مع وثني ساهر يجلس القرفصاء في هذا الصوم الموحش الذي لا أعرف له تفسيراً!

ولاأدري كيف غفوت أخيراً إغفاءة امتدّت حتّى الصباح وحين أفقت نظرت عبر السرير فرأيت كويكوج مقرفصاً كأنّما شدّ الى الأرض بمسمار . ولكنْ ماكاد أوّل خيط من أشعّة الشمس ينفذ الى الغرفة حتّى نهض ومفاصله متيبّسة تصرّ وعلى وجهه سمات المرح ، فتقدّم منّي يظلع ، وضغط جبهته على جبهتي وقال أنّ صومه قد انتهى .

أنا ، كما ألمحت من قبل ، لا أعترض على دين أيّ فرد مهما يكن حاله ، مادام ذلك الفرد لايقتل غيره ولايهينه من أجل أنّ غيره لايشاركه إيمانه . ولكن حين يصبح دين المرء مثيراً للسخط ، حين يكون مصدر عذاب لصاحبه ، وبإيجاز حين يجعل العيش على هذه الأرض كالسكن في فندق مزعج ، حينئذ أعتقد أنّ الوقت صالح لننتحي بصاحب ذلك الدين ناحية ونناقشه في معتقده .

وهذا هو ما فعلته إزاء كويكوج . قلت له : «اذهب الى السرير توّاً واضطجع وانصت لما أقول» . ثمّ مضيت في حديثي مبتدئاً من نشأة الدين البدائي وتطوّره حتّى بلغت مرحلة الأديان المختلفة في عصرنا الحاضر ، وخلال ذلك كلّه جهدت لكي أبيّن له أنّ كلّ ضروب الصوم وجلوس القرفصاء في غرف باردة مكفهرّة إنّما هي هراء صراح ، فهي ضارّة بالصحّة ، لاتفيد الروح ، وتتعارض ـ في إيجاز ـ وقوانين علم الصحة المعروفة وحسن التدبير . وأخبرته أيضاً أنه إذا كان في أمور أخرى بدائيّاً بالغ التعقّل والحكمة فإنه ممّا يؤلمني ، بل يحرّضني ويرمّضني ، أن أراه محمقاً الى مدى محزن في أمر هذا الصوم الذي يمارسه . ثمّ قلت : زد على ذلك أنّ الصوم ينحل الجسم ومن ثمّ تضوى الروح ، وكلّ أفكار تتولّد عن الصيام فإنّ نصفها بالضرورة يكون ميّتاً جوعاً . وهذا هو السرّ في أنّ أكثر المتديّنين المصابين بعسر الهضم يجترّون خواطر سوداوية عن مصايرهم . وأقول في كلمة ، وقد قلتها على نحوٍ ملتوٍ غير عامد : كويكوج! إنّ جهنّم فكرة ولدت أوّل مرّة إثر عسر هضم من تناول الفطير السكّري ثمّ خلّدت تلك الفكرة خلال مراحل عسر الهضم الذي يولّده الصيام .

ثمّ سألته أتراه يصاب أحياناً بعسر الهضم ، ووضّحت له الفكرة في تبسيط شديد حتّى أدركها فأجاب بالنفي إلاّ مرّة واحدة في حادثة لا تنسى . وكان ذلك عقب حفلة كبيرة أقامها والده الملك حين انتصر في معركة عظيمة ، فقتل خمسين من العدو في حوالي الثانية ظهراً وشويت أجسامهم وأكلت في ذلك المساء .

قلت وأنا أرتعش : «حسبك يا كويكوج . كفى . كفى» . إذ كنت أعلم النتائج دون أن يلمّح اليها ، فقد كنت رأيت بحّاراً زار تلك الجزيرة نفسها ، وأخبرني أنّ العادة جرت في حال الإنتصار في معركة كبيرة أن يشوى المذبوحون جميعاً في فناء دار المنتصر أو حديقته . ثمّ يوضعون واحداً إثر آخر في مذاود خشبية كبيرة ، ثمّ تصف حولهم زخارف من ثمر الخبز وجوز الهند كأنهم أطباق الأرز ويهديهم المنتصر لأصدقائه وقد وضع في فم كل واحد منهم ضمّة من البقدونس كأنهم الديوك الرومية التي تسوّى احتفالاً بعيد الميلاد .

بعد ذلك كلّه لست أظن أنّ تعليقاتي على الدين تركت أثراً في نفس كويكوج ذلك لأنه كان في المقام الأوّل كأنّما في أذنه وقر إذا أنت حدّثته في ذلك الموضوع الهام إلاّ إذا تناولته من وجهة نظره . ثمّ لأنه في المقام الثاني لم يفهم ثلث ما قلته ، مهما بسّطت أفكاري ووضّحتها ، ثمّ لأنه أخيراً كان يعتقد أنه يعرف عن الدين الحق أكثر ممّا أعرف . فنظر اليّ نظرة مجاملة وحنو كأنما كان يرى من المؤسف أن يضل شاب عاقل مثلي ضلالاً لارجاء فيه عن إدراك التقوى الوثنيّة .

أخيراً نهضنا وارتدينا ثيابنا ، وتناول كويكوج بنهم فطوراً كبيراً من جميع أنواع الشودر كي لا يوفّر صيامه شيئاً على ربّة النزل ، وانطلقنا الى الباقوطة ، ونحن نتسكّع في مشيتنا ونخلّل أسناننا بحسك القفندر .

١٨

علامته

حين كنّا ننحدر الى نهاية الرصيف نحو السفينة ، وكويكوج معتقل رمحه ، حيّانا القبطان فالج بصوته الأجش من عريشته وقال إنه لا يشكّ في أنّ صديقي كان متوحّشاً من آكلة لحوم البشر ، وأنّ هذا الصنف من الناس لا يؤذن لهم بالإبحار على سفينته إلاّ إنْ تقدّموا بأوراقهم قبل التسجيل .

قفزتُ على جانب السفينة وتركت رفيقي واقفاً على الرصيف وأنا أقول : « ماذا تعني بهذا يا قبطان فالج ؟ » .

فأجاب : « أعني أنه لابدّ أن يبرز أوراقه » .

وقال بلدد بصوته الخاوي وهو يمدّ رأسه من خلف رأس فالج من العريش : « حقّاً عليه أن يبرز ما يدلّ على أنّه تنصّر » . واستمرّ ملتفتاً الى كويكوج : « يا ابن الظلام! هل أنت في الوقت الحاضر على صلة بأيّة كنيسة مسيحية ؟ » .

فقلت : « بل هو ينتمي الى أوّل كنيسة مجمعية » . وهنا يجدر بي أن أقول أنّ كثيراً من هؤلاء المتوحّشين الموشومين الذين يبحرون في سفن من نانتوكت يتحوّلون الى أحد المذاهب المسيحية في النهاية .

فصاح بلدد : « أوّل كنيسة مجمعيةَ ماذا ؟ أتعني تلك التي تقام صلواتها واجتماعاتها في بيت الشمّاس ديوترونومي كولمان ؟ » . وإذ قال ذلك أخرج نظّارتيه ومسحهما بمنديل كبير أصفر زاهي اللون وأثبتهما على عينيه بتؤدة وخرج من العريش وانحنى ، انحناءة المتيبّس ، على جانب السفينة ، وسدّد الى كويكوج نظرة طويلة .

ثمّ قال وهو يستدير نحوي : « كم مضى عليه وهو عضو فيها ؟ أعتقد أيها الشاب أنه حديث الإنتماء » .

وقال فالج : «ثمّ أنه لم يعمّد ولو فعل لغسل ماء العماد عنه بعض هذه الزرقة المشؤومة في وجهه» .

فصاح بلدد : «أخبرني أهذا الفريسي عضو منتظم منتسب الى اجتماعات الشمّاس ديوترونومي ؟ لم أره هناك وأنا أتردّد اليها كلّ يوم أحد» . قلت : «لا أعرف شيئاً عن الشمّاس ديوترونومي ولا عن اجتماعاته . كلّ ما أعلمه أنّ كويكوج بحكم مولده ينتمي الى الكنيسة المجمعية الأولى ، وهو نفسه شمّاس ، أعني كويكوج نفسه» .

فقال بلدد في عبوس : «أيها الفتى أنت تعابثني . أوضح ماتقول أيها الحثّي الشاب . الى أيّ كنيسة تنتمي ؟ أجبني» .

وإذ وجدتني محرجاً أجبت : «أعني ياسيّدي تلك الكنيسة القديمة كنيسة الفطرة التي تنتمي اليها أنت وأنا والقبطان فالج هناك وكويكوج هنا ، ننتمي اليها كلّنا واليها ينتسب كلّ ابن أمّ وكلّ ذي نفس ، تلك الكنيسة المجمعية الأولى الأبدية التي تضمّ كلّ من سبّح الله . كلّنا أبناؤها إلاّ أنّ بعضنا قد تراوده أخيلة ضالة زائفة تنحرف به قليلاً عن المعتقد الأعظم الذي يوحّدنا جميعاً ويجمع بين أيدينا» .

فصاح فالج وهو يدنو منّي : «تعني يربط الأيدي ، أيّ يشدّها في وثاق واحد . أيّها الشاب خير لك أن تسافر على السفينة مبشّراً واعظاً بدلاً من أن تكون بحاراً . لم أسمع موعظة خيراً من موعظتك . لم يبذّها الشماس ديوترونومي بل حتّى الأب مابل نفسه ، وهو ما هو في الخطابة والوعظ . اسعد على ظهر السفينة ، اصعد . دع عنك مسألة الأوراق . أقول : قل لكويكوج ـ ما اسمه ؟ قل لكويكوج أن يتقدّم . وحقّ المرسى العظيم ، إنه ليحمل رمحاً نعم الرمح! من نوع جيّد ، وهو يلعب به لعب المتمرّسين . أقول : ياكويكوج ، أو أيّاً كان اسمك ، هل وقفت في حياتك على رأس قارب لصيد الحيتان ؟ هل اتّفق لك أن طعنت سمكة ؟ »

ولم ينبس كويكوج بكلمة وإنّما قفز على جانب السفينة بطريقته الوحشية العفوية ، ومن ثمّ انطلق الى مقدمة أحد قوارب التحويت المعلّقة على أحد الجوانب ثمّ طوّق ركبته اليسرى وسدّد من عليها رمحه وصاح يرطن : «قبطن . أنت هو تراه النقطة القار على الماء هاك ؟ تراه ؟ فرضناً هو عين الحوته . شفت!» وسدّد الرمح ثمّ قذف به فويق قبّعة بلدد الواسعة الحواشي ، عبر ظهر السفينة على خطّ مستقيم وأزال بقعة القار التي كانت تلتمع .

وقال في هدوء وهو يسحب رمحه : «فرضنا هو عين الحوته ، داك الحوته يموت» .

فقال فالج الذي بهرته مصاقبة الرمح الطائر فتراجع نحو ممرّ القمرة موجّهاً الكلام لشريكه : « بلدد أسرع . أقول : عجّل يا بلدد وأحضر الأوراق لابدّ من أن نسجّل هجهوج أعني كويهوج في أحد قواربنا . اسمع ياكويهوج . سنعطيك النصيب التسعين . وهذا أكثر ممّا أعطيه أيّ حوّات من نانتوكت » .

لذا نزلنا الى القمرة وما كان أبلغ سروري حين سجّل كويكوج بين رفاق السفينة التي أصبحت أنتمي إليها .

وعندما انتهت الأمور التمهيدية وأصبح كلّ شيء في يد فالج جاهزاً للتوقيع ، التفت اليّ وقال : « أظنّ أنّ كويهوج أمّي لايكتب . أليس كذلك ؟ أقول يا كويهوج عليك اللعنة أتوقّع اسمك أو ترسم علامتك ؟ » .

إلاّ أنّ كويكوج الذي كان قد أدّى هذه الفريضة مرّتين أو ثلاثاً من قبل لم يخجل عندما سمع السؤال بل أخذ القلم المقدّم اليه ونسخ على الورقة ، في الموضع الصحيح ، نسخة دقيقة عن شكل مستدير غريب كان موشوماً به ذراعه ، وقد أدركه الخطأ العنيد الذي تلبّس فالج وهو يلفظ اسمه ، فكان مارسمه شبيهاً بما يلي :

كوهوج



علامته

في أثناء ذلك كلّه جلس القبطان بلدد يحدّق النظر منعماً في كويكوج وأخيراً نهض في وقار وعيّث في جيوب معطفه الصوفيّ الضخم ذي الزيق العريض ، واستخرج رزمة من الكراسات الدينية ثمّ اختار كراسة عنوانها « اقتربت الساعة أو العمل قبل الأجل » ووضعها بين يدي كويكوج ، ثمّ زمهما والكتاب بينهما بيديه ، وأنعم النظر في عينيه وقال : « يا ابن الظلام! عليّ أن أؤدّي واجبي نحوك . أنا شريك في هذه السفينة وأحسّ بأنّي مسؤول عن أرواح بحارتها جميعاً . فإذا كنت ماتزال متشبّثاً بشؤونك الوثنية ، وذلك ما أخشاه آسفاً ، فإنّي أتوسّل اليك أن لا تبقى لحظة من أولياء الشيطان الرجيم . اطرح عنك بعلاً والتنّين الوبيل . احذر يوم الهول الأكبر . وتبصّر وتدبّر . (ألطف بنا ياربّ!) حاذر أن تقع سفينتك في هوّة جهنّم! » .

كانت أثارة من البحر المالح ماتزال عالقة بلغة بلدد وقد اختلطت بلغة الكتاب وبالعبارات المألوفة في بلده .

فقال فالج : «قف . خلّ عنك . حسبك لا تفسد علينا حوّاتنا . إنّ الحوّاتين الأتقياء لا يحسنون الصيد . تقواهم تسيّب القرش من أيديهم . الحوّات لا يسوى دانقاً إن لم يكن كالقرش وحشية ومضاء . أتذكر الشاب نات سوين أجرأ من وقف على رأس قارب في نانتوكت وفنيارد ؟ بعد أن سلك نفسه في الإجتماعات الدينية ، فقد جرأة الحوّات ـ أصبح يرتعش اشفاقاً على روحه المنوفة ، حتى غدا يخيم ويحجم إذا واجه الحيتان ، خوفاً من أن ينشقّ به القارب فيهوي الى دركات الجحيم .

رفع بلدد عينيه ويديه وقال : «فالج! فالج! لقد رأينا ـ أنا وأنت نفسك ـ لحظات عديدة من الخطر . أنت تعلم يافالج مامعنى الخوف من الموت . كيف تهرف بهذا البهتان المضلّل! إنّك تكذّب حقيقة قلبك يافالج! قلْ لي عندما تحطّمت صواري الباقوطة الثلاثة في الإعصار عند اليابان ، في تلك الرحلة التي رافقت فيها القبطان آخاب ، ألم تفكّر في الموت واليوم الآخر ؟ »

فقال فالج وهو يخطر في القمرة وقد دسّ يديه الى أعماق جيبيه . «ماشاء الله! ماشاء الله . اسمعوا بالله عليكم جميعاً . تصوّروا! حين كنّا نتصوّر في كلّ لحظة أنّ السفينة غارقة! الموت واليوم الآخر وقتئذ ؟ ماذا ؟ حين أخذت الصواري الثلاثة تضرب جوانب السفينة وتبعث أصواتاً كالرعد ، وأخذ كلّ بحر يتفجّر منقضّاً علينا في القيدوم والكوثلة ، أفكّرنا في الموت واليوم الآخر حينئذ ؟ كلاّ . ماكان لدينا وقت للتفكير في الموت حينئذ . الحياة هي ماكنّا نفكّر فيه أنا والقبطان آخاب ـ كيف نخلّص الجميع ـ كيف نكسو الصواري العارية بالأشرعة والحبال ـ كيف نصل الى أقرب ميناء ـ ذلك هو ماكنت أفكّر فيه» .

لم يقلْ بلدد شيئاً وزرّ معطفه ، ومشى مختالاً فوق ظهر السفينة فتبعناه ، وهناك وقف يطل في هدوء على بعض صنّاع الأشرعة ، وهم يصلحون شراعاً كبيراً من وسطه . وبين الحين والحين كان ينحني ويلتقط خرقة أو يلمّ طرف دوبارة مقيّرة ، حرصاً منه على أن لاتذهب سدى .

١٩

ايليا المتنبئ[١]

ما كدنا نغادر الباقوطة ، ونبدأ تسكّعنا بعيدين عن الماء ، وكلّ منّا غارق في أفكاره ، حتّى طالعنا شخص غريب ، وقف أمامنا وصوّب سبّابته المكتنزة نحو السفينة وقال :

ـ يا رفيقيّ ، هل اتّفق لكما أن تبحرا في تلك السفينة ؟

كان مرتدياً ثياباً مهلهلة ، سترةً حائلة اللون وسروالاً مرقّعاً ، وقد لفّ حول عنقه خرقة من منديل أسود . وقد غمر وجهه كلّه بثر الجدري في جميع النواحي ، وخلاّه كمجرى التيّار المعقّد المضلّع بعد أن تنحسر عنه المياه أو تجفّ .

فأعاد قوله : « هل تبحران فيها ؟ » .

قلت محاولاً أن أكسب بعض الوقت لأشمله بنظرة طويلة : « تعني الباقوطة فيما أظن » .

فقال : « نعم الباقوطة ـ تلك السفينة هناك » . وأرجع ذراعه كلّها ثمّ ردّها على استقامة أمامه ، وقد جعل أنملة سبّابته مصوبّة تمام التصويب الى السفينة » .

قلت : « نعم قبيل هنيهة وقعنا العقد » .

ـ هل يحيك شيء في روحيكما ؟

ـ حول أيّ شيء ؟

فقال في سرعة : « أواه لعلكما لاتشعران بشيء! لابأس ، أعرف فتياناً كثيرين لا يشعرون بشيء ـ يا حسن حظّهم! خليّون لا يؤرقهم شيء . إنّ الروح كالعجل الخامس للعربة » .

---

(١) اختار له اسم «ايليا» عمداً لأنّ ايليا هو الذي كان ينذر آخاب ، أنذره أولاً بثلاث سنوات من القحط ، وتنبأ أيضاً بأنّ الكلاب ستلغ في دمه (انظر أخبار الملوك الأول ١٧ ، ١٨ ، ٢١) .

قلت : «عن أيّ شيء تهرف ، أيها الرفيق البحار ؟» .

ـ «هو لديه مايكفي ليعوّض الآخرين عمّا ينقصهم في أرواحهم» . تفوّه الغريب بتلك الكلمات في اقتضاب وقد تلفّظ لفظة «هو» في نبرة عصبية شديدة . فقلت : «كويكوج! هيّا بنا ، هذا امرؤ قد ندّ من عقال ، وهو يتحدّث عن شيء وشخص لا نعرفهما» .

فصاح الغريب : «قف! بالحق نطقت ـ فأنت لم ترَ «الرعد الرعّاص» بعد!» .

قلت وقد لفتني الحماسة الملتاثة في هيئته : «من هو الرعد الرعاص ؟» .

ـ «آخاب القبطان» .

ـ «ماذا ؟ قبطان سفينتنا الباقوطة ؟» .

ـ «أيوه . بيننا نحن البحّارة القدامى ، ذلك هو اسمه . لم ترياه بعد ، أليس كذلك ؟» .

ـ «بلى! لم نره . يقولون إنه عيّان إلاّ أنه في تحسّن وسيكون معافىً في زمن قصير» .

فضحك الرجل الغريب ضحكة ساخرة مهيبة في آن ، وقال : «معافىً في زمن قصير . اسمع! حين يعافى القبطان آخاب تكون يدي اليسرى هذه قد صحّت ، وليس قبل ذلك» .

ـ «ماذا تعرف عنه ؟» .

ـ «ماذا أخبروك عنه ؟ هكذا قل!» .

ـ «لم يخبروني عنه كثير شيء . سمعت أنه صيّاد حيتان ماهر ، طيّب في معاملة بحّارته» .

ـ «كِلا هذين الخبرين صحيح ـ نعم . كلاهما صحيح ، ولكنْ عليك أن تقفز حين يأمر . تقدّم ثمّ تذمر ، تذمّر لكن لا تتوقّف ـ هذا هو مايقضي به آخاب . ولكنكما لم تسمعا شيئاً عمّا أصابه عند رأس هورن ، منذ زمن بعيد ، حين استلقى كالميت ثلاثة أيّام بلياليها ، ولا عن المناوشة بينه وبين الاسباني عند المذبح في سانتا . لم تسمعا شيئاً عن ذلك ؟ مش كده ؟ ولاشيء عن القدح الفضّي الذي بصق فيه ، ولا عن فقدانه لرجله في آخر رحلة حسبما جاءت النبوءة ، لم تسمعا شيئاً عن هذه الأمور وعمّا هو أكثر منها ، مش كده ؟ لا . لا أظنّكما سمعتما . وأنّى لكما! ومن يعرف ما أعرف ؟ لا أظن نانتوكت كلّها تعرف . لكن مهما يكن من أمر فلابدّ أنّكما سمعتما شيئاً عن رجله وكيف فقدها ، أجل . أجل سمعتما ، فيما أخمّن . حقّاً كلّ الناس يعرف ذلك ـ أعني يعرفون أنه ذو رجل واحدة ، وأنّ حوت العنبر أخذ الأخرى» . قلت : «ياعزيزي عمّ كلّ هذا الهذيان ، لست أدري ولا يعنيني أن أدري إذ يبدو لي أنّ هناك منطقة معطّلة في رأسك بعض الشيء . لكنْ إن كنت

تتحدّث عن القبطان آخاب ، قبطان تلك السفينة الراسية هناك ، أعني الباقوطة ، فليكن معلوماً لديك أنّي أعرف كلّ شيء عن فقدانه لرجله » .

ـ « كلّ شيء ، مش كده ، تعرف حقاً ؟ كلّ شيء ؟ » .

ـ « يقيناً » .

وقف الغريب الذي يشبه الشحّاذ في هيئته ، لحظة ، واصبعه تشير الى الباقوطة ونظره مسدّد نحوها ، كأنّما هو في استبحار فكري مضطرب . ثمّ تقدّم قليلاً ثمّ استدار وقال : « تبحران . أليس كذلك ؟ قد كتبتما توقيعكما ؟ حسناً حسناً! ما أُمضيَ فقد أُمضيَ ، وما قضيَ فلابدّ كائن! وقد يشاء الله ألاّ يكون . كلّ شيء قد أعدّ ورتّب ، ولابدّ أن يبحر معه بحّارة ، فيما أظن ، ويبحر معه رجال آخرون . كان الله لهم! وداعاً يارفيقيَ ، وداعاً! وحلّت عليكما بركة السماء الموشّحة بالقداسة . أنا آسف اذ أوقفتكما! » .

قلت : « اسمع ياعزيزي إذا كان لديك شيء هام تقوله لنا ، هيّا نُتَّهُ ، أفضِ به ، ولكنْ إن كنت تحاول فحسب أن تضحك علينا وتخادعنا ، « فالعب غيرها! » ـ ذلك كلّ ما لديّ من قول » .

ـ « وقولك فصيح ، وأنا أحبّ أن أسمع فتى يتحدّث على هذا النحو . أنت تناسبه ـ أنت وأمثالك . صباح سعيد ـ يا رفيقيَ ـ وداعاً! حين تقابلانه قولا له : إنّي قرّرت ألاّ أكون واحداً منهم » .

ـ « يا عزيزي ، يا رفيقي إنّك لا تستطيع أن تضحك علينا كأنّا من الحمقى ، ليس لك أن تخدعنا بهذا الأسلوب ، أسهل شيء في الوجود على المرء أن يبدو للناس وكأنه ينطوي على سرّ عظيم » .

ـ« وداعاً يارفيقيَ . صباح سعيد! » .

ـ « يا له من صباح! هيّا بنا كويكوج لنمضِ عن هذا المجنون ، مهلاً! قل لي ما اسمك! » .

ـ « ايليا » .

ايليا! كذلك ردّدت في نفسي ونحن نبتعد عنه ، وكلّ منّا يعلّق بطريقته على هذا البحّار العجوز ذي الأسمال ، واتّفقنا على أنه لم يكن سوى نصّاب يحاول أن يبدو « بعبعاً » . وربّما لم نكن قد أبعدنا عن ما يزيد على مائة ياردة حتّى انعطفنا في أحد المنعطفات ، والتفتُّ ورائي وأنا أدور منعطفاً ، فإذا بايليا يقتفي خطانا عن بعد ، وأثّر مرآه في نفسي على نحوٍ جعلني لا أنبّه كويكوج الى أنه يسير في آثارنا ، وإنّما مضيت ورفيقي وأنا أتوق لأتحقّق هل

ينعطف الغريب في الزقاق نفسه الذي اتّجهنا فيه . وكان أن فعل وبدا لي أنه يتعلق بنا ؛ أمّا ماذا كان قصده من ذلك فشيء لم أستطع أن أتخيّله أبداً . هذه الحادثة ولَدت في نفسي ، حين اجتمعت مع كلماته المبهمة التلميحيّة الموهمة المغلّفة ، جميع ضروب العجب والإشفاق ، وكلّها كانت تتّصل بالباقوطة والقبطان آجاب والرجل التي فقدها ، والنوبة عند رأس هورن ، والقدح الفضّي وماقاله عنه القبطان فالج حين غادرت السفينة أمس ، ونبوءة المرأة الهندية تستغ والسفرة التي ارتبطنا بها ومئات من أمور أخرى كالطيوف .

وعزمتُ على أن أعلم علم اليقين هل ايليا الباذّ الهيئة يتعقّبنا حقّاً ، وتحقيقاً لهذه النيّة اجتزت الطريق بصحبة كويكوج ثمّ عدنا معاً على الجانب الآخر منها ، إلاّ أنّ ايليا مضى في طريقه دون أن يلحظنا ـ فيما يبدو ـ . ذلك نفّس عنّي ، ومرّة أخرى ، قلت في نفسي إنّه نصّاب ، وبدا لي أنّي أطلق عليه هذا الوصف لآخر مرّة .

٢٠

كل شيء على قدم وساق

مضى يوم أو يومان ، واحتدم النشاط فوق ظهر الباقوطة . لم تُصلح الأشرعة القديمة فحسب بل استحضرت أشرعة جديدة ، ولفائف من الخيش والحبال ، أي جلب كلّ شيء يدلّ على أنّ الإعدادات في السفينة تؤذن بالإنتهاء . أمّا القبطان فالج فلعلّه لم ينزل الى البر أو نزل مرّات معدودة ، وظلّ أكثر الوقت في عريشه يرقب الأيدي بنظرات نافذة . وأمّا بلدد فقام بكلّ ماتحتاجه السفينة من مشتريات ومن مخزونات . وأمّا الرجال العاملون في عنبر السفينة وعلى الحبال فكان عملهم يمتد بهم وقتاً طويلاً بعد حلول الليل .

في اليوم التالي لليوم الذي أمضى فيه كويكوج العقد ، عمّم على جميع الفنادق التي ينزل فيها بحّارة السفينة أمر بأن تودع حقائبهم وصناديقهم في السفينة قبل حلول الليل ، إذ توشك أن تبحر في أيّة لحظة . فحملنا أنا وكويكوج أمتعتنا وقرّرنا أن ننام على الشاطئ حتّى يحين موعدها . ولكن يبدو أنّهم يبكّرون في تعميم مثل هذه الأومر في هذه الحالات فقد مضت عدّة أيّام ولم تبحر السفينة ، ولكن لا عجب في ذلك إذ كان ما يجب إنجازه كثيراً ولا أحد يحصي ما يجب أن لا يغيب عن البال قبل أن تكون الباقوطة قد أعدّت وأخذت كل أهبتها .

كلّ منّا يعلم كثرة الأشياء التي لايستغني عنها بيت : من أسرّة وقدور وسكاكين وشوك وجوارف وملاقط وفوط وكسّارات وغيرها . وتلك هي الحال أيضاً في سفرات الصيد التي تحتاج الى مايكفي ثلاث سنوات تقضى في عرض البحر بعيداً عن كلّ البدالين وبائعي الخضر والفواكه والأطبّاء والخبّازين والصيارفة . وهذا يصدق أيضاً على السفن التجارية وإن لم تبلغ في ذلك مبلغ سفن التحويت . فالسفرة في صيد الحوت طويلة ، هذا الى تعدّد الأدوات التي يحتاجها الصيّادون في مهمّتهم ، واستحالة استبدالها أو إيجاد عوض عنها في

الموانئ النائية التي تمرّ بها سفن الصيد ، ويجب أن نذكر بأنّ سفن التحويت من بين جميع السفن أكثرها تعرّضاً للحوادث من كلّ نوع وخاصّة تلف الأشياء التي يعتمد عليها نجاح الرحلة ، أو فقدانها ، ولذلك يأخذون فيها مزيداً من القوارب ومزيداً من الصواري ومزيداً من الحبال والرماح ، يأخذون مزيداً من كلّ شيء إلاّ شيئين هما السفينة نفسها وقبطانها .

ولدى وصولنا الجزيرة كانت الباقوطة قد استكملت كلّ المخزون المطلوب أو تكاد ، وذلك يشمل ما تحتاجه الرحلة من لحم البقر والخبز والماء والوقود والأطواق الحديدية والأخشاب . ولكن ظلّ احضار الأشياء المتنوّعة ، صغيرة كانت أو كبيرة ، مستمراً قائماً بعض الوقت .

ومن أبرز الذين كانوا يقومون بالجلب والنقل أخت بلدد القبطان ، سيّدة عجوز نحيلة ذات روح حازمة لا تعرف الكلل إلاّ أنها الى ذلك ذات قلب حنون ، آلت على نفسها ـ إن هي استطاعت ـ ألاّ تدع شيئاً ينقص الباقوطة بعد أن تنساب على الماء . وكانت حيناً تجيء وهي تحمل جرّة من المخلّل الى مخزن المؤن ، وحيناً آخر تحمل حزمة من أقلام الريش لتضعها في درج رئيس الضبّاط حيث يحفظ سجلّه ، وحيناً ثالثاً لفافة من الفلاند يحزم بها صلبه من يشكو الروماتزم في ظهره . ليس في الكون امرأة يليق بها اسمها كما كان اسم هذه المرأة لائقاً بها ـ اسمها «احسان» ـ العمّة احسان ـ وبذلك كان الجميع يدعونها . كانت العمّة المحسنة احسان كإحدى راهبات الاحسان والمحبّة تنهمك هنا وهناك موجّهة يدها وقلبها لكلّ شيء يبشّر بالسلامة والراحة والعزاء كلّ من على ظهر السفينة التي يرعاها أخوها المحبوب بلدد وتملك هي فيها عشرين أو أربعين دولاراً ادّخرتها .

ولكن كان من المفزع أن يرى المرء هذه المرأة الكويكرية الطيّبة المتفانية في الخير تجيء الى ظهر السفينة ـ مثلما فعلت في آخر يوم ـ وهي تحمل في إحدى يديها مغرفة زيت طويلة وفي اليد الأخرى رمحاً أطول للتحويت . كذلك لم يتخلّف كل من بلدد وفالج عن أداء واجباتهما ، فأمّا بلدد فإنه كان يتجول ومعه قائمة طويلة بالحاجات المطلوبة ، وعند وصول أيّ حاجة منها كان يضع علامة إزاءها على الورقة . وأمّا فالج فكان يأتي وهو يقزل من كهفه المصنوع من عظم الحوت ويزأر في الرجال الموجودين في الداخل أو يرفع زئيره نحو العاملين فوق الحبال عند رأس الصاري ، ويختم ذلك كلّه بالزئير وهو يأوي الى عرينه .

وكثيراً ما كنت أنا وكويكوج نزور السفينة أثناء تلك الإستعدادات ، وكثيراً ما سألت عن آخاب القبطان وكيف حاله ومتى يفد الى السفينة . وقد كانوا يجيبونني على هذه الأسئلة

بأنه آخذ في التحسّن المطرد ، وأنّ حضوره الى السفينة متوقّع في أيّ يوم ، وأنّ القبطانين فالج وبلدد يستطيعان في أثناء ذلك أن يرعيا كلّ ماهو ضروري كي يجعل السفينة متأهّبة للرحيل . ولو كنت صادقاً مخلصاً مع نفسي لرأيت بوضوح في قلبي أنني لم أكن أتصوّر تمام التصوّر معنى أن أسلم نفسي لمثل تلك الرحلة الطويلة دون أن تقع عيناي على الرجل الذي سيكون السيّد المطلق في الرحلة حالما تأخذ السفينة مجراها في عرض البحر . ولكن حين يشتبه المرء بوقوع ظلم أو خطأ فإنه أحياناً يسعى دون أن يشعر ليخفي شكوكه وشبهه حتّى عن نفسه ، إن كان الأمر يعنيه ويملك عليه فكره . تلك هي حالي ولذا لم أقل شيئاً وحاولت أن أبتعد بنفسي عن التفكير .

وأخيراً أعلنوا لنا أنّ السفينة ، في وقت ما من اليوم التالي ، ستبحر يقيناً ، ولذلك نهضت أنا وكويكوج مبكّرين في صباح اليوم الموعود .

٢١

ركوب البحر

كانت السّاعة تقترب من السادسة والفجر أطلس موشّح بالضباب حين اقتربنا من الرصيف .

قلت لكويكوج « إن كان بصري لم يخدعني فهناك بعض البحارة يجرون أمامنا . لا يمكن أن تكون هذه ظلالاً . ستقلع عند طلوع الشمس ـ فيما أخمّن ـ هيّا بنا » .

« قف مكانك » : صاح صوت يقترب صاحبه على أعقابنا ، ثمّ وضع يديه على كتفينا ، ثمّ زجّ نفسه بيننا ، ووقف منحنياً بعض انحناء ، في ذلك الشفق المنبهم ، وهو يحدّق ناقلاً بصره بيني وبين كويكوج على نحوٍ غريب .

كان هو ايليا .

ـ « أتركبان البحر ؟ » .

قلت : « انزع عنّا يديك ، أتسمح ؟ » .

وقال كويكوج وهو يفلت من يده : « اسمع أنت . رح » .

ـ « اذن فلستما مبحرين ؟ » .

قلت : « بل سنبحر فما شأنك أنت ؟ هل تعلم ياسيّد ايليا أنني أعتبرك وقحاً متطفّلاً ؟ » .

فقال وهو ينقل بصره بيني وبين كويكوج في بطء ودهشة وبنظرات يعجز المرء عن تفسيرها : « لا . لا . لا . لم أكن أدرك ذلك » .

قلت : « هل تتفضّل عليّ وعلى صديقي ، ياايليا ، بالإنسحاب . إننا ذاهبان الى المحيط الهندي والهادي ونؤثر ألا تستوقفنا وتعطّلنا » .

ـ « تذهبان ؟ تذهبان ؟ وترجعان قبل الفطور ؟ » .

فقلت : « كويكوج ، إنه « مْشعور » . امضِ بنا » .
فهتف ايليا المسمَر في مكانه يودّعنا وقد ابتعدنا خطوات : « هالو! »
قلت : « لا تأبه به ياكويكوج ، وامضِ بنا » .
ولكنه لحق بنا ثانية ، وفجأة ربت على كتفي وقال : « هل رأيت أشياء تشبه الأشخاص ذاهبة نحو السفينة قبل قليل ؟ » .
وهزّني السؤال الذي أصاب حقيقة واقعة فأجبت : « نعم ، أظنني رأيت أربعة رجال أو خمسة إلاّ أنّ الجو كان معتماً فلست واثقاً من ذلك تماماً » .
فقال ايليا : « معتّماً جداً ، معتّماً جداً . سعدتما صباحاً! » وخلفناه مرّة أخرى إلا أنه سرق الخطى خلفنا مرّة أخرى ومسّ كتفي وهو يقول : « جرّب إن كنت تستطيع أن تعثر عليهم . أتفعل ؟ » .
ـ « أعثر على من ؟ » .
فردّد : ـ « سعدتم صباحاً! سعدتم صباحاً » ثمّ مضى وهو يقول : « آه! كنت على وشك أن أحذّركما ـ لكن لا . لابأس . لابأس . ـ لافرق . . . كلّ في العائلة أيضاً . صقيع قارس هذا الصباح ، أليس كذلك ؟ وداعاً لكما . لن أراكما عن قريب ، فيما أخمّن ، إلا أن يكون ذلك أمام هيئة المحلّفين العظمى » . وانصرف أخيراً بعد أن فاه بهذه الكلمات الملتاثة وتركني لحظة وأنا مندهش أشدّ الدهشة من وقاحته الممرورة .
وأخيراً اعتلينا ظهر الباقوطة فوجدنا كلّ شيء في سكون عميق وليس فيها نفس يتردّد . كان باب القمرة مغلقاً من داخل ، ومنافذ ظهر السفينة كلّها مثبّتة في أماكنها ، وقد كدّست فوقها لفائف الحبال . وحين تقدّمنا من منارة السفينة وجدنا باب المنارة مفتوحاً . ورأينا ضوءاً فهبطنا ولم نجد هنالك إلاّ رجلاً عجوزاً من الحبّالين وقد تلفّع بصدرة بحّار مهلهلة ، وتمدّد على صندوقين ووجهه الى أسفل وقد طوّقه بذراعيه ، وجثا عليه النوم الثقيل العميق .
ـ « أولئك البحارة الذين رأيناهم يا كويكوج تراهم أين ذهبوا ؟ » ـ قلت ذلك ونظرت في ريبة الى النائم . ولكن يبدو أننا حين كنّا على الرصيف لم يلحظ كويكوج أبداً ماكنت ألمّح اليه . ولقد كنت أظنّ نفسي واهماً مخدوعاً من الناحية البصريّة لولا أنّ ايليا سألني عنهم سؤالاً لا أعرف له تفسيراً . إلاّ أنّي أخمدت هذه الخواطر وأخذت أرقب الرجل النائم ، وألمحت هازلاً الى كويكوج أنّ من الخير لنا أن نجلس مع هذا الجسد الممدّد ، وقلت لكويكوج أن يتّخذ لنفسه جلسة تتّفق ووضع ذلك النائم . فوضع يده على قفا الرجل كأنه يتحسّس إن كان ناعماً وثيراً ثمّ جلس هنالك مطمئناً لا يبالي .

فقلت : « يا لطف الله! يا كويكوج لا تجلس هنالك» .

فقال كويكوج! «آه : جيّد مقعدة جلوس . هكذا في بلدنا . لا أوذيه وجهه» .

قلت : «وجه! أتسمّي هذا وجهه ؟ هذا إذن وجه لطيف . لكن ثقيل النفس كأنما يلهث ، قم ياكويكوج! أنت ثقيل الوطأة فوقه ، وذلك يحطّم وجه المسكين . انهض ياكويكوج! أراه سينفضك حالاً . إنّي لأعجب كيف لا يستيقظ» .

زحزح كويكوج نفسه وجلس غير بعيد عن رأس النائم وأشعل كدوسه . وجلست أنا عند قدميه . وظللنا نتبادل الكدوس من فوق جسم النائم . وعندما سألت كويكوج ما الذي يعنيه بقوله : «جيّد مقعدة جلوس . هكذا في بلدنا» ، أفهمني بلهجته المكسّرة أنّهم في بلدهم ، لإنعدام جميع أنواع الطنافس والكنبات ، يعمد الملك والرؤساء والأعيان الى أن يسمّنوا بعض أبناء الطبقات الدنيا ليتّخذوهم مقاعد لهم . وإذا شاء أحدهم أن يزوّد بيته بمثل هذا الأثاث المريح فعليه أن يشتري ثمانية أو عشرة من «التنابل» ثمّ يطرحهم في الدواوين والأواوين . ومثل هذا الأثاث الوثير مفيد في الرحلات فهو خير من كراسي الحديقة التي تتحوّل الى عصيّ . وأحياناً يستدعى السيّد تابعه فيرغب اليه أن يجعل من نفسه مقعداً تحت شجرة ظليلة أو في مكان رطب تنبسط فوقه المستنقعات .

وبينما كان كويكوج يحدّثني بهذه الأمور كان كلّما تسلّم الشبك منّي جعل فوهته فوق رأس النائم .

ـ لِمَ تفعل ذلك ياكويكوج ؟

ـ سهل كثير ، يقتل ـ هُ ـ سهل كثير .

ومضى يستعيد ذكريات غريبة عن كدوسه ، وهو ـ فيما يبدو ـ ذو فائدتين : ينثر أدمغة الأعداء ، ويسكن روح صاحبه ، وفي تلك اللحظة التفتنا الى الحبّال النائم . فقد ملأ الدخّان القوي ذلك الوكر الضيّق وبدأ أثر ذلك يظهر عليه ، فأخذ يتنفّس تنفّس المخنوق ثمّ بدا أنّ أنفه يضطرب ثمّ تقلّب مرّة أو مرّتين ، ثمّ جلس يفرك عينيه .

وأخيراً تنفّس وقال : «هالو . من أنتما أيها المدخّنان ؟» .

فأجبت : «من المبحرين . متى تقلع ؟» .

ـ «أجل . أجل . أنتما ذاهبان فيها . أليس كذلك ؟ تقلع اليوم . جاء القبطان الليلة الماضية» .

ـ «أيّ قبطان ؟ ـ آخاب ؟» .

ـ «ومن سواه ؟» .

هممت أن أسأله بضعة أسئلة أخرى عن آخاب ، حين سمعنا جلبة فوق ظهر السفينة .

فقال الحبّال : «هلا! استاربك بدأ نشاطه . إنه رأس الضبّاط ، حيويّ طيّب تقي . ومادمت قد استيقظت فلا بدّ من أن أتوجّه اليه» . وما أن قال ذلك حتّى اتّجه نحو ظهر السفينة وتبعناه .

كانت الشمس قد بزغت ساطعة . وسرعان ما أخذ البحّارة يفدون مثنى مثنى وثلاث ثلاث ، ونهض الحبّالون وانهمك الضبّاط المساعدون في العمل ، وانشغل كثير من رجال البر بجلب آخر الحاجات اللازمة . وفي أثناء ذلك كلّه ظلّ القبطان آخاب مختفياً متوارياً في جوف قمرته .

٢٢

عيد ميلاد سعيد

ومن بعد ، وكان وقت الظهيرة وشيكاً ، صرف الحبّالون بعد أن جرّت الباقوطة من مرساها ، وبعد أن جاءت « إحسان » التي تَذكر ولايغلبها النسيان ، في قارب تحويت ، ومعها آخر هديّة ـ قبّعة مسائيةلصهرها اسطب الضابط الثاني ، ونسخة من التوراة لخازن المؤن ، بعد ذلك كلّه خرج القبطانان فالج وبلدد من القمرة ، واستدار فالج نحو رئيس الضبّاط وقال :

ـ « أأنت واثق يا سيّد استاربك أنّ كلّ شيء على مايرام ؟ القبطان آخاب حاضر ـ كلّمته قبل لحظات ـ لم نعد نحتاج شيئاً من البر ؟ طيّب ، ادع الملاحين جميعاً . احشدهم هنا في الكوثلة ـ قبّحهم الله! » .

فقال بلدد : « لا حاجة بنا الى السبّ والشتم ، يا فالج ، مهما نكن بحاجة الى العجلة . لكن هيّا يا صديقي استاربك . نفّذ الأوامر » .

كيف يكون ذلك! هاهي السفينة على وشك أن تبدأ رحلتها ، وصاحب الكلمة العليا على ظهرها القبطان فالج وزميله بلدد كأنّما سيكونان الآمرين معاً فيها في عرض البحر مثلما كانا في الميناء . وأمّا آخاب فلا دلالة على وجوده سوى قول القائلين إنه في القمرة . ولكنْ كلّ ماقاله فالج وزميله من قبل : إنّ حضور آخاب غير ضروري بأيّ حال لرفع المرساة وتوجيه الدفّة في عباب البحر ، وذلك قول حق لأنّ ذلك ليس من مهمّة آخاب وإنّما هو من عمل الربّان ، ثمّ أنّ آخاب لم يكن قد استكمل العافية ـ كذلك قالوا ـ وإذن فلا غرابة أن يغيب عن السفينة وهي راسية . كلّ هذا يبدو أمراً طبيعيّاً معقولاً وممّا يؤكّده ماأعرفه عن السفن التجارية فهنالك أيضاً يمضى وقت غير قصير على رفع المرساة قبل أن يظهر القباطنة على ظهور السفن ، وإنّما يبقون عند مائدة القمرة ، يحتفون بتوديع

أصدقائهم أبناء البر قبل أن يغادروا السفينة نهائياً مع الربّان .

ولكن لم يكن لديّ فرصة للتفكير في الأمر ، ذلك أنّ القبطان فالج كان بالغ الحيويّة والحركة ، وكأنّما هو المسؤول عن الحديث والأوامر ، دون بلدد .

فصاح وقد تلكأ البحّارة عند الصاري الكبير : «الى الكوثلة ، هيّا ياأولاد الأرامل . سقهم الى المؤخّرة ياسيّد استاربك» .

وكان الأمر التالي : «انصبوا العرّيش هناك!» وكنت ألمحت من قبل الى أنّ هذا العريش المصنوع من عظام الحوت لايُنصب أبداً إلاّ في الميناء، ولكن على مدى ثلاثين سنة كان الأمر بنصب تلك الخيمة على الباقوطة هو الأمر الذي يتلو رفع المرساة تواً .

وتلا ذلك أمر آخر : «جهّزوا المسحاب . صاعقة تبتلعكم! اقفزوا» ووثب البحّارة الى العتلات .

وأقول : عند رفع المرساة يكون الموقف الذي يحتلّه الربّان في الجزء الأمامي من السفينة ، ولذلك كنت ترى بلدد منهمكاً في الإشراف على مقدم السفينة ليرى المرساة الصاعدة ، وهو بين الحين والحين يغنّي مقطوعة كنيبة من بعض الأناشيد الدينيّة لينعش أيدي العاملين عند الدولاب الرافع ويبعث فيهم إرادة وعزماً ، أمّا أولئك العاملون فكانوا يجأرون كأنهم جوقة يتغنّون بجمال الفتيات في زقاق بوبل . ولاعجب في أن يؤدّي بلدد عمل الربّان ، فقد كان الى وظائفه الأخرى ربّاناً مجازاً بالعمل في الميناء ، وقد اتّهمه الناس بأنه ماأصبح ربّاناً إلا لكي يسلم من دفع أجرة لوظيفة الربّان في كلّ السفن التي كانت في ملكه . وأمّا عن تغنّي العمّال بالفتيات فإنّي أذكر أنّ بلدد قبل مايقلّ عن ثلاثة أيّام أخبرهم بأنه لايسمح بالأغاني الدنيوية على ظهر الباقوطة ، وأحضرت اخته «احسان» نسخاً صغيرة مختارة من أناشيد وطس الدينية[1] ، ووضعت في كلّ سرير بحّار نسخة منها .

وفي الوقت كان فالج ، وهو يشرف في الجزء الآخر من السفينة ، يتميّز غضباً ويسب ويفحش في السباب . وكاد الظنّ يساورني بأنه سيغرق السفينة قبل أن تسحب المرساة . واتّكأت لاإرادياً على العتلة التي معي وطلبت الى كويكوج أن يعمل كما عملت ، وأنا أتصوّر المخاطر التي نعرّض لها أنفسنا حين نأخذ في رحلة مع شيطان مثله يسمّي نفسه ربّاناً . وطيبت خواطري المستثارة حين تذكّرت أنّ طريق النجاة قد توجد لدى بلدد التقي رغم النصيب السابع والسبعين بعد السبعمائة ، وحينئذ أحسست بلكمة على أذني فاستدرت ،

---

(١) هو اسحاق وطس (١٦٧٤ـ١٧٤٨) نظم أناشيد دينية كثيرة ترتّل في الكنائس البروتستنتية .

وأصابني الرعب عندما رأيت شبح فالج وهو يسحب رجله من جواري المصاقب . تلك كانت أوّل ركلة أنالها .

وزأر فالج يقول : «أهذه هي الطريقة التي يرفعون بها المرساة في السفن التجارية! اقفز ياراس الكبش ، اقفز واكسر صلبك . لِمَ لاتقفز ؟ أقول : أنتم جميعاً لِمَ لاتقفزون ؟ أنت ياكوهوج اقفز . وأنت ياذا الشاربين الأحمرين! وأنت ياصاحب القبّعة الاسكتلندية! وأنت يالابس السروال الأخضر . اقفز . اقفزوا جميعاً ، ودعوا أعينكم تثب من محاجرها» . وماأن نثر هذه الكلملت حتى مضى على طول الدولاب الرافع يستعمل رجله في الركل هنا وهناك جزافاً دون وازع بينما ظلّ بلدد المحتشم الوقور ماضياً في ترتيلاته . فقلت لنفسي : لا بدّ من أن يكون القبطان فالج قد شرب شيئاً اليوم .

وأخيراً رفعت المرساة ، ووقف كلّ بحّار في مكانه ، وانسابت بنا السفينة . كان اليوم هو عيد الميلاد ، وكان يوماً قصيراً قارس البرد ، وحين ولج النهار الشمالي القصير في الليل وجدنا أنفسنا في عرض المحيط والفصل شتاء ، والرذاذ المتجمّد يطوّقنا بالجليد كأننا في درع صقيلة . وأخذت صفوف الأسنان على الجوانب تلتمع في ضوء القمر وتدلّت من مقدم السفينة ذلاذل ثلجية منحنية كأنها أنياب فيل عاجية بيضاء .

قام بلدد النحيف ـ وهو يؤدّي وظيفة الربّان ـ بأوّل نوبة في الرقابة وظلّت تتردّد نغماته دائماً وأبداً كلّما غاصت السفينة القديمة في أحضان البحر الخضر وأرسلت صقيعاً راعشاً فوق جسمها ، وجأرت الرياح وقعقعت الحبال ، وكنّا نسمعه يقول في تغنّيه[1] :

وراء الأمواج العالية حقول حبيبة
قد كستها الطبيعة ثوباً أخضر
كذلك تجلّت كنعان القديمة ليهود
بينا كان يتحدّر الأردنّ خلالها .

لم تقع هذه الكلمات العذبة اليّ مثلما وقعت عندئذ ، فقد كانت مفعَمة بالأمل والرجاء ، وعلى الرغم من هذا الليل الشتائي القارس في الأطلسي ، على رغم من الرطوبة التي تبلّل قدميّ وتضفي على صدرتي بللاً أغزر بدا لي أنّ الأقدار قد وفّرت لنا في جعبتها كثيراً من الموانئ والملاجئ ، وكثيراً من المروج والمسارب ذات الخضرة الأبدية ، التي

(١) من أناشيد وطس . انظر التعليق السابق .

يهيج فيها العشب في الربيع ويبقى حتّى منتصف الصيف دون أن يذوي أو تدوسه الأقدام .

ها قد أصبحنا في عرض من البحر بحيث لم يعد لوجود الربّانين معنا حاجة ، فبدأ البحّارة بإنزال القارب الشراعي القويّ الذي حُمل معنا .

كان التأثّر الذي ألمّ بكل من فالج وبلدد ـ والثاني منهما بخاصة ـ في موقف الفراق عجيباً غير خالٍ من الامتاع . كانا ينفران من الفراق ، كانا شديدي التكرّه ليغادرا سفينة مُقدمةً على سفرة طويلة مليئة بالمخاطر ـ تبلغ الى ماوراء الرؤوس العاصفة ، سفينة استثمر فيها بلدد بضعة آلف من دولاراته التي شقي في جمعها ، سفينة يسافر فيها أحد رفاقه القدامى قبطاناً ، رجل مثله في كبر السنّ يبدأ مرّة أخرى في مواجهة كلّ مرعبات الشدق القاسي الجبّار ، كان بلدد ينفر من أن يقول وداعاً لشيء امتلأت جوانحه بكلّ مايهمّه ـ فأطال المسكين اللبث ، ذرع ظهر السفينة بخطوات قلقة ، جرى الى القمرة ليقول وداعاً مرّة أخرى ، عاد مرّة أخرى الى ظهر السفينة ونظر صوب الريح ، نظر نحو الأمواه المترامية التي لا حدّ لها ، إلا حدّ من القارات الشرقية النائية التي لا يبلغها البصر ، نظر الى البر ، نظر الى أعلى ، نظر يميناً وشمالاً ، نظر الى كلّ وجهة والى لاوجهة ، وأخيراً لف حبلاً حول وتد بحركة آلية ، وأمسك وهو يرتعش بيد فالج القوية ، ورفع القنديل ، ووقف لحظة يحدّق بشجاعة في وجهه كأنه يقول له : « مع كلّ ذلك ، يا صديقي فالج ، أستطيع أن أتحمّل ، نعم أستطيع » .

أمّا فالج فقد نظر الى الأمر نظرة فيلسوف ، ولكن رغم فلسفته كلّها كانت العبرة تترقرق في عينه حتّى اقترب القنديل منه . وهو نفسه لم يتوقّف عن الجري من القمرة الى ظهر السفينة ـ ملقياً كلمة في الأسفل ، وأخرى الى استاربك ، رئيس الضبّاط .

ثمّ تحوّل الى رفيقه في نظرة كأنها الأخيرة وقال : « قبطان بلدد ـ هيّا يا رفيقي القديم علينا أن نذهب ـ اسندوا دعامة الشراع الرئيسي هنالك! هاهو القارب! قفوا جانباً حتّى يقترب! باعتناء! باعتناء! ـ هيّا يا بلدد ، أيّا الرجل ، قل كلمتك الأخيرة : حظ سعيد لك يا استاربك ـ حظ سعيد لك يا سيّد اسطب ـ حظ سعيد لك ياسيّد فلاسك ، وداعاً ، وحظّ سعيد لكم جميعاً . بعد ثلاث سنوات من هذا اليوم سأحضّر لكم عشاءً ساخناً يتصاعد فوقه البخار في نانتوكت القديمة . مرحى ومع السلامة! » .

فهمهم بلدد الشيخ يقول وكأنه يهذي : « حاطتكم بركة الله ، وجعلكم في حفظه ورعايته المقدّسة . أرجو أن تحلّوا في جوّ جميل كي يتمكّن القبطان آخاب من الظهور بينكم

ـ كل مايريده هو الشمس الممتعة وستجدون وفرة من أشعة الشمس في الرحلة الإستوائية التي تزمعونها . كونوا حذرين في الصيد يا رفاق! لاتكسروا القوارب دون حاجة تستدعي ذلك أيها الحواتون ، إنّ اللوح من خشب السربين الأبيض الجيّد قد ارتفع سعره ثلاثة في المائة . كذلك لاتغفلوا عن الصلوات . وأنت ياسيّد استاربك أحرص على أن لايبدّد صانع البراميل ذاك تلك الأطواق الفائضة . آه! وإبر الأشرعة مودعة في الدرج الأخضر . لاتحوتوا كثيراً في أيام الآحاد يارجال ، ولكن لاتدعوا فرصة تفلت من أيديكم أيضاً فذلك بطرٌ وتعجرف على هبات السماء . وأنت ياسيّد اسطب خلّ بالك من مكيال الدبس فقد كان يرشح بعض الشيء فيما أظن . وإذا نزلتم الى الجزر ياسيّد فلاسك فحذارِ من الزنا . مع السلامة! مع السلامة! لاتبقوا تلك الجبنة طويلاً في العنبر ياسيّد استاربك لئلاً تتلف . دققوا في توزيع الزبدة فقد اشترينا كلّ رطل بعشرين سنتاً ، واذكروا أنه إذا... » .

ـ « يللا ، يلّلا يا قبطان بلدد . كفاك هذراً ـ لنمضِ! » وجرّه فالج مسرعاً عند جانب السفينة ، وهبطا كلاهما في القارب .

وافترقت السبيل بالسفينة والقارب ، وهبّ النسيم الليلي البارد الرطب يفصل بينهما ، وطارت فوق رؤوسنا نورسة تصيح ، وتدحرج الهيكلان تدحرجاً غريباً . صحنا في قلوبنا الحزينة مرحى ثلاثاً وغصنا على غير هدى ، كأننا القدر ، في الأطلسي الموحش .

٢٣

الشاطئ الآمن من الريح

قبل فصول[١] ذكرت شخصاً اسمه بلكنجتون وهو بحّار طويل القامة كان قد نزل على البرّ حديثاً ورأيته في الحان في نيوبدفورد .

في تلك الليلة الشتائية المرتعشة عندما طعنت الباقوطة بمقدّمتها الموتورة صدر الأمواج الحاقدة المقرورة : من تراه مَثُل أمامي عند دفّتها سوى بلكنجتون ؟

تطلّعت في رهبة مشفقة وخشية الى ذلك الرجل الذي لم تكن قدماه تطآن الأرض ، في منتصف الشتاء بعد رحلة خطرة استغرقت سنوات أربعاً ، حتّى أثاره القلق فاندفع في فصل آخر عاصف مرّة أخرى . لذعت حرارة اليابسة قدميه فيما يبدو . أعجب الأشياء هي التي لا يستطاع ذكرها ، وأعمق الذكريات لا يخلّد في شواهد ، وهذا الفصل القصير هو القبر غير الحجري الذي أعددته لبنجكتون . حسبي أن أقول إنّ حاله كانت كحال سفينة تلعَبت بها العاصفة فهي تتوجه نحو الحمى ، نحو المرفأ الآمن من الريح في ذلة وتعاسة ، ويرحّب بها الميناء ويفتح صدره لها ملاذاً فهو عطوف ، آمن ، مريح ، عنده النار والعشاء ، والأغطية الدفيئة والأصدقاء ، وكل ما يولينا عطفاً ولطفاً . ولكنّ اللجوء الى البر أو الميناء في تلك العاصفة هو أسوأ مخاطرة تتعرّض لها السفينة ، فهي تريد أن تفرّ من وجه اللطف والبشاشة والكرم ، ولو لمست اليابسة طرف قاعدتها لمساً لتخلّل الإرتعاش جسمها كلّه ، ولذلك تستجمع أشرعتها بكل ما أوتيته من قوّة لتبارح الشاطئ ، وفي هذا تقاوم الرياح التي تحاول أن تردّها الى الميناء ، وتندفع الى الرحب اللابريّ بين ذراعي البحر المتضرّب المهتاج . من أجل المأوى تندفع وحيدة في قلب الأخطاروصديقها هو ألدّ أعدائها .

---

(١) انظر الفصل الثالث .

أتعلم يابلكنجتون ؟ إنّي لأحسَ أنّك ترى التماعات من تلك الحقيقة المروّعة التي لاتحتمل ، إنّك لترى أنّ كلّ تفكير عميق مخلص فإنّما هو جهد جريء تبذله الروح كي تبقي لبحرها انفتاحَ جوانبه وحرّيته الطليقة ، حين تتآمر أعتى رياح السماء والأرض لتلجئها الى الشاطىء الخائن المستعبد المغلول .

في حالة اللابرّية وحدها تكمن أعلى الحقائق ، لا برّ لها ، مطلقةً كالإله ـ ولذا فخير للمرء أن يهلك في ذلك المطلق الصخّاب من أن تقذف به الأمواج على البرّ ، ولو كان هو برّ السلامة . إذ من ذا الذي ـ واأسفاه! ـ يؤثر لنفسه حينئذ أن يزحف كالدودة زحف المهين الهدان الى البرّ . ياويلات المفزع المرعب! أكلّ هذا العذاب يضيع سدى ؟ كن رابط الجأش ، شدّ حيلك يا بلكنجتون! تحمّل وصابر عابساً جاهماً ياصنو الجبّارين! من رذاذ بحرك الذي ينضمّ فوق جسدك الهالك ، يثبُ عالياً مجدك وجبروتك!

٢٤

دفاع عن التحويت[١]

بما أنّي أنا وكويكوج قد أقلعنا شوطاً في سفرة التحويت ، وبما أنّ التحويت نفسه مشنوع السمعة منزور الألق والرواء في نظر أبناء البر لذلك فإنّي جدّ حريص على أن أقنعكم ياأبناء البر بالظلم الذي ينال صيّادي الحيتان في نظرتكم هذه .

أمّا في المقام الأوّل فلعلّه من تحصيل الحاصل أن أقرّر بأنّ مهنة التحويت لاتعدّ بين معظم الناس على مستوى مايسمّونه المهن الحرّة . فلو أنّ غريباً دخل في مجتمع مديني متنوّع الأجناس وقيل للناس هذا حوّات لما زاد هذا الوصف في كفاياته عندهم إلاّ قليلاً ،ولو أنه منافسةً لضبّاط البحرية أضاف الى اسمه على بطاقته هذه الرموز (ص .ح .ع .) أي صيّاد حوت العنبر لرأى الناس في عمله هذا شيئاً عجرفياً مضحكاً .

ولا ريب في أنّ من أكبر الأسباب التي تجعل العالم يحرمنا التمجيد ، نحن الحوّاتين ، هو أنّ الناس يظنّون بأنّ مهمّتنا في خير أحوالها لاترقى إلاّ الى نوع من الجزارة ، وأننا حين ننهمك فيها فإنّما يحيط بنا كلّ نوع من الدم والدنس . جزّارون نحن ، ذلك صحيح ، ولكنْ ماذا عن القادة العسكريين الذين يغتبط العالم على اختلاف نواحيه في تمجيدهم وتكليل رؤوسهم بالغار! أليسوا جزّارين ، وجزّارين يحملون أقنى شارة دموية ؟ أمّا عن الدنس المزعوم في مهنتنا فإنّي سألقي اليكم بعض الحقائق التي ماتزال مجهولة بوجه عام ، وهي على الجملة ستضع حرفة صيد حوت العنبر بين أنظف الأشياء على هذه الأرض النظيفة . ولكن لو سلّمنا بأنّ هذه التهمة صحيحة فإيّ ظهر سفينة فوضوي زلق بما ساح فوقه من دماء يمكن أن يقارن بمجزرة في ميدان القتال لايحقّها وصف ، ويرجع منها كثير من الجنود

---

(١) معظم هذا الفصل استمدّه ملفل ـ روحاً وأفكاراً ـ من الفصل الحادي عشر من كتاب بيل «نشوء حرفة صيد حوت العنبر وتطوّرها» وكذلك أوحى إليه مكورسبي ببعض الأفكار .

ليشربوا نخب وداد جميع السيّدات ؟ وإذا كانت فكرة الخطر تزيد في تصوّرات الناس عن حرفة الجندي فلأؤكّد لكم أنّ كثيراً من المجنّدين الذين يمشون الى المدفعيّة طوعَ خواطرهم يخيّمون ناكصين إذا لاح لهم شبح ذنب حوت العنبر وهو يحرّك الهواء دوّامات فوق رأسه . أيّ شأنٍ لأهوال الإنسان التي لاتفوت حدّ التصوّر إذا أنت قارنتها بأهوال الله وعجائبه المتواشجة ؟

ولكن مع أنّ العالم يزدرينا نحن الحوّاتين إلاّ أنه يولينا ـ غافلاًـ أعمق آيات الولاء والخشوع . أجل ، يقدّم لنا إجلالاً وفيراً غزيراً ، ذلك أنّ جميع القناديل والمصابيح والشموع التي تشتعل في جميع أرجاء الكرة الأرضية فإنّما تضاء في مجدنا كما تضاء أمام قبور القدّيسين والأولياء .

بل انظر الى هذه المسألة تحت أضواء أخرى ، زنها بكلّ ضروب الموازين وانظر ما نحن الحوّاتين وماذا كنّا :

لِمَ كان لدى الهولنديين في أيّام دي ويت أمراء بحر (أميرالات) لأساطيل التحويت ؟ لِمَ جهّز لويس السادس عشر ملك فرنسا على حسابه سفناً لصيد الحيتان أرسلها من دنكرك ، وتلطّف فدعا الى تلك المدينة عشرين أو أربعين عائلة من جزيرتنا نانتوكت ؟ لِمَ دفعت بريطانيا بين عامي ١٧٥٠ و١٧٨٨ الى حوّاتيها هبات تربو على مليون جنيه ؟ وأخيراً كيف تأتّى أن أصبحَ حوّاتو أمريكا يربون على حوّاتي العالم مجتمعين في العدد ، وأنّ لديهم اسطولاً من سبعمائة سفينة يعمل فيه ١٨ ألف رجل ويكلّف في العام أربعة ملايين من الدولارات ، وتسوّى السفن فيه أيّام الإقلاع ٢٠ مليوناً من الدولارات ، وتحضر كلّ عام الى موانئنا غلّة تقدّر بسبعة ملايين . كيف كان كلّ ذلك إذا لم يكن في حرفة التحويت شيء ذو حول وطول ؟

وهذا لايبلغ نصف الحقيقة بعد ، فاسمعوا أيضاً :

أؤكّد لكم دون جَمجمة أنّ الفيلسوف العالمي لايستطيع ـ حَياته ـ أن يدلّنا على أيّ عمل سلمي أثّر خلال الأعوام الستّين الماضية بقوّة وكفاية في العالم الواسع كلّه ـ مجتمعاً ـ بأكثر من تأثير مهنة التحويت ، تلك المهنة السامية الجبّارة . فقد ولدت على نحو أو آخر أحداثاً هامة في ذاتها ، هامّة خالدة فيما نجم عنها من أحداث مسترسلة حتّى لتعدّ حرفة التحويت كتلك الأم المصريّة التي كانت تحمل في بطنها بنات يولدن حاملات أيضاً . وربّما كان عدّ هذه الأحداث مهمّة لا تطاق ولا تقف عند غاية فلنكتفِ بحفنة منها : منذ سنوات عديدة مضت كانت حرفة التحويت رائداً في الكشف عن أقصى أرجاء الأرض المجهولة ،

فقد استكشفت بحاراً وأرخبيلات لا خرائط لها ، حيث لم يبلغ مستكشف مثل كوك وفانكوفر ، وإذا كان المحاربون الأمريكيّون والأوروبيّون يركبون بأمان فيما كان من قبل موانئ للمتوحّشين ، فعليهم أن يطلقوا نيراهم تحيّة لشرف سفينة التحويت ومجدها ، فهي التي مهّدت لهم الطريق في البداية ، وكانت الترجمان بينهم وبين المتوحّشين . إنهم قد يمجّدون ذكرى أبطال الرحلات الاستكشافيّة مثل كوك وكروزنشترن(١) ومن لفّ لفهما ، ولكنّي أقول إنّ عشرات من القباطنة المجهولين الذين أبحروا من نانتوكت كانوا كهؤلاء المكتشفين عظمة بل أعظم من كوك وكروزنشتون لأنهم وهم العزّل الذين لايجدون نصيراً تمرّسوا في البحار الوثنيّة المليئة بالقرش وعند شواطىء جزر لم تقيّد لها في المصوّرات الجغرافية أسماء وأهلها من رماة الحدق ، تمرّسوا بالحرب ضدّ عجائب وأهوال بكر لايجرؤ أن يتمرّس بها كوك عن طيب خاطر بكلّ ما معه من قوى بحرية وبنادق ، وقد ألفَ الأبطال أهالي نانتوكت مايزهو بعمله سواهم من الناس في الرحلات الى البحار الجنوبيّة حتّى أصبحوا لا يعدّونه إلاّ مبتذلاً هيّناً من الأعمال . فالمغامرة التي يخصّص فانكوفر لسردها ثلاثة فصول لايعدّها أولئك الأبطال جديرة بالتسجيل في سجل السفينة العمومي ، ولكنّ آه من العالم وواهاً له!

لم يكن من تجـارة بل من صلة أيّة صلة بين أوربا وذلك الخطّ الغنيّ من الولايات الاسبانيّة على ساحل المحيط الهادي حتّى استدار التحويت حول رأس هورن ، اللهم إلا أن تكون صلة بين البلد الأم ومستعمراتها أو تجارة قائمة بينهما . وكان الحوّات أوّل من ثلم حدّ السياسة الغيرى التي يتبعها التاج الأسباني حين تعرف الى تلك المستعمات . وقد أبينَ بوضوح ـ إن سمح لي حجم الكتاب ـ كيف أنّ تحرير بيرو وشيلي وبوليفيا من نير اسبانيا وإنشاء ديموقراطية خالدة في تلك المناطق إنّما يُعزى الى أولئك الحوّاتين .

أمّا أمريكا العظمى في الجانب الآخر من الكرة ، تلك التي نسمّيها استراليا ، فإنّ الذي كشف عنها الغطاء وقدّمها للعالم المستنير هو رجل حوّات ، إذ بعد أن استكشفها أحد الهولنديين خطأ ظلّت السفن تتجنّب الدنو من شواطئها زمناً طويلاً لأنّ همجيتها تشبه الداء الوبيل ، إلاّ سفن التحويت فقد كانت تحاذي شواطئها وتدنو منها . إذن فإنّ سفينة التحويت هي البلد الأم الذي تنتمي اليه تلك المستعمرة القويّة اليوم . زد الى ذلك أنّ المهاجرين الأول في العهود الأولى من الإستيطان باستراليا كانوا يواجهون المجاعات

(١) آدم ايفان كروزنشترن (١٧٧٠ـ١٨٤٦) أوّل روسي طاف حول الكرة الأرضية وكان ملفل يعرف حقّ المعرفة «رحلته حول العالم ١٨٠٢ـ١٨٠٦» .

ولم ينقذهم مراراً من الموت جوعاً إلا البسكويت السخيّ الذي كانت توزّعه سفن التحويت حين ترسو لحسن حظّهم في مياههم . وتشهد جزر بولينيزيا التي لا تحصى عدداً بهذه الحقيقة نفسها وتؤدّي فروض الولاء التجاري لسفينة التحويت التي مهّدت الطريق أمام المبشّر والتاجر ، وحملت المبشّرين الأوّلين في كثير من الأحوال الى حيث ينشرون تعاليمهم . وإذا كان لليابان ، تلك البلاد المسوّرة المغلقة ، أن تصبح بشوشاً مضيافة فلن يرجع الفضل في ذلك إلا لسفن التحويت ، لأنّ هذه السفن تقف على عتبة تلك البلاد .

فإن لم يقنعك كلّ هذا وذهبت تقول أنّ حرفة التحويت لاتشتمل على ماهو شريف رفيع من الناحية الجماليّة ، فإنني على استعداد لأحطّم في مبارزتك خمسين رمحاً حول هذه النقطة ، وأنزلك عن جوادك كلّ مرّة وخوذتك قد شقّت نصفين .

تقول بزعمك : لم يكتب عن الحوت مؤلّف مشهور ولا أرّخ مهنة التحويت مؤرخ ذائع الصيت .

أتقول ذلك ، وتفتح به فمك على مصراعيه ، قلْ لي إذن من كتب أوّل خبر عن الحوت العظيم (اللوياثان) ؟ أليس هو أيوب مضرب المثل في الصبر ؟ ومَنْ كتب أوّل حكاية عن رحلة لصيد الحوت ؟ ألم يكن أميراً ؟ أليس هو ألفرد العظيم الذي أمسك بقلمه الملكي ودوّن كلمات أوثر الحوّات النرويجي في تلك العصور ؟ ومن هو الذي ألقى عنّا مديحاً رنّاناً في قاعة البرلمان ؟ من سوى أدمند بيرك ؟ وتقول زاعماً : كلّ هذا صحيح ولكنّ الحوّاتين أنفسهم شياطين بؤساء ليس في عروقهم دماء نبيلة .

ليس في عروقهم دماء نبيلة ؟ بل دماؤهم خير من الدمّ الملكي . ذلك أنّ جدّة بنيامين فرانكلين هي ماري موريل ، ثمّ أصبح اسمها بعد الزواج ماري فولجر وهي من أوائل المستوطنين القدامى في نانتوكت ومن أبنائها وحفدتها عدد كبير من عائلة فولجر ومن الحوّاتين وكلّهم من أقرباء بنيامين العظيم ، يقذفون بالحديدة المزججة من طرف في العالم الى طرف .

وتقول : هذا حسن . إلاّ أن الجميع يقرّون أنّ التحويت مهنة غير محترمة .

ومن أنبأك هذا ؟ والتحويت ملكي المنزع ، فقد أقرّ القانون الدستوري الإنجليزي القديم أن الحوت « سمكة ملكية »* .

---

* انظر مزيداً عن هذا الموضوع في فصول تالية .

فتردّ قائلاً : آه إنّما هذا شيء اسمي ، فإنّ الحوت لم يدخل مرّة واحدة في مناسبة فخمة جليلة .

أنّى لك هذا ؟ ألا تعلم أنه في حفلات النصر التي أقيمت لقائد روماني وهو يدخل عاصمة العالم ، جلبت عظام الحوت من الساحل الشامي ، وكانت أبرز شيء في ذلك الموكب الصاخب(١) ؟

فتجيب : صدّقتُ ما تقول مادمت أنت ترويه ولكن قلْ ما تريد فليس في التحويت عزّة أصيلة .

ليس في التحويت عزّة ؟ عزّة حرفتنا تشهد بها السّماء . في سماء الجنوب كوكب اسمه «القاطوس» أي الحوت ، ولا أزيد . شدّ قبّعتك أمام القيصر واخلعها احتراماً لكويكوج ، ولاأزيد . عرفت رجلاً صاد في حياته ثلاثمائة وخمسين حوتاً ، وأنا أعدّ ذلك الشخص أبلغ شرفاً من ذلك القائد القديم الذي كان يتمدّح بأنه فتح هذا العدد من المدن المحصّنة .

وأمّا أنا ، فإن قدّر لي أن يكتشف الناس فيّ مجداً لم يستبن من قبل ، وإذا أصبحت جديراً بأيّ صيت حق في ذلك العالم الصغير ـ العالم ذي الصيت البليغ الذي أطمح اليه طموحاً له ما يسوّغه ، وإذا أدّيت بعد اليوم شيئاً خليقاً بالإنسان أن يؤدّيه على أن يتركه دون أداء ، وإذا وجد من يصفّون تركتي ـ بل دانتيّ على وجهٍ أدقّ ـ مخطوطة نفيسة في درج مكتبي فأنا هنا أعزو ، وأنا استشرف المستقبل ، كلّ شرف ومجد الى حرفة التحويت ، إذ أنّ الجامعة التي تخرّجت فيها هي سفينة صيد الحيتان ، فقد قامت في حياتي الثقافية مقام هارفارد وبيل .

(١) قيل إنّ مارقس اميليوس سكارس أخذ الى روما هيكل حوت كان قد قذفه البحر عند ميناء يافا .

٢٥

تذييل

في الدفاع عن معنى العزّة في التحويت يسرّني أن لا أقدّم شيئاً سوى حقائق جوهريّة . ولكن بعد أن يعدّ المحامي شواهده ، أتراه يعطّل مايعرض له من حدس معقول ينبىء عن القضيّة بحجة ناصعة وبيان ذليق ؟ أليس مثل هذا المحامي - إن فعل ذلك - مظنة لوم ؟

من المتعارف المشهور في تتويج الملوك والملكات حتّى المحدثين منهم أن يتدرّجوا خلال خطوات غريبة من «التدشين» تجعلهم صالحين لما يناط بهم . فهنالك مايسمّونه «مملحة الدولة» . كيف يستعملون الملح على وجه الدقّة ؟ - من يدري ؟ أنا واثق على أيّ حال أنّ رأس الملك «يزيّت» يوم التتويج ، كأنه صحن سلطة . أتراهم يمسحونه بالزيت رجاء أن يجعلوا ما في داخل رأسه يتحرّك ويعمل في يسر مثلما يزيّتون الآلات ؟ ها هنا شيء كثير يصلح للنظر والتأمّل حول هذه العزّة الأصيلة لهذا الصنيع الملكي ، لأننا في شؤون الحياة العامّية ننظر باحتقار وازدراء الى المرء الذي يدهن شعره ، وتذيع منه رائحة الزيت . والواقع أنّ الرجل الناضج الذي يستعمل زيتاً لشعره يعدّ مهزوزاً في جانب من جوانب نفسه ، إلاّ إن وصف له الطبيب ذلك . ومن القواعد العامة أنه في جملته لا يبلغ شيئاً كثيراً .

لكنْ هذا هو الشيء الوحيد الذي نودّ أن نقف عنده في هذا المقام : أيّ نوع من الزيت يستعمل في حفلات التتويج ؟ طبعاً لا يمكن أن يكون هو زيت الزيتون أو زيت «مكسّر» لتقوية الشعر أو زيت الخروع أو زيت الدبّ أو زيت القطارات أو زيت كبد البكلاه . اذن ماذا يمكن أن يكون سوى زيت العنبر في حاله الطبيعية الصافية دون شوب ، زيت العنبر أحبّ الزيوت جميعاً ؟

فكّروا في هذا يانسل البريتون الناشئين على الطاعة . إننا نحن ـ الحواتين ـ نزوّد ملوككم وملكاتكم بالمادة الصالحة للتتويج .

٢٦

فرسان ووصفاء

كان استاربك رئيس الضبّاط في الباقوطة من أهالي نانتوكت ومن أتباع المذهب الكويكري بالولادة ، وكان رجلاً طوالاً جاداً ، ذا بنية مناسبة لتحمّل المناخ الحار ، وإن ولد على ساحل جليدي . إذ كان لحمهُ عاسياً مضمّراً كالبسكويت الذي دخل الفرن مرّتين . وبما أنّه قد نقل الى جزائر الهند فإنّ دمه أصبح لايتلف كالجعة المعبّأة في القناني . ولابدّ من أنه ولد أيام سنة مُسْنِتة أو مجاعة جانحة أو في أحد أيّام الصوم التي يُعرف بها بلده . وقد شهد ثلاثين صيفاً أعجف ، جفّفت في بنيته كلّ الحواشي وضمّرت كلّ موضع رخو ، فإذا هو ناحل قضيف ، وليس نحوله علامة على الهموم والأوصاب المضنيّة ، ولا هو دلالة على آفة تنحت الجسم ، وإنّما هو ضمور وحسب . ولم يكن أبداً دميم المنظر بل كان على الضدّ من ذلك ، إذ كانت بشرته الصافية الضيّقة المشدودة لبوساً ممتازاً فتلبّس هو بها مُحكَمَةً مُقَدّرة ، وطيّب من داخل بالقوّة والعافية كأنه مصريّ محنّط ، فبدا وكأنّما هو مستعدّ للبقاء أجيالاً طويلة ، مستعد أن يظلّ في كلّ حين كما هو في الحال الراهنة . وسواء أكان هنالك جليد قطبي أو شمس استوائية فهو في كلّ الأحوال كآلة التوقيت الموثوقة ، تكفل له حيويّته الداخليّة أن يؤدّي مهمّته في جميع أنواع المناخ . وإذا نظرت في عينيه بدا لك وكأنّما ترى فيهما أخيلة لاتزال ماثلة من آلاف الأخطار التي واجهها في حياته بثبات وسكينة . إنه رجل رابط الجأش حازم ، كانت حياته في معظمها رواية ذات « حركات معبّرة » لا فصلاً خاملاً من الأصوات . لكنه كان ، على رصانته الجرينة وجلَده الجسور ، ذا صفات تؤثر أحياناً في سائر مميزاته وتكاد ترجح بها في أحيان أخرى . كانت يقظة الضمير لديه غير مألوفة في البحّارين وكان قد وهب الخشوع الطبيعي العميق ، لذلك نزعت به الوحدة الموحشة على الماء نزوعاً قوياً الى الخرافة ، إلاّ أنه نوع

من الخرافة يبدو في بعض الظروف وكأنه نابع من الذكاء لا من الجهالة . كان يؤمن بالنذر الخارجية ويصغي الى صوت الشعور بالشؤم في دخيلة نفسه . وإذا استطاعت هذه الأمور أن تحني فولاذ روحه أحياناً ، فإنّ الذكريات العائلية عن زوجه وطفله في منطقة «الرأس» كانت تنزع الى أن تثنيه عمّا في طبيعته من حزونة أصيلة وتزيد من تعريضه لتلك المؤثرات الكامنة التي إذا أصابت ذوي بعض أصحاب القلوب الشريفة كبحت لديهم تدفّق الجرأة التي تشبه جرأة العفاريت ، وهي الجرأة التي تتجلّي كثيراً لدى الآخرين في أشد صروف الصيد أخطاراً . كان استاربك يقول : «لا أريد من يرافقني في قاربي إلا أن يكون امرءاً يخشى الحوت» . ويبدو أنه كان يعني بهذا القول أنّ أشدّ الشجاعة نفعاً وأحسنها معتمداً هي التي تنشأ من تقدير الخصم لخصمه وحسبان خطره المرتقب ، كما يعني أنّ من لايعرف الخوف يُعدّ رفيقاً أخطر على صاحبه من الرعديد الجبان .

فكان اسطب الضابط الثاني يجيبه : «أجل يا استاربك ها هنا رجل «حوّيط» ليس في كلّ الصيّادين مثله» . وبعد صفحات غير كثيرة ستعرف ما تعنية كلمة «حويط» بدقّة حين يستعملها رجل مثل اسطب أو أيّ واحد من صيّادي الحيتان .

لم يكن استاربك ذا حماسة تسعى لركوب الأخطار ، لم تكن الشجاعة فيه وقدة عاطفية ، بل كانت شيئاً مفيداً له ، قريباً من متناول يده في كلّ الظروف العمليّة الخطيرة . ولعلّه كان يتصوّر أنّ الشجاعة في مهنة التحويت إنّما هي جزء من الزاد الذي تزوّد به السفينة ، شيء شبيه بما تحتاجه من الخبز واللحم ، لا يجوز استهلاكها وتضييعها بسوء التدبير ، ومن ثمّ لم يكن يميل الى التحفز لصيد الحيتان بعد الغروب ولا الى الإصرار على مقاتلة السمكة التي تصرّ على الثبات في مقاتلته . إذ كان استاربك يقول لنفسه : «أنا هنا في هذا المحيط المحرج لأقتل الحيتان كي أعيش ، لا لتقتلني الحيتان كي تعيش» ، وكان استاربك يعلم أنّ مئات من الرجال خرجوا يبحثون عن مثل غايته ولقوا مصارعهم . إذ ما هو المصير الذي لقيه أبوه ؟ وأين في الأعماق التي لا قرار لها يمكن أن توجد أشلاء أخيه ؟

فإذا اعتبرت هذه الذكريات التي تخايله وقدّرت أنه يستسلم الى الإيمان بالخرافات - كما أشرت من قبل - وجدت أنّ شجاعته التي تستطيع بعد كلّ هذا أن تتحقّق وتنطلق إنّما كانت شجاعة متطرّفة غاية في وفرتها . ولكن حين يكون مثل هذا الرجل على هذه الفطرة وعلى مثل تلك التجارب والذكريات المهولة فإن من المعجز أن تقصّر هذه الأمور المستكنة في نفسه عن أن تولّد فيه عنصراً قد ينطلق في الظروف الملائمة من مكمنه ويعصف بما

لديه من جرأة وشجاعة . وعلى مبلغ ماكان يتمتّع به من شجاعة فإنّ شجاعته كانت من النوع الذي تراه في بعض الجرءاء الباسلين الذين تقف جرأتهم ثابتة لا تتزعزع ولا تنكل ماداموا يصارعون البحر أو الرياح أو الحيتان أو أي مفزع من مفزعات عالم الطبيعة إلاّ أنها تعجز عن أن تقف موقف الندّ من مفزعات أشدّ هولاً لأنها أعلق بالنفوس ، مفزعات تنطلق متوعّدة من رجل محرّب قويّ ساخطٍ عاقدٍ ما بين حاجبيه .

ولكنْ إن كانت القصص التالية ستكشف في بعض أمثلتها تهويناً تامّاً من شأن شجاعة ستاربك المسكين ، فقلّما أجد قلبي يطاوعني على تدوينها ، لأنّ من أشدّ الأمور إثارة للأسى والأسف ، بل من أشدّها زعزعة للشعور ، أن تعرض على الناس تهاوي الشجاعة في الروح . فقد يكون الناس ممجوجين حين تراهم في شركات مساهمة أو أمم ، وقد يكون بين الناس محتالون وحمقى وسفّاحون ، وقد تكون لهم وجوه دنيئة هزيلة ، ولكنّ الإنسان ، في المستوى المثالي ، مخلوق كريم ألمعي سامٍ وضّاء ، وهو جدير إذا انكشفت لديه هَنَة تشينه بأن يسرع إليها رفاقه ويستروها بأغلى مالديهم من أردية . تلك الرجولة الطاهرة نحسّها في دخيلة أنفسنا ، في أعماق أعماقنا ، حتّى لتظلّ سليمة لم يمسسها سوء وإن اندثرت كلّ السمات الخارجية ، إنها لتنزف وهي تتلوى بأصدق الألم كلّما شهدت منظر امرئ محطّم الشجاعة بارزاً للحوت . بل إنّ روح التقوى نفسها لاتملك إزاء هذا المنظر المخجل أن تكبح في نفسها لومها للأقدار ، غير أنّ هذه الأنفة التي أتحدّث عنها ليست أنفة الملوك والطيلسانات وإنّما هي أنفة وفيرة ليس لها كسوة من طيلسان . تراها تلتمع من ذراع امرئ يحمل معولاً أو يدقّ مسماراً ، هي أنفة ديمقراطية تتنزّل على الأيدي نوراً أبديّاً من عند الله ، من الله الأوّل والآخر ، مثابة الديمقراطية وفلكها ، الكلّي الوجود الذي جعلنا سواسية على أرضه .

فإذا أنا بعد اليوم نسبت الى أحقر البحّارة والخلعاء والمنبوذين أسمى الصفات وإن كانت قاتمة ، ونسجت من حولهم أمجاداً مأساويّة ، وإذا استطاع أشدّهم جزعاً ـ ولعلّه أن يكون أكثرهم نصيباً من الزراية ـ أن يرفع نفسه في بعض الأحايين الى الذرى الشاهقة ، وإذا سكبت على ذراع ذلك العامل ضوءاً أثيرياً ، وإذا نشرت قوس قزح أمام غروب شمسه الفاجع ، فانصرني في موقفي على كلّ ناقد يسلقني بلسانه الحديد يا نبع المساواة التي نشرت فوق جميع الناس رداءً واحداً سامياً هو رداء الإنسانيّة . انصرني في موقفي هذا أيّها الربّ ، يا رمز الديمقراطيّة الأعظم ، أنت يامن لم تحرم «بنيان» ، الجاني الأسود من نعمة الشّعر ، أنت يا من كسوت بأوراق مطرّقة من رقيق الذهب ذراع ثرفانتس الشيخ حين بترت

وأخذ من أجلها يستكفّ الأيدي ، أنت يا من أنقذت أندرو جكسون[١] من اللصوق بالدقعاء وأمطيته حصان فارس محارب ورفعته الى ما سما به فوق العروش ، أنت يا من تنظر الى أبناء الأرض من عليائك وتختار أحبّ أحبابك فيهم من عامّة الناس الذين يَشرفُون الملوك ، أنت يا ربّ ، انصرني في موقفي وأيّدني وتقبَل منّي يا ذا المنّ والطول .

(١) أندرو جكسون رئيس الولايات المتّحدة : ١٨٢٩-١٨٣٧ . توفّي عام ١٨٤٥ بعد أن عاد ملفل الى الولايات المتّحدة وبدأ حياته الأدبية .

٢٧

فرسان ووصفاء

أما اسطب الضابط الثاني فكان من أهل رأس كد ولذلك كانوا يسمونه ، حسب العادة المحلية المتبعة ، «الراسكدّي» : هَيّنٌ لَيّنٌ ، لا هو جبان ولا هو شجاع ، يواجه الأخطار كيفما جاءت في هيئة من لا يبالي . ويظل وهو منهمك في أشد أزمات الصيد منهوكٌ من شدة الإعياء ، هادئاً مستثبت النفس كأنه صانع يعمل منهمكاً طوال العام . طيب المزاج يَسِرٌ سَبَهْلليّ ، يتصدّر قارب التحويت كأن أشد لقاء مميت مع الحوت ليس سوى مائدة عشاء وبحارته ضيوف حولها . ذو اهتمام خاص بتنضيد الجزء الخاص به من القارب على نحو مريح ، مثلما يهتم سائق العربة التي تخص المسرح بالاطمئنان على صندوقه . وحين يكون قريباً من الحوت ، في غمرة الموت ، يصرّف رمحه الغشوم ببرود وبداهة كما يصرّف «السمكريّ» مطرقته وهو يصفر . قد يهمهم بالنغمات القديمة التي يرددها البحارة حين يكون جنباً لجنب مع أعتى حوت مستشيط الغضب . طول التمرس قد جعل شدقي الموت كرسياً مريحاً لدى اسطب . ولا أحد يعلم كيف كان يتصوّر الميّت ، بل لعلّ من حق المرء أن يتساءل : أتراه تصوّر الموت أبداً ؟ ولكن ان اتفق له أنْ وجّهَ فكره تلك الوجهة بعد عشاء لذيذ ما يفعل البحّار الطيب فإنه كان يعتبره نوعاً من دعوة أصحاب النوبة ليثبوا الى الحبال العليا ويقفوا متأهبين هنالك فاذا وثب معهم عرف الشيء الذي من أجله وثب حين امتثل للأمر ، لا قبل ذلك .

ولعل هناك شيئاً ـ بين سائر الأشياء الأخرى ـ جعل اسطب يسراً سجيحاً ، غير هيّاب ، ينقل خطواته فارعاً مستبشراً وقد حمل عبء الحياة في عالم مليء ببائعي السقط الجاهمين العابسين الذين انحنت أصلابهم تحت ثقل بضاعتهم ؛ شيئاً استخرج منه طيب مزاجه ودعابته التي تبلغ حدّ الاستخفاف بالتدين ، أما ذلك الشيء فهو غليونه ولا بدّ . ذلك أن

غليونه الصغير القصير الأسود كان كأنفه واحداً من قسمات وجهه الثابتة . ولا تستكثر أن يبرز من منامته في السفينة دون أنف اذا حسبت أنه يستطيع التخلي عن غليونه ، فكلا الأمرين سواء . ولديه صف كامل من الغلايين معبأة جاهزة قد ثبتها في لوحة مسنّنة وجعلها في متناول يده ، فاذا دخل غرفته دخنها جميعاً على التوالي ، مشعلاً واحداً منها من الآخر حتى النهاية ، ثم عبّأها مستأنفاً ووضعها جاهزة حيث كانت . ذلك أن اسطب حين يرتدي ثيابه يضع أولاً غليونه في فمه بدلاً من أن يدخل رجليه في سرواله .

أقول : إن هذا التدخين المستمر قد كان في الأقل سبباً واحداً في مدّه بتلك الصفات الخلقية الخاصة ، اذ كل امرئ يعلم أن هذا الهواء الأرضي ، سواء أكان على البر أو على الماء ، تنتقل اليه العدوى بسرعة من تعاسات لا تحصى ، نَفَثها من لا يحصرون من الأحياء الذين لقوا حتفهم ؛ ومثلما أن الناس في أيام وباء المرض الأصفر يمشون وقد وضعوا على أفواههم مناديل مضمخة بالكافور كذلك فعل اسطب في مواجهة البلايا والمحن التي تصيب بني الانسان ، اذ اتخذ من دخان الطباق وقاءً يصدّ به العدوى عن نفسه .

أما الضابط الثالث فهو فلاسك من أهالي تسبري في فنيارد التابعة لمرتا . شاب قصير القامة صلب العود ، أحمر اللون ، شرس فيما يتصل بالحيتان كأنه يتصوّر أن الحيتان العظمى قد أهانته في شخصه ونسبه ، ولذلك كان إهلاكها كلما عرضت له من سمات النخوة والأنفة . وقد فَقَد كل احساس بالإكبار للعجائب الكثيرة التي تصدر عن الحيتان في حجومها الهائلة وطرائفها الغريبة ، ومات لديه كل خوف من الأخطار التي يمكن أن تنجم عن لقانها حتى كان رأيه الفائل يصوّر له أن الحوت العجيب ليس إلا نوعاً من فأر تضخم وانتفخ أو لعله جرذ مائي لا يتطلب منه إلا قليلاً من المخادعة بعض الوقت والجهد كي يقتله ويشويه . هذه الشجاعة الحمقاء اللاواعية جعلته هازلاً بعض الشيء في شؤون الحيتان فهو يتبعها من أجل التفكه ، ورحلة حول رأس هورن يقضي فيها ثلاث سنوات ليست لديه إلا دعابة مرحة تستمر طوال ذلك القدر من الزمن . وقد ينقسم الناس في فريقين على نحو ما تنقسم مسامير النجار في قسمين : منحوتة ومصنوعة ، وإلى الفريق المصنوع ينتمي فلاسك ، اذ صنع لكي يثبت محكماً مشدوداً ويبقى أمداً طويلاً ؛ كانوا يسمونه : «الدعامة الكبرى» على ظهر الباقوطة لأنه في هيئته يمكن أن يشبّه بتلك الخشبة القصيرة المربعة التي يطلق عليها ذلك الاسم حوّاتو المناطق القطبية وهي بما يزج فيها من خشبات جانبية مستعرضة تحمي السفينة من الارتجاجات الجليدية في تلك البحار المصطفقة .

كان هؤلاء الضباط الثلاثة ، استاربك واسطب وفلاسك ، رجالاً ذوي شأن وخطر . فقد

أجمع الرأي على أن يكونوا قادة ثلاثة من قوارب الباقوطة ؛ وفي التعبئة العظمى للمعركة التي قد يقود فيها آخاب القبطان جيوشه لتنقض على الحيتان يمثل هؤلاء الثلاثة مركز القواد في الفيالق ، واذا اعتقل الجيش حراب التحويت الطويلة النفاذة كان هؤلاء ثالوثاً مختاراً من الرمّاحين بينا الصيادون الآخرون هم الزرّاقون .

وبما أن كل ضابط أو قائد في حملة الصيد يصاحبه ، كالفارس القوطي في الأزمان القديمة ، مُوَجّهٌ للدفة في القارب أو زرّاق برمحه يقدم له في بعض الأحداث والظروف سناناً جديداً اذا التوى الأول أو انحنى عند الهجوم ، وبما أن الاثنين يقيمان فيما بينهما صلة وثيقة وصداقة حميمة لذلك أرى من المناسب أن أثبت في هذا المقام شيئاً عن زرّاقة الباقوطة ولأي قائد ينتمي كل منهم .

واذكر منهم كويكوج أول من أذكر فقد اختاره استاربك رأس الضباط وصيفاً معاوناً . ولكنكم تعرفون كويكوج فلا حاجة بي إلى التحدث عنه .

ثم اذكر طاشطيقو ، وهو هندي عريق خالص من جاي هيد أبعد قمة في فنيارد التابعة لمرتا غرباً ، حيث لا تزال آخر قرية من الحمر طالما زودت جزيرة نانتوكت المتاخمة بأجرأ حواتيها الزراقين . وهم بين الصيادين يعرفون بنسبتهم فيقال فيهم «الجايهيديون» . وطاشطيقو هذا ذو شعر مسترسل متهدّل أسود ، وخدين بارزي العظام ، وعينين نجلاوين حوراوين ، شرقيتين في اتساعهما ، قطبيتين جنوبيتين في تعبيرهما المتألق - صفات تتحدث أنه وريث الدم النقي من أولئك الصيادين المحاربين المختالين الذي جابوا ، وأقواسهم في أيديهم ، الغابات العاديّة في تلك الأرض وهم يطاردون على الموظ في نيوانجلند ، ولكن طاشطيقو لما كفّ عن استنشاء ريح الوحوش البرية في الغابات أخذ يقص أثر الحيتان الكبيرة في البحار ، وهكذا حلّ الرمح السديد الذي يحمله الابن محل السهم الصائب الذي كان يرسله الآباء . وإن أنت نظرت الى العضل الأصحم في أعضائه الافعوانية كدت تؤمن بخرافات بعض البيورتان الأوائل وأوشكت أن تصدق بأن هذا الهندي المتوحش ابن أمير القوى الهوائية . كان طاشطيقو وصيفاً لدى اسطب الضابط الثاني .

وثالث الزرّاقين اسمه دغة ؛ زنجي متوحش فحمي السواد ضخم له على الأرض وطأة الأسد ، اذا رأيته حسبته احشويرش . يتدلى من أذنيه بُرتّان ذهبيتان كبيرتان حتى سمّاهما البحارة «الوتدين الذهبيين» ، وتحدثوا كيف يمكنهم تثبيت حبال الصاري الرئيس بهما . تطوع دغة في شبابه بالسفر على ظهر سفينة حوّاته كانت راسية عند خليج منعزل في ساحل وطنه فلم يذهب الى أي بقعة في العالم سوى افريقية ونانتوكت والمواني الوثنية التي يتردد

اليها الحوّاتون ، وعاش عدة سنوات حياة الصيد الجرينة في سفن يهتم أصحابها اهتماماً فريداً بنوع الرجال الذين يختارونهم للابحار في سفنهم ، لذلك كله استمر دغة يتمتع بكل فضائله الهمجية ، منتصباً كالزرافة يتنقل على ظهور السفن في خيلاء امرئ فارع الطول يبلغ ١٩٠ سنتيمتراً دون حذاء . فإذا نظر المرء إليه شعر بقماءة جسمانية ، وإذا وقف امرؤ من البيض أمامه بدا كأنه علَم أبيض جاء يتوسل الى عقد هدنة مع إحدى القلاع ؛ ومن المستغرب أن يكون دغة - احشويرش ، الزنجي الطود ، هو وصيف فلاسك الصغير الذي يبدو إلى جانبه كأنه بيدق الشطرنج . أما سائر عصبة الباقوطة فيكفي أن أقول : لا يبلغ أن يكون نصف العاملين في هذا العصر أمام الصاري في صيد الحيتان بأمريكا - وهم ألوف - من أبوين أمريكيين ، بينا يكاد كل الضباط أن يكونوا أمريكيين نسباً . وفي هذه الحقيقة تتفق الحال في صيد الحيتان مع الحال في الجيش الأمريكي وفي الأساطيل الحربية والتجارية وفي قوى الهندسة التي تعمل في بناء القنوات وطرق السكك الأمريكية . أقول : تتشابه الحال هناك وهنا لأن الامريكي الأصيل في جميع الأحوال يجود بالأفكار ، وسائر العالم يقدم العضلات بسخاء . وينتمي عدد غير قليل من بحارة التحويت الى جزائر الآزور حيث يرسو حواتو نانتوكت في أسفارهم البعيدة ، ليضيفوا الى بحارتهم عدداً من الفلاحين الأشداء القاطنين على تلك السواحل الصخرية . كذلك فإن حواتي جرينلاند الذين ينطلقون من هَلْ أو لندن يتوقفون عند جزائر جتلند ليستكملوا عدد ملاحيهم فإذا كانوا عائدين إلى أوطانهم أنزلوهم في جزائرهم ، ويبدو أن أهالي الجزر هم خير الحواتين وإن لم أعلم سرّ ذلك . وقد كان معظم ملاحي الباقوطة من هؤلاء الجزريين ، وأنا أسميهم «المتأبدين» ، لا أحفل بمدى اجتماعهم في صعيد ، بل أعني أن كل متأبد منهم يعيش في دنياه الخاصة . وإذا احتشدوا على صعيد سفينة واحدة فأي قبيل هم! مندوبون من أتباع الثوريّ أنخارسيس كلوتز[1] جاءوا من كل جزر البحار ومن جميع أطراف اليابسة ، يصحبون آخاب الشيخ في الباقوطة ليبسطوا مظالم الكون أمام قفص الاتهام الذي لم يرجع من عنده الا القليل . بيب الأسود الصغير - أتراه عاد ؟ لا . لم يعد ، وإنما تقدّم على الطريق . ذلك الفتى الألبامي المسكين! على منارة الباقوطة الجاهمة ستراه قبل وقت طويل يضرب طنبوره ، استهلالاً للوقت الأزلي ، حين يدعى الى الصعود العلوي كي يشارك الملائكة عزفهم ويضرب طنبوره في مراقي المجد . اسمه هنا جبان ، وهم يحيونه هناك تحية البطل .

---

(١) ثوري بروسي فرنسي (١٧٥٥-١٧٩٤) كان اسمه جان بابتست فجعله أنخارسيس ولقب نفسه «خطيب الجنس البشري» .

٢٨

آخاب

مضت عدة أيام على مغادرتنا نانتوكت ولم يلح آخاب أبداً فوق العنابر . وكان الضباط يتناوبون المراقبة في انتظام ، ولم يبد شيء ينقض عليَّ تصوّري أنهم هم الآمرون الوحيدون في السفينة لولا أنهم كانوا أحياناً يصدرون عن القمرة بأوامر مفاجئة جازمة ، فكان هذا الفعل يدلني على أنهم إنما يقودون السفينة بالنيابة . أجل إن « ريّسهم » الأعلى ودكتاتورهم كان موجوداً وإن لم تره الأعين التي لم يؤذن لها أن تنفذ الى معتكفه المقدس في القمرة .

وكنت كلما صعدت الى ظهر السفينة إثر نوبة من المراقبة في الأسفل شخصت ببصري تواً الى مؤخرة السفينة لأرى إن كان هناك وجه غريب . ذلك أن قلقي المبهم إزاء القبطان المجهول كاد يصبح لديّ في عزلة البحر بلبالاً منغصاً . وأحياناً كان يلم بي ـ غير مأذون ـ الهذيان الشيطاني الذي سمعته من ايليا الرثّ القَشِف فيزيد في بلبالي على نحو غريب ، ويشتد بي التوجس على وجه لم أتصوّره من قبل . وفي مثل تلك الأحوال لم أكن أستطيع مقاومة ذلك الهذيان الشيطاني مثلما أني كنت في لحظات أخرى أتبسم من تلك التخيلات الكئيبة التي أرسلها على مسمعي عرّافُ الأرصفة الغريب .

ولكن سواء أكان ما أحس به هو التوجس أو الانزعاج ـ إن صحت تسميته كذلك ـ فإني كلما كنت أتلفت حولي في السفينة كان يبدو لي أن استحواذ هذه المشاعر عليّ لا يجد له مسوغاً ؛ نعم إن الزرّاقين وسائر هيئة البحارة كانوا أشد همجية ووثنية واختلاطاً من أي فريق صحبته على السفن التجارية وتعرفت اليه في تجاربي السابقة ، ومع ذلك فإني كنت أعزو هذه المشاعر ـ وبحقٍ ما أعزوها ـ إلى التفرّد الفذ في طبيعة تلك الحرفة الاسكندناوية التي أسلمتُ اليها نفسي . لكن منظر الضباط الثلاثة في السفينة كان أقوى معتمد لي لتبديد هذه التوجسات الباهتة واستثارة الثقة والاستبشار في كل مرحلة من مراحل سفرتنا . ليس

من السهل أن تجد ثلاثة رجال أوضباط بحر ، لكل امرئ منهم سبيله الفذّ ، خيراً منهم . وكل واحد فيهم أمريكي النسبة أحدهم من نانتوكت والثاني من فنيارد والثالث من «الرأس» . ولما أن كنا في فترة عيد الملاحين انطلقت السفينة من الميناء، فقد سرنا مسافةً في جو قطبيّ قارس ، وإن كنا إنما نهرب من هذا الجو طوال الوقت متجهين جنوباً ، وكلما قطعنا درجة أو دقيقة من تلك العروض خلفنا الشتاء الغشوم وجوّه الراهق من ورائنا تدريجاً . وفي صباح يوم قليل الاكفهرار إلا أنه مايزال أطلس متجهماً ، في فترة الانتقال من المناخ البارد ، والسفينة تجري في ريح رخاء وتشق عباب الماء في وثبات شامتة وسرعة أسيانة ، صعدت الى ظهر السفينة تلبية لدعاء نوبة الحراسة قبل الظهر وصوّبت نظري نحو أعلى الكوثلة . اعترتني قشعريرة تنذر بالشرّ . جاز الواقع حدود التوجسّ . أمامي على ظهر السفينة يقف آخاب القبطان .

لم تبد فيه أية دلالة على مرض جسماني ، ولا على نقاهة منه . بدا لي كأنه امرؤ استنقذ من النار بعد أن ربط الى السارية ليحرق ، وكانت النار قد سفعت الأعضاء دون أن تلتهمها ودون أن تفني جزءاً واحداً من عنفوانها المعمّر المجدول . وبدت بنيته الشامخة المستعرضة كأنما هي مصنوعة من البرونز الصلب وقد جبلت في شكل لا يدركه التغير كأنها تمثال برسيوس الذي صبّه تشلليني[1] ، واذا نظرت اليه رأيت وسماً دقيقاً كأنه أثر سفود ، بين البياض والدكنة ، وقد اتخذ طريقه بين شعره الأشيب واستمرّ نازلاً عن اليمين على أحد جانبي وجهه ورقبته اللذين سفعتهما ودبغتهما ، حتى غاب تحت ملابسه . وهو يشبه ذلك الأثر العمودي الذي يرتسم أحياناً على جذعٍ مستقيم عالٍ من شجرة ضخمة حين ينفذ فيها سهم من البرق العلوي فيشقها ، فيسحج اللحاء ويشقه من الرأس الى القاعدة قبل أن يغور في الثرى ، مخلفاً الشجرة حية خضراء إلا أنها موسومة دون أن يلوي منها غصناً . هل ولد آخاب يحمل تلك السمة ؟ هل كانت ندباً خلفه جرح رغيب ؟ ما من أحد يعرف وجه اليقين في ذلك . ولكن كأنما أجمع القوم ضمناً ، وبخاصة الضباط ، على أن لا يلمحوا اليها خلال الرحلة كلها ، إلا أن رئيس طاشطيقو وهو هندي شيخ جايهيدي بين البحارة ، أكّد ذات مرة توهماً أن آخاب لم ينل ذاك الوسم إلا بعد أن استكمل الأربعين ، وأنه أصيب به في كفاح مع قوى الطبيعة في البحر لا في غمرة عراك بين آدميين . لكن نفى هذا التلميح المفتتن نفياً ضمنياً تلميح آخر أورده شيخ ثانٍ من جزيرة مان ، عجوز خفيض الصوت لم يبحر أبداً من

---

(١) تمثال برسيوس يحمل رأس مدوزا في فلورنسة من البرونز صنعه بنفنوتو تشلليني (١٥٠٠-١٥٧١) .

نانتوكت ولم تقع عيناه على آخاب قبل ذلك . ومع ذلك فإن التقاليد البحرية القديمة والمعتقدات العريقة زوّدت هذا الشيخ بقوى خارقة للطبيعة في المكاشفة . فلم يكن أي بحار أبيض ليناقضه مناقضة جادة حين قال : إن صحّ للقبطان آخاب أن تسجى جثته كمن يموت حتف أنفه ، وهذا ما لا أكاد أقول بحدوثه (وتمتم بهذه الكلمات في خفوت) فإن من يغسل جثته سيرى سمة الولادة تمتد من رأسه إلى أخمص قدمه .

أثرت فيّ طلعة آخاب الجاهمة والوسم الداكن الذي يمتد فيها تأثيراً بليغاً ، حتى كدت في اللحظات الأولى أغفل عن أن قسطاً غير ضئيل من جهامته المتشامخة إنما يعزى إلى رجله الهمجية البيضاء التي ألقى عليها جانباً من ثقله . وقد سبق لي أن تصوّرت أن هذه الرجل العاجية قد قدّرت له في البحر من العظم الصقيل المنتزع من فك حوت العنبر . وذات مرة قال الشيخ الهندي الجايهيدي : «نعم تحطم صاريه بإزاء اليابان ولكنه «ركّب» لنفسه صارياً جديداً قبل أن يعود الى الوطن ، مثلما فعلت سفينته حين تكسرت صواريها ، نعم . لديه خُرْجٌ من هذا الصواري» .

ولفتتني وقفته الفريدة التي اعتمدها . في كل جانب من جانبي ظهر الباقوطة خلف الدقل الأعظم قريباً من أشرعة المظين ثقب حفر بالمثقاب ، سعته نصف بوصة في المرينة ، وقد ثبت آخاب رجله السليمة في واحد من تلك الثقوب ، وجعل احدى ذراعيه مرفوعةً ممسكة بطرف المظين ، ووقف منتصباً ينظر على مدى مستقيم وراء مقدم السفينة المترنّح على الدوام . وفي تلك النظرة المسددة الجريئة المعلقة بالاتجاه الأمامي يتجلى قدر لا يحدّ من البأس الركين والصلابة الحازمة التي لا تهن ولا تلين . لم ينطق بكلمة ، لم يحدثه ضباطه بشيء ، وإنما دلت أدق حركاتهم وتعبيرات وجوههم على أنهم يعانون إدراكاً قلقاً ، إن لم أقل مؤلماً ، بأن الرقيب المسلط يلحظهم بعين كدرة . وليس ذلك فحسب بل إن آخاب ذا المزاج المتقلب وقف أمامهم والألم قد ارتسم على وجهه ، في غطرسة وصَيَدٍ ملوكيٍ ثقيل ، لا أجد له اسماً دقيقاً ، كأنه ويل وبيل .

ولم يطل به الوقوف في العراء فانسحب الى قمرته . ولكنه كان بعد ذلك الصباح يبرز كل يوم ويراه الملاحون إما واقفاً مثبتاً رجله في الثقب المحوري وإما جالساً فوق مقعده العاجي أو متخطراً على ظهر السفينة بوطء ثقيل . ولما أخذت جهمة السماء تنقشع ، أي بدأت تظهر البِشر والسماحة بعض الشيء ، أخذ آخاب يقلل من اعتكافه وعزلته ، كأنه لم يفرض عليه العزلة حين أقلعت السفينة من مرساها إلا زمهرير البحر الشتويّ المرير ، ورويداً رويداً أصبح يبرز دائماً أو غالباً ولكن كل ما قاله وما فعله في الواقع على ظهر السفينة حيث

انسكبت أشعة الشمس أخيراً جعله يبدو لي حشواً زائداً حيث هو كأنه دقل آخر . إلا أن الباقوطة كانت تمخر البحر حينئذٍ . لم تكن تتجول تجوالاً منتظماً وكان الضباط ذوي كفاية تامة للاشراف على معظم المعدات والاعدادات اللازمة للتحويت ، فلم يكن هناك شيء يستدعي جهود آخاب أو يستثيره للعمل . فإن وجد شي من ذلك فهو قليل . وهكذا أخذ يبدد ـ حينئذٍ ـ تلك السحب التي كانت قد تكدست ، كومة فوق كومة على جبهته ، مثلما أن الغيوم جميعاً تختار أعلى القمم لتحتشد من فوقها .

ومع ذلك ، لم يمضِ وقت طويل حتى استطاع الاغراء الدافئ الناغم في ذلك الجوّ الممتع المتهلل الذي وقعنا في نعيمه ، أن يغير مزاج آخاب تدريجاً . إن الغادتين الراقصتين الورديتيّ الخدود ، أعني نيسان ونوّار ، حين تعودان الى الغابات الباردة الناقمة المكفهرة ، ترحب بمقدمهما أكبر سنديانة شائخة جاسية عريت من الورق وشققتها الصواعق ، ترسل في الأقل بضعة عساليج خضر احتفاء بالقادمتين الجذلتين ، كذلك استجاب آخاب في النهاية الى الاغراءات المرحة التي حملها ذلك النسيم اللعوب . وقد انتحل غير مرة برعماً باهتاً من نظرة لو أتيح لرجل غيره لتفتح تواً عن ابتسامة .

٢٩

شجار

مضت بضعة أيام منذ أن خلفت الباقوطة الجليد وجباله من وراء ظهرها ، وأصبحت تتدحرج في ربيع كيتو المشرق ، وهو فصلٌ يكاد يهيمن أبداً في البحر على أعتاب آب (أغسطس) الخالد في المناطق الاستوائية . وأصبحت الأيام المنعشة الصافية الناغمة العبقة الفياضة الوفيرة كالكؤوس البلورية التي تترع بالأشربة الفارسية ـ تطفح بالماورد . وتفدَّمُ أفواهها بالثلوج . والليالي البهية المرصّعة بالنجوم كأنهن السيدات المختالات في الحبرات المزينات بالجواهر يتعللن في خيلائهن المتوحدة بذكرى بعولتهن السادة الذاهبين في ميادين الفتح والغلبة ، وما أولئك السادة سوى الأيام المشمسة المقنعة بالخوذ الذهبية . فمن كان يريد النوم تحير أيهما يختار : أتلك الأيام الجميلات أم تلك الليالي المغريات . ولكن فنون السحر في ذلك الجو السرمد لم تتحف العالم الخارجي فحسب بتعاويذها وحيويتها الجديدة بل تغلغلت رقاها الى الروح وبخاصة حين كانت تحلُّ الأمسيات الوديعة ، عندئذٍ تطلق الذكريات بلوراتها مثلما يتكون الجليد الصافي في الشفق الصامت . وكل هذه المؤثرات اللبيقة تسللت الى بنية آخاب .

غير أن من علت سنّه يظل صاحياً يأبى الرقاد ، كأن المرء كلما طالت بالحياة صلته نفر من ممارسة أي شيء يشبه رقدة الموت . وأمّار البحر الشيوخ ذوو اللحى الشمطاء هم الذين يغادرون أسرتهم ليزوروا ظهر السفينة المجلبب بالظلام . وتلك هي حال آخاب ، إلا أنه في الأيام الأخيرة كان يبدو كأنما يعيش في الهواء الطلق ، حتى لتقول أنه كان يلم بالقمرة زائراً وكانت زيارته لها لماماً ، اذا أنت قِسْتَ مكثه فيها الى مكثه فوق الألواح الخشبية . وربما كان يتمتم لنفسه : «حين ينزل قبطان مسن مثلي الى هذه الناروزة الضيقة فكأنما ينزل إلى قبره ، إني أحس كأني أذهب إلى لحد يسمونه سريراً » .

ففي كل أربع عشرين ساعة تقريباً ، حين تنصب الحراسة الليلية ، ويقوم الفريق الموجود على ظهر السفينة بالسهر على نوم الفريق في الأسفل ، حتى لو أن حبلاً كان يحتاج أن يسحب على المنارة لما ألقى به البحارة الى الأسفل في جفاء وخشونة كما يفعلون أثناء النهار ، وإنما يسقطونه الى مستقره في حيطة وحذر لئلا يزعج رفاقهم النائمين ، أقول : حين يبدأ هذا النوع من السكينة ينسحب على الوجود ، في المعتاد ، يحرس ربُّ الدفةِ الصامت ناروزةَ القمرة ، ولا يمضي وقت طويل حتى يبرز منها الرجل الشيخ وهو يتشبث بالدرابزين الحديدي ليعين رجله على مشيتها الظالعة . كانت فيه لمسة من الانسانية ترعى مشاعر الآخرين ، اذ كان في مثل هذه الساعات يأبى في العادة أن يعتسَ على ظهر السفينة وراء الدقل الأعظم ، ذلك أن ضباطه المنهوكين الذي أخلدوا الى الراحة على بعد ست بوصات من كعبه العاجي قد تطيش بألبابهم أصداء الصلصلة والصرير المنبعثة من تلك الخطوات العظيمة حتى ليرون في منامهم أنياب حيتان القرش وهي تصطك . وذات مرة كانت السوداوية قد استغرقته فأغفلته عن رعاية مشاعر الرفاق ، وذهب يذرع السفينة من أعلى الكوثل حتى الدقل الأعظم بخطى ثقيلة كأنها صخر يتقلّع ، واذ ذاك طلع الضابط الثاني اسطب من أسفل وألمح في دعابة مترددة مستنكرة معاً أن القبطان آخاب إن كان يعجبه «المشي على الخشبة»[١] فلا أحد يستطيع أن ينكر عليه ذلك ، ولكن قد تكون هنالك وسيلة صالحة لكتم الصوت وإخماده ، وألمح في غمغمة وتردد الى كرة من القنّب يلبّس بها الكعب العاجي . ويلك يا اسطب! انك لم تكن تعرف آخاب حينئذٍ .

قال آخاب : «أأنا قنبلة مدفع يا اسطب حتى إنك تريد أن تحشوني كذلك ؟ لابأس قل ما تريد فأنا قد نسيت . أهبط الى قبرك السفليَ المظلم فإذا اندسست بين أكفانك ، اتخذناك في النهاية كبّة غزل . اهبط أيها الكلب وانجحر» .

انعقد لسان اسطب لحظة حين أفزعته الخاتمة غير المتوقعة في كلمات الشيخ الذي انقلبت لهجته فجأة الى سباب وتحقير ، ثم قال في انفعال : «لست متعوداً أن يوجه اليَ الكلام بهذه اللهجة يا سيدي ؛ لقلّما أطيق مثل هذه اللهجة يا سيدي» .

- «صه»! ذلك هو الصوت الذي صرّت به أسنان آخاب وتحرك بعنف مبتعداً كأنما يريد ليتجنب حوافز الهياج .

فتجرأ اسطب وقال : «لا يا سيدي ، على رسلك . لا أريد أن أدعي كلباً ، استذلالاً» .

---

(١) to walk the planks في العبارة تورية ، فقد كان آخاب يمشي على خشب السفينة ، كما أن المشي على الخشب عقوبة يستعملها القراصنة في السفن اذ يجعلون شخصاً يمشي على الخشبة ثم يزلزلونها تحت قدميه حتى يهوي في البحر .

- «اذن فليقل لك عشر مرات أنت حمار وبغل وأتان ؛ وانقشع وإلا كنستك من العالم جملة» .

وفيما هو يتلفظ هذه الكلمات اقترب من اسطب وفي طلعته مفزعات مروّعة حتى أن اسطب تراجع من وجهه لا إرادياً .

فتمتم اسطب وقد وجد نفسه يهبط الى ناروزة القمرة : «لم يعاملني أحد هذه المعاملة من قبل دون أن اردّ عليها بالمثل . هذا غريب . قف يا اسطب . لا أدري أأرجع فأضربه أم... ما هذا ؟ - أركع على ركبتيّ وأتوسل اليه داعياً ؟ نعم ، هذه هي الخاطرة التي عنّت لي . ولكنها تكون أول مرة أركع فيها داعياً مصليّاً . غريب ، غريب جداً ، وهو رجل غريب أيضاً . نعم خذه من أساسه الى رأسه ، يكاد أن يكون أغرب شيخ أبحر اسطب معه . يا للّه كيف اندفع نحوي! عيناه كخزانتي البارود في البندقية ؛ أهو مجنون ؟ على أي حال به مسّ وهذا أمر أكيد مثلما أن ظهر السفينة لا يقعقع إلا أن يكون فوقه شيء . ثم هو لا يستلقي في سريره هذه الأيام إلا ثلاث ساعات من أربع وعشرين ، ولا يغفو في أثنائها . ألم يخبرني خازن المؤن ، الغلام العجّان إنه في الصباح يجد فراش أرجوحة الرجل العجوز كله معكوكاً مقلوباً والملاءات قد لبكت عند آخر السرير ، والغطاء يكاد أن يكون ملوياً مثنياً في عقد ، والوسادة ساخنة سخونة مفزعة كأن آجرة محماة كانت فوقها ؟ عجوز حار حاد . أظن لديه ما يسميه بعض الناس على البر ضميراً ، ويقولون أنه نوع من الاختلاج النورالجي ، أسوأ من ضربان الضرس . طيب . لابأس . أنا لا أعرف ما هو ولكني أسأل اللّه أن يحميني من عدواه . وهو مليء بالألغاز ولا أدري سرّ ذهابه الى العنبر الخلفي كل ليلة حسبما حدثني الغلام العجّان وقال أنه يظن أنه يذهب هنالك . لِمَ يذهب ؟ أريد أن أعرف . مَن الذي يعده اللقاء في ذلك العنبر ؟ أليس هذا عجيباً ؟ ولكن لا أحد يدري . ها هنا تستمر اللعبة القديمة - يذهب لينال غفوة . عليّ اللعنة ، جدير بنا أن نأتي الى هذا العالم حتى ولو لم يكن نصيبنا منه إلا أن ننطرح نائمين . وها أنا يخطر لي هذا الأمر ، وهو أول شيء يعمله الطفل حين يولد ، وهذا شيء غريب أيضاً . عليّ اللعنة ، لكن كل الأشياء غريبة حين نفكر فيها إلا أن التفكير في الأمور ضد مبادئي . «لا تفكر» تلك هي الوصية الحادية عشرة التي انقاد لها . «نم حينما تستطيع» هي الوصية الثانية عشرة - هكذا إذن . ولكن كيف ؟ ألم يدعني كلباً ؟ المشنوع! ودعاني عشر مرات حماراً وكدّس فوق ذلك كله مجموعة من الأتن ، كان في مقدوره أن يرفسني ويتمم منظر الحمير . لعله رفسني ولم أشعر فقد أفزعتني جبهته بعض الشيء ، إذ أومضت كأنها عظمة مغسولة . يا للشيطان ما بي ؟ أنا لا أقف منتصباً على

رجلي . اصطدامي بذلك العجوز قد لخبط كياني . تاللّه كنت أحلم . كيف ؟ كيف ؟ كيف ؟ - لكن الطريقة الوحيدة أن أكتم الأمر . الى السرير إذن . وفي الصباح أرى كيف تلوح للفكر هذه الفعلة الاحتيالية المزعجة» .

٣٠

الغليون

حين انصرف اسطب وقف آخاب هنيهة منحنياً على جدار السفينة ثم استدعى ، كما أصبحت عادته في الأيام الأخيرة ، أحد بحارة النوبة وأرسله الى القمرة ليحضر له مقعده العاجي وغليونه . وأشعل الغليون من المصباح الموضوع عند صندوق الابرة المغناطيسية ، وثبت المقعد مستقبلاً الريح وجلس يدخن .

تقول الأسطورة أن عروش الملوك الدنماركيين المغرمين بالبحر في غابر أيام الأمم الشمالية كانت تصنع من أنياب النّرول . فكيف يستطيع أمرؤ أن ينظر الى آخاب حينئذٍ وقد جلس على ذلك المقعد المصنوع من العظام دون أن تخطر له السمة الملكية التي يمثلها . كان آخاب خاقان سفينة ، وملكاً على البحر ، وسيداً عظيماً على الحيتان .

مضت بضع لحظات انطلق فيها الدخان من فمه في نفثات سريعة مسترسلة ارتدت الى وجهه ، وأخيراً أخذ يناجي نفسه وقد سحب الغليون من فمه : «ما لهذا الدخان لم يعد يهدئني . آه يا غليوني! ستكون حياتي عسيرة اذا تلاشى سحرك عني ؛ ها هنا كنت أجهد دون وعي ، من غير استمتاع ، أجل ولجهلي جعلت أدخن ضد الريح طول الوقت . ضد الريح وبمثل هذه النفثات العصبية كأن نفثاتي الأخيرة هي أقوى النفثات وأحفلها بالاضطراب ، شأني في ذلك شأن الحوت المحتضر . ما شأني بهذا الغليون ؟ هذا الشيء الذي يراد للتسكين ، لإرسال أبخرة لطيفة بيضاء بين شعرات بيض لطيفة لا بين خصل في دكنة الحديدِ مثل خصلي . سأكف عن التدخين» .

قذف بالغليون الذي مايزال مشتعلاً في البحر[١] ، وسمع حسيس جمرته بين الأمواج ،

(١) قد تقدم في الفصل العاشر ص ١٠٢ كيف أن تبادل الأنفاس من غليون واحد كان رمز صداقة حميمة بين اسماعيل وكويكوج . وها هو آخاب يقذف بغليونه في البحر وتلك امارة على أنه يستسلم لشيطانه ويكسر «طوق الانسانية السحري» . كان منفل =

وفي اللحظة نفسها ضربت السفينة الحبب الذي أحدثه الغليون الغارق . أما آخاب فأخذ يذرع السفينة وعلى رأسه قبعة منكفئة الحوافي .

= نفسه يحب التدخين فهو يستعمله في أدبه رمزاً للراحة والاطمئنان .

٣١

ربة الأحلام

في الصباح التالي دنا اسطب من فلاسك محيياً وقال :

«مثل هذه الرؤيا لم أرَ في حياتي أيها الدعامة الكبرى ؟ أنت تعرف الرجل العاجية التي يمشي بها الرجل العجوز . رأيت في المنام أنه ركلني بها ، وحين حاولت أن أرد عليه بالمثل ، وحياة روحي ، يا رفيق ، انخلعت رجلي . ثم بلمح البصر! بدا آخاب هَرَماً وأنا آخذ في ركله كأني أحمق ممرور . وأغرب من هذا يا فلاسك ـ وأنت تعلم مبلغ غرابة الأحلام جميعاً ـ أني خلال هذه السورة الغضبية التي انتابتني رأيتني أقول لنفسي : إن تلك الركلة التي سدّدها اليّ آخاب ، في آخر الأمر ـ ليست إهانة لي . قلت لنفسي : ما ضرّ ؟ علامَ كل هذه الخناقة ؟ هذه ليست رجلاً من لحم وعظام إنما هي اصطناعية . وبين الضربة الحية والأخرى الميتة فرق كبير . هذا هو الذي يجعل ضربة اليد يا فلاسك ، مذلة مؤلمة للمرء خمسين مرة أكثر من الضرب بالقناة . العضو الحيّ هو الذي يحدث الاهانة الحية يا بنيّ . وأقول لنفسي طوال ذلك كله ، إفهمْ ، وأنا أخبط أصابع قدمي الكليلة ضد ذلك الهَرَم اللعين وكل شيء يحدث في تناقض مضطرب ، طول الوقت ، أقول : كنت أقول لنفسي : هل رجله إلا قناة ـ قناة من عظم الحوت . وأقول أيضاً : نعم إن الضرب لم يكن إلا دعابة ، في الواقع لم يكن إلا رَمْحاً بعظم الحوت لا رفسة مهينة . ثم أقول لنفسي : «بل انظر اليها مرة ، إلى نهايتها ، أي موضع القدم ، ما أصغرها . بينا لو ركلني فلاح عريض القدم ، لكانت تلك إهانة شيطانية عريضة . أما هذه الاهانة فقد استدقت واستدقت حتى أصبحت نقطة . ثم تأتي النكتة الكبرى في الحلم ، يا فلاسك . بينا كنت أركل الهرم ظهر لي انسان الماء العجوز (المرمان) وعليه شعر كشعر الغرير ، وله في ظهره حردبة وأمسك بي من كتفي وذبحني . كان يقول لي : ماذا تحاول ؟ تحرّك أيها الرجل ، ولكني كنت خائفاً . يا لها من فراسة! إلا أني في اللحظة التالية أتيح لي أن أتغلب على الخوف . «ماذا أحاول ؟» ذلك ما

قلته لنفسي أخيراً . وأي دخل لك في هذا ، أود أن أعرف أيها الأحدب ؟ أتريد أنت ركلة ؟ والله يا فلاسك ما كدت ألفظ هذه الجملة حتى أدار لي مؤخرته وانحنى ونزع عنه كمية من عشب البحر كان قد اتخذها تباناً . ماذا تظنني رأيت ؟ وحق الرعد أيها الرجل كانت مؤخرته قد غرزت فيها كلها مخارز رؤوسها الى خارج . وقلت في نفسي بعد أن ترويت في الأمر : « أظنني لا أريد أن أركلك أيها الرفيق العجوز » فقال : « عاقل يا اسطب ، عاقل يا اسطب » ، وظل يتمتم بهذه العبارة طول الوقت كأنه يتغذى من لثته مثل عفريتة المدخنة . ولما رأيت أنه لا يريد أن يكف عن قوله : « عاقل يا اسطب ، عاقل يا اسطب » خطر لي أنني قد أنحي على الهَرَم ركلاً كرة أخرى . وما كدت أرفع قدمي حتى زأر : « كف عن الركل » فقلت : « مرحباً . ما المسألة أيها الرفيق القديم ؟ » فأجابني : اسمع يا هذا تعال نبحث في أمر الإهانة . ركلك القبطان آخاب . أليس كذلك ؟ فقلت : بلى لقد فعل . ها هنا وقعت قدمه . فقال : طيب . واستعمل رجله العاجية ، أليس كذلك ؟ فقلت : بلى لقد فعل . فقال : طيب يا اسطب يا عاقل من أي شيء تتذمر ؟ ألم يركلك بنيّة حسنة ؟ لم تكن رجْلاً من الخشب المقيّر تلك التي ركلك بها . أكانت كذلك ؟ كلا بل ركلك رجُل عظيم ذو رِجل عاجية جميلة يا اسطب . هذا شرف . أنا أعده شرفاً . اصغِ اليّ يا اسطب يا عاقل . في العهود القديمة بانجلترا كان أعاظم اللوردات يعدون من المجد الرفيع أن تصفعهم الملكة وتجعل منهم أنجد الفرسان . ليكن موضع فخرك يا اسطب أن آخاب الشيخ ركلك وجعل منك امرءاً عاقلاً . تذكر ما أقوله لك ، اجعله يركلك . عدّ ركلاته شرفاً لك ولا تردّ عليه بالمثل لأنك لا تستطيع أن تعين نفسك يا اسطب يا عاقل . ألا ترى ذاك الهرم ؟ وفجأة بدا لي على نحو غريب أنه يعوم في الفضاء ، فأرسلتُ شخيراً ، وانقلبتُ على الجانب الآخر ووجدتني في أرجوحتي . فماذا ترى في هذا الحلم يا فلاسك ؟ » .

ـ لا أدري يبدو لي شيئاً من الحمق .

ـ ربما . ربما ، ولكنه جعلني عاقلاً يا فلاسك . هل ترى آخاب واقفاً هنالك يوارب النظر من على مؤخرة السفينة ؟ خير ما تستطيع أن تعمله يا فلاسك أن تدع ذلك العجوز وحده . لا تكلمه مهما يقل لك . ويك . ها هو يصرخ فماذا يقول ؟ أنصت!

ـ أنتم عند رأس الصاري . حددوا الابصار جميعاً . ها هنا حيتان من حوالينا . اذا رأيتم حوتاً أبيض فأنذرونا بأصوات جهورية تشق الصدور .

ـ ماذا ترى في هذا يا فلاسك ؟ ألست ترى نقطة صغيرة من شيء مستهجن مستغرب فيه ؟ مش كده ؟ حوت أبيض ، هل أدركت هذا ؟ اسمع ـ في الريح شيء فريد . قف متأهباً يا فلاسك . على عقل آخاب شيء دموي . صه! ها هو قادم نحونا .

٣٢

علم الحيتان

لقد توغلنا في أحضان العباب وعما قليل نغيب في مدّه المترامي بلا ساحل ولا مرفأ أمين . لكن قبل أن يتم هذا ، قبل أن يتدحرج هيكل الباقوطة المطحلب الى جانب هياكل الحوت المحلزنة ، من المناسب في البداية أن نلتفت الى مسألة يكاد لا يستغني عنها من شاء أن يدرك ما يتلو من معلومات عن الحوت وإشارات مختلفة اليه .

وإنه ليسرني أن أقدم اليكم في هذا المقام عرضاً منظماً عن مختلف أجناس الحوت . غير أن مهمتي هذه ليست سهلة ، اذ التصنيف لا يعدو أن يكون تصنيفاً لمشمولات الفوضى ، ولا تتضمن المحاولة شيئاً أقلّ من ذلك . اصغوا الى ما قاله خير الحجج الاثبات وأحدثهم رأياً :

قال القبطان اسكرسبي (١٨٢٠) : «ليس في علم الحيوان فرع أكثر تعقيداً من ذلك الذي يسمونه علم الحيتان» .

وقال الجرّاح بيل (١٨٣٩) : «ليست غايتي ، لو كان لي في الأمر يدان ، أن أدخل في بحث عن الطريقة المثلى لتقسيم الحيتان الى فئات وأُسَر... فالاضطراب المطلق قائم بين من يؤرخون لهذا الحيوان» (حوت العنبر) .

وهاك أقوالاً أخرى : «ضعف الاستعداد اللازم لمتابعة أبحاثنا في الأمواه التي لا يسبر غورها» - «حجاب كثيف يعز النفاذ منه يقف دون معرفتنا عن الحيتان» - «هذا ميدان قد نثرت فيه الأشواك» - «وكل هذه الدلالات الناقصة إنما تعذبنا نحن علماء التاريخ الطبيعي» .

هكذا تحدث عن الحوت كل من كوفييه العظيم وجون هنتر ، ولسون ، بدورُ علم الحيوان والتشريح . ومع ذلك فإن كانت المعرفة الصحيحة منزورة يسيرة فان الكتب عديدة

وفيرة ؛ وكذلك هي الحال الى حد ما في علم الحيتان . فكثيرون هم الذين كتبوا عن الحوت كباراً وصغاراً ، قدامى ومحدثين ، أهل برّ وأهل بحر ، ومنهم من أسهب ومنهم من توخى الايجاز . تعال نعد بعضهم : منهم مؤلفو كتاب يهود ، وأرسطو طاليس وبليني والدروفاندي والسير توماس براون وجسنر وراي ولنايوس وروندليتيوس وويلوبي وجرين وارتيدي وسيبولد وبريسون ومارتن ولاسيبيد وبونتير ودرمارست وبارون كوفييه وفريدريك كوفييه وجون هنتر واوين وسكورسبي وبيل وبنت وج . روس بروان ومؤلف Miriam Coffin وأولمستد والقسيس ت . شيفر . ولكن ما الغاية القصوى التعميمية التي من أجلها كتب هؤلاء ، ذلك ما تبينه المقتبسات السابقة .

ولم يرَ حوتاً حياً من هؤلاء المؤلفين الذين سُردت أسماؤهم سوى من ذكرتهم بعد أوين ، ولم يكن فيهم حوّات ورمّاح محترف إلا واحد هو القبطان اسكورسبي فهو خير حجة في شأن «الحوت الأثين» أو حوت جرينلاند . ولكن اسكورسبي لم يعرف شيئاً عن حوت العنبر الكبير الذي إذا قارنت به «الحوت الأثين» وجدت هذا الثاني يكاد لا يستحق أن يذكر . ويجب أن أقرر في هذا المقام أن الحوت الأثين مغتصب يجلس على عرش البحار بل انه ليس بأية حال أضخم الحيتان وقد وطد له الاغتصاب سبقه الى الاستئثار بالعرش وتراخي الزمن على تتويجه ، والجهل العميق الذي بقي الى ما قبل سبعين سنة يكتنف حوت العنبر ويخيل للأذهان انه شيء أسطوري أو شيء غير معروف اطلاقاً ، ولايزال هذا الجهل سائداً في جميع المجالات الا في بعض صوامع العلماء وموانئ التحويت . ان الرجوع الى جلّ الاشارات الواردة عن الحيتان لدى الشعراء العظام في الأزمان الغابرة سيدلكم على أن الحوت الأثين كان في نظرهم عاهل البحار دن منازع . وأخيراً حان الأوان لبيعة ملك جديد . وهذا هو مكان البيعة[1] . أصغوا اليَ أيها الناس الطيبون جميعاً! لقد عزل الحوت الأثين ـ وتولى العرش حوت العنبر!

ليس هناك الا كتابان يقدّمان لكم حوت العنبر الحيّ على حقيقته ، ويوفقان في ذلك الى أقصى حدّ من بين جميع الكتب التي تزعم لنفسها ذلك . هما كتاب بيل وكتاب بنت وكان كل منهما في زمنه جرّاحاً على سفن التحويت الانجليزية التي ترتاد البحر الجنوبي وكلاهما دقيق ثقة . وما في كتابيهما من مادة حول حوت العنبر ضئيل ضرورةً ، ولكنها في بابها مادة من نوع ممتاز وان كانت في معظمها مقصورة على الوصف العلمي . ومهما يكن من شيء

---

(١) في الأصل ، هذه هي مربعة تشارنج (Charing Cross) وكانت مركز لندن منها يبدأ قياس المسافات بالأميال ومنها يعلن النداء بملك جديد .

فان حوت العنبر من الناحيتين : العلمية أو الشعرية غير واضح القسمات في أي أدب . فلم يجد من يخطّ سيرته مع أنه يسمو سمواً بالغاً على كل ما يصاد من الحيتان .

وتحتاج الفصائل المختلفة من الحيتان نوعاً من التصنيف الشامل المقرّب للمعرفة حتى ولو جاء في شكل مَسْرَدٍ ميسر بما يسد الحاجة الراهنة على أن يتولى الخلف العاملون في الميدان استكمال أبوابه والاضافة الى ما وضعه السلف ، على التوالي . وبما أنه لم يتقدم الى تحقيق هذا الأمر من هم خير مني معرفة واطلاعاً ، أراني أتقدم في هذا الصدد بجهودي المتواضعة . ولست أعدكم بأن يكون عملي كاملاً ، فكل أمر انساني يظن فيه الكمال لابد من أن يكون لهذا السبب عينه غير بريء من النقص والخطأ ، ولست أزعم أني سأقوم بوصف تشريحي دقيق لمختلف الفصائل ، أو أنني في هذا الموضع على الأقل سأسهب في الوصف . غايتي ها هنا رسم مسودة من تصنيف للحيتان فأنا المهندس ولست المعمار الباني .

إلا أنها مهمة جسيمة لا يحسنها أي «فرّاز» عاديّ للرسائل في دائرة البريد . إنه لأمر مخيف أن أذهب في الأعماق خلف الحيتان متحسساً ، مخيفٌ أن يضع المرء بين يديه في أسس العالم الهائلة وأضلاعه وعظام حوضه نفسها . ومن أنا حتى أسعى لأعلق هذا اللوياثان من أنفه بصنارة ؟ لعلني أتعظ بالزواجر الرهيبة التي وردت في سفر أيوب : «هل يقطع (أي لوياثان) معك عهداً فتتخذه عبداً مؤبداً... هو ذا الرجاء به كاذب» (٤١ :٤ ,٩) . ولكني غصت في عالم المكتبات وأقلعت في أرجاء المحيطات ، تمرست بيدي هاتين بالحيتان وأنا جاد مخلص فيما أنتويه وأود أن أحاول ، ولكن لا بد من تمهيد أجلو به مسألتين :

أولاهما : أن علم الحيتان مايزال غير يقيني ، غير مستقر على وضع حاسم ؛ وشاهدي على ذلك لأول وهلة أن بعض الجهات لاتزال تناقش في هوية الحوت : أهو سمكة أم لا . يقول لينايوس (١٧٧٦) في كتابه «نظام الطبيعة» : بهذا أود أن أفصل بين الحيتان والأسماك» . ولكني أعلم أنه رغم هذا التصريح الجليّ الذي أورده لينايوس ظلّ القرش والشبوط والرنجة والنوع الذي يسمى من الرنجة «أنثى الآل» حتى عام ١٨٥٠ كلها تشارك اللوياثان نفس البحار .

ويورد لينايوس الأسباب التي جعلته يكاد ينكر على الحيتان أن تكون حيوانات مائية على النحو التالي : «إن قلبها حار ذو مخدعين ولها رئتان وجفنان يتحركان وأذنان مجوفتان» penem intrantem feminam mammis lactantem - ex lege naturae jure meritoque . وقد أطلعت على هذا كله صديقيّ سيمون ماسي وشارلي كوفن من نانتوكت وكلاهما كان رفيق المائدة في احدى السفرات ، واتفق رأياهما على أن هذه الأسباب

المقدّمة غير كافية ، بل أضاف شارلي يقول بلهجة جحودية إنكارية إنها أسباب من قبيل النصب والاحتيال .

وليعلم من شاء أنني نحيت الجدل جانباً وأخذت الرأي القديم القائل بأن الحوت من السمك واستنصرت يونان المقدس ليسندني في الرأي . وما دمت قد سويت هذه المسألة الجوهرية فإن النقطة التالية هي : على حسب أي اعتبار داخلي يختلف الحوت عن سائر السمك ؟ لقد قدم لينايوس وجوه الخلاف قبل قليل وهذه هي في ايجاز : الرئتان والدم الحار بينا سائر السمك ذو دم بارد وليس له رئتان .

وثانيتهما : كيف نعرّف الحوت بمظاهره الخارجية الواضحة حتى نسمه بسيماه أينما عرض لنا في المستقبل ؟ أوجز فأقول : الحوت سمكة نفاثة ذات ذنب أفقي . هذا هو الحوت ؛ فإن كان التعريف موجزاً فاعلم أنه نتاج تأمل طويل . قد تقول : إن الفظ حيوان نفاث ، هذا صحيح ولكنه ليس سمكة لأنه برمائي . واذا أخذت الشق الأول من التعريف مع الثاني ، جاء مقنعاً مرضياً . ويكاد كل امرئ أن يكون قد لاحظ أن جميع السمك الذي يعرفه أهل اليابسة ليس له ذنب منبسط . وإنما ذنبه عمودي أو منشعب . أما في السمك النفاث فإن الذنب قد يتخذ هذا الشكل نفسه إلا أنه يظل أفقي الاتجاه دائماً وأبداً .

ولست أقصد من هذا التعريف الذي أوردته للحوت أن أنفي من حظيرة الحيتان أي مخلوق بحري وضعه في تلك الحظيرة أهل نانتوكت العارفون الخبيرون ، ولا أريد أن أزج فيها بأية سمكة يعدها هؤلاء الثقات غريبة أجنبية على الحيتان* لذلك لا بد أن تضاف في هذا الجدول من علم الحيتان جميع الأسماك الصغيرة النفاثة ذات الذنب الأفقي ، وهذه هي الأقسام الكبرى في قبيل الحيتان :

أولاً : أقسم الحيتان ـ حسب الجرم ـ في ثلاثة كتب أولية (يتفرع كل كتاب منها الى فصول) وستشمل هذه الكتب جميع الأصناف من كبير وصغير . والكتب هي : ١- الحوت من القطع الكبير ٢- الحوت من القطع الثمن (١/٨) ٣- الحوت من قطع جزء من اثني عشر (١/١٢) واذكر من نماذج النوع الأول ، «حوت العنبر» ، ومن النوع الثاني : «الغرمبوز» من النوع الثالث «البربوز أو الدّوحر» .

---

* أنا أعرف أنه حتى وقتنا الحاضر لا يزال كثير من الطبيعيين يعدون السمكة التي تسمى Lamatins والأخرى التي تسمى «الاطومات» Dugongs (وتسميها عائلة كوفن في نانتوكت باسم السمكة الخنزير Pig- fish والسمكة الخنزيرة Sow -fish) ، من جملة الحيتان . ولكن بما أن هذين النوعين مجموعة أنافية مهينة تتربص في معظم الأحوال عند مصبات الأنهار وتتغذى بالتبن المبلول ، وبما أنهما لا ينفثان ، لذلك أنكر عليهما النسبة الى الحيتان وقد قدمت لهما جوازي سفرهما كي يغادرا مملكة علم الحيتان .

الكتاب الأول : يحتوي ـ فيما يحتويه ـ الفصول الاتية : ١- حوت العنبر ٢- الحوت الأثين ٣- الحوت المزعنف أو المناري ٤- الحوت المسنم ٥- الهركول ٦- الحوت الأزرق .

الكتاب الأول (القطع الكبير) ـ الفصل الأول : حوت العنبر : يعرفه الانجليز القدماء ـ في ابهام ـ باسم «إوال ترومبا» Trumpa Whale و«إوال فيستر» Physcter Whale و«الحوت الذي رأسه كالسندان» Anvil Headed Whale ويعرفه الفرنسيون باسم «القشلوط» Cachalot والألمان باسم Pottsfich ويسميه العلماء «مقروقفال» Macro-cephalus . وهو دون ريب أضخم من يقطن هذه الكرة الأرضية ، وأشد الحيتان التي يواجهها الانسان إخافة ، وأجلّها منظراً ، وأكثرها في التجارة قيمة اذ هو الحيوان الوحيد الذي تؤخذ منه المادة القيمة التي يسمونها العنبر Spermaceti . وسأفيض القول في خصائص هذا الزيت في مواضع أخرى كثيرة . أما في هذا المقام فأكثر ما يهمني هو اسمه . فاذا اعتبرت اسم الزيت (أي Spermaceti) من زاوية فقه اللغة وجدته سخيفاً . منذ بضعة قرون ، حين كان حوت العنبر في صورته المتعينة مجهولاً أو يكاد ، وعندما كان زيته يؤخذ عرضاً من السمك الذي يطرح على الشواطئ ، في تلك الأيام كان يظن أن زيت العنبر يؤخذ من حيوان صنو للحوت المعروف في انجلترا باسم الحوت الأثين أو حوت جرينلاند (القاطوس) وكان الناس أيضاً يظنون أن هذا الزيت المسمى Spermaceti إنما هو منيّ الأثين (القاطوس) لأن كلمة Sperm تفيد هذا ، و ceti تعني «قاطوس» . وفي تلك الأيام كان زيت القاطوس هذا بالغ الندرة لا يستعمل في الاضاءة وانما يقتصر استعماله على اتخاذه مرهماً ودواءً . ولا يحصل عليه المرء إلا من الصيادلة مثلما تشتري اليوم أوقية من الراوند . وعلى مرّ الزمن ـ فيما أرى ـ عرفت حقيقة هذا الزيت ولكن ظل اسمه القديم مع ذلك عالقاً لدى البائعين وذلك ـ دون ريب ـ ليوهموا أنه نادر فتزيد بذلك قيمته ، ثم نقلت التسمية الى الحوت الذي يستخرج منه ذلك الزيت .

الكتاب الأول (القطع الكبير) ـ الفصل الثاني : الحوت الأثين : يعد هذا الحوت من إحدى النواحي أكثر أنواع اللوياثان التي يجلّها الانسان ويقدرها لأنه أول نوع كان يصيده الانسان بانتظام . ومنه تؤخذ المادة التي تسمى عظم الحوت أو البلين ، والزيت الذي يعرف بخاصة باسم «زيت الحوت» وهو مادة ضئيلة القيمة في التجارة . ويطلق عليه الصيادون جميع الألقاب الآتية دون تمييز : الحوت ـ حوت جرينلاند ـ الحوت الأدهم «حوت الجليد» ـ الحوت العظيم ـ الحوت الصحيح ـ الحوت الأثين . وهناك قسط من الغموض فيما يتصل بهوية الأنواع التي تطلق عليها هذه الأسماء . فما هو هذا الحوت الذي أضعه ثانياً في الكتاب

الأول من هذا التصنيف ؟ هو الذي يسميه علماء التاريخ الطبيعي من الانجليز باسم «السبلحوت العظيم» Great Mysticetus ويسميه حواتو الانجليز : حوت جرينلاند ، وحواتو الفرنسيين باسم البلينة العاديّ ، والسويديون باسم بال جروفلاند Growlands Wal-fish . وهو الحوت الذي كان يصيده الانجليز والهولنديون على مدى القرنين الماضيين في البحار القطبية الشمالية . وهو الذي طالما طارده الصيادون الأمريكيون في المحيط الهندي وعلى ضفاف البرازيل وعلى الشاطئ الشمالي الغربي وجهات أخرى مختلفة من العالم سمّوها مناطق صيد الحوت الأثين .

ويزعم بعضهم أنه يجد فرقاً بين حوت جرينلاند لدى الانجليز والحوت الأثين لدى الامريكيين ، ولكنهما يتفقان اتفاقاً دقيقاً في الملامح الكبرى ، ولم يقدم أحد حقيقة واحدة حاسمة تقيم بينهما فرقاً أساسياً . إلا أن بعض دوائر التاريخ الطبيعي تعمد الى التعقيد المنفّر لكثرة حرصها على التفريع الكثير القائم على فروق واهية . وفي موضع آخر سأتناول الحوت الأثين باسهاب عند إفاضة البيان عن حوت العنبر .

الكتاب الأول (القطع الكبير) ـ الفصل الثالث : **الحوت المزعنف أو المناري** : أضع تحت هذا العنوان وحشاً متعدد الأسماء ؛ فهو المزعنف Finback وذو النفاثة الطويلة _ Tall Spout ؛ وجون الطويل Long - John يكاد الناس أن يكونوا رأوه في كل بحر ، وهو الحوت الذي يستبين المسافرون نفاثته البعيدة وهم يعبرون الأطلسي في المراكب النيويوركية . وهو يشبه الحوت الأثين في طوله وبلينه ، إلا أنه أقل منه قطراً وأخف لوناً ، يقترب لونه من الزيتون ؛ ومشفراه الضخمان يمثلان منظراً يشبه الحبل اذ يتكونان من طيات متشابكة منحرفة ذات تجاعيد ضخمة . أما المظهر الكبير الذي يميزه وبه سمّي فهو زعنفته وهي في الغالب شيء واضح بارز ، طولها ثلاثة أقدام أو أربعة تمتد رأسياً من القسم الخلفي من الظهر وذات شكل زاويّ ولها طرف حديد جداً . ولو أن الحوت اختفى فلم يظهر منه أدنى شيء لظلت هذه الزعنفة المستقلة أحياناً بارزة فوق السطح بوضوح ، وحين يعتدل البحر الى السكون وتنداح فيه التغضنات الدائرية بعض انדياح وتقف هذه الزعنفة التي تشبه عقرب المزولة منتصبة وترسل ظلالاً على السطح المجعد فإن المرء قد يحسب الدائرة المائية المحيطة بها شبيهة بالمزولة بعض الشيء ، لها ميل المزولة ، وخطوطُ الساعات المتموجة محفورة عليها ، وغالباً ما يذهب الظل على هذه المزولة[1] الى الخلف ، والحوت المزعنف

(١) في الأصل Ahaz _ dial وذلك نظراً الى ما ورد في أشعيا ٣٨ ،٨ «ها أنا ذا أرجع ظل الدرجات الذي نزل في درجات آحاز بالشمس عشر درجات الى الوراء...» .

« غير مدنيّ » أي لا يحب الانتماء الى القطيع ، فهو يبدو كأنه يكره الحيتان مثلما أن بعض الناس يكرهون الناس . خجول ، متفرد دائماً ، على غير توقع يصعد الى السطح في أنأى البحار وأشدها ركوداً . ونفاثته المستقيمة العالية ترتفع كأنها حربة طويلة تبغض البشر ملقاة على سهل قاحل ، وهب قوة عجيبة وسرعة في السباحة بحيث يتحدى أية مطاردة يقوم بها الانسان . وكأن هذا اللوياثان هو قابيل الطريد العنيد بين أبناء جنسه ، وقد جعل سمته ذلك الميل القائم فوق ظهره . وبما أن بلينه في فمه فإن البعض أحياناً يدرجه هو والحوت الأثين في فصيلة نظرية يسمونها « الحيتان البلينية » ومنها ، فيما يبدو ، أنواع عديدة أكثرها غير معروف ؛ ويسمي الصيادون بعض أنواعها بالأسماء التاليه : الحيتان ذات الأنوف المستعرضة ـ الحيتان المنسّرة ذوات المناقير ـ الحيتان المحرّبة الرؤوس ـ الحيتان المحدّبة ـ الحيتان ذوات الفك الأسفل الضخم ـ الحيتان ذوات المخطم .

من الهام أن أذكر فيما يتصل بهذه التسميات التي تطلق على الحيتان البلينية أنها قد تسهل الاشارة الى بعض أنواع الحيتان ولكن لا طائل في محاولة انشاء تصنيف واضح للوياثان مؤسس على بلينه أو حدبته أو زعنفته أو أسنانه ، هذا على الرغم من أن هذه الأعضاء أو الملامح ـ اذا اتخذت أساساً في بناء كيان منظم من علم الحيتان ـ بدت أصلح من المميزات الجسدية الأخرى التي تبرز مختلفة في مختلف أنواع الحيتان . أنّى ذلك ؟ هذه الملامح من بلين وحدبة وزعنفة في الظهر وأسنان : موزعة دون تمييز على جميع أنواع الحيتان بقطع النظر عما تكون طبيعة بنائها من حيث الخصائص الجوهرية الأخرى ؛ فالحدبة المسنمة موجودة في حوت العنبر والحوت المسنم الأحدب على السواء ، ثم تنقطع وجوه الشبه بينهما . وهذا الحوت الأحدب المسنم وحوت جرينلاند كلاهما ذو بلين ، ثم لا شبه بينهما بعد ذلك . وهكذا قلْ في الأعضاء والملامح الأخرى التي تقدم ذكرها . فإذا أخذت أنواعاً مختلفة من الحيتان وجدت تلك الملامح تجتمع أو تفترق على غير نظام ؛ واذا أخذت أحد الأنواع على حدة وجدت أحد الملامح فيه يشذّ عما هو عند غيره . وهذا كله يستعصي على كلّ تصنيف عام تتخذ فيه تلك الملامح أساساً . تلك صخرة تحطمت عندها جهود كل عالم من علماء التاريخ الطبيعي .

وقد يظن البعض أننا اذا اعتبرنا الأجزاء الداخلية من الحوت ، أي الجانب التشريحي فيه ، فهناك على الأقل نستطيع أن نعثر على التصنيف الصحيح . وأقول : كلا . خذ الجانب التشريحي من حوت جرينلاند ـ مثلاً ـ أهناك شيء فيه أهم من بلينه ؟ وقد رأينا أنه من المستحيل أن نصنف حوت جرينلاند على أساس بلينه تصنيفاً صحيحاً . واذا اعتبرت أحشاء الأنواع المختلفة

من الحيتان لم تجد مميزات تبلغ في نسبتها واحداً الى خمسين من المميزات الخارجية التي عددناها من قبل . ماذا يتبقى اذن ؟ لا شيء سوى أن نأخذ جسم الحوت ، بحجمه المستفيض كله ، ونتخذه أساساً في التصنيف دون تردد . وهذه الطريقة الببليوغرافية التي آثرناها هنا وهي الوحيدة التي يكتب لها النجاح لأنها الطريقة العملية دون غيرها . فلنمضِ على منهجنا :

الكتاب الأول (القطع الكبير) ـ الفصل الرابع : **الحوت المسنم** : كثيراً ما يرى هذا الحوت على الساحل الشمالي من أمريكا ، وكثيراً ما اصطيد هنالك وجرّ الى الميناء . يحمل رزمة ثقيلة كأنه تاجر متجول ، أو قد تسميه الحوت ـ الفيل ، أو الحوت ـ القلعة . على أي حال لا ينفع اسمه الشائع في تمييزه لأن حوت العنبر أيضاً ذو حدبة مسنمة وإن كانت أصغر من حدبة هذا المسنَّم . وزيته غير ذي قيمة وله بلّين ، وهو أشد الحيتان ميلاً الى اللعب والمرح ، فيكثر حوله الزبد المتطاير والماء الأبيض مما لا يماثله فيه حوت آخر .

الكتاب الأول (القطع الكبير) ـ الفصل الخامس : **الهركول** : لا يعرف عن هذا الحوت عدا اسمه ، إلا الشيء القليل . رأيته على مسافة من رأس هورن ؛ محبٌ للعزلة ، يهرب من الصيادين والفلاسفة . غير جبان إلا أنه لم يبدِ حتى الآن شيئاً من جسده سوى ظهره الذي ينتصب في شكل ربوة طويلة حادة . ليذهب في حال سبيله فلا أنا أعرف عنه شيئاً ذا بال ولا غيري .

الكتاب الأول (القطع الكبير) ـ الفصل السادس : **الحوت الأزرق** : هذا ناسك آخر يحب العزلة ، ذو معدة ذات لون كبريتي ، انتحله دون ريب من الاحتكاك بالصخور القارية في بعض غوصاته المتعمقة . قلما يبرز للعيان . على الأقل أنا لم أره إلا في أقصى البحار الجنوبية ، وهو دائماً بعيد ناء بحيث لا يمكن المرء من استثبات ملامحه . لا أحد يصيده إذ يهرب مبعداً في الوثبة الواحدة بقدار طول حبل كامل ؛ تُحكى عنه أعاجيب ؛ وداعاً أيها الحوت الأزرق ، لا أستطيع أن أزيد شيئاً أعلم أنه صحيح عنك ، ولا يستطيع ذلك أكبر المعمرين في نانتوكت .

بهذا ينتهي الكتاب الأول ويبدأ الكتاب الثاني . قطع الثمن : يضم هذا حيتاناً متوسطة الجرم قد نعدّ منها في هذا المقام ١- الغرمبوز ٢- الحوت الأدهم ٣- النرول أو اليأمور ٤- الدرّاس ٥- السفّاح .

الكتاب الثاني (قطع الثمن)* الفصل الأول ـ الغرمبوز : أوحى تنفسه الرنان أو بالأحرى

* لمَ لم اسمِّ هذا الكتاب الثاني «قطع الربع» ـ هو الذي يتلو القطع الكبير حجماً ؟ لأن الحيتان الواقعة في هذه الفئة ـ وإن كانت أصغر حجوماً من الفئة الأولى ـ لا تزال تحمل أوجه شبه كبيرة بها . وقطع الربع عند مجلد الكتب ذو حجم ضئيل لا يحتفظ بشكل القطع الأكبر بينما قطع الثمن يحتفظ بحجم القطع الأكبر .

لهائه بمثلٍ يردده أهل البر ، وهو قاطن مشهور من قطان المحيطات ، إلا أنه لا يصنف عادة بين الحيتان لكن حين وجده معظم المؤرخين الطبيعيين يحوز جميع الملامح العظيمة التي تميز اللوياثان عدّوه منها . حجمه معتدل من قطع الثمن ، يتراوح طوله بين ١٥-٢٥ قدماً وله محيط مشابه عند الخصر . يتنقل قطعاناً ولا يُصاد بانتظام . وإن كان زيته كثيراً وصالحاً للاضاءة ، ويرى بعض الصيادين أن ظهوره إرهاص بأن حوت العنبر العظيم على الأثر .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) : الفصل الثاني ـ **الحوت الأدهم** : الأسماء التي أطلقها على جميع هذه الحيتان هي الأسماء التي ألفها الصيادون وشاعت بينهم وهي أحسن الأسماء بعامة . وحيث يتفق أن يكون الاسم مبهماً أو غير دقيق التعبير فإني سأقرر أنه كذلك وأقترحُ اسماً آخر . وهذا هو ما أفعله بصدد الحوت الأدهم لأن الدهمة أو السواد لون غالب على جميع الحيتان ، ولذلك سمّهِ الحوت ـ الضبع إن شئت . هو مشهور بالشره وبما أن الزاويتين الداخليتين من مشفريه منحنيتان الى أعلى فإنه يحمل على وجهه كلوحاً شيطانياً خبيثاً كأنه مفوستفيلس . معدل طوله يتراوح بين ١٦-١٨ قدماً ويعيش في مختلف أنواع المناخ . وله طريقة خاصة في إبراز زعنفته الظهرية الحجناء وهي تبدو شبيهة بالأنف الروماني . حين يكفَ أصحاب السفن عن استخدام صيادي الحيتان بما يدر عليهم ربحاً يتجه هؤلاء أحياناً الى صيد الحوت ـ الضبع حتى يكفلوا المؤونة من الزيت الرخيص للاستهلاك في الشؤون المنزلية ـ مثلما أن بعض القومة المقتصدين في المنازل والفنادق يستعملون الشحم النتن في الاضاءة حين ينفردون ويقل الروّاد بدلاً من الشمع الشذيّ . وطبقة الشحم في هذا الحوت رقيقة إلا أن الواحد منه يقدم أحياناً ما يربو على ثلاثين جالوناً من الزيت .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) الفصل الثالث ـ **النرول** : معنى الكلمة «الأنافي» ، وهذا مثل آخر على التسمية الغريبة التي ألصقت بهذا النوع ، ولعله إنما سمّي كذلك خطأ حين ظن من رأوا قرنه أنه أنف أحجن ؛ يبلغ طوله نحواً من ١٦ قدماً بينا يبلغ معدل قرنه خمسة أقدام ، وبعض القرون يتجاوز عشرة أقدام بل يبلغ خمسة عشر . وما هذا القرن اذا توخينا الدقة إلا نابٌ ممتد نابت من الفك في اتجاه ينزل قليلاً عن الاتجاه الأفقي ، ولا يوجد إلا على الجانب الأيسر من فكه الأعلى ، وله من أجل ذلك تأثير سيء إذ يمنح صاحبه شبهاً بمنظر الرجل الأعسر . ومن العسير أن نعين الغاية التي يحققها هذا القرن العاجي أو الحربة ويبدو أنه لا يستعمله كما تستعمل السمكة المسيفة والسمكة ذات المنقار ما لديهما من سلاح ، وإن أخبرني بعض البحارة أن النرول يستعمل قرنه مجرفة في قلب قاع البحر بحثاً عن غذاء . وقال شارلي كوفن أنه يستعمله مخراقاً للجليد ، ذلك أن النرول إذ يرتفع الى

السطح في البحر القطبي يجده مغلقاً بالجليد فيطعن بقرنه ويشق خلاله طريقاً ؛ ولكنك لا تستطيع أن تبرهن على صدق هذه الاستنتاجات . أما أنا فأرى أنه على أي وجه استعمل النَّرول قرنه الأعسر فإنه يفيده كثيراً لو اتخذه أداة يمسك بها الكراسات حين يقرأ . وسمعتهم يسمون النَّرول : ذا الناب الأقرن ووحيد القرن ؛ وهو مثَل غريب حقاً على وحدانية القرن التي تكاد توجد في كل مملكة من ممالك الطبيعة الحية . وقد استنتجت من أقوال بعض المؤلفين الرهبان القدامى أن قرن هذا الأقرن البحري كان يعد في الأيام الغابرة الترياق العظيم ضد السم ، ولذلك كانت مستحضراته تدر أرباحاً هائلة . وكان يقطّر الى الملح الطيّار لتسعف به النسوة اللواتي يصبن بالإغماء على النحو الذي يصنع به النشادر من قرون الغزال الذكر . وقد كان القرن يعد فيما مضى تحفة عجيبة ؛ أخبرني بلاك لتر عن عودة السير مارتن فوربشر حين رجع من تلك الرحلة ولوَّحتْ له الملكة بس بيدها المزينة بالجواهر من نافذة قصر جرينتش[1] ، وسفينته الجريئة تنحدر مع نهر التيمس فقال بلاك لتر : «عندما عاد السير مارتن من تلك الرحلة قدَّم لجلالتها ، وهو راكع ، قرناً ضخماً طويلاً من قرون النَّرول ظلّ معلقاً مدة طويلة من بعد في قلعة وندسور» . ويؤكد مؤلف إرلندي أن آرل ليستر كذلك قدم الى جلالتها وهو يحني ركبتيه قرناً آخر لوحيد قرن من حيوانات البّر .

وللنَّرول طلعة بهية يشبه بها النمر الأرقط فلونه العام في بياض اللبن ولكنه منقط ببقع سود مستديرة ومستطيلة . وزيته رفيع النوع صافٍ جميل إلا أن ما يوجد منه قليل وقلّما يطارده الصيادون ويعيش في الأكثر في البحار حول القطب .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) الفصل الرابع ـ **الحوت السفّاح** : ما يعرفه أبناء نانتوكت عن هذا الحوت قليل فأما العالم الطبيعي فلا يعرف عنه شيئاً . وأستطيع أن أقول بناء على ما رأيته منه عن بعد أنه في حجم الغرمبوز . متوحش شديد الوحشية ، يشبه أن يكون نوعاً من حوت فيجي . أحياناً يعلق بمشفر أحد الحيتان الكبيرة التي وصفت في الكتاب الأول ويظلّ متشبثاً به كأنه العلقة حتى يتردى الحيوان القوي الضخم من الانهاك ميتاً . والصيادون لا يطاردون السفاح أبداً ولم أسمع شيئاً عن نوع زيته . قد أقف متردداً في إطلاق اسم «السفّاح» عليه لأنه اسم مبهم ذلك أننا جميعاً سفّاحون قتلة ، براً وبحراً ، سواء من كان منّا من صف بونابارت أو من فئة أسماك القرش .

---

(١) يعني الملكة اليزابيث ، وقد لوحت له بيدها عندما سافر في رحلته الأولى ، ثم قدم لها قرن النّرول عند عودته من الرحلة الثانية .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) الفصل الخامس ـ الدرّاس[1] : هذا السيد مشهور بذنبه اذ يستعمله هراوة يصك بها أعداءه . يمتطي ظهر أحد الحيتان الكبرى (من النوع الأول) وإذ يذهب سابحاً يشق دربه بِجَلْدِهِ ـ طريقة يتبعها مديرو المدارس في هذه الدنيا . ما يعرف عنه أقل مما يعرف عن السفّاح . كلاهما خارجيّ حتى في البحر الذي لا تحكمه شريعة .

بذلك ينتهي الكتاب الثاني (قطع الثمن) ويبدأ الكتاب الثالث (قطع الجزء من اثني عشر ١/١٢) .

قطع الجزء ١/١٢ : في هذه الفئة تقع الحيتان الصغيرة وهي جميعاً من أنواع البربوز أو الدوحر :

١ـ بربوز مرحى ٢ـ البربوز الجرين ٣ـ البربوز الطحيني .

الذين لم يتفق لهم بخاصة أن يدرسوا هذا الموضوع قد يستغربون أن تصنف أسماك لا تتجاوز الأقدام الأربعة أو الخمسة في عداد الحيتان ـ وكلمة الحوت في الاستعمال الشائع تفيد الضخامة . ولكن هذا النوع الثالث حيتان حقاً اذا احتكمنا الى التعريف الذي وضعته للحوت أعني : سمكة تنفث ولها ذنب أفقي .

الكتاب الثالث (قطع ١/١٢) الفصل الأول ـ بربوز مرحى : هذا هو النوع الشائع من البربوز ويكاد أن يكون موجوداً في جميع أنحاءالكرة الأرضية ، وأنا الذي منحته هذا الاسم ، إذ هنالك غير نوع من البربوز ولا بد من استحداث شيء للتمييز بينها ؛ وإنما أسميه كذلك لأنه يسبح دائماً في رعالٍ جذلة تظل تتوثب في البحر الواسع نحو الفضاء كأنها قبعات الجماهير في الرابع من تموز (يوليه) [عيد الحرية] . والبحّار يتطلع الى منظرها مستمتعاً مسروراً ، وهي مليئة بالحيوية والمرح وتتجه دائماً من الأمواج التي يراوحها النسيم نحو مهبّ الريح ، فهي عصبة الفتيان التي تعيش دائماً مستقبلة الريح . ويعدها البحارة أمارة فأل حسن ، إنك لا تملك إلا أن تقول مرحى ثلاثاً وأنت تنظر الى هذه الأسماك الطروب فإذا لم تفعل فحالتك يرثى لها ، كان الله في عونك ، إذ أن روح المرح ليست من نصيبك . وبربوز مرحى البدين الذي حسنت تغذيته يعطي جالوناً من الزيت الطيب غير أن السائل الرقيق الناعم الذي يستخرج من فكيه بالغ القيمة إذ يبعث في طلبه الجواهريون والساعاتيون . ويضعه البحارة على حجر المسنّ ؛ ولعلك تعلم أن لحم البربوز طيب للأكل وربما لم يخطر

(١) كان حقه أن يجعله «الفصل الرابع» حسب الترتيب الذي أورده من قبل .

لك أن البربوز ينفث ؛ نعم إن نفثته صغيرة حتى أنها لا تدرك . ولكن إن صحّ لك أن ترى البربوز مرة أخرى فارقبه وسوف ترى أنه حوت العنبر في صورة مصغرة .

الكتاب الثالث (القطع ١٢/١) الفصل الثاني ـ بربوز الجرين : قرصان متوحش ممعن في وحشيته ، لا يوجد ـ على ما أظن ـ إلا في المحيط الهادي . أكبر من بربوز مرحى إلا أنه يشبهه في البنية العامة ؛ استثره تجده تحوّل قرشاً . قطبتُ حاجبي لمرآه عدة مرات ولكني لم أره يصاد أبداً .

الكتاب الثالث (قطع ١٢/١) الفصل الثالث ـ البربوز الطحيني : أكبر أنواع البربوز ولا يوجد إلا في المحيط الهادي ، حسبما بلغ إليه العلم . والاسم الانجليزي الوحيد الذي أطلقه عليه البحارة حتى اليوم هو «البربوز الأثين» لأجل أنه يوجد مصاقباً للحيتان الأثينية . يختلف بعض اختلاف في شكله عن بربوز مرحى إذ هو ذو محيط أقل استدارة ومرحاً . والحق أن له هيئة سيد نظيف أنيق ، ليس له زعانف على ظهره (ومعظم أنواع البربوز ذات زعانف) وله ذنب جميل وعينان هنديتان حالمتان عسليتا اللون ، إلا أن لون الطحين على فمه يفسد كل هذا الجمال . لون ظهره أسود حالك حتى زعانفه الجانبية ، إلا أن جدّةً فارقة كأنها العلامة في هيكل السفينة تطوقه من أعلى الى أسفل وتسمّى «الخصراللامع» وتفصل بين لونين : سواد الظهر وبياض البطن . ويشمل البياض جانباً من رأسه وسائر فمه فيجعله يبدو وكأنما فرَّ بعد أن قام بزورة فاحشة الى كيس الطحين . منظر بالغ في الدناءة والطحينية! أما زيته فيشبه زيت سائر أنواع البربوز .

* * *

بعد القطع ١٢/١ يتوقف التصنيف ، إذ أن البربوز أصغر صنف من الحيتان . وفي أعلى القائمة تجد الحيتان الكبرى المرموقة إلا أن هناك خليطاً من حيتان شرودة أو منقرضة أو شبه أسطورية أعرفها أنا الحوّات الأمريكي سماعاً لا عياناً . وسأعدها مستعملاً الأسماء التي وضعها البحارة وقد تكون هذه القائمة مفيدة لباحثي المستقبل فيكملون ما بدأت به وإذا اصطيد أحد الحيتان التالية وعوين حاله أمكن ادراجه في التصنيف الذي رسمته آنفاً ، وفي واحد من الأبواب الثلاثة ، حسب حجمه :

الحوت الذي يشبه عنق الزجاجة ـ الحوت الينك ـ الحوت ذو الرأس الذي يشبه البودنج ـ حوت رأس هورن ـ الحوت القائد ـ الحوت المدفع ـ الحوت القضيف ـ الحوت المغلف بالنحاس ـ الحوت الفيل ـ الحوت الذي يشبه جبل الجليد ـ الحوت الكووغ ـ الحوت الأزرق...

الخ . ويقول الثقات من ايسلنديين وهولنديين وانجليز قدماء أنه يمكن اقتباس قوائم أخرى من حيتان لا تعرف هويتها يطلق عليها كل نوع من الأسماء الشاذة . ولكني لا أوردها لأنها انقرضت وأنا أتصوّر أنها كانت كما تدل عليه أسماؤها حافلة بالحوتية إلا أنها أصبحت أسماء دون مدلولات .

وأخيراً : قلت في البداية أن هذا التصنيف لن يجيء في هذا المقام مستكملاً ولعلك ترى أنني التزمت بما قلت . غير أني أخلي هذا التصنيف الحيتاني غير مستكمل مثلما تركت كاتدرائية كولون ، والآلة الرافعة ماتزال هنالك على قمة الجرسيه التي لم تتم[1] . ذلك أن المباني الصغيرة قد يتممها المعماريون الذين ابتدأوها ، أما المباني العظيمة ، المباني الحق ، فإن حجر الزاوية فيها يترك للخلف . وقاني الله سبحانه إتمام أي شيء وما هذا الكتاب كله إلا مسوّدة ، لا بل هو مسوّدة المسوّدة . واهاً أين الوقت والقدرة والمال والجلد!

---

(١) زار ملفل تلك الكاتدرائية في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٩ .

٣٣

مقطع الشحم

يصلح هذا الموضع لتقييد خاصية من الخصائص المألوفة على ظهر السفينة تتصل بضباط مهنة التحويت وتنشأ عن وجود فئة ضباط من الزّراقين ، هي فئة لا توجد طبعاً في أي قطعة بحرية أخرى سوى أسطول الحواتة .

مما يشهد بالأهمية الكبرى المنوطة بحرفة الزرّاق أن الهولنديين في أعمال الصيد منذ قرنين أو أكثر لم يكونوا يعهدون بقيادة سفينة الحواتة الى الشخص الذي نسميه اليوم « القبطان » وإنما كانت القيادة شركة بينه وبين آخر يدعونه سبكزندر Specksynder وهي لفظة تعني حرفياً « مقطع الشحم » وقد درج استعمالها حتى أصبحت تعني رأس الزراقين . في تلك الأيام كانت سلطة القبطان قاصرة على الابحار وعلى الادارة العامة في السفينة ، أما عملية التحويت وكل ما يتصل بها فكان مُقطَع الشحم أو رأس الزرّاقين هو السيد الأول فيها دون منازع . ومازال وظيفة رأس الزراقين قائمة في السماكة الانجليزية بجزيرة جرينلاند تحت اسم محرّف هو سبكسيونير ، إلا أن العزة القديمة التي كانت تحف بصاحبها تضاءلت باهتة . فهو اليوم لا يعدو أن يكون زرّاقاً مقدّماً ، وهو بذلك واحد من أدنى الملازمين لدى القبطان . ولكن النجاح في سفرة التحويت يعتمد الى حد كبير على السلوك الطيب لدى الزرّاقين ، ثم أن الزراق في الحواتة الأمريكية ليس فحسب ضابطاً هاماً في القارب وإنما هو في بعض الظروف (كنوبة الحراسة الليلية أو في ميدان التحويت) صاحب الأمر على ظهر السفينة أيضاً ؛ لهذا كله تتطلب السنّة السياسية الكبرى في البحر أن يعيش ـ اسمياً ـ منفصلاً عن الرجال الذين يقفون أمام الصاري وأن يكون له من التمييز ما يجعله رئيسهم على نحوٍ ما ، وإن كانوا هم يعتبرونه في العادة صنواً لهم في المنزلة الاجتماعية .

في البحر يفرقون تفرقة فاصلة بين الضابط والرجل العادي ، فالأول يسكن في المؤخرة

والثاني في المقدمة ؛ لذلك تجد الضباط في سفن التحويت والسفن التجارية على السواء يتخذون مساكنهم مع القبطان ، وكذلك في معظم الحواتات الأمريكية يسكن الزرّاقون في القسم الخلفي من السفينة ، ومعنى هذا أنهم يتناولون وجباتهم في قمرة القبطان ، وينامون في موضع يفضي الى القمرة بطريق غير مباشر .

وسفرة الحوّاتة في البحار الجنوبية أطول سفر قام به إنسان أو يقوم به أبداً . فطول السفرة وما يكتنفها من أخطار والشعور بالفائدة المشتركة الذي يسود الجماعة فكل منهم رفيعاً كان أو وضيعاً يعتمد في مكاسبه على الحظ المشترك لا على أجور مقدرة وكل منهم مدعو للسهر والدأب والبسالة ، أقول : كل هذه الأمور قد تولد في بعض الأحوال تراخياً في النظام المحكم بأكثر مما يتصدى له النظام في السفن التجارية . ولكن إن يكن هؤلاء الحوّاتون أحياناً يعيشون معاً كالأسرة البابلية القديمة في بعض الأحوال الساذجة فإنهم مع ذلك كله قلما يتهاونون في شؤون الآداب التي لا بد أن يراعوها وراء الدقل الأعظم - في الأقل ، ولا يتجردون منها بحال . حقاً كثيرة هي السفن النانتوكتية التي ترى فيها الربان يتخطر وراء الدقل الأعظم في عظمة تيّاهة لا مثيل لها في أي أسطول حربي ، لا بل إنه يتطلب فروض الطاعة والولاء ممن حوله كأنما هو يلبس الأرجوان الامبراطوري لا الكتان المهلهل الذي يرتديه البحار .

وكان قبطان الباقوطة ذا المزاج المتقلب أقل نظرائه استسلاماً لدواعي هذه العجرفية الضحلة ؛ فلم يكن يتطلب من فروض الولاء سوى طاعة كاملة مبادرة ، ولم يكن يأمر أي رجل ليخلع نعليه قبل أن يخطو وراء الدقل الأعظم ، وإن يكن في بعض الظروف ، المتصلة بأحداث سأرويها باسهاب فيما بعد ، يخاطب رجاله بألفاظ لم يألفوها سواء أكان مصدرها التواضع أو التهيب أو غير ذلك ، أقول مع هذه الصفات في القبطان آخاب فإنه لم يكن يتنازل أبداً عن مظاهر السيادة والاداب المرعية في البحر .

لا بل ربما لن يفوتنا أن نلحظ في النهاية أنه كان أحياناً يتخذ من هذه المظاهر وتلك الآداب المرعية قناعاً لنفسه ، ويستغلها بين الحين والحين في تحقيق غايات أخرى خاصة به غير التي وضعت شرعاً من أجلها . فأصبح النزوع السلطاني الذي يخايل ذهنه متجسداً - عن طريق هذه المظاهر - في هينة دكتاتورية سادرة لا تقاوم ، ولولا تلك المظاهر لبقي ذلك النزوع خافياً غير مستعلن . إذ مهما يكن شأن التفوق الفكريّ لدى الانسان فإن ذلك التفوق يعجز عن أن ينتحل سيادة ميسّرة عملية على الاخرين دون عون من حيل وأساليب خارجية تكون في ذاتها دائماً متفاوتة الحظ من الخسة الدناءة . وهذا هو الذي أبداً يضع أمراء الله

العدول في امبراطوريته الكبرى بمنجاة عن كل ملابسات الدنيا من دسوت ومنصات ومعارك انتخابية وغيرها فيتخلون عن الأمجاد الكبرى التي تتمخض عنها تلك الحيل والأساليب الخسيسة ويتركونها لأولئك الرجال الذين ينالون الشهرة عن طريق وضاعتهم وتدنّيهم السحيق اذا قورنوا بتلك الصفوة القليلة من أولياء اللّه الزاهدين في أمجاد الحياة الراضين بالستر والخمول لا عن طريق سموٍ أكيد فيهم يرفعهم فوق مستوى الجماهير . وحين تقوم الخرافات السياسية المتطرفة باستغلال هذه الشؤون والحيل الصغيرة فإنها تمدها بقدرة كبرى ، حتى أنها في بعض ما يتصل بالملوك من شؤون لتمنح قدرة وصولةً للبلهاء الأغبياء ؛ ولكن إن كان التاج المستدير الذي يطوّق امبراطورية واسعة النواحي ، يستدير أيضاً محكماً حول ذهن امبراطوري كما هو الشأن في حال القيصر نقولا[1] عندئذٍ تركع قطعان الرعاع مهينة أمام تلك السيادة المركزية المحكمة الهائلة . إن كاتب المآسي إن شاء أن يصوّر الصمود الانساني العنيد الركين في نطاقه الكامل وخطرانه الفوريّ فإنه لجدير به أن لا ينسى أبداً لمحة كالتي ألمحت اليها ذات أهمية بالغة أحياناً لفنّه .

إلا أن قبطاني آخاب مايزال يتحرك أمامي في عبوسه وبذاذته النانتوكتية . وفي هذه النبذة التي لمست فيها جانب الأباطرة والملوك عليّ ألا أخفي أنني سأتعامل مع حوات مسكين عجوز مثله ، ولذلك فإنني محروم من كل زينة ملكية ظاهرة ، ومن كل ما يعلق بها من حواش وأسباب . آه يا آخاب! كل شيء عظيم فيك يجب أن يُتَخَطّف من الفضاء ، أو يغاص عليه في الماء ، أو يتجسد في الهواء اللا جسداني .

(١) نقولا الأول امبراطور روسيا (١٨٢٥-١٨٥٥) مثال موفق على الاستبداد المطلق حتى عرف باسم القيصر الحديدي .

٣٤

المائدة في القمرة

الوقت ظهراً ؛ وأمين المؤن ذلك الغلام العجّان ذو الوجه الشاحب ، كأنه رغيف خبز ، يبرز من ناروزة القمرة ، ويعلن لسيده ومخدومه أن قد حان وقت الغداء . وسيده جالس لواذاً من الريح يرقب الشمس ، ويحسب صامتاً موقع المكان على المصوّر الأملس الذي يشبه في شكله المدالية ، وهو يحتفظ به لتلك الغاية اليومية على الجزء الأعلى من رجله العاجية . واذا اعتبرت استغراق آخاب في ذهول تام عما أعلنه أمين المؤن ظننت أن ذلك الرجل المتقلب المزاج لم يسمع ما قاله خادمه . ولم يمسك تواً بأشرعة المظين ، ويطوّح بنفسه على ظهر السفينة ، يقول بصوت مستوٍ غير مبتهج «الغداء ، يا سيد استاربك» ثم يختفي داخل القمرة .

وحين يتلاشى آخر صدى لخطوات السلطان ، ويقتنع استاربك ، الأمير الأول ، أن سلطانه قد أخذ مجلسه على المائدة ، ينهض من سكينته ، ويدور بضع دورات على الألواح الخشبية ؛ وبعد أن يلقي نظرة رزينة على صندوق الابرة المغناطيسية يقول بصوت فيه مسحة من التهلل «الغداء ، يا سيد اسطب» ، ويهبط في الناروزة . ويتسكع الأمير الثاني فترة حول الحبال ، ثم يهز حلقة الرباط الرئيسي بخفة ليرى إن كان ذلك الحبل الهامّ على حال جيدة ؛ ويحمل على عاتقه العبء القديم فيقول في عجلة : «الغداء ، يا سيد فلاسك» ويقتفي آثار سلفيه .

غير أن الأمير الثالث وقد وجد نفسه وحده وراء الدقل الأعظم كأنما يحس بأن عبئاً انزاح عن صدره ، فهو يوزع الغمزات المتفهمة في جميع الوجهات ، وينفض مذرويه ، وينفخ في المزمار القرني نغمة حادة لا ضجيج لها ، فوق رأس «الباب العالي» ثم في خفة رشيقة بقبعته على قمة الصاري المظين متخذاً لها منه رفاً ، ويجر رجليه هابطاً ، ما دام على

الأقل بعين الرائي الواقف على ظهر السفينة ويعكس ما يجري في المواكب حين تتخذ موسيقى الختام في البداية . غير أن فلاسك الصغير ، قبل أن يخطو الى باب القمرة ينتحل وجهاً جديداً ، ويدخل حضرة الملك آخاب في صورة القن أو العبد بعد أن كان حراً مرحاً .

في تقاليد البحر أشياء غريبة تولدها شدة التصنع والتكلف ، وليس أقلها غرابة أن يكون بعض الضباط في الهواء الطلق فوق ظهر السفينة اذا هم استثيروا جرءاء يتحدون آمرهم ؛ حتى اذا جعلت هؤلاء الضباط أنفسهم في اللحظة التالية يهبطون الى مائدة الغداء ، في قمرة ذلك الآمر نفسه ، فما أسرع ما تنماث جرأتهم ، فإذا هم يلبسون وجوه المسالمين إن لم أقل هينة المسكنة والانخذال ، حين يجلس آمرهم على رأس الطاولة . هذا عجيب وأحياناً يكون مبعث هزء وسخرية . من أين جاء التباين في الحالين ؟ أهناك مشكلة ؟ لعلها ليست كذلك . حين يكون المرء بليشاصر ملك بابل ، وحين يكونه في الدماثة لا في الخيلاء ، فذلك يعني وجود مسحة من العظمة الدنيوية . ولكن من يتصدر مائدة غدائه بروح ملكية ذكية ومن حوله ضيوفه فإن سلطانه الذي لا يبلغ شأوه أحد ، ونطاق نفوذه حينئذٍ ، والملوكية التي يتبحبح فيها ، كل تلك الشؤون تفوق ما كان لدى بليشاصر من سلطان ونفوذ وملوكية لأن بليشاصر لم يكن يبلغ الذروة في هذه الشؤون . ومن أدب مأدبة لأصدقائه مرة واحدة استطاع أن يتذوق طعم «القيصرية» . ففي هذا العمل سحر القيصرية الاجتماعية الذي لا يستعصي على قوته أحد . وإن أضفت إلى هذا الاعتبار ما في وظيفة قبطان السفينة من سيادة مفروضة ، استطعت أن تستنتج السبب في هذا اللون المتفرد الذي ذكرته آنفاً من حياة البحر .

ترأس آخاب المائدة المرصعة بالعاج كأنه أسد بحري صامت مروّض جالس على شاطئ مرجاني أبيض ، يحفه أشباله المحرّبون المؤدبون في آن معاً . وكل ضابط فيهم ينتظر دوره في سكب نصيبه من الطعام . كانوا كالأطفال الصغار في حضرة آخاب ، ومع ذلك فلم يكن في آخاب نفسه أدنى نصيب من العجرفة المتبسطة . واحتشدت خواطرهم جميعاً في بؤرة واحدة حين اثبتوا عيونهم على سكين الرجل العجوز وهو يقتطع جانباً من الصحن الرئيسي أمامه ؛ ولست أظن أبداً أنهم دنسوا قداسة تلك اللحظة بهنة هينة من حديث حتى ولو دار حول موضوع كموضوع حال الطقس مما لا يكلف جهداً . كلا لعمري! حين بلغت قطعة اللحم الحبيسة بين سكين آخاب وشوكته مأمنها في صحن استاربك ، دفع اليه آخاب بصحنه فتلقى رأس الضباط نصيبه من اللحم كأنه يتلقى صدقة ، وقطعها بلطف ، حذراً من أن تخدش السكين وجه الصحن فتبعث حشرجة مزعجة ، ومضغها دون صوت ، وازدردها في غير قليل

من الحيطة والحذر . كانت هذه الوجبات في القمرة خشوعية تؤخذ في صمت رهيب كأنها مأدبة التتويج في فرنكفورت[1] حيث يتغدى الامبراطور الالماني مع المستشارين الامبراطوريين السبعة . ومع أن آخاب لم يكن يحرم الحديث على المائدة فإنه هو نفسه كان يظل أخرس صامتاً . أيّ ارتياح كان يحس به اسطب المختنق حين كان أحد الفيران يحدث ضجة مفاجئة في العنبر! أما فلاسك الصغير البائس فهو أصغر الأبناء وأدناهم منزلة في هذا الشمل العائلي المتعب الضجر . حصته هي الظنابيب التي كان يكسوها لحم البقر المملوح ، حصته قد تكون عظام الدجاجة بين الفخذ والرسغ . إذ لو أن فلاسك خيل اليه أن يجتزئ نصيبه من الطعام لنفسه لبدا له أن هذا أمر يناظر السرقة الفاحشة . لو تقدم فتناول نصيبه من الطعام على المائدة لما استطاع دون ريب أن يحتفظ برأسه في هذا العالم الشريف . ومع ذلك فربما استغرب من عرف أن آخاب لم يمنعه من ذلك أبداً . ولو تقدم فلاسك وشارك في أخذ ما يريد فلربما لم يلحظه آخاب أبداً . وأقلّ ما كان يدور في خاطر فلاسك هو أن يأخذ نصيبه من الزبدة . هل كان يظن أن أصحاب السفينة يحرمونه منها لأنها تعقد سحنته الصافية الواضحة ؟ أكان يحسب أنه ما دام في رحلة بحريّة طويلة في مياه ليس فيها أسواق فإن الزبدة نوع من العلاوة لا يستحقها لأنه ملازم وحسب ؟ أياً كان السبب فإن فلاسك ، وا أسفاه كان امرءاً لا زبدة له!

وثمة شيء آخر : كان فلاسك آخر شخص يهبط الى الغداء وأول شخص يغادر المائدة ؛ تأمل! من ثمَ كان فلاسك يلهوج غداءه لضيق الوقت . كان استاربك واسطب مقدّمين عليه ، وكانا يتمتعان أيضاً بحق التلكؤ في الخاتمة ، واذا اتفق أن كان اسطب الذي لا يعد أعلى من فلاسك إلا بدرجة واحدة ضعيف الشهوة للطعام وأبدى في الحال أعراضاً تدل على أنه ختم وجبته ، فمحتوم على فلاسك أن ينهض وعندئذٍ لا يكون قد زاد على ثلاث لقم في ذلك اليوم ؛ ذلك أن التقاليد المقدسة تحرم على اسطب أن يسبق فلاسك الى ظهر السفينة لذلك أقرّ فلاسك ذات مرة لخلصانه أنه منذ أن ارتقى الى رتبة ضابط لم يعرف منذ تلك اللحظة شيئاً سوى أنه جائع ، على تفاوت في كلب الجوع لديه . ولم يكن مقدار ما يأكله ليخلّصه من الجوع ويقضي عليه بل كان ذلك القدر من الطعام يطيل عمر الجوع ويخلّده . وكان فلاسك يقول لنفسه : «الهدوء والاكتفاء شيئان قد غادرا معدتي الى الأبد . أنا ضابط ولكن ما أشد ما أتوق الى أن أمسك قطعة من لحم البقر في منارة السفينة كما

---

(١) مدينة فرنكفورت على نهر المين ، اتخذت مقر الانتخابات الامبراطورية منذ ١٣٥٦ .

كنت أفعل يوم كنت أقف أمام الصاري . هذه هي ثمرات الترقية ، هذا هو بُطْلُ المجد ، هذا هو جنون الحياة! » ثم لو أن أحد البحارة كان ينقم على فلاسك شيئاً من تصرفاته الرسمية ، فما على ذلك البحار ، اذا شاء أن يثأر منه ثأراً عريضاً ، الا أن يذهب الى مؤخرة السفينة وقت الغداء ، ويطل على فلاسك من فضاء القمرة وقد جلس في بلادة والحيرة تعقد لسانه أمام آخاب الرهيب .

كان آخاب وضباطه الثلاثة يمثلون ما يسمى «الفوج الأول» على المائدة في قمرة الباقوطة . وبعد مغادرتهم المكان في ترتيب على عكس ترتيب القدوم ، ينظف غطاء المائدة الخيشي أو بالأحرى يقوم «السفرجي» الشاحب بترتيبه في دهشة وعجلة . ثم يدعى الزرّاقون الثلاثة الى الطعام ، اذ هم الورثاء لما تبقى منه ، فيحولون القمرة العالية الممتنعة تحويلاً مؤقتاً الى شيء يشبه قاعة الخدم .

ما أغرب الفرق القائم بين حالين على المائدة أولاً حين تشهد الكبت والتوتر وضروب التسلط الخفي حين يكون القبطان وفوجه وثانياً حين تشهد خلو البال والسجاحة بل الديموقراطية الصاخبة التي يمارسها الزراقون ، أولئك الفوج الذي يعد في منزلة أدنى من الفوج الأول . بينا كان أسيادهم الضباط في الحال الأولى يبدون خائفين من صوت حركة الفكين عند طحن الطعام كان هؤلاء الزّراقون يمضغون طعامهم في قابلية متفتحة حتى لتسمع للمضغ أصواتاً واضحة . كانوا يأكلون كأنهم سادة ، ويملأون معدهم كأنهم سفن هندية تعبأ بالبهارات طول النهار . كانت شهوة كل من كويكوج وطاشطيقو الى الطعام ساعرة حتى إذا شاءا أن يملآ الفراغ الذي لم تملأهُ الوجبة السابقة كان على الغلام السفرجي الشاحب أن يأتيهما بكتلة ضخمة من لحم البقر المقدد المملوح كأنها احتزت من جسم الثور الصلب . وإذا لم يقم الغلام بعمله في عجلة ، إذا لم يذهب بين الهرولة والوثب ، لجأ طاشطيقو الى حفزه بطريقة غير حميدة ، اذ كان يقذف ظهره بالشوكة كأنه يحوّت بالرمح . ومرة استولت الدعابة فجأة على دغة فحاول أن ينعش ذاكرة الغلام ، فرفعه بيده ودسّ رأسه في جفنة خشبية فارغة بينا أمسك طاشطيقو بموساه وأخذ يرسم دائرة تمهيداً لنزع جلدة رأسه . كان ذلك الغلام الذي يشبه وجهه رغيف الخبز عصبياً رعديداً مستضعفاً ، ولد لأب خباز مفلس وأم ممرضة في مستشفىً . وما الذي يناله من يرى طلعة آخاب القاتمة المرعبة كل حين ويشهد تلك الزيارات الدورية الصخابة التي يقوم بها أولئك المتوحشون الثلاثة سوى أن تكون حياته كلها ارتعاشة في الشفتين! كان في العادة اذا زوّد الزّراقين الثلاثة بما يريدونه هرب من قبضاتهم الى كراره الصغير المجاور ، وأخذ يسرق النظر اليهم من مفاصل الباب حتى ينتهوا من طعامهم .

منظر يستحق المشاهدة أن ترى كويكوج جالساً قبالة طاشطيقو ، وأسنانه المحددة تواجه أسنان زميله الهندي ، وبينهما دغة يجلس على الأرض لأن الجلوس على مقعد يبعث برأسه الذي يشبه التابوت المحلّى بالريش ، هابطاً الى جحيم السواحر ، وكلما حرّك في جلسته كراديسه الضخمة جعل القمرة المنخفضة تهتز كأنه فيل افريقي ينقل في سفينة . ولكن على ذلك كله كان هذا الزنجي العملاق عيوفاً متقشفاً إن لم أقل متفنقاً نظيفاً . ويكاد يستحيل على امرئ مثله أن يحتفظ بحيويته منبثة في جثته المستعرضة الفخمة الرائعة الفارعة وهو يكتفي بتلك اللقم التي تعدّ نسبياً ضئيلة قليلة ؛ لكن لا ريب في أن هذا الهمجي النبيل كان يتغذى ويعب من عنصر الهواء حوله ويستنشق بوقبي منخريه النافجين حياة الأكوان الرائعة . العمالقة المردة لا يصنعهم اللحم والخبز ولا يعيشون عليهما . أما كويكوج فكان اذا أكل تمطق بشفتيه على نحو همجي بدائي فأحدث بذلك صوتاً بشعاً ، حتى أن الغلام الرعديد يكاد ينظر اليه ليرى إن كانت هناك علامات من أضراسه تختفي في ذراعيه الناحلتين ، وحين كان يسمع طاشطيقو يغني له لعله يتمطى حتى ترتاح عظامه ، كان الغلام الساذج يكاد يحطم المواعين المعلقة حوله في الكرار بما ينتابه من ارتعاد فالجي فجائي . وكيف يهدأ ذلك المسكين وهو يرى حجر المسن الذي يحمله الزرّاقون في جيوبهم ليشحذوا به أسنتهم وأسلحة أخرى ، يراه وقد استخرجه كل واحد منهم على الغداء، وأخذ يشحذ به سكينه محدثاً صوتاً كأنه الصريف . كيف ينسى أن كويكوج ـ مثلاً ـ أيام أن كان في وطنه تورط ولا بد في حماقات تجمع بين القتل والاحتفال بلحوم القتلى! أسفاً أيها الغلام ، ما أشقى النادل الأبيض الذي يقف في خدمة آكلي لحوم البشر . عليه أن يحمل معه ترساً لا فوطة . ولكن ما أشد سرور الغلام حين ينهض فرسان البحر الملح ويغادرون المكان في الوقت المناسب ؛ غير أن أذنيه سريعتان الى التوهم تصنعان الأساطير فتخيلان اليه أن عظامهم الحربية تقرقع في كل خطوة كأنها سيوف عربية في أغمدتها .

ومع أن هؤلاء الهمجيين كانوا يتناولون طعامهم في القمرة ، ويعيشون ـ اسمياً ـ فيها ، إلا أنهم لكراهيتهم اطالة الجلوس قلما كانوا يدخلونها فيما عدا أوقات الطعام وقبل وقت النوم ، حين يجتازونها ذاهبين الى مخادعهم الخاصة .

في هذه الناحية لم يكن آخاب بدعاً بين معظم قباطنة التحويت الامريكيين ، اذ كانوا يجنحون الى اعتبار القمرات حقاً مقصوراً عليهم ، فإذا دخلها شخص غير القبطان في أي وقت فذلك من باب الحفاوة والتسامح . لذلك يمكن أن يقال أن الضباط والزرّاقين في الباقوطة ، كانوا في واقع الأمر يقطنون في خارج القمرة لا داخلها اذ أنهم عندما كانوا

يدخلونها فإنما كانوا في ذلك كباب البيت الشارع على الطريق ، يدور الى الداخل لحظة ليعود بعدها الى مستقره ويظلّ أبداً في مكانه قاطناً في العراء . ولم يخسروا في هذا شيئاً اذ ليس في القمرة ألفة الأصحاب لأن آخاب كان من الناحية الاجتماعية نائياً كالعيّوق . كان محسوباً ـ بالاسم ـ في عداد المسيحيين إلا أنه كان مايزال أجنبياً على دنيا المسيحية . كان يعيش في العالم كما يعيش آخر دببة جرسلي في ولاية مسوري بعد أن مهدها الانسان موطناً ، فإذا ذهب الربيع والصيف دسّ ذلك الحيوان ابن الغابات نفسه في جذع شجرة جوفاء وقضى فيه الشتاء وهو يلحس براثنه ؛ كذلك كانت روح آخاب في شيخوخته المقرورة العاوية محبوسة في جذعه المجوّف تغتذي هنالك من مخالب عبوسه الكابي .

٣٥

أعلى الدقل

حين طاب الجو واعتدل جاء دوري أول مرة في سباق التناوب الدوري بين البحارة ، لأصعد الى قمة الدقل .

تزود قمم الصواري في معظم الحوّاتات الامريكية بالرجال حين تهم السفينة بمغادرة الميناء ، حتى ولو كان عليها أن تبحر ١٥ ألف ميل أو أكثر قبل أن تبلغ ميدان تطوافها ؛ واذا كانت تقترب من الوطن في العودة بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات أو أربعاً أو خمساً وفيها شيء فارغ ـ هب أنه دنّ ـ فإن أعالي الصواري فيها تظل مزودة بالرجال حتى النهاية ولا تتخلى عن رجانها في صيد حوت آخر حتى تصبح أعمدة أشرعتها العلوية بين منارات المرفأ .

وبما أن الوقوف عند قمم الصواري ، سواء في البرّ أو البحر ، عمل قديم ممتع فلأتحدث عنه في هذا الموطن باسهاب . أعتقد أن أقدم من وقفوا على قمم الصواري هم المصريون القدماء إذ أنني لم أجد في كل استطلاعي وتنقيبي أحداً سبقهم الى ذلك . نعم إن أسلافهم بناة بابل قد هدفوا من بناء البرج الى أن يشيدوا أعلى قمة صارٍ في آسيا جميعاً أو افريقيا أيضاً ، ولكنهم قبل أن يسقفوها هبّت عليها ريح مرعبة من غضب اللّه ذهبت بتلك السارية الحجرية وأغرقتها ، لذا لا نستطيع أن نقول بأسبقية هؤلاء البابليين على المصريين في هذا الصدد . وحين أقطع بأن المصريين كانوا شعباً له قوّام على صواريه فإنما أبني هذا القول الجازم على المعتقد الشائع بين علماء الاثار اذ يرون أن الأهرام الأولى إنما بنيت من أجل غايات فلكية ، وتلك نظرية مؤيدة بأن الجوانب الأربعة في هذه الصروح مبنية على شكل مدرج فكان أولئك الفلكيون القدامى يصعدون الى الذروة بخطوات متفاجّة ينقلون بها أرجلهم صعداً ويهتفون اذا رأوا نجماً جديداً ، مثلما يهتف مراقبو السفن الحديثة اذا رأوا

شراعاً أو حوتاً على مرأى منهم . ولدينا مثَل آخر فذ غير هياب على رجل من القائمين على قمم الصواري ذلك هو سمعان العامودي الناسك المسيحي المشهور في الأيام القديمة ، فقد ابتنى لنفسه عموداً من الحجر في الصحراء وقضى كل النصف الثاني من حياته على قمته يرفع اليه طعامهُ عن الأرض ببكرة ، ولم يكن ليزحزحه من مكانه ضباب أو صقيع أو مطر أو برد ولكن ظل يواجه كل شيء الى النهاية أعني حتى قضى في موضعه . أما القائمون على قمم الصواري من المحدثين فليس لدينا منهم إلا مجمعة غير حيّة ، أعني رجالاً من حجر أو حديد أو برونز ، وهم وإن كانوا أكفاء قادرين علي مواجهة النوء القاسي إلا أنهم فاقدو القدرة على النداء عندما يستكشفون أي شيء غريب . منهم نابليون على قمة عامود فندوم يقف وقد طوى ذراعيه على ارتفاع ١٥٠ قدماً في الفضاء ، لا يبالي من يحكم ظهر السفينة دونه ، سواد أكان الآمر المسيطر يسمي لويس فيليب أو لويس بلانك أو لويس الشيطان . ومنهم واشنطن العظيم الذي يقف شاهقاً على الدقل الرئيس السامق في بلتيمور ، وكأن العمود الذي يقف عليه واحد من أعمدة هرقل ، اذ يصيب رأسه حدَّ العظمة الانسانية التي قل أن يتجاوزها أحد من بني البشر . ونلسون أمير البحر أيضاً على رافعة من معدن المدافع يقف على قمة دقله في ميدان الطرف الأغر ؛ وكلما غلفه دخان لندن كان ذلك نفسه دلالة على أن هناك بطلاً مختبئاً اذ حيث الدخان فثّم نار . ولكن واشنطن العظيم ونابليون ونلسون لا يجيبون أية صيحة تتأدى اليهم من أسفل ، حتى ولو استنخاهم الصائحون في لهفة لكي يعطفوا بحسن مشورتهم على السفن الضالة التي ينظرون اليها من علٍ . وقد يجوز لنا أن نستنتج بأن أرواحهم تتغلغل خلال ضباب المستقبل الكثيف وتستبصر أي شعاب صخرية وصخور يجب أن تتحاشاها تلك السفن .

وقد يبدو أمراً لا مسوغ له أن نجمع بين القوّام على الصواري في اليابسة وزملائهم البحريين في نطاق . والحق أن الحال على خلاف ذلك ويشهد بصدق ما ذهبنا اليه نبذة كتبها عبيد ماسي مؤرخ نانتوكت الوحيد فيحدثنا عبيد الجليل أن الناس في تلك الجزيرة في دور مبكر من تاريخ التحويت ، قبل أن تعد السفن بانتظام لمطاردة الصيد ، أقاموا سواري سامقة على طول الساحل كان يصعد عليها المراقبون بوساطة مراقٍ مسمّرة ، مثلما تصعد الفراخ في بيت الدجاج . ومنذ بضع سنوات اقتبس حواتو الخليج في نيوزيلندة هذه الطريقة فكان المراقبون اذا أبصروا الصيد نبهوا القوارب المعدة على مقربة من الشاطئ . غير أن هذه العادة أصبحت أثراً بعد عين ، فلنعد الى الحديث عن القيام الصحيح على قمة الصاري أعني على سفن التحويت في البحر : تبقي الصواري الثلاثة مزودة بالرجال من شروق

الشمس الى غروبها ، ويتناوب فيها البحارة كل في نوبته (كما هي الحال عند الدفة) ويتعاقبون كل ساعتين . وحين يكون الجو في المناطق الاستوائية هادئاً فإن القيام على قمة الدقل غاية في الامتاع ، لا بل إنه مبعث للبهجة عند الرجل المتأمل الحالم . هناك يقف المرء على علو مائة قدم فوق ظهر السفينة الصامت متفاجَ الرجلين فوق الأعماق كأنما الصواري ركازات ضخمة ، ومن دونه ومن بين رجليه تسبح أضخم وحوش البحر ، مثلما كانت السفن تمر من بين حذائي تمثال كولوسوس العملاق المشهور في رودس قديماً . هناك يقف المرء مستغرقاً في أثباج البحر المسترسلة الى ما لا نهاية ، في هدأة لا تصخب فيها الا الأمواج ، وتتدحرج السفينة المسحورة في تراخٍ وأناة ، وتهب الرياح التجارية الناعسة ، فيدفعه كل شيء إلى أحضان النوم وتلتف حوله ، معظم الوقت في حياة التحويت الاستوائية ، وتيرة من الاسترسال الرائع الذي لا تعكره الأحداث ، فلا يسمع خبراً ولا يقرأ جريدة ولا تضلله ملاحق الصحف وأخبارها المثيرة عن مبتذلات الحياة في سورة من الهياج لا ضرورة لها ، ولا يسمع عن مآسي الأسر ولا عن كمبيالات مسحوبة على مفلسين ، ولا عن تدهور الأسهم ، ولا يشغل باله التفكير في أمر الغداء لأن وجباته على مدى ثلاث سنوات مخزونة وادعة في البراميل ، وقائمة الأسعار لا تتبدل .

وقد تبلغ الساعات المختلفة التي يقضيها المرء عند قمة الصاري ـ في سفرة من سفرات التحويت الجنوبية تستمر ثلاث سنوات أو أربعاً ـ اذا أنت جمعتها معاً عدة أشهر كاملات ؛ ومما قد يأسف المرء له أن المكان الذي ينفق فيه هذه الحصة الوفيرة من عمره كله خالٍ محروم للأسف من كل ما يضارع السكن المريح أو من كلّ ما يولد اطمئناناً واستقراراً في المشاعر كالسرير أو الأرجوحة أو التابوت أو قفص الاتهام أو المنبر أو العربة أو أي شيء من هذه العدد والوسائل الصغيرة الممهدة التي يجد فيها المرء عزلته المؤقتة . ولعل الموطئ الوحيد الذي يحلّه إنما هو قمة الصاري الأشمَ حيث يقف على عصوين دقيقتين متوازيتين (ويكاد أن يكون هذا أمراً تتميز به سفن الحواتة) يسمونها «الخشبتان الشهمتان» . ها هنا يحس الغرَ المبتدئ في شؤون المراقبة ، والبحر ينتفض من حوله ، أنه في موقف مريح كما لو أنه وقف على قرني ثور . وتستطيع في الجو البارد ، دون ريب ، أن تحمل معك بيتك الى القمة وما بيتك هذا إلا معطف ؛ غير أننا اذا توخينا الصدق قلنا أن أسمك نوع من هذا المعطف لا يمثل بيتاً إلا بمقدار ما يمثله الجسد العاري ، إذ مثلما أن الروح ملصقة مُغرّاة داخل هيكله اللحمي ولا تستطيع أن تنتقل فيه حرّة ولا أن تغادره إلا إذا ركبت الغرر وعرضت نفسها للفناء (كالحاج الجاهل الذي يجتاز جبال الألب المثلجة شتاءً) كذلك معطف

المراقب ليس فيه من صفة البيت إلا أنه غلاف أو جلد آخر يغلفك ويحيط بك ؛ وأنت لا تستطيع أن تزج في جسدك رفاً أو صندوقاً ذا أدراج ، ولا تستطيع كذلك أن تحوّل معطفك حين المراقبة الى مقصورة مريحة .

وبالاشارة الى هذا كله من المؤسف الممض أن لا تزود رؤوس الصواري في سفن الحواتة الضاربة جنوباً بتلك الخيم أو المنابر الصغيرة التي يغبط عليها أصحابها ، وتسمى «أعشاش الغراب» وبها يتقي المراقبون من حواتي جرينلاند صبّارة القرّ في البحار المتجمدة . للقبطان سليت[1] كتاب مؤنس ممتع عنوانه : «رحلة بين جبال الجليد بحثاً عن حوت جرينلاند ، واعادة كشف ـ وهذا هدف عارض ـ للمستعمرات الايسلندية المفقودة التي كانت تابعة لجرينلاند في القديم» . وفي هذا الكتاب المعجِب وصف جذاب خطير الشأن لإطلاع جميع القوام على قمم الصواري على عش الغراب في «جبل الجليد» ، وجبل الجليد هو اسم سفينة القبطان سليت ، فسمّى اختراعه الجديد «عش غراب سليت» تمجيداً لنفسه ، اذ كان هو نفسه مخترعه وصاحب الامتياز الأصيل فيه ؛ وكان بارئاً من كل تواضع مضحك كاذب ، وكان يرى أننا ما دمنا نسمي أبناءنا بأسمائنا (ونحن الآباء مخترعو هؤلاء الأبناء وأصحاب الامتياز الأصيل فيهم) فعلينا بالمثل أن نسمي بأسمائنا كل جهاز آخر نلده . وعش غراب سليت يشبه في الشكل أنبوبة أو قطعة من أنبوبة ، مفتوح من أعلاه حيث زوّد بحجاب جانبي متحرك يدور نحو مهب الريح ليتلقاها في النوء الشديد عن الرأس ، وهذا العش مثبت في أعلى الصاري فاذا شئت استعماله صعدت فيه من خلال فوهة في أسفله كفوهة المصيدة . وفي الجانب الموالي لمؤخرة السفينة مقعد مريح تحته خزانة للمظلات والأقبية والمعاطف وفي الواجهة الأمامية لوحة مسننة يضع فيها المرء المصوتة[2] والغليون والتلسكوب وغير ذلك من الحوائج البحرية . وعندما كان القبطان سليت نفسه يقف على قمة الصاري في هذا العش الذي اخترعه يقول إنه كان دائماً يحمل بندقية (مثبتة أيضاً في اللوحة المسننة) ومعها قارورة من البارود والطلقات ، من أجل أن تجفل ، إذا أطلقها ، حيتان النّرول الضالة ، أو الحوت الأقرن الجوّال ، التي تغير على تلك البحار ؛ ذلك لأنك لا تستطيع أن تطلق عليها النار من ظهر السفينة بسبب مقاومة الماء أما اطلاق النار عليها من عل فإنه شيء مختلف تماماً . وواضح أن الوصف الذي كتبه القبطان سليت ، ليبين

---

(١) اسم وضعه ملفل ساخراً ويشير به الى القبطان وليم اسكورسبي الأكبر والد مؤلف «خبر عن المناطق القطبية» ، وكان اسكورسبي الأكبر من أنجح الحواتين في تلك المناطق اذ قام بثلاثين رحلة ناجحة في مياه خطرة ولم يفقد سفينة واحدة .

(٢) آلة لتقوية الصوت .

في اسهاب أصغر ضروب المنافع التي حققها اختراعه ، كان أمراً محبباً الى نفسه وهو يطنب في تبيان كثير من الدقائق ويسلمنا الى وصف علمي دقيق لتجاربه في عش الغراب ، فيحدثنا أنه اتخذ بوصلة صغيرة أودعها هنالك لكي يحسب الأخطاء الناجمة عما يسمى «الجذب المحلي» في مغناطيس صندوق الابرة ، وإنما ينجم الخطأ عن كون الحديد الأفقي مجاوراً عند ظهر السفينة لصندوق الابرة ، وربما كان ناتجاً في حال «جبل الجليد» لوجود كثير من الحدادين المعلولين بين بحارتها . ومع أن القبطان فطنٌ علمي المنزع في هذه الشؤون إلا أنه رغم كل نظرياته في «انحرافات الإبرة» و«ملاحظ على بوصلة السمت» و«أخطاء تقريبية» فإنه يعلم علم اليقين أنه لم ينغمس في هذه التأملات المغنطيسية العميقة انغماساً يعجزه عن أن ينجذب بين الحين والحين الى تلك الزجاجة الصغيرة الطافحة الملفقة بعناية ولطف في جانب من عش غرابه ، في متناول ميسر لليد ؛ ومع أني في الجملة معجب كثيراً بالقبطان الشجاع النزيه العالم ، بل أوليه الحبّ ، إلا أني أراه قد أساء النية حين تجاهل أمر تلك الزجاجة تجاهلاً تاماً ، وهو يرى كيف كانت صديقاً صدوقاً ونديماً رفيقاً حين كان يدرس الرياضيات في الأعالي في عش الطائر على بعد يسير من القطب ، وقد وضع القفاز في يديه والقلنسوة على رأسه .

لكن إن كنا نحن ، حوّاتي البحار الجنوبية ، محرومين من المهاد المريح في الأعالي ، لا ننال ما كان يستمتع به القبطان سليت وحواتو جرينلاند فإن لدينا ما يعوض هذا الحرمان ويوازيه ويربو عليه فنحن ـ حوّاتة الجنوب ـ قد ننعم بالطمأنينة في تلك البحار المغرية التي نبحر غالباً فيها . وأنا أصدقك القول عن نفسي فقد كنت أصعد الجبال متلكئاً متكاسلاً ، وأرتاح في القمة لأتحدث إلى كويكوج أو الى أي امرئ آخر انتهت نوبته والتقيت به لدى صعودي ، ثم أرقى قليلاً فألقى رجلاً متكاسلاً فوق سارية الشراع الرئيس ، مرسلاً نظرة رائدة على المروج المائية وأخيراً أصعد الى مستقري النهائي .

ودعني أنفض خبيئة صدري في هذا المقام وأقرُّ في صراحة أن الرقابة التي كنت أقوم بها كانت بئيسة . هذا الكون يدور في داخلي فهل في مقدوري ـ وأنا قد أصبحت وحدي على علوّ يولد الخواطر والأفكار ـ ألا أن أستخف بالواجبات التي تفرض عليّ أن أراعي أمر سفن التحويت حين تقول : «كن يقظاً مفتح العينين على الجوّ من حولك ، وارفع عقيرتك بالنداء كلّ مرة» .

ولأوجه إليكم يا أصحاب السفن النانتوكتيين تحذيراً حافزاً مثيراً في هذا المقام! حذار من أن يكتتب للعمل في سماكاتكم اليقظة أي فتى شاحب الجبين غائر العينين مستسلم الى

التأمل في غير إبّانه ، يبحر معكم وقد حمل حوار « الفيدون »[1] في رأسه بدلاً من « جداول » بودتش . أقول لكم حذار من مثل هذا الفتى . ذلك أن الحيتان لا بد أن تقع عليها العين قبل أن يمكن قتلها وهذا الشاب الأفلاطوني ذو العين الغائرة قد يجركم في عشر دورات حول العالم ولا يزيد غلتكم من زيت العنبر ربع لتر واحد . وما أقدم لكم هذه التحذيرات اعتباطاً وأنتم في غنى عنها ، لأن سماكة الحيتان في هذه الأيام قد جعلت تصبح ملجأ لكثير من الشبان الرومنتيكيين السوادويين الذاهلين الذين اشمأزت نفوسهم من الهموم المضنية على اليابسة ، فجاءوا يطلبون رضى مشاعرهم في الشحم والقار . وكثيراً ما كان تشايلد هارولد يقوم عند قمة الصاري في إحدى سفن التحويت التاعسة الخائبة ثم يرسل كلماته المنكدة قائلاً :

تدافعي تدافعي يا أمواج الخضم العميق الأخضر

ففوقك آلاف من متصيدي الشحم يتذبذبون متقلبين من غير طائل .

وكثيراً ما يوقف قباطنة السفن هؤلاء الفلاسفة الشبان الذاهلين موقف التقريع ويوبخونهم لأنهم ليست لديهم « رغبة » كافية في الرحلة ، ويلمحون اليهم بأنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً عن الطموح السامي إذ أنهم يؤثرون في قرارة نفوسهم أن يروا أي شيء سوى الحيتان . ويضيع كل تقريع سدىً ، فهؤلاء الافلاطونيون يعتقدون أن الرؤية عندهم ناقصة ، وأنهم مصابون بقصر النظر فما جدوى أن يتعقبوا أعصاب العين ؟ وهم لم يحضروا معهم نظاراتهم التي يستعملونها في المسارح .

قال أحد الزرّاقين لأحد هؤلاء الفتية : « يا قرد ، قد قضينا في التجوال ما يناهز ثلاث سنوات وأنت لم ترَ حوتاً . إن كنا نجد للدجاجة أسناناً ، وجدنا الحيتان وأنت موكل بالحراسة في الأعالي » . لعله الحيتان اختفت أثناء نوبته ، أو لعلها كانت أكداساً على الأفق البعيد ، ولكن هدير الموج الذي اختلط بالأفكار هدهد ذلك الفتى الذاهل في هدأة حلم أجوف غير واعٍ كأنه سُحب الأفيون ، فأفقده في النهاية هويته ، فأخذ يحسب الخضم الغامض عند قدميه صورة محسوسة لتلك الروح العميقة الزرقاء التي ليس لها قرار ، والتي تغلغلت في الانسان وتخللت عالم الطبيعة ؛ وغدا كل شيء غريب منساب جميل لا تحققه العين بدقة يغره ، وكل زعنفة بارزة لا تستبان بوضوح في أي شكل لا يثبته الادراك تتبدى في عينيه تجسيداً لتلك الخواطر والأفكار الفرّارة التي لا تعمر الروح إلا ان استمرت تمرق من

---

(١) هو الحوار الذي تناول فيه أفلاطون مسألة خلود النفس ، وكان من الكتب التي يحبها ملفل .

خلالها . وفي هذه الحال المسحورة تنحسر الروح هاربة الى الموطن الذي جاءت منه ، وتتخلل الزمان والمكان كأنها رفات كرانمر المؤمن بوحدة الوجود حين ذرّيت فأصبحت في النهاية جزءاً من كل شاطئ في الكرة الأرضية[١] .

تنحسر الحياة من راكب السفينة إلا تلك الحياة المهدهدة التي تهبها له السفينة نفسها وهي تقدل فوق الأمواج هوناً ما . حياة استمدتها السفينة من البحر ، ووهبتها للبحر تيارات إلاهية خفية لا تدرك . وبينا المرء مستغرق في هذه الهدأة سابح في هذا الحلم ، قلّ له أن يحرك قدمه أو يده على مدى بوصة ، ليزحزح رأسه قيد أنملة ، ترجع اليه هويته في فزع . إنه ليحلق فوق «دوامات» ديكارت[٢] ، ولعله في منتصف النار والجو غاية في الاعتدال يرسل صيحة مختنقة محشرجة ويتردى خلال ذلك الهواء الشفاف في أعماق البحر إبان الصيف ، فلا يرتفع من مهواه الى الأبد . تنبهوا لهذا أيها المؤمنون بوحدة الوجود!

---

(١) هو توماس كرانمر نصبه هنري الثامن رئيساً لأساقفة كانتربري ، وقد أحرق في أكفورد عام ١٥٥٦ متهماً بالهرطقة بعد أن عادت سلطة الكنيسة الرومانية في حكم الملكة ماري . ولكن لم يذكر أحد أن رفاته ذرّيت ، ويبدو أن الأمر اشتبه على ملفل ، باستخراج رفات وليم ويكلف وحرقها وقذفها في نهر هنالك «حملها في أرجاء المعمورة» حين ألقى بها أخيراً في البحر المحيط .

(٢) اعتماداً على نظريات كوبرنيكوس وغاليلو تقدّم الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦- ١٦٥٠) بنظرية تقول أن كل حركة في الكون هي دائرية أو في هيئة دوّامة . وقد بقيت هذه النظرية حتى قضى عليها نيوتن بنظريته في الجاذبية .

٣٦

الربعة خلف الدقل الأعظم

(يدخل آخاب ثم يدخل الجميع)

بعد مدة قصيرة من حادثة الغليون كان آخاب ، حسب عادته ، يصعد ذات صباح بُعيد الفطور من دهليز القمرة الى ظهر السفينة . ومعظم قباطنة البحر يتمشون في العادة هنالك في تلك الساعة كالسادة الريفيين الذين يدورون في الحديقة بضع دورات بعد وجبة الإفطار .

وسرعان ما تأدت الينا أصوات خطواته العاجية الثابتة وهو يذهب ويجيء في دوراته المعهودة على ألواح ألفت وطأته حتى انحفرت آثار مشيته فيها ، وكأنها حجارة جيولوجية . هل حدقت ممعناً في ذلك الجبين المغضن المخدد ؟ هنالك ترى أيضاً آثار أقدام أغرب من تلك ـ هي اثار أقدام الفكر الذي لا ينفك مسهداً يذرع رأسه جيئة وذهوباً .

لكن في المناسبة التي نحن بصددها بدت تلك الطوابع المنحفرة أشد غوراً مما هي في العادة ، مثلما أن خطوته العصبية القلقة في ذلك الصباح تركت علامة أعمق . وملأ الفكر نفس آخاب ، حتى أنك لتكاد عند كل دورة يدورها حيناً عند الصاري الرئيس وحيناً عند صندوق الابرة أن ترى ذلك الفكر يدور فيه كلما دار ويخطو فيه كلما خطا ؛ وقد تملكه تملكاً تاماً في الواقع حتى كأنما لم يكن سوى الشكل الداخلي لكل حركة خارجية .

همس اسطب يقول : «أتراه يا فلاسك ؟ إن الصوص الذي في داخله ينقر القشرة ولا بد أن ينقف سريعاً » .

وانقضت الساعات . وكان آخاب حبيس قمرته ثم تواً يذرع ظهر السفينة وفي مظهره ما كان فيه من التهمم المستبد نحو غايته .

وأخذ النهار يقترب من نهايته ، وفجأة وقف عند جانب السفينة ودسّ رجله العاجية في الثقب ، وأمسك بيده جانب الشراع ، وأمر استاربك أن يبعث بكل الرجال الى مؤخرة السفينة .

«سمعاً!» ـ ذلك ما قاله الضابط وقد اعترته الدهشة لأمر قلما يصدر على ظهر السفينة إلا في الظروف الشاذة .

فردد آخاب : «أرسل كل الرجال الى المؤخرة . المراقبون على رؤوس الصواري ؛ هيا! لينزلوا!» .

وحين احتشدت العصبة كلها وأخذوا يتطلعون اليه ووجوههم يرين عليها الاستغراب وشيء من الخشية والتوجس ـ إذ أنه لم يكن يختلف كثيراً عن الأفق حين تنذر العاصفة بالهبوب ـ ألقى آخاب لمحة عجلى من فوق جانب السفينة وسدّد عينيه في البحارة وبدأ المشي من حيث وقف ، أعني استأنف خطواته الثقيلة كأنه لا يحس نأمة إنسيّ على مقربة منه . ومضى يمشي مطأطأ الرأس وقبعته منكفئة بعض الشيء ، غير منتبه إلى الهمس المندهش الدائر بين الرجال ، حتى همس في حذر الى فلاسك بأن آخاب دعاهم ، ولابد ، ليشهدوا براعة المشي . ولم يستمرّ هذا الأمر طويلاً اذ صاح بعد تلبث عنيف :

ـ «ماذا تفعلون عندما ترون حوتاً أيها الرجال ؟» .

ـ «نرفع عقائرنا بالنداء» رددت هذا الجواب المتسرّع عشرون حنجرة معاً .

ـ «حسن!» كذلك صاح آخاب وفي صوته نغمة استحسان غريبة اذ لحظ الانتعاش المخلص الذي أثاره سؤاله غير المتوقع وألقى الرجال في حومته بقوة مغناطيسية .

ـ ثم ماذا بعد ذلك يا رجال ؟

ـ ننزل قواربنا ونتبعه!

ـ وأي لحن ترددون وأنتم تجدفون يا رجال ؟

ـ حوت ميت أو قارب محطوم!

وعند كل صيحة أخذت أسارير الرجل العجوز تزداد تطلقاً واستحساناً على نحو غريب عنيف . هذا بينا أخذ البحارة ينظر أحدهم الى الآخر نظرات دهشة واستغراب ، كأنهم يعجبون كيف انساقوا هم أنفسهم الى الانفعال بهذه الأسئلة التي تبدو دون غاية .

غير أنهم عادوا وكلهم شغف وتطلع حين خاطبهم آخاب ، بعد أن دار نصف دورة في الثقب المحوري ، ويده مشبوحة على الشراع وهو يقبض عليه قبضة محكمة لا تخلو من ارتعاش ، فقال :

«أنتم يا حراس الأعالي جميعاً لقد سمعتموني ألقي الأوامر حول حوت أبيض . تنبهوا! هل ترون هذه الأوقية الاسبانية من الذهب ؟» ورفع في وجه الشمس قطعة نقد عريضة لامعة

ثم مضى يقول : «هذه القطعة تسوى ستة عشرة دولاراً يا رجال . هل ترونها ؟ ناولني يا سيد استاربك تلك المطرقة» .

وبينا ذهب الضابط يحضرها جعل آخاب ، دون أن يتكلم ، يحك القطعة الذهبية ببطء على زيق سترته كأنما يريد أن يزيد في لألانها ، وكان عندئذٍ يهمس لنفسه بصوت خافت دون أن يستعمل ألفاظاً ، محدثاً صوتاً مغمغماً مكتتماً حتى بدا وكأنه همهمة آلية تصدرها عجلات حيويته التي تدور في دخيلة نفسه .

وتناول المطرقة الخشبية من استاربك وتقدم نحو الدقل الأعظم والمطرقة مرفوعة في احدى يديه ، والقطعة الذهبية معروضة في الأخرى وهتف في صوت جهوري :

«من نبّه الى وجود حوت أبيض الرأس ذي جبهة مجعدة وفك أعوج ، من نبّه الى وجود ذلك الحوت الأبيض الرأس وفي جانبه الأيمن ثلاثة ثقوب ، من نبّه الى وجود ذلك الحوت الأبيض نفسه فله هذه الأوقية الذهبية يا أبنائي!»

«زه مرحى! زه مرحى!» صاح البحارة تحية تسمير القطعة الذهبية على الصاري وهم يزرجحون قبعات التربولين في الفضاء .

وفي أثناء ذلك كله كان طاشطيقو ودغة وكويكوج يتطلعون وقد ساورهم اهتمام ودهشة أشدّ من سائر الملاحين ، وأجفلوا حين سمعوا ذكرى الجبهة المتجعدة والفك الأعوج كأنما كل واحد على حدة مَسّتْهُ ذكرى خاصة .

قال طاشطيقو : «قبطاننا آخاب ، لابد أن هذا الحوت الأبيض هو الذي يسميه بعضهم موبي ديك» .

فصاح آخاب : «موبي ديك ؟ اذن فأنت تعرف الحوت الأبيض يا طاش ؟» .

فقال الرجل الجايهيدي في تؤدة : «أتراه يحرك ذنبه تحريكاً غريباً بعض الشيء يا سيدي قبل أن يغوص ؟» .

وقال دغة : «وله نفثة غريبة وهو كثُّ الحاجب بالقياس الى حيتان العنبر الأخرى ، سريع جسور ، يا قبطان آخاب ؟» .

وصاح كويكوج : «وله واحد . اتنان . تلات آه! أسنة كثيرة فيه جلده ، قبطان ؛ وكل الأسنة عج معج فيه مثل... مثل» وأخذ يتلمس جاهداً كلمة يعبّر بها عن نفسه ويبرم يده ويبرمها كأنه يفتح قنينة : «مثل هيك... مثل هيك» . فصاح آخاب : «مثل البريمة . صدقت يا كويكوج كل الأسنة تعوّجت فيه والتوت . صحيح يا دغة نفاثته كبيرة كأنها عرمة قمح ؛ بيضاء ككومة من جزز الصوف النانتوكتي اثر الموسم السنوي العظيم لقص الأغنام . أيوه يا

طاش وذنبه يخطر كالشراع المشقوق في العاصفة . يا للموت! يا للشيطان! يا رجال إن ما رأيتموه هو موبي ديك - موبي ديك» .

فقال استاربك ، وكان حتى هذه اللحظة يلحظ رئيسه هو واسطب وفلاسك بدهشة متزايدة ؛ وأخيراً بدا أن فكرة لاحت له فسرت بعض الشيء كل دهشته : «قبطان آخاب ، قبطان آخاب سمعت بموبي ديك - أليس هو موبي ديك الذي خلع رجلك ؟ » .

فصاح آخاب : «من أنبأك هذا ؟ » وبعد أن توقف قليلاً مضى يقول : «نعم يا استاربك ، نعم يا أحبابي المجتمعين . هو موبي ديك الذي نزع صاريّ . موبي ديك هو الذي ألجأني الى هذا الجِذْم الميت الذي أقف عليه . نعم . نعم » وصرخ في شهقة مرعبة حيوانية كأنها شهقة موظ أصيبت في قلبه واستمر يقول : «أجل . صحيح! هو ذلك الحوت اللعين الذي هدّ ركني وجعل مني خشبة ناتئة الى الأبد وكل يوم » . ثم لوح بذراعيه كأنه يصب لعنات لا تحصى وصاح : «نعم . نعم . وسأطارده حول رأس الرجاء وحول رأس هورن وحول الدوامة النرويجية وحول شعل الهلاك والدمار قبل أن أيأس من لقائه . ومن أجل ذلك أبحرتم أيها الرجال ، كي تتعقبوا ذلك الحوت الأبيض في نصفي الكرة الأرضية وعلى كل جوانب المعمورة الى أن ينفث دماً أسود ويتقلب ويتضرب وتطفو زعنفته على الماء . ما قولكم يا رجال أتعطونني أيديكم على هذا ؟ إني لأراكم شجعاناً باسلين » .

«أجل . أجل» صاح الرماحون والبحارة وقد جروا يقتربون من الشيخ الهائج وقالوا : «عيون نفاذة ترقب الحوت الأبيض . رماح حادة مُعدة لموبي ديك» .

بين الشهقة والصراخ قال : «بارك اللّه فيكم . بارك اللّه فيكم يا رجال . يا أمين المؤن . اذهب وأحضر مكيال الجروك الكبير . ما بالك مططت بوزك يا سيد استاربك ؟ ألا تريد أن تطارد الحوت الأبيض ؟ ألست كفؤاً لموبي ديك ؟ » .

- «أنا كفؤ لفكه المعوج ، كفؤ لفكي الموت أيضاً ، يا قبطان آخاب ، إن كان ذلك يتفق مع العمل الذي من أجله نسعى ؛ ولكني جئت هنا لصيد الحيتان لا لأثأر لرئيسي . كم برميلاً من الزيت يأتيك بها انتقامك إن حققته يا قبطان آخاب ؟ إنه لا يغلّ عليك ما يفيدك كثيراً في أسواق نلنتوكت» .

- «أسواق نانتوكت! تباً! اقترب يا استاربك . إنك لتطلب نصيباً أكبر[٢] . ان كان المال

---

(١) في الأصل razeed me ومعنى الكلمة : قطع الربعة العليا من سفينة .

(٢) يلمح آخاب هنا الى أن موافقة استاربك قد تشترى بزيادة نصيبه من الأرباح (a little Lower layer) ، وقد مر بنا أن الأنصباء التي ينالها الذاهبون في التحويت تسمّى lays (انظر الفصل ١٦ : ١٤١) .

هو المقياس أيها الرجل وقدّر الحاسبون أن تكون الكرة الأرضية بيت حساباتهم الكبير فطوّقوها بالجنيهات ووضعوا جنيهاً على مدى كل ثلاثة أرباع من بوصة فدعني أخبرك بأن انتقامي يدر كسباً عظيماً في هذا المجال» .

فهمس اسطب : «إنه يدق صدره بيده . ترى لماذا ؟ والصدى يدل على أنه صدر واسع إلا أنه أجوف» .

فصاح استاربك : «أتنتقم من وحش أخرس! ضربك بوحي من غريزته العمياء ؟ جنون! إنك حين تغضب من شيء أخرس يا قبطان آخاب فذلك ذو سبب بالكفر» .

ـ «أصيخوا مرة أخرى ـ هذا يريد نصيباً في الأرباح ؛ كل الأشياء المرئية أيها الرجل ليست إلا أقنعة من الورق المقوى . ولكن في كل حادث ـ في العمل الحيّ ، في الفعل اليقيني ـ يقوم شيء مجهول إلا أنه متعقل ، فيخفي طابع ملامحه وراء ذلك القناع غير المتعقل ، فإذا كان للمرء أن يضرب فليضرب من خلال القناع . كيف يمكن للسجين أن ينفذ الى الخارج إلا إذا اخترق الجدار ؟ أنا أرى الحوت الأبيض هو ذلك الجدار وقد اندفع قائماً على مقربة مني ، وأحياناً يخيل اليّ أن ليس وراءه شيء ، ولكنه وحده يكفي فإنه يستنزف جهدي ، يطرحني كالكومة ، وأرى فيه قوة غاضبة فاضحة يبتعثها حقد مبهم ، وذلك الشيء المبهم هو ما أمقته ؛ وسواء أكان الحوت الأبيض نائباً عنه أو كان هو إياه فإني سأجعل ذلك المقت له نكالاً . . لا تتحدث عن الكفر ، يا رجل . إني لأضرب الشمس لو أنها أهانتني اذ ان كانت الشمس تستطيع الاهانة فأنا أستطيع الضرب ، فهناك دائماً نوع من التعامل الانتصافي ما دام الحسد يهيمن على كل المخلوقات ولكن ليس رئيسي نفسه يا رجل كفاءً بهذا التعامل ؛ ومن ذا الذي هو أعلى مني حتى يستحق اسم الرئيس ؟ ليس للحقيقة حدود . حوّل بصرك! لأسهل أن يطيق المرء تبريق الشياطين من أن يطيق النظرة البلهاء! كذا اذن : تحمر وتصفرّ ، لقد اذابتك حرارتي فأصبح يتطاير منك شرر الغضب . لكن افهم يا استاربك : إن ما يقال في حرارة ، فذلك شيء يخرس نفسه فلا يبين ؛ بعض الناس تصدر عنهم الكلمات الحارة وهي خسة صغيرة . لم أقصد أن أثيرك . معلش . ها فانظر تلك الخدود التركية ذات الصحمة البقعاء ، تلك الصور الحية المتنفسة التي رسمتها الشمس . هذه الفهود الوثنية ـ التي لا يهمها شيء ولا تعبد شيئاً ، تلك التي تحيا ولا تتطلب أسباباً عن الحياة المتلظية التي تحس بها ولا تقدم أسباباً . هؤلاء البحارة أيها الرجل ، هؤلاء البحارة أليسوا وحداناً ومجتمعين مع آخاب في أمر الحوت ؟ أنظر الى اسطب! أنه يضحك ، وانظر ذلك التشيليّ هناك إنه يقهقه اذ يتصوّره . شجيرتك المزعزعة لا تستطيع أن تقف وحدها في العاصفة الجانحة يا استاربك! وما الأمر ؟ قدّره وحدك . أن تعين

غيرك في ضرب زعنفة ، ليس هذا عملاً بطولياً يقوم به استاربك وماذا أيضاً ؟ عن هذا الصيد البائس ، لن تبقى خير حربة في نانتوكت كلها محجمة حين أمسكت كل يد بحجر المسن ؟ آه! أثقلتك القيود والأغلال . ها! رفعتك الأمواج! تكلم ـ تكلم وحسب ، أجل ، أجل إنه صمتك إذن الذي ينطقك . (ثم على حدة) : انطلق شيء من وقبي منخريَ الواسعين فتجرّعه حتى بلغ رئتيه . أصبح استاربك في قبضتي ، ولا يستطيع أن يقامني دون تمرد وثورة » .

« حماني اللّه! حمانا جميعاً! » كذلك تمتم استاربك بصوت خفيض .

إلا أن آخاب ، وهو مبتهج جذلان اذ يرى التسليم المسحور الضمني لدى استاربك ، لم يسمع دعاءه الأخير المحمّل بالنذر والتوجسات ، ولا الضحكة الخفيضة التي انطلقت من عنبر السفينة ، ولا ذبذبات الريح المنذرة بالشرّ وهي تصطدم بالأمراس ، ولا الخفقات الجوفاء تصدر عن الأشرعة وهي تلطم الصواري ، وقد هوت قلوبها ذعراً في تلك اللحظة . اذ أن عناد الحياة وإباءَها عادا يشتعلان في عيني استاربك اليانستين ، وماتت الضحكة التي تأدت من أسفل ، ومضت الريح في هبوبها وانتفخت الأشرعة ، وذهبت السفينة كما كانت من قبل تتمايل وتتدحرج . آه منك أيتها النذر والمنبهات! لماذا لا تبقين حيث أنت حين تقررين القدوم ؟ ولكن ألنت أيتها الأطياف مرهصات لا نذر إلا أنك لست مرهصات آتية من الخارج بقدر ما تمثلين الأمور التي تجري في الداخل . اذ أن قليلاً من العناصر الخارجية يعترض طريقنا ويصدنا ؛ عندئذٍ تلحّ الضرورات الدخيلة على أن تحفزنا للمضيّ .

صاح آخاب : « المكيال! المكيال! » .

فجاءوه بالاناء القصديري الطافح ، فالتف نحو الرماحين وأمرهم أن يحضروا أسلحتهم ، ثم صفهم أمامه قرب المسحاب قد أمسكوا رماحهم بأيديهم ، بينا وقف ضباطه الثلاثة الى جانبه ومعهم حرابهم . وكوّن سائر العصبة دائرة حول تلك الفئة ووقف برهة يلحظ كل فرد في الملاحين . إلا أن تلك العيون الغريبة واجهت عينيه كأنها عيون ذئاب السهوب الحمر المتوقدة تواجه عيني قائدها قبل أن يندفع وهو على رأسهم في أثر البيسون ليسقط واأسفاه في فخ خبيء نصبه الرجل الهندي .

سلّم الاناء المترع لأقرب بحار وصاح : « اشرب وأدره لمن يليك . ليشرب الملاحون وحدهم الآن . ثم أديروه . أديروه! شرباً قصيراً ، وتمززاً طويلاً يا رجال! انه ساخن كحافر الشيطان . تمام . تمام . هكذا يدار . انه ليتغلغل متلولباً ثم ينشطر متجهاً الى العين الغاضبة الأفعوانية . أحسنتم . كدتم تأتون على ما فيه . في هذا الاتجاه ذهب . في هذا يجيء . لقد تحسيتم الحياة المترعة . املأ أيها الساقي! » .

«أصغوا اليّ أيها الشجعان لقد جمعتكم حول هذا المسحاب ؛ وأنتم أيها الضباط أحيطوا جناحيّ بحرابكم ؛ وأنتم أيها الرماحون قفوا هناك ومعكم رماحكم ؛ وأنتم أيها البحارة الأقوياء الأشداء تحلقوا حولي كي أحيي عادة سامية درجت قبلي بين أسلافي الصيادين . أيها الرجال انكم سترون أنّ... يا غلام! عجّل! الدراهم الزائفة لا تعود بسرعة ؛ حسناً . ها هو الاناء مترع مرة أخرى ، لو لم تكن أنت عفريت سنت فيش! غُرْ يا حمّى البرداء!» .

«تقدموا أيها الضباط . ضعوا حرابكم أمامي متقاطعة . أحسنتم دعني ألمس نقطة الالتقاء» . وما ان قال ذلك حتى مدّ ذراعه وضم جمع يده على الأسلحة المتعارضة في مركز التقائها جميعاً . وإذ فعل ذلك هزّها فجأة وفي عصبية بينا هو ينعم النظر حيناً الى استاربك وحيناً الى اسطب حيناً الى فلاسك ، وكأنه كان يود أن يفرغ في دخيلة نفوسهم عن طريق عزم دخيل لا يحدّ تلك الشحنةَ النارية التي تجمعت داخل الجرة الليدنية من حياته المغناطيسية ، وأصيب الضباط بالوهن الخائر أمام مظهره القوي الصامد الغامض ؛ أما اسطب وفلاسك فحوّلا نظراتهما عنه الى ناحية ، وأما نظرة استاربك الشريف فسقطت عند قدميه . وصاح آخاب : «عبثاً ؛ ولكن ، لعل الخيرة في ذلك لأنكم لو أخذتم مني تلك الشحنة المتأججة إذن لنقصت الكهرباء أو تلاشت مني أنا ، وربما لم تقدروا على تحملها فصعقتكم ، وربما لم تكونوا ممن يحتاجها . اخفضوا حرابكم! وأنا أوظفكم يا ضباطي الثلاثة سقاة لأنسبائي الوثنيين الثلاثة الواقفين هنالك ـ أشرف الناس وأعلاهم محتداً ، أولئك الزرّاقين الشجعان . أتزدرون هذه المهمة ؟ ماذا تقولون في البابا العظيم وهو يغسل أقدام الشحاذين مستعملاً تاجه البابوي ابريقاً ؟ اه أيها الكردينالات الأحباء! إن تواضعكم هو الذي يحني جباهكم لأدانها . أنا لا آمركم وإنما أنتم تريدون . جذّوا الأربطة وافصلوا القنوات من الأسنة أيها الزراقون» .

أطاع الزراقون الثلاثة أمره في صمت ووقفوا أمامه وقد انفصلت الأسنة من قنوات رماحهم ـ وطول السنان منها ثلاثة أقدام ـ وهم قد أشرعوها .

ـ «لا تطعنوني بذلك الفولاذ النفّاذ! اميلوها! اميلوها! ألا تعرفون قرارة الكأس . اجعل ثعلبة السنان الىٰ أعلى . تمام . كذا . انتم أيها السقاة تقدموا . الأسنة! خذوها . احملوها وأنا أصب» . وبذلك مشى ببطء من ضابط الى آخر وملأ ثعلبة كل سنان بالشراب الناريّ يصبه من الاناء .

ـ «انتم الآن ثلاثة يواجهون ثلاثة . ضعوا ثقتكم في هذه الكؤوس الفولاذية القاتلة .

سلّموها الى أصحابها يا من أصبحتم فريقاً في هذه الرابطة التي لا تنفصم . ها! استاربك! لقد تمَّ كل شيء! وهذه الشمس المؤمنة على خطتنا تشهد على العهد . اشربوا أيها الزرّاقون . اشربوا وأقسموا أنتم يا من تقفون عند مقدم القارب المرصد بالموت ـ أقسموا أن يكون الموت نصيب موبي ديك . قولوا : جعلنا اللّه جَزَراً لنقمته إن لم نجتزر موبي ديك حتى يموت» . رفعت الأسنة التي اتخذت كؤوساً وتصاعدت الصيحات وانصبت اللعنات على الحوت الأبيض ، وأغرقت الأرواح عندها في جرع الشراب . اصفر استاربك وحوّل وجهه وارتعد ؛ ثم جرى الاناء مرة أخيرة يدور بين الملاحين الهائجين ، وعندما لوح لهم آخاب بيده تفرقوا جميعاً ، أما هو فذهب ينزوي في قمرته .

٣٧

الغروب

(المنظر في القمرة، عند النوافذ المطلة على مؤخرة السفينة. آخاب جالس وحده يحدق في الفضاء)

«حيثما اتجهت خلفت أثراً أصفر كدراً . حيثما أبحرت فثمَّ مياه شاحبة وخدود أشد شحوباً . الأمواج الغيرى الحاسدة تتدافع على الجانبين لتطمس أثري . لتفعل إن شاءت فأنا أمرّ أولاً وأخلّفها ورائي» .

«هناك عند حافة هذا الكأس المترع أبداً تعلو الأمواجَ الدافئةَ حمرةُ الخجل كأنها الخمر ، والحاجب الذهبي يسبر غور الأزرق المائي . والشمس قامس يهبط ـ وقد مالت عن سمت الظهيرة ـ وروحي تصعد لأنها سئمت لبثها عند مشارف الأرض . هل التاج الذي ألبسه ـ إذن ـ ثقيل ؟ تاج لومبارديا الحديدي[١] ؟ هذا وفيه تتلألأ جواهر عديدة . أنا الذي ألبسه لا أرى المدى الذي يبلغه لألاؤها . إلا إني أحس إحساساً مبهماً بأني ألبس شيئاً يحيّر ويُعشي . حديديّ هو ـ أدري ذلك ـ لا ذهبي . مصدوع هو أيضاً ـ أحس ذلك . والحافة المثلمة تشكّني حتى أن دماغي ليدق دقاته ضدّ المعدن الصليب . نعم . جمجمة فولاذية هي جمجمتي . مثلها لا يحتاج خوذة في أي قتال ينثر حشو الرؤوس» .

«أتعلو جبهتي حرارة جافة ؟ يا للّه! رحم اللّه أياماً كنت اذا لسعتني فيها حمة الشروق رقتني منها تعويذة الغروب . كل ذلك انقضى . هذا الضوء الجميل لا يضوئ جنبات نفسي . كل جمال أصبح مصدر عذاب لي لأني لا أستطيع أن أتملاه . وهبت الادراك العالي فأعوزتني القدرة الدانية التي تحسن التملّي والاستمتاع . ملعون على نحو خبيث ماكر! مطرود من الرحمة وأنا في رحبة الفردوس! طابت ليلتكم ـ طابت ليلتكم!» [يلوح بيديه ويغادر النافذة] .

---

(١) محفوظ في كاتدرائية مونزا بإيطاليا ، كان يستعمل في تتويج اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة وتروي الأساطير أن فيه مسماراً من مسامير الصليب الذي دق لعيسى .

«لم تكن مهمة صعبة . ظننت أنني سأجد في الأقل واحداً حروناً عنيداً . إلا أن شئني وافق طبقتهم ؛ طوقي المسنن يلائم كل عجلاتهم المختلفة فتدور حوله وفاقاً . أو إن شئت فقل إن كل امرئ فيهم جرثومة من مسحوق البارود تقف أمامي ، وأنا أعواد الكبريت . تشبيه صعب غير موفق! اذ أن الكبريت إن شاء أن يشعل الآخرين فقد وجوده أولاً . ما جرؤت عليه أردته ، وما أردته سأحققه . يظنونني مجنوناً ـ استاربك يظنني كذلك ، إلا أنني شيطاني ، إنني الجنون هائجاً مجنوناً! جنوني هو الجنون الذي لا يهدأ إلا ليتأمل نفسه! قالت النبوءة سأفقد عضواً ـ صدقت فقد فقدت هذه الرجل ، وأنا الآن أتنبأ بأنني سأفقدُ من ذهب برجلي أعضاءه . لأكن أنا العراف ومحقق العرافة معاً . هذا شيء أيتها الآلهة العظيمة فوق طوقك . أنا أضحك وأمكو منكم سخراً ، يا لاعبي الكريكت يا «قبضايات» ، أيها الصمّ مثل بيرك أيها العمي مثل بنديجو[1] ، لن أقول كما يقول تلميذ المدرسة لفتوة من فتوات العواهر :«فتش لك على واحد قدك ، لا تلكمني» . لا . لقد صرعتموني وها أنا أنهض من كبوتي ، إلا أنكم هربتم واختبأتم من وجهي . ابرزوا اليّ من وراء حشيات القطن التي تحتمون بها . ليست معي بندقية طويلة تبلغ مداكم . تعالوا! آخاب يهديكم تحياته . تعالوا وانظروا إن كنتم تستطيعون أن تزحزحوني من موقفي . تزحزحوني! لا تستطيعون ذلك إلا إذا زحزحتم أنفسكم . أمامكم رجل . تزحزحوني ؟ لقد مددت الى غايتي المثبتة سكة حديدية ورسمت لروحي أن تجري عليها لتبلغها فأنا أندفع دون خطأ فوق مضايق لا يعرف غورها وخلال جبال لم تخترق صعابها تحت أثباج السيول والتيارات الجارفة . لا شيء يقف عقبة في طريقي ، لا انعطاف في السكة الحديدية العامدة» .

---

(١) كان بيرك بطل انجلترا في الملاكمة عام١٨٣٢ ، وكان بنديجو واسمه وليم طومسن بطلاً آخر ١٨٣٩-١٨٤٥ .

٣٨

غبش الظلام

(عند الصاري الرئيسي وقد استند إليه استاريك)

« روحي لم تنلها أطراف الثقاب فحسب ، انها معبأة الى درجة الانفجار . عبأها رجل مجنون . حُمَّة لا يطاق لسعها إن يبسط الجنون ذراعيه حول كل هذا المجال . الا أنه حفر عميقاً عميقاً ووضع لغماً فجّر به كل عقلي . أظنني أبصر خاتمته الكافرة ولكني أحسّ أن عليَ مساعدته لبلوغها ؛ شئت أو أبيت ـ لقد ربطني به ذلك الشيء الذي لا أجد له اسماً أو وصفاً ، ربطني بحبل لا أجد معي سكيناً أجذه بها . يا للشيخ المفزع الرهيب! يصيح قائلاً : من ذا يسيطر عليه ؟ نعم انه قد يكون ديموقراطياً مع كلّ من فوقه . انظر كيف يبسط سيادته على كل من دونه! آه! بوضوح أرى مهمتي التاعسة ـ ان أطيع والثورة تعتلج في نفسي ، وأسوأ من ذلك أن تخالط كراهيتي لمسةٌ من شفقة ، اذ أنني قرأت في عينيه ويلاً مرعباً مكفهراً لو كان بي لشلّ قواي . ومع ذلك فثمة أمل . الزمن والمدّ تياران عريضان ، فالعالم المائي كله مجال للحوت البغيض مثلما أن الزهرية الزجاجية بيت للسمكة الذهبية الصغيرة ، والله قادر على أن يرخي حبال الزمن بينه وبين غايته التي أهان بها وجه السماء . لاستخفّ قلبي الرجاء لولم يكن قلباً مثقلاً كأنه الرصاص ، لكن مزولة حياتي تنحدر ، وقلبي هو الذي يرجح بها ، وقد ضاع مني المفتاح الذي يعينني على رفعها من منحدرها » .

[يسمع صوت عربدة آتية من المنارة]

« رباه! كيف يبحر المرء مع أفراد عصبة وثنية لم تلدهم أمهاتهم من بني الانسان وانما تمخض عنهم البحر أو قرش البحر . فالحوت الأبيض هو الغرغون المخيف لديهم . سمعاً! هذا هو اللهو الشيطاني . تجيء العربدة أولاً ثم يعقبها صوت محتوم . أظن هذا يمثل لنا الحياة . في الأمام ينطلق مقدم السفينة المرح المتأهب المتماجن خلال البحر اللامع الفوّار لا لشيء الا ليجر آخاب في أعقابه ، حيث يقيم مستغرق الفكر في قمرته الواقعة عند المؤخرة

المبنية على ماء المخر الساكن الهامد ، ومن بعد يتشبث بها الخرير المتذنب . يهز العواء المديد أعماقي . صمتاً! أيها المعربدون وابدأوا نوبة الحراسة . آه أيتها الحياة في ساعة كهذه الساعة حين تكون روحي قد قهرتها المعرفة واستولت عليها ـ معرفة كالتي تتغذى بها الأشياء المستوحشة الجاهلة مضطرة ـ في ساعة كهذه أيتها الحياة أحس بالرعب الكامن فيك ، لكنه ليس رعباً من داخلي ، هو رعب يقع خارج نفسي ، وسأحاول أن أقاتلك يا أشباح المستقبل الجاهمة بالشعور الانساني الرقيق الذي فيّ . أيديني ثبتي قدميَ أعلقي حبائلك بي أيتها القوى المبروكة!» .

٣٩

النوبة الأولى في الحراسة الليلية

مرقبة الصاري الأمامي (اسطب وحده يصلح أحد الأربطة)

ها! ها! ها! إحم! أجلو زَوْري منذ ذلك الحين وأنا أفكر فيها والختام دائماً سلسلة من ها! ها! ها! لمَ كان ذلك كذلك ؟ لأن الهأهأة الضاحكة أحكم جواب وأسهله عن كل تلك الغرابة . وإذا كفلت للانسان راحته ، تلك الراحة التي تحضر حين تطلب ، فلا خير أن يقع ما يقع ، فكل شيء بقضاء وقدر . لم أسمع كل حديثه مع استاربك ولكن استاربك تبدى لعيني المسكينة شيئاً كالذي أحسست به أنا في تلك الأمسية . كن واثقاً أن السلطان العجوز قد صلبه . أدركت ذلك ، عرفته ، ولو كانت لديّ الموهبة لتنبأت به لأني حين صفعت جمجمته بنظرتي رأيت ذلك الأمر . حسناً يا اسطب . يا اسطب يا عاقل ـ ذلك هو اللقب الذي أحرزته ـ حسناً يا اسطب ، أي بأس عليك ؟ ها هنا جثة . أنا لا أعرف كل ما قد يقع ولكن مهما يكن فإني سأذهب للقائه ضاحكاً . أي غمز عابث تنطوي عليه مرعبات دنياكم! أشعر أنني مضحك فا . لا . ليرا . سيرا... ترى ماذا تصنع اجاصتي الشهديّة الريّا في البيت الآن ؟ أتراها تبكي ؟ أم تراها تستضيف آخر دفعة وصلت من الرماحين ، فهي مرحة كأنها علم الفرقيطة ، وكذا أنا فا . لا . ليرا سيرا . آه!

سنشرب الليلة بقلوب جذلى
استخفّها الحب فهي مرحة رشيقة
كالحبب الطافي عند حافة الكأس
ينماث إذا لامسته الشفاه .

شعر جزل جميل ـ من ذا يناديني ؟ السيد استاربك ؟ نعم سيدي نعم ـ (ثم على حدة) هو رئيسي وله رئيسه أيضاً إذا لم أكن مخطئاً في التقدير ـ أجل . أجل يا سيدي تمهل عليّ . أكاد أنهي هذه المهمة . آتٍ إليك .

٤٠

منتصف الليل عند المنارة

الزراقون والبحارة (يرتفع الصاري الأمامي، فيظهر الحراس المناوبون واقفين متبلدين متكئين مضطجعين في اوضاع مختلفة وكلهم يغنون معاً في جوقة):

وداعاً وفي رعاية اللّه يا أيتها السيدات الاسبانيات
وداعاً وفي رعاية اللّه يا سيدات اسبانيا
قبطاننا قد أمر - .

البحار الأول من نانتوكت :

أيها الفتيان لا تكونوا عاطفيين . ذلك شيء يضرّ بالهضم . احفظوا اللازمة
وهيئوا أنفسكم للنغمة ورددوا بعدي .
(يغني ويأتمّ به الجميع) :
قبطاننا واقف فوق الدكة
وفي يده مرقاب
يرى به الحيتان الجريئة
وهي تنفث عند كل شاطي
ضعوا دنانكم في قواربكم يا فتيان
وقفوا عند معاقد الحبال
وسنصيد حوتاً من هذه الحيتان
فاعقدوا العزائم تكاتفوا كالبنيان
تهللوا وافرحوا يا فتيان ، لا خارت منكم القلوب!
حين ينقض الرمّاح الجريء ليطعن الحوت .

يتأدى صوت ضابط من الربعة وراء الدقل الأعظم :

اقرع الجرس ثماني مرات ، هناك هيا!

البحار الثاني من نانتوكت :

أوقفوا الغناء!ثماني دقات هناك! أتسمع يا جرّاس دق الجرس ثماني دقات أنت يا بيب! يا أسيود ، ولأدعُ النوبة فمي صالح لذلك ، فم كأنه البرميل . هكذا . هكذا : (يدلي رأسه في الناروزة) ستار ـ بو ـ لي ـ نزآهوي! ثمانية أجراس هناك في الأسفل! هيا أسرع!

البحار الهولندي :

تعسيلة عظيمة هذه الليلة يا صويحب ؛ ليلة مسترخية كسلى . لحظت ذلك في الخمرة التي أدارها علينا ريّسنا ، فهي مميتة لبعضنا ، مهيجة لسائرنا . فنحن نغني وهم ينامون ، أي نعم ، يضطجعون هنالك كالبراميل المشدودة بالأرض . خذ هذه اليراعة وانفخ فيها ونادهم ؛ قل لهم يكفّوا عن أن يحلموا بصواحبهم . قل لهم نُفخ الصور وبعثر من في القبور . عليهم أن يطبعوا على شفاه الخليلات آخر قبلة ـ في المنام ـ وينهضوا للحساب . هذا هو السبيل ، إن حلقي لم يتلفه أكل الزبدة الهولندية .

البحار الفرنسي :

صه ، يا أولاد! لنرقص رقصة أو رقصتين قبل أن نرسي في خليج بلانكت . ما قولكم ؟ ها هم أفراد النوبة الثانية . استووا على أرجلكم . بيب! بيب! هات الطنبور .

بيب (وهو برم مأخوذ بالنوم) :

لا أعرف أين هو .

البحار الفرنسي :

اضرب على كرشك إذن بدلاً منه ، وحرك أذنيك . ارقصوا الرقصة يا رجال . حلوة هي لفظة الرقص ؛ مرحى! ويلي ألا تريدون الرقص ؟ اصطفوا واحداً واحداً واقفزوا في دبكة مزدوجة . تطوّحوا . أرجلكم! أرجلكم!

البحار الايسلندي :

لا أحب هذه المصطبة يا رفيّق ، ذوقي يراها رطبة بليلة ؛ أنا تعوّدت على مصاطب الجليد . آسف اذ أسكب ماءً بارداً على ما أنت متحمس من أجله . ولكن معذرة .

البحار المالطي :

وكذلك أنا أجدني متقاعساً عن الرقص . أين الفتيات ؟ أي أحمق يأخذ يده

اليسرى في يمناه ويقول لنفسه وهو يهزها : مرحبا . كيف حالك ؟ أريد رفيقة تراقصني ، أين الرفيقات!

البحار الصقلي :

أي نعم! فتيات وبساط عشبي أخضر عندئذٍ أثب وأنط معكم بل أصبح جندياً إن شئتم .

بحار لونج آيلاند :

يا بلداء! ان قعدتم عن الرقص فغيركم كثير . أقول : أحصدوا قمحكم حين تريدون . ستسعى الأرجل عمّا قريب الى الحصاد . آه . ها هي الموسيقى حضرت . هيا اليها!

البحار الأزوريّ : (يصعد ويضع الطنبور عند أعلى الناروزة)

بيب . ها هي الآلة وهناك عضادة الرافعة . اصعد! يلاّ يا فتيان!

(نصفهم يرقص على نغمات الطنبور ، بعضهم يهبط الى أسفل ، بعضهم ينام أو يستلقي بين لفائف الأمراس . الشتائم سيل غزير)

البحار الأزوري (يرقص) :

نغّم . نغّم يا بيب . دق يا جرّاس دق . نغّم . حكّم . دمدمْ . قدّم . يا فتى الأجراس . ابعث الشرار فوق النار . وحطم الجلاجل .

بيب :

تقول الجلاجل! هذا واحد قد هوى . أنا ألطمه هكذا .

البحار الصيني :

جلجل بأسنانك ودعها تتلاطم . اجعل من نفسك معبداً هندياً .

البحار الفرنسي :

استطارني الطرب! أمسك هذا الطوق يا بيب حتى أقفز من خلاله . ايتها الأشرعة المشققة . تمزقي!

طاشطيقو (يدخن في هدوء) :

هذا رجل أبيض بحق يسمي ما يفعله مراحاً . أف له . أنا في غنى عن التعب والعرق .

البحار الشيخ ابن جزيرة مان :

عجباً هل يعلم هؤلاء الفتية المرحون أي شيء هو الذي يرقصون فوقه . أمرٌ

وعيد تتفوه به نساء الليل عندكم ، أولئك اللواتي تصفعهن الريح عند المنعطفات أن تقول احداهن : سأرقص فوق قبرك ، سأرقص . يا للمسيح! حين يفكر المرء في الأساطيل الخضر والبحارة ذوي الجماجم الخضر ايه . ايه صدق علماؤكم حين قالوا أن الأرض مستديرة ولذلك صحّ لأهلها أن يجعلوا منها دواراً للرقص . ارقصوا يا فتيان فأنتم في عهد الشباب . كان لي شباب .

البحار الثالث من نانتوكت .

عرق! عرق! واه هذا أسوأ من جرّ القوارب خلف الحيتان في جو ـ هات نفساً يا طاش .

(يتوقفون عن الرقص ويتحلقون حلقاً . في
الوقت نفسه تكفهر السماء وتقوى الريح)

البحار الهندي :

وحق براهما يا فتيان سيقولون انزلوا الأشرعة عما قليل . مدّ عالٍ سماوي كأنه مدّ نهر الكنج قد تحول ريحاً . انك ترينا عين الغضب المكفهر يا رب الأنواء[1]!

البحار المالطي (متمدد يهز قبعته) :

هي الأمواج ـ قبعات الثلوج جاءت ترقص رقصتها . عما قليل تهز هدّابها . ليت الأمواج جميعاً كانت نساء ، اذن لنزلت اليهن ورقصت معهن . ليس في الارض ما هو عذب مثل اللمحات الخاطفة ترسلها الصدور الدافئة الثائرة في الرقص حين تخفي كرمة الأذرع التي تظللها عنباً ناضجاً جامحاً مستوفزاً .

البحار الصقلي (وهو متمدد) :

على الخبير سقطت . اسمع يا فتى . لمحاً واذا الأجسام تتعانق ـ تميّح كتميّح الأغصان الغضة ـ لمسات وجمشات ـ رعشات . الشفة! القلب! الرانفتين! تمتع بالنظر اليها . لا تكف عن لمسها ثم امضِ . لا تذق . افهم ان ذقت شبعت! مش كده يا وثني ؟ (يلكزه لينتبه) .

البحار التاهيتي (متمدد على حصير) :

يا ما أحلى العري المقدس في فتياتنا الراقصات ـ رقصة الهيوا هيوا . آه يا

---

(١) هو سيفا رب الدمار والخراب في الدين الهندوسي .

دانية الخمار يا سامقة النخيل يا تاهيتي . لا أزال أريح جنبي على حصير من صنعك لكن أين الثرى الناعم ، ثراك ؟ رأيتك يا حصيري تنسجين في الغابات . خضراء كنت أول يوم جئت بك من هناك . وها انت بليت وذبلت النضارة . ويلاه! لا أنا ولا أنت نستطيع أن نطيق البلى . كيف بك لو تعرضت للأنواء . ها أنا أسمع الجداول الهادرة من قمة بيروهيتي ذات الشعاف حين تندفع من خلل القنان وتغرق القرى والقيعان . العاصفة! العاصفة! انهضي يا نفس وواجهيها (يقفز واقفاً على قدميه) .

البحار البرتغالي :

يا للبحر كيف يتدافع متناثراً على جنب السفينة . تهيأوا لطيِّ الأشرعة يا أحياء . الريح قد استلت سيوفها وشهرتها وعما قليل ستقوم المبارزة حالاً .

البحار الدنماركي :

قعقعي قعقعي أيتها السفينة القديمة فأنت متماسكة الجوانب ما دمت تقعقعين . أحسنت! الضابط هناك يمسك بك بثبات . لم يعد يخاف كأنه قلعة في جزيرة كايتجوت شيدت هناك لتقاتل بحر البلطيق بمدافع تجلدها العواصف ، ينعقد عليها ملح البحر .

البحار الرابع من نانتوكت :

تذكر أن لديه أوامر . سمعت آخاب الشيخ يقول له أنه يجب أن يقتل العاصفة مثلما يفجرون أنبوب الماء بمسدس ـ سمعته يقول : أطلق سفينتك رأساً في قلب العاصفة .

البحار الانجليزي :

دم! هذا الشيخ كاجار[1] عجوز . نحن الفتيان الذن سنصيد له الحوت!

الجميع : نعم . نعم .

البحار الشيخ ابن جزيرة مان :

كيف تهتز هذه الصنوبرات الثلاث . الصنوبر أصلب نوع من الشجر وأقدره على الحياة حين ينقل من تربة الى تربة ولكن أي تراب في السفينة سوى التراب الملعون الذي صنع منه الملاحون . ثباتِ يا قيّم الدفة ، ثباتِ . هذا

---

(١) كاجار : Cajar شحاذ مكدّ ، وقد استعملها الجاحظ في البخلاء .

النوع من الجو تخور فيه القلوب الجريئة على البر وتتصدع الهياكل المنبسطة في البحر . على قبطاننا علامة الميلاد . انظروا هناك يا أولاد تروا علامة أخرى في السماء ، تتوهج لامعة ـ وكل ما عداها أسود كالقار .

دغة :

وماذا في هذا ؟ من كان يخاف السواد فإنه يخافني . أنا قطعة منتزعة منه .

البحار الاسباني (على حدة) :

يريد أن «يتقبضن» آه! الحقد يجعلني حساساً سريع الانفعال ، (يتقدم) نعم أيها الزرّاق لا نكران في أن بني قومك هم الجانب المظلم من بني الانسان ـ سواد كسواد الشياطين ؛ هل زعلت ؟

دغة (في تجهم) :

أبداً .

بحار من سنتياغو :

هذا الاسباني أما أن يكون مجنوناً أو سكران . والأول أقرب الا أن تكون المياه النارية التي سقاه إياها ريّسنا طويلة الأثر في كيانه .

البحار الخامس من نانتوكت :

ما هذا الذي رأيته ـ برق ؟ نعم .

البحار الاسباني :

لا . هذا دغة كشر عن أنيابه .

دغة (واثباً) :

سكّر بوزك ، يا قزم . بشرة بيضاء وقلب منخوب .

البحار الاسباني (يلاقيه) :

بمديتي أشق صدرك في سرور . جرم كبير وروح صغيرة!

الجميع :

خناقة! عركة! خناقة!

طاشطيقو (وهو ينفث نفساً) :

خناقة في الأسافل وخناقة في الأعالي ـ الآلهة والرجال ـ كلاهما متترع

---

(١) تمثال برسيوس يحمل رأس مدوزا في فلورنسة من البرونز صنعه بنيفنوتو تشلليني (١٥٠٠-١٥٧١) .

متسرع للقتال ـ أف!

بحار بلفاست :

عركة! ها ها خناقة! بركاتك يا عذراء ، خناقة! ما عاش من تخلّف!

البحار الانجليزي :

المهم التكافؤ! اخطفوا المدية من الاسباني! تحلقوا! تحلقوا!

البحار الشيخ ابن جزيرة مان :

ما أسرع ما تحلقوا . هناك! الأفق المتحلق الدائري . في تلك الحلقة قتل قابيل هابيل . أهذا شيء حلو! أهذا عمل صحيح! كلا . لمَ يا رب خلقت هذه الحلقة الدائرية ؟

صوت ضابط يتأدى من الربعة خلف الدقل الأعظم :

تكاتفوا عند جوانب الأشرعة . اقتربوا كي تطووا الأشرعة العليا!

الجميع :

العاصفة! العاصفة! اقفزوا أيها الأعزاء! (يتفرقون) .

بيب (انكمش ودخل تحت الرافعة) :

أعزاء ؛ يا رب عونك لهؤلاء الأعزاء . دعامة الشراع تئن! تحشرج! واخ ـ واغ! رباه . تطامن متحاشياً لائذاً يا بيب . كأنك في الغابة الملكية ذات الصيد الوفير . بل هذا أسوأ من المكث في الغابات التي تجتاحها الريح في آخر يوم من أيام السنة . من ذا الذي يتسلق أشجار الكستناء بعد أن رحلت ؟ دأبهم لا ينفكون عنه ، يلعنون ويشتمون أما أنا فلا . مستقبلهم مزهر . طريقهم تؤدي الى السماء . احكم قبضتك! أية عاصفة هي هذه يا جميني! ولكن أولئك الشبان هنالك أسوأ أيضاً . انهم عواصف بيضاء . بيضاء ؟ حوت أبيض . اش . اش . تسمعت لما قالوه قبل قليل ، والحوت الأبيض . اش . اش . تحدثوا عنه مرة . وفي هذا المساء نفسه سمعت ذلك الأفعى العجوز ، وما سمعته يجلجل جسمي ويهزه كالطنبور ، سمعته يقسم أنه لا بد من أن يصيده! آه أيها الاله الأبيض الكبير ، حيثما كنت في سماواتك محتجباً في الظلام ارحم هذا الغلام الأسود الصغير في أرضه . احفظه من كل الرجال الذين ليس لهم أحشاء تعرف الخوف .

٤١

موبي ديك[١]

كنت أنا ، اسماعيل ، أحد أولئك الملاحين : صرخاتي صعدت متحدة مع صرخاتهم ، ويميني انعقد مع أيمانهم . وجأرت بقوة ورسخت يميني واغلظته للخوف القابع في نفسي . ملأني شعور فائر غامض حنون حتى كأن نقمة آخاب الظامئة كانت نقمتي . بآذان منهومة أنصتُّ الى تاريخ ذلك الوحش القتال الذي أقسمت أنا والآخرون أيمان الانتقام والثأر منه .

منذ عهد مضى كان الحوت الأبيض المنفرد المنعزل في فترات متقطعة يلّم بالبحار المتأبدة التي يرتادها صيادو حوت العنبر لكن لم يكونوا كلهم يعرفون عن وجوده ، ولم يره منهم رؤيةَ معرفة إلا عدد قليل نسبياً منهم ؛ أما الذين نازلوه عن معرفة منازلة واقعية فكانوا أقل عدداً . وهناك أسباب كثيرة بعضها مباشر وبعضها غير مباشر حالت طويلاً دون انتشار الأخبار الفذة المتميزة في عالم التحويت الواسع المترامي الأطراف عن موبي ديك . فالحواتات كثيرة العدد منتشرة على غير نظام في مدى المحيط المائي ، وبعضها تغامر مندفعة في بحثها على عروض منعزلة ، فتمتد غيبتها اثني عشر شهراً كاملة دون أن تلقى في طريقها شراعاً واحداً يحمل اليها نبأ أي نبأ ، وكل رحلة تطول أو تقصر حسب ظروفها ، وليس لابحار السفن وقت محدد تنطلق فيه معاً ، الى غير ذلك من أسباب . ولا يكاد أحد يشك في أن بواخر عديدة ذكرت أنها التقت ، في هذا الوقت أو ذاك أو على هذا الخط الزواليّ أو ذاك ، حوت عنبر ذا ضخامة وشراسة غير عاديتين ، وإن ذلك الحوت بعد أن ألحق الأذى بمهاجميه نجا منهم ولم يصب ؛ ولعلّ بعض الناس كانوا يفترضون ـ ولهم وجه

---

(١) لا ريب في أن ملفل عرف أساطير كثيرة عن التحويت والحيتان واستعار من بعضها اسماً لهذا الحوت الخيالي ، غير أن شخصاً اسمه رينولدز نشر عام ١٨٣٩ مقالات في مجلة Knickerbocker عن حوت أبيض اسمه موكا ديك فيه خصائص كثيرة مما ذكره ملفل متصلاً بموبي ديك .

من الحق ـ إن هذا الحوت المذكور لا بد أن يكون موبي ديك ، ولا شيء سواه . غير أن سماكة حوت العنبر قد عرفت فيها أمثلة متعددة متكررة عن وحشية الوحش المطارد وخبثه وحقده لذلك فإن أولئك الذين دفعتهم المصادفة جاهلين لخوض معركة ضد موبي ديك أقول لعل أولئك الصيادين في أكثر الأحوال قنعوا أن يسندوا الرعب الذي ولده فيهم الى أخطار سماكة الحيتان عامة ولم يقصروه على واحد . وعلى هذا النحو في أغلب الظن نظر الناس الى ذلك اللقاء الكارث بين آخاب والحوت حتى عهدئذٍ .

وأما الذين سمعوا من قبل عن الحوت وألقته المصادفة في طريقهم وتسنى لهم أن يروه فكل واحد منهم في مبادي الأمور هاجمه وحاول صيده في جسارة ومن دون خشية ، كما يهاجم كل حوت آخر من فصيلته . ولكن مع الزمن كثرت الكوارث الناجمة عن تلك الهجمات ولم تكن قاصرة على رضّ الارساغ والاعقاب وكسر أعضاء وبتر أخرى ، بل كانت كوارث مميتة لا يرجى معها شيء . وهذه الاخفاقات المتكررة والنوازل كلها احتشدت ونسب ما فيها من الرعب والافزاع الى موبي ديك ، وأصبحت مبعث فرق يهز فرائص كثير من الصيادين الباسلين الذي بلغتهم في آخر الأمر قصة موبي ديك .

والشائعات الغريبة من كل نوع لا تعجز عن المبالغة واضافة شحنة من الرعب الى التاريخ الصحيح لتلك اللقاءات المميتة ؛ ذلك أن الشائعات المختلفة لا تنمو فحسب نمواً طبيعياً من الأحداث المرعبة المدهشة ـ مثلما أن الشجرة التي أصابتها الصاعقة تلد من حولها نبات «الفطر» ـ وإنما تكثر الشائعات الغريبة في الحياة البحرية أكثر مما تكثر في البرّ ، وتنمو حيثما وجدت نواة حقيقية صالحة لأن تتشبث بها وتلتف من حولها . ومثلما أن البحر يفوق اليابسة في هذا الأمر فإن سماكة الحيتان تفوق كل نوع آخر من حياة البحر في غرابة الشائعات التي تدور أحياناً حولها وفي مبلغ الخوف الذي تثيره . ذلك لأن الحواتين ـ اذا اعتبرتهم فئة واحدة ـ ليسوا بارئين من ذلك الجهل والاطمئنان الى الخرافة ، وهما من خصائص البحارين ، بل أنهم من دون البحارين جميعاً معرضون بحكم مهنتهم الى الاقتراب من كل ما يثير الدهشة والخوف في عرض البحر . انهم لا يقفون أمام أعاجيبه الكبرى وجهاً لوجه لكنهم يصارعون أشداق الرعب بأيديهم . وحين يسافر المرء وحده في تلك المياه النائية ويقطع مبحراً ألف ميل ويمر بألف شاطئ فإنه لا يقف على ديّار ولا نافخ نار ولا يجد شيئاً يرحب بمقدمه تحت تلك الشمس ، وفي مثل هذه المواقع طولاً وعرضاً تهيمن على الحوات الذي يسعى وراء حرفته مؤثرات تجعل مخيلته حبلى بأجنَّةٍ عديدة .

لا عجب اذن إن كبر حجم الشائعات عن الحوت الأبيض وتضخم بمحض انتقالها على

مدى المسافات المائية الشاسعة ، حتى انطوت في النهاية على كل نوع من أنواع التلميحات السقيمة وعلى إلماعاتٍ خداعٍ عن قوى غيبية ناطت بموبي ديك في النهاية أهوالاً جديدة لم يستمدها الخيال من عالم المنظورات . ونشر هذا الحوت ـ في أحوال كثيرة ـ رعباً في النفوس حتى لقلّما وجد بحار من أولئك الذين لم يعرفوا موبي ديك إلا عن طريق تلك الشائعات يرضى أن يواجه أخطار فكه مختاراً .

وكانت هناك مؤثرات أخرى أقوى وأشد حيوية تفعل فعلها في النفوس . حتى في عصرنا الحاضر لم تنطمس من أذهان الحواتين جملةً المنزلة الأصيلة لحوت العنبر من حيث هو يتميز تميزاً مخيفاً عن كل أنواع الحيتان ؛ وبينهم اليوم من يؤهلهم ذكاؤهم وشجاعتهم لمنازلة حوت جرينلاند أو الحوت الأثين إلا أنهم قد يحجمون عن خوض معركة مع حوت العنبر ، إما لقلة التجربة أو لضعف في الكفاية أو للتهيب . وعلى أي حال فثمة عدد وفير من الحواتين وبخاصة بين حواتي الأمم الذين لا يبحرون تحت ظل العلَم الامريكي لم يواجهوا حوت العنبر مواجهة الخصم العدو ، وإنما كل معرفتهم الوحيدة عن اللوياثان قاصرة على الوحش المغمور الذي كان الصيادون يطاردونه قديماً في البحار الشمالية . وهؤلاء الرجال يصغون وهم جالسون في عنابر السفن برهبة وبرغبة ، كرغبة الأطفال في الحكايا عند الموقد ، الى القصص الغريبة الفريدة عن التحويت في البحار الجنوبية . ولا يدرك الهول الجبار الذي يتمتع به حوت العنبر العظيم ادراكاً شعورياً مثل أولئك الذين يذهبون فوق مقدمات السفن التي تصدمه مواجهة .

وكأنما حقيقة قوته التي أيدها الاختبار قد ألقت ظلالها أمامها في الأيام الاسطورية السابقة فنجد اثنين من المؤرخين الطبيعيين المطلعين هما أولاسن وبوفلسن يقولان إن حوت العنبر ليس فحسب مصدر فزع وحيرة لكل مخلوق آخر من مخلوقات البحر ، وإنما هو أيضاً بالغ الشراسة والوحشية حتى ليظلّ ظمآن أبداً الى الدم الانساني . ولم تكن هذه الانطباعات أو ما يكاد يشبهها قد طمست على مرّ الزمن حتى عهد كوفييه ذلك لأن البارون نفسه يؤكد في تاريخه الطبيعي أن كل الاسماك (والقرش من بينها) حين ترى حوت العنبر : « تصاب بأقوى أنواع الرعب » و« إنها من شدة افراطها في السرعة وهي ناجية تندفع نحو الصخور بعنف يؤدي بها الى موت وحيّ » . ومهما تصحح التجارب العامة في السماكة من هذه المعتقدات يظل الايمان بها لدى الحواتين في بعض التقلبات التي تنال مهنتهم حياً في أذهانهم ، ويظل لتلك المعتقدات وجهها المرعب المروع بل لعلها تحتفظ بما قاله بوفلسن عن الظمأ الى الدم الانساني .

واذ سيطرت على الصيادين رهبة من موبي ديك ولدتها الشائعات والنذر ذهب غير قليل منهم يتذكرون فيما يتصل بذلك الحوت حواتة الأيام القديمة للحصول على حوت العنبر حين كان من الصعب في الغالب أن يغرى حواتو الحوت الأثين المدربون المتمرسون بأن يمخروا بين أخطار تلك الحرب الجديدة الجريئة ، فقد كان هؤلاء الناس يردون قائلين : قد تكون مطاردة الحيتان الأخرى ذات جدوى . أما مطاردة شبح اسمه حوت العنبر وتسديد الحراب نحوه فأمر ليس منوطاً بالانسان الذي لا عاصم له من الفناء . فمن حاول مثل ذلك فقد عرض نفسه حتماً ليذهب أشلاء ممزقة في ذمة الابدية . وفي هذا الموضوع وثائق هامة يمكن الرجوع إليها .

مع ذلك كله كان بعض الصيادين على استعداد رغم هذه الأمور جميعاً ليطاردوا موبي ديك ، واتفق لعدد أكبر من الصيادين أن سمعوا عنه أموراً غامضة عن بعد دون احاطة بتفصيلات أية نازلة من النوازل التي أحدثها ، دون أية متعلقات خرافية ؛ وهؤلاء أيضاً كانوا على حظ من الصلابة والعناد يتيح لهم الثبات في المعركة إن حان حينها . ومن الالماعات الغريبة التي أشرت اليها الساعة اقترنت أخيراً بالحوت الأبيض في الأذهان ذات النزعة الخرافية وهي ذلك التصوّر الواهم الذي مثّل للناس أن موبي ديك من « أهل الخطوة » . أي أنه موجود في كل مكان وقد رآه من أبصروه في أمكنة مختلفة في وقت واحد .

ومهما يكن حظ تلك الأذهان من سذاجة التصديق فإن التصور كان قائماً على ظل خفيف من الاحتمال الأسطوري . وبيان ذلك أن أسرار التيارات البحرية لاتزال مغلقة لم يفكّ طلاسمها البحث العلميّ الحصيف ، فاذا بقي حوت العنبر تحت السطح لم يستطع مطاردوه أن يجدوا تفسيراً وتعليلاً للطرق الخفية التي يسلكها ؛ ومن حين الى حين تولدت حول مسالكه أغرب التصوّرات وأشدها تناقضاً وبخاصة الأساليب الغامضة التي ينتقل بها ، بعد أن يقمس إلى أغوار بعيدة ، في سرعة فائقة بين أشد المراحل تباعداً .

ومن المتعارف المشهور لدى حواتات الأمريكيين والانجليز ، وهو شيء قد دوّنه اسكورسبي منذ سنوات تدويناً موثوقاً ، ان بعض الحيتان اصطيدت في أقصى الشمال من المحيط الهادي ووجدت في أجسامها أسنة رماح قذفت بها في بحار جرينلاند . وليس هناك ما ينقض القول بأن الفترة التي انقضت بين الهجومين في حال بعض الحيتان لا يمكن أن تتجاوز أياماً معدودات . لهذا اعتقد بعض الحواتين استنتاجاً أن الممر الشمالي الغربي ، وهو عقبة أمام الإنسان ، لم يكن يمثل مشكلة لدى الحوت . وهكذا تثبت التجربة الحية الواقعية التي قام بها الأحياء أن الوقائع المروية عن الحوت تكاد توازي تلك الأقاصيص

الخرافية أمثال الأعجوبة التي رويت في سالف الأيام عن جبل سترلو الداخلي في البرتغال ، وعن قصة أعجب أيضاً تروى عن نبعة أرثوسة قرب سرقوسة بصقلية . اما استرلو فقد قيل أن بحيرة كانت عند قمته وجد فيها حطام سفن عامت على سطحها . وأما أرثوسة فقد زعموا أن مياهها كانت تأتيها من البلاد المقدسة[1] في مجرى خفيَ تحتَ الأرض .

وما دام الحواتون اضطروا الى ألفة هذا اللون من الأعاجيب وعرفوا أن الحوت الأبيض نجا حياً بعد هجمات متكررة بطَاشة فليس من المستغرب أن يمعن بعض أولئك الحواتين في ايمانهم بالخرافات فيعلنوا أن موبي ديك ليس من « أهل الخطوة » فحسب وإنما هو خالد أيضاً (لأن الخلود هو أن يصبح المرء من أهل الخطوة زمنياً أيضاً) وإن جوانحه قد تغرز فيها غابات من الأسنة ومع ذلك يمضي سابحاً لم يمسســه أذى بل إنه إذا طعن وأخذ ينفث دماً عاقداً فما هذا المنظر فيه إلا تهاويل خداعة مبعثها الرعب ، ذلك أنك ترى نفاثته النقية الناصعة بعد مئات من الفراسخ بين أمواج لا أثر فيها للدماء .

ولو أن هذا الوحش جرّد من جميع هذه الأوهام الخارقة الغيبية لظل في بنيته الحقيقية وشخصيته الفذة ما يؤثر في الخيال بقوة غير مألوفة . ذلك أن حجمه المستفيض لم يكن هو الذي يميزه كثيراً عن سائر حيتان العنبر وإنما ما ألمعنا اليه في موضع آخر من جبهة مجعدة فذة بيضاء كالثلج وحردبة عالية هرمية بيضاء . تلك هي الملامح البارزة فيه ، تلك هي العلامات التي كان يعلن بها للذين يعرفونه عن هويته على مسافة طويلة حتى في البحار المترامية التي لم ترسم لها خرائط .

أما سائر جسمه فكان معلماً أبقع مشمولاً بلون الرخام ـ صفة غدت في النهاية علماً عليه حين دعي الحوت الأبيض ، وكان يسوغ هذه التسمية حقاً بما فيها من دلالة حرفية منظره الناضر حين ينساب وقت الظهيرة في بحر أزرق معتم الزرقَة مخلفاً وراءه خيطاً من الزبد الأبيض ملمعاً كله بومضات ذهبية .

وقد يكون حجمه الهائل ولونه المعلم وفكه السفلي المشوه ، عوامل أحاطته بذلك الرعب الطبيعي إلا أنها لا تبلغ في ذلك مبلغ ضغنه الذكي الذي ليس له نظير ، فقد روت الأخبار كيف أنه أبدى مثل هذا الضغن في هجماته مرة أثر مرة . ثم أن ضغنه لا يبلغ في إثارة الرعب مبلغ تقهقره الخداع الذي كان يبعث الهول أكثر من أي شيء آخر . فلقد كان يسبح أمام مطارديه الزاهين المتهللين وهو يبدي لهم كل أعراض الذعر وشواهده ولكن كم من مرة

---

(١) الصواب ، من بلاد اليونان ، حسبما ذكرت الأسطورة .

استدار فجأة وحمل عليهم حملة منكرة فإما جعل من قواربهم شظايا متناثرة وأما ردهم مدهوشين مأخوذين الى سفنهم .

ولقد شهدت محاولات اقتناصه مصاير عدد من الهلكى ، ولم تكن مثل تلك الكوارث شيئاً شاذاً في السماكة وإن لم تلغط بها الألسنة كثيراً على البر ، إلا أن الوحشية الجهنمية التي تتمثل في الحوت الأبيض كانت تخيّل لخصومه انها وليدة تدبير سابق فكلما أطاح بعضو أو سبّب موتاً قالوا ان مثل هذه الأمور لا ينزلها بخصومه خصمٌ غير ذكي .

قدّر لنفسك إذن كيف تبلغ أذهان صياديه المستيئسين الى ذروة السخط اللاهب الحائر حين كانوا يسبحون عائدين وسط شظايا من القارب كأنها العصف المأكول وأشلاء غارقة من رفاق مزقوا ارباً اربا ، ليخرجوا من تلك الخثارة البيضاء التي عقدها حولهم غضب الحوت المريع الى ضوء الشمس الهادئ المحنق بهدوئه وابتسامته كأنما يزف بشرى مولد أو عرس .

غير أن قبطاناً رأى قواربه الثلاثة محطمة من حوله ورأى المجاذيف والرجال ينسابون في أحشاء الدوامات فانتزع مديته من مقدم سفينته المنحطم وانقض على الحوت كما ينقض المبارز الاركنساسي على خصمه ، وسعى في حنق عشواني بشفرة تبلغ ست بوصات الى أن يستل حياة الحوت من أعماق أعماقه السحيقة . ذلك هو آخاب القبطان . ثم كان ما حدث أن طوّح موبي ديك فكّه السفليّ الذي يشبه المنجل ، من تحته فجأة ، وحصد به رجل آخاب ، كما يحشّ الحصّاد سنبلة من الحقل . وما كان لأحد سواه أن يسدد ضربة مثلها ناضحة بالضغينة الحاقدة ، لا أستثني من ذلك تركيا معمماً أو أحد أبناء البندقية أو الملايو الذين يستأجرون للقتل . اذن فليس ثمة من ريب في أن آخاب بعد ذلك اللقاء الذي كاد يودي به هالكاً احتقب في صدره نحو الحوت حقد الموتور ، وزاد حقده ضراماً أنه أخذ في علته الحانقة يرى الحوت مسؤولاً عن مصابه الجسماني كله وعن مرارة الحزن والضغينة التي استولت على عقله وروحه . وحين مضى الحوت الأبيض أمامه سابحاً تمثله صورة المسّ التي تجسدت فيها كل العوامل الحاقدة التي يحس بها بعض الخبثاء الماكرين تتأكل في دخائل نفوسهم حتى لتترك أحدهم يحيا بنصف قلب وبعض رئة . ذلك الحقد المجرّد الذي كان منذ بدء الخليقة ، ذلك الحقد الذي يؤمن بعض المسيحيين المحدثين ان نصف العالم ينتمي الى سلطانه ، ذلك الحقد الذي اتخذ له الاوفيتيون[1] القدامى في المشرق

---

(١) فرقة غنوصية بدائية يقدرون قوى الشر ويشبهون في هذا فرقة اليزيدية .

تمثال شيطان وعبدوه ، لم يسجد آخاب أمامه خاشعاً عابداً مثلهم وإنما نقل صورته وهو في شبه بحران الى الحوت الأبيض البغيض وضرّم في نفسه الثورة الناقمة عليه وهو يتلمّس مدى التشويه في جسمه وروحه . ورأى آخاب الذي أصابه المسّ كل ما يثير الجنون ويستفز العذاب وكل ما يستثير رواسب الأشياء ، وكل حقيقة يستكن فيها الحقد وكل ما يفتت القوى العضلية ويشوي الأدمغة ، وكل ضروب الشيطنة الماكرة التي تعشش في الحياة والفكر ، رأى كل ذلك أي كل الشرّ مجتمعاً قد تمثل كائناً مرئياً يمكن له أن ينقض هاجماً عليه في صورة موبي ديك . وفوق حردبة الحوت البيضاء كدّس جميع الغضب والكره اللذين جريا في نفوس بني جنسه منذ عهد آدم ثم فجّر قنبلة قلبه الملتهبة على تلك الحردبة كأنما اتخذ من صدره مدفعاً .

ولعلّ هذا المسّ فيه لم ينشأ دفعة ، وقت أن فقد رجله ، ذلك أنه حين انقض على الوحش ومديته في يده أطلق العنان لعداوة مفاجئة متضرمة جسدية فلما تلقى الضربة التي بترت منه شلواً حينئذٍ لعله لم يحسّ إلا بالتمزق الجسدي المؤلم ولا شيء سواه . غير أن آخاب حين اضطرته الصدمة الصادمة للعودة نحو الوطن واستلقى أشهراً مسهدة طيلة الأيام والأسابيع ، ممدداً هو والعذاب في أرجوحة واحدة يدور في صبارة قرّ الشتاء حول رأس باتاغونيا الموحش العاوي ، حينئذٍ تسرب النزيف من جسمه الممزق الى روحه الجريحة وبالعكس وتمازج النزيفان معاً فجعله اختلاطهما مختلطاً مجنوناً . ومما يؤكد أن هذا المسّ النهائي لم يصبه إلا وهو عائد بعد ذلك اللقاء ، إنه كان في بعض الفترات أثناء الرحلة يهذي كالمقمور المخبول ، وأن قوته الحيوية ، وإن فقد رجله ، كانت ماتزال تكمن في صدره الأسود وقد زادتها غيبوبته حدة حتى اضطر ضباطه أن يوثقوه بالأغلال وهو مبحر يهذي في أرجوحته . وأخذ وهو في معطف المجانين الضيق المشدود يتقلب وفق تناوح الرياح المجنونة ؛ وعندما وقعت السفينة في عروض مقبولة عامت وقد نشرت أشرعتها الخفيفة في ريح رخاء عبر المياه الاستوائية الساجية . وحينئذٍ دلت الظواهر جميعاً على أن الرجل العجوز خلّف بحرانه الهادي وراءه بين أثباج رأس هورن وخرج من كهفه المظلم الى نعيم النور والهواء . وحين بدت طلعته حازمة واثقة على شحوبها ، وأخذ يصدر أوامره الهادئة الرزينة مرة أخرى ، وتوجه ضباطه الى الله يشكرونه على أن جنون قبطانهم قد بارحه ، أقول حتى حينئذٍ كان آخاب مايزال يهذي في دخيلة نفسه . ذلك أن الجنون الانساني كثيراً ما يكون ماكراً خبيثاً ، يتحول ، وقد ظننته تولّى ، في صورة أشد قدرة على التسلل لواذاً . وكذلك كان جنون آخاب المطبق ، فإنه لم يهدأ وإنما انكمش وغار في أعماق سحيقة كنهر

الهدسن حين يضيق به المجرى وماؤه على حاله من الغزارة وينفذ من ممرّ التلال فوق عمق لا يسبر له غور ، وفي المجرى الضيق الذي انساب فيه جنون آخاب الغزير المستعرض لم تتخلف نقطة واحدة كذلك لم تغرق في ذلك الجنون الغزير المستعرض نقطة واحدة من عقله الطبيعي الكبير . فذلك العامل الحيويّ الذي كان ، أصبح أداة حيوية ، اذا صحّ لهذه الاستعارة العنيفة أن تصدق قلت أن جنونه الخاص غزا تعقله العام وأخذه أسيراً وحوّل مدفعه المصوب نحو هدفه المجنون حتى أن آخاب لم يفقد شيئاً من قوته الموجهة نحو غايته الوحيدة بل أصبح يمتلك ألف ضعف من الطاقة التي كان يوجهها أبداً في عهد التعقل نحو أي هدف واحد معقول .

وفي هذا القدر كفاية . غير أن الجزء الأكبر الأعمق الأعتم من آخاب لم ينل منّا تلميحاً كاشفاً . لا طائل في نبش الأعماق ليعرفها الناس وكل حقيقة فانما تكمن في الأعماق . نحن الآن نقف على قمة فندق كلوني المروّس[1] فلنغادره مهما يكن فخماً عجيباً ذاهبين في طرق متعرجة من خلال قلبه . شقي طريقك ايتها الأرواح ذات المنزع الشريف الاسيان الى أبهاء ثرمس الواسعة الرومانية في طرازها حيث اصول جلال الانسان أي جوهره المهيب يجلس في وقار الملتحين بعيداً بعيداً تحت الأبراج الوهمية القائمة في هذه الأرض العليا ، جوهر عاديّ قديم مدفون تحت العاديّات ، جالس على عرش من أجساد انسانية مبتورة الأطراف . تسخر الآلهة العظيمة من ذلك الملك المأسور جالساً فوق عرش محطم مشوه . ويجلس هو كأنه تمثال امرأة اتخذ سارية في رواق ، صابراً ساكناً يسند فوق جبهته الباردة اروقة العصور . تَعطفي متعرجة في طريقك ايتها الأرواح الذاهبة في استكبارها وأساها . سلي ذلك الملك المستكبر الاسيان . صفاتك من صفاته ومن أشبه اباه فما ظلم! فأنت من نسله ايتها الأرواح الغضة المنفية ، ربيبة ملك . سليه فلا يعرف سرّ الدولة العريق الا من هذا الوالد الجاهم .

كانت تلتمع في قلب آخاب ومضة فحواها : كل وسائلي سليمة عاقلة غير أن دوافعي وغاياتي مجنونة . الا أنه كان يعرف ايضاً دون أن تكون لديه قوة ليقتل الحقيقة أو ليغيرها أو ليتحاشاها بأنه كان يواري حقيقته ويكتمها عن الناس منذ عهد بعيد ومايزال يواريها على نحو ما . الا أن أمر ذلك الكتمان كان يقع تحت ادراكه الحسيّ فحسب لم يكن خاضعاً لحزمه الارادي . ومع ذلك فقد وفق في التورية والتنكر حتى أنه حين كان يخطو على البر

---

(١) متحف بباريس حاول ملفل أن يزوره في أول كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٩ فوجده مغلقاً .

برجل عاجية لم يتصوره أي نانتوكي الا أنه حزين حزناً طبيعياً ، بلغ منه مبلغاً ، بسبب ذلك العارض الفظيع الذي أصابه .

وقد نسب الناس الخبر عن البحران الذي أصابه في البحر الى سبب مماثل أيضاً ؛ وكذلك فعلوا أيضاً في شأن ذلك التقلب المزاجي الذي يخيم دائماً على جبهته من بعد حتى اليوم الذي أبحرت الباقوطة فيه في هذه الرحلة . ولعل أهل تلك الجزيرة الذكية الماهرين في التقدير والحساب كانوا أبعد من أن يسينوا الظن بكفايته للخروج في سفرة تحويت أخرى بسبب من تلك الأعراض الكابية فوق جبينه فجنحوا الى أن يُسرّوا التوهم بأن هذه الأسباب نفسها جعلته صالحاً متأهباً للقيام بمطاردة ملينة بالغضب والوحشية كالمطاردة الدامية في صيد الحيتان . واذا وجد رجل يعضه الحَرَضُ الدخيل ويحرق الغضب ظاهره ، وقد داءت نفسه بفكرة لا يرجى شفاؤها ذات مخالب محددة ضارية لا تنكل فمثل هذا الرجل قد يكون «عينه فراره» ـ هو هو الذي يصلح أن يقذف رمحه ويرفع حربته ضد أشد الوحوش هولاً وافزاعاً . واذا تعرض الظن بأنه عاجز جسدياً ، فانه قد يكون أبعد الناس كفاية في أن يحفز اتباعه ويذمرهم ويستثير نخوتهم عند الهجوم . ومهما يكن من أمر هذا التقدير ، وهو يقيني ، فان آخاب الذي جعل سرّ غضبه المتضرم ـ وهو سرٌّ مجنون ـ حبيس نفسه وأقفل عليه وضبب بمزلاج ، قد عمد الى السفر في هذه الرحلة ولديه غاية ـ وحيدة ـ لا ثاني لها ، استغرقت وكده كله ، وتلك هي صيد الحوت الأبيض . ولو أن بعض معارفه القدامى على البر خطر لهم شيء مما كان يعتلج في نفسه لانقضت عليه أرواحهم المأخوذة المعتدلة وانتزعت السفينة من مثل ذلك الرجل الشيطاني! كانوا يسعون الى رحلات دارّة بالربح ليقبضوا بالغلة الحاصلة دولارات خارجة من دار الضرب ، أما هو فكان مطويّ النفس على انتقام خارق وقح لا ينادى وليده .

ها هنا اذن شيخ أشيب الرأس كافر النفس يطارد باللعنات حوت أيوب حول العالم على رأس بحارة جلهم من أفناء الخلعاء المارقين والأرذال المنبوذين وآكلي لحوم الآدميين . ومما زاد في معنوياتهم ضعفاً قلة غناء الفضيلة أو الاستقامة المخذولة التي لا تجد لها نصيراً لدى استاربك ، والخفة وقلة المبالاة والاستهتار ـ تلك الخلال التي يعتصم بها اسطب ، والتوسط الغالب في الكفاية عند فلاسك . مثل هؤلاء البحارة ، يسوسهم مثل هؤلاء الضباط ، كأنما انتقاهم وحشدهم قدر جهنمي ليعينوه على ثأره المجنون . كيف اتفق لهم أن استجابوا عن بكرة أبيهم لغضب الشيخ ـ بأي سحر شرير حاز أرواحهم حتى انتحلوا الكراهية التي لديه فأصبحت هي كراهيتهم ، وأصبح الحوت الأبيض عدوهم اللدود مثلما هو عدوه ـ كيف تمّ كل

ذلك ، كيف كان الحوت الأبيض في نظرهم أو كَيف كان يبدو لفهمهم الخفي اللاواعي على نحو مبهم يقيني في صورة الشيطان الكبير الذي ينساب في بحار الحياة ـ هل من تفسير لكل ذلك ؟ هذا يتطلب عمقاً أبعد غوراً مما يستطيعه اسماعيل . فينا جميعاً حفَّار دخيل لا يكفّ عن العمل في منجمه لكن أنى لنا أن ندري الى أين يتجه النفق الذي يحفره من الاستماع الى صوت فأسه المكتوم المتنقل ابداً ؟ من ذا الذي لا يحس بجذبة ذراع لا يستطيع مقاومتها ؟ أي زورق «اسكف» بين أربعة وسبعين مربوطة بحبل يقف ثابتاً لا يهتز ؟ أما أنا فاني أسلمت نفسي طائعاً لرحمة الزمان والمكان . وبينا أنا في أشد اندفاع لمواجهة الحوت لا أرى شيئاً في ذلك الوحش سوى دائرة السوء المميت .

٤٢

بياض الحوت

ماذا كان يعني الحوت الأبيض لدى آخاب ، ذلك ما ألمعت اليه ؛ أما ماذا كان يعني لديّ ـ في بعض الاحايين ـ فذلك شيء لم أتحدث عنه حتى الآن .

هناك خاطرة أخرى أو قل رعب غامض لا يوصف فيما يتصل بموبي ديك ، عدا تلك الاعتبارات الواضحة التي لم تستطع الا أن توقظ بعض الفزع والتوجس في روح الانسان . غير أن تلك الخاطرة كانت تهيمن في حدتها هيمنة تامة على سائر المخاوف . إلا أنها غريبة غامضة ، قريبة يعجز التعبير عنها ، حتى لأكاد أيأس من وضعها في صورة مفهومة . تلك هي بياض الحوت ، فقد كان بياضه يفزعني أكثر من كل شيء آخر . ولكن كيف أرجو أن أعبّر عن نفسي في هذا الأمر ؟ على أنه لابد لي من التعبير عن نفسي ولو على نحو غانم عارض وإلا كانت كل هذه الفصول خواء .

كثير من الأشياء الطبيعية يزيد البياض في جمالها ويرهف منه كأنما يسكب عليها فضيلة من ذاته ، مثلما هي الحال في الرخام والسفرجل الياباني واللآلئ . وقد رأت كثيرٌ من الشعوب ـ حتى الهمجية منها ـ في هذا اللون تفوقاً ملكياً ، حتى أن قدامى ملوك بيجو العظماء وضعوا لقب « سيد الفيلة البيض » على سائر المتعلقات الملكية الفخيمة ، وأبرز ملوك سيام المحدثين صورة الفيل الأبيض على العلم الملكي[١] . وحمل علم هانوفر صورة وحيدة هي صورة جواد فاره ناصع البياض . أما الامبراطورية النمساوية القيصرية التي ورثت روما السيدة المتبسطة فقد اتخذت اللون الأبيض رمزاً امبراطورياً . وبسبب البياض كذلك نُسب التفوق الى الجنس الانساني فمُنح الانسان الأبيض سيادة مثالية فوق كل الشعوب

(١) كانت الحرب بين أمراء سيام في القرن السادس عشر تقوم في سبيل احتياز الفيل الأبيض ، وهم يسمون الملك « ملك الفيل الأبيض » ، ويكون هذا الفيل ملكاً على سائر الفيلة ، والمسألة راجعة الى عقيدة دينية في أصلها .

الملونة . ثم كان البياض الى ذلك كله دلالة على السرور ، فكان الرومان يرون الحجر الأبيض علامة على اليوم البهيج . وفي كثير من الشعائر والرموز جعل هذا اللون رمزاً لأشياء حساسة شريفة مثل طهر العروس وسمت الشيخوخة . وبين الحمر في أميركا يعد تقديم النطاق من الخرز الأبيض أعمق مظاهر التشريف والتبجيل . ويمثل البياض في كثير من الأجواء عظمة العدالة في فروة القاضي ، ويضفي شأناً على سلطان الملوك والملكات الذين يمتطون الجياد الكريمة الناصعة . وقد جعل البياض في غيبيات الأديان الكبرى رمزاً للطهارة المقدسة والسلطان ؛ فيرى المجوس أن الشعلة البيضاء المنشعبة أقدس شيء على المذبح ؛ وتقول الأساطير اليونانية أن زفس العظيم تجسد ذات مرة في صورة ثور ناصع البياض . كان الايروقيون ذوو المحتد الكريم يضحون في منتصف الشتاء كلباً أبيض مقدساً ويتخذون ذلك اليوم أقدس أعيادهم ، ويعتقدون أن ذلك الحيوان الطاهر المخلص أنقى رسول يذهب الى «الروح العظمى» حاملاً له تقريراً سنوياً عن اخلاصهم ووفائهم . ومن اللفظة اللاتينية التي تعني أبيض Alb استمد الأساقفة المسيحيون اسم واحد من أقدس الثياب التي يلبسونها وهو «الألب» أو الرداء المزنّر الذي يلبسونه تحت الكازاك . وكان البياض في الدين الرومي يستعمل بين مظاهر الأبهة المقدسة في ذكرى آلام الصلب . وفي رؤيا القديس يوحنا تقدم الثياب البيض الى الذين قتلوا من أجل كلمة الله ، ويقف الأربعة والعشرون شيخاً متسربلين بثياب بيض حول العرش الأبيض العظيم ، والواحد الذي استوى على العرش أبيض كأنه الصوف ؛ ومع كل هذه الشؤون التي تجمع فيها كل ما هو عذب وشريف ورائع فإنه مايزال يكمن في دخيلة الفكرة عن البياض شيء روّاغ يصيب الروح بالهلع أكثر من الحمرة التي تفزعها حين ترى الدماء .

هذه هي الصفة الروّاغة التي تجعل البياض إذا فصل من القرائن الوديعة اللطيفة ووصل بشيء مرعب ، يزيد ما فيه من رعب حتى الذروة . تأمل الدب القطبي الأبيض والقرش الأبيض في البحار الاستوائية : ما الذي يجعلهما رعباً راعباً سوى بياضهما الناعم الشامل ؟ ذلك البياض الكالح هو الذي يضفي ذلك اللطف البغيض الممقوت الذي يثير التقزز أكثر مما يثير الفزع على الحملقة الخرساء في مظهرهما . حتى أن النمر ذا المخلب المضرّى في بردته التي تنبئ عن شراسته لا يستطيع أن يصيب الشجاعة بالترنح مثلما يصيبها الدب أو القرش المشتملان بشملة بيضاء* .

* بالاشارة الى الدب القطبي فقد يقول من يلذه أن يتعمق هذه المسألة ، ليس بياض الدب إذا نظرت اليه منفصلاً هو الذي يعلي من درجة الرعب الذي لا يطاق في هذا الوحش إذ قد يقال أنك إذا حللت هذا الرعب المستزاد وجدته ينشأ من أن وحشية هذا =

وفكّر في طير الفطرس من أين جاءت سحب الدهشة الروحية والرعب الشاحب الذي يبحر فيها ذلك الشبح الأبيض في الأخيلة جميعاً . لم يكن كولردج أول من ألقى تلك الرقية السحرية . أول من ألقاها شاعر الحضرة الالهية الذي لا يشاري ولا يماري أعني الطبيعة* .

وما أعظم شهرة جواد السهوب الأبيض في تواريخ الغرب الأمريكي وفي الموروث الهندي! حصان رائع فاره في بياض اللبن ، ذو عينين نجلاوين ورأس صغير وجؤجؤ رابٍ وعزة كعزة ألف ملك هو في هينته الشمّاء المغالية في الاستخفاف ، انتخب ملكاً على قطعان الخيل البرية العديدة وكانت مراعيها في تلك الأيام تمتد بين جبال روكي وجبال الليغاني . في طليعتها الوهاجة كان يرود بها مرتبناً متجهاً نحو الغرب كأنه ذلك النجم المرموق الذي يقود فكل مساء جيوش الضياء . وقد زودته معرفته التي تشبه الشلال المتلألئ الوضاء وذنبه الذي يشبه الشهاب المنقض بزينة أشد تألقاً مما يستطيع صاغة الذهب والفضة أن يزوده به . ترى فيه طيفاً ملكياً ملائكياً من ذلك العالم الغربي الحيّ الذي كان يجلو لأعين قدامى القناصين

= المخلوق محاطة من حولها بجزة من البراءة والحب السماويين فإذ يجتمع شعوران متناقضان لدينا يخيفنا الدب القطبي بهذه المفارقة ولكن لو سلمنا بصحة هذا كله لقلنا أنه لولا البياض لما تمّ هذا الخوف الحاد . وأما القرش الأبيض فإن السكينة الشبحية المنسابة في صورة ذلك الحيوان حين يرى في أحواله العادية تضاهي على نحو غريب تلك الصفة نفسها في الدب القطبي . وقد وفق الفرنسيون في إبراز تلك الصفة في القرش في تسميتهم له باسم Requin وهي كلمة تذكر بلفظة Requiem « وتعني راحة الموت » - ثم أطلقت على القداس الجنائزي - وهذا القرش أبيض صامت صمت الموت .

* اذكر أول طائر فطرس رأيته في حياتي . كان ذلك في هبة ريح طويلة في المياه فوق البحار القطبية ، من نوبة حراسة الظهيرة في الأسفل صعدت الى ظهر السفينة المغطى بالغيوم وهناك عند مدخل العنابر رأيت شيئاً مريشاً ملكي السمت ذا بياض صافٍ وعرف مقوس روماني وبين الحين والحين كان يقوّس جناحي ملاك كأنما يريد أن يعانق تابوت عهد . وكانت تهزه خفقات وانتفاضات عجيبة . لم يصبه أذى جسماني غير أنه كان يرسل الصيحات كأنه شبح ملك في مصيبة لا قبل له بها وأظنني رأيت في عينيه الغريبتين اللتين لا يستطاع تفسيرهما أسراراً تجلى فيها اللّه فانحنيت كما انحنى ابراهيم قدام الملائكة . كان ذلك الشيء الأبيض أبيض ناصعاً يفرد جناحيه على مدى واسع وكنت في تلك المياه المنقطعة قد فقدت الذكريات التعيسة المنحرفة - ذكريات التقاليد والمدن . وطويلاً حدقت في تلك الاعجوبة من الريش . لا أستطيع أن أحدث بما تغلغل في نفسي وإنما ألمح اليه الماحاً . وأخيراً استيقظت والتفت فسألت بحاراً ، أي طير هو ذاك ؟ فأجاب ، Goney ولم أكن سمعت بهذا الاسم من قبل واعتقد أن هذا الطير المجيد غير معروف للناس على البر ؛ أبداً! ومن بعد عرفت أن هذه اللفظة هي اسم طائر الفطرس عند بعض الملاحين ، ولا يمكن أن تكون قصيدة كولردج العجيبة ذات علاقة بتلك الانطباعات الغريبة التي ألمت بي عندما رأيت ذلك الطائر على ظهر السفينة ذلك أني لم أكن قرأت القصيدة ولم أكن أعرف أنه هو طائر الفطرس . غير أني حين أقول هذا فإني بطريقة غير مباشرة أزيد من ألمعية فضل تلك القصيدة وصاحبها .

أؤكد اذن ان سحر السحر يكمن لي ذلك البياض الجسدي العجيب في الطائر وهي حقيقة يؤيدها تسميتهم لبعض أنواع الفطرس باسم الفطرس الداكن وقد رأيت هذا النوع ولكن مشاعري لم تكن كمشاعري يوم رأيت الفطرس الأبيض .

ولكن كيف امسك ذلك الطائر الغريب ؟ هل تصون السر ؟ ان كنت تفعل حكيت لك . بصنارة خائنة غدارة وحبل حين كان الطائر يعوم فوق الماء . وأخيراً جعل منه القبطان رسولاً اذ ربط حول عنقه قطعة من جلد كتب عليها الوقت والمكان ثم أطلقه . ولكني لا أشك في أنّ تلك القطعة الجلدية التي كتبت ليراها الناس أخذت في السماء حين طار الطائر الأبيض لينضم الى صف الملائكة المهللين المسبحين!

وناصبي الفخاخ أمجاد الأيام الأولى حين كان آدم يمشي في أبهة وسناء كأنه إله ، مقعنساً غير هياب كأنه هذا الجواد الجريء . وسواء أكان ذلك الجواد الأبيض يمشي بين أركان حربه ومارشالاته في طليعة كتائب تموج دوماً فوق السهول كأنها نهر أهايو أو كان بين رعاياه المطيفين به وهي ترعى في نطاق واسع على مدى الأفق فإنه كان يتفقدها بمنخريه الدافئين المحمرين وسط بياضه البرود . وأياً كان المظهر الذي يطالع به الناس فقد ظل لدى أشجع الهنود موضع اجلال راعش ورهبة متهيبة . ليس للشك مجال فيما بني على شهادة الأساطير عن هذا الجواد العتيق اذ تقول أن بياضه الروحي بخاصة هو الذي وشحه بالقداسة ، وأن في هذه القداسة ما استخرج الخشوع من العابدين وفيها ما أثار في الوقت نفسه رعباً لا يحده وصف .

غير أن هناك أمثلة أخرى يفقد فيها البياض كل هذه الحواشي وذلك المجد الغريب الذي يكتنفه في الجواد الأبيض وطائر الفطرس .

ما الذي في المُغْرَب ينفّر العين ويصدمها ليشمئز منه أحياناً الأهل والأصحاب ؟ هو ذلك البياض الذي يكتنفه . لقد خلق المغرب في أحسن تقويم كغيره من الناس دون أن يكون فيه تشويه جوهري ، مع ذلك فإن تفشّغَ البياض فيه يجعله بشعاً أكثر من أي طرح بشع قبيح . فلمَ ذلك ؟

ولم تنسَ الطبيعة في مظاهر أخرى أن تجعل البياض صفة تكلل بها سائر صفات المفزع من قواها الخفية أو شبه الخفية التي ليست ـ على خفائها ـ أقلّ من سواها حقداً وحفيظة ؛ فشبح البحار الجنوبية الضاوي يسمونه بسبب مظهره الثلجي «العاصفة البيضاء» . كذلك لم ينسَ فنُّ الحقد الانساني أن يستعين بهذا اللون القدير في بعض الأحداث التاريخية . فالمستينسون المقلّسون بالقلانس البيض من غنت يقدمون على ذبح وكيل الحاكم بمقاطعتهم في سوق المدينة[1] ؛ ومما يزيد في روعة وصف الحادث حسبما أورده فرواسارت اتخاذ تلك العصبة رمزاً ثلجي اللون ـ أعني قلانس بيضاء يتقنّعون بها .

وفي بعض الأمور لا تقصر التجربة العامة المتوارثة عند البشر جميعاً عن أن تشهد بما بهذا اللون من قوة خارقة للعادة . فلا ريب في أن الصفة المنظورة في منظر الميت التي تخيف المشاهد هي ذلك الشحوب الرخامي البادي فيها كأنما الشحوب يشبه شارة الهلع في العالم الثاني مثلما أنه شارة الجزع في عالم الفناء . ومن صفرة الموتى استعرنا اللون المعبّر للأكفان التي ندرج فيها الموتى . كذلك نحن لا ننسى أن نطرح هذه الملاءة البيضاء في أساطيرنا على كل الأشباح فنصورها وقد أخذت ترتفع في ضباب أبيض كاللبن ـ ولنضف الى

---

(١) كان ذلك عام ١٢٧٩ اذ أقدمت عصبة من ذوي القبعات البيض يقودها جون ليون على قتل روجر دوترف وكيل ايرل مقاطعة فلاندر ، في سوق المدينة . وقد وصف جون فرواسارت هذه الحادثة في كتابه : «حوليات انجلترا وفرنسا واسبانيا» .

ما تقدم وهذه المفزعات آخذة بمجامع قلوبنا ، ان الواعظ الانجيلي حين يريد أن يجعل ملك المفزعات مشخصاً متجسداً يصوره راكباً على حصان أبيض[1] .

اذن فإن الانسان قد يجعل البياض رمزاً للجليل والمهيب ولكنه لا أحد ينكر أن هذا البياض في حالات نفسية أخرى قد يستحضر في أعمق دلالاته المثالية صورة الشبح أمام الروح .

وإذا كانت هذه المسألة تلقى اجماعاً فكيف للانسان الفاني أن يعللها ؟ قد يحاول تحليلها فيجده أمراً مستحيلاً . إذن فهل نستطيع أن نستقرئ أمثلة يكون فيها البياض قد تعرى أو كاد من الملابسات المباشرة التي تلصق به معاني الرعب ، غير أنه مع ذلك يظل يأخذ بمجامع قلوبنا على نحو معتدل ؟ هل نرجو أن نقع على قبس يهدينا الى السبب الخبيء الذي نفتش عنه ؟

تعال نجرب . لكن لنذكر أن الدقة المتسللة في مثل هذا الأمر لا تستجيب الا للدقة المتلمسة ولا يستطيع امر أن يتبع آخر في هذه المسارب دون عون من خيال ، ومع أن بعض الانطباعات التخيلية التي سنقدمها هنا كانت ـ دن ريب ـ شركة بين معظم الناس الا أنه قلما وعاها أحد منهم في حينها ولذلك فقد يعجز المرء عن تذكرها في هذا المقام .

تصوّر شخصاً ذا مثالية لم ينلها بالتقشيف ، اتفق له أن يعرف طبيعة أحد العنصرة ، معرفة عابرة غير محكمة ، وقل لي لماذا تسترسل في خياله اذا ذكر اسبوع العنصرة محض ذكر سلسلة من مواكب طويلة كئيبة صامتة يمشي فيها حجاج بطيئو الخطوات مطأطئو الهامات مقنعون بقلانس من الثلج الذي سقط حديثاً ؟ أو خذ بروتستانتياً أمياً ساذجاً من احدى الولايات المتوسطة بأمريكا وقل لماذا اذا ذكرت له الراهب الأبيض أو الراهبة البيضاء ذكراً عابراً أثار ذلك في روحه صورة تمثال أعمى .

وقلعة لندن البيضاء : عدّ عن الروايات التي تحدثنا عن من سجن فيها من الملوك والمحاربين فتلك روايات لا تعلل تماماً خطورة شأنها وقل لي ما الذي يجعل تلك القلعة ذات أثر بعيد في خيال الأمريكي الذي لم يتمرس بالأسفار أبلغ من أثر تينك القلعتين الشاهقتين جارتيها : قلعة بايورد والقلعة الدامية .

ثم الجبال البيض في نيو هامشير هي قلاع أعلى وأرفع : لمَ يطيف بالروح لدى ذكر اسمها محض ذكر في يعض الحالات النفسية « شبحية » مهولة ضخمة بينا يبعث ذكر سلاسل فرجينيا الزرقاء « حلميّة » ناعمة ندية قصية . أو لم يقع الخيال في إسار « الطيفية » اذا ذكر اسم البحر

---

(١) انظر سفر الريا ٦ ٢ فنظرت وإذا فرس أبيض والجالس عليه معه قوس وقد أعطي اكليلاً ؛ والسفر نفسه ٨ وإذا فرس أخضر والجالس عليه اسمه الموت (وهنا أخضر ترمز الى الشحوب) .

الأبيض ـ بقطع النظر عن موقعه ـ أما اسم البحر الأصفر فإنه يهدهد الخيال بخواطر عن أصائل وديعة مزعفرة قضاها المرء على الأمواج ، مشفوعة بأبهى ساعات الغروب وأشدها سِنَة . أو لنأخذ مثلاً لا علاقة له بالمادة ، يتأدى الى الخيال خالصاً شفافاً : لماذا اذ نقرأ في قصص أوروبة الوسطى عن الجنيات القديمة يتبدى لنا « الرجل الطويل الشاحب » الذي يعيش في غابات هارتز ـ وهو الذي تنساب صفرته الثابتة الملازمة بين خضرة الغابات دون أن تحدث حفيفاً ـ أقول : لماذا يتمثل هذا الشبح أشد افزاعاً من جميع الأقزام الذي يزعقون ويصرخون في جنبات الغاب ؟

ومدينة ليما[1] التي لا تسكب دمعة واحدة على مصائبها : ليس الانقباض الذي يعلو صفحتها صادراً فحسب عن تذكرها للزلازل التي دكت كاتدرائيتها ، ولا عن ضروب الذعر التي أثارتها بحارها المهتاجة ، ولا عن مرأى ذلك الحقل المديد من المآذن المنارات المائلة وأحجار الزوايا المتناثرة والصلبان المنحنية (كأنها السواري المائلة في اسطول راسٍ) ، وشوارع ضواحيها قد كدست فيها الجدران تكديساً كأنها رزمة من البطائق مطروحة . لا ليست هذه الأمور وحدها هي التي تجعل ليما أغرب المدن وأشدها تعاسة وإنما لبست ليما القناع الأبيض ، وفي بياض مصابها رعب أشد هولاً . وهذا البياض يجعل خرائبها كأنها حدثت أمس وإن كانت هي قديمة مثل بزارو ، ولا يسمح بنمو الخضرة على دمنها ومطارح بلاها ، وإنما ينشر فوق حصونها المتهاوية صفرة السكتة الصارمة فتخلد ما فيها من تشويه .

وأنا أعلم أن المفهوم العام لدى الناس لا يعترف بأن ظاهرة البياض هي العامل الأول الذي يزيد في رعب ما هو مرعب وأن العقل ذا الخيال القاصر لا يرى شيئاً من الرعب في تلك المظاهر التي يراها عقل آخر حافلة بالرعب بسبب من هذه الظاهرة وحدها وبخاصة حين تبدو في أي شكل يشارف حدود الخرس أو الشمول . ولعلني أوضح ما أعنيه بهذين القولين في مثلين تاليين :

أولاً : حين يقترب الملاح من شواطئ بلاد أجنبية يهبّ الى الحراسة حين يسمع ليلاً هدير الموجات الكبار ويحسّ بقدر من الهلع يكفي ليشحذ ملكاته وحواسه . ولكن ادعه في مثل هذه الظروف نفسها من أرجوحته ليرى سفينته مبحرة خلال منتصف الليل في بحر من البياض الذي يشبه اللبن ـ كأن ألسنة برّ تطيف به من كل جانب وقد أخذت تسبح من حوله حشود من الدببة البيض المقلنسة المتدافعة ـ حينئذٍ يشعر برعب صامت كالذي تبعثه الخرافات ؛ واذا طيف المياه

(١) أسسها فرنشسكو بيزارا عام ١٥٣٥ اتخذها عاصمة ، وقد هدمت الزلازل عام ١٧٤٦ قسماً كبيراً منها . كذلك أحدث فيها زلزال آخر عام ١٨٢٨ خراباً بالغاً ، وقد زارها ملفل زورة قصيرة بين ٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٣ و٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٤٤ .

المبيضة الملففة بالأكفان يرعبه كأنه شبح حقيقي وعبثاً ما يحاول الحبل أن يقنعه بأنه مايزال بعيداً عن أن يبلغ الأغوار سبراً . وإنما يهبط قلبه وترتخي يده عن دفة سفينته ، ولا يطمئن باله الا إذا أصبح فوق الماء الأزرق . ولكن أين هو هذا الملاح الذي قد يقول لك : « سيدي لم يكن خوفي من الارتطام بصخور خبيئة وإنما من ذلك البياض المفزع هو الذي أقلقني » .

ثانياً : إن الهندي من أبناء بيرو لا تبعث في نفسه رؤية جبال الانديز التي يعلوها هودج من الثلوج أي شيء من الرعب ، اللهم الا أن يكون من تصور الوحشة والعزلة الصقيعية الأبدية التي تهيمن على تلك الأعالي الشاسعة وتخيل للمرء على نحو طبيعي ما قد يصيبه من خوف لو أنه ضلّ طريقه في تلك العزلة الموحشة . ومثل ذلك حال قاطع الاخشاب في الغرب الأمريكي فإنه لم يلحظ السهوب المترامية بقسط ضئيل من الاكتراث وقد التحفت بالثلج وليس فيها ظل لشجرة أو لغصن يوقظ الغيبوبة المصلوبة التي نشرها البياض . وليس كذلك حال البحار حين يرى مناظر البحار القطبية فإنه يرتعش من البرد وتشرف سفينته على الغرق ، وكأنما قوى الصقيع والهواء تأخذه بحيلة جهنمية من حيل المشعوذين فبدلاً من أن تريه قوس قزح متحدثاً اليه بالرجاء وبالعزاء في محنته ، تخيّل له أنه يرى مقبرة كالحة كاشرة عن أنيابها له ، وفيها نصب ثلجية دقيقة وصلبان مشظّاة متفلقة .

ولكنكم قد تقولون : هذا الفصل الأبيض الطويل عن البياض ليس إلا علماً أبيض ترفعه روح امرئ مستسلم جبان . لقد استسلمت يا اسماعيل للأوهام السوداوية .

خبروني : هذا المهر القويّ الأرن الذي يفتلي في وادٍ آمن من فيرمنت بعيداً عن كل الضواري ـ اذا جئته في يوم مشمس وضاح وحركت خلف ظهره جلد ثور سلخ حديثاً دون أن يراه بل يشم شذا رائحته الحيوانية الغريبة ـ لماذا يفزع وينخر وتجحظ عيناه ويدق الأرض في نزوات مخبولة من الهلع ؟ ليست لديه ذكريات عن طعنات دامية سببتها مخلوقات متوحشة في موطنه الشمالي الأخضر حتى يقال أن الشذا الغريب الذي شمه ذكّره بشيء مرتبط بتجربته لأخطار سابقة . اذ ما الذي يعرفه هذا المهر ربيب نيو انجلند عن حيوان البيسون ساكن اوريجون البعيدة ؟

على رسلكم اذن . انكم لتشهدون هنا أن غريزة التعرف الى الشر الشيطاني في الكون موجودة حتى في الحيوان الأعجم فهو وإن كان يبعد آلاف الأميال عن اوريجون مايزال اذ يشم ذلك الشذا الوحشي يتمثل قطعان البيسون النطّاحة الممزّقة كما يتمثلها أخوه الذي لايزال برياً سارحاً في السهوب ، وربما كانت قطعان البيسون تعفره في الثرى في هذه اللحظة .

كذلك اذن هي التدفعات المكتتمة في البحر ذي البياض كأنه اللبن . والحفيف البارد

الذي يحدثه صقيع الجبال المزخرف والتحولات الكئيبة التي تأتيها ثلوج السهوب حين تذروها الرياح . كل هذه لدى اسماعيل هي هزة جلد الثور للمهر المرتاع .

نعم لا أحد يعرف أين تقع تلك الأشياء التي لا تسمّى ، والتي تبعث علاماتها الغريبة مثل هذه اللمحات ولكني أنا والمهر نعتقد بوجود تلك الأشياء ، ولا بدّ . واذا كان أكثر مظاهر الكون المرئي قد خلق من مادة الحب فإن الأفلاك غير المرئية إنما صنعت من الرعب .

ولكن لم نفكّ لغز هذا البياض فقد عرفنا سحره وعلمنا كيف تستجيب له الروح بقوة وأغرب من هذا وأشد احتفالاً بالأسرار ـ حسبما تقدم ـ أنه من بين الرموز الروحية أكثرها مغزى لا بل إنه الحجاب الالهي ثم هو بعد كل ذلك ، ورغم كل ذلك ، هو العامل الذي يُغلي من حدة الخوف في أشد الأشياء اخافة للانسان .

أهو أن لا محدوديته تمثل ما في الكون من خلاء ساكن لا ينبض ومن انفساح لا يحدّ وبذلك تدعُنا من الخلف بخواطر العدم حين نرى الأعماق البيضاء في نهر المجرة ؟ أهو أنّ البياض في جوهره ليس لوناً بمقدار ما هو انعدام محسوس للالوان وفي الوقت نفسه تحقق محسوس لها ؛ ألهذا كان هناك بياض صامت أخرس حافلاً بالمعنى في بسيط مديد من المنظر الثلجي ـ جحود لا لون له ، جامع للألوان جميعاً تنفر منه نفوسنا ؟ للفلاسفة الطبيعيين نظرية تقول إن سائر الألوان الأرضية ـ أي كل زخارف فخمة أو جميلة ـ مثل حواشي السماء والغابات العذبة لدى الغروب ، وأجنحة الفراشات المذهبة وخدود الفتيات اللواتي تشبه الفراشة ، كل هذه ليست إلا خدعاً ماكرة ، ليست في جوهر المادة بطبيعتها وإنما ركبت فيها من خارج حتى إن الطبيعة المؤلهة نفسها إنما تتبرج كأنها عاهرة لا يستر مغرياتها سوى قبر . فإذا تأملنا هذه النظرية وتقدمنا خطوة أخرى وقفنا عند الزينة الغريبة التي تبرز كل لون من ألون الطبيعة أعني مبدأ الضوء العظيم وأنه يبقى أبداً أبيض أو غير ذي لون في ذاته واذا وقع على المادة دون وسيط مسّ الأشياء جميعاً حتى أزهار الخزامى والورود بخضابه الذي لا لون له ـ أقول إذا تأملنا كل ذلك بدا الكون المفلوج ممدداً أمام أعيننا كأنه أبرص ؛ وكما يرفض المسافرون ذوو الارادة الحازمة في لابلاند أن يضعوا على عيونهم نظارات ملوّنة كذلك الكافر التعيس تعشى عيناه وهو ينظر الى الكفن الأبيض المنشور على كل منظر من حوله . كل هذا مجتمعاً يرمز اليه الحوت الأبيض . أتعجبون بعد ذلك من الصيد الناري ؟

٤٣

أصغ!

- صه! هل سمعت تلك الضجة يا كباكو ؟

كانت النوبة الوسطى في الحراسة ، وضوء القمر ساجٍ جميل ، والملاحون قد وقفوا في طابور يمتد من عند أحد براميل الماء العذب في منتصف السفينة حتى البرميل عند الناروزة قرب أعلى الكوثلة وعلى هذه الحال كانوا يمرّرون الدلاء ليملأوا برميل الناروزة . وبما أنهم في معظم الوقت كانوا يقفون قريبين من مشارف الربعة وراء الدقل - وهي موضع مقدّس - لذلك حرصوا على أن لا يتكلموا أو يصدروا حفيفاً بأقدامهم . ومضت الدلاء تنتقل من يد الى يد في صمت عميق لا يتخلله إلا خفقة عابرة من شراع وإلا الهمهمة الدائمة التي تحدثها أرينة السفينة أثناء تقدمها الدائب .

في وسط هذه السكينة همس آرشي أحد رجال الطابور وكان يقف قريباً من العنابر الخلفية في أذن جار له شولويّ بتلك الكلمات ،

- « صه! هل سمعت تلك الضجة يا كباكو ؟ » .
- « خذ السجل . تسمح يا آرشي ، أي ضجة تعني ؟ » .
- « ها هي مرة أخرى - تحت العنابر - ألا تسمعها ؟ سعال . إنها تبدو كأنها سعال » .
- « اللّه يلعن السعال! مرّر هذا السجل العائد » .
- « مرة أخرى - هي عينها - كأنها الآن صوت اثنين أو ثلاثة نائمين يتقلبون » .
- « قرنبى[1]! كفاك يا رفيق ، باللّه! هذه هي البقسماطات الثلاث المنقوعة التي أكلتها في العشاء تتقلب في جوفك - لا غير . انتبه للدلو! » .

---

(١) كلمة اسبانية تدل على الشعور بالمفاجأة أو الاشمئزاز .

ـ «قل ما تريد يا رفيق . ان سمعي حاد» .

ـ «نعم . أنت الذي سمع وهو في البحر على بعد خمسين ميلاً من نانتوكت صوت إبر العجوز الكويكرية وهي تخيط . أنت هو أليس كذلك ؟»

ـ «اسخر كما تريد . سنرى النتيجة . أصخ يا كباكو! في العنبر الخلفي شخص لم يظهر بعد على ظهر السفينة وأنا أظن ريّسنا العجوز يعرف شيئاً عنه أيضاً . سمعت اسطب يخبر فلاسك في إحدى النوبات الصباحية أن في الجو شيئاً من ذلك» .

ـ «اش! هاك الدلو!» .

٤٤

الخريطة

لو أنك ذهبت في أعقاب آخاب القبطان الى قمرته بعد العاصفة التي حدثت في الليلة التالية لليلة التي نال فيها التأييد من البحارة في بلوغ غايته لرأيته يعمد الى درج في الطرنسوم ويستخرج منه طوماراً كبيراً مجعداً من الخرائط البحرية الصفراء وينشرها أمامه على طاولته المثبتة . ثم لرأيته بعد أن يجلس اليها قد أخذ يدرس متفحصاً ما فيها من خطوط وظلال متنوعة تواجه عينيه ثم يخط عليها في بطء حازم خطوطاً أخرى بقلمه في مواضع كانت خالية من كل رسم وتخطيط . وبين الحين والحين يرجع إلى أكداس من سجلات الرحلات البحرية الى جانبه حيث دونت فيها الفصول والمواقع التي اصطيدت فيها حيتان العنبر أو رؤيت في سفرات سابقة قامت بها مختلف السفن .

وبينا كان مشغولاً كذلك كان المصباح الصفيحي الثقيل المعلق بالسلاسل فوق رأسه يتأرجح تأرجحاً مستمراً مع حركة السفينة ويلقي أبداً ومضات وظلال خطوط متنقلة فوق جبينه المتغضن حتى لكأنه ـ وهو يرسم خطوطاً واتجاهات على الخرائط المتجعدة ـ كان هناك قلم خفيّ يمد خطوطاً واتجاهات على خريطة جبهته ذات الأخاديد العميقة .

ولم تكن هذه هي الليلة الوحيدة التي يجلس فيها آخاب منفرداً في قمرته متأملاً خرائطه . وأكاد أقول أنه كان يستخرجها كل ليلة ، ويمحو منها كل ليلة بعض العلامات ، ويضع مكانها علامات أخرى . ذلك أن آخاب ، وخرائط المحيطات الأربعة منشورة أمامه ، كان يلف بقلمه في تيه من التيارات.والدوامات رجاء أن يستيقن من انجاز الخاطرة المجنونة التي كانت تملأ روحه .

وكل من لم يكن على معرفة تامة بطرائق الحيتان قد يرى أن البحث عن مخلوق واحد في محيطات هذا الكوكب الأرضي التي لا تحد مهمة سخيفة لا رجاء فيها . ولكن الأمر لم

يكن يبدو كذلك لدى آخاب الذي كان يعرف جميع أوقات المدّ والتيارات وبذلك يحسب تنقلات حوت العنبر طلباً للطعام ويستطيع أن يبلغ الى استنتاجات معقولة تكاد تشارف اليقين حول اليوم المناسب الذي يكون فيه الحوت هنا أو هنالك باحثاً عن فريسته . وحسبه ليبلغ ذلك أن يتذكر المواسم المنظمة اليقينية التي يخرج فيها الصيادون لصيد الحوت في عروض ومواقع بأعيانها .

إن تعيين الفترات التي يلجأ فيها الحوت الى هذه المياه أو الى تلك قد أصبح شيئاً يقينياً حتى أن كثيراً من الصيادين يعتقدون أنه اذا استطاع أحد أن يراقبه ويدرسه خلال العالم عن كثب ، وأنه لو أجرى مقارنة بين سجلات السفينة لرحلة واحدة يقوم بها أسطول كامل للتحويت اذن لوجد أن هجرات حوت العنبر تطابق في الزمان رحلات قطعان الرنجة وأسراب السنونو ـ دون اختلاف . وعلى أساس من هذا التقدير بذلت محاولات لرسم خريطة محكمة مفصلة تنبئ بهجرات حوت العنبر* .

ثم إن حيتان العنبر حين تنتقل من منطقة غذائية الى أخرى بهداية غريزة لا تخطئ أو قل بوساطة ذكاء خفي وهبها اللّه إياه ـ فإنها في الأكثر تسبح في مسارب ـ veins ـ آخذة في طريقها على طول خط بحري في دقة لا أمت فيها ولا عوج حتى أنك لا تجد سفينة أبداً جرت مجراها حسب أية خريطة بعشر تلك الدقة العجيبة . ومع أن الاتجاه الذي يذهب فيه أي واحد من تلك الحيتان في هذه الأحوال مستقيم كأنه خطوط المسّاح على خريطته مع أن خط تقدمه مطابق تماماً لخط مخره المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا أن المسرب المحدّد الذي يقال إنه يسرب فيه في تلك الأوقات يتسع بحيث يشمل بضعة أميال عرضاً (تزيد أو تنقص حسب امتداد المسرب أو انكماشه) إلا أنه لا يتجاوز مدى النظر من قمم الصواري في الحواتات حين تنساب متنبهة يقظة على طول تلك المنطقة السحرية . وخلاصة هذا كله أنك تستطيع في مواسم معينة وفي نطاق ذلك العرض وعلى طول ذلك المسرب أن تفتش عن الحيتان المهاجرة وأنت على مثل اليقين بأنك ستراها .

اذن فإن آخاب لم يكن يرجو أن يلتقي بفريسته في أوقات موثوقة عند مواقع تغذية مشهورة متباعدة ، فحسب ، وإنما كان اذا اجتاز ما بين تلك المواقع يستطيع بما أوتي من

* منذ أن كتب هذا جاء لحسن الحظ ما يؤيده في نشرة رسمية أصدرها اليوزباشي موري من المرصد القومي بواشنطن في ١٦ نيسان (ابريل) ١٨٥١ ويبدو من تلك النشرة أن تلك الخريطة في طريقها الى النجاز وقد وردت أقسام منها في النشرة : «هذه الخريطة تقسم المحيطات في خمس مناطق ذات خمس درجات عرضية وخمس درجات طولية ، وفي الاتجاه العمودي تحوي كل منطقة ١٢ عموداً بعدد الأشهر ، وفي الأفقي تحوي ثلاثة أحدها يدل على عدد الأيام التي قضيت في كل شهر في كل منطقة والاثنان الآخرين يدلان على عدد الأيام التي رئيت فيها الحيتان ـ سواء أكانت من جنس العنبر أو من الحوت الأثين» .

براعة فنية أن يحدد الزمان والمكان في طريقه بحيث لا يكون بعيداً عن استشراف الرجاء في لقانه .

وحدثت حادثة بدت لأول وهلة وكأنها تعقد خطته الغارقة في البحران المنظمة في آن معاً . ولعلها لم تكن كذلك في حقيقة الأمر . ان قطعان حوت العنبر تتخذ مواسمها المنظمة في مواقع معينة ولكنك من وجه عام لا تستطيع أن تستنتج بأن القطعان التي أمّت خط العرض الفلاني أو خط الطول العلاّني في هذا العام مثلاً هي نفسها التي ألمت به في الموسم السابق ، وإن كانت هناك أمثلة واقعية خاصة أثبتت أن نقيض هذا صحيح . وهذه الملاحظة نفسها تصدق بعامة وفي حدود أضيق على المنعزلين والمترهبين بين الحيتان الناضجة المسنّة . فموبي ديك ـ مثلاً ـ رئي في سنة سابقة عند ما يسمى منطقة سيشل[1] في المحيط الهندي أو خليج فولكانو عند ساحل اليابان ولكن هذا لا يستتبع أن لو أن الباقوطة زارت إحدى هاتين البقعتين في موسم مطابق تالٍ لالتقت به حتماً . وقل مثل ذلك في مواقع أخرى أمّها موبي ديك للغذاء واستبان فيها للناظرين في بعض الأحايين . ولكن هذه المواقع كانت فيما يبدو مواقف عارضة وفنادق راحة يعرج عليها ولم تكن مواقع استيطان طويل . وحيث تحدثنا عن فرص آخاب في انجاز غايته حتى هذا الحين فإنما ألمحنا فحسب الى ما كان أمامه من فرص جانبية أو اضافية أو قائمة على معرفة بالسوابق قبل أن يحرز زماناً خاصاً أو مكاناً خاصاً حين تصبح كل الامكانات جميعاً احتمالات ، وكل امكان في نظر آخاب فإنما كان ثانياً ليقين . وهذا الزمان المعين والمكان المعين يجتمعان معاً في تعبير فني واحد هو : «موسم الصيد على خط الاستواء » The Season -on- the- Line . فقد مضت عدة سنوات وموبي ديك يرى في ذلك المكان المعيّن في الزمان المعيّن يتلبث في تلك المياه فترة والشمس في دورتها السنوية تتمهل مدة مقدرة في أي برج من أبراج الفلك ، وهناك جرت معظم اللقاءات المميتة بين الصيادين والحوت الأبيض ، هناك اختزنت الأمواج قصص بطولاته ، وهنالك أيضاً كان المسرح المأساوي[2] حيث وجد الشيخ المجنون دافعه الرهيب للثأر والانتقام . غير أن آخاب حين ألقى روحه المتأملة في هذا الصيد الذي لا يريد له الاخفاق لم يسمح لنفسه ، وهو ذو ادراك حذر ويقظة نفاذة ، أن يرسي آماله جميعاً عند تلك الحقيقة الختامية التي قدمناها مهما زينت له من تلك الآمال ولا كان في نذره الساهد

---

(١) تقع جزائر سيشل الى الشمال الشرقي من مدغشقر .

(٢) في الفصل : ٢٨ ذكر الهندي الجايهيدي أن آخاب «نزع صاريه» عند اليابان . وها هو ملفل يغير المكان هنا . فيجعله عند خط الاستواء ، حيث غرقت الباقوطة في نهاية الأمر .

ليقرَ عيناً ويفرخ روعاً بحيث يرجئ كل بحث عاجل حتى يبلغ ذلك المكان .

أبحرت الباقوطة من نانتوكت عند بداية «الموسم» . فلو أن قائدها بذل كل جهد ممكن ليقوم بالسفرة الطويلة نحو الجنوب ويدور حول رأس هورن ثم يجري ستين درجة من درجات العرض لما استطاع أن يصل المنطقة الاستوائية في المحيط الهادي في الوقت المناسب ليقوم هنالك بالطواف . ولذلك كان لا بد له من أن ينتظر الموسم من قابل . ولعلّ آخاب قد أصاب اذ اختار أن يبكر في الابحار بالباقوطة بسبب هذا التعقيد في الأمور فقد كانت أمامه فترة تبلغ ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وليلة ، وهي فترة يمكنه أن يقضيها في صيد متنوع بدلاً من أن يقضيها على البرّ فارغ الصبر فلعلّ الحوت الأبيض أن يمضي اجازته في بحار بعيدة عن مواقع غذائه الموسمية ولعل جبهته المغضنة أن تظهر على مبعدة من خليج فارس أو في خليج البنغال أو بحار الصين أو أية مياه أخرى يغشاها بنو جنسه . فكل ريح سواء أكانت الرياح الموسمية أو الهابة من سهول الأرجنتين أو كانت شمالية غربية أو حرامية أو تجارية ـ كل ريح عدا الشرقية أو الخماسين قد تسوق موبي ديك نحو الدائرة العالمية المتعرّجة التي ترسمها الباقوطة بخط مخرها المباحر .

ولو سلمنا بكل هذا فإنك اذا تأملت الفكرة في تمعن وهدوء قلت أنها ليست سوى فكرة حمقاء : في المحيط الواسع المترامي الأطراف هل يمكن للصياد الذي يبحث عن حوت واحد حتى لو واجهه أن يقول أنه هو حقاً كما لو كان يبحث عن المفتي الأعظم ذي اللحية البيضاء في أسواق استانبول المكتظة الحاشدة . أجل لأن جبهة موبي ديك المتفردة ذات البياض الناصع وحردبته البيضاء كأنها الثلج لا يمكن أن تخطئهما العين . قد يتمتم آخاب لنفسه بعد أن انكب على خرائطه طويلاً حتى الهزيع الأخير من الليل واستلقى غارقاً في أحلامه وهواجسه ـ قد يتمتم قائلاً : ألم أجعل الحوت معلماً بعلامات فأنّى له أن ينجو ؟ أليست زعانفه العريضة مخروقة مقطوشة كأنها أذن خروف قد قطعت ؟ وهنا يذهب عقله المجنون في شوط يبهر الأنفاس حتى يستولي عليه الانهاك وينتابه الاعياء من كثرة التفكير فيذهب الى الهواء الطلق فوق السفينة ليستعيد قوته . رباه! أي غشية من عذاب يقاسيها ذلك الرجل الذي استغرقته رغبة موتورة لم تتحقق ؟ إنه لينام ويداه مقبوضتان ويستيقظ وأظافره الدامية غارزة في راحتيه .

فاذا اضطرته احلامه الليلية المضنية التي لا يطاق الحاحها الى الخروج من سريره ، وهي أحلام تستأنف ما كان يجول في خواطره من أفكار حادة أثناء النهار ، اذا حمل أحلامه بين سورات من الغضب متلاطمة ودار بها في ذهنه المتلهب حتى أصبح نبض مركز الحياة عنده

عذاباً لا يطاق ، حين يحدث في بعض الحالات أن تهز هذه الآلام المبرحة كيانه من أساسه ويبدو كأنما تتفتح في داخله هوة تنطلق منها شُعَب اللهيب والبرق وتومئ له العفاريت اللعينة ان يقفز بينها ، حين تتثاءب هذه الجحيم في داخل نفسه ـ عندئذ تسمع صرخة شاذة خلال السفينة ويندفع آخاب من قمرته وعيناه تتوقدان كأنه يفر من سرير جعلت النار تأكله . وبدلاً من أن تكون هذه الأمور أعراض ضعف كمين لم يستطع قهرها وإخفاءها أو أعراض خوف مما يزمع أن يحققه فإنها لم تكن سوى أمارات واضحة لحدة عزمه . ففي مثل هذه الأوقات لا يكون آخاب المجنون المكب على التخطيط صياد الحوت الأبيض الذي لا يلين جانبه ولا يهدهد غضبه ، الذي ذهب الى سريره ، هو نفس آخاب الذي انطلق من سريره مرة أخرى مرتاعاً . أما الثاني منهما فهو المبدأ الخالد الحيّ أو هو الروح فيه ، وبما أنه في النوم انفصل عن العقل المميز الذي استخدمه في أوقات أخرى ليكون يده الفعالة في الظاهر فإنه حاول الهرب تلقائياً من مجاورته لذلك الشيء المهتاج ـ هي مجاورة لافحة لاذعة ـ ، ولم يعد ـ عندئذٍ ـ جزءاً مكملاً له . ولكن بما أن العقل لا يوجد إلا إذا تحالف مع الروح ، لذا يبدو في حالة آخاب أنه سلم أفكاره وأوهامه جميعاً الى يد غايته العليا ، ووقفت غايته تلك بمحض ما في إرادتها من رسوخ وصمود في وجه الآلهة والشياطين واتخذت لنفسها كياناً مستقلاً . بل استطاعت أن تحيا وتتلهب في جهامة وعبوس بينا الحيوية العامة التي كانت ترتبط بها هربت مرتاعة من مولد تلك الارادة التي ليس لها أب شرعي . لذلك فإن الروح المعذبة التي كانت تشع من عيون الجسد حين كان يندفع من الغرفة من يحسبه الناس آخاب إنما كانت شيئاً منسوخاً ، ذاتاً لا شكل لها تمشي في نومها ، شعاعاً حياً من نور ، لكنها لا تقع على شيء لتضوئه ومن ثم كانت بياضاً في ذاتها . أعانك الله أيها الشيخ فقد خلقت أفكارك فيك مخلوقاً ، ومن جعلت أفكاره الحادة منه برميثيوس فإن النسر يغتذي من قلبه الى الأبد ، وذلك النسر هو المخلوق الذي خلقه .

٤٥

الاقرار بيمين

من أجل ما سردناه في هذا الكتاب ولمسنا به ـ على نحو غير مباشر ـ خصيصة أو اثنتين ممتعتين غريبتين من عادات حوت العنبر يعتبر الفصل السابق في أجزائه الأولى ذا أهمية كأي فصل آخر هام في هذا الكتاب . غير أن مادته المجملة التي جعلناها فاتحة ، تتطلب شيئاً من التوسيع والاسهاب لكي يصح فهمها فهماً كفاءً بقيمتها ولكي نزيل عدم التصديق الذي قد يبثه في بعض العقول ما لدى أصحابها من جهل مطبق بالموضوع كله وخاصة عدم تصديقهم لليقين السليم في الأمور الرئيسية من هذا الموضوع .

ولست حريصاً على أن أؤدي هذا الجزء من مهمتي بطريقة منهجية منظمة ، وإنما أكتفي بأن أحقق غايتي المرجوة بإيراد مقتبسات متفرقة عن شؤون خبرتها وأنا حوات ، أو اعتمدت فيها على شهادة الثقات ؛ وأعتقد أن النتيجة التي أرمي اليها ستتحقق من ذاتها على نحو طبيعي بعد سرد هذه المقتبسات .

أولاً : عرفت أنا نفسي ثلاثة أمثلة ذهب فيها الحوت ناجياً بعد أن تلقى رمحاً . وبعد فترة (وكانت في إحدى المرات ثلاث سنوات) ضربه الصياد نفسه مرة ثانية وذبحه ، واستخرج الحديدتين من جسمه وكلتاهما معلمة بعلامة خاصة . أما في حال الحوت الذي عاش بين الضربتين ثلاث سنوات ، أو لعل الفترة كانت تزيد على ثلاث ، فإن الرجل الذي قذف بالرمحين سافر أثناء الفترة الواقعة بينهما في سفينة تجارية في رحلة الى افريقية ، ونزل على البر وانضم الى جماعة من المستكشفين ، وتوغل بعيداً في الداخل حيث قضى في سفره فترة تبلغ حوالي سنتين ، وعرّض نفسه لخطر الحيّات والمتوحشين والنمور والميازم السامة وسائر الأخطار العامة التي قد تعرض لمن يتجول في قلب مناطق مجهولة . وفي الوقت نفسه كان الحوت المضروب يقوم أيضاً برحلاته ، ولا بدّ ؛ ولا ريب في أنه طوّفَ الكرة الأرضية ثلاث مرات ،

ومعك جوانبه على جميع شواطئ افريقية دونما غاية . ثم التقى هذا الصياد وذلك الحوت مرة أخرى وقهر الأول منهما الثاني . أقول : أنا نفسي عرفت ثلاثة أمثلة من هذا القبيل رأيت في حالتين منهما الحوتين مضروبين ؛ وفي الهجمة الثانية رأيت السنانين اللذين حفرت فيهما علامتان متماثلتان وقد استخرجا بعد من الحوت الميت . وقد اتفق لي في الحادثين اللذين تخللتهما فترة سنوات ثلاث أن كنت في القارب في المرتين واستبنت بوضوح في المرة الثانية منهما نوعاً فذاً من خال كبير تحت عين الحوت كنت قد لحظته في المرة الأولى قبل ثلاث سنوات . أقول ثلاث سنوات وأنا على مثل اليقين أنها كانت أكثر من ذلك . هذه اذن أمثلة أعرف صدقها بنفسي غير أني سمعت أمثلة كثيرة أخرى من أشخاص لا وجه للطعن في عدالتهم .

ثانياً : من المتعارف المشهور في سماكة حوت العنبر ، مهما يجهل الناس على البر أمرها ، أنه حدثت أمثلة تاريخية عديدة لا تنسى حيث رأى الصيادون حوتاً بعينه في أزمنة وأمكنة متباعدة . أما لماذا أصبح ذلك الحوت معلماً مشهوراً فأمر لا يعزى في الأصل الى صفات جسدية فيه تميزه عن سائر الحيتان ، اذ مهما يكن تفرد الحوت في تلك الصفات ، فإنهم يقضون على ذلك التفرد بقتله وغليه لاستخراج زيته الثمين . لا . إنما السبب في ذلك هو أن التجارب المميتة في السماكة أفادت أن الخطورة التي يمثلها ذلك الحوت تتخذ لها في النفوس مكانة مريعة كمكانة رينالدو رينالديني ، حتى أن معظم الصيادين ليكتفون حين يميزونه بأن يمسوا قبعاتهم التربولينية اذ يتبينون أنه يتسكع قريباً منهم في البحر دون أن يحاولوا توثيق المعرفة به . وهم في ذلك يشبهون بعض شياطين الفقراء على البر الذين اتفق لهم أن عرفوا رجلاً عظيماً سريع الغضب فهم يحيونه في الشارع من بعيد تحيات فضولية لئلا تنالهم لطمة عاجلة لتوقحهم اذا هم توغلوا في اظهار الدالّة والألفة .

ولا يتمتع كل حوت من تلك الحيتان المشهورة بصيت فردي عظيم فحسب ـ وتستطيع أن تسميه أيضاً صيتاً مديداً لأنه يمتد على مدى المحيطات ؛ ولم ينل كل حوت منها شهرته وحسب في الحياة ثم أصبح خالداً في مستودعات المنارة بعد الموت ، لا بل أحرز كل ما يستطيع الاسم العظيم أن يمنحه من حقوق وامتيازات ومميزات ، حتى أصبح حظه من الشهرة حظَّ أصحاب الأسماء العظيمة مثل قمبيز وقيصر . أليس كذلك يا تيمور توم أيها الحوت المشهور الذي كان ذا ندوب وتواليع كجبل الجلي ، وأطال اللبث في المضايق المشرقية التي سميت باسمه ، وكانت نفاثته ترى من شاطئ أومبي ذي النخلات[1] ؟ أليس

---

(١) أومبي جزيرة من مجموعة الجزر التي تسمى Little Sundas في أندونيسيا الشرقية .

كذلك يا جاك زيلندة الجديدة يا من روّع كل الطّوافين الذي مخرت سفنهم بجوار بلاد تاتو ؟ أليس ذلك كذلك يا مرقان يا ملك اليابان ، يا من تتخذ نفاثته السامقة في الفضاء - فيما يقولون - صورة صليب ناصع البياض ؟ أليس ذلك كذلك يا دون ميخانيل أيها الحوت التشيليّ المعلم بخطوط غامضة على ظهره كأنه سلحفاة عجوز ؟ بعبارة بسيطة : هذه حيتان أربعة مشهورة لدى طلاب علم الحيتان ، شهرةَ ماريوس وسلاّ لدى طلاب تاريخ الرومان .

وليس هذا هو كل ما هنالك : وإنما بعد أن أنزل كل من توم زيلندة الجديدة والدون ميخانيل نكبات بليغة في قوارب تنتمي الى مختلف السفن ، بعد ذلك كله ذهبا في النهاية ، اصطادهما بعد أن طاردهما وقتلهما قباطنة التحويت الشجعان الذين رفعوا مراسيهم من موانيها وغايتهم هي قتلهما ، مثلما أن القائد بطلر في القديم اتجه متغلغلاً في غابة نرجانست وقد انتوى أن يأسر أنّاون المتوحش المشنوع القتّال ، رأس المحاربين عند الملك فيليب الهندي[1] .

لست أرى موضعاً خيراً من هذا الموضع لأذكر شيئاً أو شيئين آخرين يبدوان لي ذوي أهمية ، فاذا دونّا أكدا من جميع النواحي صفة المعقولية في قصة الحوت الأبيض ، وبخاصة جانب الكارثة منها . اذ أن هذه القصة من الأمثلة المؤيسة المثبطة التي يحتاج فيها الصدق ما يحتاجه الكذب من ركائز ودعامات . ومعظم الناس على البر يجهلون أبسط عجائب الكون وأكثرها واقعية ، فاذا لم تزودهم بمعلومات وتعليقات تمس الحقائق البسيطة من تاريخية وغيرها في مهنة التحويت ، فقد يسخرون هازئين من موبي ديك ويرون قصته أسطورة مرعبة ، أو ربما عدوها أمثولة قصصية مخيفة لا تطاق ، وهذا أمر أسوأ من الأول وأدعى للمقت .

أولاً : لدى معظم الناس بعض أفكار غامضة عابرة عن المخاطر العامة في السماكة الكبرى ؛ إلا أنه ليس لديهم تصوّر ثابت حيوي عن تلك المخاطر وعن مدى تكرر حدوثها . وربما كان أحد الأسباب في ذلك أن تلك الكوارث والمهالك الواقعية التي تحدث عرضاً في السماكة لا يدون منها واحدة من كل خمسين في مدوّن عام ، أياً كان ذلك المدوّن موقت القيمة ينسى على التوّ . هل تظن أن ذلك المسكين الذي ربما علق به الحوت القامس في هذه اللحظة عند ساحل غينيا الجديدة وحمله الى الأعماق البحرية - هل تظن أن اسم ذلك المسكين سيظهر في صفحة الوفيات بالجريدة التي تقرؤها غداً عند الفطور ؟ كلا . لأن البريد غير منتظم بيننا وبين غينيا الجديدة ؛ بل هل سمعت أبداً ما قد يسمى أخباراً منتظمة

---

(١) أناون مقاتل هندي أسره القائد بنجامين تشرتشن سنة ١٦٧٦ في رود آيلاند ، وقد نسب ملفل أمر أسره الى القائد بطلر وهذا الثاني ذهب في حملة سنة ١٧٧٨ للقبض على قائد هندي آخر اسمه جوزف برانت .

تجيء مباشرة أو بالواسطة من غينيا الجديدة ؟ ومع ذلك فإني أخبرك عن إحدى الرحلات التي قمت بها الى المحيط الهادي وقد ألقينا التحية من سفينتنا على ثلاثين سفينة أخرى بين عديد من السفن ، وفي كل واحد منها قتيل صرعه حوت وفي بعضها غير قتيل واحد ، وفقدت ثلاث منها جميع ملاحي القارب . باللّه عليكم اقتصدوا بزيت قناديلكم وشموعكم ؛ ان كل جالون تحرقونه فقد أهرق في سبيله على الأقل نقطة من دم انسان .

ثانياً : لدى الناس على البر حقاً فكرة غير محددة عن الحوت وأنه مخلوق هائل ذو قوة هائلة . ولكني وجدت دائماً وأنا أسرد عليهم مثلاً معيناً يصوّر هذا الهول المزدوج انهم كانوا يهنئونني على ما لديّ من ميل للدعابة والظرف بينا أنا أقسم أني لا أنوي أن أتفوق في روح الدعابة على موسى حين كتب تاريخ الطواعين بمصر .

ومن حسن الحظ أن المسألة التي أريد أن أقررها في هذا المقام يمكن أن تؤيد بشواهد مستمدة من غيري . وهذه هي المسألة : يبلغ حوت العنبر في بعض الأحوال من القوة وإحكام الضغينة وكأنما هو يدبر الأمور قبل عملها ، مبلغاً يستطيع به أن يخرق سفينة كبرى وأن يحطمها تحطيماً وأن يغرقها . وقد فعل كل ذلك .

أولاً : في عام ١٨٢٠ كانت السفينة اسكس من نانتوكت ـ وقبطانها بولارد ـ تطوّف في المحيط الهادي . فرأت ذات يوماً نفاثات فأنزلت قواربها وطاردت قطيعاً من حوت العنبر ؛ وبعد وقت غير طويل جرح عدد كثير من الحيتان ، واذا بحوت ضخم جسيم ينجو من القوارب وينطلق من القطيع وينقض هاجماً على السفينة ، ويسدد جبهته نحو هيكلها فيشقها شقاً حتى أنها في أقل من «عشر دقائق» أخذت تهوي منقلبة . ومنذ تلك اللحظة لم يرَ أحد لوحاً من ألواحها ، وبعد أشد ضروب الهتك وصل بعض الملاحين البر في قواربهم ؛ ثم لما استقر القبطان بولارد بعض الوقت في وطنه أبحر مرة أخرى نحو المحيط الهادي يقود سفينة أخرى ولكن الآلهة حطمت سفينته مرة أخرى فوق صخور وأمواج مجهولة . ومرة ثانية فقد سفينته تماماً فآلى على نفسه أن لا يعود للبحر ولم يحاول العودة منذ يومئذٍ . ولايزال بلارد القبطان قاطناً في نانتوكت حتى اليوم ، وقد رأيت أنا أوين شيس رئيس ضباط السفينة اسكس حين حدثت تلك المأساة وقرأت الحكاية الصريحة الصادقة التي دوّنها وتحدثت الى ابنه وكان ذلك على بعد بضعة أميال من موقع الكارثة* .

---

* إليك مقتطفات مما حكاه شيس : « كانت كل واقعة تؤكد لي مستنتجاً أن لا دخل للحظ والمصادفة في توجيه أعماله فقد قام بهجومين على السفينة بينهما فترة قصيرة وكلتاهما حسب وجهتهما كانت محكمة لتوقع بنا أشد الأذى اذ كانت رأسية وبذلك تجمع سرعة الجسمين المتصادمين لدى إحداث الصدمة وكي يحقق ذلك كانت التحفزات والتهيؤات التي قام بها ضرورية . كان منظره =

ثانياً : يونيون اسم سفينة أخرى من نانتوكت فقدت عام ١٨٠٧ بإزاء جزر الآزور في هجمة مماثلة ولكني لم أصادف دقائق موثوقة عن هذه الكارثة[١] وإن كنت سمعت من الحواتين اشارات عارضة اليها بن الحين والحين .

ثالثاً : منذ ثمانية عشر عاماً أو عشرين كان الكومودور ج[٢]... يقود شانية حربية أمريكية من طراز رفيع وكان يتناول طعام الغداء مع جماعة من قباطنة التحويت على ظهر سفينة نانتوكتية في ميناء واهو بجزائر ساندويتش ، ودار الحديث عن الحيتان ، والكومودور مرتاح النفس الى التشكك فيما يرويه السادة العارفون بالحواتة من حوله عن القوة المدهشة التي تعزى للحيتان فأنكر جازماً مثلاً أن يستطيع الحوت ضرب شانيته الحربية الحصينة بحيث يجعلها ترشح من الماء بما يملأ قمع الخياطة . هذه ثقة جيدة ، ولكن في زوايا الغيب خبايا . بعد بضعة أسابيع أبحر الكومودور في تلك السفينة الحصينة الى فالباريزو لكن حوت عنبر فخماً جسيماً استوقفه في الطريق ورجاه أن يمنحه بعض لحظات من المسارّة بينهما لتسوية بعض الشؤون . كانت نتيجة تلك المناجاة لطمة سدّدها الحوت الى السفينة فتعطلت كل مضخاتها وذهب الكومودور عامداً الى أقرب ميناء لتسحب فيه السفينة ويصلح ما تعطل منها . لست ممن يؤمنون بالخرافات ، لكني أعتقد أن ما جرى بين الكومودور والحوت كان تدبيراً إلهياً . ألم ينتصر شاول الطرسوسي بسبب ما ألّم به من خوف مماثل ؟ تريدون الحق ؟ إن حوت العنبر لا يطيق الفشر والهراء .

وأحيلكم هاهنا على « رحلات لانجز دورف » من أجل حادثة صغيرة ذات علاقة بما نحن بصدده وهي من نحو خاص تهم كاتب هذه السطور ولا بد أن تعلموا بهذه المناسبة أن لانجز دورف كان مع الأميرال الروسي كروزنشترن في البعثة الكشفية المشهورة في أوائل هذا القرن . يبدأ القبطان لانجز دورف الفصل السابع عشر من كتابه بقوله :

= مخيفاً ، وكان يعبر عن الاستياء والهياج . جاء رأساً من القطيع الذي تغلغلنا بينه قبلاً وضربنا ثلاثة منه فكأنما اشتعل بنار الانتقام من أجل آلام أصحابه » . ويقول : « وفي جميع الظروف أرى أن الأحداث إذا أخذت مجتمعة ، وكلها حدثت بعينيّ وأنتجت حينئذ انطباعات في ذهني ، بأن الحوت يعزم على إيقاع الأذى ويقدّر ويحسب (وكثير من هذه الانطباعات قد نسيته فلا أذكره) أقول : أرى أن الأحداث تغريني بأن أقنع أن رأيي كان صواباً .

وهذه هي تأملاته بعد وقت من مغادرته للسفينة أثناء ليلة مظلمة في قارب مكشوف وهو يكاد ييئس من بلوغ مرفأ أمين : « لم يكن المحيط المظلم والمياه المتدافعة شيئاً مذكوراً . كذلك الخوف من أن تبتلعني عاصفة مخيفة أو تقذف بي على صخور خفية وغير ذلك من الموضوعات التي تعرض لخاطر الخائف ـ كل ذلك لم يعلق بذهني لحظة إنما الذي ظل يخايل أفكاري ويعتصرها هو التحطم الكئيب ومنظر الحوت الرهيب وثأره حتى انبلج الفجر » .

وفي موضع آخر ص ٤٥٠ يتحدث عن « تلك الهجمة العجيبة المهلكة التي شنها ذلك الحيوان » .

(١) عجيب أن يقول ملفل هذا وهو الذي ينقل كثيراً عن عبيد ماسي مؤرخ نانتوكت ، فقد أورد في تاريخه خبراً مفصلاً عن كارثة هذه السفينة .

(٢) أكبر الظن أنه الكومودور تيماس أبو كاتسبي جونز الذي كان يقود « البيكوك » ، في رحلة الى جزائر هواي عام ١٨٢٥ .

«في الثالث عشر من أيار (مايو) كانت سفينتنا على أهبة الابحار وفي اليوم التالي كنا في عرض البحر ، في طريقنا الى أوختش . كان الجو صافياً جميلاً إلا أن البرد لا يطاق حتى اضطررنا لشدته أن نحتفظ بما نرتديه من فرو . مرت بضعة أيام والريح ضعيفة حتى اذا كان اليوم التاسع عشر انطلقت هبة ريح لعوب من الشمال الغربي ؛ وإذا حوت جسيم ضخم يفوق في ضخامته السفينة نفسها يكاد يكون على سطح الماء ، لكن أحداً منا لم يره ونحن على ظهر السفينة إلا حين كادت السفينة وهي مطلقة الأشرعة أن تصادمه حتى كان من المستحيل أن نحول بينها وبين الارتطام به . ووقعنا في خطر داهم حين نصب هذا المارد الجبار ظهره فرفع السفينة مسافة ثلاثة أقدام فوق الماء فترنحت الصواري وهوت الأشرعة جميعاً ووثبنا نحن الذين كنا في العنابر حالاً الى الظهر مخمنين أننا اصطدمنا بصخرة إلا أنا رأينا ـ بدلاً من ذلك ـ ذلك الوحش مبحراً مبعداً في كل وقار وركانة . فأعمل القبطان ديولف المضخات على التوّ ليختبر ان كانت السفينة قد أصيبت بأي ضرر من تلك الصدمة لكن وجدنا لحسن حظنا أنها نجت سالمة» .

هذا القبطان ديولف المذكور الذي كان يقود السفينة المذكورة من أبناء نيو انجلند هو اليوم يقطن قرية دورشستر على مقربة من بوسطن بعد حياة طويلة من المغامرات الفذة كان فيها قبطاناً بحرياً . ولي الشرف أن أكون أنا ابن أخيه[1] وقد سألته بخاصة عن هذه العبارة في رحلة لانجزدورف فأمّن على كلمة وردت فيها وقال أن السفينة لم تكن أبداً كبيرة ـ كانت سفينة روسية بنيت على ساحل سيبريا واشتراها عمي بعد أن باع السفينة التي أبحر فيها من الوطن .

وقد وجدت مادة أخرى مدونة في أحد تلك الكتب الرجولية التي تقص أخبار المغامرات العتيقة وما كان فيها من صعود وهبوط ـ أعني رحلة ليونل ويفر أحد الأغبياء البلداء من رفقاء الملاح القديم دامبير ؛ وتلك المادة تشبه ما اقتبسته من رحلة لانجزدورف حتى أني أجدني لا أملك إلا نقلها هنا لتكون مثلاً مؤيداً إن احتاج الخبر السابق الى توثيق .

ويبدو أن ليونل كان في طريقه الى جون فرناندو ـ هو الاسم الذي يطلقه على ما يعرف اليوم باسم جوان فرناندز ـ فيقول : «في طريقنا الى ذاك المكان وكانت الساعة تقارب الرابعة صباحاً ونحن على بعد مائة وخمسين فرسخاً من الأرض الأمريكية أحست سفينتنا بصدمة مخيفة ألقت الرجال في حيرة حتى لا يكادون يعرفون أين هم أو فيمَ يفكرون إلا أن كل واحد

---

(١) القبطان ديولف الثاني ترك الخدمة في البحر وهو في الثامنة والأربعين عام ١٨٢٧ وهو زوج عمة ملفل الكبرى واسمها ماري . قضى ملفل في ضيافته صيف عام ١٨٢٨ في منزله بمدينة برستول في رود آيلند . وقد عمل مع لانجزدورف من ١٨٠٥-١٨٠٧ .

منهم بدأ يستعد للقاء الموت ، وكانت الصدمة في الواقع مفاجئة بالغة العنف حتى أننا قلنا دون تردد لقد ارتطمت السفينة بالصخور ولكن حين انحسر عنا بعض الدهشة ألقينا المسبار لنسبر الغور فلم يلامس أرضاً... والمفاجأة في الصدمة جعلت المدافع تثب فوق عرباتها وانطرح كثير من الرجال أرضاً من أسرتهم أما ديفر القبطان الذي كان مضطجعاً ورأسه مستند على مدفع فقد طرح خارج قمرته » . ثم يمضي ليونل فيعزو الصدمة الى هزة ارضية يبدو أنه أراد أن يؤيد هذه الدعوى بالدليل فذكر أن زلزلة حدثت في مكان ما حينئذٍ وأصابت البلاد الاسبانية بأذى كبير . لكنني لا استغرب أن تكون الصدمة في غبش تلك الساعة المبكرة قد سببها حوت لم يره البحارة أخذ يدفع هيكل السفينة من أسفلها في اتجاه قائم .

وقد أتقدم بأمثلة أخرى عديدة عرفتها من غير طريق عن قوة حوت العنبر وشدة ضغنه . وقد عرف منه في غير مثل واحد أنه لا يقنع بمطاردة القوارب المهاجمة حتى يردها الى سفنها وانما يلاحق السفينة نفسها يقاوم الحراب المقذوفة نحوه من على ظهرها طويلاً وتستطيع السفينة الانكليزية بوسي هول أن تحكي في هذا الشأن حكاية[1] . وأما عن قوة حوت العنبر فدعوني أذكر لكم أنه حدثت أمثلة كانت فيها الحبال المربوطة به وهو هارب تُنقل الى السفينة في هدوء وتُحفظ فيها ، والحوت يسحب هيكلها الضخم خلال الماء مثلما يسحب الحصان عربة . وكثيراً ما لوحظ أن الحوت اذا ضرب وكانت لديه ندحة للهجوم فانه لا يتصرف تماماً في غضب أعمى وانما يتدبر كيف يقضي على مطارديه بخطط ارادية محكمة . لعلّ مما يفصح عن طبيعته أنه اذا هوجم فانه كثيراً ما يفتح فمه ويبقيه مفتوحاً في ذلك الامتداد المخيف دقائق عديدة متوالية . ولكني أكتفي بصورة أخيرة واحدة أختم بها هذا كله ، وهي فذة متميزة ولن تعجزوا اذا تدبرتموها عن أن تروا انها أشد الأعاجيب المذكورة في هذا الكتاب ، ليست فحسب مؤيدة بوقائع صريحة راهنة وانما هذه الأعاجيب (كسائر الأعاجيب) ليست الا تكراراً لما حدث في سالف العصور حتى اننا لنؤمن للمرة المليون على قول سليمان : « ما كان فهو يكون ، والذي صنع فهو الذي يصنع ، فليس تحت الشمس جديد » .

في القرن السادس الميلادي عاش بروكوبيوس وهو حاكم مسيحي بالقسطنطينية أيام كان جستنيان امبراطوراً وبلزاريوس قائداً . وكثيرون يعرفون أنه كتب تاريخ عصره فجاء مؤلفاً ذا قيمة غير عادية من كل وجه فطالما عدّه الثقات مؤرخاً موثوقاً لا ينحو نحو الغلو الا في أمر أو أمرين لا يؤثران في المسألة التي أود ذكرها :

---

(١) صادفها حوت عام ١٨٣٥ ، وحكى قصتها بنيت في المجلد الثاني ص ٢١٨ .

يذكر بروكوبيوس في تاريخه أنه في أثناء حكمه في القسطنطينية اصطيد وحش بحري جسيم في البحر الأسود أو بحر مرمرة بعد أن حطم سفناً في تلك المياه على فترات خلال ما يزيد على خمسين عاماً . ومثل هذه الواقعة المدونة في تاريخ موثق لا يستطاع تكذيبها بسهولة ولا من سبب يدعو لذلك . ولم يذكر لنا المؤرخ من أي فصيلة كان ذلك الوحش ، ولكن بما أنه كان يحطم السفن ، ولأسباب أخرى ، فقد كان حوتاً ولابد ، وأنا أرجح بقوة أنه كان حوت عنبر وسأنبئكم عن السبب . طالما توهمت أن حوت العنبر لم يعش أبداً في البحر المتوسط والمياه العميقة المتصلة به . ، وأنا اليوم واثق من أن هذه البحار ليست وربما لن تكون ، والأمور على هذا الوضع ، مكاناً يقيم فيه مستوطناً . غير أن البحوث المستقصاة حديثاً قد برهنت لي أنه وجدت أمثلة متفرقة تشير الى وجود حوت العنبر في البحر المتوسط ؛ وقد أخبرني الثقة أن كومودوراً اسمه ديفز من البحرية البريطانية وجد على ساحل افريقية الشمالية هيكل حوت عنبر واذا كانت السفينة البحرية تستطيع المرور خلال الدردنيل فحوت العنبر يستطيع أن يمر بنفس الطريق من البحر المتوسط الى البحر الأسود .

وليس في البحر الأسود ـ حسب علمي ـ تلك المادة الهامة التي تسمى «القشريات» brit وهي غذاء الحوت الأثين . ولكن لديّ كل ما يسوغ الاعتقاد بأن غذاء حوت العنبر ـ هو السبيدج أو الحبّار ـ يكمن في قاع ذلك البحر اذ وجدت مخلوقات كبيرة من ذلك النوع وان لم تكن أكبر الأنواع على سطحه . فاذا وضعت هذه الحقائق معاً وضعاً ملائماً ونظرت فيها قليلاً لحظت بوضوح أن الوحش البحري الذي ذكره بروكوبيوس وذكر أنه ظلّ خمسين عاماً يخرق سفن امبراطور روماني كان ولابد ، حسبما تقضي بذلك كل طرائق التفسير والتعليل ، حوتاً من حيتان العنبر .

٤٦

أوهام

وجّه آخاب كل أفكاره وأعماله نحو غاية واحدة كانت حرارة نارها تقتص أطراف نفسه وتأكل حشاشته ، تلك هي القضاء المبرم على موبي ديك . وكأنه على استعداد ليضحي بكل رغائب النفس البشرية في سبيل تلك الغاية ، لولا أن الجبلّة الطبيعية والتمرس الدائب غرسا في نفسه عادات الحّوات المتهمّم الصارم فمنعاه بذلك من أن يتخلى كل التخلّي عن تحقيق تلك الغايات الجانبية الأخرى في الرحلة . واذا لم يكن ذلك فلأقل أنه لم تكن تعوزه دوافع أخرى حافزة . ربما كان إسرافاً في التنوّق أن أقول ـ وأنا أتمثل تشبثه المجنون بغايته ـ : لعل حقده على الحوت الأبيض قد بسط ظلّه بعض البسط على حيتان العنبر جميعاً ، فكلما استكثر من ذبح تلك الوحوش تعددت لديه الفرص في أن يكون الحوت الذي يلقاه من بعد هو ذلك الحوت البغيض الذي خرج في طلبه . غير أنّا اذا استبعدنا مثل هذا التقدير حقاً بقيت لدينا اعتبارات أخرى لا أراها توازي ضراوة شهوته المستحكمة ، غير أنها على ذلك لم تكن عاجزة أيضاً عن الاستبداد به .

كان على آخاب أن يستعمل أدوات إن هو شاء تحقيق غايته ؛ والرجال من بين تلك الأدوات التي تستعمل في ظلال القمر هم أشدّها خروجاً على النظام . كان يعلم مثلاً أن ترؤسه على استاربك ، مهما يكن مغناطيسي التأثير من بعض النواحي ، فان ذلك الترؤس لم يستطع أن يبسط ظله على ذلك الانسان ذي النزعة الروحية بأكثر مما يستطيع التفوق الجسديّ أن يستغرق السموّ العقلي في حومته ، ذلك أن العلاقة بين العقلي والروحي المحض تكاد تكون نوعاً من العلاقة الجسدية . كان في مقدور آخاب أن يحتاز جسم استاربك وإرادته المقهورة ما دام يستطيع أن يبقى مغناطيسه مسلّطاً على عقله ، ثم هو كان يعلم أيضاً أن رئيس الضباط يمقت في قرارة نفسه مأرب قبطانه . وأنه لو استطاع

لتحلل منه مغتبطاً ، بل لحاول أن يبطله ويحولَ دونه . وقد يطول الوقت قبل أن يظهر الحوت الأبيض ، وقد تعتاد استاربك ، خلال ذلك الوقت الطويل ، نزعات للاستسلام الى حوافز الثورة المستعلنة ضد رياسة قبطانه ، إلا اذا حدثت مؤثرات عادية لبيقة ظرفية وفعلت فعلها في نفسه . ولم يكن ذلك كلّ ما هنالك ، بل إن الجنون الماكر الذي استولى على آخاب بصدد موبي ديك لم يتجلّ تماماً مثلما تجلّى في إحساسه الساطع ودهائه البارع حين نظر مستبصراً فرأى أن الصيد عندئذٍ يجب أن يجرّد - مؤقتاً - من ثياب الضلال والجحود التي تلبّس بها بطبيعة الحال ، وأنّ الفزع المرعب الذي تنطوي عليه الرحلة يجب أن يظل منزوياً منحجراً - (فقليل هم الناس الذين تصمد شجاعتهم طويلاً أمام التفكير والترقب الطويل الذي لا يخرج توّاً الى حيز الفعل) - وأن ضباطه ورجاله يجب أن يشغلوا أفكارهم بأمور أقرب اليهم من موبي ديك في مواقفهم للحراسة والرقابة في الليال الطوال . نعم ان البحارة الهمج قد هللوا له في تلهف وتهور حين أعلن لهم عن غايته ، ولكن البحارة جميعاً ، أياً كان منتماهم ، على حظ من النزوات ونكث العهود - قلّ أو كثر - فهم يعيشون في جو متقلب ، ويجرعون في صدورهم أنفاس تقلّبه ، واذا ربطت نفوسهم الى غاية بعيدة خواءمن الكسب ، مهما يكن ما تعد به من حياة ورضى عاطفيّ ، فمن الضروري قبل كل شيء أن تهيأ فيما بين ذلك مصالح ومشاغل عاجلة وتبقى نفوسهم معلقة بالضربة النهائية ، لئلا يفسدها الفراغ .

ولم يكن آخاب غافلاً عن شيء آخر : في لحظات العواطف الثائرة الجياشة يحتقر البشر حقاً كلّ الأمور المهينة ، ولكن مثل تلك اللحظات سريعة الزوال . ولقد قال آخاب لنفسه : إن الحرص الخسيس هو الحال الملازمة التي لا ينفك منها الانسان المخلوق لأنها في صميم جبلته . إذن هب أن الحوت الأبيض هو الذي يلهب قلوب بحارتي ، هؤلاء الهمج ، وأن التحيل على همجيتهم ووحشيتهم يولد في نفوسهم نوعاً من الفروسية السخيّة المعطاء ، مع ذلك لا بد لهم أيضاً من غذاء آخر يشبع شهوتهم اليومية الدنيئة ، وان كان غرامهم بالصيد قد يحفزهم لصيد موبي ديك . حتى الصليبيون الفرسان ذوو النخوة والشهامة في العصور الخوالي لم يقنعهم أن يقطعوا ألفي ميل في البر ليحاربوا من أجل الضريح المقدس ، دون أن يقترفوا صنوف السرقة والطرارة (النشل) ويبتزوا أجور الأتقياء الآخرين في طريقهم . ولو أنهم تمسكوا تمسكاً دقيقاً بغايتهم القصوى الجذّابة لانحرف منهم كثيرون عنها نافرين مشمئزين . ولذلك قال آخاب لنفسه : لن أجرّد هؤلاء الرجال من رجائهم في أن ينالوا نقداً - نعم نقداً وعداً ؛ قد يزدرون النقد اليوم ولكن اذا لم يلح لأعينهم رجاء في النقد بعد مضي

بضعة أشهر ، فإن هذا النقد الهادئ سيتمرد دفعة واحدة ، هذا التصرف النقدي قد «يصرف» آخاب تواً الى الاستيداع .

ولم يغب عن بال آخاب دافع آخر داعٍ الى الحيطة متصلٌ بشخصه ؛ لعلّ آخاب قد تملكه التسرع حين كشف عن الغاية الكبرى ـ غايته الخاصة ـ من سفرة الباقوطة ، ولعلّه أعلن عن ذلك قبل أوانه ، فأصبح على وعي تام بأنه حين فعل ذلك قد جعل نفسه عرضة ـ بطريق غير مباشر ـ لتهمة الغصب ، وهي تهمة ليس لديه ردّ عليها ، ومن ثم يستطيع بحارته ، ان شاؤوا وكانوا كفاءً بذلك ، أن يرفضوا طاعته بل أن ينزعوا الإمرة منه عنوة ، تخلصاً مما قد يصيبهم من قصاص اذا هم شايعوه في الغضب ، وذلك حق لهم من الناحيتين الأخلاقية والقانونية . ولقد كان آخاب ، ولا بد ، أشد شيء رغبة في أن يحمي نفسه من محض الالماح الى تهمة الغصب ومن النتائج الممكنة التي قد تنجم لو أن هذه الفكرة المنزوية المكبوتة قد استعلنت واستحكمت ثمة . ولا تتأتى له هذه الحماية إلا اذا سخّر دماغه المصرّف وقلبه ويده ، وشفعها جميعاً باهتمام يقظ مترصد حاسب ، يرقب كل أثر جويّ دقيق صغير يمكن أن يتعرض له بحارته .

لهذه الأسباب جميعاً ، ولأسباب أخرى لعلها أدقّ من أن يفصح المرء عنها ، وجد آخاب في وضوح أن لا بد له من أن يظل مخلصاً اخلاصاً كفاءً بالغاية الطبيعية الاسمية التي تهدف اليها رحلة الباقوطة ، وأن يرعى العرف المتبع ، وهذا أيضاً غير كافٍ اذ كان عليه أيضاً أن يقسر نفسه على أن تعلن عن حميته المعروفة المتضرمة في تأديته لمهمته العامة .

ومهما يكن أمر هذا كله فكثيراً ما كان يسمع صوت آخاب ينادي الواقفين على رؤوس الصواري الثلاثة وينبههم الى انعام النظر الحديد ، والى أن لا يغفلوا عن الإخبار بما يلوح لأعينهم ولو كان بربوزاً . بعد وقت غير طويل وجدت هذه الرقابة اليقظة جزاءها وفاقاً .

٤٧

النساج

يومئذٍ كان الأصيل الأول غائماً حاراً ؛ والبحارة يتسكعون على ظهر السفينة خاملين ، أو يحدقون ساهين في الأمواه التي لبست لوناً رصاصياً ، وكنت أنا وكويكوج ننسج في دعة ما يُسمى «حمالة السيف» لكي نضيف الى قاربنا حبلاً . وكان المشهد كله ساكناً مكمداً وان كان استهلالاً لشيء يعقبه على نحو ما ، قد انبثّ في الهاء سحر من الاستبحار حتى كأن كل بحار صامت قد غار في زوايا نفسه الخبيئة .

كنت رفيق كيكوج أو وصيفه بينا كان هو منهمكاً في صنع الحبل . وحين كنت أسدّي وألحم الخيوط بين وشائع النول متخذاً من يدي «مكوكاً» ، وحين كان كويكوج ـ وهو في وقفته الجانبية يمرر سيفه السندياني دون توقف بين الخيطان وينظر متكاسلاً نحو الماء ، وهو يضع كل وشيعة موضعها الصحيح في غير اكتراث أو تفكير ، أقل : حينئذٍ رانت على السفينة وعلى البحر جميعاً حالة غريبة من الحلم لا يتخللها إلا الصوت المتقطع البليد الذي يحدثه السيف ، حتى بدا لي وكأن هذا هو «نول الزمن» ، وكأني أنا نفسي «مكوك» ينسج وينسج آلياً ليعلق بالأقدار . هنالك طاقات السُداة المثبتة في المنسج وهي عرضة لذبذبة وحيدة متكررة أبداً غير متغيرة أبداً ، وهذه الذبذبة لا تسمح إلا بخيوط اللحمة كي تتشابك مع طاقات السداة المثبتة ؛ هذه السداة هي الضرورة ، وأنا ـ كما حدثتني نفسي ـ أدير مكوكي وأحيك قدري خلال هذه الطاقات التي لا تتغير ولا تتبدل ، وفي الوقت نفسه يجيء سيف كويكوج ، ذلك الحافز السادر ، فيضرب اللحمة مائلاً أو معوجاً ، قوياً أو ضعيفاً ، كيفما اتفق ، وبهذا الفرق في ضربة الختام يحدث مفارقة مماثلة في الطور النهائي من النسيج المستكمل ؛ وقلت لنفسي : ان سيف هذا البربري الذي يمنح الشكل الختاميَ لكل من سداة النسج ولحمته ، هذا السيف الهين السادر لا بد أن يكون هو المصادفة

والارادة الحرة والضرورة ، ثلاثة أضداد مجتمعة تعمل معاً متداخلة متضافرة : طاقات سداة الضرورة لا تحيد عن مسالكها المرسومة ولا تتمّ كل ذبذبة مراوحة فيها إلا كي تعود الى مستقرها الثابت ، والارادة الحرة تظل طليقة لكي توجه مكوكها بين الطاقات المقدرة ، والمصادفة مقيدة في حركتها خلال خيوط الضرورة حين تتجه يمنة متحركة حركة جانبية بقوة الارادة الحرة ، إلا أن هذه المصادفة ـ وإن كانت موجهة بقوة الاثنتين ـ تتحكم بدورها فيهما ، وترسل الضربة التي ترسم الملامح النهائية للأحداث .

* * *

كنا ننسج مسترسلين حين أجفلتُ لدى سماع صوت بالغ الغرابة مديد وحشي الموسيقى مستنكر الوقع ، حتى أن فلكة الارادة الحرة سقطت من يدي ، ووقفت أشخص ببصري الى الغيم من حيث سقط علينا ذلك الصوت كأنه حفيف أجنحة ، فرأيت في الأعالي الشاهقة على مرقاة المرقب ذلك الجايهيدي الأحمق طاشطيقو . كان قد دفع جسمه الى الأمام في تهوّر المتحمس ، ومدّ يده كأنها عصا الساحر ، ومضى يرسل صرخاته اثر لحظات قصيرة من التوقف المفاجئ . وأنا على يقين أن ذلك الصوت في تلك اللحظة ربما انبعث من مئات المَراقب العلوية في سفن الحواتة ، وتردد في أرجاء البحار جميعاً ، ولكن قلّ أن تجد فيها صوتاً شبيهاً بالصوت الذي كان يرسله طاشطيقو الهندي فانه استمدّ من صدر صاحبه المتمرّس المحنك في هذه الشؤون وقعاً عجيباً .

ولو أنك رأيته محلقاً من فوقك ، معلقاً نصفه في الفضاء ، محدقاً نحو الأفق في وحشية واندفاع ، لظننته كاهناً أو عرّافاً يشهد أشباح القدر ويعلن عن قدومها بصرخاته الغريبة .

ـ هناك ينفث! هناك! هناك! هناك ، ينفث! ينفث!

ـ أين! أين! ؟

ـ قبالة مستعرض السفينة وفق المهبّ ، على بعد ميلين ، هناك قطيع منها .

وسرعان ما أصبح كل شيء في حركة واضطراب .

ان حوت العنبر ليرسل نفثاته كدقات الساعة في وقع منتظم لا يختل ولا يضطرب ، وبهذه النفثات يميز الحواتون هذا الحوت من سائر الأسر التي تنتمي الى نوعه .

وصاح طاشطيقو عندئذٍ يقول : «ها هي الذيول تبدو» ، واختفت الحيتان .

وصرخ آخاب : «عجّل يا سفرجي ؛ الوقت! الوقت!» .

وأسرع الغلام العجّان نازلاً ، ولمح الساعة ، وأعلم آخاب بالوقت .

كانت السفينة حينئذٍ قد جعلت تجري بلطف أمام الريح ، وقال طاشطيقو : ان الحيتان قد قسمت في الماء وفق المهبّ ، فأخذنا نتطلع اليها واثقين من قوله ، فرأيناها بعيداً على سمت مقدمة السفينة . ولحوت العنبر حيلة فذة يستعملها أحياناً ويعرفها كلّ من تمرس بالتحويت أعني أنك قد تراه مصمم الرأس في اتجاه ما ، ثم يسبر الماء ويختفي تحت سطحه ويدور دورة الطاحونة وهو مايزال مختفياً ، ويسبح بخفة في اتجاه مضاد ، غير أنه لم يأتِ هذه الخدعة حينئذٍ ولم يكن ما يحمل على الظن بأن الحيتان التي رآها طاشطيقو قد أصيبت بالذعر أو عرفت حقاً بأننا على مصاقبتها . جاءت نوبة بديل للهندي في المرقب بأعلى الصاري الرئيسي ، فنزل وحلّ محلّه أحد الذين يختارون عادة لحفظ السفينة ـ وهؤلاء الحفظة هم الذين لا ينزلون في قوارب الصيد . ونزل البحارة الذين كانوا عند الشراع الأمامي أو عند المظين ، وثبتت براميل الحبال في مواضعها ، وجهزت الروافع ، وقوّيت سنادة الشراع الرئيس وتدلت القوارب الثلاثة متأرجحة فوق البحر كأنها ثلاث سلال من السمار تدلت من ريد الجبل . وعلى جوانب هيكل المركب تدلى ملاحوها المتحمسون وكل منهم يمسك طرف الحاجز الحديدي بإحدى يديه ويرجو أن يحطّ إحدى قدميه على حرف السفين . هل رأيت صفاً طويلاً من جنود بارجة على أهبة أن يقذفوا بأنفسهم فوق سفينة العدو ؟

لكن في تلك اللحظة الحرجة سمعت صيحة مفاجئة حولت كل الأبصار عن الحوت . وأجفل الجميع وهم يبصرون آخاب الأسود وقد أحاطت به خمسة أشباح قاتمة كأنما تمخض عنها الفضاء لتوَها .

٤٨

القوارب تنزل أول مرة

كانت الأشباح ـ وماذا أدعوها وقد بدت كذلك ؟ ـ تمرق على الجانب الآخر من ظهر السفينة وتفك علائق القارب وأربطته ، حيث تدلّى ، في سرعة لا حسّ فيها . وكان البحارة يظنون دائماً أن هذا القارب هو أحد القوارب الاحتياطية ، وإن سموه بالنظر الى موقعه باسم قارب القبطان ، اذ كان معلقاً بجنب ربعة الجانب الأيمن من السفينة ، وكان الزّول الواقف عند مقدمته طويلاً مكمد اللون ذا ناب واحد أبيض ناتئ نتوءاً مشؤوماً من بين مشفريه الفولاذيتين ، وقد تسلب حول جذعه صدارة صينية «مكرمشة» من القطن الأسود وسروالاً أسود واسعاً من ذلك القماش الغامق نفسه . وكان هذا السواد الآبنوسي قد توج على نحو غريب بعمامة متلألئة بيضاء جعدة هي شعره الأصيل وقد ضفره وجعله يلتف ويتلوى عقاصاً حول رأسه . أما رفاق هذا الزول فكانوا أقل من صاحبهم كمدة وقتاماً ، ذوي بشرة في صفرة النمر يتميز بها بعض السكان الأصليين من أهل جزر مانيلا . وهو جنس مشنوع بنوع من الشيطانية في المكر والدهاء ، ويظنه بعض البحارة البيض الطيبين جواسيس لدى الشياطين ، سيدهم ومدبرهم ، وهم عملاؤه الموثوقون في السرّ يرسلهم على وجه الماء وهو يستخدمهم ويكمن ـ حسب ظنهم ـ في موضع آخر .

وبينا كان رجال السفينة يتطلعون في دهشة نحو أولئك الغرباء كان آخاب يهيب برئيسهم الشيخ ذي العمامة البيضاء صائحاً : «أكلّ شيء على أتم استعداد يا فيض الله[1] ؟» .

---

(١) يمثل فيض الله الروح الشريرة التي تسلطت على آخاب ، وسيتضح ذلك في الفصول التالية أثناء تصوير العلاقة بين الرجلين وقد ورد اسم «فضل الله» في قصة من ألف ليلة وليلة تحكي ، حكايته مع امرأة اسمها زمردة لُخصت الى الانجليزية . وهو ملك الموصل ذو الفضائل العظيمة الذي سعد بزواجه من زمردة ، يخدعه درويش بفكرته عن تقمص الأرواح فيحل في جسده ويملك ملكه وزوجته ، أما روح فضل الله فتحل في وعل ثم في بلبل تربيه الملكة وترعاه ، ويبدو أن ملفل منح اسم الأمير الفاضل للدرويش المحتال ، وظن الحكاية فارسية فجعل «فضل الله» أو «فيض الله» مجوسياً ، غير أن هذا الاسم الاسلامي لا يطلق على شخص مجوسي .

فيجيبه هذا بصوت بعضه كالصفير : «أتم استعداد» .

فيصيح آخاب عبر السفينة : «أنزلوا قواربكم اذن . أتسمعون ؟ أقول : أنزلوا قواربكم» .

كذلك كان هزيمُ صوته الراعد حتى أن الرجال ، على ما تملكهم من دهشة ، وثبوا فوق حرف السفينة ودارت البكرات في محاجنها ، وسقطت القوارب في البحر فتفاجَّ لها صدر الماء . ووثب البحارة وثبة المعزى من جانب السفينة المتدحرج ، الى القوارب المتدفعة ، بجرأة رشيقة لا تعرف المبالاة ، ولا يحسنها غيرهم في أية حرفة من الحِرف .

وما كادوا يبتعدون عن جسم السفينة من الجانب البعيد عن الريح حتى تبدى قارب رابع آت من الجهة المواجهة للمهب فاندفع حول المؤخرة ، وظهر الغرباء الخمسة وهم يجذفون بآخاب وقد وقف منتصباً في مؤخرة القارب ودعا استاربك واسطب وفلاسك لكي يوسعوا ضربات المجاذيف حتى يقطعوا مسافة أطول على الماء . ولكن بحارة القوارب الأخرى سمّروا نظراتهم في فيض الله الأسود ورفاقه فلم يمتثلوا للأمر استغراقاً .

وقال استاربك : «من ذا ؟ القبطان آخاب ؟ »

فصاح آخاب : «وسّعوا مدى التجديف ، لا تتشددوا أنتم بحارة القوارب الأربعة جميعاً وأنت يا فلاسك ، جذّف في مَيْلٍ وفق المهب» .

فصاح «الدعامة الكبرى» في جذل وهو يحوّل مجذافه الكبير الأمامي : «نعم . نعم . سيدي» ثم خاطب بحارته قائلاً : ميلوا للخلف! ها هو! ها هو . هناك مرة أخرى . أمامنا ينفث على خط مستقيم أيها الفتيان ، ميلوا للخلف! »

ـ «حوّل عينيك عن هؤلاء الفتيان الصفر يا آرشي» .

فقال آرشي : «سيدي . أنا لا آبه لهم . لقد كنت أعرف كل هذا من قبل . ألم أسمعهم وهم في العنبر ؟ ألم أخبر كاباكو بما سمعت ؟ ما رأيك يا كاباكو ؟ لقد كانوا «مهربين» في خفية يا سيد فلاسك» .

ـ «جدفوا . جدفوا يا قلوب الشبان الفتية ، جدفوا أبنائي ، جدفوا يا صغاري» ـ كذلك كان يتنهد اسطب وهو يحفز بحارته في هذرمة ومصانعة ، اذ كان بعضهم مايزال يبدي بعض امارات القلق والنفور : «لأي شيء توفرون أصلابكم ، لمَ لا تكسرونها نشاطاً يا فتياني ؟ فيمَ تحدقون ؟ في هؤلاء الفتيان أصحاب القارب الآخر ؟ هه! ما هم إلا خمس أيدٍ أخرى جاءت لتساعدنا ـ لا يهمنا من أين جاءوا ـ زيادة الخير خير . جدّفوا هيا ، جدّفوا ؛ لا تهتموا بطلاء القار على وجوههم ـ فالشياطين رفاق طيبون . كذا . كذا ، أحسنتم . تلك

ضربة مجذاف تسوى ألف جنيه ، تلك ضربة تكسب الرهان وتكفل الفوز ، مرحى بكأس ذهبية من زيت العنبر يا أبطالي . مرحى ثلاثاً يا رجال يا ذوي القلوب القوية . على رسلكم ، على رسلكم . لا عجلة ، لا عجلة ؛ لِمَ توفرون مجاذيفكم فلا تقصفونها حمية يا خبثاء يا أرذال! عضّوا على شيء ما يا كلاب! كذا . كذا إذن ، على مهلكم ، على مهلكم! هو ذاك ، أحسنتم ، باعدوا المسافة وادفعوا بقوة . أريحوا ، أريحوا هنالك! ركبكم الشيطان يا أفاقين يا معدمين . كلكم نائمون . أبطلوا الشخير يا نوّام وجدفوا . ادفعوا ، ألا تدفعون ؟ جدفوا ، ألا تستطيعون ؟ هيا اعملوا ، ألا تريدون ؟ جدفوا واكسروا شيئاً ما ، جدفوا واجعلوا أعينكم تندر من محاجرها شدّاً . انظروا » . ـ واستل مديته الحادة من نطاقه وقال : « ليسحب كل ابن انثى منكم مديته ويجدف وهو واضع شفرتها بين أسنانه . تماماً! هكذا! ها أنتم قد صنعتم شيئاً يذكر ؛ مثل هذا كنت أريد ، يا شظايا الفولاذ! اخرقوه عنفاً! اكسروه تجديفاً ، يا معالق الفضة ، يا مخارز! » .

تسمحت بايراد « ديباجة » اسطب هذه التي كان يلقيها على بحارته ، دون ايجاز ، لأنه كان ذا طريقة فذة في التحدث اليهم بعامة ، وبخاصة حين يريد أن ينقش في أذهانهم أمثولة التجذيف . ولكن اياك أن تظن اذا أنت طالعت هذا الأنموذج من أسلوبه الوعظي أنه كان يستشيط غضباً وهو يخاطب جماعته . لا شيء من ذلك أبداً ، وتلك هي ميزته الفريدة ، فربما وجه لبحارته أشدّ ضروب البذاء والسباب في نغمة تجمع بين مزيج غريب من الفكاهة والهياج ، ويجيء الهياج مقدّراً كأنه « بهار » للفكاهة ، حتى أن أي بحار يسمع هذه الدعوات الغريبة ليهبّ مجدفاً بكل ما أوتي من قوة ويجذف استطرافاً واستملاحاً . أما هو نفسه فقد كان يظل طوال الوقت هيناً ليناً ، يدير مجذافه المقدّم في دعة مسترخية وقد تثاءب أو فغر فاه أحياناً حتى أن منظر ذلك الآمر المتثائب ، بقوة المفارقة المحض ، كان يفعل فعل السحر في ملاحيه . ثم أن اسطب كان من نوع غريب من ذوي الفكاهة ، يجيء مرحهم أحياناً غامضاً على نحو غريب فيجعل مرؤوسيهم على رقبة وأهبة في شؤون الطاعة والامتثال .

أما استاربك فقد كان يجدف مائلاً عبر مقدمة اسطب امتثالاً لاشارة أرسلها آخاب : ولما تقارب القاربان مدة دقيقة أو نحوها نادى اسطب رفيقه الضابط قائلاً :

« يا سيد استاربك . يا رئس القارب الأيسر . كلمة واحدة يا سيدي ان أذنت! »

ـ « هلو » ؛ ردّ عليه استاربك دون أن يلتفت قيد شعرة وهو يتكلم ومضى يحث بحارته في حماسة هامساً . وكان وجهه ازاء وجه اسطب شبيهاً بالصوّان .

ـ ماذا ترى في هؤلاء الغلمان الصفر يا سيدي ؟

ـ مهرَّبون على السفينة ، على نحو ما ، قبل أن تغادر الميناء (جدفوا بقوة ، بقوة يا فتيان!) «أمر مؤسف يا سيد اسطب» (احموا صدر القارب ، هيّجوه يا شبان) «لكن لابأس يا سيد اسطب ، نرجو الخير . قل لبحارتك جميعاً أن يجدفوا بقوة وليكن ما يكون» (وثباً يا رجالي وثباً) «أمامنا براميل من زيت العنبر يا سيد اسطب وهذا ما أبحرنا من أجله» (جدفوا يا أولادي) «حوت العنبر هو بغيتنا . هذا هو الواجب في الأقل ، والواجب والربح متلازمان!» .

فقال اسطب وكأنه يناجي نفسه حين تباعد القاربان : «أجل! أجل! ذلك ما فكرت فيه حين وقعت عيناي عليهم ، ذلك ما ظننته ، أجل ؛ ومن أجل ذلك كان يكثر التردد على العنبر الخلفي حسبما زعم الغلام العجّان منذ عهد بعيد . كانوا مختبئين هنالك . والحوت الأبيض هو سرّ هذا التدبير كله ؛ حسناً ، حسناً ، ليكن ما يكون . لا يمكن تلافيه . طيب! أريحوا قليلاً يا رجال ، ليس ما نطارده اليوم الحوت الأبيض! أريحوا قليلاً» .

من عجيب أن قدوم هؤلاء الغرباء الغلاظ في مثل تلك اللحظة الحرجة ، لحظة انزال القوارب من على ظهر السفينة ، لم يثر في نفوس بعض ملاحي السفينة أي دهشة أسطورية ، وعلة ذلك أن استكشاف آرشي التخميني كان قد شاع بينهم قبل زمن ، فأعدّ نفوسهم لتقبل الحادثة بعض إعداد ، وثلّم حدة دهشتهم ، ولهذا برئوا من الأوهام الخرافية حينئذٍ ، وساعدهم على ذلك أيضاً طريقة اسطب الواثقة حين ذهب يعلل لظهور أولئك الغرباء ؛ غير أن الحادثة تركت مجالاً واسعاً لجميع أنواع الظنون الغريبة حول يد آخاب الأسود في الأمر منذ البداية . وتذكرت أنا ـ في صمت ـ تلك الأشباح الغريبة التي رأيتها تزحف على ظهر الباقوطة خلال الفجر الأغبش في نانتوكت ، وعادت اليّ التلميحات المبهمة التي كان ينثرها ايليا السادر الغريب الشان .

وكان آخاب في الوقت نفسه قد أصبح بمنأى عما يقوله الضابطان ، وقد أبعد في الانسياق نحو وجهة المهب وتقدّم بقية القوارب ، وكل ذلك كان ينبئ عن كفاية الملاحين الذين كانوا يدفعون بالتجذيف قاربه . لكأنما كان أولئك النمور صفرةً من فولاذ أو عظام حوت ، يقومون ويقعدون حسب ضربات من القوة منتظمة كأنهم المرازب الآلية ، فينطلق القارب في الماء كأنه مولد بخار أفقي يذهب منطلقاً من باخرة في نهر المسسبي . أما فيض اللّه الذي كان يُعمل مجذاف الزرّاق فكان قد ألقى عنه صدارته السوداء وكشف عن صدره العاري وعن كل ذلك الجانب من جسمه الممتد فوق حرف السفين فاتضحت معالم بنيته إزاء

الانخفاضات المتراوحه في الأفق المائي . وأما آخاب فقد كان في الطرف الآخر من القارب وقد مدّ ذراعاً واحدة كأنه مبارز وتقاعس بظهره في الفضاء كأنما يوازن بجلسته أي ميل للسقوط . كان آخاب يسيطر في ثبات على المجذاف المقدّم الموجّه . كأنه هو نفسه آخاب في المرة الألف من انزال القوارب قبل أن يذهب الحوت الأبيض بساقه . ورسمت الذراع الممتدة حركة خاصة ـ دفعة واحدة ـ ثم بقيت مثبتة حيث هي واذا المجاذيف الخمسة في وقت معاً قد أصبحت كالمناسر . وقف القارب والملاحون على الماء بلا حراك . وعلى التوّ توقفت القوارب الثلاثة المتباعدة في المؤخرة . كانت الحيتان قد استقرّت دون انتظام في القاع الأخضر من غير أن تحدث أية أمارة تدل من بعد على حركتها وان كان آخاب قد لحظها لاقترابه منها .

فصاح استاربك : «لينظر كل رجل منكم على المدى في اتجاه مجذافه ، قف ، أنت يا كويكوج!» .

وثب ذلك البربري بخفة ورشاقة على الصندوق المثلث البارز في المقدمة ، ووقف هنالك منتصباً ، ونظر بعينين محددتين لاهفتين نحو البقعة التي رني فيها الصيد آخر مرة . وعلى مؤخرة القارب حيث سطح مستوٍ يصنع مع حرف القارب شكلاً مثلثاً وقف استاربك أيضاً ، وجعل يحاول أن يقف متزناً في برود وكياسة ، والماء يتلعب بتلك الخشبة التي تسمى قارباً ، وأخذ يرمق بعينيه عين الأخضر الطامي في سكون .

ولم يكن قارب فلاسك نائياً وهو منطرح مبهور على صفحة الماء ، وقد وقف قائده بغير اكتراث على قمة «المثقّلة» ، وهي نوع من الدعامة مغروسة في بطن القارب ، وترتفع نحو قدمين فوق مستوى دكة المؤخرة ، وتستعمل ليلتف حولها حبل التحويت ، وقمتها ليست أعرض من راحة كف الانسان ؛ وحين وقف فلاسك على مثل تلك القاعدة بدا وكأنه قد حطّ على قمة صارٍ في سفينة غرقت جميعاً سوى دواليب روافعها . غير أن «الدعامة الكبرى» كان صغير الحجم قميناً ، وكان أيضاً مفعماً بطموح كبير طويل حتى أن قمة «المثقلة» التي اعتلاها لم تكن لترضيه أبداً .

ـ لا أستطيع أن أرى مدى ثلاث موجات . أقم لنا مجذافاً هناك ودعني أقف عليه .

فلما سمع دغة هذا اتكأ بيديه الاثنتين على حرف السفين متثبتاً ، وانزلق بخفة نحو مؤخرة السفينة ، ثم انتصب واقفاً وتطوّع بجعل كتفيه مرقاة وقال :

ـ كمرقب الصاري يا سيدي . ألا تصعد ؟

ـ ذلك أريد وشكراً جزيلاً يا رفيقي المهذب . كم كنت أتمنى أن تكون أطول مما أنت بمقدار خمسين قدماً .

وعلى الأثر غرس الزنجي العملاق قدميه ضدّ لوحين متقابلين في القارب ، وطأطأ قليلاً ، وقدّم راحته مبسوطة ليضع عليها فلاسك قدمه ثم وضع يد فلاسك على رأسه الذي يشبه التابوت المعلم بالريش وأمره أن يثب اذا هو انتفض ، وفي همزة رشيقة واحدة أرسى الرجل الصغير عالياً في الفضاء فوق كتفيه ، وفيما هو واقف هنالك كان دغة يرفع له ذراعه ليتخذها حزاماً يشدّ بها صدره ويتثبت في موقفه .

ومن كان مبتدئاً في شؤون البحر أدهشه في كل وقت أن يرى كيف يحتفظ الحوات بقامته منتصبه في القارب ، وكأن دربته العجيبة قد جعلت مهارته عفو الخاطر حتى حين يتأرجح به القارب في أشد المياه طغياناً وعناداً . وأغرب من هذا كله أن يراه وقد وقف مترنحاً فوق «المثقلة» نفسها في مثل تلك الظروف . غير أن مرأى فلاسك الصغير وقد علا فوق كتفي دغة العملاق كان أغرب المناظر جميعاً ، فقد استطاع ذلك الزنجي الفارع أن يدع جسمه الجميل يتدحرج في انسجام مع تدحرج الأمواج ، قد نصب نفسه في عظمة هادئة يسرة عفوية سمحة بربرية ؛ وكان فلاسك فوق عاتقه العريض المغطى بشعر كأنه الكتان يبدو كندفة الثلج . كانت المطية أنجد من راكبها . وكان فلاسك حقاً مرحاً صخّاباً محباً للتباهي ، إلا أنه كان بين الحين والحين يدق بأخمصه في جزع وفروغ صبر فلا يحرّك في صدر الزنجي الشامخ مزيداً من زفرة واحدة . كذلك رأيت الشهوة والغرور تدقان بأقدامهما وجه الأرض الحية الكريمة ، فلم أرَ الأرض تغير أزمانها وفصولها بذلك .

وفي الوقت نفسه لم يبدِ اسطب الضابط الثالث أي شوق لابعاد مدى الرؤية . قد تكون الحيتان قامت بإحدى قمساتها المنتظمة ، ولم تغص غوصاً مؤقتاً بداعي الفزع المحض ؛ واذا كان الأمر كذلك فإن اسطب يصرّ ، حسبما تعود في مثل هذه الأحوال ، أن يبدد جهامة الزمن المتراخي بدخان غليونه ، ولذا استخرجه من شريط قبعته حيث كان يضعه دائماً مائلاً كأنه الريشة ، وحشاه بالتبغ وسوّى سطحه بطرف ابهامه ، وما كاد يمرّ عود الثقاب على سطح يده الخشن الذي يشبه «ورق الصنفرة» حتى انقض فجأة طاشطيقو مساعده الرمّاح الذي كان قد ثبت عينيه وجهة نشوء الريح كأنهما نجمان ثابتان ، انقض كأنه الصاعقة من وقفته المنتصبة في مقعده وهو يصرخ صرخات متلاحقة وكأنما أصابه مسّ من عجلة :

ـ «هيا ، هيا جميعاً ، ووسعوا مدى التجديف ، فهي هناك!» .

لو أن الناظر كان رجلاً من أهل البر لما لاح لعينيه في تلك اللحظة أي حوت أو أية أمارة من سمك الرنجة ، واذن لما رأى إلا قطعة من الماء الأبيض الضارب الى الخضرة ، ونفثات متفرقة من البخار تحوّم من فوق الماء ، وتنتشر سحباً مع مهبّ الريح كأنها اندفاع

مضطرب تحدثه الأمواج البيض المتدحرجة . واهتز الهواء من حولها فجأة وتدافع مقشعراً كأنه الهواء الذي يكون فوق صِحاف من الحديد أحميت بشدة . ومن خلال هذا التموج والتجعد الجويّ ومن خلال طبقة رقيقة من الماء كانت الحيتان تسبح ، وكانت نفثات البخار التي أرسلتها تتقدم جميع الدلائل الأخرى على وجودها ، كأنها رُسلها المقدمون أمامها أو طلائعها الراكضة التي انحاشت عنها بعيداً .

وكانت القوارب الأربعة حينئذٍ تقوم بمطاردة جاهدة نحو تلك البقعة التي يضطرب فيها الماء والهواء . ولكنها كانت تنأى فتفوتها ، كانت تتباعد وتمعن في التباعد كأنها مجموعة من الحبب المختلط يحملها جدول سريع منحدر من التلال .

ـ « جذفوا ، جذفا يا أولادي الطيبين » ، كذلك قال استاربك لرجاله في همسة هي أشد شيء خفوتاً وأبعده تهمماً واعتمالاً ؛ بينا كانت عيناه تطلقان نظرتين مثبتتين حادتين من عند مقدم القارب في اتجاه عامد مستقيم ، وكأنهما ابرتان مرئيتان في بوصلتين دقيقتين قد أودعتا في صندوقيهما . ومع ذلك فإنه لم يكثر التحدث الى ملاحيه ولم يقل له ملاحوه شيئاً ، الا أن الصمت الذي يلف القارب كانت تتخلله بين الحين والحين همسة من همساته الخاصة ، على نحو يستثير الفزع ، فتكون حيناً همسة تملؤها فظاظة الأمر وحيناً نعومة الرجاء .

شتان بين استاربك وبين « الدعامة الكبرى » الصخّاب الجعجاع الذي لم يكن يكف عن الكلام : ـ « غنّوا وقولوا شيئاً يا أعزائي . ازأروا وجدفوا أيها الصواعق . جرّوا بي ، جرّوا بي فوق السود أيها الغلمان . افعلوا هذا فحسب إكراماً لي وسأتنازل لكم عن مزرعتي في مرتا فنيارد يا أولاد ، بما في ذلك زوجتي وأولادي ، يا أولاد . اضجعوني هنالك ، أضجعوني ، رباه ، رباه! سأجن وأنا أحدق ؛ انظروا! انظروا ذلك ؛ الماء الأبيض » وما أن أرسل تلك الصيحة حتى نزع قبعته عن رأسه وأخذ يدوسها وينّط فوقها ، ثم التقطها وطوّح بها بعيداً على الماء ، وأخيراً أخذ ينهض ويغوص في مؤخرة القارب كأنه مهر مجنون من مهارى السهوب .

وكان الغليون القصير بين شفتي اسطب حينئذٍ قد انطفأ ، فظل يضغط عليه بأسنانه ، ويتابع الابحار على مسافة قصيرة من قارب فلاسك ؛ فقال وهو يهذرم منتحلاً حكمة الفيلسوف : « تأملوا ذلك الفتى . أصابته نوبة . لا ريب أن فلاسك يصاب بها . النوبات ، نعم امنحوه نوبات ـ تلك هي الكلمة الدقيقة لتصوير حاله ـ اغرسوا النوبات فيه . جذفوا بمرح ، بمرح أيتها القلوب الحية ، سيكون عشاؤكم بودنج ، وأنتم تعلمون ذلك . المرح تلك هي الكلمة المناسبة . جذفوا أيها الأطفال ، جذفوا أيها الرضّع ، جذفوا جميعاً ؛ ولكن بحق الشيطان لم تستعجلون ؟ هوناً هوناً وثباتاً يا رجالي ، جذفوا فحسب ، وامضوا مجذفين ؛ لا

شيء سوى ذلك . اكسروا أصلابكم جهداً ، وعضّوا على مدياتكم حتى تقصموها وحسبنا هذا . يسّروا ولا تعسروا ، لمَ لا تيسرون ـ أقول ، لمَ لا تيسرون وتفجّرون أكبادكم ورناتكم شداً .

لكن ما الذي قاله آخاب الغامض لبحارته الذي هم كالنمور صفرة ؟ خير لنا أن لا ندرج تلك الكلمات في هذا المقام لأنكم ـ أيها القراء ـ تعيشون تحت النور المبارك الذي يشع على هذه البلاد ذات المذهب الانجيلي . ولا يصغي لمثل تلك الكلمات الا حيتان القرش الكافرة في البحار الجبّارة ، حين وثب آخاب خلف فريسته ، وجبينه كأنه الزوبعة ، وعيناه تقدحان بشرر الموت الأحمر ، وشفتاه تتدبقان بنثار الزبد .

وحينئذٍ كانت القوارب جميعاً تشدّ شدّها الجاهد . وكان فلاسك يكرر التلميح الى الوحشَ الاسطوري باسم : «ذلك الحوت» ، ويقول إن ذنبه مايزال يعابث صدر قاربه بالشوق المبرح الى ادراكه ؛ وكانت تلميحاته تلك تجيء أحياناً حيوية واقعية ، حتى كانت تجعل واحداً أو اثنين من بحارته يسترقان نظرة خائفة الى الوراء ؛ وهذا العمل مخالف لكل قانون ، ذلك أن المجذفين لا بد لهم أن يغرسوا أعينهم أماماً دون التفات ، ويدسوا في أعناقهم سفافيد تصلبها عن الحركة ، فقد جرى العرف على أنه ليس لهم من جوارح إلا الآذان وليس لهم من أطراف إلا الأذرع في مثل تلك اللحظات الحرجة .

وكان منظراً حافلاً بالعجب والرهبة السريعين! كل شيء فيه يحدث هزة وانتفاضاً . فهناك الأمواج الهائلة في البحر الجبار ؛ والهدير الطاغي الأجوف الذي تحدثه وهي تصدم حوافي القوارب الثماني ، كأن القوارب كرات ضخمة في ملعب أخضر مترامي الأطراف ؛ والعذاب الوحيّ المتقطّع الذي يقاسيه القارب حين ينقلب لحظة على حافة الأمواج المحددة كأنها الموسى ، وكأنها لحدتها توشك أن تشقه نصفين ؛ والغوص المفاجئ العميق في أغوار البحر وأخاديده ؛ والحث والهمز اللاهف لبلوغ قمة الموجة المقابلة ، والجرف القائم الزلق في صفحتها الأخرى . أضف الى هذا كله صرخات القادة والرماحين ولهاث المجذفين المرتعد ، والمنظر العجيب ـ منظر الباقوطة العاجية وهي تكاد تنقض على قواربها بأشرعة منتشرة كأنها دجاجة مفزعة تلحق كتاكيتها المصنصنة ـ كل ذلك كان مصدر هزة ومثار ارتعاش . فلا المتطوّع الفجّ الذي انتزع نفسه من صدر زوجته وذهب في غمرة حمّى المعركة الأولى ، ولا شبح الميت وهو يواجه أول طيف مجهول يلقاه في الدار الآخرة ، لا هذا ولا ذاك يحسّان بمشاعر أغرب وأوقى من مشاعر ذلك الرجل الذي وجد نفسه لأول مرة يجذف في الدائرة المسحورة المضطربة . دائرة صيد حوت العنبر .

وأخذ الماء الأبيض المتراقص الذي أثارته المطاردة يتضح للأعين ريداً رويداً ، وذلك

لازدياد العتمة في ظلال السحب الداكنة التي تنطرح على وجه الماء . ولم تعد نفثات البخار تشتبك وتختلط وإنما تعرجت يميناً وشمالاً ، وبدا كأنما الحيتان قد تمايزت آثار مخرها . فازداد التباعد بين القوارب ولحق استاربك ثلاثة من الحيتان كانت تجري مستميتة وفق المهب . فنشرنا عندئذٍ شراعنا ، ومع الريح التي ما تزال هابة اندفعنا ومضى القارب في الماء بجنون حتى أن المجاذيف اليسرى لم تكد تثبت في مواقعها حين شاء البحارة أن يعملوها في سرعة كافية .

وسرعان ما وجدنا أنفسنا نجري خلال غشاوة واسعة منشورة من الضباب فلا نرى سفينة أو قارباً .

وهمس استاربك وهو مايزال يسحب قماش شراعه نحو اليسار : «قدّموا يا رجال ، ما يزال لدينا وقت لنقتل حوتاً قبل حلول العاصف . ها هو الماء الأبيض يعود! قربوا! اقفزوا» .

وبعيد ذلك سمعنا صرختين متلاحقتين على جانبينا دلتا على أن القوارب الأخرى قد قطعت شوطاً في سرعتها وما كدنا نسمع الصراخ حتى قال استاربك في همسة كالبرق عاجلة : «قف!» واذا كويكوج يثب واقفاً ورمحه في يده .

ومع أنه لم يكن أحد من المجذفين يواجه خطر الحياة والموت الكائب وهو من أمام ، فإن أعينهم كانت مسلطة على وجه الضابط الجاهم في مؤخرة القارب وبذلك عرفوا أن اللحظة الحاسمة قد حلّت ، وسمعوا أيضاً صوتاً هائلاً متدفعاً كأن خمسين فيلاً كانت تتململ في مضاجعها . وفي الوقت نفسه كان القارب مايزال عاثراً بين الضباب ؛ والأمواج تتجعد وتصرصر من حولنا كأنها حيات مغضبة قد نفشت قنازعها .

وهمس استاربك : «تلك هي حردبته . أيوه . أيوه اغرز الحديدة فيها!» .

ومن القارب وثب صوت قصير مندفع ؛ تلك هي حديدة كويكوج المزروقة . ثم جاءت دفعة خفية من خلف السفينة في اضطراب مجتمع متلاحم الجنبات بينا كان القارب في الأمام كأنه يصدم افريزاً ، فانهار الشراع وتشقق ، وانطلقت على مقربة منا دفقة من البخار اللذّاع ، وتدحرج من تحتنا شيء وانقلب كأنه الزلزلة ، وكاد البحارة يختنقون حين نفضهم القارب شذر مذر في جوف العاصف المنعقد الخاثر . واختلط العاصف والحوت والرمح معاً ونجا الحوت بنفسه اذ أشوَتِ الحديدة ولم تصب منه مقتلاً .

ومع أن القارب استنقع في الماء فإنه لم يكد يصيبه أذى . فسبحنا من حوله ، ولممنا المجاذيف العائمة ، وربطناها عبر حرف القارب ثم انكفأنا الى مواقعنا ، وهناك جلسنا والماء يغمرنا حتى الركب ، وقد غطى كل دعامة ولوح ، حتى بدا القارب المعلق أمام نظراتنا المصوّبة قارباً مرجانياً نما بارزاً من قاع المحيط .

وأصبح صوت الريح جؤاراً ، وجمعت الأمواج دروعها معاً ، وغدا العاصف كله يزأر وينشعب ويفرقع من حولنا كأنه نار بيضاء في السهوب ونحن نحترق في جوفها دون أن تحيلنا رماداً ؛ كنا خالدين بين فكي الموت ؛ وناديننا القوارب الأخرى فضاعت أصواتنا ، كأننا كنا ونحن نناديها في العاصفة كمن يهيب بالفحم الذي لم يكد يعلق به الشرر من خلال مدخنة أتون لاهب . وفي الوقت نفسه زادت ظلمة البخار والطخا والضباب ، تلك الثلاثة التي تزجيها الريح لحلول أشباح الليل ، فما نرى للسفينة عيناً ولا أثراً . وحال الموج المتوثب دون أية محاولة لنزح الماء من القارب ، ولم تكن المجاذيف لتجدي لو اتخذناها مرواحات للدفع ، اذ كنا قد جعلنا منها وسائل للنجاة . وبعد محاولات عديدة مخفقة قطع استاربك الرباط الذي يشد برميل الثقاب ـ وهو برميل لا ينفذ منه الماء ـ ودبر اشعال المصباح في المنور ، ثم علقه على عود وجده لقىً ، ومدَّ به الى كويكوج حامل راية ذلك الفريق المنبتّ ، فجلس هنالك وقد رفع ذلك الضوء الواهي في قلب ذلك الضياع الجبّار ؛ هنالك جلس وهو رمز انسان دون ايمان يرفع يائساً رجاءً في حومة يأسٍ محيط .

أما نحن فقد شملنا البلل وانتقعنا وأخذنا ننتفض من البرد يائسين من رؤية سفينة أو قارب ، أما نحن فقد رفعنا أعيننا لنواجه الفجر لدن طلوعه . كان ثوب الضباب مايزال منشوراً على الماء ، والمصباح الناضب ملقى في قاع القارب محطماً ؛ وفجأة نهض كويكوج واقفاً وقد جوّف راحته وراء أذنه متسمعاً ، وسمعنا جميعاً صريراً خافتاً كأنه صرير حبال وسوارٍ ماتزال العاصفة تكتمه ؛ وأخذ الصوت يقترب ويقترب ، وانشق الضباب الكثيف من حول جسم ضخم مبهم ، وتملكنا الفزع ، غير أنا قفزنا جميعاً في الماء حين لاحت لنا السفينة بمرأى منا وهي تنقض نحونا في مدى لا يزيد كثيراً عن طولها .

وحين كنا على الثبج رأينا القارب المهجور يعوم فوق الأمواج وبدا لنا في لحظة وهو يتنفض ويفهق تحت مقدم السفينة كأنه شظية في قاع شلال ؛ ثم تدحرج الهيكل الضخم من فوقه واحتجب عن أنظارنا حتى ظهر يتقلب في المؤخرة . فسبحنا لنبلغه مرة أخرى واندفعنا نحوه بقوة الموج ثم أدركنا السفينة ونزلنا حماها آمنين . أما القوارب الأخرى فإنها قبل أن يقترب منها العاصف كانت قد تخلت عن الصيد وعادت الى السفينة في الوقت المناسب . وأما السفينة فكانت قد يئست من العثور علينا ولكنها كانت ماتزال تطوف لعلها تقع على أمارة تدل على مصيرنا المحتوم ، كأن تعثر على مجذاف عائم أو قناة رمح طافية .

٤٩

الضبع

في هذه الزحمة المختلطة الغريبة التي نسميها «الحياة» أوقات ومناسبات عجيبة يرى المرء فيها الكون كلّه نكتة عملية ضخمة ، وان كان لا يستبين فيها براعة التندر الا استبانة باهتة ، ولعله أن يكون على مثل اليقين بأنه هو نفسه محور النادرة . ومع ذلك فإنه لا يرى فيها ما يثبط همته ، ولا يجد ما فيها جديراً بالتنازع . فهو يزدرد كل الأحداث والنِّحِل والمعتقدات والحجج وكل الأمور العسيرة مرئية كانت أو خفية ، لا يهمه أن تكون عقداء شاجرة ، كأنه نعامة ذات قدرة قادرة على الهضم فهي تزدرد الرصاص وشظايا الصوان . أما العقبات والهموم الصغيرة وما قد يحلّ به من مصائب مفاجئة تعرض حياته وأعضاءه للخطر ، أما هذه جميعاً وأما الموت نفسه فإنه لا يرى فيها إلا دعابات ماكرة وإلا جمشات مرحة في الجنب يمنحه اياها الساخر الأعظم السادر المحجوب عن الأبصار . هذا اللون الغريب من المزاج المصابر العنيد ، وهو ما أتحدث عنه ، لا يستولي على المرء إلا في أشد المصائب والمحن ، فيتلبس به وهو في غمرة تفانيه حتى أن كل ما سبق له أن رآه شيئاً هاماً ذا بال ليغدو في نظره حينئذٍ جزءاً من تلك النكتة الشاملة . وليس في الأخطار ما يولد مثل هذا اللون الطليق الهين من هذه الفلسفة الرحبة الرعناء كأخطار صيد الحيتان . وبمثل هذه الفلسفة تأملت رحلة الباقوطة وتأملت غايتها الكبرى وهي صيد الحوت الأبيض .

وعندما سحبوني ، بذلك سحبوا آخر رجل ، الى ظهر السفينة وكنت ماأزال أنفض صدارتي ليتناثر منها الماء ـ عندئذٍ قلت لكويكوج : «كويكوج ، يا صديقي الظريف ، هل يحدث مثل هذا الذي حدث كثيراً ؟» فأفهمني دون أن يحشو كلامه بانفعال ، وإن كان مايزال مثلي ناقع الجسم والثياب بالماء ، ان مثل هذا الذي حدث يحدث كثيراً .

فتحولت الى السيد اسطب ذلك الرجل البارع الجليل الذي كان يدخن غليونه في هدوء

تحت المطر وقد زرّ عليه صدارته المشمّعة وقلت : «سيد اسطب ، أظنني سمعتك تقول أن السيد استاربك رأس الضباط أشد من لاقيته بين جميع الحواتين حيطة وزكانة ، اذن فأنا أظن أن الحمل على حوت هارب ، دفعة واحدة ، والشراع منشور ، في عاصف كثيف الضباب ، هو ذروة التبصر والتروي لدى الحوّات ؟» .

- «يقيناً ، فقد حدث أن أنزلتُ القوارب لمطاردة الحيتان من سفينة مشقوقة يتسرب اليها الماء أثناء ريح هوجاء هبت على مسافة من رأس هورن» .

ثم تحوّلت الى «الدعامة الكبرى» وكان يقف على مقربة منا وقلت له : «سيد فلاسك! أنت ذو دربة ومراس في هذه الأمور ، ولست أنا كذلك ، فهل لك أن تخبرني يا سيد فلاسك : أهو قانون لا يتبدل ولا يتحول في حرفة الصيد أن يدّق المجذّف صلب نفسه وهو يجذف كي يلقي نفسه ويحشر ظهره بين فكي الموت ؟» فقال فلاسك : «ألا تستطيع أن توجز ؟ - أجل ذلك هو القانون . إنني لأحب أن أرى ملاحي القارب يجذفون حتى تكاد ظهورهم تلامس وجه الحوت . ها ها . إن الحوت عندئذٍ ليرد على كل غمزة من أعينهم بغمزة من عينه ، لا تنسَ هذا!» .

تحصّل لدي من مشافهة هؤلاء الثقات الثلاثة العدول صورة واضحة للأمر كله . فاذا اعتبرت أن العواصف الجانحة والانقلاب في الماء ، وما يتلو ذلك من بيات دون ملجأ أو وقاية على الماء ، هي أمور كثيرة الحدوث في هذا النوع من المعيشة ، واذا اعتبرت أنني في اللحظة البالغة الحرج - لحظة هجومي على الحوت - أجعل حياتي وديعة في يديّ ذلك الذي يوجه القارب - وكثيراً ما يكون في تلك اللحظة نفسها امرءاً بالغ التهوّر والاحتدام حتى ليكاد بذلك أن ينقب القارب بوطئه الهائج المحنق - واذا اعتبرت ان المحنة التي أصابت قاربنا ستُعزى في المقام الأول الى اندفاع استاربك في هجومه على الحوت بحيث ألقى بنا أو كاد بين نواجذ العاصف المجنون ؛ واذا اعتبرت أن استاربك على ذلك كله كان مشهوراً بحيطته البالغة في شؤون التحويت ؛ واذا اعتبرت أنني كنت أنتمي الى قارب استاربك ذلك القائد المعروف بحسن التدبير والزكانة ، واذا اعتبرت أخيراً أي شيطان أقحمت نفسي في مطاردته ، أعني الحوت الأبيض ؛ أقول اذا اعتبرت كل هذه الشؤون مجتمعة وجدتني أنزل الى غرفتي واكتب مسوّدة من وصيتي . وقلت لكويكوج : «تعال معي ، ستكون أنت القاضي والمنفذ والوارث» .

وقد يبدو من الغريب أن يكون البحّارة بين الناس جميعاً هم الذين يحرصون على تسطير وصاياهم وشهاداتهم الأخيرة ولكن ليس في العالم كله من هو مثلهم غراماً بتلك

الألهية . وتلك كانت رابع مرة في حياتي أخط فيها وصيتي ، فأحسست ، بعد أن انتهت المراسيم في المرة الرابعة بأني أكثر راحة وطمأنينة ، كأنما انزاح عن صدري حجر كان ثقيل الوطأة فوقه . ثم أن الأيام الباقية من عمري ستكون جميعاً طيبة كالأيام التي عاشها لعازر بعد أن بعث من بين الموتى ، وذلك ربح اضافي نظيف لعله يبلغ شهوراً أو أسابيع ، كيفما كانت الحال . لقد مددت في أجلي وأقفلت خزانة صدري على موتي ودفني ؛ وتلفتُّ حولي في سكينة ورضى كأنني شبح هادئ ذو ضمير سليم يجلس وراء القضبان في قبو عائلي وادع مريح .

وقلت لنفسي ، وأنا أطوي لا شعورياً أكمام صدارتي : ها أنا على أهبة أن أقوم بغوصة نحو الموت والفناء وأنا رابط الجأش هادئ النفس ، حقق الشيطان الختام .

٥٠

قارب آخاب وملاحوه ـ فيض الله

صاح اسطب قائلاً : «من كان يتصور ذلك يا فلاسك! لو كانت لدي رجل واحدة لما وجدتني في قارب إلا أن أكون فيه لكي أسدّ أحد الثقوب بطرف قدمي الخشبية . أوه! إنه لشيخ عجيب!» .

فقال فلاسك : «لا أراه أمراً غريباً بعد كل هذا من أجل ما تقول ، فلو كانت رجله مقطوعة من جانب الورك لكان الأمر مختلفاً ، فذلك يعجزه ويقعده ، ولكن لديه ركبة وجزءاً صالحاً من ركبة أخرى كما تعلم» .

ـ «لست أعرف ذلك ، يا رفيقي فأنا لم أره أبداً يركع» .

* * *

كثيراً ما كان موضوع حياة القبطان في التحويت موضع جدل بين الناس المعنيين بتلك الحرفة ، فحياته بالغة الأهمية في إنجاح السفرة ، واذن : فهل من حقه أن يجازف بها في أخطار المطاردة والصيد ؟ كذلك كثيراً ما تجادل جنود تيمورلنك والدموع تترقرق في مآقيهم : هل من حق قائدهم أن يزج بحياته الغالية في حومة القتال ؟

غير أن المسألة اتخذت وجهاً محوّراً في حال آخاب : ما دام المرء وهو ذو رجلين صحيحتين لا يعدو أن يكون مخلوقاً أقزل في أوقات الخطر ، وما دامت مطاردة الحيتان تتم تحت صعاب كبيرة فريدة على الدوام ، وما دامت كل لحظة على حدة تنضح بالخطر حقاً ، فهل من الحكمة في شيء تحت مثل هذه الاعتبارات أن ينزل امرؤ معطّل في قارب تحويت أثناء الصيد ؟ إن الشركاء الذي يملكون الباقوطة لم يروا ذلك الأمر ـ على وجهه العام ـ من الحكمة في شيء .

لقد كان أصدقاء آخاب في الوطن لا يستاؤون من أن ينزل آخاب في أحد القوارب أثناء مرحلة من المطاردة غير خطرة نسبياً لكي يكون من مشهد العمل على كثب ، ويلقي أوامره شخصياً ، أما أن يكون لآخاب قارب مخصوص ويكون هو القائد الأعلى في الصيد ، أو أن يزود آخاب بخمسة رجال آخرين ليتخذهم ملاحين في قاربه ، أما ذلك فقد كان آخاب يعرف حق المعرفة أنه نوع من الخيال السخيّ الذي لا يمكن أن يتغلغل في رؤوس أصحاب الباقوطة . ولذلك لم يسألهم أن يزودوه بملاحين لأحد القوارب ولا ألمح الى رغباته في ذلك الأمر . إلا أنه اتخذ تدابير خاصة من لدنه بشأن تلك المسألة ؛ وما كان للبحارة أن يتكهنوا بما دبره حتى ذاع ما اكتشفه كاباكو ، وان كانت الأيدي جميعاً قد أنجزت حقاً تهيئة قوارب التحويت للعمل ، وذلك عمل مألوف يتم بعد الابتعاد عن الميناء . وبعد وقت قصير كانوا يرون آخاب بين الحين والحين يشغل نفسه ويدق بيديه المسامير التي يرتكز بينها المجذاف في قارب كانوا يحسبونه أحد القوارب الاحتياطية ، بل كان ينجرُ ـ في رقبة الحذر ـ السفافيد الخشبية الصغيرة التي تدق فوق الميزاب في مقدم السفينة حين يرسل حبل الصيد في الماء . حين رأوا ذلك منه ورأوا بخاصة لهفته ليغلف قاع القارب بطاق آخر كأنه يريده أن يتحمل وطأة رجله العاجية المدببة ، وعندما شهدوا القلق الذي أبداه وهو يصمم بدقة سناد الفخذ أو القليط الأرعن ، كما يسمونه أحياناً ، وهو قطعة أفقية في مقدم السفينة تشد اليها الركبة عند زرق الحوت أو طعنه ؛ وعندما لحظوا كيف يقف كثيراً في ذلك القارب وقد أثبت ركبته السليمة في التجويف النصف الدائري في القليط وقوّره بازميل النجار قليلاً هنا وسوّاه مستقيماً ، قليلاً هنالك ، أقول حين شهدوا هذه الأمور جميعاً أيقظت لديهم رغبةً واستطلاعاً حينئذٍ ، ولكن كاد كل امرئ منهم أن يظن بأن هذه العناية الاستعدادية الخاصة لدى آخاب انما هي رجاء صيد موبي ديك في النهاية ، اذ كان قد أنبأهم أنه ينوي هو بنفسه صيد ذلك الوحش ، الذي كُتب عليه الموت . ولكن مثل هذا الظن لم يشمل بأي حال أيّ توهم بعيد حول وجود ملاحين معدّين لذلك القارب .

وتلاشى ما تبقى من عجب حين ظهر الأشباح التوابع ، لأن الأعاجيب تتلاشى سريعاً في قوارب التحويت . ثم أن مثل هذه النفايات التي تأتي من أمم غريبة والتي لا تجد لها تعليلاً تجيء بين الحين والحين من الزوايا المجهولة وحفر النفايات في الأرض لتزيد الى الشذاذ الخارجين لصيد الحيتان ، كثيراً ما تلتقط السفن مثل هذه المخلوقات الغريبة المنبوذة التي تجدها يتلعب بها الموج فوق ألواح أوشظايا من حطام أو مجاذيف أو قوارب تحويث أو زوارق أو ينكات يابانية تصرفها الريح أو شيء من هذا القبيل ؛ وأن «بعل

ذباب»[١] نفسه قد يتسلق أحد جوانب السفينة ويتقدم الى القمرة ويحادث القبطان فلا يثير ذلك في منارة السفينة دهشة مستبدة مستحكمة .

ولكن مهما يكن أمر هذا كله ، فإنه لمن المؤكد أن هؤلاء الأشباح التوابع وجدوا مواضعهم بين الملاحين وإن ظلوا متميزين منهم على نحو ما ، إلا فيض الله الذي تتوج رأسه عمامة من شعر فإنه ظلّ لغزاً ملففاً حتى النهاية . من أين جاء إلى عالم كذلك العالم ؟ بأي نوع من رابطة لا تعليل لها وجد نفسه على التوّ مرتبطاً بمقدرات آخاب ، منتحلاً نوعاً من نفوذ ملموح ؛ علم ذلك عند الله بل لقد كان فيض الله ذا سيطرة عليه ؛ تلك أمور لا يعلمها أحد . غير أن المرء لا يستطيع أن يقف من أمر فيض الله منتحلاً عدم المبالاة ؛ فقد كان مخلوقاً كالذي يراه أهل المنطقة المعتدلة المتمدنون الآلفون في مناماتهم ، ويكاد الشبه أن يكون باهتاً ، ولكن أمثاله ينسابون آونة وآونة بين المجتمعات الآسيوية غير المتغيرة وبخاصة الجزائر الشرقية الواقعة الى الشرق من القارة ـ تلك البلدان الجزرية الأزلية التي لا يتبدل وجهها ، التي لاتزال تحتفظ حتى في هذه العصور الحديثة بكثير من الأصالة الشبحية كما تمثلها أجيال الأرض البدائية حين كانت ذاكرة الانسان الأول لا تعرف النسيان ، وكان كل الناس نسلاً له لا يعرفون من أين أتى ، ويرمق أحدهم الآخر كأنهم أشباح حقيقية ، ويسألون الشمس والقمر لِمَ خلقا ولأية غاية وحين كان الملائكة أنفسهم ـ كما يقول سفر التكوين[٢] ـ يتخذون لهم زوجات من بنات الناس ؛ وزعم الحاخامون المتزيدون أن الشياطين أيضاً انغمسوا في ضرب من العشق الأرضي .

(١) يجيء بعد الشيطان في المرتبة ، في «الفردوس المفقود» وفي سفر الملوك الثاني ١ ، ٢ يرد بعل زبوب اسماً لأحد آلهة الفلسطينيين في عقرون .

(٢) في سفر التكوين ٦ ، ٢ وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات من أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا .

٥١

النفاثة الشبح[١]

مرّت أيام وأسابيع والباقوطة العاجية تنساب في بطء وريح ليّنة رخاء ، فقطعت بذلك أربعة مجالات من مواقع التطواف : الموقع المقابل لجزر الآزور والثاني عند رأس فرد والثالث على «البلاط» ـ سميَ كذلك لأنه على مسافة من مصب نهر ريو دي لبلاطه ـ وموقع كارول وهو مجال مائي مهول الى الجنوب من سنت هيلانة .

وفي إحدى الليالي المقمرة كانت الأمواج تتدحرج متلاحقة كأنها أدراج من الفضة ، وتنشر باهتزازاتها الناعمة ثوباً من الصمت الفضي لا من العزلة الموحشة ؛ وفيما السفينة تنساب خلال الموقع الرابع من مجالات التطواف في ليلة من تلك الليالي الصامتة تجلت للأعين نفاثة فضية أمام الحبب المتكوّر قدّام السفينة ، وتبدت وقد ضوّأها القمر سماوية كأنها إله متلألئ ينهض من البحر وعلى رأسه ريشة بيضاء . وكان فيض اللّه أول من تبينها اذ كانت عادته في هذه الليالي الأضحيانة أن يعلو المرقاة العليا في الصاري الرئيس ويقف في رقبة هنالك ، هو يحدّق ممعناً كأنه يتولى الرقابة في النهار . ولربما رأى الحوّاتون في الليل زرافات من الحيتان غير أنه لم يكن فيهم من كان يحدث نفسه بمغامرة النزول لها في قارب . ولعلك تقدّر أية مشاعر كانت تستولي على البحارة وهم يرون هذا الشرقي العجوز قد وقف رصداً في الأعالي في مثل تلك الساعات الشاذة ، وقد أصبحت عمامته والقمر رفيقين مصطحبين في سماء واحدة . وقضى فيض اللّه فترة مكرورة من الترقب خلال عدة ليالٍ متوالية دون أن يتفوه بصوت واحد ، ولكن حين انبعث صوته الوحشي بعد هذا الصمت كله ،

(١) النفاثة الشبح صورة أخرى من القدر الذي ينتظر امرءاً موغلاً في ثقته بنفسه ، لقد كان آخاب ينتظر الدم الأسود يتدفق من الحوت فأصبح فريسة للوهم يظن النفاثة الشبح نافورة موبي ديك ، فهي رمز للتغرير ، رمز للأمل الروّاغ ، وليس من قبيل المصادفة أن يراها «فيض اللّه» ويوجه انتباه آخاب إليها .

وسمعه البحارة يعلن عن وجود نفاثة فضية يضونها القمر ، هبَّ كلُّ بحار مضطجع واقفاً على قدميه كأنما حلت روح مجنحة في حبال السفينة وأهابت بالملاحين للقاء أجلهم . « هنالك ينفث! » ـ لو أن الصور نفخ لما عراهم من الرعشة ما عراهم ، ولم تكن رعشة فزع وإنما كانت هزة ارتياح وسرور . نعم إنهم لم يتعودوا الهبوب في تلك الساعة غير أن الصيحة كانت بالغة الاثارة ، مشحونة بالبحران حتى كادت كل نفس على السفينة أن تتمنى انزال القوارب بدافع الغريزة .

ومشى آخاب على ظهر السفينة بخطوات سريعة حنفاء ، وأمر أن تعدّ الأشرعة العليا النبيلة والملوكية وأن تنشر الأشرعة الخفيفة الجانبية وأن يتولى الدفة خير رجل في السفينة ؛ وتدحرجت السفينة المحملة أمام الريح وقد استعد الرجال في المراقي العليا فوق الصواري ، وعبأت النسمات الغريبة المنعشة الرافعة تجاويف كثير من الأشرعة فجعلت ظهر السفينة الممراح المدوّم يحسّ وكأن الريح تريد أن تسمو به ؛ ومضت السفينة مندفعة قدماً كأن عاملين متضادين يتصارعان فيها : واحد يريد أن يتوجه بها نحو السماء وثانٍ يريد أن يسوقها متثائبة الى هدف على الأفق ؛ ولو أنك عاينت وجه آخاب تلك الليلة لخلت أن لديه أيضاً شيئين متباينين يعتركان ، فبينا كانت رجله السليمة تبعث أصداء حية سليمة على ظهر السفينة ، كانت كل دقة برجله الميتة كأنها دقة على تابوت . كان الرجل العجوز يمشي على رجلين من حياة وموت . ومع أن السفينة ذهبت منطلقة عجلى ومن كل عين كانت النظرات اللاهفة تنطلق كأنها سهام الا أن النفاثة الفضية اختفت فلم تلح تلك الليلة للانظار ، وكان كل بحار يقسم أنه رآها مرة واحدة ولم يرها مرة ثانية .

وكادت تلك النفاثة التي تتبلج في منتصف الليل تصبح نسياً منسياً حين نادى المنادي بأنها هناك! بعد بضعة أيام في نفس تلك الساعة الصامتة ؛ ومرة أخرى رآها جميع البحارة ، وحين أبحروا لادراكها اختفت عنهم مرة أخرى كأنها لم تكن أبداً . وهكذا ظلت تخايلنا ليلة اثر ليلة حتى لم يعد أحد فينا يتنبه لها إلا ليعجب من أمرها ، فقد كانت تنبلج في ضوء القمر التِمِّ أو في ضوء النجوم ، حسبما كانت الحال ، ثم تختفي طوال يوم كامل أو يومين أو ثلاثة ، وكانت في كل مرة تبدو وكأنها تتقدم ممعنة أمامنا ، وكأن تلك النفاثة المتوحدة كانت تغرينا بالمضيّ قدماً .

وبعض البحارة يؤمنون بالأساطير منذ الأزل ، وللباقوطة نفسها ـ فيما يبدو ـ رواء من الخوارق انتحلته في أمور عديدة ، وعلى ذلك لم نعدم بعض البحارة الذين كانوا يقسمون أن تلك النفاثة التي أعيانا اللحاق بها ، متى شهدت وحيثما شهدت ، مهما تكن الأزمان

والمسافات في مواطن ظهورها متباعدة ، فانها هي نفاثة حوت واحد لا غير ، وذلك الحوت هو موبي ديك . وهيمن على النفوس ، وقتاً ما ، احساس برعب فريد من ذلك الشبح السابح قدامنا كأنه كان يومئ الينا مخادعاً لنمضي وراءه كي يتحول في النهاية نحونا يمزقنا في أشد البحار نأياً واستيحاشاً .

واستمدت هذه المخاوف العارضة ، الغامضة الرهيبة في آن معاً ، من سكينة الجو طاقةً عجيبة ، اذ ظن بعضهم أن سحراً شيطانياً يكمن تحت هذه الوداعة الزرقاء حين أبحرنا أياماً وأياماً خلال بحار ساكنة لطيفة توحي بالاعياء والوحشة ، حتى كأن المسافات كانت تتخلى عما يعمرها من نأمة الحياة أمام مقدمة سفينتنا التي تشبه الزهرية ، رداً منها على مهمتنا الانتقامية الموتورة .

ولكن حين تحولنا أخيراً وجهة المشرق أخذت رياح «الرأس» تجأر من حولنا ، وأخذنا نعلو ونهبط فوق المياه الهائجة هنالك ؛ وحين انحنت الباقوطة ذات الخرطوم العاجي للريح انحناءً شديداً وطعنت قلب الأمواج السود في جنونها حتى أخذ نثار الزبد يتطاير فوق هيكلها كأنه صوب من شذرات الفضة ، حينئذ زال ذلك الفراغ الموحش الذي لا تعمره حياة وحلت محله مناظر أشد كآبة من ذي قبل .

على مقربة من قيدوم السفينة تنطلق أشكال غريبة في الماء هنا وهناك أمام أعيننا ، وتطير في المؤخرة أسراب كثيفة من غربان الماء ، أمرها محيّر لا يدرك . وفي كل صباح كنا نجد صفوفاً من هذه الطير قد حطت على الحاجز والدعائم . وكنا نصفر بها لننفرها فلا تزداد الا تشبثاً بالحبال ، وتظل كذلك مدة طويلة كأنها كانت تظن أن سفينتنا مركب غارق لا أنيس فيه ، وأنه مثابة للوحشة المتأبدة ، فهو من ثم يليق أن يكون مجثماً لها تأوي اليه ما دامت بلا مأوى . هذا وصدر البحر المظلم يعلو ويعلو ويظل يزفر دون ارتياح ، كأن أمواجه الشاسعة ضمير حيّ ، والروح الأرضية الكبرى تتعذب نادمة على الخطيئة والعذاب اللذين ولدتهما .

أيسمّونك أيها الرأس : « رأس الرجاء الصالح » ؟ ما أجدر أن تسمى « رأس العذاب » كما كنت تدعى في غابر الأزمان ؛ ذلك أنا بعد خلبتنا طويلاً تلك السكينة الغدّارة التي واكبت ابحارنا من قبل وجدنا أنفسنا مطروحين في هذا البحر المعذب حيث مسخت الكائنات الآثمة الى طيور وأسماك ، وكأنما كتب عليها أن تسبح الى الأبد دون أن تأمل في مرفأ أمين ، وأن تضرب الهواء القاتم بأجنحتها دون أن ترى أفقاً . الا أن النفاثة المتوحدة كانت تلح أحياناً هادئة بيضاء كالثلج ، لا تتبدل ، موجهة ينبوع رشاشها نحو الفضاء ، وتومئ إلينا أن نمضي في أثرها ، مثلما كانت تفعل من قبل

وإذ كان قتام العناصر جميعاً يرين على كل شيء أخذ آخاب على عاتقه ـ بعض الوقت ـ دور الآمر الوحيد على ظهر السفينة الخطر المبلول ، غير أنه مع ذلك كان في أعتى حال من الانحياش المكتنب ونادراً ما وجه الخطاب الى ضباطه . في مثل هذه الأوقات العصيبة العاصفة ، بعد أن يؤمّن القائد كل شيء على السفينة وفي أعاليها ، لا يتبقى شيء يمكن عمله الا التوقع السلبي لهبوب النسمات . عندئذٍ يصبح القبطان والبحارة جبريين من الناحية العملية ؛ ولذلك كان آخاب يقضي ساعات وساعات يحدق في لهفة المستميت نحو المهبّ ، وقد أدخل قدمه العاجية في الثقب المعهود وأمسك قماش الشراع بإحدى يديه إمساك المتشدد ، فلا يوافيه في وقفته تلك إلا عاصف أو مطر مشوب بالبرد أو ثلج يعقد أهداب عينيه برداً . في الوقت نفسه يلوذ البحارة هاربين من صدر السفينة بسبب المياه الخطرة التي تثور منفجرة وتترامى فوق المقدمة ، ويقفون صفاً على طول الهيكل عند وسطها ، ويدسّ كل امرئ منهم نفسه في نوع من أنشوطة حبل مربوط بالحاجز ، يتأرجح فيها كأنه يلف حوله حزاماً غير مشدود ، كي يحتمي من الأمواج الواثبة . ولا حديث يجري بينهم الا أن يكون بضع كلمات ، وتشق السفينة الجاهدة الصامتة طريقها قدماً خلال جنون الأمواج الشيطانية ومرحها المتوثب وكأنها لم تزوّد برجال وإنما بتماثيل منصوبة من شمع . ويسيطر هذا الخرس الانساني نفسه في الليل على السفينة في مواجهة زعيق البحر ، ويظل الرجال يتأرجحون في أنشوطاتهم صامتين ، ويظل آخاب الأبكم واقفاً في وجه العصفات ، حتى أنه لا يسعى للراحة في سريره حين تبدو الطبيعة المعيية وكأنها تتطلب الارتياح وتستدعيه . وان ينسَ استاربك فلا ينسَ منظر ذلك الشيخ ، وقد هبط استاربك الى القمرة ليقرأ مقياس الضغط الجوّي فرآه ، وقد أغلق عينيه ، يجلس منتصباً في كرسيه المثبت بالأرض ، وماتزال حبات المطر وبعض البرد الذائب التي علقت به حين خلّف العاصفة قبل قليل تتساقط في بطء عن قبعته ومعطفه ، وعلى الطاولة الى جانبه خريطة منشورة من تلك الخرائط التي تحدثنا عنها من قبل وقلنا أنها تبيّن المدّ والتيارات ، ومصباحه يتأرجح في قبضته المحكمة المقفلة ؛ وعلى أن جسمه كان منتصباً فقد أمال رأسه الى الوراء حتى ان عينيه المغمضتين كانتا موجهتين نحو ابرة البوصلة التي تتأرجح من عمود مثبت في السقف .

وقال استاربك لنفسه وقد عرته قشعريرة : يا لك من شيخ رهيب ، انك لتنام في هذه العاصفة وأنت ما تزال ترمق غايتك منعماً معتزماً .

٥٢

الفطرس

الى جـهـة الجنوب الشـرقي من «الرأس» عند جـزائر كـروزيت حيـث مجـال صـالح للتطواف من أجل صـيد الحـوت الأثين ، لاحت أمـامنا سـفينة تسـمـى الغونـي أو الفطرس . وكنت أقف عـاليـاً عند رأس الصاري الأمـامي فـرأيتـهـا وهي تقتـرب في بطء ، وقـيض لي أن أشـهـد عياناً منظراً فذاً لدى الحوات المبتدئ الضارب في المـصايد المائية البعيدة ـ منظر سفينة حواتة على الماء طال غيابها عن شواطئ الوطن .

وكأنما الأمـواج كانت قصّارين اذ كانت هذه السـفينة مغسولة كـأنها هيكل فظ قذفتـه الأمـواج الى البر ، وكـان هذا المنظر الشـبحي مخططاً على جوانـبه بقنوات طويلة من الصـدأ المحمّر ، أما جميع سـواريها وحبالها فكانت كأنها فروع كثيفة من شجرات كُسيت بصقيع أشـمـط . ولم تنشـر من أشـرعـتـهـا إلا الأشـرعة الدنيا ، وكـان منظراً غـريبـاً أن يرى الـمـرء الحـراس الطويلي اللحى عند رؤوس الصـواري الثـلاثة ، فـقـد بـدوا وكـأنـهم يرتدون جلود الوحـوش ، وقـد تمـزقت ورقـعـت تـلك الأكـسيـة التي صـابرت ما يقـارب أربعـة أعـوام من التطواف . وكانوا يقفون في أطواق حديدية مسمّرة الى الصـاري فيتمـايلون ويتأرجحون فوق بحر لا قرار له ؛ وحين انسابت السفينة مقتربة من مؤخرة سفينتنا اقتربنا نحن الرجال الستة المعلقين في الـفضاء بـعضنا من بعض ، حتى لكدنا ـ لو شئنا ـ أن نقفـز من رؤوس صـواري سفينة الى رؤوس صواري الأخرى ، غير أن أولئك الصيادين البائسين الذين طال عليهم الأبد رمقونا حين مرّوا عنا بلطف ولم يتفوهوا بكلمة واحدة الى رقباء سفينتنا بينا تأدى الينا من أسفل نداء ينطلق من الربعة :

«يا بحارة السفينة! هل رأيتم الحوت الأبيض ؟ » .

ولكن حين همّ القبطان الغريب المستند على الهيكل الشـاحب أن يضع النفير في فمه

سقط من يده في الماء . وكانت الريح تهب معاكسة فجاهد عبثاً ليبلغنا صوته . وفي الوقت نفسه كانت المسافة بين السفينتين تتسع . وبينا كان بحارة الباقوطة يرقبون في ضروب مختلفة من الصمت تلك الحادثة المشؤومة تقع لسفينة أخرى لدى محض التلفظ باسم الحوت الأبيض توقف آخاب لحظة وبدا كأنه يكاد أن ينزل قارباً ليلحق بالرجل الغريب لولا أن الريح الهائجة حالت دون ذلك ، غير أنه استغل وجهة الريح فتناول نفيره مرة أخرى ، واذ كان يعرف من مظهر السفينة الغريبة أنها نانتوكتية وأنها مزمعة في وقت قصير الى الوطن ، نادى بأعلى صوته : «أنتم هناك! هذه هي الباقوطة ، مزمعة في رحلة حول العالم . قولوا لهم أن يعنونوا جميع رسائلهم في المستقبل الى المحيط الهادي! واذا مرت على هذه اللحظة ثلاث سنوات ولم أعد الى الوطن فقولوا لهم أن يوجهوها الى...» .

في تلك اللحظة تقاطع مخرا السفينتين وعلى التوّ انطلقت أسراب من السمك الصغار التي لا أذى منها وكانت حسبما جرت بها عاداتها الفريدة قد سبحت على مدى بضعة أيام في اطمئنان الى جانب سفينتنا ، انطلقت مبعدة وزعانفها كأنه ترتعش ، واصطفت في طليعة ومؤخرة على جانبي السفينة الغريبة . وقد يكون آخاب خلال سفراته العديدة قد شهد مثل هذا المشهد كثيراً ولكن أيسر الهنات تحمل في طياتها معاني لأي رجل مجنون ، مستبد النزوات .

وتمتم آخاب وهو يحدق في الماء قائلاً : «تسبحين مبعدة عني ؟ أليس كذلك ؟» وكأن هذه الكلمات لا تحمل إلا معنى يسيراً ولكن النغمة نقلت أسى عميقاً لا رجاء فيه لم يعبر عنه الشيخ المجنون كذلك من قبل . غير أنه تحول الى القائم عند الدفة وكان قد كبح السفينة في الريح ليقلل من انطلاقها العامد ، زأر بصوت أسد هرم قائلاً : «الدفة الى أعلى! دعها تذهب حول العالم!» .

«حول العالم!» في هذا الصوت قسط وافر مما يوحي بالمشاعر المستكبرة ولكن الى أين يؤدي كل هذا التطواف ؟ ليس إلا خلال ما لا يحصى من المخاطر حتى نبلغ النقطة التي منها انطلقنا حيث أولئك الذين خلفناهم مطمئنين آمنين كانوا في كل حال قدّامنا .

لو كان هذا العالم سهلاً لا نهاية له وكنا اذا أبحرنا شرقاً نستطيع أن نبلغ الى الأبد مسافات جديدة ونستكشف مناظر أحلى وأغرب من أي جزر تسمى ككلادس أو جزر الملك سليمان ، اذن لكان في رحلتنا بشائر خير ؛ ولكن ما دمنا نلاحق مغيبات بعيدة نحلم بها أو نطارد في عذاب ذلك الشبح الشيطاني الذي يلوح سابحاً بين الحين والحين ، أمام جميع القلوب البشرية ، أقول ما دمنا كذلك نسعى فوق هذه الكرة فإن ما نطارده سيقودنا الى تيه يباب أو يقف بنا في منتصف الطريق منبتّين هالكين .

٥٣

الجمة[١]

لمَ لمْ يذهب آخاب الى ظهر الحوّاتة التي تحدثنا عنها ؟ السبب الظاهري في ذلك أن الريح والبحر كانا ينذران بالعواصف ، ولعله لو لم تكن الحال كذلك لما ذهب اليها على أية حال ، نحن نحكم في هذا الأمر على ضوء تصرفاته التالية في مناسبات مشابهة ، ان كان في سياق النداء قد تلقى على سؤاله جواباً بالنفي . فقد تبيّن لنا في النهاية أنه لم يكن يحرص على أن ينفق خمس دقائق في محادثة أي قبطان غريب إلا إن كان ذلك القبطان يستطيع أن يفضي اليه بخبر عما يشغل ذهنه ويسعى لمعرفته . وقد كان في مقدورنا أن لا نعير هذا الأمر اهتماماً لولا أننا نريد أن نقول شيئاً في العادات الخاصة التي تجري عليها الحوّاتات حين تلقى إحداها الأخرى في البحار النائية وبخاصة اذا تلاقتا في مجال مشترك من التطواف .

لو أن غريبين يقطعان يهماء «باين» في ولاية نيويورك أو يقطعان سهل سالزبري الذي يشبهها وحشة بانجلترا ، لو أنهما التقيا مصادفة في مثل تلك البراري الجاهمة الشحيحة لما ضنّ أحدهما على الآخر بالتحية المتبادلة ، من أجل التشبث بالحياة ، واذن لتوقفا لحظة وتبادلا الأخبار ولربما جلسا هنيهة واستراحا في وئام . ما أحرى أن تفعل ذلك سفينتان حواتتان أبصرت أحداهما الأخرى عند حوافي المعمورة والتقتا في يهماء «باين» البحرية وفي سهل سالزبري البحري الذي لا تعرف له حدود ـ التقتا مثلاً عند جزيرة فاننج المتأبدة أو عند «طواحين الملك» وهي أشد تأبداً ، أقول ما أحرى هاتين السفينتين في مثل تلك الظروف ان تتبادلا النداءات لا بل أن تتقاربا في وئام ودي وثيق . ولا بد أن يبدو هذا أمراً

(١) The Gam ، وقد استعملت لفظة «الجمة» في مقابلها للمشابهة ولأن اللفظة العربية تحمل معاني التجمع والارتياح ، وهي أيضاً من ألفاظ البحريين . فجمة المركب البحري هي الموضع الذي يجتمع فيه الماء الراشح من حزوزه ، عربية فصيحة ، كذا جاء في اللسان .

طبيعياً اذا كانت السفينتان تنتميان الى ميناء واحد يعرف قبطانهما وضباطهما وبعض بحارتهما أحدهما الآخر ولديهم لهذا كل نوع من أمور الوطنية العزيزة ليتحدثوا عنها .

وقد يكون في السفينة المنطلقة في رحلتها رسائل للسفينة التي طالت غيبتها ؛ وهي على أية حال واثقة من أنها تحصل منها على صحف أحدث من آخر صحيفة مهترئة مطموسة المعالم ، بمقدار سنة أو سنتين . وتتلقى السفينة المنطلقة في رحلتها لقاء تلك الحفاوة آخر أخبار عن التحويت من أرض التطواف التي تزمع نحوها ، وذلك أمر بالغ الأهمية لها . ويصدق هذا كله ، الى حد ما ، على سفن التحويت التي تعبر الواحدة منها أثر الأخرى في منطقة التطواف نفسها وإن كانت مدتا غيابهما عن أرض الوطن متساويتين . اذ قد تكون احداهما تسلمت رسائل منقولة من سفينة ثالثة أصبحت حينئذٍ بعيدة نائية ، وقد تكون بعض تلك الرسائل لناس في السفينة التي تلاقيها . هذا الى أنهما قد تتبادلان أخبار التحويت ، وتشتركان في أحاديث مناسبة فإنهما لا تلتقيان فحسب بكلّ ما بين البحارة من تعاطف وانما تتقابلان أيضاً بكل ضروب اللطف الناشئة عن وحدة الغاية وضروب الحرمان والأخطار المشتركة .

ثم ان اختلاف البلدان لا يصنع فرقاً جوهرياً أي ما دامت الفئتان تتكلمان لغة واحدة مثلما هي حال الأمريكيين والانجليز ، وان كان من الأمور اليقينية ان مثل هذه اللقاءات لا تحدث كثيراً نظراً لقلة عدد الحواتات الانجليزية ، فاذا حدثت حقاً سيطر الحياء على الفئتين لأن الانجليزي متحفظ مثلما أن اليانكي يظن أن ليس في الناس متحفظ إلاّه . ثم أن الحواتات الانجليزية تنتحل أحياناً نوعاً من الاستعلاء الذي يمارسه أهل الحاضرة على الحواتات الأمريكية ، فالانجليزي يعدّ ابن نانتوكت الطويل النحيل ومنحاه الاقليمي الذي لا يوصف نوعاً من ريفيي البحار ولكن على أي أساس نشأت هذه الاستعلائية في الحواتين الانجليز ؟ ذلك أمر يصعب تقريره اذا تذكرنا أن اليانكيين مجتمعين يقتلون من الحيتان في يوم واحد أكثر مما يقتله الانجليز مجتمعين في عشرة أعوام . ولكن هذه هنة يسيرة من عيب في الحواتين الانجليز لا يأبه النانتوكتي بها كثيراً لأنه يعرف أن لديه أيضاً هنات يسيرات .

من ثم نرى أن الحواتات بين سائر السفن المبحرة متفرقة فيٍ البحر أشدها حاجة الى التآلف والمؤانسة ـ وكذلك هي . بينا تجد بعض السفن التجارية تجتاز فوق مخر سفينة في وسط الأطلسي ، وكثيراً ما تعبر ماضية دون كلمة واحدة من تعرف ، واحداهما تكاد تقارن الأخرى في العبور في البحار النائية وتتقاطع طريقاهما كأنهما غرنوقان في برودواي ، ولعلهما أن تنهمكا كل الوقت في نقد متحذلق توجهه كل منهما لما زودت به الأخرى من

أدقال وأشرعة وحبال . أما البوارج الحربية فإنها اذا اتفق أن تلاقت في البحر أوغلت أولاً في سلسلة من الانخفاض والانحناء البليد أعني تبادل التحايا بخفض الأعلام حتى أنه لا يبدو أن لديها نية صافية وحباً أخوياً أبداً ؛ وأما فيما يتصل باللقاء بين سفن الرقيق فإنها تكون جدّ معجلة حتى أن احداها لتهرب من وجه الأخرى بأسرع ما تستطيع . وأما سفن القراصنة فاذا صادف أن تشاجرت ظلالها كان أول نداء يسمع منها : «كم رأساً لديكم ؟» مثلما أن الحواتين يصيحون سائلين عند اللقاء : «كم برميلاً جمعتم ؟» فاذا أجابت الفئة الأخرى على السؤال افترقت فئتا القراصنة اذ أنهم أوغاد جهنميون في كلتا الفئتين ولا يحب أحدهم أن يمعن في رؤيته لصورة وغديته مجسمة في جه أخيه .

ولكن تأمل الحواتة المتألهة الشريفة المتواضعة المضياف المؤانسة الطليقة الهينة اللينة! ماذا تصنع عندما تلاقي حواتة أخرى في جوّ رحيم ؟ تصنع «جَمّة» - شيئاً لا تعرفه اطلاقاً السفن الأخرى بل أنها لم تسمع باسمه ، واذا سمعت به اتفاقاً سخرت منه وكررت أقوالاً عابثة عن «النفاثات» وعن «مراجل الشحم» وغيرها من التعبيرات الجميلة . لِمَ كان كل بحارة السفن التجارية وكل القراصنة ورجال البوارج الحربية وملاحي سفن الرقيق ينطوون على مشاعر الاحتقار نحو سفن التحويت ؟ هذا سؤال تعسر الاجابة عنه . ولكني أقول : أود أن أعرف ان كانت حرفة القراصنة ذات مجد خاص بها مقصور عليها . نعم انها تنتهي بصاحبها أحياناً الى علوّ رفيع ، إلا أنه علوّ في حبل المشنقة وحين يرفع المرء بتلك الطريقة الغريبة لا يكون لارتفاعه أساس صحيح اذن فأنا أرى أن القرصان حين يتبجح بأنه أعلى مقاماً من الحوات فليس لديه موطئ صلب لهذه الدعوى يقف عليه .

لكن ما «الجَمّة ؟» قد تبلي ابهامك وأنت تعلو به وتهبط في أعمدة المعاجم دون أن تعثر على هذه الكلمة . فالدكتور جونسون لم يبلغ به علمه اللغويّ تلك اللوذعية ، وسفينة نوح وبستر لم تحمل مثلها ، ومع ذلك فإن هذه اللفظة المعبّرة قد أصبحت دارجة في الاستعمال منذ سنوات كثيرة بين خمسة عشر ألفاً أو نحوهم من اليانكيين الخلّص . ولا ريب في أنها تحتاج تعريفاً ولا بدّ من أن تدرج في المعجم ، ومن أجل هذه الغاية أحاول أن أعرفها تعريفاً علمياً دقيقاً فأقول :

الجَمّة : اسم ، ومعناها اجتماع وديّ بين حواتتين (أو أكثر) ، وغالباً ما يكون ذلك في مجالات التطواف . وبعد أن تتبادلا السفينتان النداءات يقوم ملاحو القوارب بتبادل الزيارات ، فيبقى القبطانان بعض الوقت على ظهر إحدى السفينتين ويبقى الضابطان الرئيسان على ظهر الأخرى .

وهناك نبذة صغيرة أخرى عن الجمّة يجب أن لا ننساها في هذا المقام : لكل حرفة خصائصها الدقيقة التفصيلية وكذلك الشأن في صيد الحيتان . فحين ينزل قبطان سفينة القراصنة أو البارجة الحربية أو مركب الرقيق في قارب ويجذف به الملاحون الى مكان ما ، يجلس دائماً عند الأشرعة الخلفية على مقعد مريح قد تكسوه حشية أحياناً ، وكثيراً ما يأمر أن يزود السكان برافعة لطيفة ميلانية مزينة بأشرطة وحبال زاهية الألوان ؛ أما قارب الحواتة فليس فيه مقعد في المؤخرة ولا حشية من ذلك النوع ولا رافعة أبداً . ومن النادر حقاً أن تجد قباطنة التحويت يؤخذون في القوارب على « حمار خشبي » كما يحمل الشيوخ المنقرسون في محفّات . وأما الرافعة فإنها مظهر مخنث تأباه قوارب التحويت ؛ ولذلك يغادر السفينة طقمٌ كامل من الملاحين ، كما يحدث في الجمّة ، وبما أن القائم على الدفة أو الرماح يعد واحداً منهم فإن هذا المرؤوس هو سيد الموقف في تلك المناسبة وأما القبطان فإنه يؤخذ الى الزيارة واقفاً كشجرة الصنوبر اذ ليس له مكان للجلوس . وكثيراً ما تلحظ أن هذا القبطان الواقف يدرك أن أعين العالم المنظور جميعاً تتجه نحوه من جانبي السفينتين ، فهو لذلك يعي أهمية احتفاظه بعزته فيظلّ مثبتاً رجليه ، وليس هذا بالأمر السهل اذ أن وراءه مجذاف التوجيه البارز الضخم ، يدعّه بين الحين والحين في أم ظهره ، ويجيبه المجذاف الخلفي فيقرع ركبتيه من أمام . فهو « مكبوس » تماماً من خلف وقدّام ، ولا يستطيع أن يمد نفسه إلا الى الجانبين وذلك بأن يحط على رجليه الممدودتين ؛ إلا أن أية وثبة مفاجئة عنيفة يقوم بها القارب ، كثيراً ما يبلغ بها أن تقلبه ، لأن طول الأساس لا ينفع دون عرض مماثل ؛ فإنك لو وسعت الزاوية بين عمودين لما استطعت ايقافهما ثابتين ؛ ثم ان هذا القبطان الذي تفاجَت رجلاه لا يليق به ان يبدو أمام أعين الكون المحدقة وقد تماسك أدنى تماسك بالقبض على شيء ما بيديه ، بل أنه ليضع يديه - على وجه العموم - في جيبي سرواله اشارة الى تشبته الذاتي السجيح التام ، ولكن ربما كانت يداه على وجه العموم كبيرتين ثقيلتين فهو يضعهما في جيبيه جاعلاً منهما مثقلاً . ومع ذلك وقعت حوادث أيضاً ، شهد الثقات بصحتها ، حيث صادف القبطان لحظة حرجة أو اثنتين ، كأن يتعرض لحاصب مثلاً ، واذا به يقبض على شعر أقرب المجذفين اليه ، ويظل متشبثاً به كأنه الموت العبوس .

٥٤

قصة تاونهو

(حسبما رويت في الحانة الذهبية)

رأس الرجاء الصالح وكل المنطقة المائية من حوله كأنها «جهارسوج[1]» او مربّعة تلتقي عندها طرق سلطانية وهناك تلقّى من الرحالة اكثر مما تلقى في أي مكان آخر .

ولم يمضِ وقت طويل على محادثة «الفطرس» حتى التقينا بحوّاتة اخرى مزمعة نحو الوطن اسمها «تاونهو»* وكان جلّ بحارتها من البولونيزيين . وقد أخبرتنا في «الجمّة» القصيرة التي أقمناها أخباراً ذات شأن عن موبي ديك ، وكان ماجاء في قصة تاونهو سبباً في أن يزداد الاهتمام لدى بعض الناس بالحوت الأبيض على نحو غريب ، فقد شملت القصة على نحو غامض حديثاً عن إلمامة عجيبة معكوسة كان الزائر فيها واحداً مما نسميه عادة «الأحكام الربانية» وتلك هي التي تلم - فيما يقولون - ببعض الناس أحياناً . وهذه الحادثة الاخيرة مع ما صاحبها من ملابسات خاصة ، وهي تمثل ما قد يسمى الجانب السري من المأساة التي أهمُّ بروايتها ، لم تبلغ أذن القبطان آخاب او مسامع ضباطه ، ذلك ان هذا الجانب السريّ من القصة كان مجهولاً لقبطان تاونهو نفسه وانما كان يعلمه ثلاثةٌ متعاهدون متآلفون من البحارة البيض في تلك السفينة ، فأبلغه أحدهم ، فيما يبدو ، الى طاشطيقو وأخذ عليه الايمان الغليظة بالكتمان ، ولكن طاشطيقو اخذ يهذي في الليلة التالية في منامه ، ونثَّ من سرّه كثيراً على ذلك النحو ، فلما استيقظ لم يستطع ان يتشبث بكتمان ما تبقى . ومع ذلك فقد كان لهذا الأمر تأثير بالغ في من عرفه من بحارة الباقوطة معرفة جلية كاملة حتى لقد هيمنت على نفوسهم تلك الطرفة العجيبة

---

(١) من الفارسية «جهارسو» ومعناها مربع . ملتقى الطرق الأربع يسمونه «جهارسوار» .

* سميت باسم الصيحة القديمة! Town-ho عند رؤية الحوت اول مرة من رأس الصاري ولايزال الحواتون الذين يصيدون السلحفاة النهرية المشهورة Gallipagos Terrapin يستعملونها . قلت ، ولا احد يعرف معنى هذه الصيحة او أصلها اللغوي .

ـ ان صحَ ان نسميها كذلك ـ فاحتفظوا من جراء ذلك بالسرّ فيما بينهم بحيث لم يبلغ في ذيوعه وراء الصاري الرئيس في الباقوطة . ولما كنت قد نسجت هذا الخيط القاتم بالقصة كما سردت علناً على السفينة في الموضع المناسب فأنا اتقدم ها هنا لأخلّد هذه الحادثة الغريبة جميعاً بالتدوين .

وسأحتفظ ـ ارضاء لمزاجي ـ بالأسلوب الذي سردتها فيه ذات مرة في ليما على مسامع عصبة متسكعة من أصدقائي الاسبان ، في أمسية من أعياد احد القديسين ، ونحن ندخن على باحة الحانة الذهبية ، ذات الارض المفروشة ببلاط مُذْهَب سميك . وكان السيدان الشابان بطره وسبسطيان من بين أولئك الفرسان الظرفاء أوثقهم بي علاقة ، ومن ثم جاءت الاسئلة المعترضة التي يطرحانها فأجيب عليها بما تستحقه في الحين :

« قبل حوالي سنتين من معرفتي أول مرة للأحداث التي أهمُ بقصَها عليكم ايها السادة كانت تاونهو ـ وهي حواتة نانتوكتية لصيد حوت العنبر ـ تطوف في مياه محيطكم هذا الهادي ، على ليالٍ غير عديدة الى الغرب[1] من شرفات هذه الحانة الذهبية الكريمة ، وكانت في مكان ما الى الشمال من خط الصيد . وذات صباح أعملت المضخات حسب العادة اليومية فلحظ الملاحون ان مقدار ما تسرب من الماء الى عنبرها قد تجاوز المعهود . فظنوا ـ ايها السادة ـ ان حوت الكبع المسيّف قد أوهنها ، إلا ان القبطان لم يرَ الصدع خطراً ، وكان لديه ما يقنعه بأن الحظ سيحالفه في تلك المواقع ، فكان ينفر من مفارقتها ، ثم ان البحارة لم يجدوا أثراً للصدع حين نزلوا في العنبر الى أقصى ما يستطيعون في مثل ذلك الجو العنيف ، ولكل هذه الاسباب مضى الملاحون يعملون المضخات في فترات متباعدة وحماسة فاترة . إلا ان الحظّ لم يواتِ القبطان ، ومضت الايام والصدع يتسع وان ظل موضعه مجهولاً ، عندئذ خاف القبطان وتوجه مبحراً يوم اقرب ميناء بين تلك الجزر لكي ينزع هيكل السفينة ويؤخذ للترميم » .

« ولم تكن المسافة التي ستقطعها السفينة قصيرة ولكن إن واتاها الحظ فان القبطان لم يكن يخشى عليها ان تغرق اذ كانت المضخات سليمة ، وكان البحارة يتناوبونها ، وعددهم ستة وثلاثون ، ولهذا يستطيعون ان يضمنوا لها النجاة دون عناء كبير ، ولاضير عليها لو اتسع الصدع فأصبح ضعفي ما كان . والحق ان النسمات المسعفة واكبتها في اكثر رحلتها وكان في مقدورها ان تصل في سلامة تامة الى مينائها دون ان يعرض لها ما يرديها في أقل

(١) في الأصل : الى الشرق ، وهو خطأ بيّن .

ضروب الخطر لولا عجرفية رادني الوحشية ـ ورادني هذا هو ضابط فنياردي الاصل . ولولا حب الانتقام الذي استثير بمرارة لدى استيلكلت وهو بحيريّ من بفلو متمرس بالخروج والعصيان » .

« فقال الدون سبسطيان وهو ينهض من حشيته المتأرجحة المعبأة بالحشيش : بحيري! بفلو! ما البحيري وأين تقع بفلو ؟ » .

« تقع على الشاطىء الشرقي من بحيرة إيري ايها الدون ؛ ولكني أقول ـ وأنا استميحك عذراً ـ لعلك ان تسمع بُعيد قليل عن هذا كله . هذا البحيري ـ ايها السادة ـ قد تربّى في قلب امريكتنا المغلف باليابسة على تذوّق تلك الانطباعات الريفية القرصانية النهّابة التي يعتقدها الناس متصلة بالبحر الفسيح ، حين مارس العمل في سفن مربعة الاشرعة واخرى ثلاثية الصواري تقارب في ضخامتها اي سفينة أبحرت من مينائكم القديمة كلاً وحتى مانيلا النائية ؛ لان بحيراتنا العذبة العظيمة ـ إيري وانتاريو وهيورن وسوبيريور ومتشجن ـ اذ يتحد ماؤها جميعاً تكون في سعتها مشبهة سعة البحر المحيط ، حائزة على كثير من خصائصه الرفيعة ، وعلى ما يتمتع به من أجناس ومناخات متنوعة . فهي تحتوي على ارخبيلات ذات جزر سحرية كالأمواه البولونيزية ؛ وهي في جزء كبير منها ـ كالمحيط الاطلسي ـ يعيش على ساحلها شعبان عظيمان متباينان ، وهي تصلح ان تكون طرقاً بحرية طويلة تؤدي من جهة الشرق الى مدننا العديدة التي أنشئت على ضفافها و تطل عليها عابسة من هنا وهناك بطاريات ومدافع ناتئة كأنها الماعز من ماكيناو الشاهق[1] وقد سمعت هذه البحيرات هدير الانتصارات البحرية وأحياناً تفتح صدرها لبرابرة همجيين تلتمع أوجههم الممغّرة من اكواخهم المغطاة بالأهب . وعلى مدى فراسخ وفراسخ تقوم على حوافيها غابات عاديّة كثيفة لايجرؤ على دخولها أحد ، وفيها تقف اشجار الصنوبر الضامرة كأنها سلاسل متراصة من اسماء الملوك في أنساب قوطية . وهذه الغابات نفسها مأوى الوحوش المفترسة الافريقية ومأوى مخلوقات حريرية الملمس يصنع من فرائها المصدّر طيلسانات لاباطرة التتار ، وعلى صفحاتها تنعكس عاصمتنا بفلو وكلفلند المرصوفة شوارعهما مثلما ترتسم فيها قرى ونباغو ، وعلى سطحها تعوم السفينة التجارية المشحونة ، وطرادة الدولة والباخرة والزورق المصنوع من خشب الزان ، على السواء ، وتهب عليها العواصف البورية التي تحطم

---

(١) مضايق ماكناك (وهذا هو النطق الصحيح للكلمة) تصل بين بحيرة هيورن ومتشجن ، وفي المضايق جزيرة بنى عليها الفرنسيون قلعة عام ١٧١٢ واستولى عليها الانجليز سنة ١٧٦١ واتخذوها مقراً لحماية مراكزهم التجارية حتى ١٧٩٦ عندما تسلمها الامريكيون بموجب معاهدة باريس .

الصواري ، شديدة مهولة كأي عاصفة تجلد أثباج الموج في البحر الملح . وهي تعرف ما معنى تحطم السفن اذ انها كثيراً ما اغرقت في منتصف الليل سفينة كاملة بكلّ من عليها من ملاحين يصيحون مستغيثين ، حين تتوسطها السفينة فتغيب عن الأنظار وان كانت البحيرات محفوفة بالبر من جميع النواحي . اذن فان استيلكلت ـ ايها السادة ـ وان كان ابن البرّ يعد من أبناء البحر الهيّاج : فيه ولد وفيه ترعرع فأصبح بحاراً مقداماً جسوراً شأنه في ذلك شأن أي بحّار . وأما رادني فقد نشأ في طفولته على شاطىء نانتوكت المنعزل ، ومنحته مياه البحر صدر الأمّ . ولما كبر أطال التجواب في أطلسيكم الجاهم وفي محيطنا الهادي المتأمل ، إلا أنه مع ذلك كله كان في تسرعه للثأر وحبه للشجار كأنه ربيب الأجمات المهجورة جاء لتوّه من تلك المناطق التي مايزال اهلها يستعملون قرون الغزلان نصاباً لمداهم . غير ان هذا النانتوكتي كان امرءاً ذا خلال طيبة ، وأما ذاك البحيري ـ فانه وان كان حقاً بحاراً من جنس الشياطين ـ فقد أخذ بالحزم المشوب بذلك التقدير لانسانيته ، ـ والتقدير لانسانية المرء هو أدنى حقوق العبد ـ أقول : حين لقي استيلكلت مثل هذه المعاملة تقلمت أظفار أذاه وغدا مطواعاً ليناً ، وظل على ذلك ردحاً طويلاً ، في عدة احداث وشؤون . غير ان القدر كان يدفع رادني الى مصيره وأخرجه الحمق عن طوره ، وأما استيلكلت... .... لا بأس سأقص عليكم ايها السادة نبأهما » .

« توجهت تاونهو وجهة مينائها الجزري الامين ، ولم يكد يمضي على ذلك يوم او يومان حتى بدا وكأن صدعها قد اتسع ، إلا ان ذلك كان يتطلب زيادة العمل في المضخات ساعة او غير ساعة يومياً . لابد لكم ان تعلموا بأن بعض القباطنة لايرون استعمال المضخات دائماً وهم يجتازون مياهاً هادئة مستكينة كمياه محيطنا هذا الاطلسي مثلاً . غير انه لو مرت بضابط الدكة ليلة ساكنة نعوس واتفق له ان نسي واجبه في هذا الصدد ، لكان من المحتمل ان لا يتذكر ابداً هو ورفاقه البحارة ما كان نسيه من قبل لان جميعهم سيخلدون وادعين الى السكينة الابدية في قرارة البحر . وليس من الشاذ ان يظل الملاحون ـ ايها السادة ـ في البحار النائية المتوحشة البعيدة عنكم الى جهة الغرب يتناوبون « العزف » على مقابض المضخات في جوقة كاملة حتى تكون الرحلة ذات طول معقول ، أي حين تكون على موازاة ساحل ميسور بلوغه او ان كان قد تهيأ للبحارة ان يلوذوا الى مرفأ أمين . ولا يبدأ قبطان السفينة يستشعر بعض القلق إلا ان كانت سفينته المصدوعة قد ضربت في عرض البحر وأصبح البرّ منها مناط الثريا » .

« وذلك هو ما ألمّ بتاونهو . فعندما تبيّن البحارة ان صدعها قد استشرى أبدى عديدون

منهم في الحق بعض اهتمام يسير وبخاصة الضابط رادني فأمر ان ترفع الاشرعة العليا جيداً وان يبالغ البحارة في نشرها من جديد ، وأن توجه بكل سبيل لتلاقح النسيم . وأنا أظن ان رادني هذا ـ أيها السادة ـ كان ينطوي على شيء من الجبن وأنه لم يكن بارناً تماماً من أي نوع من المخاوف العصبية التي قد تلم بشخصه ، كأي مخلوق جريء متهوّر على البر أو البحر في مقدور أخيلتكم أن تتصوره على هينتها . لذا فانه حين أبدى جزع المتوجس حول سلامة السفينة قال بعض البحارة انه انما يفعل ذلك لانه شريكٌ في ملكيتها . وحين كانوا في ذلك المساء يعملون المضخات جرى بينهم تندر ماكر حول ذلك الموضوع اذ كانوا يقفون والماء الصافي المتعرج يتدفق فوق أقدامهم دوماً ، صافياً كأنه ماء نبع في جبل ـ يا سادة ـ ويجري عبر ظهر السفينة وقد اندفع والحبب من أفواه المضخات ، وينصب في دفقات متلاحقة من ثقوب المصارف في الجانب الأيسر » .

« وأنتم تعلمون علم اليقين انه ان جعل أحد الناس آمراً متسلطاً على بعض اخوانه من بني الانسان ووجد هذا الآمر أحد مأموريه يتفوق عليه فيما تبعثه الرجولة الحق من زهو واستعلاء ، فليس من الشاذ النادر في عالمنا هذا المعروف ـ مانياً كان أو غير ذلك ـ ان يضطغن الآمر نحو ذلك المأمور كراهية ومرارة لاتكبحان ، واذا أمكنته فرصة طأطأ من شموخ ذلك الملازم المرؤوس وأنحى عليه دقاً وسحقاً ، وجعل مما كان حصناً سامقاً ، كومة محقورة من تراب . ومهما يكن أمر هذا التشبيه الذي أوردته ـ أيها السادة ـ فلا مشاحة في ان استيلكلت كان في كل حال حيواناً طويلاً فارعاً ذا رأس كأنه روماني ، ولحية مسترسلة ذهبية كأنها خصل الجلال الذي اتخذه واليكم الماضي زينة لجواده الكريم ، وهو ذو قلب وذهن ونفس ـ أيها السادة ـ تجعل منه شرلماناً آخر لو كان والد شرلمان له أباً . أما الضابط رادني فكان بشع الخلقة كالبغل ، إلا انه مقدام مثلما هو عنيد حقود . ولم يكن يحب استيلكلت وذلك شيء كان يعرفه هذا فيه » .

واذ رأى البحيريُّ الضابط يقترب منه حين كان يعمل جاهداً عند المضخة مع سائر الرفاق ، تظاهر بأنه لايراه واستمر يرسل دعاباته المرحة دون وجل ، ويقول :

« بلى . بلى . أيها الفتيان المرحون . هذا صدعٌ حيوي نشيط . ليعبىء أحدكم صفيحة من الماء كي نذوقه . والله انه ليستحق الحفظ في زجاجات . أقول لكم يارجال ان المال الذي يستثمره رادني الشيخ في هذه السفينة سيدفع لقاء هذا المال . خير له ان يفصل ما يخصّه من هيكل السفينة ويسحبه عائداً الى بلده . الحق يا فتيان أن سمك الكبع المسيّف هو الذي ابتدأ هذه الدعابة . وها هو قد عاد ومعه عصابة من نجّاري السفن ، من سمك المنشار وسمك

المبرد ، وهلم جرًا . وها هي الزمرة الحاشدة مكبّة على العمل تقطع وتشق في القعر ، وأظنها تقوم بالترميمات والتحسينات . لو كان « راد » الشيخ هنا لأشرت عليه ان يقفز في الماء كي يشتت شملها ، ولقلت له : انها تعيث في أملاكه فساداً كالشياطين لكن « راد » شيخ ساذج طيب القلب ـ وهو ايضاً جميل الطلعة . يقال ـ يا فتيان ـ انه يستثمر بقية ماله في التجارة بالمرايا ؛ لعلني لو طلبت منه أنموذجاً عن أنفه وأنا البشع لم يكد يمنحني ذلك » .

« فهدر رادني متظاهراً بأنه لم يسمع حديث البحارة : عمى في عينيكم! لمَ توقفت تلك المضخة عن العمل ؟ فجَروا منها أصواتاً كالرعد » .

« فقال استيلكلت وهو جذلان كأنه الصرّار : « سمعاً . سمعاً . سيدي ـ هيا انشطوا ، انشطوا يا فتيان! » وما ان أتمّ قوله حتى أخذت المضخة تجلجل كأنها خمسون آلة من آلات الحريق . واشتد الرجال وهم ينصبون في إعمالها ولم يمضِ وقت طويل حتى أخذ يسمع لهاث الصدور ، ذلك الذي يدل على ان أقصى طاقات الحياة قد بلغت حدّ التوتر الكامل » .

« ثم ان البحيري غادر المضخة أخيراً هو وسائر عصبته ، وذهب الى الامام وقد استبد به اللهاث ، وجلس على الدولاب الرافع ، وقد احتقن وجهه بحمرة قانية نارية ، وعيناه تقدحان شرراً ، وهو يمسح العرق الغزير المتصبب عن جبهته . لست أدري اي شيطان ماكر ـ يا سادتي ـ تملك رادني حتى دفعه الى ان يتطفل على ذلك الرجل وهو في مثل حالته الجسمانية المنهوكة . ولكن ذلك هو ما حدث . فان الضابط جاء يذرع ظهر السفينة محتدّاً فارغ الصبر وأمره ان يحضر مكنسة ينظف بها الألواح ، ومجرفة يزيل بها أوساخاً ألقى بها خنزير طليق » .

« وكنس ظهر السفينة في عرض البحر ـ يا سادة ـ عمل مألوف يتم دائماً كل مساء بانتظام الا في أوقات العواصف الهوج . ومن المعروف انه يتم في حال السفن التي تنخرق حقاً . كذلك هي المرونة في عرف البحر وعادات الملاحة ـ ياسادة ـ وكذلك هو حب النظافة السليقي في رجال البحر . فبعضهم يأبى ان يستسلم للغرق قبل ان يغسل وجهه اولاً . ولكن أمر الكنس هذا في كل سفينة موكول الى الغلمان وبه يؤمرون ، ان كان على ظهر السفينة غلمان ؛ ثم ان الذين كانوا يتناوبون العمل على المضخات مقسمين الى فئات هم أقوى الرجال في تاونهو وبما ان استيلكلت كان أقدرهم ساعداً وأقواهم جسماً فانه طالما جعل رئيساً لاحدى تلك الفئات . ومن ثم كان لزاماً على الضابط ان يعفيه من مثل ذلك العمل التافه الذي لا صلة بينه وبين الواجبات الملاحية الصحيحة ، ما دام رفاقه يعفون من ذلك . انني أذكر كل هذه التفصيلات لكي تفهموا تماماً كيف كان الموقف بين الرجلين » .

«وفي هذا الامر ما هو أدهى وأمرّ . فان العمل بالمجرفة كان يعني بصراحة تحقير استيلكلت وازدراءه كأن رادني بصق في وجهه . وهذا شيء يفهمه كل من عمل بحاراً في حوّاتة ، وقد أدرك البحيري كل هذا وعرف ما هو اكثر منه عندما ألقى اليه الضابط بالأمر . وتلبث لحظة وحدّد النظر في عيني الضابط الحاقدتين ورأى فيهما اكداساً مكدسة من البارود ، والكبريت البطيء يقترب منها في صمت ؛ ولما رأى ما رآه بغريزته ، فان ذلك الحلم والتمنع عن اثارة الحدة الكامنة في شخص غضوب ـ وهو نفور يحسه الشجعان حقاً اذا اتفق ان تسرب الى نفوسهم أبداً ـ أقول : ان ذلك الاحساس الطيفي الذي لا يسمى تسلل ـ ايها السادة ـ الى نفس استيلكلت» .

«ولذلك أجابه في نغمة صوتية معتادة لا أثر فيها لتغير الا ما يتخللها من اضطراب بسبب الانهاك الجسماني المؤقت الذي ألمّ به قائلاً ان كنس السفينة ليس من شأنه وانه لن يقوم به . ومن غير ان يلمح الى العمل بالمجرفة أشار الى ثلاثة فتيان قال انهم هم الذين يقومون بالكنس عادة وبما انهم لم يؤدوا اي دور في المضخات فان ما عملوه طوال اليوم قليل او كالمعدوم . فكان ردّ رادني على هذا ان أطلق سباباً مقذعاً في أشد صور الغطرسة والسخط مكرراً أمره دون تحفظ . كل هذا وهو يتقدم نحو البحيري الذي مايزال جالساً ، وقد رفع في يده مطرقة أحد صناع البراميل ، اختطفها من برميل كان منه قريباً» .

«وعلى الرغم من الشعور المتصل بالحلم والتمنع ، ذلك الشعور الذي لا نجد له اسماً ، فان استيلكلت الذي كان يتصبب عرقاً وقد حمي وهاجه الكد المضني الذي تأبضت به عروقه ، لم يستطع ان يتقبل هياج الضابط الا على مضض ؛ غير انه ظلّ يخمد لهيب النار المتصاعدة في نفسه فبقي دون ان يتكلم متشبثاً تشبث العنيد بمجلسه ، حتى اقترب رادني المهتاج وهزّ المطرقة على بعد بضع بوصات من وجهه ، وأمره والسخط يتملكه ان يطيع ما أمر به» .

«فنهض استيلكلت ، وتراجع ببطء حول الدولاب الرافع والضابط يتعقب خطاه ثابتاً ومطرقة التهديد في يده ، وقال للضابط بصوت العامد الواثق انه لن يطيع أوامره . ولما وجد ان ضبطه لأعصابه لم يكن له أدنى ثمرة أخذ يلمح الماحاً رهيباً لا تعبر عنه الكلمات بقبضة يده ويحذر الرَجل الأخرق المتهور ، ولكن دون جدوى . وعلى هذا النحو مضى الرجلان ببطء حول الدولاب الرافع ؛ وحين حزم البحيري أمره على ان لا يتراجع خطوة واحدة أخرى اذ قدّر لنفسه أنه قد أبدى من الصبر كل ما يطيقه مزاجه ، توقف عند مدخل العنبر ، وخاطب الضابط قائلاً :

لن أطيع أوامرك يا سيد رادني . أبعد تلك المطرقة او خذ حذرك . ولكن الضابط الذي أعماه القدر ظل يقترب منه ، والبحيري ثابت في موقفه ، وهزّ المطرقة الثقيلة على مدى بوصة واحدة من أسنانه ، وهو في الوقت نفسه يرسل سيلاً لايطاق من السباب واللعن . غير ان استيلكلت لم يطرف له جفن ولم يتزحزح في موقفه بما قد يبلغ واحداً في الألف من البوصة ، وسدّد الى عين الضابط نظرة شزراء كأنها خنجر لا يهتز ، ثم جمع قبضته اليمنى وراء ظهره ومدّها الى الوراء منقبضة وأعلم هذا الذي يطارده ان المطرقة ان خدشت خده فانه (اي استيلكلت) سيذبحه . ولكن قوى الشياطين أيها السادة كانت قد ندبت ذلك الاحمق ليقدم على مجزرة . فقد مست المطرقة الخدّ توأ وفي اللحظة التالية كان فك الضابط الاسفل قد انكسر ووقع على مدخل العنبر وهو يبصق دماً كأنه حوت » .

« وقبل ان تبلغ الصيحة مؤخرة السفينة كان استيلكلت يهز احدى السنادات الخلفية التي تؤدي الى أعلى حيث اثنان من رفاقه يقف كل منهما على أعلى الصاري . كان كلاهما قنالياً » .

« فصاح الدون بطره : قنالياً ؟ رأينا كثيراً من سفن التحويت في موانينا ولكنا لم نسمع شيئاً عن القناليين ؛ عفواً : من منهما وما هما ؟ » .

« القناليون ايها السيد هم ملاحو القوارب التي تنتمي الى القنال العظيمة قنال إيري[١] . لابد ان تكون سمعت بها » .

« لا . ايها السيد في هذه البلاد البليدة الساخنة المتكاسلة التليدة لانعرف الا القليل عن شمالكم الحيّ العتيد » .

« أكذا هو ؟ لابأس ايها السيد ، املأ لي كأسي من جديد فان هذه « الشيشة » التي تشربونها لذيذة ، وقبل أن أمضي في حديثي قدماً سأحدثكم عن هؤلاء القناليين لان مثل هذا الحديث قد يلقي أضواء جانبية على قصتي » .

« خلال ثلاثمائة وستين ميلاً هي عرض ولاية نيويورك ، خلال مدن عديدة مأهولة وقرى نامية ناجحة ، خلال مستنقعات واسعة كئيبة ليس فيها سكان ، خلال حقول خصيبة مستثمرة لا يضارعها شيء في خصبها ، في غرفة للعب البلياردو أخرى لتناول الشراب ، خلال « قدس اقداس » الغابات العظيمة ، على القناطر الرومانية فوق الانهر الهندية ، خلال الشمس والظل ، في قلوب سعيدة أو تاعسة ، خلال المناظر الشاسعة المتفاوتة في مقاطعات

---

(١) انتهى العمل في هذه القنال عام ١٨٢٠ وكان موضع دهشة وفخر لمعظم الامريكيين .

موهوك وبخاصة في صفوف المعابد البيض كأنها الثلوج ، و« جرسياتها » سامقة كأنها الصوى المنصوبة : يجري جدولٌ مستمر الجريان من حياة فاسدة كأنها تنتمي الى البندقية ، حياة كثيراً ما تكون خارجة على القانون . هنالك هم الأشانتي الخلّص[1] الذين تعرفون ؛ هنالك يعوي الوثنيون الذين تعلمون ، اذا فتحتم ابوابكم وجدتموهم قابعين وراءها في الأفياء الوارفة وتحت كنف الكنيسة المريحة التي ترعاهم . اذ ان القدر العجيب هو الذي يجعل المذنبين ايها السادة يكثرون في حمى المعابد المقدسة مثلما ان النهابين والخارجين في المدن يتجمهرون حول قاعات المحاكم » .

« أذاك احد الرهبان ؟ قال ذلك الدون بطره وهو ينظر الى اسفل نحو الرحبة المكتظة بالناس ويبدي اهتماماً مرحاً » .

« فضحك الدون سبسطيان وهو يقول : ان محاكم التفتيش التي أقامتها السيدة ايزابيلا لا تطولُ ـ في ليما ـ صاحبنا الشمالي . خذ في حديثك ايها السيد » .

« فصاح واحد من الرفقة : معذرة وعلى رسلك! باسمنا نحن جميعاً ـ ابناء ليما ـ أحب ان أنبئك ياسيدي البحار انه لم تفتنا لباقتك في انك لم تذكر ليما حيث ذكرت البندقية في تلك المقارنة التي ذكرتها حول الفساد . لا تطأطىء رأسك وتبدي اندهاشاً ؛ انت تعرف المثل السائر على طول هذا الشاطىء « فاسد مثل ليما » وقولك عن البندقية ينطبق عليها . الكنائس فيها اكثر عدداً من طاولات البلياردو وهي مفتوحة ابداً ـ والمثل يقول : « فاسد مثل ليما » ؛ كذلك هي البندقية ، لقد زرتها ؛ هي مدينة الانجيلي ذي البركات القديس مرقس! طهّرها من أدرانها يا سنت دومينيك! كأسك! وشكراً ، ها أنا املأ كأسي مرة أخرى ، وانت فصبّ لنفسك كأساً أخرى » .

« اذا اردت ان أصور لكم القنالي في حرفته ـ ايها السادة ـ في صراحة وطلاقة ـ قلت انه قد يتمثل في صورة بطل مسرحي ظريف ، فان ما فيه من لؤم ومكر يبدو وفيراً جذاباً . انه مثل مارك انطوني قد يبحر فوق مياه نيله الاخضر المزهر اياماً واياماً في كسل واسترخاء ، وهو يداعب علناً حبيبته كليوبترا ذات الخدين الموردين ، وينضج فخذه المشمشية تحت سفعات الشمس على ظهر السفينة ، فاذا نزل الى الشاطئ نحّى عنه هذا التخنث . والقنالي يتنكر في زهو وخيلاء بقناع قطاع الطرق اذ ان قبعته المنكفئة الحوافي المحاطة بشريط زاهي اللون تليق بملامحه الفخمة ؛ يفرق منه اهل القرى ذوو البسمات

---

(١) افريقيون يقطنون الى الشمال من ساحل الذهب ، معروفون بالشجاعة والجرأة وحذقهم في الزراعة والصناعة والتجارة .

البرينة حين يمر بهم في قاربه ، ويتجافى عن وجهه القاتم ومشيته المتبخترة أهل المدن . ولقد كنت ذات يوم متأفقاً في منطقة القنال ، فتلقيت من أحد أولئك القناليين خدمات جليلة ، اشكره عليها من صميم الفؤاد ولعلني ألا اكون ناكراً للجميل . ولكن من أبرز الصفات التي تكفّر عما سواها في رجل العنف انه احياناً يستعمل ساعده القوي ليعين غريباً في مأزق مثلما ينهب به غنياً . وعلى الجملة فان شِرّة حياة القنال هذه ـ ايها السادة ـ تتجلى لكم في ان حرفة الحوّاتة العنيفة لدينا تحتوي كثيراً ممن تخرجوا في هذه المدرسة التي سميتها القنال وانه قلما تجدون جنساً من الناس لايوليهم قباطنة الحواتة ثقتهم مثلهم ، باستثناء أهالي سدني . وليس يقلل من غرابة هذا الأمر ان تكون الحياة التجريبية في القنال العظمى لدى آلاف عديدة من غلماننا وشبابنا الريفيين الذين يولدون على ضفتها هي التي تمدهم بالنقلة الوحيدة بين الحصاد الهادىء في حقل قمح مسيحي والحرث العابث في مياه البحار الهمجية النائية » .

« فقال الدون بطره في احتدام المندفع وقد دلق شراب « الشيشة » على غضونه الفضية : كذا اذن! كذا إذن! لا حاجة بالمرء ليرحل كي يرى الدنيا ، كل العالم هو ليما ؛ لقد كنت أظن ان الاجيال في شمالكم المعتدل هادئة مبروكة ركينة كأنها الربى . هات القصة » .

« توقفت ـ ايها السادة ـ حيث كان البحيري يهز السنادة الخلفية . وما كاد يفعل ذلك حتى أحاط به الضباط الصغار الثلاثة والرمّاحون الاربعة وتجمهروا من حوله واضطروه للذهاب الى ظهر السفينة . غير أن القناليين انزلقا هابطين على الحبال كأنهما شهابا رجم واندفعا الى حيث الضجة ، وسعيا لينتشلا صاحبهما من حومتها نحو منارة السفينة . وشاركهما بحارة آخرون في هذه المحاولة ونجم على الاثر شغب مختلط ؛ كل هذا والقبطان المقدام بمنجاة من الاذى يثب ويهبط وفي يده حربة من حراب الصيد ويدعو ضباطه ان يغلّوا بأيديهم ذلك الوغد المتوقح الاثيم ، وان يقودوه سريعاً الى الربعة التي خلف الدقل الاعظم ؛ وبين الحين والحين كان يقترب من الحدّ الدائري المحيط بالشغب ويحاول النفاذ الى غمرة الفتنة بحربته لكي يطعن بها خصمه الذي كان هدفاً لنقمته . ولكن استيلكلت والبواسل المستينسين من حوله لم يكونوا لقمة سائغة فاستطاعوا ان يبلغوا الربعة عند منارة السفينة حيث عجلوا فصفّوا ثلاثة براميل او اربعة كباراً معاً عند الدولاب الرافع واتخذ باريزيو البحر من هذا الحاجز « متراساً » يحتمون به » .

« فصاح القبطان هادراً وهو يهددهم بمسدسين في يديه الاثنتين : ابرزوا من حيث انتم ، ايها القرصان ؛ ابرزوا من حيث انتم يا سفّاحين! » .

«فقفز استيلكلت فوق المتراس واخذ يذرعه صاعداً هابطاً ، متحدياً شرَّ ما قد يفعله المسدسان ، ولكنه جعل القبطان يفهم بوضوح ان موته (اي موت استيلكلت) سيكون نذير تمرد دمويّ يتداعى اليه البحارة جميعاً ؛ وخشي القبطان في قرارة نفسه ان يصحَّ هذا القول فأحجم بعض إحجام إلا انه ظلّ يأمر العصاة ان يعودوا توّاً الى واجباتهم» .

«فقال رأس العصيان : «هل تعد بأن لا تمسنا بسوء ان نحن فعلنا ؟» .

ـ «عودوا! عودوا! ـ لا وعد لديّ ـ الى واجباتكم! هل تريدون ان تغرقوا السفينة بتوقفكم عن العمل في مثل هذا الوقت ؛ عودوا!» ورفع مسدساً مرة اخرى» .

«فصاح استيلكلت : «نغرق السفينة ؟ نعم ، لتغرق! لن يعود واحد منا الا حتى تقسم بأنك لن ترفع علينا طاقة من حبل . ماقولكم يا رجال ؟» ـ موجهاً الخطاب الى رفاقه ـ فكان جوابهم هتافاً عالياً» .

«وكان البحيري حينئذٍ يحرس المتراس متطلعاً ، وعينه طوال الوقت على القبطان وهو يطلق بعض العبارات مثل قوله : «هذه ليست غلطتنا . لم نكن نريد ذلك . قلت له أبعد المطرقة . هذا تصرف صبيان . كان عليه ان يعرف من أنا قبل هذا . قلت له : الفتنة نائمة فلا توقظها . أعتقد أنني كسرت اصبعي اذ لطمت فكّه اللعين . أليست سكاكين «الفرم» في المنارة ، يا رجال ؟ ابحثوا عن العتلات يا أحبائي . ايها القبطان بالله عليك خذ حذرك . تفوه بالوعد . لا تكن أحمق . انسَ كلّ ما حدث . نحن على استعداد لنعود . عاملنا بالحسنى ونحن رجالك . ولكنا نأبى ان نجلد» .

ـ «عودوا ، لا وعود لديّ ؛ أقول : عودوا!» .

«فصاح البحيري وقد بسط ذراعيه نحو القبطان : تأمل! ها هنا عدد من البحارة (وأنا منهم) أبحروا من أجل التطواف فقط ؛ أليس كذلك ؟ وأنت تعلم يا سيدي أننا نستطيع ان نستعفي من العمل حالما نلقي المرساة ، لذا فنحن لا نريد نزاعاً ، نحن نسعىٰ للمسالمة ، نحن على استعداد لنستأنف العمل ولكنا نأبى ان نجلد» .

«فهدر القبطان قائلاً : عودوا!» .

«فتلفت استيلكلت لحظة من حوله ثم قال : ها أنا أخبرك ايها القبطان اننا لن نقتلك لأنا لانريد ان نشنق مقابل وغد خسيس فلن نبسط عليك يداً الا اذا هاجمتنا . ولكن لن نتزحزح من هذا الموقف الا اذا سمعنا وعدك بأنك لن تجلدنا» .

«اهبطوا في المنارة اذن ، عليكم اللعنة ، سأبقيكم فيها حتى تتمرر عيشتكم . اهبطوا!»

«فصاح رأس المتمردين مخاطباً رفاقه : «هل نهبط ؟» ولكن اكثرهم عارض ذلك ، ومن بعد تقدموا استيلكلت ، امتثالاً لأمره ، ونزلوا في المخدع المظلم ، واختفوا وهم يهمهمون كأنهم دببة في مغارة» .

«وما كاد رأس البحيري يصبح على مستوى الألواح حتى قفز القبطان وزمرته من فوق المتراس ، وسحبوا بسرعة رتاج الناروزة ، ودعموها بأيديهم مجتمعة ونادوا قيّم التموين بصوت جهوري ليحضر القفل النحاسي الثقيل الذي يعلق على سلم الهبوط ، ثم ان القبطان وارب الرتاج قليلاً وهمس شيئاً من خلال الفتحة ثم أغلقه ثانية وأدار فيه المفتاح فحصر وراءه عشرة ولم يبق على السفينة الا نحو عشرين او يزيدون ظلوا طوال الوقت لا يتدخلون في النزاع» .

«وقام جميع الضباط بحراسة ساهرة طوال الليل في مقدمة السفينة ومؤخرتها وبخاصة حول ناروزة المنارة وحول المدخل الامامي ، اذ كانوا يخشون ان يتخذ المتمردون ذلك الباب طريقاً للانفلات ، بعد ان يشقوا طريقهم من خلال البدنة الواقية في الأسفل . غير ان ساعات الظلام مرت في أمان ، وظلّ الرجال الطلقاء يعملون جاهدين على المضخات ، وظلت صلصلتها وجلجلتها تتردد بين الحين والحين في جنبات السفينة خلال الليل الموحش في كآبة» .

«وعند شروق الشمس تقدم القبطان فدقّ على ظهر السفينة داعياً السجناء الى العمل ، الا انهم ردّوا عليه في صوت واحد بأنهم يرفضون . فأنزل لهم الماء وألقيت اليهم حفنتان من البسكويت بعده ، ثم أدير المفتاح الذي يقفل عليهم غيابة سجنهم وعاد القبطان الى الربعة خلف الدقل الأعظم . وقد تكرر هذا مرتين يومياً في مدى ثلاثة ايام ، حتى اذا كان صباح اليوم الرابع تأدى الى الاسماع نزاع مختلط تلاه عراك ، عندما دعي القوم للعودة حسبما جرت بذلك العادة ، وفجأة انطلق من المنارة اربعة رجال وهم يقولون انهم راضون بالعودة ، ذلك ان نتن الهواء الحبيس ونزورة الطعام ثم ما اجتمع اليهما من خشية القصاص في النهاية ، كل هذه العوامل اضطرتهم للاستسلام من تلقاء أنفسهم ، فاستقوى قلب القبطان اذ رأى ذلك وكرر أمره الى البقية الا ان استيلكلت صرخ فيه متوعداً منذراً بأن يكف عن هذيانه وان يرعى شؤون نفسه . وفي اليوم الخامس انطلق ثلاثة آخرون من المتمردين الى الهواء الطلق ناجين من الايدي المستيئسة التي كانت تحاول ردعهم ، فلم يتبق الا ثلاثة» .

«فقال القبطان في سخرية جوفاء : «الآن! أليس من الخير ان تعودوا ؟» فصاح استيلكلت : «أقفل علينا الباب اذا تفضلت!» فقال القبطان والمفتاح يدور مقرقعاً : آه ، يقيناً» .

«عند هذا الحدّ ايها السادة كان السخط قد بلغ مداه لدى استيلكلت بسبب الخذلان الذي ارتكبه سبعة من رفقانه ، وقد شكّ صدره الصوت الساخر الذي سمعه آخر مرة وجن جنونه بسبب دفنه الطويل في مكان يشبه أحشاء اليأس حلكة ؛ وعندئذ اقترح على رفيقيه القناليين ، وكانا حتى ذلك الحين يوافقانه الرأي فيما يبدو ، بأن ينطلقوا جميعاً من ذلك المخدع عندما يستدعيهم الحراس للعودة في اليوم التالي وهم قد تسلحوا بسكاكين «الفرم» الحادة (وهي أدوات طويلة هلالية الشكل ثقيلة ذات مقبضين) وان يثيروا الهياج من الدقل المائل حتى أعلى الكوثل ، وان يستولوا على السفينة اذا نجحوا في مغامرة مستينسة شيطانية . وقال لهم انه هو نفسه سيفعل ذلك سواء رافقاه او تخليا عنه ، فتلك آخر ليلة يقضيها في ذلك المخدع ؛ ولم يبدِ الرجلان أية معارضة لهذه الخطة وأقسما أنهما على استعداد لأداء ذلك او لأداء اي شيء جنوني آخر ، اي القيام بأي شيء سوى الاستسلام . بل وألحّ كل منهما ان يتقدم رفيقه في الخروج الى ظهر السفينة حين يجيء موعد الانطلاق ، الا ان قاندهم عارض هذا بشدة محتفظاً بحق السبق لنفسه لانه كان يعلم ان أحد الرفيقين لن يتنازل للآخر في هذا الامر ، ولا يمكن ان يتقدم كلاهما معاً لان السلم لايتسع الا لواحد . وهنا أيها السادة بدأت اللعبة الخبيثة التي أضمرها كل من هذين الخدّاعين ، وكان لابد من ان تنكشف» .

«ذلك ان كلاً منهما حين سمع الخطة المتهورة التي وضعها القائد ، انقدحت في نفسيهما فجأة ـ فيما يبدو ـ شرارتان متماثلتان من شرر الخيانة ، فحزم كل منهما أمره على ان يكون هو اول من ينطلق ليكون اول الثلاثة استسلاماً وان كان الثلاثة هم آخر العشرة ، وبذلك يضمن اي نصيب يسير من العفو تكسبه له هذه المبادرة . ولكن حين عرّفهما استيلكلت أنه مصمم على ان يكون هو القائد حتى النهاية ، فانهما على نحو ما ، استخدما كيمياء الخسة الماكرة في مزج ما زوّراه في نفسيهما من خيانة مكتومة ، فلما ذهب قائدهما في تهويمة كشف كل منهما لأخيه عن طويته في ثلاث جمل ، فقيّدا الرجل النائم وكمماه بالحبال وصدحا يستدعيان القبطان في منتصف الليل» .

«واذ ظن ان القتل ميسر له ، وأن رائحة الدم تسطع في الظلام ، اندفع هو وضباطه ورمّاحوه المسلحون نحو منارة السفينة ، ففتحوا الناروزة في بضع دقائق ، وأخرجوا زعيم العصيان ـ وكان مايزال يريغ فكاكاً من القيد الذي جمع بين رجله ويده ـ الى الهواء الطلق يحمله حليفاه الغادران ، وادعيا شرف تكبيل امرىء خائن قد أينع رأسه وحان قطافه . غير أن الثلاثة جميعاً طُوّقوا وسحبوا على ظهر السفينة كالغنم الميتة ، وحشروا معاً معلقين بحبال المظين كأن

كل واحد طرف من ذبيحة وبقوا هنالك معلقين حتى الصباح والقبطان يصيح بهم وهو يخطر أمامهم جيئة وذهوباً : عليكم اللعنة ، ان الجوارح لتستنكف ان تمستكم أيها الأرذال! »

« وعند طلوع الشمس استدعى القبطان جميع الرجال ، وفصل الذين تمردوا عن الذين لم يشاركوا في التمرد ، وقال للأولين انه يستحسن ان يجلدهم جميعاً وأنه يظن على وجه الجملة أنه قد يفعل ذلك ـ بل يجب عليه ان يفعل ذلك ، فذلك أمر تقتضيه العدالة . ولكن نظراً لأنهم استسلموا في الوقت المناسب فانه في الوقت الراهن سيخلي سبيلهم بعد ان يسمعهم تقريعاً ؛ وعلى أثر ذلك أسمعهم اياه باللهجة الدارجة » .

« ثم التفت الى الرجال الثلاثة المعلقين في الحبال وقال لهم : « أما أنتم أيها الرمم الخسيسة ، اما أنتم فأنا أنوي ان أفرم لحمكم وأوزعه على المراجل » ؛ ثم تناول حبلاً وصبّه بكل ما أوتيه من قوة على ظهري الرجلين الخائفين حتى كفّا عن الصراخ ضعفاً ، وتدلى رأساهما كأن لا حياة فيهما ، كرأسي اللصين اللذين صلبا ، حسبما يظهران في الرسوم » .

« وصاح أخيراً : لقد أوهن رسغي ضربك! ولكن مايزال هناك حبل مخصص لك . يا كتكوتي الظريف ، وهو حبل لا يصيبه الوهن . انزعوا تلك الكمامة عن فمه ولنسمع ما قد يقوله دفاعاً عن نفسه » .

« وظل المتمرد المعيي لحظة وهو يحرك فكيه المتشنجين حركة مختلجة . ثم لوى رأسه في ألم ، وقال بصوت كأنه الفحيح : هذا هو ما أقوله ـ وتنبه له جيداً ـ : اذا جلدتني ذبحتك » .

« أهكذا اذن ؟ اذن لقد أفزعتني! ـ وجرّ القبطان الحبل ليضرب » .

« فعاد البحيري يفحّ قائلاً : خير لك أن لاتفعل » .

ـ « ولكن لابد ـ ومدّ ذراعه بالحبل ليهوي به » .

« وعندئذ قال استيلكلت شيئاً في صوت كالفحيح لم يسمعه أحد سوى القبطان ، وما كان أشد دهشة الواقفين جميعاً حين أجفل القبطان متراجعاً وذرع الدكة في سرعة مرتين أو ثلاثاً ، وفجأة ألقى الحبل من يده وقال : لن أجلده ـ أطلقوه ـ اقطعوا قيوده ـ أتسمعون ؟ »

« وعندما أسرع الضباط الصغار لينفذوا الامر حال بينهم وبين ما انتووه رجل شاحب اللون معصوب الرأس ـ ذلك هو رادني رأس الضباط ؛ كان رادني منذ ان اصابته تلك اللكمة قد استلقى في سريره ولكنه لما سمع في ذلك الصباح ضجيجاً على الدكة زحف خارجاً وشهد المشهد كله ، وكان فمه قد تأذى باللكمة حتى كان كأنما يعجز عن النطق ، إلا انه غمغم بكلام مفاده انه مستعد وقادر على ان يعمل ما لم يجرؤ عليه القبطان واختطف الحبل وتقدم نحو خصمه المكبل بالأصفاد » .

«فهمس البحيري في فحيح : انت جبان!» .

- «نعم انا كذلك ، ولكن اليك هذه مني . وكان على اهبة ان يضرب حين ارسل البحيري فحيحاً آخر ، تصلبت بسببه ذراعه المرفوعة ، فتوقف ثم اضرب عن التوقف ، ولم يشأ ان يتخلى عن كلمته رغم تهديد استيلكلت مهما تكن النتائج . ثم حلت اصفاد الرجال الثلاثة وأنزلوا ، واتجه جميع البحارة ذوو الامزجة المتقلبة نحو المضخات الحديدية يعملونها في عناد واصرار» .

«وما كاد الظلام يحل وتنتهي اول نوبة في الحراسة حتى سمع صراخ في المنارة ؛ واذا الخائنان المرتعشان يجريان ويحاصران باب القمرة وهما يقولان انهما لايجرؤان على البقاء مع البحارة . ولم ينجع الرجاء واللكم والركل في ارجاعهما ، وآثرا ان يودعا في المؤخرة التحتية في السفينة طلباً للسلامة ؛ ولم تبد اية بادرة من تمرد بين سائر الرجال بل انهم على النقيض من ذلك صمموا بإيعاز من استيلكلت نفسه في الاكثر ، ان يلتزموا بأشد حالات الهدوء ، وان يطيعوا جميع الأوامر حتى النهاية ، حتى اذا بلغت السفينة الميناء هجروها جماعة . ولكنهم اتفقوا جميعاً على شيء آخر رجاء ان يكفلوا تحقيق اسرع نهاية لتلك الرحلة - اتفقوا على ان لا يرفعوا اصواتهم منبهين الى وجود الحيتان ان تبينوها . ذلك ان تاونهو ، رغم صدعها ورغم جميع مخاطرها الاخرى ، ظلت تقيم الرقباء على اعالي صواريها ، وكان قبطانها على استعداد لإنزال القوارب اذا رأى حوتاً في تلك اللحظة مثلما كان في اليوم الذي حلت فيه سفينته مجال التطواف ، وكان رادني على استعداد ليستبدل بسريره قارباً ويسعى ، وفمه مكعوم بالاربطة ، لكي يكعم فكَ اي حوت حيَ بكعام الموت» .

«غير ان البحيري الذي حث البحارة على ان يختاروا ذلك النوع من السلبية في تصرفاتهم ظلَ يدير الرأي في نفسه (حتى انتهى كل شيء على الاقل) حول انتقامه المناسب المحكم من الرجل الذي لدغه في صميم قلبه . وكان هو ينتمي الى نوبة رادني الضابط الاعلى ، في المراقبة ، وكأنما كان الرجل المخبول يسعى ليقطع مايزيد على نصف المسافة في لقاء مصيره بعد ذلك المشهد عند الحبال حين اصرَ مخالفاً نصيحة صريحة من القبطان على ان يستأنف رئاسة المراقبة ليلاً . وعلى هذا الأمر وعلى حادثة او اثنتين اخريين بنى استيلكلت خطته للثأر في إحكام» .

«تعوَد رادني اثناء الليل - على غير عادة البحارة - ان يجلس على حاجز الربعة خلف الدقل ويتكئ بمرفقه على حرف القارب المشبوح هنالك ، على ارتفاع يسير فوق جانب

السفينة ؛ وبين القارب والسفينة فراغ من دونه ماء البحر ، فقدر استيلكلت الوقت فوجد ان نوبته التالية عند الدفة ستكون حوالي الساعة الثانية في صباح اليوم الثالث اذا عدَ اليوم الذي خذل فيه اول يوم . فاستغلّ فترات الرقابة في الاسفل في جدل شيء ما باتقان وعلى هينة » .

« وقال له أحد الرفاق : ماذا تصنع هناك ؟ » .

ـ « اي شيء تظن ؟ اي شيء يشبه ؟ » .

« كأنه مرسة تتخذها لربط كيسك ولكنها تبدو لي غريبة . فقال البحيري وهو يمد ذراعه الى الامام على امتداده : نعم انها قد توصف بالغرابة . ولكني أظنها ستفي بالغرض . ايها الضابط ليس لدي قدر كافٍ من المصيص ـ هل لديك ؟ » .

« لكن ليس في المنارة اي مصيص » .

« اذن لأذهب فأطلب شيئاً من راد . ونهض ليذهب الى المؤخرة » .

« فقال احد البحارة : لا اظنك تذهب لتستجدي منه! » .

« ولِمَ لا ؟ أتظن انه يبخل عليّ بها وهو حين يعطيني فانما يعين نفسه في النهاية ايها الرفيق ؟ وذهب الى الضابط ونظر اليه في هدوء وسأله مصيصاً يصلح به ارجوحته ، فأعطي ما سأل ، ولكن لم يرَ احد المصيص او المرسة مرة اخرى . غير انه في الليلة التالية كادت كرة حديدية قد غلفت تغليفاً محكماً ان تتدحرج من جيب « صدارة السعدان » التي يلبسها البحيري ، اذ كان يطوي المعطف في ارجوحته ليتخذه وسادة له . وبعد اربع وعشرين ساعة حل موعد نوبته عند الدفة الخرساء ـ فقريباً من الرجل الذي كان مقدراً له ان يهوم فوق حافة القبر الذي حفرته الطبيعة لاستقبال البحارة على الدوام ـ وكان لابد للأجل ان يحين ، وكان الضابط في خيال استيلكلت الذي قدّر وصوّر قد غدا جثة يابسة مسجّاة قد انخسفت جبهته اذ تحطمت » .

« ولكن أحد الحمقى ، ايها السادة ، نجّى المدبّر الذي كان سيغدو قاتلاً من ارتكاب الثأر الدموي الذي كان يزمعه ، فحقق انتقامه كاملاً دون ان يثأر لنفسه بنفسه . وبفعل لون من القدر غريب تدخلت السماء نفسها فانتزعت يديها من يديه ذلك الأمر اللعين الذي كان يزمع اقترافه » .

« في صباح اليوم التالي بين انبلاج الفجر وشروق الشمس حين كان البحارة ينضحون ظهر السفينة بالماء ، صاح فجأة تناريفي[1] غبي وهو يصب الماء على السلاسل الكبرى : ها هو يتدحرج هنالك ، هاهو! ياللمسيح! اي حوت هو! هو موبي ديك » .

---

(١) نسبة الى تناريف احدى جزر الكناري حيث خاض نلسون معركة فقد فيها ذراعه .

«فصاح الدون سبسطيان : موبي ديك! بحق القديس دومينيك ياسيدي البحار هل للحيتان اسماء ؟ من الذي تسميه موبي ديك ؟ » .

ـ «هو حوت أبيض مشهور ، وحش مخيف مرعب قد عتا على الموت أيها الدون ـ ولكن لو أخذنا في هذا لكان ايضاً قصة طويلة» .

«فاحتشد الاسبانيون الفتيان من حولي وصاحوا قائلين : «كيف ؟ كيف بالله عليك ؟ »

ـ لا . لا . ايها السادة ، لا يا سادتي ، ابداً ، ابداً ، لا استطيع ان اسرد هذه القصة الآن . افسحوا قليلاً حتى يبلغني الهواء يا سادتي» .

«فصاح الدون بطره : الشيشة! الشيشة! ان صديقنا القوي يكاد يغمى عليه ـ املأوا له كأسه الفارغة! »

ـ «لا حاجة بي الى ذلك يا سادة ، لحظةً واستأنف حديثي... : عندما أبصر التناريفي ، يا سادة ، الحوت الناصع فجأة في مدى خمسين ياردة من السفينة ، رفع عقيرته عفواً وبقوة الغريزة يعلن عن وجود الوحش ، وقد نسي ما تعاهد عليه البحارة ، واستبد به الهياج المبادر ، هذا مع ان المراقبين على الصواري النكدة رأوه بوضوح ؛ عندئذٍ استولى النزق على كل شيء فصاح القبطان والضباط والحواتون : «الحوت الابيض! الحوت الابيض! » ولم تمنعهم الاشاعات المخيفة من ان يتوقوا الى القبض على ذلك الحوت الشهير الغالي ، بينا وقف البحارة العائدون يلحظون ، بالعيون الشزراء واللعنات المصبوبة ، ذلك الجمال الخلاب الذي كان يمثله الجرم الضخم الناصع في بياض اللبن وقد سقطت عليه اشعة الشمس الافقية المتلامعة فأخذ يتحرك ويتلألأ كأنه «أبال» حي في مياه البحر الازرق الصباحي . لاريب ايها السادة في ان قدراً غريباً يتخلل سياق هذه الاحداث جميعاً كأنها رسمت قبل ان يسوي الكون نفسه ، فقد كان المتمرد هو موجه القارب الذي سيركبه الضابط ، فاذا طارد بقاربه حوتاً فعليه ان يجلس الى جانبه ، بينا يقف رادني عند المقدمة وحربته في يده ، وهو يجذب ثني الحبل او يرخيه بحسب الاوامر . فاذا انزلت القوارب الاربعة كان من حق قارب الضابط ان يتقدمها جميعاً . ولم ينطلق احد بأصوات من الجذل جآرة مثلما فعل استيلكلت وهو ينصب مجذافه . وبعد تجديفة مجهدة أسرع القارب بهم وقفز رادني الى المقدمة ورمحه في يده . وكان كلما ركب قارباً هاجت نفسه ـ فيما يبدو ـ فصاح من وراء الكعام الذي يغلف فمه ان يقربوه بحيث ينزل على اقصى حردبة الحوت ، ودون ان يبدي موجّه القارب تكرهاً او نفوراً اخذ يوجهه ويرتفع به خلال زبد يعشي الابصار ، قد اختلط بياضه ببياض الحوت ، حتى ارتطم القارب فجأة كأنما صادم طنفاً غارقاً ، ثم انكفأ فقذف بالضابط الواقف ؛ وعندما سقط في تلك اللحظة

على ظهر الحوت الزلق استقام القارب ودفعته الغمرة المنقضة الى جانب ، بينا كان رادني يعلو به الماء ويهبط على الجانب الآخر من الحوت ، فسعى جاهداً خلال الطش المتناثر ، ولمحه رفاقه لحظة خلال تلك الغلالة وهو يحاول بجنون لكي يبعد نفسه عن عين موبي ديك . إلا ان الحوت اندفع دائراً في « شقلبة » فجائية ، وأطبق فكيه على الرجل السباح . وانتصب به صعداً ثم انحدر صبباً وهو يقمس عمودياً وغاص في الاعماق » .

« وفي الوقت نفسه ارخى البحيري من طرف الثني عندما أحس اول دقة على قعر القارب كي يتجافى متأخراً عن الدوامة الحادثة ؛ ونظر في هدوء مروياً ، فخطر له ما خطر . ولكن هزّة مفاجئة مرعبة من تحت القارب جعلته يستل سكينه ويضعها فوق الحبل ؛ فجذه وذهب الحوت طليقاً ، غير ان موبي ديك ظهر على مسافة ما مرة ثانية وقد علقت مزق من قميص رادني الصوفي المخضب بأنيابه التي قضت عليه . ثم هبت القوارب الاربعة تطارده إلا انه فاتها جميعاً واختفى عنها من بعد اختفاء تاماً » .

« ووصلت تاونهو ميناءها في الوقت المناسب ـ وكان مكاناً موحشاً متوحداً ـ لا يسكن فيه اي مخلوق متمدن وهناك دبر الفرار خمسة او ستة من رجال الصاري الرئيس عامدين يقودهم البحيري وأووا الى حائط نخيل . وقد تبين في النهاية انهم اختطفوا زورقاً حربياً كبيراً مزدوجاً من الهمج المتوحشين هنالك وأبحروا الى ميناء آخر » .

« وحين اصبح بحارة السفينة لا يجاوزون اصابع اليدين أهاب القبطان بأهل الجزيرة ليعينوه في العمل الشاق اعني ترميم السفينة ورأب صدعها . ولكن تلك العصبة الصغيرة بحاجة الى السهر المضني اتقاء لعدوان أولئك الاعوان الخطرين ، ليلاً ونهاراً ، وكان العمل الشاق الذي قاموا به منهكاً مضنياً حتى انهم حين اصبح المركب صالحاً للابحار كانوا في اشد حالات الضعف والاعياء بحيث ان القبطان لم يجرؤ على ان يقلع بهم وحدهم في ذلك المركب الثقيل . وبعد ان استشار ضباطه أرسى السفينة بعيداً عن الشاطىء قدر المستطاع فعبأ مدفعين وصوّبهما من مقدمة السفينة ؛ وكوّم البنادق على مؤخرة السفينة واصطحب معه احد الرجال ونشر شراع خير قارب تحويت لديه ، وتوجه به عامداً مع المهبّ نحو تاهيتي ، على بعد خمسمائة ميل ، لكي يأتي بمدد من الرجال يضيفه الى ملاحيه » .

« ورأى الرجلان في اليوم الرابع من ابحارهما زورقاً ضخماً قد انتبذ ناحية عند جزيرة مرجانية منخفضة ، فوجه القبطان قاربه بعيداً منه ولكن الزورق الهمجي انقض عليه ، وسرعان ما تأدى اليه صوت استيلكلت يدعوه ان يتوجه نحوه والا فانه سيطوّح به تحت الماء . فشهر

القبطان مسدساً ، إلا ان البحيري سخر منه مزدرياً ، وقد وضع قدميه على قادمتي الزورق الحربي الموثقتين ، مؤكداً له انه لو عبث عبثاً بزناد المسدس لدفنه بين الفقاقيع والزبد » .

« فصاح القبطان : ماذا تريد مني ؟ » .

« فقال استيلكلت : قل لي الى اين انت متجه ، ولأي شيء تتجه ، واياك ان تكذب » .

« أنا متجه الى تاهيتي رجاء الحصول على مدد من رجال » .

ـ « حسناً . دعني أجيء الى قاربك ، وثق انني مسالم . و ما ان نطق بهذه العبارة حتى قفز من الزورق وسبح الى القارب ، وصعد الحافة ووقف وجهاً لوجه أمام القبطان » .

« ضع ذراعيك متقاطعتين يا سيدي ؛ ردّ رأسك الى الخلف . وردد بعدي : حالما يغادرني استيلكلت فأنا أقسم ان أرسي هذا القارب عند تلك الجزيرة وأبقى هنالك ستة أيام فاذا لم افعل اذن فلا أخطأتني الصواعق » .

« وضحك البحيري وهو يقول : « أحسنت! ما أفصحك! في رعاية الله يا سيد » ثم وثب في الماء وسبح عائداً الى رفاقه » .

« ووقف استيلكلت يرقب القارب حتى ساحلَ وجُرّ الى جذور شجرات جوز الهند هنالك ، وعندئذٍ استأنف ابحاره ووصل في الوقت المناسب الى تاهيتي ، وكانت هي المكان الذي يؤم ، وهناك حالفه الحظ اذ كانت سفينتان على أهبة الاقلاع الى فرنسا وكانت لحسن البخت بحاجة الى ذلك العدد من الرجال الذين يرأسهم ذلك البحار ، فأقلعوا فيهما وبذلك أخذوا زمام المبادرة من قبطانهم ان كان يرى ابداً ان ينزل بهم القصاص المشروع » .

« وبعد ان مضت عشرة أيام على اقلاع السفينتين الفرنسيتين وصل قارب التحويت واضطر القبطان الى ان يدوّن أسماء تاهيتيين اكثر تمدناً وقد تعودوا بعض الشيء ركوب البحر ، واستأجر من هنالك شانية تاهيتية ، وعاد الى مركبه فوجد كل شيء فيه بخير ومن ثم استأنف تطوافه » .

« اين هو استيلكلت اليوم ياسادة ؟ لا أحد يدري لكن أرملة رادني في جزيرة نانتوكت لاتزال توجه عينيها الى البحر الذي يأبى ان يعيد الميت ، ولاتزال ترى في أحلامها الحوت الابيض الرهيب الذي قضى عليه » .

* * *

« فقال الدون سبسطيان في هدوء : أتراك انتهيت ؟ » .

ـ « نعم أيها الدون » .

- « اذن فأنا أتوسل اليك ان تخبرني : أهذه القصة في جوهرها حقيقية ، حسب تقديرك وتخمينك ؟ انها عجيبة ، فهل استقيتها من مصدر موثوق ؟ لا تؤاخذني ان كنت ملحفاً . وصاحت الجماعة كلها وقد استبد بها الاهتمام البالغ : ولا تؤاخذنا ايضاً ياسيدنا البحار لأنا نشارك الدون سبسطيان مطلبه » .

- « هل في الحانة الذهبية ايها السادة نسخة من الاناجيل المقدسة ؟ » .

« فقال الدون سبسطيان : لا ولكني أعرف قسيساً قريب الدار يستطيع ان يحصل لي على نسخة . وأنا ذاهب لإحضارها . لكن هل أنت مطمئن الى ما ستفعله فإن ذلك قد يكون خطير النتائج ؟ » .

- « هل تعمل معروفاً فتحضر القسيس بصحبتك أيها الدون ؟ » .

« فقال بعض الجماعة لآخر : مع أن حرق الأحياء في ليما قد بطُل في هذه الأيام فأنا أخشى أن يكون صديقنا البحار في خطر التصدي لرئاسة الأسقفية . لننسحب من ضوء القمر فلست أرى حاجة لذلك » .

- « معذرة للجري في أثرك يا دون سبسطيان . هل لي أن أرجوك أن تتحرى أكبر نسخة من الأناجيل فتحضرها لنا ؟ » .

* * *

« وقال الدون سبسطيان في وقار وقد عاد بصحبة شخص طويل وقور : هذا هو القسيس وقد جاءك بالأناجيل » .

- « إذن لأخلع قبعتي . تعال قليلاً في النور أيها القسيس المبجل وأمسك الكتاب المقدس أمامي كي أستطيع أن ألمسه » .

- « عونك يا رب . إني أقسم بشرفي أن القصة التي قصصتها عليكم أيها السادة هي في جوهرها وبنودها الكبرى صحيحة وأنا أعلم أنها صحيحة . لقد وقعت على هذه الكرة ، فقد وطئت قدماي السفينة ، وعرفت الملاحين ورأيت استيلكلت وتحدثت إليه منذ أن مات رادني » .

٥٥

صور مشوهة ترسم للحيتان

سأرسم لكم عما قريب ، بقدر ما يسمح به التصوير الكلامي دون لوحة ، شيئاً يشبه ان يكون الشكل الصحيح للحوت حسبما يتبدى لعيني الحوات حقاً ، حين تُجْنَبُ جثته على ضخامتها الى سفينة التحويت حتى ليستطيع المرء ان يطأ على الجثة مطمئناً وهو يصعد الى السفينة . ولكن قد يكون من الجدير قبل ذلك ان ألمح الى تلك الصور الخيالية الغريبة التي ترسم له والتي ماتزال حتى اليوم تتحدى ايمان اهل البر . لقد آن الاوان كي تُصحح معتقدات الناس في هذا الامر ، وذلك بأن أبرهن لهم ان مثل هذه الصور للحوت كلها خاطئ .

وقد يكون المصدر الاول لهذه الاضاليل التصويرية موجوداً بين اقدم التماثيل الهندية والمصرية واليونانية ، فمنذ تلك العصور التي عرفت بالاختلاق والرخصة في التدقيق ، حين كان الدلفين يرسم على الافاريز الرخامية في الهياكل وعلى قواعد التماثيل وعلى الدروع والمداليات والكؤوس والنقود ، وتجعل له حراشف كزرد الدرع الذي كان يلبسه صلاح الدين ، ورأس مقنع بالخوذة كأنه رأس مار جرجس ، منذ ذلك الحين اتسع مجال الرخصة والتساهل لا في أشد صور الحوت انتشاراً بين الناس بل في كثير من الصور العلمية التي تُرسم له .

ومن العجب العجاب أنَّ أقدمَ صورة بقيت ، وقد قصد منها ان تكون صورة حوت ، موجودة في كهف معبد الافيال بالهند[١] . ويعتقد البرهميون ان التماثيل المنحوتة في ذلك المعبد القديم ـ وهي تكاد تعز على الحصر ـ انما وضعت لمثل جميع الحرف والاتجاهات وكل مهنة يمكن ان تخطر في خيال الانسان وان تلك التماثيل كانت قبل ان تكون الحرف والمهن في الكون بعصور طويلة ، فلا عجب اذن ان كانت مهنتنا ـ مهنة التحويت النبيلة ـ من تلك

---

(١) هذا خطأ من ملفل ، اذ ليس في مغارة الفيلة صورة تمثل تجسد فشنو على شكل ماتسي افتار .

الحرف التي جرى الالماع اليها والتكهن بها قبل ان تكون . ويقع الحوت الهندي المشار اليه في جانب منعزل من الجدار حيث الصورة تمثل تجسد فشنو في شكل لوياثان يسميه العلماء ماتسي آفتار . غير ان ذلك التمثال الذي جعل نصفه انساناً ونصفه حوتاً ليس فيه من الحوت الا ذنبه ، بل ان ذلك الجزء اليسير منه خطأ كله ، فهو يبدو وكأنه ذنب مستدق لثعبان الانكونه باكثر مما يمثل شطيرتين عريضتين من ذنب ضخم في حوت حقيقي .

لكن اذهب الى صالات الرسوم القديمة وتأمل صور الرسام المسيحي الكبير لهذا الحوت تجد انه لا يمتاز على الرسام الهندي الذي عاش قبل الطوفان : هنالك ترى صورة رسمها جويدو[1] لبرسيوس وهو يخلص اندروميدا من وحش البحر او الحوت . من اين حصل جويدر على أنموذج كهذا يمثل مثل هذا الحيوان الغريب ؟ وليست صورة هوجارث[2] الذي رسم المنظر نفسه في لوحة له تسمى « برسيوس هابطاً » خيراً من صورة جويدو ولا بقدر قلامة ظفر . فان الجسامة الهائلة في ذلك الوحش الذي رسمه هوجارث لتترجرج على السطح وتكاد لا تهزّ مدى بوصة من ماء . ولذلك الوحش شيء كالهودج على ظهره ولو نظرت الى فمه الممطوط ذي الناب ، والامواج تتدحرج فيه ، لحسبته « بوابة الخونة » التي تؤدي من نهر التيمس الى برج لندن في طريق مائي . وهنالك حيتان برودرومس التي رسمها سيبالد الاسكتلندي[3] في القديم ، وحوت يونان كما تصوره النسخ القديمة من التوراة وكتب المبادىء الدينية القديمة . ماذا نقول في هذه الصور ؟ اما الحوت الذي رسمه مجلّد الكتب متعرجاً يلتف كأنه عساليج الكرمة حول عمود مرساة آخذة بالانحدار ـ كما يبدو مطبوعاً مذهباً على وجه الورقة الاولى او ظهرها في كثير من الكتب القديمة والجديدة ـ فانه بالغ الجمال ، الا انه مخلوق خرافي محض ، قد اقتبس فيما اعتقد عن شبيه له يرسم على الزهريات القديمة . وقد سماه الناس عموماً الدلفين ومع ذلك فاني اعدّ هذه السمكة التي وضعها مجلد الكتب محاولة لتصوير حوت ، اذ كانت تلك هي النية عندما وضع الشكل اول مرة . وكان الذي وضعه ناشر ايطالي قديم في القرن الخامس عشر خلال « النهضة العلمية » . وفي تلك الايام وحتى فترة متأخرة نسبياً كان الناس يظنون الدلفين من فصيلة اللوياثان .

وفي رسوم العساليج وغيرها من الزينات التي كانت تزخرف بها الكتب القديمة تلتقي

---

(١) جويدو ريني (١٥٧٥ ـ ١٦٤٢) وكانت الصورة في المتحف الوطني بلندن ولعل ملفل رآها في ١٧ كانون الاول ١٨٤٩ .

(٢) وليم هوجارث (١٦٩٧-١٧٦٤) .

(٣) السير روبرت سيبالد (١٦٤١ ـ ١٧٢٢) ، تحدث عن الحيتان ولكنه لم يرسم لها صوراً .

أحياناً بلمسات غريبة جداً تكاد تنقل رسم الحوت ، حيث ترى كل ضروب النفاثات وفوارات الماء والحمّات والينابيع الباردة ونبعة ساراتوجا ونوافير بادن كلها تتدفق من رأسه الذي لا يعتريه الاعياء . وعلى صفحة العنوان في النسخة الأصلية من كتاب « تقدم العلم » تجد بعض الحيتان العجيبة .

ولكن لنتجاوز هذه المحاولات التي قام بها ناس غير محترفين ، ولننظر الى صور اللوياثان التي قصد منها ان تكون رسوماً رزينة علمية رسمها أناس عارفون . ففي المجموعة القديمة من الرحلات لهاريس بعض لوحات لحيتان انتزعت من كتاب هولندي في الرحلات بتاريخ ١٦٧١ وعنوانه : « رحلة تحويت الى سبتزبرجن » في سفينة اسمها « يونان في جوف الحوت » ، وريّسها هو بيتر بيترسون الفريزلاندي . وتتمثل الحيتان في احدى تلك اللوحات كرمثٍ من الاخشاب مستلقية بين جزر الجليد وعلى ظهورها الحية تجري دببة بيض . وفي لوحة أخرى غلطة كبرى هي جعل الحوت ذا ذنب عمودي الشطرين .

وهناك كتاب من قطع الربع فاخر جليل كتبه قبطان اسمه كولنيت وكان قبطاناً من بعد في الاسطول الانجليزي ، وعنوان الكتاب : « رحلة حول رأس هورن في البحار الجنوبية من أجل توسيع نطاق مصايد حوت العنبر » وفي هذا الكتاب رسم قصد به ان يكون « صورة للفايستر او حوت العنبر رسم بمقياس رسم عن حوت قتل على ساحل المكسيك ، في شهر آب (أغسطس ١٧٩٣) ورفع الى ظهر السفينة » . ولا ريب عندي في ان القبطان قد أخذ هذه الصورة الحقيقية من أجل ان يفيد بها جنود البحرية و لا أريد ان أذكر عنها الا شيئاً واحداً فأقول : ان فيها عيناً اذا جعلتها ـ حسب مقياس الرسم المرفق ـ عيناً لحوت عنبر جسيم ، فكأنما جعلت عين ذلك الحوت نافذة بارزة طولها حوالي خمسة أقدام . آه يا قبطاني الشهم لماذا لم ترسم يونان وهو يطلّ من تلك العين ؟

وأشد مصنفات التاريخ الطبيعي تحرزاً وتحققاً مما يكتب لفائدة الشبان واليافعين ليست بارئة من تلك الشناعة في الخطأ . انظر ذلك المؤلف المشهور : « الطبيعة الحية لجولد سمث » ففي النسخة اللندنية الموجزة منه التي طبعت عام ١٨٠٧ لوحات من « حوت » مزعوم و« نرّول » مزعوم . ولست أحب ان أبدو للناس جافياً ولكن هذا الحوت الكريه المنظر يبدو مثل خنزيرة مبتورة الاطراف وأما النرول فإن المرء اذا التمحه لمحاً أدهشه ان يرى الناس في هذا الحيوان الخرافي في هذا القرن التاسع عشر صورة حقيقية يدلسَ بها على عقول اي جمهور ذكي من تلامذة المدارس .

وفي عام ١٨٢٥ نشر برنارد جرمين الملقب بكونت دي لا سيبيد ، وهو عالم طبيعي

عظيم . كتاباً علمياً منظماً عن الحوت ، وأدرج فيه عدة صور لأنواع مختلفة من اللوياثان . وليست هذه الصور جميعاً خاطئة فحسب بل ان صورة السبلحوت او حوت جرينلاند (اي الحوت الاثين) قد قال فيها اسكورسبي وهو رجل ذو دربة طويلة في شؤون هذا النوع من الحيتان : انها لا يوجد لها نظير في الطبيعة .

ولكن هناك خطأ يقف من هذه الأخطاء كلها موقف التاج المشهّر . وذلك هو ما تورط فيه العالم فردريك كوفييه أخو البارون المشهور ، ففي عام ١٨٣٦ نشر كتاباً في التاريخ الطبيعي للحيتان ، وفيه يعطي ما يسميه صورة لحوت العنبر ؛ ولكن عليك قبل ان تعرض هذه الصورة على احد أبناء نانتوكت ان تتجهز للاختفاء العاجل عن أعين الناس في ذلك البلد . وأنا أقول في ايجاز ان حوت العنبر الذي رسمه فردريك كوفييه ليس حوت عنبر وانما هو صَرْصَر . طبعاً لم يتح له ان يستمد تصوره من رحلة تحويت (وقلما يتاح ذلك لمثل هؤلاء الرجال) ولكن من أين استفاد تلك الصورة ؟ من يدري! لعله حصل عليها من حيث حصل سلفه دزمارست[1] العالم العامل في هذا المجال العلمي نفسه على احدى مجهضاته الأصيلة أعني حصل عليه من رسم صيني ، واذا انت تأملت كثيراً من الفناجين والصحون الشاذة استطعت ان تدرك اي فتيان نشطاء الخيال هم أولئك الصينيون حين يرسمون بالقلم .

وأما الحيتان التي يرسمها رسامو الاعلانات وترى في الشوارع مدلاة فوق أبواب حوانيت الزيّاتين فماذا يقال فيها ؟ تستطيع ان تسميها بعامة حيتان رتشارد الثالث ، فهي ذات حرادب منتحلة ، وهي ايضاً شديدة التوحش ، تفطر على ثلاث او أربع من « طرطة » البحارة أعني على ثلاثة او أربعة من قوارب التحويت مزودة بملاحيها ؛ وهذه الحيتان المشوهة تكافح مناضلة في بحار من الدم والصبغ الأزرق .

ولكن هذه الاخطاء المتعددة الجوانب في تصوير الحوت ليست غريبة بعد هذا كله . تأمل! فمعظم الرسوم العلمية نقلت عن أسماك طرحها البحر ، وما وجه الصواب فيها باكثر من وجه الصواب في رسم سفينة محطمة وهي مكسورة الصلب ، فمثل هذا الرسم لا يمكن ان يمثل هذا الجسم النبيل في خيلائه حين يكون هيكله وصواريه سالمة غير محطمة . لقد أمكن رسم الفيلة بكامل خلقتها لانها تنتصب ماثلة أمام الرسام ، فأما الحوت الحيّ فانه لا يعوم مدة تكفي لنقل صورته ، اذ الحوت الحيّ في عظمته الكاملة وجلاله لا يرى في البحر الا في مياه بعيدة الغور فاذا عام كان حجمه الجسيم مختفياً عن الانظار كأنه سفينة حربية يغمر الماء اكثر جسمها وبسبب تلك الضخامة استحال على الانسان الى الأبد ان يرفع جسمه في الفضاء بحيث

---

(١) أنسلم جيتان دزمارست (١٧٨٤ ـ ١٨٣٨) أضاف ملاحظات على كتاب لاسيبيد .

يحتفظ بكل ضروب انتفاخاته الجبارة وتموجاته . ولن أقول شيئاً في البون الشاسع في السعة بين الحوت الصغير الراضع والحوت المكتمل القارح ، ولكن هب أنك رفعت أحد تلك الحيتان الصغيرة الراضعة الى ظهر السفينة ، فانك واجد حينئذٍ ان شكله غريب كالانكليس لدنٌ متقلب لا يستقر على حال حتى ان الشيطان نفسه لا يستطيع ان يتمثل له صورة دقيقة .

وقد يتوهم بعض الناس ان الهيكل المعروق لحوت طرحه البحر قد يمدنا بلمحات دقيقة عن شكله الحقيقي . وهذا غير صحيح لان من أحد الامور العجيبة المتصلة بهذا اللوياثان ان هيكله لا يعطي عن شكله الا فكرة ضئيلة . انك اذا نظرت هيكل جرمي بنتام[1] معلقاً بدلاً من «الثريا» في مكتبة أحد الذين صفّوا تركته ، وجدته ينقل بدقة فكرة شيخ مؤمن بالمذهب النفعي ضخم الجبهة ويمثل جميع الصفات الذاتية البارزة الاخرى لدى بنتام ، ولكن لا شيء من هذا القبيل يمكن استخلاصه من النظر الى عظام حوت بيِّنة المفاصل . والحق ان هيكل الحوت مجرداً ـ كما يقول هنتر العظيم[2] ـ يحمل من العلاقة بالحيوان اللحيم البدين ما تحمله الحشرة من علاقة باليفعة التي تغلفها . وتتجلى هذه الميزة على نحو لافت في الرأس وذلك ما سأوضحه عرضاً في بعض أجزاء هذا الكتاب ؛ وهي تتجلى ايضاً على نحو غريب في الزعنفة الجانبية ، وعظامها تكاد تناظر عظام يد الانسان تماماً ، الا ان الابهام فيها غير موجود . فلهذه الزعنفة أربع أصابع عظمية منتظمة تقوم فيها كالسبابة والوسطى والخنصر والبنصر ، ولكنها جميعاً تظل مكنونة في غطائها اللحمي كأنها أصابع الانسان حين تدس في غطاء صناعي . قال اسطب الفكه ذات يوم : «مهما قدّم الحوت لنا من خدمات دونما اكتراث فلا يصح ان نقول فيه انه يعالجنا من دون قفازات» .

وأياً ما كانت الوجهة التي تنظر منها ، فانك لابد ان تستخلص لهذه الاسباب جميعاً ان اللوياثان العظيم هو المخلوق الوحيد في العالم الذي لابد من ان يظل دون ان يرسم الى الابد . حقاً قد تجيء صورة أقرب الى الواقع من صورة اخرى ولكن لن تكون هناك صورة تحكي الواقع نفسه بقسط كبير جداً من الدقة . ليست هناك طريقة على الارض تسعفك على ان تجد بدقة كيف يكون شكل الحوت ، ولعلّ الطريقة الوحيدة التي بها تستمد فكرة مقبولة عن سعته واستفاضته هي ان تذهب انت نفسك محوّتاً . غير أنك ان فعلت ذلك لم تكن مجازفتك ميسوزة لانها قد تؤدي بك الى ان يمزقك ويغرقك ومن ثمّ كان عليك فيما يخيل اليّ ان لا تكون متعنتاً في تطلعك وتشوفك الى هذا اللوياثان .

(١) جرمي بنتام (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) خلف هيكله لجامعة لندن وكان هو مؤسسها .

(٢) هو الدكتور جون هنتر (١٧٢٨ ـ ١٧٩٣) وقد كتب مقالة عن تركيب الحوت (١٧٨٧) .

٥٦

صور للحيتان أقل أخطاء
وصور صحيحة لمشاهد التحويت

أحسَ باغراء قوي ـ كلما خطرت لي الصور المغلوطة للحيتان ـ الى ان اخوض غمار الحكايات المشوهة الخاطئة التي تروى عن الحيتان في بعض الكتب قديمها وحديثها ، وخاصة ما أورده بليني وبرخاس وهكلويت وهاريس وكوفييه ومن لف لفهم . لكني لن انقاد لهذا الاغراء .

لا اعرف إلا اربعة كتب منشورة تتحدث عن حوت العنبر العظيم هي : كتاب كولنت وكتاب هجنز وكتاب فريريك كوفييه وكتاب بيل ؛ وقد أشرت في الفصل السابق الى كولنت وكوفييه ؛ وها هنا أقول ان كتاب هجنز خير من كتابيهما ، غير ان كتاب بيل هو خيرها جميعاً ، وكل رسومه للحوت جيدة الا الشكل الاوسط في صورة الحيتان الثلاثة في مواقف متنوعة ، وهذا الشكل يقع في رأس الفصل الثاني . ثم ان الصورة التي وضعها على الصفحة الاولى وهي تمثل القوارب في هجومها على حيتان العنبر ، صحيحة ذات شبه بالواقع في تأثيرها العام ، وان قدرت كذلك دون ريب لتثير الريبة المهذبة في بعض رجال الصالات . وبعض صور حوت العنبر في كتاب ج .روس براون جيدة الدقة في محيطها وسعتها إلا انها قد أثبتت في وضع كئيب ولا يعد براون نفسه مسؤولاً عن هذا الخطأ .

وخير الصور الاجمالية للحوت الاثين موجودة في كتاب اسكورسبي ، الا ان مقياس الرسم فيها صغيراً جداً بحيث تعجز عن ان تترك انطباعاً مرغوباً ، وليس لديه من مشاهد التحويت الا صورة واحدة وهي مثال للعجز والنقصان اذ من هذه المناظر وحدها ، اذا أجيد تصويرها ، يستطيع المرء ان يستمد شيئاً يشبه الفكرة الصحيحة عن الحوت الحيَ كما يراه صيادوه الاحياء .

واجمل الرسوم التي نجدها للحيتان ولمشاهد التحويت ، اذا نحن اعتبرناها جملة

واحدة ، وان لم تكن في بعض دقائقها أدق من سواها ، نقشان فرنسيّان كبيران جيدان في الاخراج ، منقولان عن رسمين وضعهما شخص اسمه جارنري ، والاول منهما يمثل هجوماً على حوت العنبر والثاني هجوماً على الحوت الاثين . ويظهر في النقش الاول حوت عنبر جليل قد صور في كامل فخامته وجبروته وقد ارتفع تحت القارب من اعماق المحيط . واعتلى يحمل في الفضاء فوق ظهره حطام الالواح المهشمة . وقد ظلت مقدمة القارب في بعض اجزائها سليمة لم تحطم ، ورسمت وهي تحط على صلب الوحش : ويقف في المقدمة اثناء تلك اللحظة الخاطفة العابرة احد المجذفين وقد تغلف نصفه بالنفثات الساخنة الهائجة التي يطلقها الحوت وهو على أهبة ان يثب كأنه على شفا الهاوية . وقد نقلت الحركة في هذا المنظر كله نقلاً جيداً صحيحاً يملك العجب . أما برميل الحبل الذي اصبح نصفه فارغاً فانه رسم عائماً فوق المياه المبيضة ، واما القنوات الخشبية التي كانت الحراب الناصلة مغروزة فيها فانها تغزل مواربة في الصورة . وأما رؤوس الملاحين السابحين فانها مبعثرة حول الحوت وعليها تعبيرات من الفزع عجيبة المفارقات ، بينا السفينة في تلك المسافة السوداء العاصفة قادمة لتدخل المشهد . وقد تجد خطأ فادحاً في الدقائق التشريحية لهذا الحوت ولكن تجاوز عن هذا فاني أقرّ بانني لعمري عاجز عن ان ارسم صورة جيدة مثل هذه الصورة .

وأما في النقش الثاني فان القارب ذاهب ليقترب من الجانب الحلزوني لحوت اثين ضخم مسرع في جريه ، وهو يدحرج ضخامته المكسوة بالاعشاب في الماء كأنه صخرة مكسوة بالطحلب تتدحرج عن سفوح بتاغونيا . ونفثاته قائمة مكتنزة سوداء كأنها السناج ، حتى انك لتظن وانت تنظر دفعات الدخان صاعدة من المدخنة ان هناك عشاءً كبيراً يطبخ في تلك الاحشاء . وقد حطت طيور البحر تنقر بمناقيرها السرطانات الصغيرة والمحارات وغيرها مما يقدمه البحر من حلويات ومعكرونة ، ويحمله الحوت الاثين احياناً على ظهره الموبوء . واثناء ذلك كله ترى اللوياثان الشنفرى يندفع خلال الماء تاركاً اطناناً من الزبد الابيض المتلاطم المتخثر في مخره ، فيجعل القارب الصغير الحقير يتأرجح بين التمعجات كأنه « أسكفة » علقت عند الدواليب البدالية في باخرة محيطية . وهكذا ترى ان القسم الامامي من المشهد حافل بالاضطراب الهائج . ومن المفارقات الفنية المعجبة ان القسم الخلفي سطح مائي هادئ مستوٍ كأنه لوح زجاجي ، ترى فيه السفينة الخائرة وقد تهدلت اشرعتها المسترخية ، وترى كتلة هامدة من حوت ميت ، قلعة استسلمت ، وراية الاستسلام ترفرف مخذولة فوق عصاها التي اثبتت في وقب النفاثة .

لست أدري من كان جارنري الرسام او من يكون ولكني اشهد بأنه كان على معرفة الخبير بالموضوع ، فان لم يكن كذلك فقد علمه واحسن تعليمه حوّات خبير . للفرنسيين حظ التفوق في الرسم . اذهب وتأمل جميع الرسوم في اوروبا فأين تجد مثل تلك الصالة من الحياة النابضة المتحركة على اللوحات إلا ان تكون تلك الصالة الباهرة في فرساي ؟ هنالك يشق المتفرج طريقه مبهوراً لاهثاً بين معارك فرنسا الحاسمة حيث كل سيف يبدو ومضة من الاضواء الشمالية ، والملوك والاباطرة الدارعون يتوالون منقضين كأنهم ثلة مندفعة من حيوانات القنطورس المتوّجة . وفي تلك الصالة تستحق المعارك التي رسمها جارنري ان تجد لها مكاناً .

ان كفاية الفرنسيين في استشفاف جمال الاشياء وروعتها لتتجلى على وجه الخصوص في الرسوم والنقوش التي مثلوا فيها مشاهد التحويت ، هذا مع انه ليس لديهم خبرة الانجليز في صيد الحيتان ، ولا واحد في الالف من دربة الامريكيين ؛ ومع ذلك فانهم زودوا هذين الشعبين بالرسوم الوحيدة التي تستحق ان توصف بنقل الروح الصحيحة لمناظر الحيتان . أما رسامو الحوت من انجليز وامريكيين فانهم في معظم الامر يكتفون اكتفاءً تاماً فيما يبدو بنقل الحدود الآلية للأشياء كأن يرسموا المنظر الجانبي للحوت فارغاً . وهذا امرٌ يبلغ ان يشبه ، اذا أنت اعتبرت روعة التأثير ، رسم منظر جانبي للهرم . حتى اسكورسبي وهو الخبير المشهور عن جدارة في شؤون الحوت الاثين بعد ان قدّم لنا صورة جاسية كاملة لحوت جرينلاند ، وثلاث صور او اربعاً مصغرة مرهفة للنرول والبربوز عاد يعرض علينا سلسلة من الرسوم الكلاسيكية تمثل صنارات القوارب وسكاكين الفرم والكلاليب ، ثم وضع تحت انظار عالم يرتعش من البرد ستة وتسعين أنموذجاً طبق الاصل من بلورات ثلج المنطقة القطبية في وضع مكبّر مستعيناً في ذلك بدقة المجهر ؛ ولست أقصد الى ان أستخفّ بهذا الرحالة الفذّ (فأنا احترمه لحنكته وخبرته) ولكنه في مثل هذا الامر المهم سها عن ان يحصل لكل بلورة ثلجية على شهادة موثقة بيمين معتمدة أمام محكمة السلام في جرينلاند .

وهناك نقشان فرنسيان آخران يستحقان التنويه ، سوى ذينك اللذين رسمهما جارنري ، وقد صنعهما شخص وقّع تحتهما باسم «هـ . ديران» وأحد هذين النقشين لا ينضوي تحت غايتنا في هذا المقام ، إلا أنه يذكر لاسباب اخرى ، فهو صورة مشهد هادئ في الظهيرة بين جزر المحيط الهادي ، وقد أرست حواتة فرنسية على الشاطئ في جو ساكن وأخذت تتزود بالماء في تراخٍ وكسل واشرعتها مرخاة ، ووراءها نخلات تهدلت

اوراقها الطويلة ، فالسفينة والنخلات جميعاً منحنية مسترخية في الجو الساكن . وللمنظر اثر جميل اذا اعتبرناه يوحي بتمثيل حال الصيادين الاشداء في أحد مشاهد الاستجمام الشرقي ، وهو شيء نادر في حرفتهم . اما النقش الثاني فيمثل شيئاً مختلفاً : يمثل السفينة في حال توقفها في صميم الحياة التحويتية وقد جنبت اليها حوتاً أثيناً ، وبدت السفينة (في حال استئناف السير) وهي تتطاول مشرفة على الوحش المجنب كأنها تشرف على ميناء . وفي الصورة قارب يندفع مسرعاً مبعداً عن هذا المنظر الحيّ على أهبة ان يطارد حيتاناً اخرى بعيدة ، وقد سددت الرماح والحراب وجعلت معدة للاستعمال ، وأخذ ثلاثة من المجذفين يركزون الصاري في الثقب ، وتدحرجت فجأة امواج لطمت القارب فجعلته يقف منتصباً بعض انتصاب على الماء كأنه حصان حرون يرفع يديه في الهواء . ومن السفينة يتصاعد دخان العذاب الذي يقاسيه الحوت الفائر ، كأنه دخان قرية من مصانع الحديد ؛ وقبالة المهب تنشأ سحابة سوداء تحمل نذر الحاصب والمطر ، فتزيد ـ فيما يبدو ـ في حيوية الملاحين الهائجين .

٥٧

الحيتان كما تتمثل في الألوان وفي الأسنان وفي الخشب وفي صفائح الحديد وفي الحجر وفي الجبال وفي النجوم

لعلك حين تنحدر نحو دور الصناعة بلندن قد رأيت على تلة البرج شحاذاً مقعداً (او كاجاراً كما يقول البحارة) ، يمسك امامه لوحة مرسومة تمثل المنظر المؤسّي الذي فقد فيه رجله . وفي الصورة ثلاثة حيتان وثلاثة قوارب ، وأحد القوارب (ويفترض انه يحتوي الرجل المفقودة كاملة) قد ضعضعه العض من فكي الحوت الامامي . وقد خبّرت ان هذا الرجل دأب على ان ينصب تلك اللوحة كل حين على مدى عشر سنوات ويعرض ذلك الجذم على عالم قليل التصديق . ولكن آن أوان انصافه وتصديقه فان الحيتان الثلاثة جيدة الرسم كأي حيتان رسمت ونشرت في وابنج ، على اي تقدير . وجذمه كأي جذم آخر يقيني تراه من الجذوع المقتلعات في الغرب ، ومع ان الحوات المسكين يعتلي أبد الدهر ذلك «الجذم» فانه لا يتخذه منبراً للخطابة ابداً وانما يقف حزيناً أسيان بعينين خفيضتين يتأمل ما أصابه من بتر .

وقد تمر خلال الباسيفيكي ونانتوكت ايضاً ونيوبدفورد وميناء ساج على رسوم حية تمثل الحيتان ومناظر صيدها حفرها الصيادون انفسهم على انياب حوت العنبر او على «مشدات» السيدات المصنوعة من عظام الحوت الاثين وامثالها من تلك الطرف الصغيرة العديدة التي ينحتها البحارة بعناية من المادة الخام وهم في ساعات الراحة في عرض المحيط ويسمّونها Skrimshander . ولدى بعضهم صناديق صغيرة فيها أدوات تشبه أدوات اطباء الاسنان ، خاصة بهذا النوع من التلهي . ولكنهم على وجه العموم يكدون مستعملين مُداهم وحدها ، وهم بهذه الاداة التي تكون قادرة على كل شيء يشكّلون لك ما تريد ويخرجونه على النحو الذي يتصوره خيال البحّار .

ان طول البعاد عن دنيا المسيحية وعالم الحضارة يرد المرء حتماً الى الحال التي أوجده الله فيها ، أعني ما يسمى حالة البداوة الهمجية . فالحوّات الحق لا يتميز في همجيته عن

البدائي الايروقوي . وأنا نفسي همجي لا أدين بالولاء إلا لسلطان آكلي لحوم البشر ، مستعد في كل لحظة لأن أثور على ذلك السلطان .

ومن أخص خصائص الهمجي اثناء وجوده في منزله صبره العجيب على الصناعة . فهراوة الحرب الهواوية القديمة او كعوب الرماح فيما يضاف اليهما من نقوش وحَفر كثير متشعب محكم يعد كل منهما نصباً يخلّد فضيلة الصبر الانساني ، كما يخلّدها معجم لاتيني . اذ ان تلك المنعرجات الدقيقة المتشابكة المتشاجرة من الحَفْر على الخشب قد تمت بشظية من محارة بحرية مكسرة او بسنّ سمكة القرش ، وكلّفت سنوات من الدأب الدائب والانحاء المستمر .

والهمجي الابيض ـ أعني البحار ـ شبيه بالهمجي من أبناء هواي فهو يتمتع مثله بالصبر العجيب ، وبصبره هذا وبناب قرش واحد ، وباستعماله مديته البانسة الوحيدة تراه يحفر لك قطعة من تمثال عظمي ، مفعمة بالتعرجات المتشابكة في رسمها كأنها درع ذلك الهمجي الاغريقي ، أخيل ، وان لم تكن مثله اتقاناً ، وتجيء حافلة بالروح والايحاءات البربرية كأنها رسوم ذلك الهمجي الهولندي الظريف البرت دورر .

وكثيراً ما يصادف المرء في منارات الحواتات الامريكية حيتاناً خشبية او حيتاناً شكّل منظرها الجانبي من لوحات صغيرة قاتمة تؤخذ من خشب حربي متين يوجد في البحار الجنوبية . وبعضها ذو حظ غير قليل من الدقة .

وقد ترى في بعض البيوت الريفية ذات السقوف المسنمة حيتاناً من نحاس معلقة من أذنابها تتخذ مقرعة للابواب الشارعة على الطريق . فاذا كان البواب نائماً كان ذلك خيراً للحوت ذي الرأس السنداني . غير ان حيتان المقارع هذه قلما تكون صوراً أمينة للاصل . وقد ترى على منائر بعض الكنائس ذات الطراز القديم حيتاناً من صفائح الحديد موضوعة هنالك لتدل على وجهة الريح ، ولكنها بعيدة في ارتفاعها وكأنما قد كتب عليها ايضاً تحاشياً لكل غاية او غرض : « اللمس ممنوع » ولذلك فانك لا تستطيع ان تتفحصها عن كثب وتحكم بمدى دقتها .

وفي مفاصل الحزّان المضلّعة حيث تنتثر عند قواعد الهضاب العالية المشققة كتل من الصخر وتكوّن على السهل رجمات جميلة خلابة ، كثيراً ما تقع العين على صور تشبه أشكال اللوياثان المحنطة وقد غاب بعضها بين العشب ، فاذا كان يوم عاصف تكسّر العشب من حولها أمواجاً من الزبد الاخضر .

وفي البلاد الجبلية حيث مايزال المسافر يتمنطق بمرتفعات تستدير من حوله كأنها مسرح روماني تستطيع ان تلمح العين هنا وهناك اذا وقعت في صعيد مناسب لمحات عابرة

تمثل مناظر جانبية من الحيتان شاخصة على طول السلاسل الجبلية المتموجة . ولكنك لابد ان تكون حواتاً أصيلاً كي تتمكن من تحقق هذه المناظر ، بل لابد لك ايضاً اذا شئت ان تعود الى ذلك المنظر ثانية من ان تتخذ الوقفة نفسها في الموقع الاول نفسه لان هذه الملاحظ عبر التلال عابرة خاطفة حتى ان وقفتك الاولى لتتطلب عناءً بالغاً لاستكشافها والتثبت منها ، كأنها جزائر سولومه التي ماتزال غير مستثبتة وان وطئتها ذات مرة قدما مندانا ذي الجيد الأتلع وسجّلها قلم فجويرا الشيخ في القديم .

فاذا حلّق بك موضوع الحيتان في أجواء الفضاء لم تعجز عن ان تستبين حيتاناً عظيمة في السماء ذات الحبك ، والقوارب تتعقبها مطاردة مثلما ان الاقوام الشرقية لطول ما امتلأت نفوسها بالتفكير في الحروب كانت ترى جيوشاً مشتبكة في ميدان القتال بين السحب ؛ وقد رأيت انا في الجهة الشمالية من الافق حوتاً وطاردته حول القطب ورأيت دورات النقاط اللامعة التي صورته لعيني اول مرة . وتحت سماء القطب الجنوبي المتلألىء دنوت من كوكب « السفينة » وشاركت في مطاردة « كوكبة القاطوس » المتلالئة بالنجوم وراء أقصى ما يمكن أن تمتد اليه « حياة البحر » و « السمكة الطائرة » ـ سمكة الخطّاف .

وليتني اتخذ من مراسي الفرقاطة حَكَماتٍ لجامي ، وأجعل مهمازيَ حزمة من حراب وأمتطي ذلك الحوت وأثب به نحو كبد السماء لأرى ان كانت السماوات التي يحكون لنا عنها وعن طباقاتها العديدة تقع حقيقة وراء ما يدركه بصري البشري الكليل .

٥٨

القشريات

بعد ان أبحرنا الى الشمال من جزائر كروزيت وقعنا في مروج مترامية تقطنها القشريات ، وهي تلك المادة الدقيقة الصفراء التي يغتذي بها الحوت الاثين في الاكثر . وكانت تتموج من حولنا على مدى فراسخ و فراسخ حتى كأننا كنا نبحر خلال حقول مديدة من السنابل الذهبية الصفراء .

ورأينا في اليوم الثاني أعداداً من الحوت الاثين ، تسبح فاغرة الأفواه في استرخاء خلال القشريات ، اذ كانت بمأمن من هجوم حواتة كالباقوطة هدفها صيد حوت العنبر دون سواه ؛ ولما كانت القشريات تلتصق بالألياف المهدبة في تلك «الستارة البندقية» العجيبة في أفواه الحيتان فان الماء وهو يمرّ عند الشفتين لم يكن يلامسها .

وكانت تلك الوحوش الاثينية تعوم محدثة أصواتاً غريبة كأصوات المناجل في الحشيش مخلفة وراءها شمالاتٍ لا نهاية لها من الزرقة على سطح البحر الاصفر . حتى كأنها حصادون بكروا للحصاد ووقفوا جنباً الى جنب وأخذوا في تؤدة وإصرار يدفعون مناجلهم خلال الحشيش الطويل البليل في مروج رطبة نشاشة* .

ولم يكن فيها ما يذكر المرء بالحصادين سوى ذلك الصوت الذي كانت تحدثه وهي تشق مروج القشريات . أما اذا رآها المرء من قمم الصواري وبخاصة وهي متلبثة ساكنة لفترة من الزمن فانه يحسب أشكالها السوداء المستفيضة كتلاً من الصخور الجامدة ، لا أي شيء آخر . ومن رأى فصائل هذا اللوياثان في البحر اول مرة ، كان كالغريب الذي يجوب مناطق الصيد العظيمة في

* ان ذلك الجزء من البحر ويعرف بين الحواتين باسم «ضفاف البرازيل» لم يسمَّ كذلك كما سميت «ضفاف نيوفوندلاند» بهذا الاسم لوجود مواقع ضحضاحة ، وأعماق غير بعيدة هنالك . وانما دعي بذلك لهذا المظهر الذي يشبه المرج وهو ناشيء عن منجرفات هائلة من القشريات تظل تعوم في تلك العروض حيث الصيادون كثيراً ما يطاردون الحوت الاثين .

الهند ، فانه احياناً قد يمر عن بعد بالفيلة مستلقية دون ان يميزها بل يحسب انها أكوام شاخصة مسودة من التراب . واذا أدرك المرء حقيقتها في النهاية لم يكد يصدق وهو يراها في هذه الجسامة الهائلة ان عنصر الحياة في جميع أعضائها هو نفس عنصر الحياة التي فطر عليها الكلب او الحصان .

ثم انك من بعض النواحي الأخرى لا تستطيع ان تواجه أية مخلوقات بحرية بالمشاعر عينها التي تواجه بها مخلوقات البر . نعم ذهب بعض علماء التاريخ الطبيعي القدماء الى ان لكل مخلوق على البر صنواً في البحر ، والحق أيضاً انك اذا شملت بنظرك المخلوقات في العالمين البرّي والبحري وجدت هذا الرأي صحيحاً في مجمله ، ولكنك اذا أخذت تتأمل التفصيلات ألفيت الامر مختلفاً . هل يستطيع البحر ان يدعي بأن لديه سمكة صنواً في وداعتها الواثقة للكلب ؟ ان القرش وحده هوالذي يشبّه بالكلب في الخلقة ، ولكن اي شيطان مريد هذا!

وابن البر بعامة يلحظ قطّان البحر بعين ملؤها التكره والنفور . ونحن نعلم كذلك ان البحر « ارض غفل أزلية مجهولة الهوية » ، حتى ان كولومبس لم يعنَ باكتشافها بل تجاوز في ابحاره عوالم مجهولة منها لا تحصى عدداً من اجل ان يكتشف البرّ الغربي التافه الذي كان مجهولاً . ثم ان أشد الكوارث المفزعة التي وقعت للانسان منذ أقدم الازمان ، وكأنما كانت خبط عشواء ، قد أصابت ممن يركبون البحر عشرات الالوف او مئات الالوف . وكفى بلحظة من التأمل لتدلنا على ان هذا الانسان الصغير ، مهما يتبجح بعلمه ومهارته ، ومهما يزدد حظه منهما في مستقبل مرجوّ ، سيظل الى الابد ودهر الداهرين مهيناً ضعيفاً يهينه البحر ويقتله ويسحق أفخم فرقاطة وأصلبها من صنع يديه . ومع ذلك كله فان تكرار هذه الامور باستمرار جعل الانسان يفقد إحساسه برهبة البحر الكاملة ، تلك الرهبة التي تقترن باسم البحر منذ بدء البدء .

وأول سفينة قرأنا عنها إنما عامت على صدر طوفان ـ بحرٍ محيطٍ ـ أغرق عالماً كاملاً ـ كأنما ينتقم انتقاماً برتغالياً ـ دون أن يبقي على أرملة واحدة ، ومازال ذلك المحيط يهدر حتى اليوم ، وهو هو الذي حطم سفن العام المنصرم . أجل ايها الأحياء الحمقى ان طوفان نوح لم يغض ؛ فمايزال يغطي ثلثي هذا العالم الجميل .

بأي شيء يفترق البحر عن البر حتى ان المعجزة على احدهما لا تعد معجزة في الآخر ؟ : ضروب الرعب الخارق حلّت بالعبريين حين فتحت الارض فاها تحت قدمي قورح وصحبه وابتلعتهم الى الابد[1] . وها هي الشمس لا تغرب اليوم دون ان يبتلع البحر سفائن وملاحيها على النحو نفسه ، ثم لا يقال : هذه معجزة!

---

(١) انظر سفر العدد : ١٦ .

لا عجب ان يكون البحر عدواً للانسان فان الانسان أجنبي عنه ولكن ماذا تقول اذا عرفت انه شيطان مريد في معاملته لنسله وأبناء صلبه ؛ لهو أسوأ من المُضيف الفارسي الذي ذبح ضيوفه أنفسهم(٢) ، فهو لا يوفر المخلوقات التي تنتج فيه . البحر كأنثى النمر الضارية ، هي تدوس ابناءها وتكفأهم اذ تتقلب في الغاب ؛ وهو يدفع بأقوى الحيتان نحو الصخور ويتركها لقىً الى جانب حطام السفن المتناثرة . لا رحمة لديه ولا قوة تضبطه الا قوته ؛ البحر الشامس يغمر الارض لاهثاً ناخراً كأنه جوادُ حَرْبٍ هائج مجنون قد تجندل عنه فارسه .

ثم تأمل مكر البحر ودهاءه : معظم مخلوقاته المخوفة تنساب تحت الماء ، غير ظاهرة في اكثر الاحوال ، مستخفية استخفاء الماكر الروّاغ تحت أجمل صبغٍ من اللون اللازوردي . وتأمل ايضاً اللألاء والجمال الشيطاني لدى كثير من فصائله التي تعدّ أشدها قسوة ، شأن كثير من فصائل القرش ذات الاشكال الانيقة المبرقشة . ثم تأمل كرة أخرى القرم العام في البحر لأكل اللحوم فكل مخلوقاته يتفارسن ويخضن فيما بينهن معركة أزلية منذ بدء الخليقة .

تأمل كل هذا ثم اعطف البصر نحو هذه الأرض الخضراء الوديعة الطيعة اللينة . تأملهما كليهما أعني البحر والبرّ ، ألا ترى فيهما شبهاً لشيء مستقرٍّ في نفسك ؟ اذ مثلما ان هذا المحيط المهول يحفّ بهذا البرّ الأخضر كذلك فان في روح الانسان جزيرة حافلة بالسلام والبهجة ـ كأنها تاهيتي ـ ومحفوفة بمرعبات هذه الحياة التي لم تكد تنجلي لنا . رعاك الله! لا تغادر تلك الجزيرة فانك ان غادرتها فلن تعود اليها ابداً!

---

(٢) الاشارة غير واضحة الدلالة ، فلا نعرف من هو هذا المُضيف الذي يتحدث عنه .

٥٩

السبيدج[١]

خاضت الباقوطة مروج القشريات في أناة وتؤدة ، جاعلة طريقها في اتجاه شمالي شرقي نحو جزيرة جاوة ؛ والنسيم العليل يحثها ، فتتمايل صواريها الثلاثة السامقة في تلك السكينة الشاملة ، في لطف ودعة تحت لمسات النسيم الواهن ، كأنها ثلاث نخلات وديعات في بسيط من الأرض . وخلال فترات متباعدة في الليالي المقمرة كانت النفاثة المتوحدة الغرّارة ماتزال تستبين .

ولكن ذات صباح أزرق شفاف وقد غشّى البحرَ سكون يكاد يتجاوز المعهود دون ان يكون مصحوباً بركود فاتر ، وومض الشمس اللامع في الامواه كأنه اصبع ذهبية ممدودة تتلمس المتعة في تحسس خبايا الماء ، والامواج المنتعلة تتهامس فيما بينها وهي تمشي في رقة ونعومة ، في تلك الهدأة العميقة التي رانت على الكون المنظور لاح لعيني دغّة وهو في قمة الصاري الاكبر صولجان عجيب الشان .

برزت على البعد في استرخاء كتلة ضخمة بيضاء ، وارتفعت واشتد ارتفاعها ، وتخلصت مما أحاط بها من لون لازوردي ، والتمعت أخيراً أمام سفينتنا كأنها واجهة ثلجية انزلقت لتوّها من المرتفعات . وتوهجت لحظة ثم انكمشت في بطء وغطست في الماء ، ثم برزت مرة اخرى ولمعت في سكون وبدت كأنها ليست حوتاً إلا ان دغة قال في نفسه : أهذا هو موبي ديك ؟ وغاص ذلك الشبح مرة اخرى ، غير انه حين تبدي ثانية صاح الزنجي صيحة كأنها الخنجر المستطيل أفزعت كل امرىء من غفوته وهو يقول : «هناك! هناك ايضاً! هناك يتبدى! أمامنا تماماً! الحوت الابيض! الحوت الابيض! » .

---

(١) Squid .

وحين سمعها البحارة اندفعوا نحو سواعد الدعامات ساندات الاشرعة مثلما تندفع النحل في موسم الاشتيار نحو الاغصان . ووقف آخاب تحت وهج الشمس اللاذعة مكشوف الرأس عند الدقل الامامي المائل وقد دفع احدى يديه الى الوراء على أهبة تحريكها بالأوامر لقيم الدفة ، وحدق بنظرته اللاهفة في الاتجاه الذي عيّنه دغة في الاعالي بذراعه الممدودة الثابتة .

أترى بروز تلك النفاثة الوحيدة المتوحدة تباعاً قد فعل فعله في نفس آخاب تدريجياً حتى لم يستغرب اللطف والدعة في منظر ذلك الحوت الذي كان يطارده حين لاح لعينيه ؟ أترى خانته لهفته ؟ اياً كان الامر فانه ما كاد يستبين تلك الكتلة البيضاء حتى ذهب في حماسة عجلى يلقي أوامره بانزال القوارب تواً .

وسرعان ما كانت القوارب الاربعة فوق الماء ، وآخاب في المقدمة ، والجميع يجذفون مسرعين لادراك الطريدة . وسرعان ما غطست الطريدة في الماء ، فتوقفت مجاذيفنا ونحن نرقب عودتها ، مه! في نفس البقعة التي غطست فيها برزت مرة اخرى في بطء . ومرت بنا لحظة كدنا ننسى فيها كلّ الخواطر عن موبي ديك ، وحدقنا في أغرب ظاهرة جلاها البحر الخفيّ لعين بشر حتى ساعتئذٍ . على الماء كانت تعوم كتلة مديدة هلامية تبلغ عشرات الياردات طولاً وعرضاً ، ذات لون ذي تبريق كأنه الزبدة ، وقد تفرعت من وسطها أذرع طويلة لا تحصى ، وهي تتمعج وتتلوى كأنها عش فيه ثعابين الانكونه ، وكأنها تخبط خبط عشواء لتمسك بأي شيء يصادف ان يكون في متناولها . وليس لها وجه واضح الملامح او مقدم ، ولا فيها أمارة محسوسة تدل على ان لها احساساً او غريزة ، وانما هي تتموج فوق اللجج كأنها طيف من شيء حيّ ، لا شكل له ، شيء لا ينتمي الى احياء هذه البسيطة وانما وقع بينها وقوع المصادفة العارضة .

واختفت مرة اخرى ببطء في صوت كامتكاك الضرع ، وكان استاربك مايزال يحدق في الامواه المهتزة حيث غاصت ، فصاح بصوت غريب : «أكاد أوثر أنني رأيت موبي ديك وحاربته على ان اكون رأيتك ايها الشبح الابيض! » .

فقال فلاسك :« أي شيء هو هذا يا سيدي ؟ » .

- « هذا هو السبيدج الحي الهائل الذي يقولون فيه : ما اقل السفن التي شاهدته وكتب لها ان تعود الى موانيها لتحدث عنه » .

أما آخاب فلم يقل شيئاً ، وأدار قاربه وعاد الى السفينة وتبعه الآخرون في صمت كصمته .

مهما يكن شأن الاساطير التي يقرنها صيادو حوت العنبر عموماً بمنظر هذا المخلوق فمن المستيقن ان ما يلمحونه لمحاً من شذوذ في تكوينه قد أثر في نفوسهم تأثيراً بعيداً

حتى نسبوا اليه الارهاص بالويل والشؤم . وهو قلما يبدو للعيان حتى انك قلما تجد بينهم من لديه سوى أشد التصورات غموضاً حول طبيعته وشكله ، وان كانوا ـ وحداناً ومجتمعين ـ يصرّحون بأنه أضخم ذي نسمة في قطّان المحيطات . وعلى رغم ذلك كله تجدهم يعتقدون انه الغذاء الوحيد الذي يقتات به حوت العنبر . اي ان أنواع الحيتان الأخرى تجد غذاءها فوق سطح الماء فيراها الناس وهي تتناول طعامها ؛ إلا حوت العنبر من بينها فانه يصيب طعامه في مناطق مجهولة تحت سطح الماء ، ولا أحد يستطيع ان ينبىء من اي شيء يتألف غذاؤه الا استنتاجاً ، واذا اشتدت عليه وطأة المطاردة أحياناً تقيأ ما يظن انه أشلاء من أذرع السبيدج ، وبعضها يبلغ طوله ما يزيد على عشرين قدماً و على ثلاثين . وهم يتوهمون ان الوحش الذي له مثل هذه الأذرع يتشبث بها ممسكاً قاع البحر وان حوت العنبر على خلاف الانواع الاخرى مزوّد بأنياب تمكنه من مهاجمة ذلك الوحش وتمزيقه .

ولا بأس على من تصوّر ان الكراكن الضخم الذي ذكره الاسقف بونتوبودان[١] قد يكون هو السبيدج . فالاسقف يقول في وصفه له انه يراوح بين البروز والغوص ؛ وهذا الذي قاله مع دقائق أخرى أوردها ايضاً تجعل وجه الشبه بين الاثنين كاملاً ؛ غير ان من الضروري ان تخفف من غلوه في تقدير حجمه المهول فان ما ذكره يجاوز حد التصوّر والتصديق .

وقد سمع بعض علماء التاريخ الطبيعي على نحو مبهم شائعات عن هذا المخلوق العجيب الذي اتحدث عنه ها هنا فأدرجوه في صنف سمك الحبّار ، وهو حقاً ينتمي الى هذا الصنف فيما يبدو اذا اعتبرنا بعض المناحي الظاهرية فيه ، ولكننا ان عددناه في تلك القبيلة وجب علينا ان نعده وحده «جبّارها» العملاق .

(١) لهذا الاسقف كتاب عنوانه «تاريخ النرويج الطبيعي» (١٧٥٢ ـ ١٧٥٣) يصف فيه الكراكن فيقول ان ظهر هذا الحيوان او الجزء العلوي منه يبدو وكأن محيطه ميل ونصف ميل (وبعض الناس يؤكدون انه اكثر من ذلك) فاذا لاح لك لاول وهلة حسبته مجموعة من جزر صغيرة محفوفة بشيء عائم كأنه اعشاب بحرية..الخ .

٦٠

حبل الصيد

بعد قليل أصف مشهداً من مشاهد التحويت ، ومن اجل ان يحسن القارىء فهم هذا المشهد وما اشبهه من مشاهد ، سأتحدث عنها في مواضع اخرى من هذا الكتاب ، أرى ان اتحدث في هذا المقام عن هذا الحبل السحريّ ، حبل التحويت الذي يكون احياناً مفزعاً .

كان الحبل الذي يستعمل في السماكة اصلاً يصنع من خير أصناف القنب ، وقد غُبّر ببخار القار دون ان ينقع فيه مثلما تعالج الحبال العادية . حقاً ان القار اذا استعمل استعمالاً عادياً يجعل القنب ألين مراساً لدى الحبّال ، ويجعل الحبل نفسه أصلح لدى البحار في شؤون الملاحة العامة ، ولكن غمس الحبل في القار ييبس حبل التحويت فيتعسر لفّه لفاً دقيقاً ، وهو ما لابد للحبل ان يؤديه . وقد يمنح القار للحبل لمعاناً وإحكاماً في الجدل ، ولكن معظم البحريين اخذوا يدركون انه بعامة لا يزيد شيئاً في قوة الحبل او في طاقته على البقاء ابداً .

وفي السنوات الاخيرة كاد حبل مانيلا ان يحلّ في السماكة الامريكية محلّ القنب في صنع حبال التحويت . وحبل مانيلا أقوى وأشد نعومة و مرونة من القنب وان لم يكن مثله في طول العمر . وأحب ان ازيد على هذا بأنه اجمل وأليق بالقارب من القنب (ولا بدع في قولي « أجمل » ففي كل شيء عنصر جماليّ) . فالقنب قاتم معتم يشبه ان يكون هندياً أما « المانيلا » فانه اشقر الخصلات كأنه قفقاسي .

ويبلغ حبل التحويت في سُمكه ثلثي بوصة ، وقد لا تظنه لاول وهلة قوياً حسبما هو حقاً ، فاذا اختبرته وجدت كل طاقة من طاقاته الاحدى والخمسين تحمل وزناً يبلغ مائة وعشرين رطلاً ؛ فالحبل المبروم يتحمل شداً يوازي ما يقرب من ثلاثة أطنان . أما طول الحبل العاديّ من حبال صيد حوت العنبر فانه يزيد على مائتي باع . وعند كوثلة السفينة يلف حلزونياً في البرميل لا كما يلتف انبوب التقطير لولبياً متعرجاً ، بل بحيث يصنع لفافة

واحدة في شكل كتلة دائرية من الجبن ذات طبقات مبسوطة او حلزونيات متراكبة متحدة في المركز ، ليس فيها تجويف الا في « قلبها » ، او يكون في محور رحاها انبوب دقيق عمودي . وأقلّ تشويش او التواء في اللف قد يذهب عند ارسال الحبل بذراع هذا او رجل ذاك او جسمه كله لا محالة ، ولذلك تبذل اقصى الحيطة في ايداع الحبل في البرميل حتى ان بعض الرماحين ينفقون غداة كاملة في هذا الشأن ، فيحملون الحبل الى اعلى ثم يشدونه الى اسفل من خلال بكرة نحو البرميل كي ينفوا عنه عند لفّه اي التواءات او تعقصات ممكنة .

وتستعمل القوارب الانجليزية برميلين لا واحداً بحيث يلف الحبل دائماً في البرميلين كليهما ؛ وفي هذا فائدة ما ، اذ ان هذين البرميلين صغيران ومن ثم يقعان موقعاً ملائماً في القارب فلا يبهظانه كثيراً اما البرميل الواحد في القارب الامريكي فان نصف قطره يبلغ ثلاثة اقدام وله من العمق ما يناسب ذلك ، وبذلك يكون ثقيلاً على قارب لا يتجاوز سمك لوح الخشب فيه نصف بوصة . اذ ان قعر قارب التحويت يشبه الجليد المتماسك في مقاومته ، اي يتحمل قسطاً غير قليل من الوزن ان جعلته موزعاً ولكنه لا يتحمل كثيراً اذا جعلت الوزن كله في موقع واحد . فاذا غطي برميل الحبل في القارب الامريكي بالخيش المقوى المطليّ بدا القارب وكأنه يجر « كعكة » عرس كبيرة ليهديها الى الحيتان .

وكلا طرفي الحبل مسيّبان ظاهران : فأما الطرف الادنى فانه ينتهي بأنشوطة او عروة صاعدة من القاع بمحاذاة جانب البرميل ، وتتدلى على حافته طليقة دون ان تكون عالقة بأي شيء . وهذا النوع من التدبير في الطرف الادنى يعد ضرورياً لسببين ، أولهما : ان يسهّل اضافة حبل آخر من قارب مجاور يربط بذلك الطرف ان كان الحوت الجريح قد نأى بعيداً في الاعماق بحيث يخشى ان يستنفد طول الحبل الاصلي المربوط بالرمح . وفي هذه الاحوال ينقل الحوت من قارب الى آخر كأنه طاسٌ من الجعة غير ان القارب الاول يظلّ دائماً يدوّم عن كثب ليعين قرينه . وثانيهما : ان هذا التدبير لا غنى عنه من أجل السلامة اذ لو ان الطرف الادنى من الحبل ربط بالقارب وجرى الحوت فاستنفد طول الحبل كله حتى نهايته في لحظة خاطفة مثلما يفعل أحياناً فانه لن يتوقف ثمة ، واذن لجرّ القارب البائس حتماً الى الاعماق في أثره ، وفي هذه الحال لا يستطيع من ينشد الضوالّ ان ينفعه نشدانه .

وقبل انزال القارب للمطاردة يستخرج الطرف الاعلى من البرميل نحو المؤخرة ويمرر حول المثقلة ، ثم يسحب الى الامام بطول القارب بحيث يقع مستعرضاً على يد كل مجذاف حتى انه يمسّ رسغ المجذف حين يحرك مجذافه ويمر بين المجذفين ، وهم متراوحون في جلساتهم عند الحافتين ، ذاهباً الى المعقفات الخطّافية المغلفة بالرصاص في أقصى طرف

الجؤجؤ «المروّس» حيث يقوم وتد خشبي أو سفود بحجم القلم العاديّ يحول دون انفصاله . ويتدلى من المعقفات في تقويس خفيف فوق مقدمة القارب ثم يمرر داخل القارب ثانية ، وتلف منه عشرة باعات او عشرون حول الصندوق في المقدمة (وتسمى هذه حبل الصندوق) ثم يمضي الى الحافة مقترباً من المؤخرة ، ثم يوصل بالسداة القصيرة اعني الحبل الذي يرتبط مباشرة بالرمح ، وقبل ان يتم هذا الوصل تكون السداة القصيرة قد ذهبت في مسارب ومعميات عديدة ووصف ذلك كله في اسهاب يبعث على الملل .

كذا يطوّق حبل الصيد القارب كله بين لفائفه العويصة متثنياً متمعجاً في كل وجه ، وقد طوى جميع رجال التجذيف بين حناياه الخطرة ، فلو رآهم أحد ابناء البرّ الخوّارين لتمثلهم حواة من مشعبذي الهنود ، والحيات الناكزة تتلعّب وتتحوّى حول أذرعهم . وليس يستطيع ابن انثى من البشر اول مرة ان يضع نفسه بين هذه الاحابيل الممرّسة وان يتصوّر وهو يشدّ صلبه متوتراً عند المجذاف ان الرمح قد يزرقه زرّاقه في أية لحظة مجهولة ، وان هذه الاحابيل المريعة ستدور دورتها كأنها ومضات برق دائري . لن يقع هذا الموقع دون ان تعتريه هزة تجعل النخاع نفسه في عظامه يرتعش كأنه هلام يترجرج . ولكن العادة مألفة ؛ يا للغرابة! أي شيء تعجز العادة دونه! انك لا تسمع وأنت على أريكة في ديوانك ملحاً مستطرفة ومرحاً عابثاً ونكتاً حارة أو أجوبة مفحمة بأكثر مما تسمعه فوق قارب التحويت الذي لا يبلغ سمك جداره الشربيني الابيض اكثر من نصف بوصة وهو مشنق في أنشوطة المنيّة ، وكأن الملاحين الستة فيه هم الستة المواطنون من كاليه يقفون أمام الملك ادوارد[1] ، وأولئك الملاحون يجذفون عامدين الى فكي الموت وربما قلت : وحول كل عنق من اعناقهم يلتف حبل المشنقة .

ولعلك لو وقفت تتأمل الامر على نحو خاطف لاستطعت ان تعلل لتلك الكوارث المكرورة في التحويت ـ وقليل منها الذي دوّن عرضاً واتفاقاً ـ أعني الكوارث التي تسمع فيها ان هذا المرء او ذاك قد سحبه الحبل من القارب ومضى فقيداً . اذ ان المرء اذا جلس في القارب والحبل ينطلق كان كمن يجلس وسط الأزيز المتنوع الذي ترسله الآلة البخارية وهي تعمل حيث كل ذراع طائر أو اسطوانة دائرة او عجل دوّار كأنما ينتهب منه ويشتلي مزعاً . بل لعلّ الأمر في القارب أسوأ من ذلك لان المرء لا يستطيع ان يتلبث ساكناً دون حراك وهو في جوف تلك المخاطر ما دام القارب يتأرجح كالسرير ويميل به الى هنا وهناك

(١) بعد معركة كريسي عام ١٣٤٦ حاصر ادوارد الثالث مدينة كاليه مدة تربو على سنة ، ولما اضطرت المدينة للتسليم تقدم اليه ستة من ابنائها وفي رقابهم الحبال لينقذوا المدينة من مذبحة كان يزمعها ادوارد بهذا الفداء .

دون ان يأخذ حذره ، و لولا قدر من رباطة الجأش ومن التوافق الآني بين الحزامة والدأب لما استطاع ان ينجو من ان يغدو «مازفا»[١] ويتطوح الى حيث لا تستطيع عين الشمس النفاذة ان تحقه .

وأقول : مثلما ان السكون العميق الذي يسبق العاصفة ويرهص بها ربما كان أحفل بالرهبة من العصفة نفسها ، لان السكون في الحق ليس إلا غلافاً وسجلاً يطوي العاصفة ويحتويها في سريرة ذاته كما تحتوي البندقية المكفوفة الاذى في ظاهرها ما فيها من بارود قاتل ورصاصة وانفجار ، كذلك الحبل ابان استقراره الهاجع الظريف وهو يسترسل متعرجاً حول رجال المجاذيف قبل ان ينشط الى الحركة فان فيه وهو في هذه الحال من الرعب الاكيد اكثر من أي مظهر آخر في هذه المهنة الخطرة . ولم أسترسل ؟ كل الناس يعيشون وحبال التحويت تلتف من حولهم ، كلهم ولدوا وأواخي المشانق معقودة حول أعناقهم ، ولكنهم لا يتبينون مخاطر الحياة المتلبدة الماكرة التي لا تغفل ولا تغيب ابداً الا حين يوهقهم الموت المفاجىء الوحيّ ويجذب الانشوطة . وان كنت فيلسوفاً وجلست في قارب تحويت لم تحسّ في قلبك قدر قلامة ظفر من الرعب اكثر مما تحسّ به وأنت جالس في المساء أمام الموقد والى جانبك سفود تقلب به النيران ، لا رمح تصيد به الحيتان .

(١) Mazeppa متوره بيرون في احدى قصائده وقد ربط الى حصان شموس ، واتتهره الزوج الغائر ليجري به شدأ .

٦١

اسطب يصيد حوتاً

اذا كان استاربك قد رأى في طيف السبيدج نذيراً بالشوم فان الامر فيه لدى كويكوج كان غير ذلك .

قال ذلك الهمجي وهو يشحذ رمحه على صدر قاربه الرابي : «عندما هو تراه البيدج ، انت هو في أثره ترى حوتة أنبر» .

وكان اليوم التالي مسرفاً في السكون والقيظ ، ولم يكن ملاحو الباقوطة منهمكين في أي شيء ولذلك كاد يغلبهم سحر النوم الذي كان يغريهم به ذاك البحر الفضاء . ذلك ان هذا الجزء من المحيط الهندي الذي كنا مبحرين فيه ليس هو ما يسميه الحواتون : «المجال الحافل» أي ان ما فيه من البربور والدلفين والسمك الطيّار وغير ذلك من القطّان المرحين في بحار اخرى أشدّ توثباً واضطراباً ، يُعَد أقل بكثير من تلك الاصناف الموجودة على موازاة ريو دي لبلاطه او في المجال المساحل عند بيرو .

جاء دوري لاقف على مرقب الصاري الامامي فاستندت بكتفي على الاشرعة الملوكية المسترخية وأخذت أتأرجح متكاسلاً فيما حسبته جواً مسحوراً . أي حزم لا يتلاشى أمام هذا السحر! في تلك الوقفة الحالمة فقدت كل صحو واعٍ ، وبارحت روحي مسكنها الطيني في النهاية ، وان ظلّ جسدي يتأرجح مدة طويلة كأنه الرقّاص بعد ان انسحبت منه القوة التي حركته اولاً .

وقبل ان تلفني غشاوة النسيان لحظت ان الرقيبين الواقفين على مرقب المظين ومرقب الصاري الرئيس قد أدركتهما سنة من نعاس ، حتى كنا ثلاثتنا في النهاية نتأرجح على السواري وقد بارحتنا الحياة ، وازاء كل خطوة نقوم بها خفقة يخفقها رأس الرجل القيّم على الدفة وهو مستغرق في نومه ، وكانت الامواج ايضاً قد تركت ذوائبها المسترخية تخفق

وتنوس . وعلى مدى الماء الذي ذهب في غيبوبة مديدة كان الشرق يهز رأسه الناعس نحو الغرب ، وعين الشمس تومض في الاعالي .

وفجأة أحسست الحبب يثور دون عينيَّ المغلقتين ، ويداي تتشبثان بالاشرعة كأنهما كلاّبتان . وقّتني عناية خفية مباركة . عدت الى الحياة مذعوراً . شِمْ! على كثب من يسارنا ، على بعد لا يجاوز اربعين باعاً ، يتدحرج حوت عنبر ضخم في الماء ، كأنه هيكل فرقاطة منكّس ، وظهره العريض الأملس ذو اللون الحبشي يتلألأ تحت اشعة الشمس كأنه صفحة مرآة . وخيّل اليّ ان هذا الحوت وهو يتموج في ذلك الحوض المائي ويطلق في هدوء نفاثته البخارية على نحو متواصل انما يشبه مواطناً مهيباً جسيماً يدخن غليونه في عصر يوم دافئ[1] .

ولكن هذا الغليون ايها الحوت المسكين كان آخر واحد تستمتع به . لكأن السفينة الناعسة وكل ناعس ينوض فيها مَسَّتْهمْ جميعاً عصا ساحر فأجفلوا مستيقظين وانطلقت عشرون حنجرة أو تزيد ، من جميع جوانب السفينة هي وحناجر الرقباء الثلاثة في الاعالي ، في وقت معاً ، وكلها تبعث الصيحة المعهودة حين كان الحوت الجسيم ينفث ، في أناة وانتظام ، الماءَ الأجاج الوهاج في الفضاء .

فصاح آخاب : «انزلوا القوارب! صوبَ الريح! » وأطاع أوامر نفسه فأنزل الدفة قبل ان يستطيع قيّمها ان يدير الدواليب .

الصيحات المفاجئة التي أرسلها الملاحون أفزعت الحوت ، ولابد ، فقبل ان تنزل القوارب استدار في خيلاء ، وسبح مبعداً في اتجاه الريح في سكينة واثقة ، محدثاً بعض التغضنات في سبحه ، فقدر آخاب ان الفزع لم يدركه بعد ، وأمر ان تتوقف المجاذيف وان لا يتكلم احد الا همساً ، وجلسنا على حوافي القوارب كأننا هنود أو تناريو ، وسرينا في اليم مسرعين صامتين اذ كان الهدوء المخيم لا يسمح بنشر الاشرعة وان كان نشرها لا يحدث صخباً ؛ وفيما نحن ننساب في هذه المطاردة رفع الوحش ذنبه عمودياً في الهواء على مدى أربعين قدماً وغاص محتجباً عن الانظار كأنه قلعة خسفت بها الارض .

وارتفعت الصيحة : «ها هما شطرا الذنب» وما ان سمعها اسطب حتى استخرج علبة الثقاب وأشعل غليونه اذ أصبح التمهل محموداً . وبعد ان قضى الحوت دورة القمس كاملة برز ثانية وهو متقدم امام قارب الرجل ذي الغليون وان كان أقرب اليه من سائر القوارب ، فعلل اسطب نفسه بشرف الفوز وبدا واضحاً حينئذٍ ان الحوت أدرك انه مطارد ، ومن ثم غدا

---

(١) كان ملفل وهو هولندي الدماء من ناحية الام مغرماً بهذه الصورة التي تدلّ على الدعة البرجوازية .

كل صمت طلباً للحيطة قليل الجدوى فتركنا التجذيف الهيّن وأخذنا نعمل المجاذيف الكبيرة جهرة وأخذ اسطب يشجع ملاحيه على الهجوم وهو مايزال ينفث دخان غليونه .

نعم حلَّ بالحوت تغير خطير الشأن ، فقد كان على وعي بأنه يعرض نفسه للتهلكة اذ كان يجري «بارز الرأس» وقد نتأ بانحراف ذلك الجزء منه من خلال الزبد المجنون الذي كان يمخضه* .

وكان اسطب يقول وهو ينفث الدخان بصوت مسموع اذ يتكلم : «ادركوه ، لاحقوه يا رجال! لا تتسرعوا ، لديكم وقت كافٍ ولكن ادركوه ، اتبعوه كأنكم هزمات رعد ، وذلك حسبكم . ها الآن ادركوه ، نريد ضربة مديدة سديدة يا طاشطيقو . دراكِ يا طاش يا بني - دراكِ جميعاً . كونوا هادني الاعصاب ، ظلّوا هادنين - في برود كثمر الخيار . هوناً ، هوناً ، لكن ادركوه كأنكم الموت العبوس والشياطين المكشرة وابعثوا الموتى واقفين على أرجلهم من قبورهم يا أبنائي . هذا ما نريد . أدركوه!»

وردَّ الجايهيدي صانحاً : « وو - هو - وا - هي» مرسلاً الى عنان السماء احدى صرخات الحرب المعروفة ، وعندها وثب كل مجذف عفواً الى الامام في القارب المجهد مع الضربة الاولى الهائلة التي أرسلها الهندي اللهيف .

أجاب آخرون على صيحاته الوحشية بصيحات مثلها فزعق دغة : «كي - هي! كي - هي!» وهو منتصب يميل أماماً وخلفاً في مقعده كأنه نمر يتخطر في قفصه .

وصاح كويكوج : «كا - لا! كو - لو» كأنه يتمطق بعد ان حشا فمه بشريحة لحم . وهكذا شقت القوارب وجه الماء بالمجاذيف والصرخات بينا كان اسطب مايزال في موقفه في الطليعة يذمر رجاله ويحفزهم على الهجوم ، وهو طوال ذلك كله ينفث الدخان من فمه . كانوا كالمجرمين المستيئسين يكدون ويجهدون حتى سمعوا صيحة الاستبشار : «قف طاشطيقو . عليك به» وطار المزراق . «تجانفوا نحو المؤخرة!» وانحاز المجذفون للخلف وفي اللحظة نفسها ذهب شيء ساخن ذو حسيس ماراً عن معاصمهم . ذلك هو الحبل السحري ، وكان اسطب قبل لحظة قد استبقى منه في سرعة دورتين إضافيتين حول المثقلة ، ولذلك انبعث منه وقد اشتد تسارعه عند نشره ، دخانٌ قنبي أزرق اختلط بنفثات الدخان

---

* سيرى القارئ في موضع آخر من اية مادة خفيفة يتألف القسم الداخلي من رأس حوت العنبر الضخم ، فهو في ظاهره اكبر اجزائه حجماً ، ولكنه أشدها مرونة حتى انه ليرفعه في الفضاء بيسر ، وكثيراً ما يفعل ذلك وهو ماضٍ بأقصى سرعة . ثم ان الجزء العلوي من جبهته واسع كثيراً ، وتكوين الجزء السفلي الذي يشق به الماء مستدق كثيراً حتى انه اذا رفع رأسه مواربأ منحرفاً فقد يقال انه حول نفسه من جليوت منتفخ الجؤجؤ مترهل الى قارب نيويوركي مستدق حاد الجؤجؤ .

الصاعدة من الغليون . وحين مضى دائراً حول المثقلة وقبل ان يصل ذلك الحدّ ، مضى خلال يدي اسطب يجردهما ويخددهما بالجراح اذ كانت قطعتا الخيش المحشوتان اللتان تلبسان في مثل هذه الظروف لوقاية الايدي قد سقطتا مصادفة . وكأن شأنه في هذا كمن يمسك سيف عدوه ذا الحدين من شفرته ، وعدوه يحاول طوال الوقت ان ينتزعه من قبضته .

«بلّ الحبل! بلّ الحبل» ـ كذلك صاح اسطب للقائم عند البرميل من رجال التجذيف فنزع هذا قبعته وغرف بها من ماء البحر وصبه على الحبل* ، وأرخوا الحبل دورات أخرى حتى استقر في موضعه وعندئذٍ طار القارب في الماء السامط كأنه قرش مغطى بالزعانف فحل اسطب محل طاشطيقو ، اي ذهب الى المقدمة ، ورجع طاشطيقو الى المؤخرة وليس يتم ذلك دون ترنح وتأرجح في تلك الهيعة المتمايلة .

لو انك رأيت الحبل المتذبذب ممتداً على طول الجانب العلويّ من القارب ورأيته وقد غدا مشدوداً موتراً اكثر من وتر القيثارة لظننت ان القارب له أرينتان : واحدة يشق بها الماء وثانية يشق بها الهواء وهو يتمخض ماضياً بين العنصرين اللذين يقاومانه معاً . وأخذ شلال دافق من الماء يلعب عند صدر القارب ودوامة تدور في المخر دون توقف ؛ وعند أية حركة خفيفة من داخل القارب ولو كانت تحريك البنصر كان القارب المتذبذب المقعقع يميل على حافته المتشنجة في الماء . كذلك اندفعوا وكل امرىء منهم تشبث بمقعده بكل ما أوتيه من قوة لكيلا ينطرح بين الزبد ، وقد تطوى جسم طاشطيقو الفارع على المجذاف الموجّه مقرفصاً كأنه مثنيّ كي ينزل مستوى مركز الثقل ؛ وخيل اليهم أنهم اجتازوا محيطات اثر محيطات وهم منطلقون في مسيرهم حتى خفف الحوت قليلاً من سرعة هروبه .

وصاح اسطب بالرجل القائم في المقدمة : «شدّ! شدّ!» ثم استداروا بوجوههم نحو الحوت وأخذت كل الايدي تسحب القارب نحوه ، بينا كان القارب مايزال ينجرّ قدماً بقوّة اندفاع الحوت فلما أصبح القارب على موازاة جانبه أثبت اسطب ركبته في القليط الأرعن وزرق الحوت الطائر بحربة اثر أخرى . ثم ألقى أمره فانحاش القارب متقاعساً عن طريق متمرَّغ الحوت الرهيب ثم استدار ليحاذيه من أجل القيام بهجمة أخرى .

حينئذٍ كان الدفق الاحمر ينصب منهمراً من جميع جوانب الحوت كأنه جداول تتدفق منحدرة من التلال . ولم يكن جسمه المثخن يتقلب في زبد بل في دم يعبّ ويطفح بالنفاخات مسافة باعات كثيرة في مخر القارب ، وتموجت أشعة الشمس المائلة على هذا

* قد أقول هنا لأدلّ على ان هذا أمر لا غنى عنه بأنهم يستعملون في السماكة الهولندية قديماً ممسحة يعصرون منها الماء على الحبل المسترسل كما كانت سفن كثيرة أخرى تزوّد بابريق او منشل لهذه الغاية . أما القبعة فهي أصلح الادوات جميعاً .

الحوض القرمزي في البحر فانعسكت في كل وجه ، حتى ان كل من نظر منهم في وجه صاحبه حسبه أحمر اللون . وطوال ذلك كله كانت تنطلق بألم مبرح من متنفس الحوت نفثة اثر نفثة من الدخان الابيض ، ونفثة اثر نفثة من فم الرائس الثائر وهو يزرقه بالحراب ؛ وكلما جذب حربة معوجة منها (بحبل موصول بها) قوّمها مرة بعد مرة بضربها ضربات متلاحقة على الحافة ثم قذف بها في جسم الحوت واستعادها وهلم جرّا .

فصاح اسطب عندها بالرجل القائم عند المقدمة وقد أخذ غضب الحوت الذاوي يبرد : « قرّب منه! قرّب » فحاذى القارب جانب الحوت ، فلما بلغ اسطب المقدمة أخذ يدس ببطء حربته الطويلة النافذة في الحوت ويبقيها هنالك ويوسعه مخضاً وإنهاراً في أناة ورفق كأنه بحيطته هذه يحاول ان يتحسس ساعة ذهبية كان الحوت قد ابتلعها ، ويخشى هو ان يكسرها قبل ان تعلق بها صنارته . الا ان تلك الساعة الذهبية كانت هي الحياة الدخيلة في الحوت ، وها هي قد طعنت فقد أجفل الحوت من غيبوبته وذهب في حال لا يستطاع وصفها تسمى « حلاوة الروح » فأخذ يتمرغ تمرغاً مفزعاً في دمه ، وتلفع برشاش مجنون لاذع لا يستطاع اختراقه ، حتى ان القارب الناشب في الاخطار انحاز على التوّ متأخراً وبذل جهداً جاهداً وهو يتخبط ليخرج من ذلك الغبش الهائج المجنون الى وضح الفضاء والهواء .

وقرَّ الحوت بعد تنفض ، وانقلب بمرأى من الملاحين ، من جنب الى جنب ، وهو يبسط فوهة نفاثته ويقبضها على نحو متقطع بشهقات وزفرات حادة مصلصلة مبرحة . وأخيراً انطلقت في الهواء المفزع دفقة اثر دفقة من الدم العبيط القاني المتخثر كأنه الدرديّ الأرجواني المترسب من الخمرة الحمراء ، وسقط مرة أخرى وهوى يقطّر جانبيه الهامدين في الأمواه . ذلك قلبه قد انفجر!

قال دغة : « مات يا سيدي! »

فقال اسطب : « نعم فان غليونيه الاثنين قد خمدا » . وسحب هو غليونه من فمه ، ونفض الرماد الهامد فوق الماء ، ووقف لحظة يتأمل الجثة الجسيمة .

٦٢

المزراق

لابد من كلمة تقال في شيء عرضنا له في الفصل السابق .

جرت العادة المستديمة في السماكة ان يفصل قارب التحويت مبتعداً عن السفينة والرائس فيه او قاتل الحوت هو الموجه المؤقت ، والزرّاق او مقيّد الحوت هو الذي يقوم على المجذاف الأمامي ، ويسمى هذا المجذاف باسم مجذاف الزراق . وتتطلب اول حربة يقذف بها الحوت ساعداً أيداً ومتناً وثيقاً ، إذ كثيراً ما تكون المسافة التي يقذف فيها المزراق الطويل ـ وهو راجح ثقيل ـ عشرين او ثلاثين قدماً . ومهما تكن المطاردة طويلة مضنية فالمتوقع من الزراق ان يجذف أثناء ذلك بأقصى طاقة ، بل المتوقع منه ان يضرب للآخرين مثلاً على الحيوية الخارقة بالتجذيف الفذ ، وبالصيحات الجهيرة المكرورة الجسورة . ماذا يعني ان يظل المرء يصرخ بأعلى صوته بينا جميع عضلاته الاخرى متوترة ناشزة ؟ ذلك شيء لا يدركه الا من جرّبه . ولو سألتني عن حالي لقلت لك : انني لا أستطيع ان أجأر في ارتياح وان أعمل في غير اكتراث ، في آن معاً . في مثل هذه الحال من التوتر والصراخ يسمع الزراق المنهوك ، دفعة واحدة ، وظهره الى الحوت ، صوتاً مستثيراً يهيب به قائلاً : « قف . اقذف بها » . وعليه حينئذٍ ان يفلت مجذافه دون ان يضيعه وان يدور نصف دورة حول مركزه ويخطف المزراق من شعبته ، ويتأتى بما فضل لديه من قوة لغرسه في جسم الحوت . لا عجب اذن اذا نحن اعتبرنا الحواتين مجتمعين ان يجيء المزراق صائباً خمس مرات في كل خمسين مرة مواتية . ولا عجب ان رأينا كثيراً من الزراقين التعساء تنصبّ عليهم اللعنات الوبيلة وتبخس حظوظهم ؛ ولا عجب ان يعمد بعضهم الى تفجير شرايينه في القارب ، ولا عجب ان غابت حوّاتات العنبر أربع سنوات وعادت بأربعة براميل ، ولا عجب ان رأى كثير من أصحاب السفن ان التحويت صفقة خاسرة ، اذ الزراق هو الذي

ينجح الرحلة واذا تسرب النفس من جسمه فكيف يجده حين يصبح في مسيس الحاجة اليه!

ثم اذا كان المزراق صائباً عمد رانس القارب والزراق في اللحظة الحرجة التالية ، اي حين يبدأ الحوت في جريبه ، الى ان يتبادلا موضعيهما ، هذا يعدو نحو المقدمة وذاك نحو المؤخرة ، معرضين نفسيهما وكل من في القوارب للتهلكة .

فاذا تمَ التبادل وقف الرانس او رأس الضباط على القارب الصغير في موضعه الصحيح في مقدمة القارب .

وأنا أرى هذا كله حمقاً لا ضرورة له ، مهما يكن رأي غيري فيه . ان على الرانس ان يقف في المقدمة من البداية حتى النهاية وعليه ان يقذف بالرمح وبالحربة ، وليس له ان يقوم بشيء من التجذيف الا في أحوال يعرفها كل من عمل في التحويت . وانا أعلم ان هذا قد يتضمن أحياناً بعض الخسارة في جانب السرعة أثناء المطاردة ولكن التجربة الطويلة في حوّاتات مختلفة تنتمي الى غير شعب واحد قد أقنعتني ان معظم ضروب الاخفاق في التحويت لم تتأتَ من سرعة الحوت في انطلاقه بقدر ما كانت ناجمة عما يعانيه الزرّاق من انهاك ، تحدثت عنه آنفاً .

واذا شاء الصيادون ان يوفروا الكفاية المطلوبة للصيد كان على الزراقين في هذا العالم ان يهبوا واقفين على أقدامهم من أحضان الراحة لا من بين قيود الإعياء .

٦٣

الشعبة

من الجذع تنمو الاغصان ، ومن الاغصان تتفرع شعبها . كذلك فصول الكتاب تنمو وتتشعب في الموضوعات الحفيلة .

وتستحق «الشعبة» التي ألمعت اليها في الفصل السابق تنويهاً . فهي قناة منشعبة من رأسها ، ذات شكل فريد ، طولها نحو قدمين ، تغرز قائمة في الحافة اليمنى من القارب قريباً من الصدر لكي تتخذ مستنداً للطرف الخشبي من الرمح ، اما طرفه الآخر المشحوذ العاري فانه ينتأ في انحدار من مقدم القارب . وبهذا الوضع يكون الرمح في متناول الرمّاح الذي يقذفه ، فينتزعه من مستقره حين يحتاجه كما يتناول الصياد بندقيته عن الحائط ، وقد جرت العادة ان يركز في الشعبة رمحان يدعيان الشفرة الاولى والشفرة الثانية ولاءً .

ولكل واحد من هذين الرمحين خيط يصله بحبل التحويت ، والغرض من ذلك قذف الاثنين ـ ان أمكن ـ في جسم الحوت ، دون تمهل بين الضربتين حتى اذا سحبا فقد يطاوع احدهما ويستعصي الآخر . ذلك نوع من مضاعفة الفرص . ولكن بما ان الحوت يجري جرياً خاطفاً عنيفاً مضطرباً حين يتلقى الشفرة الاولى يغدو من المستحيل على الزرّاق في الغالب ان يغرس الشفرة الثانية فيه ، ولو كانت حركاته خاطفة كالبرق . ومع ذلك : فان الشفرة الثانية لما كانت موصولة بالحبل ، والحبل ينساب ، كان لابد لها في جميع الاحوال من ان تقذف خارج القارب على نحو ما ، صوب شيء ما ، والا أصبحت جميع الايدي عرضة لأشد خطر . وفي مثل هذه الاحوال تلقى في الماء . ومما يضمن تحقيق هذا الأمر على وجه سليم وجود اللفائف الاحتياطية حول الصندوق (وقد ذكرتها في فصل سابق) . ولكن ما كلّ مرّة تسلم الجرة . فقد يجيء هذا التدبير الدقيق مصحوباً بكل عارض مؤسف مميت .

ثم اعلمْ ان الشفرة الثانية حين تقذف خارج القارب تصبح من ثمَّ رعباً متدلياً مرهف

الحدّ ، وتتوثب متقلبة هنا وهناك حول القارب والحوت فتشوّش الحبال او تقطعها وتثير هياجاً هائلاً حيثما اتجهت . وليس في الامكان ضبطها إلا حتى يقتل الحوت ويصبح جثة هامدة .

تأمل اذن كيف تكون الحال حين تنازل القوارب الاربعة حوتاً فذاً في قوته ونشاطه ودرايته ، حين تتدلى من حوله ثماني او عشر شفرات ثانية ، في وقت معاً ، لانه يحوز تلك الصفات ولان آلافاً من الملمات قد تعرض في تلك الوقعة الباسلة . ذلك ان كل قارب مزود حقاً بعدد كثير من المزاريق تربط الى الحبل ان طاش الاول ولم يمكن استرداده . لقد راعيت وجه الامانة فيما اوردته من أمر هذه الدقائق لانها تعين على ان تجلو كثيراً من الفقرات الهامة مهما تبلغ دقتها ، في مشاهد أنوي رسمها فيما يلي من فصول .

٦٤

عشاء اسطب

ذلك الحوت الذي صاده اسطب تمَّ قتله بعيداً بعض الشيء عن السفينة . وكان الجو في هدأة ، فجعلنا من القوارب الثلاثة قواطر مردفة ، وأخذنا نسحب « حصيلة فوزنا » الى الباقوطة . كنا ثمانية عشر رجلاً ذوي ست وثلاثين ذراعاً ، ومائة وثمانين إصبعاً ، نجهد ساعة اثر ساعة في جرّ تلك الجثة الهامدة المترهلة ، وكأنها تكاد لا تتزحزح أبداً الا بعد فترات طويلة . ذلك شاهد قويّ على جسامة تلك الكتلة التي كنا نجرها . ذلك لان أربعة عمال او خمسة على قنال هانج ـ هو العظيمة ـ أو أياً كان اسمها[1] ـ في الصين يستطيعون وهم على مسرب المشاة ان يجرّوا ينكاً مشحوناً مدى ميل كل ساعة ، أما تلك « البارجة » التي كنا نجرها فقد كانت تدلف ببطء كأنها معبأة كلها بالرصاص الخام .

حل الظلام ، غير ان ثلاثة أضواء مثبتة في مواضع مختلفة من الاشرعة الرئيسية في الباقوطة أرشدتنا رغم خفوتها اي طريق نسلكه ؛ حتى اذا اقتربنا منها رأينا آخاب قد أنزل واحداً من القناديل العديدة على هيكل السفينة ، وحدج الحوت المسحوب لحظة بنظرة خاوية ، وأصدر أوامره المعتادة التي تقضي بالمحافظة عليه ليلاً ، وسلّم القنديل لاحد البحارة ثم مضى الى قمرته ولم يغادرها حتى الصباح .

لقد أبدى آخاب أثناء الاشراف على مطاردة الحوت حيويته المعهودة ـ ان صحّ ان اسميها كذلك ، فلما أصبح ذلك المخلوق جثة ميتة ، بدا وكأن استياءً غامضاً او جزعاً او يأساً قد أخذ يعمل في نفسه ، حتى كأنما كان منظر تلك الجثة يذكره بأن موبي ديك لم يقع بعد ، وأنه لو جرّ الى سفينته ألف حوت آخر فلن يخدم ذلك غايته الكبرى المجنونة قطميراً . ولو

(١) تسمى القنال العظمى او شا ـ هو أو ين ـ هو في ولاية شانتونج .

أنك سمعت الصوت على ظهر الباقوطة لقلت في الحال ان الايدي كانت تتهيأ لالقاء المرساة في الاعماق اذ كانت السلاسل الثقيلة تسحب على ظهر السفينة ، وتدفع فتجلجل وهي تنفذ من المجازات في الجوانب . غير ان هذه الحلقات المجلجلة انما كانت لارساء الجثة الجسيمة نفسها لا لارساء السفينة ؛ وقد ربط رأس الحوت الى مؤخرة السفينة ، وذنبه الى مقدمتها فاضطجع هيكله الأسود الى جانب هيكل السفينة ، فلو رأيته خلال ظلام الليل الذي كان يحجب الصواري والاشرعة والحبال لحسبت الاثنين : الحوت والسفينة وكأنما ربطا معاً تحت نير واحد ثورين هائلين ، بينا اضطجع أحدهما وظل الآخر قائماً* .

ولئن كان آخاب ذو المزاج المتقلب قد غدا هادئاً صامتاً ـ او على الاقل ذلك هو مبلغ ما تأدى الينا من حاله ونحن على ظهر السفينة ـ ، فان الضابط الثاني اسطب زهاه النصر فأبدى من الزعل الحيوي ما لم يعهد منه ، وان ظلَّ زعله جميلاً طيباً . فقد تملكه انهماك غير معهود حتى ان رئيسه استاربك الهادئ الرصين وكل اليه حينئذٍ أمر التفرد بالاشراف على شؤون الحوت . وسرعان ما استبان سبب صغير كان يستثير كل تلك الحيوية لدى اسطب . كان هذا الرجل ذا تفرّد في مطعمه شديد القرم الى لحم الحوت يتلذذ به ويستمرئه طعاماً .

«شريحةً ، شريحةً ، قبل أن أنام . دغة ، اذهب واقتطع لى قطعة من العصعص» .

وليعلم ان هؤلاء الصيادين البواسل ، حسبما تقضي القاعدة الحربية العظمى ، لا يجعلون العدو يقوم بالنفقات الجارية التي تتطلبها الحرب (على الاقل قبل ان يتحققوا من تباشير الرحلة) الا انك مع ذلك تجد بعض هؤلاء النانتوكتيين بين الحين والحين ـ يستطيبون ذلك الجزء الذي يؤثره اسطب من لحم حوت العنبر بحيث يشمل ايضاً جميع الطرف المستدق من عجب الذنب .

قطعت تلك الشريحة حوالي منتصف الليل وأعدت ، ووقف اسطب راسخاً تحت ضوء قنديلين مزودين بزيت حوت العنبر يتناول عشاءه العنبري عند رأس المسحاب كأن ذلك

---

* قد أورد هنا نبذة يسيرة فأقول : حين يرسى الحوت الى جانب السفينة فان أقوى مقبض تمسكه منه السفينة وأوثقه انما يقع في الجنبين او الذنب ، وبما ان هذا الجزء منه اكثف من سواه فانه يكون اثقل ايضاً (الا اذا استثنيت الزعانف الجانبية) ولذلك فان مرونته حتى في حال الموت تجعله يغطس كثيراً تحت مستوى السطح حتى ان المرء لا يستطيع ان يبلغه بيده من القارب ليضع السلسلة حوله . غير أنهم يتغلبون على هذه العقبة بلباقة وحنكة اذ يعدون حبلاً صغيراً قوياً وله في طرفه البعيد عوامة خشبية وثقل في الوسط بينا الطرف القريب مربوط الى السفينة . وحسب تدبير حاذق تجعل العوامة الخشبية بحيث ترتفع على الجانب الآخر من الكتلة بحيث أنها حين تطوق الحوت ، تشفع بها السلسلة ، فاذا انزلقت على طول الجسم ربطت ربطاً محكماً حول الجزء الادق من الذنب اي عند نقطة التقائه بالجانبين او الشطرين العريضين فيه .

المسحاب مائدة طعام . ولم يكن اسطب وحده هو الآدب الوحيد الذي يحتفل بأكل لحم الحوت تلك الليلة ، فقد تجمعت حول جثة اللوياثان آلاف على آلاف من أسماك القرش تمزج تمتماتها بأصوات المضغ المنبعثة من بين فكي اسطب ، وتقيم وليمتها الدسمة فوق ترارته وسمنته . وكثيراً ما كان القلة النائمون في «شقادفهم» يستيقظون فزعين حين تلطم بأذنابها هيكل السفينة لطمات حادة على بعد بضع بوصات من قلوب أولئك النوّام . واذا انت حملقت من فوق الحافة رأيتها (مثلما من قبل سمعتها) تتمرغ في الامواه المعتمة المتبلدة ، ثم تنكفىء على ظهورها حين تمزع قطعاً كروية ضخمة من الحوت تبلغ الواحدة في حجمها قدر رأس الانسان . ويبدو هذا العمل الفذ الذي تقوم به القرشان معجزاً . كيف يتأتى لها ، فوق مثل هذا السطح الذي يبدو في الظاهر ممتنعاً على الهجوم ، ان تقوّر هذه اللقم المتساوية في حجومها ؟ ذلك أمر يظل جزءاً من مشكلة كلية كبرى بين المشكلات . أما الاثر الذي تتركه في جسم الحوت فيمكن ان يشبّه بالتجويف الذي يحدثه النجار وهو يدوّر ثقباً يثبت فيه «البرغي» .

وسط جميع الرعب الصارخ والشيطانية الهائجة في معركة بحرية ترى القرشان تحدق بشغف نحو ظهر السفينة كأنها كلاب جائعة حول مائدة يعرق عليها اللحم الاحمر عن العظم ، وهي على أهبة ان تنقض على أي رجل قتيل يرمى لها . وبينا الجزارون البواسل فوق المائدة الكبرى ـ اعني السفينة ـ في نهم المستلحم القرم يسعى احدهم ليتخذ من لحم أخيه الحيّ جزراً يعرقه بسكين حادة مذهبة مزخرفة ، تكون القرشان ذات الافواه المنصّلة بالجوهر تحت المائدة ، تتعارك متنازعة على الجثة الملقاة . واذا قلبت الوضع كله رأساً على عقب ، فان الحال لا تتغير ، أعني ان ما فوق المائدة وما تحتها عمل قرشاني مروّع يرتكبه الفريقان . وحيتان القرش ايضاً هي الرفقة الدائمة لكل سفن الرقيق التي تجتاز الاطلسي ، لا تنفك تخب الى جانب السفن ، لتكون في الخدمة اذا كانت هناك صرة يراد نقلها الى اي مكان او عبد ميت يراد دفنه دفناً لائقاً . وقد أستطيع ان أورد هنا مثلاً او مثلين من هذا القبيل يتناولان الشروط المقررة والاماكن والمناسبات التي يجتمع فيها شمل حيتان القرش وتولم ولائمها البهيجة ؛ ومع ذلك كله الذي قلته في حيتان القرش فان المرء لا يتصور زماناً او مناسبة تكون فيها في أعداد لا تحصر وعلى اشد ما تكون مرحاً في أمزجتها وسروراً ، مثل تجمهرها حول حوت عنبر قتيل قد رفىء ليلاً الى حواتة في البحر . فاذا لم ترَ ذلك المنظر ابداً فاحبس عليك رأيك الذي اتخذته حول صلاحية عبادة الشيطان ، وكفَّ عن أمنياتك لاستمالته واسترضائه .

ولكن اسطب ، مع ذلك ، لم يتنبه الى تمتمات الحفل الذي كان قائماً دونه مثلما ان اسماك القرش لم تبالِ بالتمطق الذي كانت ترسله شفتاه الشهويتان .

«طباخ يا طباخ! ـ أين هو فليس العجوز ؟ » ـ صاح اسطب بعد فترة وقد زاد المسافة مابين رجليه تباعداً كأنما يحاول ان يجعل لعشائه قاعدة مأمونة ، وفي الوقت نفسه غرز شوكته في الصحن كأنه يطعن بحربته ، وصاح : «طباخ يا طباخ! ـ أبحر الينا ، يا طباخ! »

لم يكن الاسود العجوز في حال ابتهاج اذ كان من قبل قد أزعج من سريره الدافىء في غير إبّان الدعاء الملائم ، فعاد يقزل من سطح السفين ، اذ كان شأنه شأن كثير من السود الهرمين قد أصابه شيء في «ماعوني» ركبتيه لانه لم يكن يعتني بنظافتهما عنايته بغيرهما من المواعين . جاء هذا العجوز فليس ـ كما كانوا يسمونه ـ يتثاقل ظالعاً مؤيداً خطوته بملقطه ، وكان مصنوعاً من طوق حديدي مطرّق ، صناعة جاسية . ذلك الآبنوسي العتيق أتى يغالب الاعياء فلما امتثل الأمر وقف وقفة متيبسة مقابل مائدة اسطب ، وحنى ظهره المقوّس دانياً ، وقد شبك يديه قدّامه وأراح جسمه فوق الملقط المشعوب ، ومال برأسه في الوقت نفسه ناحية لعله يسمع ما يقال بأذنه السليمة .

فقال اسطب وهو يرفع بسرعة لقمة محمّرة الى فمه : «طباخ ، ألا تعتقد ان هذه الشرائح المشوية قد بولغ في انضاجها ؟ لقد أيبستها كثيراً بالتقليب يا طباخ انها شديدة الرقة . ألم تسمعني أقول دائماً ان الشرائح المشوية من لحم الحوت لابد ان تكون سميكة كي يحسن شواؤها . هذه أسماك القرش هناك عند جانب السفينة ألا ترى أنها تفضل ان تكون الشرائح سميكة نيئة ؟ اي ضجة ترسلها الينا! اذهب وتحدث اليها ايها الطباخ . قل لها اننا نرحب بضيافتها اذا هي كانت مهذبة معتدلة ولكن عليها ان تظل هادئة . هبلتني أمي ان كنت أستطيع ان أسمع صوتي بعين ضجيجها . اذهب اليها يا طباخ وبلغها رسالتي . هاك القنديل» . ـ وناوله قنديلاً كان على مائدته ـ «اذهب وألقِ عليها موعظة منك» .

تناول فليس العجوز ذلك القنديل الممدود اليه متبرماً ، وذهب يظلع عبر ظهر السفينة نحو حافتها ، ثم مدّ احدى يديه بالقنديل ودلاّه فوق الماء ليضوىء له المنظر فيستبين جمهوره ، ومدّ يده الاخرى بالملقط وجعل يلوحه في رزانة وجدّ ، وانحنى انحناءة طويلة فوق جانب السفينة ، وبدأ يخاطب أسماك القرش متمتماً بينا كان اسطب ، وقد تسلل من ورائه ، يسمع كلّ مايقول :

«اكواني المكلوقات : انا مأمور ان أقول إنه توقفوا ديك الدوشة الملنون هناك . سمنتوا ؟ اوقفوا ديك طق طق الملنون من الشفتين . سي اسطب يقول انكوا تقدروا تملأوا

كروش ملنونة بتاء كوا حتى فم الكروش . لكن وربّينا لازم توقفوا ديك الدوشة الملنون » .

فقاطعه اسطب وهو يشفع خطابه بخبطة مفاجئة على كتفه : « طباخ يا طباخ! أعمى الله عينيك ، لا تشتم وأنت تلقي موعظة . ليست هذه طريقة صالحة لترد المذنبين الى التوبة والندم ، ايها الطباخ » .

فاستدار الطباخ متبرماً يهم بالذهاب وقال : « من دا ؟ مادام كده ، انت تقول وأظة بنفسك » .

ـ « لا يا طباخ ، بل امضِ انت في وعظك ، امضِ » .

ـ « جميل . ايتها المكلوقات ، الإكوان المهبوبين... » .

فصاح اسطب مستحسناً : « أحسنت! تملقها بمثل هذا ، جرّب هذه الطريقة » فمضى فليس يكلمها :

« انتو هيوانات قرش وهو بطبنه شره كتير ، لكن بردة أقول لكم يا إكواني انه الشره داك ـ امنأوا اللطم بالدنب! كيف ممكن تسمأوا ان كان بقيتوا مستمرين في اللطم والأض الملنون هناك ؟ »

فصاح اسطب وهو يشدّ على رقبته : « أيها الطباخ لا أحب ان أسمع تلك الشتائم . تحدث اليها حسب الاصول » .

واستأنف الموعظة مرة أخرى : « ان الشره بتاء كم يا إكواني لا ألومكم كتير من أجله . دا طبينة ، والواهد منا أسير الطبينة ، لكن لازم هو يتهكم في داك الطبأ الشرير . دا هي المسألة . انتو هيوانات قرش ـ مؤكد ؛ لكن اذا انتو تهكمتو في القرش اللي فيكو بقيتو ملايكة ، لان الملاك هو قرش تهكمه الارادة القوية . إكواني : هاولوا انكم تكونوا مهذبين وانتو بتاكلوا من الهوت داك . أقول : لا تمزقوا الشهم من فم جاركو . مش كل قرش له هتق متل القرش التاني في الهوت ؟ لكن و الله ما واهد فيكم له هق في الهوت . داك الهوت من هق زول غيركو . أنا آرف انه في منكو ناس الكشم بتاوهم كبير ، اكبر من الكشم بتاء تانيين لكن اهياناً اللي كشمه كبير بكون كرشه زغير . وهذا مأناه انو كبر الكشم مش أشان انه الواهد يبلأ لقمه كبير ، لكن أشان يقطأ شهم ويطأم القرس الزغير اللي ما يقدر يزاهم السمكات الكبار » .

فقال اسطب : « أحسنت يا فليس ، تلك روح مسيحية . امضِ في وعظك » .

ـ « مفيش فايدة . أولاد كلب ملنونين راه يبقوا يتزاحموا ويتلاطموا ياسي اسطب . ما بيسمنوا ولا كلمة واهدة . مافي فايدة من الوأظ للهيوانات السفاهين دول ـ زي انت ما

سميتوهم ـ هتى كروشهم تبقى مليانة ، لكن كروشهم ماليها هدود ، بدون قرار . لكن اذا ملوهم كمان مافيهم يسمنوا نصيهة ، لأنهم بيروهو يغطسوا في المويه وبينوموا فوق المرجان نوم شديد وما بيسمنوا اي شي أبداً أبداً » .

ـ « لعمري انني لأكاد أكون من رأيك في هذه المسألة . لذلك أختم انت بنثر البركات يا فليس ثم أذهب انا لتناول العشاء » .

ولما سمع فليس هذا شبك يديه أمامه فوق رؤوس جمهوره السمكي ورفع صوته الأجش صائحاً :

ـ « إكواني الملنونين . انملوا دوشة ملنونة كتير قد ما انتو تريدوا . ملوا كروشكم الملنونة هتى تنفجر ثم تموتوا » .

فقال اسطب وهو يستأنف عشاءه عند المسحاب : « والآن ايها الطباخ قف حيث كنت تقف قبلاً ، هنالك قبالتي وكن على انتباه » .

ـ « كلي انتباه » ـ ذلك ما قاله فليس وانحنى ثانية فوق ملقطه في وضع كالذي أمر به سيده .

وانطلقت يد اسطب في الطعام وهو يقول : « سأعود الى موضوع هذه الشرائح مرة أخرى . أولاً ، كم عمرك ، أيها الطباخ ؟ »

فقال الاسود العجوز في برم : « شنو دخل الأمر في مسألة الشَّرايِهْ ؟ »

ـ « اخرس! كم عمرك ؟ »

فتمتم مكتئباً : « تسنين تقريباً ـ كدا بيقولوا » .

ـ « أعمرت هذا العمر كله حتى ناهزت المائة ، أيها الطباخ ، ثم لا تعرف كيف تشوي شرائح حوت ؟ » ثم ملأ فمه بلقمة أخرى بعد ان لفظ آخر كلمة ، حتى كانت اللقمة كأنها تكملة للسؤال . « أين ولدت يا طباخ ؟ »

ـ « وراء باب الأنبر في مندية تنوم في روانوك » .

ـ « ولدت في معدية ؟ هذا غريب ايضاً . أريد ان أعرف اي بلد ولدت فيه يا طباخ ؟ »

فصاح بحدة : « مش قلت لك في منطقة روانوك ؟ »

ـ « لا ، لم تقل ذلك ايها الطباخ . ولكني سأخبرك بما استخلصته يا طباخ . عليك ان تعود الى وطنك لتولد من جديد . انك لا تزال تجهل كيف تسوّي شرائح الحوت » .

فحرد واستدار ليذهب وهو يقول مبربراً : « آليَ لأنة ان سوّيت واهدة تانية » .

ـ « ارجع يا طباخ ـ هات الملقط ، خذ هذه الشريحة وقل لي هل تظن أنها مسوّاة كما يجب ؟ خذها ، أقول » ـ ومدّ اليه بالملقط ـ « خذها وذقها » .

فوضع الزنجي العجوز قطعة اللحم بين شفتيه لحظة وتلمسها ثم تمتم :

« أهسن شريحة ذقتها في هياتي . طرية ، رخصة جداً » .

واعتدل اسطب متوازناً مرة أخرى وقال : « هل تنتمي الى الكنيسة يا طباخ ؟ » فقال العجوز متبرماً : « مريت بكنيسة مرة في كيب تاون » .

« اذن مررت مرة في حياتك بكنيسة مقدسة في كيب تاون ولا ريب أنك سمعت الراعي الصالح فيها يخاطب مستمعيه بقوله : اخواني المحبوبين أليس كذلك يا طباخ ؟ ومع ذلك فأنت تأتي هنا وتكذب عليَ هذه الكذبة الشنعاء ، أليس كذلك ؟ » وأردف قائلاً : « أين تراك تتوقع ان تذهب ؟ » .

فتمتم وقد استدار نصف دورة قائلاً : « اذهب الى السرير هالاً » .

ـ « قف! ـ ارسِ! ـ أعني حين تموت يا طباخ . سؤال رهيب فما جوابك عليه ؟ »

فقال الزنجي في بطء وقد غيّر هيأته وسحنته : « لما الأسود الأجوز دا بيموت هو نفسه ما داير يروه مكان لكن فيه واهد ملاك مبروك بيجي ياكده » .

ـ « يأخذه ؟ كيف ؟ في عجلة تجرها أربعة خيول كما أخذوا ايليا ؟ ويأخذونه الى أين ؟ » .

ـ « فوق » قال فليس ، ورفع ملقطه مستقيماً فوق رأسه ، وأبقاه هنالك في خشوع شديد .

ـ « كذا اذن تتوقع ان تذهب الى قمة الصاري الرئيس ، اكذاك هو يا طباخ حين تموت ؟ لكن ألا تعلم انك كلما أبعدت في الارتفاع زادت شدة البرد ـ قمة الصاري الرئيس ، أكذاك ؟ »

فقال فليس وقد عاد اليه تبرمه : « داك أنا ما قلته أبداً » .

ـ « قلت : فوق ، أليس كذلك ؟ والآن انظر انت نفسك الى اين يشير ملقطك . ولكن لعلك تتوقع ان تصل الى السماء زحفاً من خلال « الثقب الأعلى » يا طباخ . لا . لا يا طباخ لن تبلغ هناك الا بالطريق المستقيم اي ان تدور وتذهب من ناحية الاشرعة والحبال . عمل محفوف بالمجازفة ولكن لابد من ادائه والا فلا ذهاب . لكن لم يذهب أحد منا الى السماء بعد . أنزل ملقطك يا طباخ واستمع الى أوامري . أتسمع ؟ أمسك قبعتك باحدى يديك ، وضع الأخرى على قمة قلبك حين ألقي اليك أوامري يا طباخ . ماذا ؟ أهذا موضع قلبك هناك ؟ ـ ذلك هو حوصلتك . ارفع . الى أعلى ـ أي نعم ـ ها قد وجدته ؛ ضع يدك هنالك وانتبه » .

« كلي انتباه » ـ ذلك ما قاله الاسود العجوز وقد لبى ما أمره به سيده ، وهو يلوي رأسه الاشمط كأنه يريد ان يضع أذنيه الاثنتين أمامه معاً في آن واحد .

«أنت ترى أيها الطباخ ان هذه الشرائح التي صنعتها كانت غاية في الرداءة ، ولذلك غيبتها انا عن الانظار بأسرع ما أستطيع ، أنت ترى ذلك ، أليس كذلك ؟ لذا إذا سوّيت لي شرائح من لحم الحوت في المستقبل لتقدمها الى مائدتي هذه الخاصة ـ أعني المسحاب ـ فاني أخبرك ما يجب عليك ان تصنعه كي لا تزيد في إنضاجها . ارفع الشرائح في يد وضع فحمة حية في يدك الاخرى فاذا فعلت ذلك فاشوها . فهمت ؟ وغداً يا طباخ حين نأخذ في تقطيع الحوت كن على مقربة مني لكي أعطيك رؤوس زعانفه ، فتضعها في المخلل أما أطراف شطري الذنب فعليك ان تتبّلها ، يا طباخ . هذا كل ما هنالك . تستطيع ان تذهب» .

وما كاد فليس يبعد ثلاث خطوات حتى استدعاه اليه وقال : «أريد كستلاتة في عشائي غداً مساءً في النوبة الوسطى . سامع ؟ أبحر عني اذن . هالو! قف! انحنِ قبل ان تذهب . كف عن الحركة مرة أخرى . بيض الحوت لفطوري لا تنسَ» .

فتمتم الرجل العجوز وهو يظلع مدبراً : «والله كنت أهب ان الهوت ياكله بدل هو ما ياكل الهوت . ملنون أنا ان لم يكن هو قرش اكثر من سيد القرشان كلها» ـ قال هذه القولة الحكيمة ومضى الى مضجعه .

٦٥

الحوت بين ألوان الطعام

قد يكون من المستغرب المستهجن ان يغتذي المرء بالحيوان الذي يغذي بشحمه قنديله ، وان يأكله - كما فعل اسطب - على ضوء شحمه المحترق ؛ ولما كان هذا الامرغريباً فلابد لي من ان أسهب في تبيان شيء من تاريخه ومن الفلسفة الكامنة وراءه .

في الروايات ان لسان الحوت الاثين كان يعد في فرنسا منذ ثلاثة قرون طرفةً لذيذة ، ويكلف طاعمه غالياً . وان طاهياً في بلاط هنري الثامن حصل على مكافأة لطيفة لانه ابتكر مرقاً شهياً يؤخذ مع البربوز المشوي ، وانتم تذكرون ان البربوز من فصيلة الحيتان . ولايزال حوت البربوز حتى اليوم يعد حقاً أكلة لذيذة اذ يكبّب لحمه في كرات بحجم كرات البليارد ، وتتبل وتمزج بالبهارات حتى ليحسبها من رآها كرات لحم السلحفاة او لحم العجل . وكان الرهبان القدامى في دنفرملاين مغرمين بها ، وكان الملك يمنحهم منحة كبيرة من اجل الحصول على البربوز .

والحق ان جميع صيادي الحوت - على الاقل - يعدون لحمه لوناً رفيعاً من الطعام لو لم يكن مبذولاً لهم بكثرة . ولكن المرء يفقد شهوته الى الاكل حين يجلس ازاء سنبوسكة من اللحم تكاد تبلغ مائة قدم طولاً . ولذلك لا يقبل على اكل لحم الحوت في ايامنا إلا من كان بعيداً عن التنوق المسرف مثل اسطب ؛ أما الأسكيمو فليسوا على حظ من التنوق ونحن جميعاً نعلم انهم يعيشون على أكل لحم الحيتان ، ولديهم غلة عتيقة نادرة من زيت القطارات المعتق الفاخر . ويصف زغرندا - وهو من اشهر اطبائهم - قطعاً من الشحم للاطفال لانها رخصة مغذية[١] . وهذا يذكرني ببعض الانجليز الذين اتفق ان خلفتهم حواتة في جزيرة

(١) هذه المعلومات عن الاسكيمو استمدها ملفل من اسكورسبي ، اما اسم الطبيب فلعله واحد من الاسماء التي وضعها للسخرية من اسكورسبي نفسه مثل « القبطان سليت »وغيره .

جرينلاند منذ عهد بعيد فقد عاش هؤلاء حقاً على كسر وفضلات مفرغة من حيتان ألقيت على الشاطئ بعد انتزاع الشحم ، وظلوا على ذلك اشهراً عديدة . وهذه الفضلات يسميها الهولنديون «الفراطر» ـ الفاكهة المقلية بالدهن ـ وهي حقاً تشبهها كثيراً لانها دهماء هشة ورائحتها كرائحة الجوز المعجون او الكعك الهش المبسوس بالدهن ، وهي طازجة لدى ربات البيوت بامستردام منذ عهد . ولها منظر مطمع بالأكل حتى ان اشد المتعيفين ممن لا يعرفونها يكادون لا يستطيعون ان يكفّوا ايديهم عنها .

ولكن مما يبخس حظ الحوت فيحرمه من ان يكون لوناً تثني عليه الحضارة هو ترارته وسمنته الفائقة . فهو في البحر كالثور الذي يسمّن لينال صاحبه الجائزة ، تحول شحومته دون الاستمتاع به . تأمل حردبته ، فلعلها كانت طيبة للأكل كحردبة الجاموس (وهي تعد لوناً نادر المثال) لو لم تكن هرماً شامخاً من الشحم . أما زيت الحوت نفسه فما أشد عذوبته وزبديته ، كأنه لب جوز الهند الابيض الشفاف الذي انعقد بعضه هلاماً في الشهر الثالث من عمره ، الا انه بالغ الدسم فلا يصلح بديلاً من الزبدة . ومع ذلك فان كثيراً من الحواتين لديهم طريقة من خلطه بمادة اخرى ثم الافادة منه . فالبحارة في نوبات الرقابة الطويلة ليلاً كثيراً ما يغمسون البسكويت في مراجل الزيت الضخمة ويقلونها فيه زمناً ؛ وكم من عشاء لذيذ صنعته لنفسي كذلك .

أما اذا كان حوت العنبر صغيراً فان مخه يعد لوناً لذيذاً من الطعام . اذ يكسر قحفه بفأس ، ويسقط شطرا المخ ، وتسحب الفلقتان اللتان يغلب عليهما البياض (وكأنهما صحنان كبيران من المهلبية) ثم يخلط بهما الدقيق ، وتسوّى منهما أشهى أكلة تشبه في طعمها طعم رؤوس العجول ، وهي لون محبب الى نفوس اهل اللذائذ البوهيميين ، وكلنا يعلم ان بعض الفتيان الفارهين من البوهيميين يكثرون من تناول مخ العجول وبذلك يصبح للواحد منهم تدريجاً مخه الصغير الخاص به ، فيمكنه حينئذٍ ان يميز بين رأس العجل ورأس نفسه ، وهو أمر يتطلب قدرة فائقة على التمييز دون ريب . وهذا هو السر في أنّ الفتى العبل الفاره الذي نال قسطاً من الذكاء يمثل ـ اذ يوضع رأس العجل قدامه ـ منظراً باعثاً على الحزن لا مثيل له . ذلك ان الرأس كأنما ينظر نحوه ويقول له بلسان الحال : «حتى انت يا بروتس!» .

وأبناء البرّ ينظرون الى أكل الحوت في تقزز ونفور ، ولعل هذا غير ناجم من ان الحوت كله دهني . وانما ينشأ فيما يبدو من اعتبار سبق ذكره وهو ان المرء يحب ان يأكل شيئاً من صيد البحر طازجاً وان يأكله على ضوءٍ مستمد منه . لكن لا ريب في ان اول رجل ذبح ثوراً عدّ قاتلاً ولعله شُنق ، واذا كان الذين حاكموه ثيراناً فمن المؤكد انهم حكموا عليه

بالموت شنقاً ، وهو يستأهل ذلك المصير دون ريب ان كان القاتل يستأهل الاعدام . اذهب الى سوق اللحم مساء السبت وانظر الحيوانات التي تمشي على رجلين تحدق في صفوف الحيوانات الميتة ذوات الارجل الاربع . أليس هذا المنظر ينتزع ضرساً من فك امرىء قرم الى أكل لحوم البشر ؟ أكلة لحوم البشر ؟ أي امرىء ليس كذلك ؟ لو ان امرءاً همجياً من فيجي ملّح مبشّراً نحيفاً وحفظه في بيته ليكون زاداً في مجاعة متوقعة ، لو ان هذا الهمجي الحريص فعل ذلك لكان فعله مقبولاً محتملاً يوم يقوم الناس للحساب اكثر من عملك انت ايها النهم العفج المتحضر المستنير ، انت يا من تطرح الاوز ارضاً وتولم على أكبادها المنتفخة حين تتناول : مكبباً من اكباد الاوز السمينة وقد طبق بالشحم والكمأة .

غير ان اسطب يأكل الحوت على ضوء زيته ؛ أليس كذلك ؟ فهو يضفي اهانة على الأذى ، أليس كذلك ؟ انظر الى مقبض مديتك يا عزيزي النهم المتحضر المستنير وأنت تأكل لحم البقر المحمر ، من أي شيء صنع ذلك المقبض ؟ - ألم يصنع من عظام شقيق الثور الذي تأكله ؟ وبأي شيء تخلل اسنانك بعد ان تلتهم إوزة سمينة ؟ بريشة من ذلك الطائر نفسه . وبأي قلم يخط سكرتير جماعة مكافحة الظلم والتعذيب الواقع على الاوز منشوراته الرسمية ؟ ان الجمعية لم تقرر استعمال قلم الصلب (استيليو) وحده دون سواه إلا منذ الشهر الماضي او الشهرين الماضيين .

٦٦

مذبحة بين أسماك القرش

حين يصاد حوت العنبر بعد العناء الطويل المضني ، في رحلة صيد بالبحار الجنوبية ، فانه يجنب الى السفينة في ساعة متأخرة من الليل ، واذن فليس في المعتاد - بعامة - ان يبدأ البحارة بتقطيعه وتجزئته . لان هذا عمل شاق لا يتم في سرعة ويتطلب تعاون الايدي جميعاً . ولذلك جرت العادة ان تطلق الاشرعة جميعاً وان تثبت الدفة متجهة نحو اليسار ، وأن يؤمر كل فرد بالتوجه الى مضجعه حتى ينبلج الصبح مع تحفظ واحد : هو أن تبقى حراسة المرساة مستمرة حتى يحين ذلك الوقت اي ان البحارة يظلون مثنى مثنى دورياً يصعدون الى ظهر السفينة ليروا ان كل شيء يجري على ما يرام .

ولكن هذه الخطة لا تفلح أحياناً وبخاصة على خط الصيد في المحيط الهادي ، لان جيوش القرش التي لا تحصى تجتمع حول الجثة المرفأة ، فلو تركت كذلك نحو ستّ ساعات مثلاً متمددة لما بقي حتى الصباح شيء سوى هيكلها . أما في اكثر الجهات الاخرى من المحيط نفسه حيث لا تتكاثر هذه الحيوانات الى هذا الحد فان وحشيتها العجيبة يمكن تجنبها والتقليل منها وذلك بالتهويب عليها بمجارف التحويت الحادة . وهو عمل قد لا ينتج عنه سوى اغرائها ببذل مزيد من النشاط ولكن الحال لم يكن كذلك في حال أسماك القرش التي احتشدت حول الباقوطة ، مع ان اي امرىء لم يتعود مثل هذه المناظر لو أشرف على جانبها تلك الليلة لأدركه الظن بأن البحر المحيط بها كله انما هو قطعة كبيرة من الجبن وان القرشان هي ديدان متولدة فيها .

ومع ذلك فان الهياج بين هذه القرشان لم يكن ضئيلاً حين تقدم اسطب الى حراسة المرسى بعد ان انتهى من عشائه ، وحين ظهر كويكوج وبحار من القائمين في المقدمة على ظهر السفينة ؛ ذلك ان هذين البحارين حالما أوقفا مراحل القطع من فوق جانب السفينة

ودليا ثلاثة قناديل حتى تلقي أشعة طويلة المدى على البحر العكر ، أخذا يزرقان مجارف التحويت الطويلة ويقتلان القرشان قتلاً ذريعاً متواصلاً* وذلك بأن يضربا الفولاذ الحادّ ضرباً نافذاً في جماجمها ، وهي الجزء الحيوي الوحيد منها فيما يبدو . ولكن في ذلك المضطرب المزبد الذي تتقلب فيه جيوش مختلطة متدافعة لم يستطع الراميان ان يصيبا الرمي دائماً . وهذا ما أوحى لهما بايحاءات جديدة عن مدى الوحشية البالغة في خصمهما اللدود . فقد كانت تنهس بمكر وخبث لا لتنزع أمعاء بعضها البعض فحسب وانما كانت كأنها توجه الضربات المرنة وتدور منحنية كأنها تريد ان تعض أمعاء نفسها ، حتى بدت تلك الاحشاء وكأنها ابتلعت مرة اثر مرة ، والفم الذي يبتلعها واحد لا يتغيّر ، ثم هو يفرغ ما ابتلع عن طريق الجرح المقابل المفتوح . ولم يقف الامر عند هذا ، بل ان معالجة جثثها وأشباحها لم تكن شيئاً مأموناً ، فقد كانت تعتلج في صميم مفاصلها وعظامها ، فيما يبدو ، قوة شاملة كبرى بعد ان تكون الحياة الجزئية قد بارحتها . فان واحداً من أسماك القرش بعد ان قتل ورفع الى ظهر السفينة لأجل أخذ جلده ، كاد ينتزع يد كويكوج حين حاول ان يطبق مغلق فكه القاتل .

فقال ذلك الهمجي وهو يرفع يده وينزلها متألماً : « كويكوج لا يهتم اي إله صنعه قرشاً سواء أكان رباً من فيجي او من نانتوكت . لكن الرب الذي صنع قرشاً لابد ان يكون آلة ملعونة » .

---

* مجرفة التحويت التي تستعمل للتحويش مصنوعة من اجود الفولاذ . حجمها حجم يدي رجل مبسوطتين . وشكلها العام يشبه المجرفة المستعملة في الجنائن الا ان جانبيها مسطحان ونهايتها العليا أضيق من السفلى . وتظل هذه الاداة على غاية من الحدة والمضاء فاذا استعملت عرضاً فانها تشحذ كموسى الحلاقة . اما مقبضها فانه عمود صلب يابس يغرس في نقرتها وطوله يتراوح بين عشرين وثلاثين قدماً .

٦٧

تقطيع شحم الحوت

ليلة الأحد ؛ وأية راحة أعقبتها! ان العلماء الأعلام الذين يعتّدون في الاحد بحكم الوظيفة هم الحواتون جميعاً . تحوّلت الباقوطة العاجية الى ما يشبه «السلخانة» وأصبح كل بحار فيها جزاراً ، ولو رأيتنا لحسبتنا نقدم عشرة آلاف ثور ذبيح الى آلهة البحار(١) .

أما اولاً فقد عالّينا مرفاعي الجزارة الضخمين وغيرهما من الاشياء الثقيلة ، أعني مجموعة من البكرات مطلية باللون الاخضر ، لايستطيع رجل واحد ان يرفعها ـ عالينا ذلك العنقود العنبي الضخم الى قمة الصاري الرئيس وربطناه ربطاً محكماً الى رأس الصاري القصير ، وهو أقوى نقطة فوق ظهر السفينة ؛ ثم أوصلنا نهاية الحبل الذي يشبه الماصر بعد ان ذهب متعرجاً خلال تلك المسارب الدقيقة المعقدة الى الدولاب الرافع ، وجعلنا المحالة الضخمة الدنيا في المرفاع تتأرجح فوق الحوت ، ووصلنا كلّوب التشحيم الضخم وهو يزن ما يقرب من مائة رطل بتلك الحالة الضخمة ، وتعلق كلّ من استاربك واسطب فوق درجتين متفاوتتين على جانب السفينة وقد حملا مجرفتيهما الطويلتين وأخذا يجوفان حفرة في جسم الحوت ليغرزا فيها الكلّوب عند أقرب نقطة من الزعانف الجانبية .

ولما انجزا ذلك حزّا حول الحفرة حزاً نصف دائري ، ثم أعلقا الكلّوب ، وأخذت عصبة البحارة تصدح أناشيدها الغريبة وهي تأخذ في الرفع يداً واحدة عند الدولاب الرافع . وسرعان ما مالت السفينة كلها على جنبها وأخذ كل دسار فيها ينتأ كأنه مِسَكَ المسمار في بيت قديم تعرض لجوّ صقيعي . فهي ترتجف وتتقضقض ، وتنوض رؤوس صواريها المفزّعة نحو السماء . وماتزال تميل نحو الحوت بينا كل خفقة لاهثة من الدولاب الرافع تجيب عليها الامواج بخفقة

---

(١) هذا فذ بين فصول القصة لانه لا يرمز لشيء وانما هو محض وصف ظاهري .

مسعفة . وأخيراً سمع صوت فرقعة سريعة مثيرة ، حينئذٍ تدحرجت السفينة الى أعلى والى الخلف في اندفاق صاخب مبتعدة عن الحوت وأخذ المرفاع المنتصر يعلو أمام الانظار وهو يسحب وراءه الطرف النصف الدائري لأول قديدة شحم نزعت وسلخت عن الحوت . وبما ان الشحم يغلف الحوت كما يغلف البرتقالة لحاؤها ، كذلك فانه يسلخ عن جسمه مثلما يقشر لحاء البرتقالة عنها على نحو حلزوني . لان قوّة الشدّ التي يمارسها الدولاب الرافع باستمرار تجعل الحوت يتقلب في الماء فينسلخ عنه الشحم بذلك على طول الحزّ الذي يسمونه « الوشاح » وهو الذي يحزّه في الوقت نفسه الضابطان استاربك واسطب بمجرفتيهما . وبنفس السرعة التي يتم بها السلخ ، وبالسلخ نفسه ، يظلّ الحوت طوال الوقت يرفع ويرفع الى اعلى حتى يلامس طرفه العلوي قمة الصاري الرئيس ، وعندئذ يتوقف الرجال عند الدولاب الرافع عن السحب ، وتظل الكتلة الضخمة التي تقطر الدم مدة دقيقة او دقيقتين تتأرجح جيئة وذهاباً كأنها مدلاّة من الفضاء ، وعلى كل امرىء حاضر ذلك المشهد ان يحرص على ان يتفادى تأرجحها والا صكت صدغه وقذفت به رأسياً من فوق ظهر السفينة .

وعندئذ يتقدم احد الزرّاقين الحاضرين ثمة بسلاح طويل حادّ يسمى « سيف التخزين » ، وينتهز الفرصة المواتية فيحدث برشاقة تجويفاً ذا سعة في الجزء السفلي من الكتلة المتأرجحة ، ثم يدخل في هذا التجويف طرف المرفاع الثاني البديل ويعلقه به بحيث يستبقي الشحم استعداداً لما سيلي ، وعلى الاثر يحذر هذا السيّافُ جميع الرجال بأن يبعدوا ، ثم يندفع اندفاعة محكمة نحو الكتلة ويضربها بضع ضربات جانبية مستيئسة نافذة ، فيقطعها نصفين ؛ وبينا الجزء السفلي القصير مايزال مثبتاً فان القطعة العليا الطويلة وتسمى « قطعة البطانية » تتأرجح حرة على أهبة استنزالها ، فيستأنف الرافعون في الامام اناشيدهم ، وبينا يمضي احد المرفاعين في سلخ قطعة ثانية من الحوت ورفعها ، يرتخي المرفاع الثاني ببطء ، وتسقط القديدة الأولى من باب العنبر الكبير الى فضاء خالٍ لا أثاث فيه يدعى غرفة الشحم ، وتظل الايدي العديدة الرشيقة في غبش تلك الغرفة تطوي « قطعة البطانية » هذه كأنها كتلةٌ حيةٌ من الحيات المتلوية . هكذا يمضي العمل : المرفاعان يرتفعان ويهبطان بالتناوب ، والحوت والدولاب الرافع كلاهما يتحركان صاعدين ، والساحبون ينشدون ، والرجال في غرفة الشحم يطوون ، والضباط يحززون وشاحاً ، والسفينة تتوتر مشدودة ، وكل البحارة يشتمون بين الحين والحين كأنهم يخففون بلزوجة شتائمهم مقدار الاحتكاك العام .

٦٨

البطانية

ليس قليلاً هو ذلك الاهتمام الذي تناولت به مسألة جلد الحوت ، وهي مسألة كانت محط جدل ، فقد جادلت في شأنها حواتين من ذوي الدربة ونحن في البحر ، وناظرت حولها علماء طبيعيين مرموقين ونحن على البر ، وظلّ رأيي الاصيل فيها ثابتاً لم يتبدل ، الا انه رأيٌ وحسب .

ما هو جلد الحوت وأين هو ؟ تلك هي المسألة ؛ فقدم تقدم الحديث عن شحمه وبذلك أصبحت ماهيته معروفة ؛ ذلك الشحم يشبه ان يكون لحم بقر متين وثيق الالياف ، إلا أنه أصلب من لحم البقر واشدّ مرونة واكتنازاً ، ويتراوح سمكه بين ثماني او عشر بوصات الى اثنتي عشرة او خمس عشرة بوصة .

قد يبدو من المحال لاول وهلة ان يتحدث المرء عن جلد حيوان ما ، ثم يقول فيه انه بمثل هذا التركيب وذلك السُمك ، ولكن هذا في الواقع ليس حجة ناقضة تنفي كونه جلداً ، ذلك ان طبقة الشحم اذا نزعت عن الحوت لم تبق هناك أي طبقة كثيفة اخرى تلفّه ويمكن نزعها عن جسده ، واذا كان الحيوان ملفوفاً بطبقة خارجية ـ مهما تكن كثافتها ـ فأي شيء تسمى هذه الطبقة ان لم تسمَّ جلداً ؟ نعم انك لتستطيع ان تكشط بيدك عن جثة الحوت السليمة التي لم يصبها تشويه مادة غاية في الرقة والشفافية ، تشبه من نحو ما أسخف مزقة من غراء السمك ، إلا انها تكاد تشبه في نعومتها ومرونتها «الساتان» ـ اعني قبل ان تجف ـ فاذا جفت صلبت وأصبحت هشة فضلاً عن انها تنكمش ويشتد سمكها ، ولدي عدد كثير من هذه الجذاذات الجافة أستخدمها فواصل في كتبي التي تتناول الحيتان . وهي شفافة كما قلت قبلاً ، فكنت اذا وضعتها على الصفحة المطبوعة ، أمتع نفسي اذ أتوهم انها ذات قدرة على التكبير . على أي حال ، من اللاذّ ان يطالع المرء ما كتب عن الحيتان بنظارات حوتية ،

ان صحّ التعبير . لكن ما أرمي اليه في هذا المقام هو ان هذه المادة الغروية السخيفة التي أقرّ انها تتلبس جسم الحوت كله لا تصلح ان تعدّ جلداً له ، وانما قد نعدها جلد الجلد ، ان جاز ان اقول ذلك ، اذ من المضحك ان يقال ان جلد هذا الحيوان الهائل أو هي وأرق من بشرة طفل حديث الولادة . وحسبنا هذا .

فاذا سلمنا ان هذا الشحم هو جلد الحوت ، واذا كان هذا الجلد في حال حوت عنبر ضخم ينتج من الزيت ما يملأ مائة برميل ، واذا اعتبرنا ان هذه الكمية او وزن ذلك الزيت الذي ذكرناه لم يؤخذ إلا من ثلاثة أرباع الجلد كله ، عندئذ نستطيع ان نكوّن لنا فكرة عن ضخامة تلك الكتلة الحية ، التي يمنحنا محض جزء من إهابها مثل هذه البحيرة من الزيت . فاذا قدرنا ان كل عشرة براميل تساوي طناً واحداً كان لدينا عشرة أطنان صافية تؤخذ من ثلاثة ارباع المادة التي منها يتكون الجلد كله .

والسطح الظاهر من حوت العبر لا يعد بين العجائب أقلّها ، ـ على كثرة ما لديه من عجائب ـ ؛ فيكاد هذا السطح كله ان يكون معلماً بعلامات مستقيمة لا تحصى تذهب في جُدُدٍ عريضة ، وتنحرف فتتقاطع وتتقاطع متشاجرة ، كأنها أجمل خطوط النقش الايطالية . إلا ان هذه العلامات لا تبدو وكأنها طبعت على القشرة الغروية التي ذكرتها آنفاً وانما تبدو وكأنها ترى من خلالها أي كأنها منقوشة على الجسم نفسه . وليس هذا فحسب بل ان العين التي تبصر الامور بسرعة خاطفة قد لا ترى في هذه العلامات المخططة سوى مرسم صالح لتنطبع عليه صور أخرى ، كما هي الحال في فنون النقش الواقعي . تلك رموز هيروغليفية اعني انك ان دعوت تلك النقوش العجيبة على جدران الاهرام خطوطاً هيروغليفية ، فهذه هي الكلمة التي تصلح ان تستعمل في هذا الصدد ايضاً . لقد علقت بذاكرتي الواعية صورة هذه النقوش الهيروغليفية على احد حيتان العنبر ، ولشدّ ما أثر فيّ ولفت انتباهي صحن يمثل الشخوص الهندية القديمة التي نقشت على الحسانك الهيروغليفية المشهورة على ضفاف المسسبي الاعلى . وما من احد استطاع ان يفك طلاسم تلك الصخور وكذلك حال هذه العلامات الغريبة على الحوت فانها ظلت مغلقة لا تجد من يحلّ معمّاها . وهذه الاشارة الى الصخور الهندية تذكرني بشيء آخر . فالسطح الظاهري من حوت العنبر يمثل للعين عدة ظواهر منها : ان ظهره ، وبخاصة حوافي الظهر ، تبدو في كثير من الاحيان وقد طمس ما عليها من جدد وخطوط منتظمة او طمس معظمها ، وذلك من أثر الكدمات العديدة العنيفة ، فيجيء منظرها شاذاً نادر المثال . وأقول ان تلك الصخور الساحلية في نيوانجلند تلك التي تصَوَّرَ أجاسيز انها تحمل علامات من الكشط العنيف بسبب احتكاكها بجبال عائمة من

الجليد ، أقول : ان هذه الصخور غير ضعيفة الشبه بحوت العنبر في هذا المضمار . ويبدو لي ايضاً ان مثل هذه الكدمات في الحوت ربما كانت بسبب احتكاكه بحيتان اخرى معادية ، لاني وجدتها اكثر شيء ظهوراً في الحيتان الضخمة القارحة لا في صغار الحيتان .

لابد من كلمة او اثنتين حول مسألة جلد الحوت او شحمه . لقد قدمت القول بأنه ينزع عنه في قدائد طويلة تسمى الواحدة «قطعة البطانية» . وهذه تسمية موفقة جيدة الدلالة مثل معظم المصطلحات البحرية ، اذ ان الحوت ملفوف حقاً بشحمه كما لو أنه ملفوف ببطانية حقيقية او عباءة . او قل : انه قد لبس على رأسه وشاحاً هندياً وأرسله حتى غطى سائر جسده ، وبسبب هذه الشملة المريحة التي غطت جسمه استطاع ان يظل مرتاح البال في كل الاجواء والبحار والازمنة والتيارات . ماذا كان يحصل لحوت جرينلاند في بحار الشمال الجليدية الزمهريرية لو لم يكن له تلك العباءة النافعة ؟ نعم ان اسماكاً أخرى تكون بالغة الحيوية والرشاقة في مياه الشمال الاقصى ، ولكن علينا ان نذكر بأنها أسماك باردة الدم لا رئات لها ، تتخذ من معدها أدوات تبريد ؛ هي مخلوقات تدفىء نفسها في ظل جبل من جبال الجليد مثلما يجلس الرحالة في الشتاء ليصطلي أمام موقد في فندق . أما الحوت فانه كالانسان ذو رئتين ودم حار ، فلو جمد دمه لمات . ما أعجب ان يألف هذا الحيوان الكبير الذي لا غنى له كالانسان عن دفء الجسد ، ما أعجب ان يألف المياه القطبية ويظل فيها مغموساً حتى مشفريه . مع ان البحارة اذا سقطوا عن ظهور سفنهم وجدوا احياناً بعد أشهر وقد تجمدوا قائمين في صميم حقول الجليد ، كأن احدهم ذبابة علقت في كتلة دبق . ولكن اذا عرف السبب زال العجب ؛ على ان الأعجب من ذلك هو ان نعلم ـ حسبما شهدت به التجربة ـ ان دم الحوت القطبي اكثر حرارة من دم زنجي بورنوي في إبان القيظ .

يبدو لي أننا في هذا نرى فضيلة الحيوية المتفردة ، وفضيلة الجدران السميكة ، وفضيلة السعة الداخلية ، وكلها فضائل فذة نادرة . يا ابن آدم ، امتلىء اعجاباً بالحوت واجعله لك مثالا ، كن أنت أيضاً حار الدم وسط الجليد ، عش في هذا العالم وكأنك غريب عنه . على خط الاستواء ابق مبترداً ناعماً ، وفي القطب احفظ دماءك سيالة في عروقك غير متجمدة ؛ احتفظ أيها الانسان في جميع الفصول بدرجة حرارية واحدة كأنك قبة كنيسة القديس بطرس العظمى او كأنك الحوت العظيم!

ما أسهل أن تلقي هذه النصيحة الجميلة وما أضأل الرجاء في الإفادة منها ؛ فما أقل المباني التي أثلتْ على مثال قبة القديس بطرس! وما أندر المخلوقات التي تشبه الحوت ضخامة واتساعاً!

٦٩

الجنازة

«جرّوا السلاسل! دعوا الجثة تتجه نحو الخلف»

لقد أنجز المرفاعان الكبيران مهمتهما ، وأخذ الجسد الابيض المسلوخ المقطوع الرأس يلتمع كأنه ضريح رخامي ؛ تغّير لونه الا أنه لم يفقد شيئاً في تقدير البصر من حجمه ، مايزال جبّار الجسامة يعوم ببطء مبتعداً نائياً ، وحيتان القرش الجائعة تشق الماء وترششه من حوله ، والطيور النائعة تحوّم تحويماتها الضارية المستلحمة فتكدر الهواء من فوقه ، وتندسّ مناقيرها في جنبه كأنها خناجر إهانة متوالية ، والشبح الضخم الابيض الذي احتز رأسه يعوم متنائياً متباعداً عن السفينة ، وكلما ابتعد عنها ذراعاً طولاً ، كانت حيتان القرش من حوله كأنها عشرات الاذرع المربعة ، والطيور كأنها عشرات الاذرع المكعبة تزيد من طنين الهلاك ، وظلّ هذا المنظر المخيف يلوح لأعين من في السفينة التي كانت كأنها ثابتة لا تجري ، مدى ساعات و ساعات ؛ وتحت سماء صافية لازوردية وادعة ، وعلى وجه البحر الساجي الوديع ، تلامسه النسمات الجذلى ، ظلت هذه الكتلة الضخمة من الموت تعوم حتى اختفت في أحضان المدى اللانهائي .

تلك جنازة محزنة ساخرة موغلة في ما تبعثه من أسى وسخر! نسور البحر في كآبة سوداء خاشعة ، وقرشان الجوّ في سلابها او ثيابها البقعاء كما يستدعي الحداد . لقلما هرعت لعون الحوت ـ فيما أخمن ـ وهو على قيد الحياة لو انه احتاج منها عوناً ، ولكنها جميعاً اندفعت تشهد في خشوع مأدبة جنازته ؛ يا للضراوة المفزعة فيك أيتها الارض ، حتى أقوى الحيتان لا ينجو منها سالماً .

وليست هذه هي النهاية . فما دامت حرمة الجسد قد انتهكت ، فان شبحاً منتقماً يبقى فوقه محلقاً يثير الفزع . فاذا رأته من بعيد بارجة منخوبة أو سفينة كاشفة واهمة ، وقد أبهم البعد رؤية الطيور المحتشدة ، وظلت الكتلة البيضاء ترى عائمة تحت الشمس ، والرشاش

الابيض يتعالى أزاءها ، عندئذٍ يفزع المسجل تواً الى سجل الرحلة ، فيقيد انه رأى ـ وما رأى سوى جثة الحوت المستسلمة ـ بأصابع مرتعشة : «شعاباً ، وصخوراً وموجات كباراً في تلك النواحي ـ حذارِ! » ولعل السفن على مدى سنوات بعد ذلك تظل تجانب ذلك الموقع ، فتقفز عنه مثلما تقفز الاغنام الغبية فوق الفراغ لان راعيها قفز أصلاً وهو يحمل عصا في يده . ذلك هو قانون السوابق ، ذلك هو استغلال التقاليد ، تلك هي قصة البقاء المتشبث العنيد الذي تتمسك به المعتقدات القديمة ، تلك التي لا جذور لها في الارض ، بل وليست سابحة في الفضاء! تلك هي السنن!

كذا اذن : جسم الحوت العظيم في حال الحياة : قد يكون مصدر رعب حقيقي لأعدائه ، وشبحه في حال الموت يصبح رعباً وهمياً لكونٍ كامل .

أأنت ممن يؤمنون بالاشباح يا صديقي ؟ في الكون أشباح أخرى سوى شبح كوك ـ لين ورجال أبعد فكراً من الدكتور جونسون يؤمنون بها[1] .

---

(١) حكى بوزول كيف ان جونسون غضب من اشاعة نسبت اليه أنه رأى شبحاً في كوك ـ لين ، وكتب مقالة في دحضها .

٧٠

أبو الهول

ما كان يجوز لي ان أتجاوز عن ذكر قطع رأس اللوياثان قبل ان يتم سلخه كاملاً . وقطع رأسه عمل علمي تشريحي يزهو به جرّاحو الحيتان المدربون كثيراً ، ومن حقهم ان يفعلوا .

اعلم أنه ليس للحوت ما قد يسمى رقبة ، بل ان أغلظ جز فيه انما هو ذلك الموضع الذي يلتقي فيه رأسه بجسمه ، وتذكّر ان الجرّاح لابد ان يأتيه من علٍ ، فيكون بينه وبين الجثة ثمانية أقدام او عشرة ، وهذه الجثة تكاد تكون مختفية في ماء عكر متضرّب ، كثيراً ما يكون صخاباً خبيط الامواج . ولا تنسَ ايضاً ان عليه تحت هذه الظروف المنحوسة ان يبلغ حزُّهُ عدة أقدام عمقاً في لحم الحوت . وفي حالة هذا الاندفاق الغائر لا يستطيع ان ينال نظرة واحدة من الجرح الرغيب المتشنج الذي أحدثه ، ومع ذلك فان عليه ان يتحاشى بمهارة الأجزاء الجانبية المجاورة للمحز ، التي يحرم عليه ضربها ، وأن يسدد الضربة بحيث يشق النخاع في النقطة المبتغاة عند بداية دخوله في الجمجمة ، دون طيش او خلل . اذا عرفت كل ذلك ووعيته أفليس من حقك ان تعجب وأنت تسمع اسطب يتبجح قائلاً انه لا يحتاج الا الى عشر دقائق كي يحتز رأس حوت العنبر ؟

ما إن يقطع الرأس حتى يدحرج نحو الكوثلة ويظل هنالك ممتسكاً بحبل الى ان يتم سلخ الجلد ، فاذا تمّ ذلك وكان الرأس رأس حوت صغير رفع على ظهر السفينة حتى يجري تدبيره في تبصر وأناة ، غير أن هذا أمر مستحيل ان كان اللوياثان قارحاً كبيراً لان رأس حوت العنبر يبلغ ما يقرب من ثلث حجمه كله ، ومن العبث ان يحاول أحد تعليق مثل هذا الوزن ، حتى ولو كانت العلائق هي المرفاعين الضخمين في حوّاتة ، فمثل هذا يشبه من يحاول أن يزن هُرْياً هولندياً بميزان الجوهَريّ .

أما حوت الباقوطة فان رأسه ، بعد ان فصل عنه وسلخ جلده ، رفع ازاء جانب السفينة ـ

فظهر نحو نصفه فوق الماء بحيث يظل محمولاً في معظمه على المادة التي ألفها . وهناك يظل الرأس الذي يقطر دماً معلقاً على خصر الباقوطة كأنه رأس المارد هولوفرنس يتدلى من نطاق يوديت[١] . بينا الباقوطة مشدودة منحنية بانحدار فوقه بسبب الانحناء العنيف الذي مال فيه الصاري الادنى وقد تنأت كل دعامة ساندة فيها على ذلك الجانب كأنها «ونش» مشرف على الامواج .

كان الوقت ظهراً حين نجزت هذه المهمة الأخيرة ، ونزل البحارة لتناول الغداء ، وخيّم الصمت على ظهر السفينة الذي كان من قبل صاخباً فأصبح مهجوراً - ؛ رهوٌ نحاسي راسخ كأنه نيلوفر أصفر غامر ، كان مايزال يفتح أوراقه الخرساء الفضفاضة المترامية فوق وجه البحر .

ومرت فترة قصيرة وإذا بآخاب وحده يصعد من قمته الى أحضان هذا الصمت العميق . فدار بضع دورات على الربعة خلف الدقل الأعظم ، ثم توقف يحدق عند جانب السفينة ، ثم تخطى ببطء الى السلاسل الكبرى وتناول مجرفة اسطب الطويلة - وكانت ماتزال هنالك بعد أن فصل رأس الحوت عن جسده - وغرزها في الجزء الأدنى من الكتلة المعلقة نصف تعليق ، ثم وضع طرفها الآخر مثلما يوضع العكاز تحت أحد ذراعيه ووقف متكئاً وعيناه مسلطتان في تنبه شديد على ذلك الرأس .

كان رأساً أسود مقلّساً ، معلقاً في وسط تلك الهدأة العميقة فبدا وكأنه رأس أبي الهول في الصحراء ؛ فتمتم آخاب قائلاً : «تكلم أيها الرأس الرؤاسي الوقور ، فإن لم يكن لك لحية تزينك فإنك تبدو هنا وهناك أشيب بما علق من طحلب ، تحدث أيها الجبار وخبرنا عن السرّ فيك . أنت بين القامسين أبعدهم قمساً . ذلك الرأس الذي يتلألأ الآن فوق الشمس العلوية قد جاب قرارة الكون حيث أسماء غفل وأساطيل مجهولة يعلوها الصدأ ، حيث آمال حبيسة ومراسٍ كثيرة يدركها البلى ، حيث هذه الأرض الفرقاطة قد تطرّمت في وقفتها المهلكة بعظام الملايين الذين غرقوا ؛ هنالك في دنيا الماء الرهيبة هنالك كان موطنك خير موطن تألفه . لقد كنت حيث لا يبلغ صوت جرس أو جسم غاطس ، كنت تنام الى جانب كثير من البحارة ، بينا الأمهات مسهدات يمنحن حياتهن رجاء أن يلحدن جثثهم . ولقد رأيت الحبيبين الحبيسين يقفزان من السفينة المحترقة ، غرقا والقلب على القلب بين الأمواج

---

(١) سفر يوديت من الاسفار الابوكريفية ، وهو يقص قصة غزو الملك الاشوري هولوفرنس وحصاره لمدينة بيتوليه ، وكيف ذهبت الأرملة يوديت وخادمتها لإغرائه ولما سكر في مأدبة أقيمت في اليوم الرابع قطعت رأسه وحملته في جراب الطعام الى المدينة ، فتشجع العبرانيون وطردوا الآشوريين .

المصطفقة ، صدقا العهد حين تبدت السماء لهما كاذبة ؛ رأيت الضابط القتيل يقذف به القرصان في منتصف الليل عن ظهر السفينة ؛ ساعات قضاها وهو ينحدر في ظلمة الفك الناهم ومايزال قتلته يبحرون سالمين ـ بينا البروق الخاطفة تهز السفينة المجاورة التي كان في مقدورها أن تحمل الزوج الأمين الى ذراعين مبسوطتين مشتاقتين . آه أيها الرأس لقد رأيت ما يكفي ليشق الكواكب ويجعل من ابراهيم الحنيف جانفاً ولم تنبس بحرف « واحد » .

وصاح صوت مزهو من أعلى الصاري الرئيس : « هذا شراع! » فصاح آخاب وقد انتصب فجأة : « صحيح ؟ هذا شيء مفرح » وأخذت تنزاح الغمائم الراعدة عن جبهته جانباً وأضاف : « هذه الصيحة الناعشة في هذا السكون الراكد قد تحول رجلاً خيراً مني عن معتقده ـ كم تبعد ؟ » .

ـ « ثلاث درجات عن يمين المقدمة يا سيدي وهي ترافق النسمات نحونا » .

ـ « خير وأبقى يا رجل . ليت القديس بولس جاء معها وجاءني بالنسمات لتنعش ركودي . آه أيتها الطبيعة ، وأنت يا روح الإنسان ما أبعد وفاقاتك المترابطة عن أن يحققها تعبير ؛ ليس في الكون ذرة تتحرك وتعيش على هذه الكرة إلا ولها صنو ذكي يعيش في العقل » .

٧١

قصة السفينة يربعام

انطلقت السفينة والنسمات يداً بيد مصطحبتين ، إلا أن النسمات جاءت أسرع من السفينة ، فأخذت الباقوطة تتمايل .

ومن خلل المنظار تبين لنا ـ تدريجاً ـ أن قارب أولئك الغرباء ومَراقب الصواري المزودة بحراسها في سفينتهم تدلّ على أنها سفينة تحويت ، ولكن حيث أنها كانت مبعدة نحو مهبّ الريح ، منطلقة ، غادية فيما يبدو الى مجال صيد آخر ، فإن الباقوطة لم تكن ترجو أن تبلغها ، ولذلك رفعت شارتها لتعرف أي جواب تتلقاه .

لابد من أن أقول في هذا المقام إن لكل سفينة من سفن أسطول التحويت الأمريكي شارتها الخاصة ، شأنها في ذلك شأن السفن الحربية ، وكل الشارات مدونة في كتاب ، وإزاء كل واحدة اسم السفينة التي تحملها ، وقد زوّد كل قبطان بنسخة منه ، ومن ثم كان في مقدور قباطنة التحويت أن يميزوا السفن وهي في البحر ، على مسافة غير قصيرة ، بقدر غير قليل من اليسر .

أجابت السفينة الغريبة أخيراً على شارة الباقوطة حين رفعت شارتها ، فإذا بها سفينة اسمها « يربعام » من نانتوكت . وبعد أن بسطت سواريها المصوبة نحو الخلف ، تحرّفت قليلاً وجعلت وجهتها على زاوية قائمة ضد المهب من الباقوطة وأنزلت قارباً ثم اقتربت ، فأمر استاربك أن يُهيّأ السلم الجانبي ليكفل صعود القبطان الزائر ، وعندئذ لوح هذا الغريب بيده من مؤخرة قاربه بما يفهم منه أن هذا الاجراء غير ضروري أبداً ، وتبين أن مرضاً معدياً قد انتشر في يربعام وأن قبطانها مايهيو يخشى أن تنتقل العدوى الى عصبة الباقوطة . نعم إنه هو وملاحو قاربه ظلوا سالمين ، وكانت سفينته على بعد نصف طلقة من الباقوطة والبحر والهواء الواقيان يتدحرجان ويجريان فيما بين الفريقين ، إلا أنه امتثل بوحي ضميره

لإجراءات الحجر الصحي على البر فأبى إباءً مطلقاً أن يقارب الباقوطة مقاربة المتصافحين .

ولكن هذا لم يحل أبداً دون الاتصال ، فقد ظلّت مسافة بضع ياردات تفصل بين قارب يربعام والباقوطة ، وظلّ ملاحو القارب باستخدامهم للمجاذيف حيناً بعد حين ، يدبرون بقاء القارب موازياً للباقوطة ، فيما هي تتحرك متثاقلة في الماء (وكانت النسمات قد هبت حينئذ منعشة) ، وشراع قمة الصاري الرئيس متقاعس للخلف . هذا وإن كان القارب أحياناً ينساق بعيداً أمامها إذا فاجأته موجة كبيرة مندفعة ، إلا أن ملاحيه الماهرين كانوا يعيدونه تواً الى وضعه الصحيح . وجرت بين الفريقين محادثة كانت عرضة لمثل هذا ولغيره من أسباب الانقطاع . وأحياناً أخرى كان توقف هذه المحادثة ناشئاً عن أسباب أخرى جدّ مباينة للأولى :

فقد كان أحد الملاحين في قارب يربعام رجلاً ذا مظهر فريد ، يتجلى تفرده حتى في حياة التفرد هو محمل كل شيء . كان صغيراً قصيراً أميل الى الشباب ، منقّط الوجه بالكلف ، يلبس شعراً أصفر سابغاً كثيفاً . ويلتف حوله معطف طويل مفصل تفصيلاً غريباً شاذاً ، ذو لون كلون الجوز باهت ، وقد طوى كمّيه الفائضين فانحسرا عن معصميه ، وفي عينيه سهوم عميق مستقر حادّ .

وماكاد اسطب يبصر هذا الرجل حتى هتف : «ها هو! ها هو! المهرج ذو المعطف الطويل الذي أنبأنا عنه بحارة تاونهو!» وكان اسطب يشير بذلك الى قصة غريبة رويت عن «يربعام» وعن أحد الرجال بين ملاحيها ، في وقت مضى حين جرى الحديث بين الباقوطة وتاونه ، . وحسب هذه القصة ، ثم ما عرف من بعد ، بدا أن هذا المهرج المذكور قد أحرز سلطاناً بعيداً عجيباً على كل امرئ في يربعام . وهذه هي قصته :

تربى في الأصل في مجتمع ملتاثٍ مؤلف من الدراويش الرقاصين (Shakers) في نسكيونا[(١)] ، فكان بينهم متنبئاً كبيراً ، وكثيراً ما هبط عليهم من السماء في اجتماعاتهم السرية الهاذية من طاقة في السقف ، معلناً أنه يفتتح على التوّ الجام السابع[(٢)] الذي يحمله في جيب صدارته ، إلا أنه من المفروض أن يحتوي على الأفيون بدلاً من مسحوق البارود ؛ وقد تملكته نزوة رسالة فغادر نسكيونا الى نانتوكت ، حيث انتحل بقوة الخبث الذي يمتاز

(١) نسكيونا على نحو ثمانية أميال الى الشمال من ألباني (نيويورك) ؛ هنالك أسست آن لي وأتباعها أول جمعية شيكرية سنة ١٧٧٦ ، وكان الاتباع يرون فيها تجسداً ثانياً للمسيح في صورة امرأة ، وقد جعلوا الملكية مشاعاً بينهم ونذروا التبتّل . وقال بعض من كتبوا بروح عدائية : إنهم يشبهون المانوية ويرقصون عراة ويجلدون بعضهم بعضاً عراة كذلك .

(٢) انظر رؤيا يوحنا ١٦ : ١٧ «ثم سكب الملاك السابع جامه على الهواء فخرج صوت عظيم من هيكل السماء من العرش ، قائلا : قد تم» . ويرى بعض الشرّاح أن هذا يرمز الى الاعلام بسقوط رومة .

به الجنون مظهراً عاقلاً ركيناً ، وتقدم في هيئة بحّار غرّ ليكون أحد الذاهبين في رحلة يربعام للتحويت ، فقبلوه ، ولكن ماكادت السفينة تغيب عن البرّ حتى انفجر جنونه فياضاً فادعى أنه جبريل رأس الملائكة وأمر القبطان أن يقفز من فوق ظهر السفينة ، وأذاع بياناً نصب به نفسه منقذاً لجزائر البحر ، وكاهناً على كل الأوقيانوسات . وقد أعلن هذا كله في رصانة راسخة لا تهن ، واتحدت هذه الرصانة مع أطوار خياله القاتم الجسور الثائر ، ومع كل المفزعات الخارقة التي يولدها البحران الهاذي فأكسبت «جبريل» هذا في عقل الأغلبية من الملاحين الجهلاء جواً من القداسة . أضف الى ذلك أنهم كانوا يخشونه ؛ ولما كان مثل هذا الرجل غير ذي نفع عملي على السفينة ، وبخاصة أنه كان يأبى أن يعمل إلا حين يشاء ، فقد كان القبطان الذي لا يؤخذ بمثل شعوذته على استعداد لأن يتخلص منه ، وحين أبلغ رأس الملائكة أن هدف القبطان هو أن ينزله في أول مرفأ ملائم فتح كل مختوماته وجاماته ، ودعا على السفينة وكل من فيها بالهلاك المطلق إذا نفذ ذلك الهدف . وكان أثره على حوارييه بين الملاحين بالغاً حتى أنهم ذهبوا أخيراً مجتمعين الى القبطان وأخبروه أنه لن يبقى في السفينة منهم أحد إذا هو أبعد جبريل عنها . لذلك اضطر الى أن يتخلى عن خطته . ثم انهم آلوا ألا يسمحوا بأن يتعرض جبريل لمعاملة سيئة أياً كان ما يفعله أو يقوله ، حتى اتفق أن أحرز جبريل حرية كاملة في السفينة ؛ وكانت نتيجة ذلك كله أن رئيس الملائكة قلما احتفل بشأن القبطان والضباط ، ومنذ أن انتشر المرض المعدي زادت سطوته أكثر من ذي قبل معلناً أن ـ الطاعون الذي سمّاه كذلك ـ تحت أمره ونهيه ، وأنه لن يتدخل في إيقافه إلا حين يروقه ذلك . فكان البحارة ، أولئك المساكين ، يتملقونه متذللين وبعضهم يداهنه اذا حضر . وأحياناً كانوا يؤدون له فروض الولاء امتثالاً لتعاليمه كأنهم في حضرة إله . مثل هذه الأمور قد تبدو غير قابلة للتصديق ولكنها صحيحة مهما تكن عجيبة . وتاريخ المشعوذين لا يبلغ في إثارته من حيث ما يمارسه المشعوذ نفسه من خداع ذاتي لا يحصر ، إلا مبلغاً يسيراً إذا قيس بقدرته التي لا تحد على مخادعة الآخرين وخلبهم . لكن حان الوقت لنعود الى الباقوطة .

قال القبطان آخاب من حافة السفينة يخاطب القبطان مايهيو الذي كان يقف في مؤخرة القارب «أنا لا أخشى هذا المرض المعدي أيها الرجل ، تعال ، اصعد الى السفينة» .

فهب جبريل واقفاً على قدميه ، وقال :

«اذكر الحمى ، الصفراء منها والصفراوية ، واحذر الطاعون المخيف» .

فصاح القبطان مايهيو : «جبريل! جبريل! عليك إمّا...» .

وفي تلك اللحظة دفعت موجة عامدة القارب بعيداً الى الأمام وأغرقت وشوشتها كل حديث .

فقال آخاب حين عاد القارب الى موضعه : «هل رأيت الحوت الأبيض» .

ـ «اذكر كيف ينشق قارب التحويت ويغرق . احذر الذنب المرعب» .

ـ «أقول لك يا جبريل مرة أخرى...» واندفع القارب مرة ثانية الى الأمام كأنما تجره الأبالسة ، ولم يقل أحد شيئاً خلال لحظات ، بينا كانت تتوالى موجات صاخبة في تدحرجها ، لا ترفع القارب وإنما تحاول أن تقلبه ، حسبما تجيء أحياناً بعض نزوات البحر العارضة . وفي الوقت نفسه كان رأس الحوت المرفوع يتأرجح بعنف ، وكان جبريل يلحظه بوعي لا تبيحه كثيراً طبيعته الملائكية .

ولما ان انتهت هذه الفاصلة بدأ القبطان مايهيو يقص قصة قاتمة عن موبي ديك ، ولم يمضِ حديثه مسترسلاً دون مقاطعة من جبريل ، حين كان اسمه يذكر ، ومن البحر المجنون الذي كان كأنه متحالف معه .

وتبدى أن «يربعام» لم تكن قد غادرت الوطن منذ مدة طويلة وأنها تحدثت الى حوّاتة أخرى ، فعلم ناسها علماً يقينياً بوجود موبي ديك والدمار الذي أوقعه . وتشرب جبريل هذه الأخبار في جشع فأخذ يحذّر القبطان في جد رصين من مهاجمة الحوت الأبيض ، إذا ما ظهر ذلك الوحش ذات يوم ، معلناً في جنونه الهاذي أن الحوت الأبيض ليس سوى تجسد يمثل الرب الذي يؤمن به الدراويش الرقاصون ، والدراويش يتلقون التوراة . ولكن بعد سنة أو سنتين رؤي موبي ديك من مراقب الصواري وأخذ ماسي رأس الضباط يتحرق شوقاً وحماسة للقائه ، وكان القبطان نفسه يرغب في أن لا يحرمه من تلك الفرصة ؛ ورغم شكاوى رأس الملائكة ونذره ، فقد استطاع ماسي أن يقنع خمسة من الملاحين بمرافقته في قاربه ، فاندفع معهم ، ووفق أخيراً ـ بعد تجذيف كثير مضنٍ وهجمات عديدة خطيرة مخفقة ـ في أن يحقق ضربة صائبة واحدة . وفي الوقت نفسه كان جبريل قد صعد الى قمة الصاري الملوكي وأخذ يقلب ذراعه في حركات محنقة ويقذف بالتنبوءات عن المصير العاجل للمهاجمين الجزارين الذين يتعقبون ما زعمه رباً . وبينا كان ماسي الضابط يقف في مقدمة قاربه وهو ينفث هتافاته الوحشية ضدّ الحوت ، بكل ما أوتيه من طاقة سادرة عرفت بها قبيلته ، ويتأتى لعله يصادف سانحة يقذف فيها حربته المسددة ، عندئذ يا للهول! ارتفع من الماء شبح أبيض عريض ، استل الأنفاس من أجسام المجذفين مؤقتاً بحركته السريعة الخطّارة ؛ وفي اللحظة التالية طار الضابط المنكود وهو ممتلئ حياة متوقدة ، في الفضاء ، ثم

هوى في انحناءة طويلة القوس وسقط في البحر على مسافة تبعد حوالي خمسين ياردة عن القارب ؛ لم تمس شذرة من القارب ولا شعرة في رأس أي مجذف بأذى وإنما غطس الضابط وغاب الى الأبد .

ولابأس أن أستطرد في هذا المقام على سبيل التوضيح فأقول إن هذا النوع من الحوادث المهلكة في صيد حوت العنبر ربما كان مثل غيره من الحوادث الأخرى من حيث تكرره ، فأحياناً لا يصيب الأذى إلا الرجل الذي حاق به الهلاك ، وأحياناً أخرى يفصل مقدم القارب عن جسمه أو ينفصل اللوح الذي يقف عليه رائس القارب من موضعه ويذهب مرافقاً جثة الرائس ، ولكن أغرب شيء في الأمر في غير حادثة أنه حين تسترد الجثة لا يرى فيها أي أثر لعنف وإنما كل ما هنالك أن الرجل مات متخشباً .

رأى من في السفينة ذلك المصاب كله وشهدوا كيف هوى ماسي بوضوح . وصاح جبريل بالملاحين الذين ضرب الخوف على قلوبهم يحذرهم من التمادي في صيد الحوت هاتفاً ، «الجام! الجام!» وهذه الحادثة المفزعة وشحت رأس الملائكة بمزيد من نفوذ لأن حوارييه السذج اعتقدوا أنه تكهن بالحادث عينه بدلاً من أن يعتقدوا أنه أرسل نبوءة عامة يستطيع أن يرسل مثلها أي إنسان ، واتفق له أن أصاب علامة من بين العلامات الكثيرة التي تقع في مجال الرماية . ومن ثم أصبح رعباً راعباً على السفينة .

وما ان ختم مايهيو قصته حتى طرح آخاب عليه أسئلة لم يملك القبطان الغريب معها إلا أن يتساءل : أيهدف آخاب الى صيد الحوت الأبيض إن سنحت لذلك فرصة ؟ فأجابه آخاب : «أجل» ، فانتصب جبريل على التو واقفاً مرة أخرى وحدّق في الرجل العجوز وصاح بصوت حاد وإصبعه تشير الى الماء : «اذكر ، اذكر الكافر الجاحد - مات ، وغيّبته الأعماقَ احذر سوء خاتمة كخاتمة الكافر الجاحد!» .

فاستدار آخاب جانباً ببلادة ، ثم قال لمايهيو : «أيها القبطان ، ها لقد خطرت ببالي الآن حقيبة الرسائل ، ففيها رسالة لأحد ضباطك إن لم أكن مخطئاً . استاربك هاتها من الحقيبة» .

كل حوّاتة تحتقب عدداً غير قليل من الرسائل لناسٍ على سفن مختلفة ويعتمد تسليمها لأصحابها على المصادفة التي قد تيسر اللقاء بين السفينتين في عرض المحيطات الأربعة ، ولذا فإن معظم الرسائل لا تصل الى حيث وجهت ، وكثير منها لا يتسلمه أصحابه إلا بعد أن يبلغ من العمر سنتين أو ثلاث سنوات أو أكثر .

عاد استاربك تواً وفي يده رسالة ؛ كانت مثناة مكسرة الحواشي رطبة ، مغطاة بطبقة

من العفونة الكابية البقعاء المخضوضرة لأنها أودعت في قمطر مظلم في القمرة . رسالة ، يصلح أن يكون ساعي البريد الذي يحمل مثلها هو الموت نفسه .

فقال آخاب : «ألا تستطيع أن تقرأ العنوان ؟ هاتها يا رجل . نعم ، نعم إنه خطّ باهت ـ ما هذا ؟ » وبينا كان يمعن فيها النظر تناول استاربك عصا مجرفة الجزارة الطويلة ، ومشق بسكينه طرفها ليدخله في طرف الخلاف وبذلك يسلمها للقارب ، دون أن يقترب دانياً من السفينة .

وفي الوقت نفسه كان آخاب يتمتم وهو يرفع الرسالة بيده : «مستر هار ، نعم هاري (هذا خط دقيق كتبته امرأة ـ أراهن أنها زوجته) نعم : مستر هاري ماسي ، السفينة يربعام ـ لكن هذه باسم ماسي ، وماسي قد مات! » .

فتنهد مايهيو قائلاً : «مسكين! مسكين! ومن زوجه أيضاً ، لكن لابأس هاتها » .

فهتف جبريل بآخاب : «لا . احتفظ بها لنفسك فإنك سائر في الأثر عما قريب » .

فصرخ آخاب : «خنقتك اللعنات! ـ قف يا قبطان مايهيو إزائي حتى تتناولها » ، وأخذ الرسالة المشؤومة من يد استاربك ، ودس طرف العصا فيها ، ثم مدّها بها الى القارب . وحين فعل ذلك توقف المجذفون شاخصين عن التجذيف فانساق القارب قليلاً نحو مؤخرة السفينة حتى أصبحت الرسالة فجأة ، وكأن ذلك تم بفعل السحر ، قريبة من يد جبريل المتلهفة ، فأطبق عليها يده تواً ، وتناول سكين القارب ، وغرزها في الرسالة ، ثم أرسلهما معاً الى السفينة ، فوقعتا عند قدمي آخاب ، ثم زعق جبريل في رفاقه أن يباعدوا التجذيف ، وعلى هذا النحو جرى القارب المتمرد مندفعاً نائياً عن الباقوطة .

وحين استأنف البحار ـ بعد هذه الوقعة ـ عملهم في جلد الحوت ألمحوا الى كثير من الأشياء الغريبة وهم يومئون الى هذا الحادث العجيب .

٧٢

حبل القرد

يكثر الملاحون من الجري رائحين غادين أثناء العمل الصاخب في تقطيع الحوت وحراسته . فقد يتطلب العمل وجود عمال هنا ، ثم يعود فيتطلب وجودهم هنالك ، ولذلك لا يقر قرارهم في موضع واحد ، إذ لابد من انجاز كل شيء أينما كان في وقت معاً . وهذا هو نفسه ما يلمّ بمن يحاول أن يصف ذلك المشهد ، ولذا كان علينا أن نعاود الخطا قليلاً ، فقد ذكرنا أن كلّوب التشحيم يوثق في التجويف الأصلي الذي أحدثته مجارف الضباط حين جوّفت ظهر الحوت أول مرة . لكن كيف يمكن لكتلة ثقيلة راجحة كذلك الكلوب أن تعلق في ذلك التجويف ؟ لقد أدخلها فيه صديقي الحميم كويكوج وكانت وظيفته من حيث هو زرّاق أن يهبط على ظهر الوحش من أجل تحقيق تلك الغاية المشار إليها ، وتتطلب الظروف ـ في حالات متعددة ـ أن يبقى الزرّاق فوق الحوت حتى تتمّ عملية تأريب الحوت أو سلخها كاملة . وليعلم أن الحوت يستلقي وهو يكاد يكون مغموراً كله بالماء إلا الأجزاء المواجهة التي تجري فيها عملية السلخ أو التأريب . وبذا يجهد الحوات المسكين جهده وهو في الأسفل على بعد نحو عشرة أقدام تحت مستوى ظهر السفينة ونصفه على الحوت ونصف في الماء كلما دارت الكتلة الجسيمة من تحته كأنها الطاحونة . أما في هذه المناسبة التي نحن بصددها فإن كويكوج تزيّا بزي أهل المرتفعات ، أي لبس قميصاً وجرباناً ، وبدا لعيني ـ إن لم يكن في عيون الآخرين ـ وقد أفاد كثيراً من زيّه الجديد ، ولم يتح لأحد مثلي أن يرى ذلك كما رأيته ، وذلك ما سأبينه بعد قليل .

ولما كنت أنا الملاح المقدّم في قارب هذا الهمجي ، أي الشخص الذي يحرك المجذاف الواقع عند مقدمة قاربه (وهو الثاني من أمام) ، كانت مهمتي البهيجة أن أرعاه وهو يقوم بزحفه العسير المتشبث الكدّام على ظهر جثة الحوت . لعلك رأيت غلماناً إيطاليين

يعزفون وهم يرقصون قرداً مربوطاً بحبل طويل . كذلك أيضاً وأنا عند شفا جانب السفينة المنحدر ، أرسلت كويكوج أسفل مني في البحر مربوطاً بحبل يسمّونه في حرفة التحويت «حبل القرد» ، وهو موثق بقطعة قوية من الخيش تمنطق كويكوج بها حول خصره .

وكان العمل خطراً لكلينا على نحو ساخر عابث ، إذ عليَّ أن أقول قبل المضيّ قدماً إن حبل القرد كان معقوداً من كلا طرفيه : معقوداً حول نطاق كويكوج الخيشي العريض ومعقوداً بنطاقي الجلدي الدقيق . ولخيرٍ أو لشرّ أصبحنا مؤقتاً مقترنين معقوداً فيما بيننا ، فلو أن كويكوج المسكين غطس فلم يبرز أبداً لتطلبت العهود الوثيقة والعادة العريقة أن أنجرَّ في أثره لا أن أبتَّ حبل الوصل بيننا ، كان يربط بيننا ـ إذن ـ رباط سيامي مديد . وكان كويكوج أخاً توأماً لي لا ينفصل مني ، وأنا عاجزٌ عن أن أتخلص من المحتملات الخطرة التي تترتب على ذلك الوثاق القنبيّ .

وتأملت في حالي حينئذ تأملاً قوياً فلسفياً وأنا أرقب حركاته في اهتمام ، فكأنني أدركت بوضوح أن فرديتي انغمرت في شركة متضامنة قوامها اثنان ، وأن إرادتي الحرة قد أصيبت بطعنة نجلاء مميتة ، وأن خطأ امرئ آخر أو سوء طالعه قد يغمس ذاتي البريئة في غمرة هلكة وموت دون جناية أجنيها . لذلك رأيت في هذا الموقف «فترة خلاء» أو توقف في العناية الإلهية ، لأن يد المساواة السوية لديها لا يمكن أن تجيز مثل هذا الظلم الصراح . ومضيت في التأمل وأنا أنتشله حيناً بعد حين ، من بين الحوت والسفين ، حيث قد يعتصر حشراً ، أقول : مضيت في التأمل فرأيت موقفي هذا هو موقف كل حيّ ذي نسمة تماماً ، إلا أن هذا الحيّ ، في أغلب الأحوال ، يكون مربوطاً بالوثاق السيامي ذاك الى كثرة كاثرة من الأحياء لا الى واحد فقط . فإذا أفلس البنك الذي يعامله أصيب هو بالانهيار ، وإذا إرسل له الصيدلاني السمّ خطأً في حبات الدواء قضى نحبه . حقاً قد تقول لي إن المرء قد ينجو بالحيطة البالغة من مثل هذه المصادفات السيئة في الحياة ومن كثير غيرها . لكن لو أنه أمسك حبل القرد الذي يرتبط به كويكوج في حيطة وتنبه مثلما فعلت أنا ، فهل تراه ناجياً ؟ لقد كان كويكوج يشده أحياناً حتى أكاد أنزلق من فوق ظهر السفينة ؛ ولم يبارح خاطري قط ، مهما تناسيت الأمر ، أنني لم أكن أملك التصرف إلا بطرف واحد من ذلك الحبل* .

ألمعت الى أنني كثيراً ما كنت أنتشل كويكوج المسكين ، من بين الحوت والسفين ،

* كل الحواتات مزودة بحبل القرد هذا ، ولكن الباقوطة انفردت دون الحواتات بربط «القرد والقرّاد» في قرن . ومثل هذا التحسين على العادة المتبعة إنما ابتكره شخص في مثل كفاية اسطب ، لكي يهيئ للزراق المحفوف بالخطر أقوى ما يمكن من فرص السلامة ، وذلك عن طريق الرقابة الأمينة التي يقوم بها ممسك حبل القرد من الطرف الآخر .

حيث كان يهوي حيناً بعد حين ، بسبب تدحرج الاثنين وتأرجحهما . ولكن لم يكن الهلاك عصراً وضغطاً هو كل ما يتعرض له . ذلك أن القرشان لم تفزعها المجزرة التي جرت لها أثناء الليل فعادت تحفزها وتغري لهفتها من جديد رؤية الدم الذي بدأ يتدفق من الجثة بعد أن كان فيها حبيساً ، فاحتشدت تلك الحيوانات المسعورة حولها كأنها النحل في الخلية .

وكان كويكوج واقعاً في حومة ذلك الحشد الحاشد من القرشان ، وكثيراً ما كان يصدها عن نفسه بقدميه الجاهدتين . ذلك شيء يكاد يعز على التصديق لولا أن القرشان المستكلبة التي تنهس أي لحم كان في سائر الأحوال إذا هي أقبلت على فريسة مثل جثة حوت ـ تلك القرشان قلما تمس إنساناً .

على أي حال مادام لها في كل عرس قرص فمن الحكمة أن يأخذ المرء حذره منها ويتوقاها بعين يقظة . ولم يكن حبل القرد وحده وسيلة وقاية للمحافظة على كويكوج ، نعم كنت أنتشل به ذلك الرفيق المسكين من جوار فكّ قرش أحسبه قرشاً ضارياً بالغ الضراوة ، ولكنه كان أيضاً مزوداً بوسيلة أخرى من وسائل الحماية ، فقد تعلق كل من طاشطيقو ودغة على درجة من درجات جانب السفينة وظلا يلوحان فوق رأسه بمجرفتين ماضيتين من مجارف التحويت ، فيذبحان بذلك كل ما قد يقع في متناول أيديهما من القرشان . وكان هذا الذي يقومان به عملاً كريماً خلواً من الغرض ، وأنا أقر أنهما كانا يهدفان الى صالح كويكوج وسعادته ، ولكن مجرفتيهما الرعناوين ، وهما في حماستهما المتهورة لحمايته والذب عنه ، ربما أطاحتا خبط عشواء برجل إنسان لا بذنب قرش خصوصاً وأن كويكوج كان يختفي هو والقرشان أحياناً تحت الماء الكدر المختلط بالدماء . غير أني أقدر أن كويكوج المسكين ، فيما هو يتشدد ويلهث ومعه الكلّوب الحديدي الضخم ـ كويكوج المسكين ، فيما أقدر ، لم يصنع شيئاً سوى أنه كان يصلي لإلهه يوجو وقد ترك حياته وديعة في أيدي آلهته .

وكنت أقول في نفسي إذ أسحب الحبل ثم أرخيه كلما أخبّ البحر : طيب طيب يا رفيقي وأخي التوأم . ما همّك بعد كل ذلك ؟ ألست أنت الصورة الغالية لكل واحد فينا ولنا مجتمعين نحن الرجال في دنيا التحويت ؟ ذلك الأوقيانوس الذي لا قرار له وأنت تلهث فيه هو الحياة ، وهذه القرشان هي أعداؤك ، وهذه المجارف هي أصدقاؤك ، وبين القرشان والمجارف تقف أنت أيها الفتى المسكين بين الحرج والخطر المؤسفين .

لكن ثباتِ! فمايزال أمامك تهلل مخبوء من أجلك يا كويكوج ؛ ذلك أن هذا الهمجي المضني تسلق السلاسل أخيراً ، وشفتاه زرقاوان وعيناه محمرتان ، ووقف هو يقطر ماء

والرعشة تهزه عند جنب السفينة ؛ ويتقدم أمين المؤن منه وهو يلحظه بنظرات الطيبة والتهوين ويسلّمه - ماذا يا ترى ؟ أيسلمه بعض جرع من كونياك لاذع ؟ كلا! بل يسلمه أيها الأرباب ، يسلّمه كأساً من الزنجبيل الفاتر المدوف في الماء!

وقرّب اسطب وتساءل في ريبة : «زنجبيل ؟ أتراني أشم رائحة زنجبيل ؟» وحدق في الكأس التي لم تلمسها شفتا كويكوج بعد . ثم وقف كأنه لا يصدق عينيه ، ثم مشى هادئاً نحو النادل المذعور وقال في بطء : «زنجبيل ؟ زنجبيل ؟ هل تتكرم فتخبرني أيها السيد العجّان ما هي ميزة الزنجبيل ؟ زنجبيل! أهو نوع من الوقود الذي تستعمله أيها الغلام العجان لتشعل النار في هذا الهمجي الذي ترعشه البرداء ؟ زنجبيل ؟ بحق الشيطان ما الزنجبيل ؟ فحم البحار ؟ خشب النار ؟ كبريت الشيطان ؟ حرّاق ؟ بارود ؟ أقول بحق الشيطان ما الزنجبيل هذا الذي تقدمه في كأس لكويكوج المسكين هنا ؟» .

ثم أضاف فجأة : «في تقديم الزنجبيل ما يشعر بدسيسة تحيكها جمعية الدعوة الى تحريم الكحول» ، ثم تقدم من استاربك وكان قد عاد لتوّه من أمام وقال : «ألا تنظر في هذا العقار يا سيدي ؟ شمّه من فضلك» ثم أضاف وهو يراقب وجه الضابط : «إن أمين المؤن يا سيد استاربك قد بلغ من القحة بحيث يقدم هذا الكالوميل والجلاب لكويكوج ، وقد عاد لتوه من عند الحوت . هل أمين المؤن صيدلاني يا سيدي ؟ وهل لي أن أسأل إن كان هذا النوع من المشروب هو الذي تُبعث به الحياة في جسم رجل نصف ميت غرقاً ؟» .

فقال استاربك : «لا أظن ذلك . فهذا شراب بانس جداً» . فصاح اسطب : «أجل أجل أيها العجّان سنعلمك كيف تداوي زراقاً . دعنا من أدويتك وطبك ها هنا . تريد أن تسممنا أليس كذلك ؟ لديك وثائق تأميناتنا على الحياة ولذلك تريد أن تقتلنا جميعاً ، وتحصل على التعويضات . مش كده ؟» .

فصاح الغلام العجان : «لست أنا الذي جلبت الزنجبيل . العمة إحسان هي التي جاءت به الى ظهر السفينة ، وأمرتني ألا أعطي الزراقين أي قطرة من الكحول ، وإنما أعطيهم جراة زنجبيل (يريد جرعة)» .

«جراة زنجبيل . يا وغد بشدة امتثالك لأمرها ، خذه ، وعُدْ به حالاً الى الخزانة وجئ بما هو خير منه . أرجو ألا أكون مخطئاً بهذا التصرف يا سيد استاربك . إنها أوامر القبطان : أن يعطى الزراق جروكا»[1] .

---

(١) grog : مشروب روحي قوي .

فأجاب استاربك : «حسبك . لكن لا تصفعه مرة أخرى وإنما...» .

- «أوه أنا لا أسبب الألم حين أضرب إلا إذا ضربت حوتاً أو شيئاً من نوعه ، وإنما هذا الغلام ابن عرس . ماذا كنت تريد أن تقول يا سيدي ؟» .

«كنت أقول : اذهب معه وأحضر ما تريده أنت نفسك» .

فلما عاد اسطب كان يحمل في إحدى يديه قنينة سوداء وفي الأخرى نوعاً من علب الشاي ، أما الأولى فتحوي كحولاً قوياً وقد سلمها الى كويكوج ، وأما الثانية فكانت التحفة التي جاءت بها العمة إحسان وقد أهديت عن طيب خاطر للأمواج .

٧٣

اسطب وفلاسك يصيدان واحداً من الحيتان الأثينة ثم يشتركان عنده في حديث

لابد للقارئ من أن يتذكر بأنه كان لدينا طوال هذا الوقت كله رأس ضخم لحوت عنبر ، معلق على جنب الباقوطة . ولابد لنا من أن نبقيه مدلّىً هنالك فترة من الزمن حتى تسنح لنا الفرصة فنوليه اهتماماً . أما في الحال الراهنة فإن أموراً أخرى تلح علينا ، وخير ما نصنعه الآن من أجل الرأس أن ندعو الله بأن يظل المرفاعان يتحملان وطأة ثقله .

كانت الباقوطة قد انسابت تدريجاً في الماء الليلة الماضية والغداة التي أعقبتها ، وكانت تلوح على الماء بقع متناثرة من القشريات الصفراء فتدل دلالة غير مألوفة في ذلك الموسم بأن الحيتان الأثينة موجودة عن كثب ، وهي فصيلة من اللوياثان قلما يظن أحد أنها تتربص في هذا الموسم في أي مكان قريب . وكان البحارة جميعاً يأنفون من صيد هذه الحيوانات الوضيعة احتقاراً لشأنها ، ولم تكن الباقوطة مفوّضة لتجوب مناطق الصيد طلباً لها أبداً ، وقد مرت بأعداد كبيرة منها قرب جزائر كروزيت دون أن تنزل لصيدها قارباً واحداً ، ومع ذلك كله فمذ أصبح حوت العنبر مجنباً الى السفينة مفصول الرأس فقد صدر الإعلان الذي أدهش الجميع بأن صيد حوت اثين في ذلك اليوم أمر لابد منه إن سنحت فرصة لذلك .

وسرعان ما سنحت الفرصة ، فقد رؤيت نفاثات طويلة في اتجاه الريح ، ونزل قاربا اسطب وفلاسك لمطاردتها ، وظل الملاحون يجذفون مبعدين حتى كادت رؤية القاربين تعز على الحراس القائمين فوق المراقب ؛ وفجأة رأوا على بعدٍ عرمةً عالية من الماء الأبيض المختبط ، وجاء النبأ بعد ذلك من الأعالي يقول إن أحد القاربين أو كليهما قد علق بالحوت ؛ ومرت فترة والقاربان واضحان للأنظار وكأن الحوت يسحبهما على استقامة نحو السفينة ؛ واقترب الوحش من هيكل السفينة كثيراً حتى خُيّل للناظرين أنه يدبر مكيدة ،

ولكنه انقضّ فجأة في دردور مائي على مسافة ثلاثة أذرع من الألواح واختفى عن الأنظار تماماً كأنه قمس تحت قاع السفينة ، فانبعثت صيحة من السفينة تقول للقاربين : «اقطعوا الحبل ، اقطعوا» وكان القاربان في لحظة على وشك أن يصطدما بجنب السفينة اصطدامة قاضية ولكن كان مايزال لدى القاربين فضل من حبليهما في البرميلين ، ولم يكن قمس الحوت بالغ السرعة ، فحلاً ما فضل من الحبلين ، وجذفا في الوقت نفسه ، بكل ما لديهما من قوة ليسبقا السفينة ، وكان هذا الجهاد في مدى بضع دقائق حرجاً بالغ الحرج إذ لما كان الحبلان المشدودان يرخيان في اتجاه واحد ، والمجاذيف تعمل في اتجاه آخر ، فقد كان الشد المعاكس يهددهما بالانزلاق تحت السفينة ولكن كل ما كانا يريدان كسبه هو بضعة أقدام يفوتان بها السفينة ، فظلا متشبثين بذلك حتى أحرزاه . وعلى التو أحست السفينة برجفة سريعة تسري كالبرق على طول قاعها حين كان الحبل المشدود يحتُّ من تحتها ، ثم فجأة ظهر للأنظار تحت مقدمتها وهو يكدم ويهتز ، ثم أخذت القطرات ترفض عنه حتى كانت كأنها كسر من زجاج تتساقط على الماء ، بينا ظهر الحوت للأنظار أيضاً بعيداً عنهما . ومرة أخرى أصبح القاربان طليقين قادرين على اللحاق . إلا أن الحوت المعيي خفف من سرعته ، وغيّر وجهته على غير هدى وذهب حول مؤخرة السفينة وهو يجر القاربين خلفه حتى أنها جميعاً كونت دائرة كاملة .

وزاد الملاحون في الوقت نفسه من جرّ الحبلين حتى جانبا الحوت من ناحيتيه وأغمد فيه كل من اسطب وفلاسك حربتيهما بالتناوب ، وظلت المعركة تدور حول الباقوطة ، بينا اندفعت جموع القرشان التي كانت تحتشد من قبل حول جثة حوت العنبر نحو الدم العبيط المهراق ثمة ، وهي تجرع جرعات الظامئ من كل دفقة جديدة ، مثلما فعل الإسرائيليون العطاش عندما انبجست لهم اثنتا عشرة عيناً من الحجر الذي ضربه موسى بعصاه .

وأخيراً تكاثف نفثه وتقلب وتقيأ على نحو مخيف ، واستقر على ظهره جثة هامدة .

وبينا كان رائسا القاربين منهمكين في إعداد حبال لربط ذنبه ، وهما يحاولان بوسائل أخرى أن يضعا الجثة وضعاً يمكن من جرّها ، جرى بينهما حديث ذو شجون :

قال اسطب دون أن يبارحه بعض الاشمئزاز إذ تصور أنه صاد حوتاً وضيعاً : «عجباً ما الذي يريده الرجل العجوز من هذه الكتلة من الشحم الخنزيري القذر» .

فأجابه فلاسك وهو يلف حبلاً احتياطياً في مقدم القارب : «ماذا يريد به ؟ ألم تسمع أبداً أن السفينة التي ترفع رأس حوت عنبر على جانبها الأيمن ورأس حوت أثين في الوقت نفسه على جانبها الأيسر ، ألم تسمع أبداً يا اسطب أنها من بعد لا تنقلب أبداً ؟» .

- «ولمَ لا ؟» .

- «لا أدري ولكني سمعت ذلك الشبح الصمغي الأمغر فيض الله يقول ذلك ، ويبدو أنه يعرف كل شيء عن سحر السفن وتعاويذها ، ولكني أحياناً أحسب أنه سيسحر السفينة الى ما لا تحمد عقباه . أنا لا أميل الى ذلك الفتى يا اسطب . هل لحظت أن عمامة شعره مضفورة في صورة رأس ثعبان يا اسطب ؟» .

- «داهية تغرقه! أنا لا أنظر إليه أبداً ، ولكن إن أتيحت لي ليلة مظلمة وكان هو عند الحافّة ولم يكن ثمة أحد... انظر الى أسفل يا فلاسك» - وأشار الى الماء وهو يحرك يديه كلتيهما حركة غريبة «أيوه! أأفعل ذلك يا فلاسك ؟ أنا أرى فيض الله هذا شيطاناً متنكراً . هل تصدق تلك الحكاية الخرافية التي شاعت عن أنه أخفي مهرَّباً على السفينة ؟ أنا أقول إنه الشيطان . أما لماذا لا ترى ذنبه فذلك لأنه يخفيه عن الأنظار وأظن أنه يحمل ذنبه ملفوفة في جيبه ؛ عليه اللعنة! خطر لي الآن وأنا أتصور حاله أنه يحتاج دائماً دسراً ليحشوها في «بوز» حذائه» .

- «إنه ينام في حذائه ، أليس كذلك ، إذ ليس لديه أرجوحة ولكني رأيته الليالي يضطجع في كبة حبل ملفوف» .

- «لا ريب في ذلك ، وكله بسبب ذيله اللعين ، فهو يلفه في نقرة الكبة الملفوفة» .

- «ترى أي شيء يفيده منه الرجل العجوز ؟» .

- «لعله يبغي مقايضة أو مساومة فيما أظن» .

- «مساومة ؟ في أي شيء ؟» .

- «إنك لتعلم أن الرجل العجوز متوجه الهمة نحو ذلك الحوت الأبيض ، والشيطان يحاول أن يلعب بعقله ويجعله يقايض بساعته الفضية أو بروحه أو بأي شيء من هذا القبيل وعندئذ يسلمه موبي ديك» .

- «أف يا اسطب انك لتوغل بعيداً في تفكيرك ؟ كيف يستطيع فيض الله أن يفعل ذلك ؟» .

- «لست أدري يا فلاسك ولكن أقول لك إن الشيطان فتى غريب ، شرير كذلك ، إنهم ليخبرون كيف ذهب يتجول في سفينة العلم القديمة ذات مرة وهو يبصبص ذنبه بطريقة شيطانية يسرة كأنه أحد السادة وسأل إن كان الحاكم العجوز في البيت . وكان حقاً في البيت ، فسأل الشيطان ماذا تريد ؟ فتقدم الشيطان وهو يتلعب بحوافره وقال له : «أريد جون» . فقال الحاكم العجوز : «لأي غرض ؟» فقال الشيطان وقد تنمر غضباً : «وما شأنك

أنت ؟ أريد أن أستخدمه » . فقال الحاكم : « خذه » . وحق الإله يا فلاسك ، لئن كان الشيطان لم يعطِ جون الكوليرا الآسيوية قبل أن يستطيع استمالته فإني رهن بأكل هذا الحوت في لقمة واحدة . لكن حدد البصر ـ ألم تستعدوا أنتم بعد ؟ حسن ، إذن فلنتقدم مجذفين وليبقَ الحوت على موازاتنا » .

فقال فلاسك حين أخذ القاربان يتقدمان ببطء ومعهما حملهما نحو السفينة : « أظنني سمعت مثل هذه القصة التي حكيتها ولكن لا أذكر أين سمعتها » .

ـ « في الاسبانيين الثلاثة ؟ في مغامرات الجنود الحمقى ؟ هل قرأتها هنالك يا فلاسك ؟ أظنك هناك قرأتها » .

ـ « لا ، لم أرَ هذا الكتاب أبداً ، غير أني سمعت به . لكن خبرني يا اسطب هل الشيطان الذي كنت تتحدث عنه آنفاً هو نفس الشيطان الموجود على الباقوطة ؟ » .

« هل أنا نفس الرجل الذي أعان على قتل هذا الحوت ؟ أليس الشيطان يعيش الى الأبد ؟ من سمع أبداً أن الشيطان مات ؟ هل رأيت قسيساً تسلّب ثياب الحداد من أجل الشيطان ؟ وإذا كان لدى الشيطان مفتاح يدخل به الى قمرة أمير البحر أفلا تظن أنه يستطيع أن يتسلل من ثغرة في سفينة ؟ ما قولك في هذا يا سيد فلاسك ؟ » .

« كم تقدر عمر فيض الله يا اسطب ؟ » .

فأشار الى السفينة وقال : « هل ترى الصاري الرئيس هناك ؟ حسن . هذا هو العدد واحد . خذ كل الأطواق الموجودة في عنبر الباقوطة ثم اقرنها معاً في صف مع ذلك الصاري لتعد أصفاراً ، فإن هذا لا يمثل رقم البداية في عمر فيض الله ؛ ولو حشدت الحدادين جميعاً ليصنعوا أطواقاً كل طوق منها بمثابة صفر ، لما كانت الأطواق في الكون كافية لتمثل المطلوب من الأصفار » .

ـ « لكن افهم يا اسطب ، أظنني قبل قليل سمعتك تتبجح بأنك تريد أن تقذف بفيض الله الى البحر ، إن سنحت لك فرصة مواتية . فإن كان هو معمّراً بقدر هذه الأطواق التي تحكي عنها ، وإن كان سيعيش الى الأبد فما جدوى أن تلقيه عن ظهر السفينة ؟ خبرني » .

ـ « أغمسه غمسة ممتازة على أية حال » .

ـ « لكنه سيزحف ثانية » .

ـ « أغمسه مرة أخرى ، وأظل أغمسه كلما ظهر » .

ـ « هب أنه خطر في رأسك أن يغمسك أنت ، نعم وأن يغرقك ، فماذا لديك ؟ » .

ـ « كم أود أن أراه يجرب ذلك ، إذن لحملقت فيه بعينين حمراوين حتى أنه لن يجرؤ

على أن يبرز وجهه في قمرة أمير سفينتنا مرة أخرى لفترة طويلة ، وإذن لظل وحيداً في أسفل عنبر[1] هناك حيث يقطن ، فلا يظهر على الربعات العليا هنا حيث يتسلل كثيراً . لعن الله الشيطان يا فلاسك . أتظنني أخشى الشيطان ؟ من ذا الذي يخافه سوى الحاكم العجوز الذي لا يجرؤ أن يقبض عليه ويغلّ يديه بأصفاد مضاعفة ، وذلك هو ما يستأهله ، وإنما يخليه طليقاً يخطف الناس ، أجل بل وعقد عهداً معه يقضي بأن كل من اختطفه الشيطان شواه هو له ؛ أي حاكم هو! » .

- « وهل تظن أن فيض الله سيخطف القبطان آخاب ؟ » .

- « هل أظن ؟ عما قليل ستعلم ذلك يا فلاسك ، لكنني الآن ذاهب لأسلط عليه عيناً يقظة ، وإذا رأيت شيئاً مريباً يجري أمسكت به من مخنّقه وقلت له : اسمع يا « بعل ذباب » إياك أن تفعل ذلك ، وإذا أتى بأي لغط ، فوَالله لأدسنَ خطافاً في جيبه بحثاً عن ذنبه ثم آخذها الى المسحاب ، وهناك ألويه لياً عنيفاً وأدفعه دفعاً حتى ينقطع ذنبه من معقده ، سامع ؟ وأنا أقدّر أنه حين يجد نفسه أبتر بهذه الطريقة الملتوية فإنه سينسلّ هارباً دون أن يحسّ بلذة الرضا عن وجود ذنبه بين رجليه .

- « وماذا ستصنع بالذنب يا اسطب ؟ » .

- « أصنع به ؟ أبيعه سوطاً وأقول إنه سوط بقريّ حين نعود للوطن ، وماذا غير ذلك ؟ » .

- « هل تعني ما تقول وما كنت تقوله طوال هذه العودة يا اسطب ؟ » .

- « أعني أو لا أعني ، ها نحن وصلنا السفينة » .

نودي على القاربين أن يسحبا الحوت الى الجانب الأيسر من السفينة حيث سلاسل الكلاليب وغيرها من الضروريات كانت قد أعدت لتأمين ربطه .

فقال فلاسك : « ألم أقل لك ذلك ؟ نعم سترى رأس هذا الحوت الاثين قد رفع تواً إزاء رأس حوت العنبر » .

وقد صدق قول فلاسك في الوقت المناسب . وبعد أن كانت الباقوطة تميل بانحدار شديد نحو رأس حوت العنبر استعادت استواءها كما كانت قبلاً حين توازن الرأسان ، وإن كانت تئن تحت هذا العبء الثقيل . إنك إذا علقت على أحد جانبيك رأس الفيلسوف لوك ملت الى ذلك الجانب وعندئذ ما عليك إلا أن ترفع رأس الفيلسوف كانت ، على الجانب

---

(١) orlop وهو أوطى ربعة في السفينة .

الآخر فيتم التوازن ، ولكنك تقع في ورطة بائسة . بعض العقول تظل الى الأبد وهي تراعي هذا التوازن في حمولتها ؛ يا لكم من حمقى! ألقوا هذه الرؤوس التي تشبه الغيم المتلبد من فوق ظهر السفينة وعندئذ تعومون بخفة ولا تضلّون .

إن ما اتبع من اجراءات تمهيدية في التخلص من جثة حوت العنبر ، يجري أيضاً في حال جثة الحوت الاثين حين يجنب الى السفينة . إلا أن رأس حوت العنبر يقطع جملة واحدة ، أما رأس الحوت الاثين فيؤخذ منه المشفران واللسان ، وترفع جميعاً الى ظهر السفينة مع تلك العظمة السوداء المعروفة المتصلة بما يسمى «التاج» . ولكن البحارة لم يعملوا أي شيء من هذا القبيل حينئذ وإنما علقت الجثتان كلتاهما وتدلتا عند الكوثلة ، فأصبحت السفينة المحملة بالرأسين تشبه بغلاً يحمل عِدلين باهظين .

وطوال ذلك كله كان فيض الله يلحظ رأس الحوت الاثين في سكون ، وينقل نظراته دائماً وأبداً من التغضنات العميقة هنالك الى الخطوط في رأسه ؛ واتفق أن وقف آخاب بحيث انطبق ذلك البارسي على خياله ، وإذا كان للبارسي خيال أي خيال فإنه اشتبك مع خيال آخاب وزاد في طوله . وحين مضى الملاحون يجهدون كانوا يتطارحون الحديث في تأملات لابية[١] حول الأمور التي مرت جميعاً .

---

(١) نسبة الى (اللاب) سكان لابلاند ، واللاب كلمة سويدية تعني (البدو) وهم في الأصل قبيلة مغولية ألجأتهم الهجمات المتوالية الى أقاصي الشمال من اسكندنافيا وروسيا ، وقد جعلهم تجوالهم ومناخ بلادهم والحرف التي يحترفون يؤمنون بالسحرة والسواحر والتمائم والرق .

٧٤

رأس حوت العنبر ـ موضع مفارقة

ثمة حوتان كبيران تجاور رأساهما فلنربطهما معاً ولنقرن إليهما رأساً من رؤوسنا . وحوت العنبر والحوت الاثين حسب الجسامة هما أبرز الحيتان ، وهما الحوتان الوحيدان اللذان يصيدهما الانسان بانتظام ، ويمثلان لدى الحوات النانتوكتي طرفي الانواع المعروفة من الحيتان جميعاً . وبما أن الاختلاف الظاهري بينهما ملحوظ على أشده في الرأسين ، وبما أن كلا الرأسي متدلٍ من جانب الباقوطة في هذه اللحظة ، وبما أننا نستطيع أن نتنقل بحرية بين الواحد والثاني وذلك بأن نعبر ظهر السفينة وحسب ، فإني أحب أن أعرف أين يمكنك أن تنال فرصة خيراً من هذه لتدرس علم الحيتان دراسة عملية ؟

وأول ما يلفتك هو المفارقة العامة القائمة بين هذين الرأسين : كلاهما جسيم دون ريب إلا أن في رأس حوت العنبر اتساقاً رياضياً ، يفتقر إليه رأس الاثين افتقاراً مؤسفاً . وفي رأس حوت العنبر حظ أوفر من قوة الشخصية فإذا رأيته حكمت له لاإرادياً بالتفوق الهائل في أمر الرفعة الشاملة ؛ ومما يزيد من هذه الرفعة في الظرف الراهن لون رأسه الهجان عند قمته فهو يشبه مزيجاً من الفلفل والملح ، وتلك شارة السنّ العالية والتجربة الواسعة . فهو ـ بإيجاز ـ ما يسميه الصيادون في مصطلحهم « حوت أشيب » .

ثم لنلحظ أقل أوجه التباين بين الرأسين أعني أهمّ جارحتين وهما العين والأذن : في مكان قصي على جانبي الرأس ، وفي موضع نازل قرب الزاويتين عند فكي الحوت إذا فتشت بدقة وجدت آخر الأمر عينين لا أهداب لهما ولقد تحسبهما عيني مهر صغير ، وهما لا يتناسبان في صغرهما أبداً مع ضخامة الرأس .

وبما أن عيني الحوت قد ركبتا في جانبي رأسه فمن الواضح أنه لا يستطيع أن يرى شيئاً واقعاً أمامه تماماً ، مثلما أنه لا يستطيع أيضاً أن يرى ما خلفه ، أعني أن موضع عينيه

حيث تقع أذنا الإنسان ؛ وتستطيع أن تتخيل كيف تكون حالتك وأنت تتملى الأشياء الجانبية بأذنيك ، وستجد أنك لا تقدر أن تحرز سيطرة بصرية إلا على نحو ثلاثين درجة من الرؤية أمام الخط الجانبي المستقيم للنظر ، وثلاثين درجة الى الوراء ، وإذا كان عدوك يتجه نحوك عمودياً من أمامك ، وقد رفع خنجره في وضح النهار ، لم تستطع أن تراه ، بأكثر مما تراه لو كان يتسلل إليك من ورائك ؛ وإذن لكان لك وراءان ، إن صح التعبير ، إلا أن لك في الوقت نفسه أمامين (جانبين) إذ ما الذي يجعل الأمام أماماً بالنسبة للإنسان ، ماذا سوى عينيه حقاً ؟

ثم إن أكثر الحيوانات الأخرى التي تخطر على بالي قد ركبت العينان فيها بحيث تمتزج فيهما قوة النظر حتى تتكون لدى الدماغ فيها صورة واحدة لا صورتان ، أما الموقع الفذ لعيني الحوت ، وقد فصلت بينهما عدة أقدام من رأس مصمت ناتئ بينهما كأنه جبل كبير يفصل بين بحيرتين في واديين ، فإنه يفصل تماماً الانطباعين اللذين تتلقاهما الجارحتان كلٌ على حدة . ولذلك فلابد للحوت من أن يرى صورة واضحة من هذا الجانب وأخرى واضحة من ذلك الجانب بينا يكون ما بينهما ظلام عميق أو خلاء مديد ؛ وإذن فقد نقول : إن الإنسان ينظر الى الكون من مرقب كالصندوق فيه نافذة واحدة ذات فروازين . أما الفروازان عند الحوت فقد وضعا منفصلين فخلقا بذلك نافذتين متمايزتين ، وشوها المنظر على نحو مؤسف . وهذه الميزة في عيني الحوت شيء لابد من تذكره في التحويت ، ولابد للقارئ من أن يتذكره في بعض المناظر التالية .

وقد نأخذ هنا في ذكر مسألة غريبة محيّرة كثيراً تتعلق بهذا الأمر البصري المتصل باللوياثان ، غير أني سأقنع في هذا المقام بلمحة يسيرة فأقول : مادامت عينا الإنسان مفتوحتين في الضوء فالرؤية عمل غير اختياري ، أي أنه لا يملك إلا أن يرى آلياً ما قد يقع أمامه من أشياء . ومع هذا فإن تجربة أي امرئ تدله بأنه يستحيل عليه أن يتفحص شيئين تفحصاً دقيقاً كاملاً ـ كبيرين كانا أو صغيرين ـ في لحظة واحدة ولو كان الشيئان متجاورين متلامسين ، وإن كان يستطيع في لمحة واحدة أن يشمل جميع ما يقع تحت عينيه . ولكن إذا فصل الشيئين أحدهما عن الآخر ، ورسم دائرة عميقة السواد حول كل منهما ، فإنه إن شاء أن يرى أحدهما بحيث لا ينساه أبداً كان عليه أن ينفي الشيء الآخر من وعيه نفياً تاماً . فكيف يكون الأمر إذن في حال الحوت ؟ حقاً إن عينيه كلتيهما لابد أن تعملا في وقت معاً ولكن هل يكون دماغه يا ترى أشد إحاطة وجمعاً ولباقة من دماغ الإنسان حتى انه ليستطيع في نفس اللحظة من الزمن أن يتفحص في دقة منظورين متمايزين يقع أحدهما على

أحد جانبيه ويقع الآخر على الجانب المضاد ؟ فإن كان يستطيع ذلك فذلك فيه شيء عجيب ، كالرجل الذي يقدر أن يتغلغل في مسألتين رياضيتين متمايزتين من مسائل اقليدس ، في وقت معاً . وإذا أنت تدبرت هذه المقارنة بدقة لم تجدها نابية مفتعلة .

وبعض الحيتان إذا هاجمتها ثلاثة قوارب أو أربعة أخذت تتقلب وتتذبذب في حركتها على نحو شاذ غريب ، وأدركها الهلع واستبدت بها المخاوف المستغربة كثيراً ، وأنا أظن أن هذا ينجم بطريقة غير مباشرة من الحيرة المحيّرة الجازعة التي تعتري إرادتها ، وهي حيرة يوقعها فيها انقسام قوة الابصار في اتجاهين متضادين ؛ ولعل هذا الرأي خاطرة من خطرات الوهم ، إلا أنها كثيراً ما كانت تبدو لي تفسيراً لما يصيب بعض الحيتان من هلع .

ولا تقلّ أذن الحوت في غرابتها عن عينه ، وإذا لم يكن لك معرفة وثيقة بجنس الحيتان فإنك قد تجوب بنظرك جميع نواحي هذين الرأسين مدة ساعات ثم لا يقع نظرك على أذنه . فليس للأذن أي صوان خارجي ، وقناتها صغيرة دقيقة حتى لا يكاد القلم يدخل فيها ، وموقعها على مسافة قليلة خلف العين ، وبين الحوتين ، العنبر والأثين ، فرق في الأذن لابد من مراعاته : فأذن حوت العنبر ذات فتحة خارجية ظاهرة أما أذن الثاني فإنها مختفية وراء غشاء حتى لا ترى من خارج .

أليس عجيباً أن لا يبصر الكونَ مخلوقٌ جسيمٌ كالحوت إلا بعين كعينه صغراً ، ولا يسمعُ الرعدَ إلا بأذنٍ أصغر من أذن الأرنب ؟ ولكن لو كانت عيناه واسعتين كعدستي تلسكوب هرشل الضخم[1] ، وكانت أذناه رحبتين كدهاليز الكاتدرائيات ، أكان ذلك يجعل نظره أبعد مدى وسمعه أحدّ ؟ أبداً . إذن فلمَ تسعى أن «توسّع» عقلك ؟ خير لك أن تجعله دقيقاً نحيلاً .

ثم تعال بنا نستعمل كل ما لدينا من عتلات وآلات بخارية كي نقلب رأس حوت العنبر حتى يصبح عاليه سافله ، ثم لنصعد الى قمته على سلّم ونحدق النظر في فمه ؛ ـ ولو أن الجسم قد فصل منه لاستطعنا على ضوء قنديل أن نهبط الى معدته التي تشبه كهف الماموث بكونتكي[2] ، وهو كهف وسيع . ولكن دعنا نستمسك بهذا الناب ونلقي النظر حيث نحن على ما حولنا . ما أجمل هذا الفم الطاهر البريء! إنه مخطط من أدناه الى أعلاه ، أو قل مغلف بغشاء أبيض وضّاء أملس مصقول كأنه ثوب الزفاف .

ولكن هيا اخرج من موضعك وانظر الى هذا الفك السفلي المشؤوم الذي يبدو كأنه

---

(١) هو السير وليم هرشل (١٧٣٨ ـ ١٨٢٢) صنع تلسكوباً كبيراً عام ١٧٨٩ وبه اكتشف الفلك السابع للكوكب زحل .

(٢) اكتشف هذا الكهف ادمند لي عام ١٨٢٤ ـ ١٨٢٥ .

غطاء طويل ضيق فوق صندوق سعوط ضخم ، ذو عضادة عند إحدى نهايتيه بدلاً من جانب واحد . فإذا رفعته حتى جعلته فوق مستوى رأسك وعرضت أمامك صفي أنيابه بدا لك وكأنه متراس فظيع ، وهو كذلك ـ ويا للأسف ـ لدى كثير من الآدميين المساكين في حرفة التحويت حين تطبق عليهم هذه «الرزّات» بقوة نفاذة . ولكنه أشد فظاعة ، حين تبصره حوتاً ضجراً وأنت على بعد قامات تحت الماء ، وقد عام هنالك معلقاً ، وفكّه الهائل الذي يبلغ طوله خمسة عشر قدماً معلق مدلّى على زاوية قائمة مع جسده كأنه صاري البوم في السفينة . هذا الحوت ليس ميتاً وإنما هو فاتر العزم وحسب ، أو لعله منحرف المزاج ، سوداوي . وهو متراخ منبطح حتى أن عضادتي فكّيه قد استرختا ، وجعلتاه يبدو في ذلك اللون من الورطة القبيحة عاراً على بني جنسه ، وهم دون ريب يستنزلون عليه داء الكزاز ، ولابد .

وإذا حضر فنان في شؤون الحيتان فإنه يستطيع أن يفكّ عضادتي هذا الفكّ بسهولة ، وبذلك يُفصل هذا الفك السفلي في معظم الأحوال ويرفع الى ظهر السفينة لانتزاع الأنياب العاجية وللحصول على تلك العظمة الحوتية الصلبة التي يبدع بها الصيادون جميع أنواع الأدوات العجيبة ومنها : القنوات وقوائم المظلات ومقابض سياط الخيّالة .

ويجر الفكّ صعداً على نحو طويل شاق كأنه الأنجر . وحين يحل الوقت المناسب ، أي بعد بضعة أيام تنقضي على الأعمال الأخرى ، يبدأ أطباء الأسنان المتمرسون وهم كويكوج ودغة وطاشطيقو بسحب أنيابه ، فيحسر كويكوج اللثة بمجرفة جزارة حادة ، ثم يربطون الفك الى حلقات في الدسر ، ثم يسلطون عليه مرفاعاً موثقاً من الأعلى ويسحبون بقوته الأسنان مثلما تسحب ثيران متشجن جذم السنديانات الهرمة من الغابات البرية . وتبلغ الأسنان اثنتين وأربعين وتكون في الحيتان الهرمة نخرة دون أن تتعفن ، غير أن الحيتان لا تحشوها حسبما يفعل الآدميون . ثم ينشر الفكّ بعد ذلك في صفائح ويكدّس كما تكدّس الدعامات لبناء الدور .

٧٥

رأس الحوت الأثين ـ موضع مفارقة

لنلقِ نظرة طويلة كاشفة ونحن نعبر ظهرِ السفينة على رأس الحوت الاثين . مثلما ان رأس حوت العنبر النبيل قد يقارن في شكله العام بعربة الحرب الرومانية (وخاصة المقدمة حيث يستدير في سعة واستفاضة) فكذلك رأس الحوت الاثين لدى النظرة الشاملة يحمل شبهاً جافياً بحذاء ضخم ذي «بوز» كأنه مقدّم الجليوت . ومنذ مائتي سنة شبه شكله رحالة هولندي بقالب الحذّاء ، وفي هذا القالب أو الحذاء تستطيع المرأة العجوز التي تذكر في حكايات الأطفال أن تسكن آمنة مطمئنة هي وجميع ذريتها .

وما ان تقترب من هذا الرأس الكبير حتى يتخذ له جوانب مختلفة حسب موقفك وأنت تنظر إليه ، فإذا وقفت عند ذروته وتطلعت الى وقبي نفثه اللذين شقا على شكل f حسبت الرأس كله كماناً ضخماً جهيراً ، وحسبت الوقبين ثقبين في الصندوق الذي يخرج منه الرنين . ثم إذا أثبت عينيك في ذلك التطعيم الغريب المقتنزع الذي يشبه المشط ، على قمة الرأس ـ ذلك الشيء الأخضر المحلزن الذي يسميه أهل جرينلاند : «تاج» الحوت الأثين ويسميه صيادو البحار الجنوبية «قلنسوة» ذلك الحوت ـ إذا أثبت بصرك على هذا الشيء وحده حسبت الرأس جذع سنديانة ضخمة في مَفرَعها عش طائر . وأنت على أي حال إذا رقبت هذه السرطانات الحية التي تعشش في قلنسوته فلابد من أن يخطر لك مثل ذلك الخاطر إلا إن كان خيالك قد قيّدته لفظة «تاج» التي تطلق عليه أيضاً ، وفي مثل هذه الحال سيلذك أن تفكر كيف أن هذا الحيوان الجبار ملك متوج من ملوك البحار وقد عصّب بإكليله على هذا النحو العجيب . ولكن إن يكن هذا الحوت ملكاً فإنه امرؤ متبرم عبوس لا يشرّفُ تاجاً أو إكليلاً . تأمل هذه الجحفلة المدلاّة ، أي عبوس وتجهم مستفيض هنالك! عبوس وتجهّم لو قاس النجار مداهما لجاء حوالي عشرين قدماً في الطول وخمسة أقدام في السُمك ، عبوس وتجهّم تبلغ غلّته خمسمائة جالون من الزيت أو تزيد .

ومن المؤسف أن يكون هذا الحوت المنكود أعلم الشفة ، ويبلغ عَلَمُهُ قدماً واحداً في سعته ، ولعلّ أمه ذات يوم من أيام الحمل كانت تبحر عند ساحل بيرو ، حين شقت الزلازل الشاطئ فانفهق . ومن فوق هذه الشفة العلماء، ننزلق في داخل فمه كما نفعل فوق عتبة زلقة ، ولعمري لو كنت في ماكناو لحسبت هذا الفم فضاءَ كوخٍ هندي . ربـاه! أهذه هي الطريق التي سلكها يونان ؟ سقفه يبلغ حوالي اثني عشر قدماً وينتهي بزاوية حادة كأن هنالك رافدة رئيسة ؛ أما الجوانب المضلعة المقوّسة الشَّعْراء فإنها تقدم لنا تلك الألواح التي تشبه السيف العريض من عظم الحوت وهي نصف رأسية ، ومنها على كل جانب ثلاثمائة ، أصولها في الجزء العلوي من الرأس أو عظمة التاج أو ما سميته «الستارة البندقية» وذكرته عابراً من قبل . وقد هدّبت أطراف هذه العظام بألياف شعرية يصفّي الحوت الأثين الماء من خلالها ، وبين مشابكها يحتفظ بالسمك الصغار حين يتجه مفتوح الفم خلال حقول من القشريات في موسم الغذاء . وفي الستائر العظمية الوسطى ، حسبما هو ترتيبها الطبيعي ، علامات وانحناءات وتجويفات وقنن كلها غريبة ومنها جميعاً يحسب بعض البحارة عمر ذلك الحيوان ، كما يقدر عمر السنديانة من رؤية الحلقات الدائرية في جذعها . وهذا التقدير غير موثوق كثيراً ولكن فيه رائحة من الاحتمال القياسي ؛ وإذا سلمنا به ـ على أية حال ـ فعلينا أن نقدر للحوت الاثين عمراً كبيراً لا توحي به النظرة الأولى ولا تجده معقولاً .

ويبدو أن الناس حين فكروا في هذه «الستائر» ، في الأيام الغابرة ، ذهبوا فيها مذاهب من الوهم غريبة ممعنة في الغرابة فقد دعاها رحالة في مجموعة بركاس «المجاسّ» العجيبة داخل فم الحوت ، ودعاها آخر «شعرات الخنازير» وقال ثالث في بعض رحلات هكليوت مستخدماً لغة أنيقة : «على كل جانب من جانبي هذه المعلمة العليا ما يقرب من مائتي زعنفة وخمسين ، وتتقوس فوق لسانه على جانبي فمه» .

هذه «الزعانف» أو «شعرات الخنازير» أو «المجس» أو «الستائر» أو أياً ما دعوتها هي ـ كما يعلم الناس جميعاً ـ تزوّد السيدات بالمشادّ ، وغيرها من وسائل «التحضير والتكوير» . إلا أن الطلب على هذا النوع بخاصة آخذ منذ عهد بعيد بالتناقص ، وقد بلغت عظام الحوت ذروة مجدها في عصر الملكة آن ، إذ كان لبس الفرنقل حينئذ شائعاً . وكانت السيدات في تلك الأيام يتخطرن برشاقة بين فكي حوت ـ إن جاز القول ـ ونحن اليوم بمثل انسيابهنّ السادر نطير عند سقوط المطر متخذين فكي الحوت أداة وقاية إذ ما المظلة إلا خيمة منشورة على عمود من تلك العظام .

لكن انسَ لحظة ما قيل عن «الستائر» والمجسّات ، وانظر وأنت واقف في فم الحوت

الأثين حولك مستأنفاً : فإذا رأيت هذه الأعمدة ذات الأقواس من العظم مرتبة على نسق ألا تظن أنك داخل أرغن هارلم[1] وأنت تحدق في الألوف من أنابيبه ؟ أما البساط الذي يفترشه الأرغن فإنه سجادة من أنعم ريش الدندي ـ هو اللسان الذي يلتصق بباطن الفم . فهو سمين رخص قابل لأن يتمزق قطعاً إذا رفعته الى ظهر السفينة . هذا هو اللسان نفسه أمام أعيننا أشمله بلمحة وأقول إنه «غلاّل ستة» أعني أنه يعطي من الزيت ما يملأ ستة براميل .

وكان عليك قبل ذلك أن تستوضح لنفسك صدق ما بدأت به ـ أعني حين قلت إن رأسي حوت العنبر والحوت الأثين يكادان يكونان مختلفين تماماً . وأُجمل ما فصلته فأقول : ليس في رأس الحوت الأثين نبع غزير من الزيت ولا أنياب عاجية وليس فكه الأسفل على صورة ضبة طويلة نحيلة . وليس في حوت العنبر ستائر من العظم ولا جحفلة ضخمة ويكاد أن يكون دون لسان ثم ان للحوت الأثين وقبين للنفث ، وليس لحوت العنبر إلا وقب واحد .

ألق آخر نظرة على هذين الرأسين الوقورين المقلسين ماداما هنا معاً لأن أحدهما سيغطس في الماء بعد قليل لينسى أبداً ولن يتأخر الثاني بعده طويلاً .

هل تستطيع أن تتصور التعبير على وجه حوت العنبر ؟ إنه التعبير الذي مات وهو يحمله ، إلا بعض التجعيدات المستطيلة في جبهته فإنها قد انبسطت ؛ وأنا أظن أن جبهته العريضة مليئة بالاطمئنان كأنها سهب من السهوب ، وأنها تولدت عن لامبالاته التأملية نحو الموت ؛ لكن الحظْ التعبير على رأس الحوت الآخر : انظر تلك الشفة السفلى المدهشة وقد لزّت عرضاً الى جانب المركب حتى أصبحت تعانق الفك بقوة أسر ، ألا يحدثك هذا الرأس كله عن تصميم عملي هائل في مواجهة الموت ؟ أنا أرى أن هذا الحوت الأثين كان رواقياً وأن حوت العنبر كان أفلاطونياً يمكن أن يعتنق مذهب اسبنوزا في السنوات الأخيرة من عمره .

---

(١) أقيم هذا الأرغن ١٧٣٥ ـ ١٧٣٨ وفيه ٥٠٠٠ أنبوبة ، قطر الغليظة منها ١٥ إنشاً وأطولها تبلغ ٣٢ قدماً .

٧٦

المنجنيق

قبل أن نغادر في هذا المجال رأس حوت العنبر أود لك ، وأنت الفسيولوجي العاقل ، أن تنتبه بخاصة الى جانبه الأمامي في اكتنازه وتحشده ، وأرى أن تستطلعه رجاء أن تكوّن لنفسك تقديراً معتدلاً لبيقاً عن أي قوة منجنيق مستقرة فيه . ها هنا مسألة حيوية فإما أن تسوّي هذا الأمر بنفسك أو تظل كافراً بحدث قد يكون من أشد الأحداث رعباً في التاريخ المدوّن وإن لم يكن أقلها حظاً من الصحة .

إنك لتلحظ أن مقدم رأس حوت العنبر وهو سابح في وضعه العادي يمثل خطاً يكاد يكون رأسياً على الماء ، وأنت تلحظ أن الجزء السفلي من ذلك المقدم ينحدر متقاعساً بعض الشيء نحو الخلف كي يهيئ مدخلاً يندس فيه الثقب الذي يتلقى الفك السفلي الشبيه بالسارية ، وأنت تلحظ أن الفم واقع تماماً تحت الرأس ، كما لو كان فمك تحت ذقنك ، ثم أنت ترى فوق ذلك كله أن ليس للحوت أنف ظاهر ، وأن ما لديه من أنف ـ وهو وقب النفث ـ واقع في قمة رأسه ، وترى أن عينيه وأذنيه على جانبي الرأس على بعد يساوي ثلث طوله من أمام ، ومن ثم تجد أن مقدم رأس حوت العنبر حائط مصمت جامد ليس فيه جارحة ما أو نتوء حساس من أي نوع كان . زد على ذلك أنك لابد لك من أن تقدر أن ليس ثمة أي أثر طفيف للعظم إلا في الطرف السفلي المنحدر المتجه نحو الخلف من مقدم رأس الحوت ، وأنك لا تبلغ التطوّر الحقفي الكامل إلا بعد أن تقطع ما يقرب من عشرين قدماً من الجبهة ، فهذه الكتلة الضخمة اللاعظمية تشبه حزمة واحدة . وسنتحدث عما قليل في أنها تحتوي ألطف أنواع الزيت ، ولكن لنحدثك ها هنا عن طبيعة المادة التي تغلف هذا التأنث الظاهري بغلاف منيع لا ينفذ فيه شيء . وصفت لك في موضع سابق كيف أن الشحم يتلبس جسم الحوت مثلما يغلف اللحاء البرتقالة ، وكذلك هو الحال في الرأس مع فرق

واحد ، وهو أن هذا الغلاف حول الرأس غير كثيف ولا يعتمد في جساوته على عظم ، وذلك شيء لا يستطيع أن يقدره حق قدره من لم يتمرس به . فلو قذف بأمضى شباة سنان وبأنفذ حربة ، وكان الزراق أقوى الناس ذراعاً ، لندّت عنه طائشة عاجزة حتى كأن جبهة الحوت قد رصفت بحوافر الخيل ، ولست أظن أن فيها إحساساً ما .

ثم تصور لنفسك شيئاً آخر : عندما يصادف أن تندفع سفينتان من سفن شركة الهند الشرقية ضخمتان مشحونتان إحداهما نحو الأخرى في أحواض السفن فماذا يصنع البحارة ؟ إنهم لا يضعون بينهما عند وشك الاحتكاك المرتقب أية مادة صلبة كالحديد أو الخشب ، لا . وإنما يمسكون حزمة ضخمة مستديرة من الحبال والفلين ملفوفة في أكثف نوع وأمتنه من جلد الثور ، فتلك الحزمة تمتصّ ـ بشجاعة ودون أن يصيبها أذى ـ كل ارتطام لو حدث لكسر ما فيهما من أمخال سنديانية وعتلات حديدية ، وهذا في ذاته يكفي ليوضح هذه الحقيقة الناصعة التي أرمي إليها ، ولكني أضيف شيئاً آخر : لقد خطر لي افتراضاً شيء استنتجته من أن في السمك العادي ما قد يسمى مثانة العوم وهي قابلة لأن تنبسط وتنقبض حين تشاء ، وليس للحوت مثل هذه الأداة فيما أعلم ؛ غير أني أعلم أنه ينزل رأسه كله تحت سطح الماء، ثم يرفعه تواً ويسبح وهو قد أخرجه عالياً من الماء وذلك شيء لا يفسر إن لم تكن مثانة العوم فيه ؛ وحين قدرت هذا وقدرت المرونة الطليقة في غلافه وقدرت الداخل الفذّ من رأسه ، أقول : حين قدرت هذه الأمور خطر لي افتراضاً أن تلك الخلايا الرئوية الغريبة قد تكون ذات صلة بالهواء الخارجي ، صلة لا ريب فيها وإن ظلت حتى اليوم مجهولة ، فذلك هو الذي يجعلها قابلة للانبساط والانقباض الهوائي . وإذا كان ذلك كذلك فتخيل لنفسك صمود تلك القوة التي يسهم فيها أشد العناصر لطافة وقدرة على التخريب .

تأمل ما هنالك : من خارجٍ جدار جامد عاتٍ لا يخترقه شيء ولا يصيبه أذى ، ومن داخل شيء بالغ الخفة والطفوّ ، وكونهما معاً كذلك أمر مثير يقيناً ، ووراء ذلك كله تعوم كتلة من الحياة الهائلة ، لا تحتاج في تقدير الإنسان من التقدير إلا ما تحتاجه حزمة الحطب ، لا تحتاج إلا حبلاً يطوّقها ، وكل هذه الكتلة الهائلة تخضع لحركة واحدة كأنها أصغر حشرة . فإذا فصلت لك من بعد كل مميزات القدرة الحالّة في هذا الحيوان المديد وكلّ المراكز التي تتجمع فيها عندما أريك بعض منجزاته الفكرية التي لا يعيرها الناس اهتماماً فإنني واثق من أنك حينئذ تكون قد نفضت عنك كل تسرع الى التكذيب الجاهل وأخذت تركن الى ما أقول : فإن قلت لك إن حوت العنبر قد شق طريقاً خلال برزخ بنما

ومزج الأطلسي بالهادي فإنك لن يطرف لك جفن استغراباً . ذلك أنك إن لم تملك الحوت فإنك في جانب الحقيقة ماتزال غراً ريفياً أو فتى عاطفياً ، ولكن الحقيقة الناصعة شيء لا يواجهه إلا مَرَدَة السمندل فما أقل نصيب الأغرار منها! ما الذي حدث للشاب المضعوف الذي رفع الحجاب المخوف عن وجه الإلاهة في سيس[١] ؟

---

(١) في الأصل : ليس ، وهو خطأ ، والقصة من قصيدة لشلر تحكي حكاية شاب ساذج ذهب الى سيس بمصر ليدرس أسرار الكهّان . وقد حذروه من تمثال « الحقيقة » الملفع بحجاب فما أصاخ لهم ، وفي اليوم التالي وجده الكهنة ممدداً غائباً عن الوعي أمام تمثال إيزيس .

٧٧

دن هيدلبرج الكبير

آن لنا أن نصف كيف تفرغ «دنية» الحوت ولكن عليك أن تعلم شيئاً عن التركيب الداخلي لهذا الذي يجري فيه التفريغ حتى يحيط به فهمك . فاذا اعتبرت رأس الحوت مستطيلاً صلباً فقد تستطيع أن تقسمه على سطح مائل في إسفيني زاوية quoin* يمثل الأدنى منهما التركيب العظمي وهو يؤلف الحقف والفكين ، ويمثل الأعلى كتلة دهنية لا عظام فيها أبداً ، ونهايتها العريضة تشكل جبهة الحوت المديدة الرأسية في ظاهرها . وعند منتصف الجبهة ينقسم اسفين الزاوية الأعلى أفقياً في قسمين متساويين أو يكادان ، وهما من قبل ينقسمان قسمة طبيعية بجدار داخلي من مادة وترية كثيفة .

والجزء السفلي من هذين القسمين يسمى «القرص» وهو خلية كبيرة من الزيت تتكوّن من التعارض والتشابك الذي يتم بين عشرة آلاف من خلايا مرشّحة ، ومادتها في جميع أجزائها نسائج بيض مرنة متينة ، ويسمى القسم العلويّ منهما «الدنيّة» وقد تعد بمثابة دن هيدلبرج الكبير في حوت العنبر . وبما أن هذا الصهريج الكبير المشهور واقع في تجويف الرأس الأمامي فإن جبهة الحوت الواسعة المتغضنة تمثل وسائل غريبة لا تحصى لتزيين هذا الدن العجيب بزينة تعد شعاراً عليه . ومثلما أن دن هيدلبرج[1] كان دائماً طافحاً بأجود خمور وديان الراين ، فكذلك دن الحوت يحوي أثمن غلة زيتية فيه ، أعني ما يسمى «زيت الحوت» الذي يغالي الناس فيه ، في حالته الصافية الخالصة العطرة . ولا توجد هذه

---

* ان هذا المصطلح quoin ليس مما وضعه اقليدس . وانما ينتمي الى الرياضيات البحرية ، ولا أعرف أحداً عرفه من قبل ، وهو جسم صلب يختلف عن الاسفين العاديّ في أن حدّه الحادّ يميل ميلاً منحدراً من جانب بدلاً من أن يكون الاستدقاق من جانبيه ، وهو شيء يستعمله أصحاب المطابع .

(١) وصف هذا الدن Tun بأن طوله ٣١ قدماً وارتفاعه ٢١ قدماً .

المادة الثمينة بهذا الصفاء في أي جزء آخر من أجزاء الحوت . وما دام الحيوان حياً فانها تظل سيالة تماماً فاذا عرضت للهواء بعد الموت فسرعان ما تأخذ في التصلب مرسلة فروعاً بلورية كالتي يكوّنها الثلج الرقيق اللطيف على الماء أول ما يأخذ في التجمد . واذا كان الحوت كبيراً غلّت «دنيّته» ما يقرب من خمسمائة جالون من الزيت وان كان قسط منها يندلق أو ينز أو يتقطر أو يضيع دون أن يمكن استرجاعه أثناء العمل المحفوف بالحرص على استنزافه دون تضييع كثير ، لأسباب وظروف لا يستطاع توقيّها .

بأي مادة رقيقة ثمينة كانوا يبطنون دن هيدلبرج من داخل ؟ لست أدري ولكن تلك البطانة في نعومتها وفراهتها لا يمكن أن توازى بذلك الغشاء البلوري الحريري الذي يكوّن الطبقة الداخلية في «دنية» حوت العنبر كأنه بطانة من «البليس» المرهف الرقيق .

واذا تأملنا تلك الدنية في حوت العنبر وجدناها تحتضن قمة الرأس كله على طولها ، ورأس الحوت ـ كما ذكرنا من قبل ـ يمثل ثلث طول الحيوان كله ، فاذا قدرنا طول حوت ذي حجم معقول بثمانين قدماً كان عمق دنيته يزيد على ستة وعشرين قدماً حين يرفع طولاً عند جنب السفينة .

وعند فصل رأس الحوت عن جسده يقرب الجزار أداته من الموضع الذي تخرق فيه من بعد فوهة لخزان الزيت ، ولذلك كان عليه أن يكون شديد الحيطة لئلا تنقض ضربة من ضرباته المعجلة الطائشة فتهاجم ذلك المعبد وتدلق ما فيه من محتويات بالغة القيمة ، وهذا الطرف المفصول هو الذي يرفع أخيراً من الماء ويظل كذلك بقوة مرفاعي الجزارة اللذين تمثل أربطتهما القنبية على جانب منه غابة من الحبال في تلك الجهة .

وحسبنا ما قلنا ، ولذا أرجو أن تتنبه الى تلك العملية العجيبة ، التي تكاد تكون ضربة قاضية ، أعني حين يُبْزَل ذلك الدن الهيدلبرجي الكبير .

٧٨

حوض ودلاء

يصعد طاشطيقو الى أعلى رشيقاً كأنه قطة ، ويجري مستقيماً على نهاية ساعد الباحة الكبرى المشرفة ، الى الجزء الناتئ منها فوق الدن المرفوع ، دون أن يحني قامته المنتصبة ، ومعه مرفاع خفيف يسمونه «السوط» يتركب من جزءين فقط ويمر من خلال كتلة فيها بكرة واحدة ، ويدلي هذه الكتلة بحيث تتعلق من نهاية الباحة ، ويراوح أحد طرفي الحبل حتى يعلق مستمسكاً بيد تلتقطه على ظهر السفينة ، ثم يهوي الهنديّ في الفضاء وقد وضع يداً على يد نازلاً الى الجزء الآخر حتى يحط في رشاقة على قمة الرأس ، وهناك يظل عالياً ومن دونه سائر أفراد عصبته وهو يصرخ نحوهم طروباً مرحاً ، كأنه مؤذّن يدعو الصالحين للصلاة من قمة مئذنة . وترسل إليه مجرفة حادة قصيرة المقبض ، فيفتش مجتهداً عن المكان الملائم الذي يبدأ عنده فتح ثغرة في الدن . ويأخذ في هذا العمل بأشد حيطة كأنه باحث عن ركاز في بيت قديم فهو يدقّ على الجدران ليعلم أين أودع الذهب ، وحين ينتهي هذا البحث الحذر يُربَطُ دلوٌ قوي مطوق بالحديد ، يشبه دلو الآبار تماماً ، الى أحد طرفي «السوط» ، ويمد الطرف الثاني عبر ظهر السفينة ، وتمسكه هنالك يدان أو ثلاث أيدٍ لبيقة ، فترفع الدلو بحيث يصبح في متناول الهندي الذي قد أوصل اليه رجل آخر سارية طويلة ، فيدخل طاشطيقو السارية في الدلو ، وينزله الى داخل الدن حتى يختفي فيه تماماً ثم يلقي أمره الى البحارة الواقفين عند السوط فيرتفع الدلو ثانية وقد طفح كأنه سجل ملأته الخادم الحلاّبة بالحليب الطازج . وينزل الدلو المفعم من هذا الارتفاع بحرص فتمسك به يدٌ متأهبة لتلقيه وتفرغه في برميل كبير ، ثم يعود مرتفعاً صاعداً ويقوم بالدورة نفسها حتى لا يبقى في الحوض العميق شيء ؛ وقبيل النهاية يدس طاشطيقو السارية الطويلة بشدة ويعمق السّبر في الدن حتى يغيب منها فيه نحو عشرين قدماً .

أمضى أفراد عصبة الباقوطة بعض الوقت في التفريغ والتعبئة على هذا النحو حتى ملأوا عدداً كبيراً من البراميل بالزيت الشذيّ ، وعندئذٍ حدثت حادثة غريبة : أكان طاشطيقو ذلك الهندي المتوحش ساهياً قليل الاكتراث فجعل قبضته ترتخي أو تنزلق عن المرفاعين الكبيرين المربوطين بالحبال اللذين يشدّان الرأس ؟ أكان الموضع الذي يقف فيه خوّاناً موحلاً ؟ هل أراد الشيطان الشرير أن يقع ما وقع دون أن يبدي أسباباً لذلك ؟ كيف حدث ما حدث ؟ لا أحد يدري ، ولكن فجأة فيما كان الدلو الثمانون أو التسعون يصعد فاهقاً ـ رباه! يا لطاشطيقو المسكين! لقد هوى على أم رأسه في الدن الهيدلبرجي ، واختفى عن الأنظار في بقبقة زيتية مفزعة ، كأنه الدلو الثاني الهابط في بئر حقيقية .

وكان دغة أول من فاء الى نفسه من ذلك الموقف المذهل الذي ملك الأنظار جميعاً فصاح : «أنت في الأعلى ، وراح الدلو تلك الوجهة» ووضع احدى قدميه فيه ، كي يثبت قبضة يده اللزجة على «السوط» نفسه ، وجرت الروافع به صاعداً الى قمة الرأس قبيل أن يبلغ طاشطيقو قعره الأدنى . وفي الوقت نفسه جرى هياط ومياط ، فقد تطلع البحارة من فوق حافة السفينة فرأوا الرأس الذي كان ميتاً جامداً ينبض ويتحرك تحت مستوى السطح المائي بقليل ، كأنه قد تملكته في تلك اللحظة فكرة خطيرة ؛ مع أن كل ما حدث هو أن طاشطيقو المسكين كان دون وعي يكشف بذلك الكفاح الذي يبذله عن مدى خطورة العمق الذي انحدر اليه .

وفي تلك اللحظة ، بينا كان دغة على قمة الرأس ينظف السوط الذي علق به بعض الأثر من مرفاعي الجزارة ، سمعت صرخة تصدع حادة ، ويا للفزع الشامل الذي لا يحده وصف! انفلت أحد الكلوبين الكبيرين اللذين يمسكان الرأس ، فأخذت الكتلة الضخمة تتأرجح متراوحة في اهتزازات عنيفة ، حتى ترنحت السفينة السكرى واضطربت ، كأنما صدمها جبل من جليد ، وبدا الكلوب العالق الذي يعتمد عليه الشدّ كله على وشك أن ينفلت ، وذلك أمر غير بعيد لشدة حركة الرأس .

فهتف البحارة بدغة : «انزل ، انزل» . ولكن دغة جعل احدى يديه تمسك أحد المرفاعين الثقيلين فاذا سقط الرأس ظلّ هو معلقاً ، وبعد أن نظف الرجل الزنجي الحبل الملوث ، قذف الدلو في البئر التي تهاوت ، وهدفه أن يمسك الزرّاق الدفين بالدلو ثم ينتشله .

فصاح اسطب : «بحق السماء أيها الرجل أأنت تقذف «خرطوشة» لتصيب هدفاً ؟ كفَّ! كيف يمكن لك أن تعينه وأنت تحشر هذا الدلو المطوق بالحديد على قمة رأسه ، حسبك يا هذا!»

فانبعث صوت كأنه انفجار صاروخ يقول : «ابعد عن المرفاع» .

في تلك اللحظة نفسها هوت الكتلة الضخمة في الماء بصوت كهزيم الرعد كما لو أن الصخرة الأفقية في نياجرا انحدرت في دوّامة[1] ، وذهب الهيكل المنفلت منها فجأة مبعداً حتى غمر الماء طوقه النحاسي المتلألئ ، وحبس جميع البحارة أنفاسهم ودغة يتأرجح فتارة هو فوق رؤوسهم وتارة هو فوق الماء ، وهم يرونه خلال ضباب الرذاذ الكثيف رؤية خافتة متشبثاً بالمرفاع الخطّار بينا كان طاشطيقو المرزّأ الموؤود يغطس في القرارة السحيقة . وما كاد الضباب المعشي ينجلي حتى رأى البحارة زولاً عارياً يحمل في يده سيف التخزين ، وهو محلق لحظة فوق الحافة . وفي اللحظة التالية اصطفق الجسم بالماء فدلّ الاصطفاق على ان صديقي كويكوج الجريء المقدام قد غاص لينتشل الغريق ، فاندفع البحارة جملة الى جانب السفينة وأحصت كل عين كلّ حركة تمعج ، حين ولت اللحظة في أثر أختها ، دون أن يبدو للغارق أو للغاطس أدنى أثر . ووثب بعض الرجال عندئذ في قارب وجذّفوا به مبعدين قليلاً عن السفينة .

فصاح دغة دفعة واحدة من محطّه الهادئ المترجح فوق الرؤوس : «ها! ها!» ونظرنا بعيداً من عند جنب السفينة فرأينا ذراعاً تشق الأمواج الزرق ؛ منظر غريب أن يراه المرء كأن ذراعاً برزت من بين الحشيش النامي فوق بعض القبور .

فصرخ دغة صراخاً مرحاً مستبشراً وهو يقول : «هما معاً! الاثنان ، الاثنان!» وبعد هنيهة رأينا كويكوج يكافح جريئاً مقدماً بيد واحدة وهو يمسك شعر الهندي الطويل باليد الأخرى ، وسحب الرجلان الى القارب ونقلا تواً الى ظهر السفينة أما طاشطيقو فأبطأ في الافاقة ، وأما كويكوج فكأنما بارحت الخفة الرشيقة جسمه .

كيف تمّ هذا الانقاذ السامي النبيل ؟ بعد أن غطس كويكوج وراء الرأس الهابط في بطء ، أحدث بسيفه الماضي طعنات جانبية قريباً من القعر كي يشق فوهة كبيرة من هنالك ، ثم أغمد سيفه وأخذ يطعن بذراعه الطويلة ، في قرار ذلك التجويف نحو سقفه ، وبذلك استخرج منه طاش البائس جراً برأسه ، وقد أقر أنه مدّ ذراعه يبحث عنه أول مرة ، علقت يده برجلِ طاش وكان يعلم أن سحبه برجله عمل غير صحيح وأنه ذو عواقب وخيمة ، فردّ الرجلَ وأخذ يدفع الهندي ويميله حتى قلب وضعه ، فلما جرّب إخراجه مرة أخرى ولد ولادة طبيعية ، أي خرج رأسه أولاً ولم يولد يتناً ، أما الرأس الكبير نفسه فإنه وفى بما يتوقع منه .

---

(١) سقطت قطعة من هذه الصخرة في الشلالات ، في ٢٥ حزيران ١٨٥٠ .

وبفضل شجاعة كويكوج ومهارته العظيمة في فن التوليد تم خلاص طاشطيقو أو استخلاصه بنجاح في وجه أشد العقبات شكاسة وأبعثها على اليأس ، وذلك درس يجب ألا ينسى بحال ؛ ولا بد من أن يدرّس التوليد حيث تدرّس فنون النزال والملاكمة وركوب الخيل والتجديف .

إني لأعلم أن بعض الناس من أهل البرّ لا يصدقون هذه المغامرة الغريبة التي قام بها الجايهيدي ، وان كانوا هم أنفسهم قد رأوا أوسمعوا بسقوط أحد الناس في صهريج أو بئر ، فتلك حادثة غير نادرة الوقوع ، وفيها من أسباب الانزلاق أقلّ مما في قصة هذا الرجل الهنديّ ، اذا نحن قدرنا الزلق البالغ في حافة البئر العنبريّ .

ولعلّ قائلاً أريباً يقول ، كيف كان ذلك ؟ لقد كنا نظن أن رأس حوت العنبر ـ وهو الجزء المصفّى المحكم الألياف ـ هو أخف أجزاء الحوت ، وأشدها قابلية للطفو كالفلّين ، فكيف جعلته يغطس في عنصر أشدّ منه كثافة نوعية ؟ هذه واحدة نأخذها عليك! فأقول : كلا بل هذه « قفشة » في صالحي ضدّكم . لأن طاش المسكين حين وقع ، كانت دنية الحوت قد أفرغت تقريباً مما فيها من مادة خفيفة ولم يبق فيها إلا شيء يسير سوى جدار البئر الكثيف العضلي ـ وهي مادة مزدوجة اللحام مطرّقة ـ كما ذكرت قبلاً ـ أثقل كثيراً من ماء البحر ، وقطعة منها تهوي فيه غائصة كأنها الرصاص . ولكن نزوع هذه المادة للغوص السريع في الحادثة الراهنة كان يعوقه مادياً اجزاء أخرى من الرأس بقيت دون أن تنزع منه ولذلك غاصت في بطء شديد وأناة بالغة ، فمنحت كويكوج فرصة صالحة لكي يؤدي عملية التوليد الرشيقة « على الحارك » ـ إن صحّ القول ـ فالحق أنها كانت ولادة سريعة .

ولو أن طاشطيقو هلك في ذلك الرأس لكان هلاكه ثميناً نفيساً اذ يكون قد ضمخ بأشد زيت عنبر شذيّ بياضاً وألقاً ، ويكون قد كفن وألحد ودفن في الغرفة السرية الداخلية في قدس أقداس الحوت ، ولا تفوق هذه الخاتمة في عذوبتها إلا خاتمة أخرى ـ هي ذلك الموت اللذيذ الذي واجهه مشتار عسل في أوهايو ، فقد كان يبحث عن العسل في شعبة شجرة جوفاء فوجد منه كمية وفيرة ، حين أنه مال عليها وبالغ في الميل تشبثت به وامتصته في جوفها فمات محنطاً مطيباً ؛ كم من الناس فيما تظنون سقطوا بالمثل في رأس افلاطون العسليّ وهلكوا هذا الهلاك المستعذب ؟

٧٩

جبهة كالسهوب اتساعاً

لم يقم حتى اليوم عالم بالقوى العقلية أو عارف بالفراسة بقراءة الخطوط على وجه الحوت والنتوءات في رأسه ، ومثل هذا العمل ذو ثمرات مرجوة كأن يتفهم لافاتر الغضون في جبل طارق أو كأن يصعد جول سلماً ويمارس النظر في قبة البانثيون . ثم إن لافاتر لم يهتم فحسب بمختلف وجوه الآدميين في مؤلفه المشهور بل درس بامعان وجه الخيول والطيور والأفاعي والأسماك . وأسهب في تبيان صور التعبير التي استبانها ثمة . وكذلك جول وتلميذه سبورتزهايم[1] فانهما لم يعجزا عن إلقاء بعض اللمحات حول الخصائص العقلية في كائنات أخرى عدا الانسان . ولذا سأبذل جهدي لتطبيق هذين الفرعين شبه العلميين على الحوت ، وان لم يكن لديّ من القدرة ما يجعلني طليعة الباحثين في هذا الباب ، لكنني أجرب كل شيء وأنجز من ذلك قدر الطاقة .

اذا تأملت الحوت من زاوية الفراسة وجدته مخلوقاً شاذاً غريباً اذ ليس له أنف متحيّز ، والأنف ملتقى الملامح وأبرزها وضوحاً ، وربما كان هو الذي يعدّل فيما توحي به الملامح مجتمعة من تعبير ويسيطر في النهاية عليه ، فاذا لم يكن له وجود ، أي اذا لم يصبح بارزاً ظاهراً فان ذلك يؤثر في قسمات الحوت تأثيراً كبيراً . ولا يتسق أي وجه من الناحية الفراسية دون عرنين أشمّ مثلما أن المنظر الطبيعي لا يكتمل دون مسلّة أو قبة أو نصب . أجدع أنف زيوس من التمثال الرخامي الذي صنعه فيدياس ، فأية بقية جدعاء محزنة تبقى منه!! ومع ذلك فإن اللوياثان ذو جسامة جبارة وتناسب متسق جليل حتى أن النقص الذي يبدو بشعاً كريهاً في تمثال زيوس لا يعد وصماً في الحوت أبداً . بل أنه يضفي عليه عظمة

---

(١) لافاتر (١٧٤١-١٨٠١) وجول (١٧٥٨-١٨٢٨) وسبورتزهايم (١٧٧٦-١٨٢٨) والأول ألف في الفراسة والاثنان الآخران كانا طبيين في فينا يعملان دراسات على وظائف الدماغ .

وجلالاً ، ولو كان له أنف لكان حشواً منفراً . واذا قمت برحلة فراسية حول رأسه الضخم في «فلوكتك» فإن تصوّراتك الرفيعة عنه لن تلحقها زراية أبداً إذا خطر لك أنه ذو أنف راغم . ذلك تصوّر وبيل ولكنه قد يكون ملحفاً في تطفله على خاطرك حتى وأنت تبصر أعظم الآمرين جبروتاً فوق عرشه .

لعلّ أبلغ منظر أثراً في النفس من ناحية الفراسة ومن بعض وجوهه الخاصة في حوت العنبر هو المنظر الكامل لمقدّم رأسه ، فذلك شيء رائع جليل .

اذا شئت أن تتصور جبهة الآدمي حين تكون جميلة وجدتها تشبه المشرق حين يوقظه الصباح ؛ ولجبهة الثور المجعدة وهو في هدأة المرعى مسحة من جلال ؛ وجبهة الفيل ذات فخامة وهو يدفع مدفعاً ثقيلاً بين شعاف الجبال . وسواء أكانت الجبهة العجيبة لآدمي أو لحيوان فانها تشبه الطرة الذهبية الضخمة التي كان أباطرة الرومان يثبتونها على «فرماناتهم» ، ومغزاها : «الله ـ صنعته اليوم يدي» . ولكن الجبهة في أكثر المخلوقات وفي الانسان نفسه كثيراً ما تكون شريطاً من بروز جبلي ممتد على طول خط الجليد ، وقلما ترتفع الجباه سامقة ارتفاع جبهة شيكسبير أو ملانكثون[1] ، ثم تهبط هبوطاً دانياً حتى تكون العينان مثل بحيرتين جبليّتين صافيتين خالدتين لاتموّج فيهما ، وكأنّك تقتفي في تجاعيد الجبهة فوقهما أثر الأفكار الوعلية التي نزلت هناك لتشرب كما يقتفي صيّادو المرتفعات آثار أقدام الوعول في الثلوج . ولكن هذه العزّة المستعلية المتألهة المستقرّة في جبهة حوت العنبر الكبير قد امتدّت واتّسعت ، حتى أنّك اذا حدّقت فيها وأنت تواجه الرأس من أمام شعرت بالإله والقوى الجبّارة هنالك بأكثر ممّا تشعر بها وأنت تنظر الى أيّ شيء آخر في الطبيعة الحيّة . ذلك لأنّ نظرك لايقع على شيء واحد إذا لاينكشف له أيّ ملمح على حدّة ، فلست ترى أنفاً أو عينين أو أذنين أو فماً ، لست ترى وجهاً ، إذ ليس للحوت وجه محدّد السّمات ، ليس له إلاّ جلد عريض واحد يسمّى جبهة ، وقد غضّنته الألغاز ، وكتبت في أخاديده الصامتة مصاير القوارب والسفن والناس . وإذا أخذته بنظرك من جانبه لم يختفِ عنك شيء من هذه الجبهة العجيبة ، وإن كانت أبّهته ، إن أنت نظرت اليه من جانب ، أقلّ أثراً في نفسك ، إذ أنّ النظر من جانب يجعلك ترى بوضوح ذلك الانخساف الأفقي شبه الهلاليّ في منتصف الجبهة ، وهو مايعدّه لافاتر في الإنسان سمة على العبقريّة .

أنّى ذلك ؟ عبقريّة في حوت العنبر ؟ هل حدث أن ألف حوت العنبر كتاباً أو ألقى

---

(١) فيليب ملانكثون أحد المصلحين ، وقد عرضت صورة رأسه في أحد كتب الفراسة (في القرن التاسع عشر) والى جانبها صورة رأس أحد المجرمين .

خطاباً ؟ كلاّ بل إنّ عبقريّته العظيمة لتتجلّى في امتناعه عن أداء مايثبت وجودها فيه . وأشدّ مايعلن عنها صمته الهرمي ، وهذا يذكّرني بأهل الشرق القديم في مطلع التاريخ ، فلو أنهم عرفوا حوت العنبر لألّهته أفكارهم الطفوليّة الوثنيّة ، فقد ألّهوا التمساح في النيل لأنه لا لسان له ، وحوت العنبر دون لسان أو ذو لسان موغل في الدقّة والصغر حتّى أنه لايستطيع أن يبرزه ، فلو أنّ شعباً عظيم الثقافة خيالي النزعة انجذب بعد اليوم الى عهد طفولته وعاد الى آلهته وعصرها الذهبي الجميل ، وبعثها من رقدتها وأمطأها العرش في هذه السّماء التي غدت اليوم أنانيّة ، في هذا الريد الذي لم تعدّ تسكنه الأرواح والأشباح ، فكنْ على يقين من أنّ حوت العنبر سيحرز بينها قصب السبق ويستوي على عرش زيوس نفسه .

لقد فكّ شمبوليون[١] معميّات التجاعيد الهيروغليفية فوق جباه الغرانيت ، ولكنْ أنّى لنا بشمبوليون آخر كي يفكّ الأحرف الهيروغليفيّة في وجه كلّ إنسان وكلّ مخلوق . وما الفراسة إلاّ خرافة عابرة ، كسائر علوم الإنسان . فإذا عجز السير وليم جونز[٢] الذي كان يقرأ في ثلاثين لغة عن قراءة أبسط وجه لريفيّ ساذج في معانيه العميقة المتوارية فكم رجل من مثل اسماعيل الأمّي يرجو أن يقرأ الخطوط المسماريّة الرهيبة على جبهة الحوت! إنني لأضع هذه الجبهة تحت أعينكم فاقرأوها إن قدرتم .

(١) جان فرنسوا شمبوليون (١٧٩٠ ـ١٨٣٢) قرأ حجر الرشيد .

(٢) مستشرق انجليزي (١٧٤٦ـ ١٧٩٤) ترجم كثيراً من الأدب العربي والفارسي والهندي الى الانجليزيّة .

٨٠

لب الجوزة

إن كان حوت العنبر من الناحية الفراسيّة أبا هول فإن دماغه في رأي عالم القوى العقليّة ليبدو أنه الدائرة التي يستحيل تربيعها .

في الحوت الذي اكتمل نموّه يبلغ طول الجمجمة عشرين قدماً على الأقل . افصل الفكّ السفلي يصبح المنظر الجانبي لهذه الجمجمة كالمنظر الجانبي لسطح مائل ميلاً معتدلاً ، مستند كله الى قاعدة مستوية ، وقد رأينا فيما سبق أنّ هذا السطح المائل أثناء الحياة مملوء حتّى أقصى ميله وأنه يكاد يكون مربّعاً بكتلة هائلة متراكبة من اللحم والزيت . وعند النهاية العليا تكون الجمجمة وعاء يفترشه ذلك الجزء من تلك الكتلة ، وتحت قاعدة هذا الوعاء ، حيث يوجد تجويف آخر نادراً مايزيد على عشر بوصات طولاً ومثلها عمقاً ، يستقرّ دماغ هذا الحيوان وهو لا يتجاوز الحفنة في حجمه . ويقع الدماغ على بعد عشرين قدماً على الأقل من جبهته الظاهرة ، فقد اختبأ وراء استحكامات واسعة كأنه القلعة الجوهانيّة في حصون كويبك المترامية الأطراف . فكأنّه علبة جواهر نفيسة وقد أودعت في صوّانها حتّى إنّي عرفت بعض الحوّاتين ينكرون جازمين أن يكون لحوت العنبر أيّ دماغ سوى ذلك الشبيه الملموس الذي يمثّله خزّان الزيت ومساحته بضع ياردات مكعّبة ، وبما أنّ هذا الجزء العجيب منه يقع في مكامن ومسارب وتلافيف غريبه فإنه يبدو لهم مركزاً لذكائه فذلك أنسب لما يتصوّرونه عن مبلغ جبروته وقوّته .

من الواضح اذن أنّ رأس هذا اللوياثان من ناحية علم القوى العقليّة ، وهو في حال الحياة السليمة ، إنّما هو خداع محض فأنت لاتستطيع أن ترى أيّة إمارات على دماغه الحقيقي ولاتستطيع أن تحسّ بها ، فالحوت ككل الأشياء التي تتميّز بالقوّة يلبس للعالم وجهاً خادعاً .

ولو أفرغت جمجمته من حمولتها الزيتيّة وألقيت نظرة من خلف على الطرف الخلفي ، وهو الطرف الأعلى ، لراعك الشبه بين هذه الجمجمة والجمجمة الآدميّة إذا نظرت اليها من ناحية القذال ومن زاوية مشابهة . حقاً إنّك لو وضعت هذه الجمجمة المعكوسة (بعد أن تجعل لها مقياساً قريباً من حجم الجمجمة الآدميّة) بين صف من جماجم الآدميين لما استطعت ـ رغماً عنك ـ أن تميّزها منها . وإذا رأيت الإنخسافات على أحد أجزاء قمحدوته فإنّك تقول في صيغة فراسيّة : هذا الإنسان ليس لديه تقدير واحترام ذاتي . وإن نفيت عنه هاتين الصفتين وتدبّرت معهما الصفة الإيجابيّة فيه من جسامة وقوّة استطعت أن تكوّن لنفسك ـ على خير ماتستطيع ـ أصدق تصوّر عمّا تعنيه القوّة ، أسمى القوّة ، وإن لم يكن ذلك أشد التصوّرات إثارة للسرور والإبتهاج .

ولكنْ إن كنت تظنّ أنّ الحوت لايمكن وضعه في صنف لائق به بسبب من الأبعاد النسبيّة في دماغه نفسه ، فإنّي أقترح عليك فكرة أخرى : إذا تأمّلت في إمعان السلسلة الفقريّة في جلّ ذوات الأربع هالك الشبه بين الفقرات وبين عقد منظوم من جماجم قمينة ممسوخة ، وكلّها تشبه الجمجمة الحق شبهاً عارضاً ، وقد تصوّر الألمان أنّ الفقرات جماجم توقّف تطوّرها ، ولكن الشبه العجيب الظاهري الذي أقول به لم يكن الألمان أوّل من لحظوه . بل نبّهني اليه ذات مرة صديق أجنبي في هيكل عدو له كان قد قتله وكان يرصّع بفقراته مقدّم زورقه الأشغى كأنه يتّخذ منها نقشاً بارزاً . وأنا أقدّر أنّ علماء القوى العقليّة قد أغفلوا شيئاً هامّاً حين لم يدفعوا بحثهم قدماً من المخيخ نحو القناة الشوكية ، لأنّي أعتقد أنّ جانباً كبيراً من طبع المرء إنّما يدلّ عليه عظم فقاره ، ولو خيّرت لتفحّصت صلب المرء بدلاً من جمجمته أيّاً كان هو ، وأنا أرى أنّ خيطاً دقيقاً من سلسلة الظهر لايمكن أن يحمل روحاً مكتملة سامية . وإنّي لأشعر بالإبتهاج من سلسلة ظهري مثلما أبتهج بالعصا الجرينة التي أرفع عليها ذلك العلم كي يراه العالم .

طبّق هذا العلم الفقري من علم القوى العقليّة على حوت العنبر : أمّا تجويفه القحفي فإنه مستمرّ مع الفقرة العنقيّة الأولى ، وتمتد قاعدة القناة الشوكيّة في تلك الفقرة على عرض يبلغ عشر بوصات ، وارتفاعها ثماني ، وهي تؤلّف مع القاعدة شكلاً مثلّثاً ، فإذا مرّت القناة الشوكيّة خلال سائر الفقرات أخذت تستدق حجماً إلا أنها تظلّ على مدى مسافة غير قليلة ذات سعة كبيرة . ولاريب في أنّ هذه القناة ممتلئة بتلك المادة الغريبة نفسها ذات الألياف ـ أي النخاع الشوكي ـ شأنها في ذلك شأن الدماغ ، ولها بالدماغ صلة مباشرة ، ثمّ إنّ النخاع الشوكي يظلّ ، على مدى عدّة أقدام بعد انبثاقه من تجويف الدماغ ، ذا محيط متّسق

لايتناقص ويكاد يكون محيطه مساوياً لمحيط الدماغ ، وفي مثل هذه الظروف أيكون من غير المعقول أن نتعرّف الى صلب الحوت من زاوية علم القوى العقليّة ونرسم له صورة ؟ إننا إذا نظرنا اليه من هذه الزاوية وجدنا الجسامة النسبيّة في نخاعه الشوكي تعوّض عن الصغر النسبي في دماغه نفسه .

غير أنّي أترك هذه اللمحة لتفعل فعلها كيف شاءت لدى علماء القوى العقليّة ، واتّخذ هذه النظريّة التي تدور حول النخاع الشوكي لحظة لأطبّقها على حردبّة حوت العنبر ، فإذا لم أكن مخطئاً قلت : إنّ هذه الحردبّة الجليلة تقوم فوق إحدى الفقرات الضخمة وإذن هي من وجه ما التحدّب الخارجي لتلك الفقرة ، وبسبب موقع تلك الفقرة العالية سوف أدعوها عضو الثبات ، عضو رباطة الجأش في حوت العنبر ، وسوف يأتيك النبأ اليقين عن ركانة الحوت العظيم ورباطة جأشه .

٨١

الباقوطة تلتقي بالسفينة «العذراء»

حلّ اليوم الموعود والتقينا السفينة «العذراء» ـ يونجفراوـ ، ورائسها اسمه دريك دي دير من مدينة برمن . لقد كان الألمان والهولنديّون ذات يوم هم سادة مهنة التحويت ، أمّا اليوم فقد أصبحوا من أقلّ الناس فيها شأناً ، إلاّ أنّك ماتزال ترى عَرضاً هنا وهناك على عروض وأطوال متباعدة علماً ألمانياً أو هولندياً في المحيط الهادي .

وكانت «العذراء» لسبب ما ، توّاقة كي تلتقي بنا وتسلّم علينا ، وقد كانت على مسافة من الباقوطة حين دارت وأنزل بحّارتها قارباً ، وعمد قبطانها نحونا واقفاً في جزع ولهفة عند مقربة القارب بدل أن يقف في مؤخّرته .

فصاح استاربك وهو يشير الى شيء كان يتأرجح في يد الألماني : «ماذا في يده ؟ مستحيل! جهاز التزييت!» .

فقال اسطب : «لا . ليس هو . هذه غلاية قهوة ياسيّد استاربك ، لقد جاء ليقدّم لنا قهوتنا ، ذلك اليرمان . ألست ترى تلك الصفيحة الكبيرة التي يحملها على جنبه ، هذا وعاء الماء المغلي لقد أصاب اليرمان وعرف ما نحتاج» .

فصاح فلاسك : «دع ترّهاتك ، هذا جهاز تزييت وتلك صفيحة للزيت ، لقد نفد الزيت لديهم وجاء يستجدينا منه شيئاً» .

قد يبدو غريباً أن تستمدّ سفينة زيت زيتاً في مجال من مجالات التحويت ، ومهما يناقض هذا الوضع المثل القديم القائل : «كناقل التمر الى هجر ـ والفحم الى نيوكاسل» ، فإنه أمر يحدث أحياناً ، وكان القبطان دريك دي دير في تلك الحال يحمل دون جدال جهاز تزييت كما قال فلاسك .

فلمّا اعتلى ظهر السفينة حيّاه آخاب تحيّة مقتضبة دون أن يتنبّه الى مايحمله في يده ،

ولكنّ الرجل الألماني سرعان مادلّ في لهجته المكسّرة على جهله التّام بشأن الحوت الأبيض ، وأدار دفّة الحديث نحو جهاز التزييت وصفيحة الزيت ، وألمع الى أنه أحياناً يذهب الى سريره ليلاً في ظلامٍ دامس ـ فقد نفدت آخر قطرة لديه من زيت برمن ، ولم يصيدوا أيّة سمكة عابرة تزوّدهم بما يعوزهم ، وختم كلامه بأنه ألمح الى أنّ السفينة هي حقّاً مايسمّونه في حرفة السّماكة باسم «السفينة النظيفة» (أي الخالية) وأنها لذلك تستحقّ أن تسمّى العذراء أو يونجفراو .

وغادر السفينة بعد أن زوّد بما يحتاجه ، ولكنّه لم يكن قد بلغ جانب سفينته حتّى ارتفعت النداءات من قمم صواري السفينتين في وقت معاً بأنّ الحيتان هناك ، وكان دريك جدّ توّاق للمطاردة ، بل استدار بقاربه ولحق بالحيتان وهي أجهزة التزييت الحقيقي .

وبما أنّ الطراند شوهدت في الجانب الأيسر وفق المهبّ فقد استطاع قاربه والقوارب الألمانيّة الثلاثة الأخرى التي لحقت به توّاً أن تحوز السبق أمام قوارب الباقوطة ، وكانت الحيتان ثمانية عدداً ، وهو سرب معتدل لاهو كبير ولا هو صغير ، وإذ أحسّت بالخطر تقدّمت معاً بسرعة فائقة أمام الريح وجوانبها تحتكّ متقاربة كأنها أزواج من الخيول في وثاق . وخلفت وراءها مخراً واسعاً كبيراً كأنّها كانت تفرش على وجه الماء رقّاً كبيراً واسعاً .

وعلى بعد عدّة قامات في المؤخّرة ، في حومة ذلك المخر السريع ، كان يسبح حوت ضخم محدّب مسن ، وبدا لبطئه النسبي في تقدّمه وللرصعات الصفراء الشاذّة التي تعلوه كأنّما هو مصاب باليرقان أو بمرض آخر . وربّما لم يكن هذا الحوت ينتمي الى الرعيل المتقدم ، إذ ليس في طباع هذه الحيتان الوقورة أن تنتحل مظاهر التبجيل والاحترام . ومع ذلك فقد لزم مخرها لايبرحه وإن كان الماء الذي تدفعه تلك الحيتان كان يعيقه إذ كانت العظمة البيضاء ، وهي البروز النادّ عند خطمه العريض ، قد تفرطحت كأنّها البروز التي تتكوّن حين يلتقي تيّاران متضادّان . وكانت نفثته قصيرة بطيئة مجهدة ، تنبعث كأنّها دفقة مختنقة ، وتصير الى مزقٍ متناثرة ، تتلوها اضطرابات شيطانيّة غريبة فيه ، فتؤثّر على طرفه الآخر المغموس في الماء ، فتجعل الماء من خلفه ينعقد حبّباً .

وقال اسطب : «من لديه دواء مسكّن ؟ هذا الحوت تؤلمه معدته ، ربّاه! تصوّروا أن يشمل الألم معدة حجمها نصف فدّان . الرياح الوبيلة تقيم في جوفه عيداً جنونيّاً أيها الفتيان . هذه أوّل ريح رديئة أعرفها تهبّ من خلف . تأمّلوا أرأيتم حوتاً ضلّ ضلاله من قبل ؟ يقيناً لقد فقد سكّانه الذي يهديه سواء السبيل» .

ومضى هذا الحوت الهرم ينهض مثاقلاً بعبء السنين كأنّه بارجة تطرّمت بالمشحونات ذاهبة في ساحل هندوستان ، وقد حملت على ظهرها ملئه من خيول مُفزعة ، فهي تميل وتنغمس وتتدحرج وتترنّح في طريقها ، وبين الحين والحين كان ذلك الحوت يدور دورة جزئيّة على أطراف أضلاعة المعوّقة ، فيبيّن أنّ سبب الإنحراف في مخره إنّما تأتّى عن أنّ زعنفته اليمنى لم يبقَ منها إلاّ جذم شاذ . هل فقد تلك الزعنفة في إحدى المعارك ، أو ولد دون زعنفة ؟ من العسير أن يجزم المرء في ذلك .

فقال فلاسك القاسي القلب وهو يشير الى حبل التحويت الموضوع الى جانبه : «انتظر قليلاً أيّها الفتى الفاني وسأعوّضك عن ذراعك المهيض مقلاعاً» .

فصاح استاربك : «احذر أن يمقلعك به . هيّا هيّا وإلاّ أدركه الألماني دونك» .

قصدت القوارب المتنافسة مجتمعة محتشدة العزيمة قصد ذلك الحوت ، إذ كان هو أكبر الحيتان ومن ثمّ أغزرها غلّةً وقيمة ، ثمّ كان هو أدناها من القوارب ، بينما كانت الحيتان الأخرى تجري بأقصى سرعة ، حتّى كانت تكاد تتحدّى في تلك الوهلة كلّ رجاء بإدراكها ، وعند تلك النقطة مرقت قوارب الباقوطة مخلفة وراءها القوارب الألمانيّة الثلاثة التي أنزلت متأخّرة ، إلاّ أنّ الإنطلاقة الأولى التي ذهب فيها قارب دريك ، جعلته يبقى في الطليعة ، وإن كانت كلّ لحظة تدني منافسيه الأجانب منه ، وكان كلّ مايخشونه ، لشدّة اقترابه من هدفه ، أن يقذف بحديدته قبل أن يدركوه ويتقدّموه ، فأمّا دريك نفسه فيبدو أنّه كان واثقاً من أنّ الأمر في صالحه ، ولذا كان بين الحين والحين يهزّ المزيتة في وجه القوارب الأخرى في إيماءة ساخرة .

فصاح استاربك : «ياللكلب الفظ المنكر للجميل! إنه ليسخر منّي ويهاجمني بالمزيتة البائسة نفسها التي ملأتها له قبل دقائق» ـ ثمّ عاد الى همساته الجادّة القديمة يقول : «باعدوا التجذيف ياكلاب الصّيد! هيّا استكلبوا!» .

فقال اسطب يخاطب ملاّحيه : «سأخبركم بحقيقة الأمر يارجال . حقيقة الأمر أنّ الهياج الأحمق ليس من مبدأي ، غير أنّي لا أمانع في أن ألتهم ذلك الوغد اليرمان ـ ادفعوا ـ ألا تريدون ؟ هل تسمحون لهذا الخبيث أن يسبقكم ؟ أتحبّون شرب البراندي ؟ إذن فإنّ المتميّزين فيكم سيحصلون على برميلٍ منه . هيّا لِمَ لا يفجّر بعضكم شرايينه حميّة ؟ من ذا الذي منكم قذ ألقى مرساة في الماء فنحن كأننا قد رسونا ، لانتحرّك قيد أنملة ، لقد سكنت قواربنا . هيلا! هذا حشيش قد نما في قعر القارب لطول لبثه ، وحقّ الرب لقد أخذ الصاري لطول انغراسه الساكن يرسل براعم . لا يافتيان هذا لايحقّق شيئاً ، انظروا الى ذلك اليرمان! المسألة برمّتها يارجال هي : هل تنفثون النار شدّاً وحماسة أو لا تنفثون ؟ »

فصاح فلاسك وهو ينطّ صاعداً هابطاً : «آه انظروا الزبد الذي يكوّنه ـ يالها من حردبة كأنها قرمة ضخمة من خشب . احتشدوا حول اللحم الحنيذ ، هيّا ، آه يافتياني! اقفزوا! سيكون عشاؤكم من كعك الجردك والحلزون ، أنتم تعلمون يافتياني ، الحلزون المشويّ وفطير المفين . بربّكم اقفزوا ، ثبوا ، هذا الحوت من ذوات المائة برميل ، إيّاكم أن يفلتكم ، بالله لا تدعوه يفوتكم! انظروا الى ذلك اليرمان! آه ، ألا تجذّفون من أجل نصيبكم من العصيدة يافتياني! يا له من نقيع! ياله من منتقع! ألا تحبّون زيت العنبر ، هاهي ثلاثة آلاف دولار من الزيت يارجال! أمامكم بنك ، بنك كامل ، بنك انجلترا هيّا! هيّا! هيّا ، لأيّ شيء يتأهّب اليرمان الآن ؟» .

في تلك اللحظة كان دريك يهمّ أن يطرح المزيتة على القوارب المتقدّمة ، ويلقي عليها بصفيحة الزيت ، ولعلّ غايته كانت مزدوجة أي أن يعوّق منافسيه وأن يزيد من سرعه قاربه بما تحدثه الرجة الخلفية فيه من زخم للإندفاع قدماً .

فصاح اسطب : «ياله من قارب هولندي لاخلاق له! جدّفوا يارجال كأنكم خمسون ألف صف من شواني حربيّة بحارتها شياطين حمر الشعور . ما قولك ياطاشطيقوا ؟ أأنت المرء يكسر عموده الفقري اثنتين وعشرين قطعة من أجل اسم بلدك العريق ؟ ماقولك ؟» .

فصرخ الهندي : «أقول : جذّفوا كأنّ لعنة الله حلّت بكم!»

بدأت قوارب الباقوطة الثلاثة وقد هاجها زجر الألماني تصطف جنباً لجنب حتّى تكاد تدنو منه صفّاً واحداً ، وهي على ذلك النسق ، ووقف الضبّاط الثلاثة في خيلاء ، وقفة رائس القارب حين يكون في موقف جميل طليق بطولي وهو يدنو من فريسته ، وهم بين الحين والحين يسندون صاحب المجذاف من ورائه بصيحة جذلى قائلين : «هنالك ينزلق الحوت ، مرحى للنسمات التي تعين المجاذيف! ليسقط اليرمان ، ادفعوا قواربكم من فوقه!»

لكنّ دريك ذهب في انطلاقة أصيلة مصمّمة حتّى كاد يكون رغم كلّ ما أبداه منافسوه من بطولة هو الفائز في السّباق ، لولا أنّ القدر العادل نزل عليه في صورة سرطان علق صاحبه المجذاف الأوسط . وبينما كان هذا الملاّح «العبيط» يحاول أن يخلّص مجذافه ويكاد قارب دريك ينقلب من تلك المحاولة وهو يرعد نحو رجاله في غضبٍ هائج ، كان ذلك كلّه فرصة طيّبة يغتنمها كلّ من استاربك واسطب وفلاسك . فانقضّوا الى الأمام انقضاضة مستيئسة ـ دون صخب ـ واصطفّوا أمام موقع الألماني في صفّ موارب وبعد لحظة كانت القوارب الأربعة في المخر القريب من ذنب الحوت معاً في اتّجاه كأنه قطر المربّع ، بينما كانت تتناثر على الجانبين منها نفاخات الزبد الذي يثيره اندفاعه .

كان منظراً مفزعاً هائجاً داعياً للإشفاق والرثاء ، إذ كان الحوت عندئذٍ يشتدّ وقد أخرج رأسه ، وأخذت نفثاته تبعث أمامه بنفثات متكرّرة متألّمة ، بينما كانت زعنفته الوحيدة البائسة ترف على جانبه في عذاب الفزع ، وكان هو في هربه المتلجّج المضطرب يهيم متلدّداً تارة لليمين وتارة لليسار ، وكلّما هدّ موجة مخبّة غاص في البحر متشنّجاً أو قلب على أحد جانبيه زعنفته الوحيدة الرفّافة نحو الفضاء . لقد رأيت طيراً مقصوص الجناح يدوّم في الفضاء تدويماً مفزعاً متردّداً محاولاً دون جدوى أن ينجو من مخالب الشواهين القنّاصة . غير أنّ للطائر صوتاً فهو يعبّر بصيحاته الحزينه عن خوفه ، أمّا خوف هذا الوحش البحري الأخرس الجسيم ، فإنه كان محبوساً مسحوراً فيه ، إذ لم يكن له صوت إلاّ الشهقات المختنقة من خلال فويهة التنفّس ، وهذا ماجعل منظره مثيراً للرثاء الى حدٍّ يعجز عنه التعبير ، ومع ذلك فقد كان في جسامته المدهشة وفكّه المتراسي وذنبه الهائل مايفزع أقوى امرىء مشفق .

ولمّا رأى دريك أنه لم يبقَ إلاّ بضع لحظات حتّى تكسب قوارب الباقوطة الجولة دونه وبذلك ينهزم خائباً دون طريدته آثر أن يجازف بإلقاء ماقد يبدو له رمية بعيدة قبل أن تفوته آخر فرصة الى الأبد .

وماكاد زرّاقه يقف لتسديد الضربة حتّى قفز النمور الثلاثة كويكوج وطاشطيقوا ودغة ، بدافع الغريزة ، على أقدامهم ووقفوا صفّاً مواربا ، وسدّدوا حرابهم في الوقت نفسه ، وقذفوا من فوق رأس الزرّاق الألماني بحرابهم النانتوكتية الثلاث فانغرزت في جسم الحوت ، وارتفعت أبخرة الزبد والنار البيضاء تعشي العيون! وارتطمت القوارب الثلاثة لدى هياج الحوت عند أوّل انطلاقة رأسيّة يأتيها بالقارب الألماني ارتطاماً قوياً حتّى أنّ دريك وزرّاقه المغلوب على أمره اندلقا منه ، ومرّت من فوقهما القوارب الثلاثة الطائرة .

وإذ ألقى عليهما اسطب نظرة عابرة وهو منطلق صاح بهما : «لاتخافا أيّها العزيزان ، ياعلبتي الزبد ، ستجدان من يلتقطكما توّاً ، تمهّلا ، فقد رأيت بعض القرشان في المؤخّرة - تلك الكلاب التي نذرت نفسها لخدمة القدّيس برنارد كما تعلمان - وهي تنقذ المسافرين التعساء! مرحى ، فهذا هو السبيل الذي نسلكه الآن ، كلّ قارب فإنّما هو شعاع من أشعّة الشمس يهدينا سواء السبيل ، مرحى! - هاهنا نحن نجري كأننا ثلاث «غلايات» من القصدير معلّقة في ذيل كوجر (أسد جبلي) مجنون . هذا يذكّرني كيف يربط المرء الى الفيل في التلبار على أحد السهول ، هذا يجعل برامق العجلات تطير ، أيّها الشبّان ، حين يكون الربط على هذا النحو . وقد ينتثر المرء من عربة التلبار حين تصطدم بتلة . مرحى!

هذا مايشعر به المرء وهو ذاهب الى دافي جونز ـ وهو منطلق على سطح مائل لاآخر له . مرحى! فهذا الحوت يحمل البريد السرمدي! »

إلاّ أنّ منطلق ذلك الحيوان كان قصيراً فقد شهق فجأة وقمس في هرج وضجيج وطارت الحبال الثلاثة في اندفاعة ذات صرير حول المثقلات بقوّة كأنّها تريد أن تفرز فيها محزاً . وبلغ الخوف من الزراقين مبلغاً إذ خشوا أن يستنفد هذا القمس السريع بقية الحبال ، فاستخدموا كلّ قوّتهم اللبيقة فأمسكوا بالثنيات المطويّة التي تبعث الدخّان كي يعوقوا استرسال الحبل ، وأخيراً أصبحت حوافي المقادم مستوية والماء أو تكاد ، وارتفعت كوثلاتها في الفضاء عالية ، وذلك بسبب الشدّ العمودي الذي تحدثه الخطاطيف المروّسة بالرصاص في القوارب من حيث تسترسل الحبال الثلاثة على استقامة الماء .

وبقي الملاّحون بعض الوقت على تلك الحال حين كفّ الحوت عن الغوص وهم يخشون أن يرخوا مزيداً من الثنيات ، وإنْ كان الموقف حرجاً بعض الشيء . ومع أنّ القوارب قد كان يمكن أن تهوي ويذهب أثرها بهذه الطريقة فإنّ هذه «الوقفة» كما يسمّونها ، إنّ هذا الجذب الى أعلى بقوّة الحراب الحادّة التي نفذت في لحمه الحيّ من خلف ، هو مايعذّب اللوياثان في الغالب ويضطرّه الى البروز من الماء كي يتلقّي الحربة النفّاذة من أيدي أعدائه . ولاحاجة بنا الى الحديث عن مافي هذا الأمر من أخطار ولكن هناك من يرتاب في أن تكون هذه الطريقة خير الطرق جميعاً ، إذ من المعقول أن يفترض المفترضون أنه كلّما طال بقاء الحوت الجريح تحت الماء زاد حظّه من الإنهاك ، لأنّ امتداد سطحه ـ وسطحه إذا كان حوت عنبر كبيراً مكتمل النمو لايقلّ عن ألفي قدم مربّع ـ يجعل ضغط الماء عليه كبيراً . ونحن نعلم أيّ ضغط جوّي مدهش نقع تحته ونحن هنا فوق الأرض لا في الماء ، فأيّ عبء كبير يتحمّله حوت ، وقد احتقب فوق ظهره امتداداً يبلغ مائتي قامة من الماء ، إنه ولاشكّ ضغط يساوي وزن خمسين ضغطاً جوّياً ، وقد قدّر أحد الحوّاتين أنه يبلغ وزن عشرين سفينة حربيّة بكلّ مافيها من مدافع ومخازن ورجال .

واضطجعت القوارب الثلاثة هنالك في رفق على سطح الماء المتدحرج وهي تحدّق في الظهيرة الأبديّة الزرقاء ، ولم تنبعث من أعماق الزرُّقةِ أنّة أو صيحة ما ، لا ولم تنطلق اهتزازه أو نفّاخة ماء ، فلو أنّ أحد أبناء البر شهد هذا المشهد أكان يخطر له أنّ أشدّ الحيوانات البحريّة وحشيّة يتلوّى ويتعقّص بالعذاب المبرح تحت ظاهر ذلك الصمت وتلك السكينة المطمئنّة ؟ كان الحبل كلّه عند مقدّم القوارب قد غاص تحت الماء فلا يرى منه عمودياً فوق السطح أكثر من ثماني بوصات . من يصدّق أنّ تلك الخيوط الثلاثة السحيلة كانت تعلّق ذلك

اللیوثان الجسيم كما يعلّق وزن كبير الى ساعة... يعلّق ؟ وبأيّ شيء يعلّق ؟ بثلاث قطع من الخشب . أهذا هو الحيوان الذي قيل فيه ذات مرّة بلهجة مزهوّة : « أتملأ جلده حراباً ورأسه بألال السمك ؟ (أيوب ٤١ :٧) ـ سيف الذي يلحقه لايقوم ، ولارمح ولازراق ولادرع . يحسب الحديد كالتبن والنحاس كالعود النخر ، لايستفزّه نبل القوس ، حجارة المقلاع ترجع عنه كالقشّ ، يحسب المقمعة كقش ، ويضحك على اهتزاز الرمح » (أيوب ٤١ : ٢٦ ـ ٢٩) . أهذا هو ذلك الحيوان ؟ أحقاً أنه هو ؟ ما أعسر أن تخيب نبوءة الأنبياء ، ذلك أنّ هذا اللوياثان الذي تبلغ قوّة ذنبه قوّة ألف فخذ مجتمعة قد وارى رأسه تحت جبال من الماء ليحتمي من حراب السمّاكة في الباقوطة!

في تلك السّاعة من الأصيل ، وقد أخذت أشعّة الشمس تنحدر ، كانت الأخيلة التي ترسلها القوارب الثلاثة تحت الماء طويلة عريضة بحيث تظلّل نصف الخميس الذي كان يقوده أحشويرش . من يدري كم كانت تلك الأشباح الضخمة مفزعة للحوت الجريح وهي تمرق فوق رأسه!

« تأهبوا يارجال ، فإنه يتحرّك » ـ ذلك ماقاله استاربك عندما أخذت الحبال الثلاثة تتذبذب فجأة في الماء ، وهي تنقل الى السطح بوضوح ـ كأنّها أسلاك مغناطيسيّة ـ نبضات الحياة والموت في الحوت ، حتّى لأحسّ بها كلّ مجذّف في مقعده . وفي اللحظة التالية ، ارتاحت القوارب الثلاثة بعض الشيء من قوّة الشد عند مقدّماتها الى أسفل ، فانتفضت في وثبة مفاجئة ، مثلما ينهال كثيب من جليد حين يفزع منه قطيع كثيف من الدببة البيض منطلقاً نحو البحر .

فصاح استاربك مرّة أخرى : «اسحبوا ، أجذبوا فهو يصعد » . قبل لحظة لم يكن يسحب من الحبال مايزيد على شبر ، ولكن سرعان ماتطوّق في لفافات سريعة طويلة وألقيت وهي تقطّر ماء في القوارب ، وسرعان ماشقّ الحوت سطح الماء على بعد من الصيادين يساوي طول سفينتين معاً .

وقد دلّت حركاته بوضوح على ماأصابه من إعياء بالغ . في أكثر حيوانات البر صمّامات في كثير من عروقها ، فإذا جرحت حصر الدمّ مؤقّتاً في بعض الاتّجاهات فلم ينزف جملة ، وليس كذلك الحوت ، فإنّ من خصائصه أنّ عروق الدماء فيه ليس لها صمّامات ، فلو نفذ فيه حد صغير كرأس الرمح ، أصيب حالاً بنزيف قاتل يأتي على كلّ مافي شرايينه وأوردته ، فإذا تذكّرت شدّة وطأة الماء فوقه وهو على عمق بعيد تحت السطح قلت إنّ حياته تنسكب منه في جداول مسترسلة . ولكن كميّة الدم فيه كبيرة ومنابعها الداخليّة فيه

عديدة بعيدة الغور حتّى ليظل ينزف وينزف مدّة غير قصيرة ، كالنهر في اليباب القاحل يظل يجري ومنابعه من آبار نائية غامضة في التلال . حتّى حين جذبته القوارب وغامرت بالاقتراب من شطري ذنبه المتناوحين ، وقذف الزراقون حرابهم فيه ، حتّى حينئذ أخذت تنطلق في الأثر نفثات دمويّة دائبة تخرج من الجرح الجديد ، وظلّ النزيف مستمراً ، أمّا نفّاثته الطبيعية في رأسه فإنها كانت ترسل بين فترات متتابعة بخارها المفزع في الفضاء ، ولم يخرج من تلك الفوهة الفوهاء أيّ دم حتّى ذلك الحين ، ومعنى ذلك أنّ كلّ الضربات لم تصب جانباً حيوياً فيه ، أي أنّ الضربات لم تمسّ «حياته» - كمايقولون بحق .

وعندما أحاطت به القوارب مقتربة انكشف كلّ الجزء العلوي من جثّته ، وكان أكثره يبقى في العادة منغمساً في الماء . وبدت للناظر عيناه أو المكانان اللذان كانت فيهما عيناه . حين تنطرح على الأرض أعتى أشجار الزان يتجمّع في ثقوب عقدها كتل غريبة سيّئة النشأة . كذلك من المحجرين اللذين كانت تحتلّهما عينا الحوت جحظت نفّاختان ضريرتان ، من رآهما قدّر أنّ الحوت يستحقّ الرثاء على نحوٍ فظيع . ولكن لارثاء ولاشفقة . رغم شيخوخته وأنه أقطع ذو ذراع واحدة ، أعمى سملت عيناه ، لابدّ أن يعانق الموت وأن يذبح لكي ينوّر ليالي الأعراس ، وغيرها من أفراح الناس ، ولكي يبعث الضياء في الكنائس المقدّسة التي تبشّر بالتسامح والتراحم المطلق بين المخلوقات جميعاً . مازال يتقلّب في دمائه . وأخيراً كشف - بعض الكشف - عن هنة بارزة أو نتوء غريب غير ذي لون في أسفل جنبه بقدر حجم «البوشل» .

فصاح فلاسك : «هدف جميل ، خلّوني أنخسه فيه مرّة واحدة» .

وصاح استاربك : «كفى! لاحاجة لذلك!» .

لكنّ استاربك ذا القلب الرحيم كان قد أبطأ متوانياً ، وانطلق مزراق فلاسك فأنهر جرحاً رغيباً فيها وأخذ الدم المتقيّح يثعب منها كأنه نفاثة ، فأصاب الحوت من الحدّ النافذ ألم لايطاق ، وانقضّ على غير هدى وقد تملّكه غضب جامح ، والدم الكثيف المتخثّر مايزال يتدفّق منه ، انقضّ على القوارب وهو يلطّخها وملاحيّها بوابل من الدمّ العبيط ، وقلب قارب فلاسك وهشّم مقدمته . كانت ضربة الموت . ذلك أنّ الإعياء حينئذ كان قد استنزف قواه لكثرة ما فقد من دماء ، فتدحرج بعيداً عن الحطام الذي أحدثه خائراً مكدوداً ، واستلقى على جنبه لاهثاً وهو يرفّ بجذم زعنفته في عجز ، ثمّ تدحرج وتقلّب كأنّه دنيا آفلة ، وبرزت أحشاؤه البيض للعيان ، وتمدّد كالحشية وقضى نحبه . تلك الشهقة الأخيرة تثير الرحمة والرثاء . كانت نفثة الموت الطويلة الأخيرة التي أسلم بها

الروح كأنّها نافورة قويّة تحرّكها أيدٍ خفيّة لتستخرج منها الماء تدريجياً ، فإذا بالرشّاش فيها يهبط ويهبط حتّى الأرض مرسلاً غرغرات حزينة شبه مختنقة .

وبينما كان البحّارة يرقبون وصول السفينة ، أبدت جثّة الحوت أمارات تدلّ على أنّها تغوص وذخائرها جميعاً مودعة فيها . وفي الحال أمر استاربك أن يحاط بالحبال في مواضع مختلفة ، وبذلك أصبح كلّ قارب مَغلم عوم ، وأصبح الحوت الغاطس معلّقاً بالحبال على مدى بضع بوصات دون مستوى القوارب . وعندما اقتربت السفينة نقل الحوت الى جانبها بمنتهى الحكمة والأناة ، وربط اليها ربطاً محكماً بأقوى السلاسل الجانبيّة وأصلبها إذ كان من الواضح أنّ الجثّة إذا لم تربط ربطاً مصطنعاً فإنها ستغوص الى الأعماق .

واتّفق أنه حين بدأ التقطيع فيه بالمجرفة ، وجد رمح مريّش مهترىء بطوله الكامل متغلغلاً في لحمه في الجزء الأسفل من تلك الهنة الناتئة التي تقدّم ذكرها . إنّ بقايا الرماح كثيراً ماتوجد في جثث الحيتان المَصيدة وقد التأم اللحم من حولها تماماً ، ولايحدث نتوء من أيّ نوع يدلّ عليها ، لذا كان لابدّ من وجود سبب مجهول في الحالة الراهنة يفسّر التقيّح الذي مرّت الإشارة اليه . وأغرب من ذلك أن وجد سنّ حربة من الصخر فيه غير بعيد عن الحديدة المدفونة ، واللحم من حولها صلب سليم . من قذف بتلك الحربة الحجريّة ؟ ومتى كان ذلك ؟ قد يكون الذي قذفها هندياً شمالياً غربياً قبل أن تُستكشف امريكا .

من يدري أيّ أعاجيب أخرى كان يمكن أن تُستخرج من ذلك المخدع الوحشي ؟ لكن العمل في الإستكشاف والتنقيب توقّف فجأة إذ جرّت السفينة ـ وهو أمر لاسابقة له ـ الى عرض البحر جرّاً جانبياً ، وذلك لأنّ ثقل الجثّة جعلها تتجه بشدّة نحو الغرق . غير أنّ استاربك الذي كان يوجّه الأمور التزمها حتّى النهاية ، التزم بها بعزم وإصرار حقّاً ، حتّى أنّ السفينة حين أصبحت في النهاية على وشك أن تنقلب إذا ظلّت مرتبطة السواعد الى جثّة الحوت ، وحين صدر الأمر بالابتعاد عنها ، كانت قوّة الشدّ على رؤوس الخشبات التي ترتبط بها سلاسل الجنب والحبال كبيرة ، حتّى كان من المحال طرحها ، وفي الوقت نفسه أصبح كلّ شيء في الباقوطة مائلاً . وكان الإجتياز الى الجانب الآخر من ظهر السفينة يشبه المشي صعداً على سقف بيت هرميّ ، وأنّت السفينة وتقطّعت أنفاسها متحشرجة . ونفر كثير من زينتها العاجيّة المرصّعة في هيكلها وفي غرفها ، من مواضعها ، بسبب وضعها الشاذّ . وجلبت الأمخال والعتلات لتعمل في سلاسل الجانب التي لاتتحرّك ، لكي تتحرّك فيعتدل جنوحها من رؤوس الأخشاب ، فذهبت المحاولة سدى . وكان مستوى

الحوت قد انخفض حتّى أنّ الاقتراب من طرفيه المغمورين لم يكن ممكناً ، بينما كان يبدو في كلّ لحظة أنّ أطناناً كاملة من الوزن كانت تضاف الى الثقل الغائص ، وبدت السفينة وكأنّها تهم أن تنقلب .

فصاح اسطب مخاطباً الجثّة : «توقّفي! توقّفي! بحقّك لاتتملّكك سرعة شيطانيّة للغرق! وحق الرعد يارجال لابدّ أن نعمل شيئاً وإلاّ رحنا في داهية ، دعوا التحريك بالأمخال هناك . كفى ، توقّفوا عن العمل بالعتلات ، وليذهب أحدكم مسرعاً ويحضر كتاب الصلوات ، وسكّيناً صغيرة يقطع بها السلاسل» .

«سكّين ؟ أيوه أيوه» كذلك صرخ كويكوج ثمّ أمسك بلطة النجّر الثقيلة ثمّ مدّ جسمه من أحد المجازات الجانبيّة وأعمل الفولاذ في الحديد وبدأ يقطع أكبر السلاسل الجانبيّة وبعد ضربات قليلة يقدح منها الشرر أثر الشدّ الزائد في بقيّة السلاسل ، وعام كلّ رباط على الماء ، في انفصام مخيف واعتدلت السفينة وغاصت الجثّة في الأعماق .

إنّ الغوص العارض المحتوم الذي تعرّض له هذا الحوت العنبري المصيد حديثاً شيء غريب حقّاً ، ولم يستطع أيّ صيّاد أن يجد له تعليلاً مقبولاً ، ذلك أنّ حوت العنبر يعوم في العادة بخفّة كبيرة ، وقد ارتفع جانبه أو كرشه فوق سطح الماء . فإذا كانت الحيتان الوحيدة التي تغوص هي المعمّرة الهرمة الهزيلة الكسيرة القلب لأنّ دثارها من الشحم قد تناقص وثقلت عظامها وأصبحت منقرسة فإنّك تستطيع أن تؤكّد أنّ غوصها ناجم عن كثافة نوعية غير عادية نتيجة لفقدانها المادة المخفّة فيها ، لكن الأمر ليس كذلك ، فإنّ الحيتان الفتيان ـ هؤلاء الأبطال الأنجاد الرشيقون ـ وهم في خير أحوال الصحّة ، وضروب الطموح تملأ نفوسهم ـ يغوصون أيضاً حين يقتتلون في ريان العمر وزهرة الحياة والشحم يكتنفهم طبقاً فوق طبق .

وقد يقال إنّ حوت العنبر أقلّ تعرّضاً لمثل هذا الحادث من حيتان الفصائل الأخرى ، فإذا غاص حوت عنبر واحد ، غاصَ في مقابله عشرون من الحوت الأثين ، وهذا الفرق في الأنواع يعود دون ريب ولحدٍّ كبير الى كبر حجم العظم في الحوت الأثين ، فإنّ «ستانره» وحدها تزن أحياناً مايزيد على طنّ ، وهذا عائق قد برئ منه حوت العنبر تماماً ، غير أنّ هناك أمثلة يرتفع فيها الحوت الغائص مرّة أخرى بعد مضي عدّة ساعات أو عدّة أيّام ، وهو أكثر خفّة ممّا كان حين كان على قيد الحياة ، وسبب هذا واضح جليّ ، إذ تتولّد فيه الغازات فينتفخ ويتمدّد حجمه كثيراً ويصبح كأنه منطاد حيواني ، ولو سلّطت عليه مجموعة من سفن الحرب لعجزت عن أن تبقيه تحت الماء . وإذا أبدى الحوت الأثين أمارة على أنه أخذ

يغوص ، في التحويت الساحلي أو في مواطن السبر بين خلجان نيوزيلندة ، فإنهم يربطون به معوّمات وكثيراً من الحبال حتّى إذا غاب الجسم في الأعماق عرفوا أين يبحثون عنه إذا هو ارتفع مرّة أخرى .

ولم يمضِ وقت طويل على غرق تلك الجثّة حتّى ارتفعت صيحة من قمم صواري الباقوطة معلنة أنّ السفينة يونجفراو قد أخذت تنزل قواربها من جديد . وإن كانت النفاثة الوحيدة التي لاحت بمنأى من البحّارة لم تكن سوى نفاثة الحوت المسنّم ، وهو ينتمي الى نوع من الحيتان لايصاد لقدرته الخارقة على السباحة ، ومع ذلك فإنّ نفاثة الحوت المسنّم شبيهة بنفاثة حوت العنبر حتّى ليخلط بينهما الصيّادون الأغرار ، ومن ثمّ أصبح دريك وكلّ جماعته في طراد جريء لذلك الوحش الجسور المقدام ، وحشدت «العذراء» كلّ أشرعتها التي صنعت بحيث تناسب أرنياتها الأربع واختفى الكلّ في وجهة الريح بعيداً في مطاردة جريئة مفعَمة بالآمال .

واهاً ياصديق! ماأكثر الحيتان المسنّمة وماأكثر القباطنة من أمثال دريك!

٨٢

ما في التحويت من شرف ومجد[١]

بعض الأشياء تكون فيها الفوضى العامّة هي المنهج الصحيح .

كلّما غصت في أمر التحويت ودفعت أبحاثي قدماً الى «رأس النبع» ازددت إعجاباً بمبلغ مافيه من شرف عظيم تليد ، وحين أجد بخاصّة أرباباً وأبطالاً وأنبياء من جميع الأنواع قد سكبوا عليه تمجيداً وتمييزاً يطير بي الخاطر الى أنني أنتمي الى تلك الأخوّة المزخرفة بالأمجاد وإن لم أكن من أرومتها في الصميم .

كان برسيوس الشهم ابن جوبتر أوّل حوّات ، ومن دواعي الشرف الأزلي في حرفتنا أنّ أوّل حوت هاجمه اخواننا الأسلاف لم يقتل بدافع خسيس . تلك الأيّام كانت أيّام فروسيّة في حرفتنا حين كنّا لانحمل السّلاح إلاّ لنغيث الملهوف والمكروب لا لنملأ المزايت للناس . وكلّ امرئ يعرف تلك القصّة الجميلة ، قصّة برسيوس وأندروميده ، وكيف أنّ أندروميده الجميلة ابنة أحد الملوك ربطت الى صخرة على ساحل البحر ، وبينما كان اللوياثان يهمّ بأخذها تقدّم برسيوس أمير الحوّاتين بجأش رابط ، وزرق الوحش برمحه ، وخلّص الفتاة منه وتزوّجها . ذلك عمل فنّي مثير للإعجاب قلّ أن يؤدّيه خير الزراقين في أيّامنا هذه ، أعني أن يذبح أحدهم الحوت بمزراق واحد ضربة واحدة . وليس لأحد أن يرتاب في هذه القصّة التي تنتمي الى عهد نوح . إذ ظلّ الهيكل الجسيم من أحد الحيتان شاهداً على مدى أجيال عديدة في أحد المعابد الوثنيّة بمدينة يوبا ، وهي يافا الحديثة على السّاحل الشامي ، وكانت أساطير تلك المدينة وجميع سكّانها يؤكّدون أنّ ذلك الهيكل هو عظام الوحش الذي قتله برسيوس . وعندما استولى الرومان

(١) عدّ ملفل في الفصل ٢٤١ من كتبوا عن الحيتان وفي الفصل ٤٥١ أشهر الحيتان ، وها هو في هذا الفصل يتحدّث عن أشهر الحوّاتين .

على يافا حملوا ذلك الهيكل معهم في موكب النصر . أمّا مايبدو فريداً هامّاً ـ على نحوٍ لافت ـ في القصّة فهو هذا · من يوبا نفسها أبحر يونان .

وتشبه مغامرة برسيوس وأندروميده قصّة أخرى شهيرة يظنّها بعض الناس في الحقّ مستمدّة منها على نحوٍ غير مباشر ، تلك هي قصّة القدّيس جورج والتنين ، وأنا أزعم أنّ ذلك التنّين كان حوتاً ، إذ أنّ التواريخ القديمة تخلط بين الحوت والتنّين على نحوٍ غريب ، وكثيراً مايكون الواحد منهما بديلاً للآخر . يقول حزقيال : «أنت تشبه أسد الأمواه وتنين البحر[1] » ، وهو يعني الحوت ـ صراحة ـ . وفي الحقّ أن بعض نسخ التوراة ترد فيها لفظة « حوت » نفسها . ثمّ أنه لمما ينقص من مجد العمل الخطير الذي قام به القدّيس جورج أن يتصدّى لزاحف من زواحف البر بدلاً من أن ينازل وحش الأعماق الكبير ، فإنّ أي امرىء قد يقتل أفعى ولكن ليس في صدر أحد قلب يمشي مشية باسلة الى حوت إلا أن يكون امرءاً من قبيل برسيوس أو القدّيس جورج أو كوفن .

وليس للرسوم الحديثة التي تمثّل هذا المنظر أن تضللنا ، إذ أنّ المخلوق الذي واجهه ذلك الحوّات الجسور في غابر الأيّام يرسم على صورة مبهمة تشبه العنقاء ، وتمثّل المعركة في البرّ والقدّيس على ظهر جواد ، بل علينا أن نعتبر الجهل الكبير الذي كان يسود تلك الأيّام حين كان الفنّانون يجهلون الشكل الصحيح للحوت ، وأن نتصوّر أنّ حوت القدّيس جورج قد يكون زحف من البحر الى الشاطىء ، وأن نقدّر أنّ الحيوان الذي كان القدّيس يمتطيه قد يكون صيلاً ضخماً أو حصان بحر ، فإذا تذكّرنا كلّ هذه التقديرات كان من حقّنا أن نعتقد أنّ مايسمّى التنّين لم يكن سوى اللوياثان العظيم نفسه ، وإنّ اعتقادنا هذا لايبدو متنافراً وتلك القصّة المقدّسة ، معارضا لأقدم رسوم ذلك المشهد . بل الحق لو أنّك وضعت القصّة كلّها أمام الحقيقة الصارمة النافذة لجاءت مثل ذلك الصنم الذي كان يمثّل السمكة والانسان والطير ، صنم الفلسطينيين الذين كانوا يسمّونه داجون[2] ، وقد نصب أمام تابوت العهد الاسرائيلي ، وقد سقط منه رأس حصانه وراحتا يديه ولم يبقَ إلاّ جذمه أو ذلك الجزء السمكي منه . فمن أرومتنا النبيلة حوّات يعدّ حامياً قيّماً على انجلترا ونحن ـ حوّاتي نانتوكت ـ يجب أن ندرج أسماءنا في جمعيّة القدّيس جورج النبيلة المحتد . ولذا وجب على الفرسان المنتمين الى تلك الجماعة الشريفة (وأجرؤ أن أقول : ليس لأحد منهم أيّ شأن بالحوت كما كان حال

(١) في حزقيال ٣٢ ، ٢ «أشبهت شبل الأمم وأنت نظير تمساح في البحار» .

(٢) انظر سفر القضاة ١٦ :٢٣ وصموئيل الأول ٥ ، ٢ـ ٥ .

راعيهم) أن لايرمقوا نانتوكيّاً باحتقار ، إذ أننا حتّى في ستراتنا الصوفيّة وسراويلنا المقيّرة أحقّ بشعار القدّيس جورج منهم .

وأنا في حيرة من أمري هل أسمح لهرقل أن يعدّ واحداً منّا أو لايعدّ . نعم إنّ الأساطير اليونانيّة تقول إنّ هذا البطل القديم الذي يشبه كروكت وكت كارسون من أبطالنا[1] . ذلك المفتول السّاعد الذي اضطلع بتحقيق الأعمال البهيجة المجيدة قد ابتلعه الحوت ثمّ قذف به ، ولكن تُرى إذا دقّقنا في الأمر فهل هذا يجعل منه حوّاتاً ؟ ذلك شيء يظلّ محطاً للجدل . إذ ليس فيما بلغنا أنه زرق الحوت برمحه إلا أن يكون قد فعل ذلك وهو في جوفه ، ومع ذلك فقد نعدّه حوّاتاً على نحوٍ لاإرادي ، وعلى أيّة حال فإنّ الحوت أمسك به ، وإن لم يمسك هو بالحوت ، وأنا أميل الى أن أدعيه واحداً من بني عشيرتنا .

غير أنّ الثقات ـ على تضارب في الرأي فيما بينهم ـ فريقان : فريق يرى إنّ هذه القصّة الإغريقيّة عن هرقل والحوت مستمدّة من قصّة عبريّة أقدم منها عن يونان والحوت ، وفريق يقول بل القصّة العبريّة مقتبسة عن اليونانيّة ، وكلا القولين متشابهان ومادمنا ندّعي البطل الذي يشبه الآلهة فلِمَ لاندعي النبي ؟

ليس الأبطال والقدّيسون وأشباه الأرباب والأنبياء هم وحدهم الذين يشتمل عليهم سجل عائلتنا ، ولابدّ أن نذكر اسم سيّدنا العظيم ذلك أنّ نبع إخوتنا لايتقاعس عن منزلة الأرباب العظام كما كان الملوك في غابر الأيّام . تلك القصّة الشرقيّة العجيبة يجب أن تتلى على الأسماع نقلاً عن الشاستر الذي يمنحنا فشنو المخوف أحد ثلاثة أشخاص يتجسّدها ربَ الهندوس ، وفشنو هذا الآلهي هو سيّدنا ، فشنو هو الذي فصل الحوت وميّزه وجعله مقدّساً الى الأبد في التجسّد الأوّل من تجسّداته الأرضية العشرة . ويقول الشاستر : عندما قرّر براهما رب الأرباب أن يعيد خلق العالم بعد أحد انحلالاته الدورية ، ولد فشنو ليهيمن على هذا العمل ، ولكنّ الفيدا أو أسفار الحكمة الغيبية التي كانت قراءتها أمراً لزاماً على فشنو قبل أن يبدأ الخلق ، والتي كانت تحتوي ولابدّ أشياء في صورة تلميحات عمليّة للمهندسين المعماريين الشبّان ، أقول : هذه الكتب كانت في قاع البحر فتجسّد فشنو حوتاً وقمس فيه الى قرارة الأعماق السحيقة وخلّص تلك الكتب المقدّسة . ألم يكن فشنو هذا حوّاتاً ، إذن ، مثلما يسمّى راكب الفرس فارساً ؟

برسيوسْ ، القدّيس جورجِ ، هرقل ، يونان ، فشنو! هذا سجل العضويّة لك أيّها الحوّات . أيّ نادٍ إلاّ ويستطيع نادي الحوّاتين أن يبذّه ؟

---

(١) دافيد كروكت (١٧٨٦ ـ ١٨٣٦) وكت كارسون (١٨٠٩ ـ ١٨٦٨) الأوّل صيّاد دببة انتخب في الكونجرس رغم أنه أمّي ، أما كارسون فذهب في رحلات استكشافية عديدة الى كاليفورنيا وشارك في الحرب المكسيكية .

٨٣

النظر في يونان من زاوية تاريخية

في الفصل السابق جرت الإشارة الى القصّة التاريخيّة ، قصة يونان والحوت . غير أنّ بعض أهالي نانتوكت لا يثقون بتلك القصّة . لكن كان في الإغريق والرومان أيضاً شكيون برزوا من بين الوثنيين المستقيمين أبناء زمانهم ، وشكّوا في قصّة هرقل والحوت وفي آريون والدلفين[١] ، ورغم ذلك فإنّ شكّهم لم يحوّل تلك الموروثات قيد شعرة عن كونها حقائق واقعة .

وأبدى حوّات عجوز من ميناء ساج سبباً كبيراً استدعى منه التشكّك في القصّة العبريّة وذلك هو : كان لديه نسخة أنيقة من هذا الطراز القديم الذي كانت تكتب به نسخ التوراة مزيّنة بلوحات عجيبة غير علميّة ، تمثّل احداها حوت يونان وفي رأسه نفاثتان ـ وهي قصّة خاصية لاتصدّق إلا على نوع اللوياثان (أي الحوت الأثين وأنواع فصيلته) وقال الصّيادون فيما يتّصل به : «لو دحرجت في حلقه قطعة نقود لاختنق» إذ أنّ بلعومه بالغ الصغر . إلاّ أنّ الأسقف جب كان لديه جواب قَبْليّ جاهز يردّ به على هذا الإعتراض . يقول الأسقف : ليس من الضروري أن نقول أنّ يونان قبر في جوف الحوت وإنّما ركن مؤقّتاً في جانب من فمه . وهذا شيء جدّ معقول من الأسقف الطيّب ، إذ الحق أنّ فم الحوت الأثين يتّسع لزوج من ماندتي الورق يجلس حولهما اللاعبون مرتاحين . ومن الممكن أيضاً أنّ يونان انجحر في تجويف ضرس ، ولكن حين نتدبّر الأمر ونخلّي الظنون نرى أنّ الحوت الأثين ليس له أضراس .

وسبب آخر قدمّه ذلك السّاجي (أي المنتمي الى ميناء ساج) يعلّل به قلّة إيمانه بأمر هذا النبي ، شيء يشيز في غموض الى جسده المحتبس المخنوق والعصارات المعدية التي يفرزها الحوت ، إلاّ أنّ هذا الإعتراض يتهاوى على الأرض لأن أحد المفسّرين الألمان يظنّ أنّ يونان

(١) تقول الاسطورة إنّ آريون الشاعر قذف بنفسه في البحر هرباً من الملاحين الذين حاولوا أن يبتزّوه مامعه ، لكن قبل أن يقفز عزف على عوده فاجتمع عدد من الدلافن حول السفينة ، فامتطى ظهر أحدها ونجا به سالماً الى البرّ .

لجأ ولابدّ الى جسم حوت ميّت عائم ، مثلما أنّ الجنود الفرنسيين في حملتهم على روسيا جعلوا من جثث خيولهم خياماً وقبعوا تحتها . ثمّ أنّ بعض الشرّاح المفسّرين في القارة الأوروبيّة قد حدّثوا بأنّ يونان حين ألقي عن ظهر السّفينة المقلعة من يافا دبّر الهرب توّاً الى سفينة أخرى قريبة ، سفينة لها رأس في شكل الحوت ، وأنا أضيف أنّها ربّما كانت تسمّى «الحوت» مثلما أنّ بعض السفن اليوم تسمّى «القرش» أو «النورس» أو «النسر» . ولم تعدم القصّة مؤولين علماء ارتأوا أنّ الحوت المذكور في سفر يونان إنّما يعني «حافظ الحياة» - أي كيس منتفخ بالهواء سبح اليه النبي حين أحاطت به الأخطار فنجا من الموت بالماء . مسكين هو ذلك السّاحي ، فقد هزم في كلّ مجال إلاّ أنّ لديه سبباً اخر يسوغ به عدم إيمانه وهذا هو إن لم تخنّي الذاكرة : أنّ الحوت ابتلع يونان في البحر المتوسّط وبعد ثلاثة أيّام قذف به الحوت على بعد ثلاثة أيّام من نينوى - وهي مدينة على نهر دجلة - وهي تبعد عن أوّل ميناء على ساحل البحر المتوسّط بأكثر من ثلاثة أيّام . فكيف كان ذلك ؟

لكن ألم يكن لدى الحوت من طريقة أخرى يقذف بها النبي الى البرّ في مدى تلك المسافة القصيرة من نينوى ؟ نعم لعلّه حمله ودار به عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولكنّ هبّ أننا تجاوزنا عن رحلته قاطعاً المتوسّط ثمّ رحلته في البحر الأحمر والخليج الفارسي ، فمثل هذا الظنّ يشمل إبحاراً كاملاً حول افريقية في ثلاثة أيّام هذا إذا أغضينا أيضاً عن أنّ مياه دجلة عند موقع نينوى ضحلة جداً لاتسمح لحوت أي حوت بالعوم فيها . ثمّ أن القول بأنّ يونان دار حول رأس الرجاء الصالح في مثل ذلك التاريخ المبكّر ينتزع شرف استكشافه من بارتولميو دياز مكتشفه المشهور ويجعل من التاريخ الحديث زوراً كاذباً .

إلا أنّ جميع هذه الحجج الحمقاء التي قدّمها ذلك الساجي العجوز إنّما تشهد بالخيلاء الجوفاء في عقله ، وهو أمر لايزال يستدعي الشجب والتقريع إذ لم يكن لديه من العلم إلاّ القليل الذي التقطه من يد الشمس والبحر . أقول إنه ربّما يبدي كبرياءه الحمقاء المارقة ، وثورته الكريهة الشيطانيّة ضدّ رجال الدين المبجّلين ، إذ أنّ قسّيساً برتغاليّاً كاثوليكيّاً قدّم الفكرة التي تقول : بأنّ يونان ذهب الى نينوى عن طريق رأس الرجاء الصالح مثبتاً بذلك حصول المعجزة على نحوٍ ضخم . وكذلك كان . ثمّ أنّ المسلمين الأتراك المتديّنين من ذوي البصيرة المستنيرة لايزالون حتّى اليوم يؤمنون بقصّة يونان التاريخيّة . ومنذ حوالي ثلاثة قرون ذكر رحالة انجليزي وردت رحلته في «رحلات هاريس» أنّ مسجداً بني باسم يونان وكان فيه قنديل معجز يضيء دون زيت(١) .

---

(١) ليس في الرحلة المشار اليها أيّ شيء عن قنديل معجز ، وإنّما كلّ ماورد فيها أنّ المسجد فيه شمعدانات كبيرة في زواياه الأربع وفيه قناديل عديدة ، والمكان الذي يتحدّث عنه الرحّالة يقع على مقربة من نينوى .

٨٤

قذف الحربة

إذا أريد لدواليب العربات أن تجري في يسر وسرعة دهنت بالشّحم ، ولمثل هذه الغاية نفسها يقوم بعض الحوّاتين بعمل مشابه لقواربهم إذ يشحّمون قواعدها . وهو عمل لاضرر منه ولعلّه يكون ذا فائدة لايستهان بها ، دون ريب ، إذا تذكّرنا أنّ الزيت والماء خصمان لايتمازجان ، وأنّ الزيت سهل الانزلاق ، وأنّ الغاية من التزييت هي جعل القارب ينساب منزلقاً في إقدام . وقد كان كويكوج شديد الإيمان بتشحيم قاربه ، وذات صباح أنفق جهداً غير عادي في هذا السبيل بعيد أن اختفت السفينة الألمانيّة «العذراء» عن الأنظار ، فزحف من تحت قاعدته حيث كان مدلّى من جانب السفينة ، ودهنه باعتناء كأنه كان يبحث جاهداً ليحصل على خصلة من شعر في سطحه الأصلع ، وبدا كأنه يعمل امتثالاً لنذرٍ ما ، وهذا ما صدقته الأحداث من بعد .

ظهرت الحيتان قرب الظهيرة ، وحالما اتّجهت السفينة مبحرة نحوها دارت وهربت في سرعة بالغة ، هربت في اضطراب كأنها سفن كليوبترة هاربة من أكتيوم .

ومع ذلك استمرّت القوارب في ملاحقتها ، وفي مقدّمتها قارب اسطب ، وبعد نصب ناصب استطاع طاشطيقو أن يغرس في أحد الحيتان رمحاً . لكن الحوت المصاب لم يقمس غائصاً وإنّما مضى في هربه الأفقي ، وقد زاد من سرعته . وإذااستمرّ الضغط متوالياً على الشفرة المغروسة فيه كان من المحتوم ، إن عاجلاً أو اجلاً أن تنقلع من جسمه ، وأصبح لزاماً زرق الحوت الهارب بالحراب أو الرضى بتضييعه ، ولكن دفع القارب نحو جنبه أمر مستحيل إذ كان يسبح بشدة وهياج . فماذا بقي ؟

لدى الحوّات المدرّب شؤون عجيبة وأفانين من المهارة والخداع وخفّة اليد وما لايحصى من الحيل ، يضطر لاستغلالها عند الحاجة ، ولكن لاشيء فيها يفوق تلك الحركة البارعة

بالحربة ، ويسمّونها «قذف الحربة» pitchpoling . وليس يدانيها في هذا سيف صغير أو سيف عريض في كلّ مايمكن أن يؤدّيه من فنون . وليست هي لازمة إلاّ في حال حوت عامد هارب ، وأعظم مافيها أنّها تقذف مسدّدة فلا تطيش ، على مسافة عجيبة ، من قارب يترجرج ويضطرب في عنف ، في أقصى حالات المخر شداً . وإذا حسبت النصل الفولاذي والقناة فيها وجدت طولهما معاً بين عشرة أقدام واثني عشر ، والقناة فيها أشدّ دقّة من قناة الرمح ، وتصنع من خشب خفيف هو الصنوبر ، ويربط بها حبل صغير يسمّونه «السداة» ، ذو طول غير قليل يمكّن قاذفها من جرّها الى يده بعد أن تصيب هدفها .

وقبل أن نمضي خطوة أخرى ، من الهام أن نذكر في هذا المقام أنّ الرمح يمكن غرسه بالطريقة نفسها مع الحربة ولكن ذلك قلّما يحدث ، فإذا حدث كان النجاح فيه نادراً ، وذلك لثقل الرمح وقصره إذا قورن بالحربة ، والثقل والقصر يصبحان نقصين خطيرين عندئذٍ . ولذا كان من المسلّم به أن يسرع الصيّادون للحاق بالحوت قبل أن يحاولوا «قذف الحربة» .

تأمّل اسطب . ذلك الرجل ، في بروده السّاخر العامد وفي اتّزانه لدى أعتى الأخطار ، كان يعدّ متميّز المهارة في قذف الحربة . انظر اليه ، إنه يقف منتصباً في المقدّمة المترجرجة من القارب الطائر ، وعلى بعد أربعين قدماً أمامه يمضي الحوت ساحباً ماوراءه وقد غاب في بياض الزبد . يروز اسطب الحربة الطويلة في خفّة ، ويرمق طولها مرّة أو مرّتين ليرى إن كانت مستقيمة ، ثمّ يلف السداة في يد وهو يصفر ، لكي يبقى طرفها الآخر في قبضته تاركاً بقيّتها دون أن يعوقها عائق ، ثمّ يمسك بالحربة أمام وسط حزامه تماماً ويصوّبها نحو الحوت ، فإذا وثق أنه بمرمىً منه ، خفض طرفها الخشبي في يده وبذلك يرفع حدّها حتّى تقف متّزنة على راحته ، على ارتفاع خمسة عشر قدماً في الفضاء ، وهو يذكّرك بالحاوي الذي يوقف عصا طويلة فوق ذقنه . وفي اللحظة التالية تقطع الشفرة اللامعة المسافة المزبدة في دفعة سريعة لاتوصف ، وفي حركة قوسية رفيعة ، وتهتزّ متأطّرة في بؤرة الحياة من جسم الحوت ، فينفث الدم القاني بدلاً من الماء الناصع .

وصاح اسطب : «تلك الضربة قد أطارت السدّادة عن فوهته . هذا هو اليوم الرابع من تمّوز ، اليوم الخالد ، وكلّ الينابيع تتحوّل خمراً اليوم! ياليت هذا الدفق كان ويسكي أورليانز المعتّق أو ويسكي أوهايو أو ذلك الويسكي العتيق الذي يعجز الوصّاف في موننجاهيلا[١] . إذن طاشطيقو ، أيها الفتى لجعلتك تمسك صفحة تتلقّى فيها دفق النفاثة ،

(١) في بنسلفانيا الغربية .

ودارت علينا جميعاً الراح . أجل أيّتها القلوب الحيويّة إذن لقطّرنا البنش المختار في رحى الوقب من نفثاته ، وجعلنا منها كأساً حيّاً وعببنا منها الشراب الحيّ عبّاً » .

وفيما يمضي هذا الحديث اللاهي يعاد قذف الحربة مرّة أثر مرّة ، وتعود الى صاحبها عودة كلب الصيد حين يكون مربوطاً في وثاق . ويخبو هياج الحوت المعذّب ، ويرتخي حبل الجرّ ، ويعتزل قاذف الحربة نحو المؤخّرة ، ويطوي يديه ويرقب الحوت في صمت وهو يلفظ أنفاسه .

٨٥

النافورة

على مدى ستّة آلاف عام ـ ولا أحد يدري كم مليوناً من الأجيال قبل ذلك ـ ظلّت الحيتان العظيمة تبعث نفثاتها في عروض البحار جميعاً ، وترسل الرذاذ والسحب فوق حدائق الأعماق بما لديها من أوعية تطلق السحاب ورشاشات تنثر القطرات . وعلى مدى بضعة قرون ماضية ظلّ آلاف الصيّادين يشهدون عن كثب نافورة الحوت ، ويرون الى ماتقوم به من طش ورش ، وذلك ماكان وماهو كائن حتّى هذه اللحظة المباركة (الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة عشرة والربع من بعد ظهر السادس عشر من شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ عام ١٨٥١ بعد الميلاد) ومع ذلك فلايزال السؤال قائماً : أهذه النفثات ماء حقّاً ـ بعد كلّ ذلك ـ أم ليست إلا بخاراً ؟ ذلك أمر يستحق التنويه يقيناً .

لننظر الى هذه المسألة مع بعض أمور أخرى هامة ، تصحبها اتفاقاً . كلّ امرئ يعلم أنّ الفصائل المزعنفة تتنفّس عامة ـ حسب تكوين الأكياس الرئوية فيها ـ الهواء الذائب في المادة التي تسبح فيها ، ومن ثمّ فإنّ سمكة الرنجة أو الكد قد تعيش قرناً من الزمان دون أن ترفع رأسها مرّة واحدة فوق سطح الماء ، أمّا الحوت فإنّ بنيته الداخليّة الفريدة قد جعلت له رئة عادية تشبه رئة الإنسان ، ولذلك فإنه لايحيا إلاّ اذا استنشق الهواء الطليق من الجوّ ، ولذا يضطرّ الى أن يزور العالم العلويّ زورات دورية ، ولكنه لايستطيع أن يستنشق الهواء أبداً عن طريق فمه ، لأنه إن كان حوت العنبر في حال طبيعية كان فمه دفيناً على بعد ثمانية أقدام من سطح الماء ، كذلك فإنّ قصبته الهوائية غير متّصلة بفمه ولذا فإنه لايتنفّس إلاّ من خلال فوهة التنفّس وحدها ، وتقع هذه في قمة رأسه .

فإذا قلت إنّ التنفّس لدى أيّ مخلوق هو وظيفة لاغنى عنها للحياة بمقدار مايستطيع أن يستخلص من الهواء عنصراً معيّناً ، يصبح بالتالي على صلة بالدم ، فيعطي الدم مبدأ

الحياة ، فلست أظنني مجانباً للصواب ، وإن كان في مقدوري أن أستعمل حشواً من الألفاظ العلمية . فإذا صدقت ذلك ، استتبع هذا أنه لو كان دم الإنسان كلّه يمكن «تهويته» بنفس واحد لاستطاع أن يختم على خيشومه ، فلا يستدعي نفساً آخر إلاّ بعد قسط كبير من الزمن . أي لاستطاع أن يعيش دون تنفّس . قد يبدو هذا شيئاً غريباً ولكنه على وجه الدقة هو حال الحوت ، فإنه يبقى - بين فترات التنفّس - على وجه منظّم ساعة كاملة أو أكثر (في قعر المحيط) دون أن يسحب نفساً واحداً أو يستنشق ذرّة من هواء ، ولا تنس أنه ليست لديه أكياس رئويّة . فكيف كان ذلك؟ بين أضلاعه وعلى كلّ جانب من جانبي عموده الفقري تجده مزوّداً بشبكة فذّة معقّدة من الأوعية الشعرية ، وهذه الأوعية تنتفخ تماماً - عندما يغادر سطح الماء - بدم مشبع بالأوكسجين ، وبذلك يحمل مخزوناً فائضاً من الحياة فيه لمدة ساعة أو أكثر تحت آلاف القامات من الماء ، مثلما أنّ الجمل الذي يجتاز اليباب القفر يحمل مخزوناً من الماء في معده الأربع الزائدة كي يستعمله عند الحاجة . إنّ هذه الشبكة المعقّدة أمر يقيني لامشاحة فيه ، وأمّا أنّ الفرض المبني عليها يبدو معقولاً صحيحاً فيبدو لي أكثر شيء إقناعاً حين أتأمّل اصرار ذلك الحوت على أن «يبرز نفاثاته» كما يقول البحّارة ، وهو إصرار لاأجد فيه وجهاً آخر من تفسير . وهذا هو ماأعنيه : إذا صعد حوت العنبر الى السطح دون أن يدفعه تحرّش أو إزعاج ، فإنه يبقى هناك فترة من الوقت تضاهي تماماً فترات بقائه الأخرى حين يصعد مطمئناً دون تحرّش أو إزعاج . افرض أنه يقف إحدى عشرة دقيقة ، وينفث سبعين مرّة ، أي يستنشق سبعين نفساً ، فإذا صعد الى السطح مرّة أخرى فهو على يقين من أنه لابدّ أن يسحب سبعين نفساً دون نقص أو زيادة : فإذا أفزعته بعد أن تزوّد ببضعة أنفاس واضطررته الى الغوص فإنه يتسلّل دائماً الى أعلى ليستوفي نصيبه الكامل من الهواء ، ولن يعود في النهاية ليقضي الدورة التي يقضيها تحت الماء إلاّ إذا استكمل الأنفاس السبعين . ثمّ لاحظ أنّ هذه النسب تختلف من فرد لفرد ، ولكنّ الفرد الواحد يحتفظ بنسبة لا تتغيّر . لم يصرّ الحوت على أن يبرز «نفاثاته» إلاّ أن يكون هدفه هو أن يملأ مستودع الهواء لديه قبل أن يذهب الى الأعماق للمكث الطويل؟ من الجليّ أيضاً أن اضطراره الى الصعود يعرّضه لكل المخاطر المميتة التي يتمخّض عنها الصيد ، إذ لايمكن لهذا اللوياثان الجسيم المديد أن يصاد بالصنارة أو بالشبكة حين يبحر على عمق ألف قامة بعيداً عن ضوء الشمس ، ليست مهارتك اذن - أيها الصيّاد - هي التي تكفل لك النصر ، وإنّما هي الضرورات الكبيرة .

والتنفّس في الانسان مستمر ، وكلّ نفس يدوم ضربتين أو ثلاثاً من ضربات القلب ، فمهما وجّه الانسان اهتمامه الى عمل آخر ، مستيقظاً أو نائماً ، كان لابدّ له من أن يتنفّس وإلاّ قضى نحبه ، أمّا حوت العنبر فإنه لا ينفق في التنفّس إلاّ سُبُعَ عمره .

لقد قلنا إنّ الحوت لا يتنفّس إلاّ من خلال فوهة النفث ، فإذا صحّ أن نقول أنّ نفثاته ممتزجة بالماء فإنّي أرتئي أننا هنا نقع على السبب الذي جعل حاسة الشمّ عنده معطّلة ، إذ ليس فيه عضو يوازي الأنف إلاّ فوهة النفث . ومادام يسدّ منفذها عنصران فلا يتوقّع لها أن تكون فيها القدرة على الشمّ . ولكن بما أنّ النفث لغز- أهو ماء أو بخار - فليس هناك يقين مطلق يمكن أن نبلغه حول هذه القضيّة ، ومع ذلك فمن المتيقّن أن ليس للحوت أدوات للشمّ متميّزة ، ولكن ماحاجته اليها وليس في البحر ورد أو بنفسج أو عطر الكولونيا ؟

ثمّ ليس للحوت صوت . وذلك لأنّ قصبته الهوائية لا تفتح إلا على أنبوب القناة النفاثة ، وتلك القناة الطويلة - مثل قناة إيري العظمى - مزوّدة بنوع من الهويسات (تنفتح وتنغلق) لتحتفظ بالهواء في الأسفل وتطرد الماء صعداً ، لهذا لم يكن له صوت ، إلا أن تهينه فتقول حين تسمعه يدمدم على نحوٍ غريب : إنه أخنف يتحدّث من أنفه . ولكن - مرّة أخرى - ماشأن الحوت بالكلام ؟ لقلّما عرفت كائناً عميقاً لديه مايقوله لهذا العالم إلاّ إن اضطر ليتمتم شيئاً بعينه ليحصل على وسيلة عيش . آه : ماأسعد أن يكون العالم ذا أذن صاغية واعية!

وقناة النفث في حوت العنبر إنّما غايتها الكبرى هي نقل الهواء ، فهي تمتد على مدى عدّة أقدام امتداداً أفقيّاً تحت السطح الأعلى من رأسه مباشرة ، منحرفة بعض الشيء الى أحد الجانبين ، وهذه القناة الغريبة تشبه أنبوب الغاز الذي يمدّ في أحد جانبي شارع من شوارع مدينة من المدن . ثمّ يعود السؤال : هل أنبوب الغاز هذا أنبوب للماء أيضاً ؟ أي بعبارة أخرى : هل نفثة حوت العنبر إنّما هي الزفير المطرود أو أنّ هذا الزفير يخلط بالماء عند الفم ويطرد من خلال الفوهة ؟ من المؤكّد الثابت أنّ الفم يتّصل - على نحوٍ غير مباشر - بقناة النفث ، ولكن لايمكن أن نثبت أنّ الصلة إنّما هي للتخلّص من الماء من خلال الفوهة . ذلك لأنّ أقصى الضرورات التي تضطر الحوت أن يفعل ذلك إنّما تتم حين يتغذّى فيأخذ قسطاً من الماء عرضاً ، غير أنّ طعام حوت العنبر بعيد جداً عن سطح الماء ، وهناك لايستطيع أن ينفث حتّى لوشاء أن يفعل . ثمّ إنّك اذا تأمّلته عن كثب ، وعيّنت الوقت بساعتك حين لايكون عرضة للتحرّش والإزعاج ، وجدت تناوباً لايختل بين فترات نفثه والفترات العاديّة من تنفّسه .

ولكن لِمَ تُعْنِتُ الناس بكل هذا التفلسف حول الموضوع ؟ أفصح! لقد رأيته ينفث ، ذن فقل جهراً ماهو نفثه ، ألا تستطيع أن تميّز الماء من الهواء ؟ سيّدي العزيز ليس من لسهل في هذا العالم أن تقطع بقول فصل في هذه الشؤون الواضحة . لطالما وجدت أنّ الشؤون الواضحة أعقد الشؤون ، أمّا نفاثة الحوت فقد تقف فيها ثمّ تظل حائراً في أمرها وماهيّتها .

جسمها الأوسط مختفٍ في الضباب الثلجي اللامع الذي يغلّفها . وكيف تستيقن إن كان الذي ينبعث منها ماء ، وأنت حين تقارب الحوت لترى نفاثته بدقّة فإنه يكون دائماً في هياجٍ هائل ، والماء يعبّ حوله من كلّ جانب كأنه شلاّل . وإذا ظننت في مثل هذه الأحوال أنّك قد لحظت حقّاً قطرات من الرطوبة في النفاثة ، فكيف تعلم أنها لم تتكثّف من بخاره ، أو كيف تعلم أنها ليست القطرات المماثلة التي تندسّ من خارج في نسيج فوهة النفث ، وهي مندسّة في القمّة من رأس الحوت ؟ فهو دائماً يحمل حوضاً صغيراً من الماء فوق رأسه مثلما ترى تحت الشمس المتوهّجة أحياناً قلتاً في صخر يملأه ماء المطر ، وهو يحمل ذلك الحوض الصغير حتّى وهو يسبح مطمئناً في صفاء الظهيرة وهدأة الكون ، وحردبته سامقة قد جفّفتها الشمس كأنها سنام الجمل في الصحراء .

وليس من باب الكياسة في الصيّاد أن يزداد فضوله حول الطبيعة الحقّ لنفاثة الحوت . إذ ليس ممّا يغني عنه أن يحملق فيها أو أن يدسّ فيها أنفه . إنّك لاتستطيع أن تذهب بجرتك الى هذه النافورة وتملأها وتعود بها ، إذ أنّك حين تقترب اقتراباً غير كبير من المزق الخارجية ذات الأبخرة في النفاثة ، وهذا أمر يحدث كثيراً ، فإنّ جلدك يؤلمك ألماً مبرحاً من لذع الشيء الذي لامسه . وأنا أعرف شخصاً اقترب من النفاثة كثيراً ـ ولا أدري هل كانت غايته علمية أو غير علمية ـ فتسلّخ جلده عن خدّه وساعده . ومن ثمّ ذهب الحوّاتون الى أنّ نفاثة الحوت سامة فهم يحاولون أن يتجنّبوها ما استطاعوا . وشيء آخر : سمعتهم يقولون ولا أشكّ فيما قالوه : إذا أرسلت النفاثة نفثها في العينين أصابتهما بالعمى . يبدو لي اذن أنّ أحكم مايمكن أن يصنعه الباحث هو أن يترك هذه النفاثة القاتلة في حال سبيلها .

وإذا عجزنا عن البرهان والتأكيد فإنّا لن نعجز عن الفرض . وهذا هو الفرض الذي أطرحه : إنّ النفث ليس إلاّ ضباباً ، وقد توصّلت الى هذا الاستنتاج عن طريق تأمّلات تمسّ الرفعة العظيمة والروعة البالغة لدى حوت العنبر طبعاً وسليقة ، هذا الى أسباب أخرى . فأنا لا أعدّ هذا الحوت كائناً عادياً ضحلاً مستيقناً من ذلك بمثل يقيني الذي لاينازعني فيه مجادل أنه لا يوجد عند الشواطئ أو على مقربة من البرّ ، أمّا سائر الحيتان فإنّها قد تفعل ذلك

أحياناً فهو إذن يجمع بين الثقل والعمق وأنا مقتنع أنّ رؤوس الكائنات الثقيلة العميقة ، مثل أفلاطون وبيرون[١] والشيطان وجوبيتر ودانتي ، يخرج منها دائماً بخار شبه منظور حين تأخذ في التفكير العميق . وحين كنت أكتب مقالاً في الخلود دفعني الفضول الى أن أنصب مرآة أمامي وقبل وقت طويل رأيت في المرآة تلوّياً متعقّداً غريباً وتموّجاً في الجوّ من فوق رأسي ، كان ذلك هو رطوبة شعري التي لاتتبدّل وأنا مستغرق في الفكر العميق بعد ستّة أكواب من الشاي الساخن في المقصورة العلوية المسقوفة بالخشب في بيتي . هذه ـ فيما يبدو ـ حجّة تؤيّد الفرض الذي وضعته آنفاً .

وماأشدّ مايسمو بخيالنا عن الوحش القويّ ذي النفث الضبابي أن نرا ه يسبح في جلال خلال هدأة البحار الاستوائية ، وقد تظلّل رأسه الجريم اللطيف بظلّة من بخار ولّدته أفكاره التي لا يمكنه إبلاغها لغيره ، وأنّ ذلك البخار يرى أحياناً وقد وشّحه قوس قزح ، حتّى كأنّ السماء نفسها أمّنت على أفكاره ووقّعت بالقبول ، ولعلّك تعلم أنّ قوس قزح لا يلم بالفضاء الصافي وإنّما يبعث الألق في البخار ، وكذلك إذا تكاثف ضباب الشكوك القاتمة في عقلي تخلّلته أنوار الحدس الآلهية منوّرة ذلك الضباب بشعاع سماوي . شكراً لله على هذا لأنّ الناس جميعاً تعتريهم الشكوك ، وكثيراً منهم يعتريهم الجحود ، ولكنْ قلّ أن تجد في الناس من ينالون الحدس مع الشكّ أو الجحود . الشكوك في الأمور الأرضية ، والحدس في الأمور السماوية . هذا المزيج لايصنع مؤمناً خالصاً ولاكافراً خالصاً وإنّما يصنع إنساناً يرى الحالتين دون تفرقه أو تمييز .

---

(١) Pyrrho فيلسوف يوناني (حوالي ٣٦٠ ـ ٢٧٠ ق .م) كان يقول من المحال معرفة الأشياء في .

٨٦

الذنب

غيري من الشعراء قد نظموا قصائد غزل يتغنّون فيها بعين الغزال الساجية ، وبريش الطير الجميل الذي يظلّ أبداً محلّقاً ، أمّا أنا فإنّي سأتغنّى بذنب ، وهو نصيب أقلّ مجداً .

إذا قدرت أنّ أكبر ذنبٍ حجماً في حوت عنبر يبدأ من حيث يصبح جذعه يستدقّ بحيث يغدو في مثل محيط الجسم الإنساني ، فإنه يضمّ على سطحه وحده مساحة تبلغ خمسين قدماً مربّعاً على الأقل . وعند العجب ينشطر الجسم المستدير المكتنز في شطرين أو راحتين عريضتين ثابتتين مسطّحتين ، تستدقّان تدريجيّاً حتّى يصبح سمكهما أقل من بوصة واحدة ، وعند موضع الانشعاب تتداخل هاتان الشطيرتان قليلاً ثمّ تتجافيان إحداهما عن الأخرى كالجناحين ، مخلّفتين فيما بينهما فضاءً واسعاً ، ولن تجد في أيّ شيء حيّ خطوط جمال محدّدة المعالم في حسن بديع كما تراها في الحوافي الهلالية من هاتين الشطيرتين ، ويزيد الذنب في أقصى مايبلغه من عرض في حوت مكتمل النمو على أربعين قدماً .

ويبدو هذا العضو كلّه طبقة كثيفة منسوجة من عضلات متلاحمة ، ولكن اقطع فيها قطعاً تجد أنها تتألّف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا . أمّا الأنسجة في الطبقتين العليا والدنيا فإنها طويلة أفقية ، وأمّا التي في الطبقة الوسطى فإنها بالغة القصرمتّجهة اتّجاهاً عرضيّاً بين الطبقتين المحيطتين بها . وهذا التركيب الثلاثي يمنح الذنب قوّة ، شأنه شأن أيّ تركيب آخر.. ومن كان يعرف الأسوار الرومانية القديمة وجد أنّ الطبقة الوسطى توازي على نحوٍ غريب الصفّ الرفيع من البلاط الذي يتناوب دائماً مع الحجر في تلك الآثار العجيبة من مخلّفات القدامى ، وهو ولاريب ذو أثر كبير في القوّة العظمية التي تتمتّع بها تلك الأسوار .

ولكنْ كأنّما هذه القوّة المحلّية الكبيرة في الذنب الوتري غير كافية ولذلك كان جسم اللوياثان كلّه مزوّداً بسدىً ولحم من الأنسجة والألياف العضلية تمر من كلّ جانب من جانبي أحشائه ، حتّى ليبدو أنّ قوّة الحوت كله ، المترافدة التي لايستطاع قياسها ، كأنّما تتجمّع في الذنب عند بؤرة واحدة . ولو كانت المادة تصاب بالفناء فهذه المادة موضع ذلك .

وهذه القوّة المدهشة لاتنحو أبداً لعرقلة التثنّي الرشيق في حركاته ، حيث اليسر الرشيق يتموّج من خلال جبروت القوّة . بل العكس هو الصحيح : فإنّ تلك الحركات تستمد جمالها الباهر منها ، فالقوّة الحق لاتشوّه الجمال أو الانسجام وإنّما تمنحهما للشيء القوي ، وفي كلّ شيء جميل آسر الجمال تلعب القوة دوراً سحرياً . أزل الأوتار العضلية الملتفة التي يبدو وكأنها تريد أن تنفر من الرخام في تمثال هرقل فقد يضيع سحره بذلك . وعندما أزاح أكرمان التقيّ المخلص الكفن الكتّاني عن جثة جوته العارية هاله أن يرى صدره الضخم ، وبدا له كأنه قوس نصر روماني[١] . وعندما يرسم أنجلو صورة الإله في شكل إنساني فتأمّل مافيه من قوّة وعنفوان . ومهما تبرز الصور الإيطالية الخنثوية الناعمة المتموّجة من حبّ إلهي في صورة المسيح ، وهي الصور التي تجسّدت فيها فكرة المسيح تجسّداً موفّقاً ، فإنها ـ لخلوّها من كلّ عضلٍ مفتول ـ لاتوحي بشيء من القوّة إلاّ القوّة السالبة المؤنّثة ، قوّة الخضوع والصبر التي أجمع العارفون على أنها تمثّل الفضائل العملية المتميّزة في تعاليمه .

وهذا العضو الذي أتحدّث عنه قد بلغ من المرونة اللبيقة حدّاً بعيداً ، حتّى لو تحرّك في لهوٍ أو جدّ أو غضب أو في أيّ حال ، فإنّ تثنياته موسومة برشاقة بالغة لاتختل ، وفي هذه الرشاقة لا تفوقها حتّى سواعد الجنّيات .

وتختص به خمس حركات كبيرات ، أولاها : حين يستعمل زعنفة تعين على الحركة والتقدّم ، وثانيتها : حين يتّخذ كاسراً للدرع في الحرب ، والثالثة في الجرف والكسح ، والرابعة في استرخائه ، والخامسة في رفع الشطيرتين على اتّجاه عمودي .

أوّلاً : بما أنّ ذنب اللوثايان أفقي في وضعه فإنه يتحرّك على نحوٍ يختلف عن أذناب جميع الحيوانات البحرية الأخرى . فإنه لا يتعقّص أبداً فالتعقّص في الإنسان والسمك من أمارات النقص . أمّا الحوت فإنّ ذنبه هو وسيلته الوحيدة للدفع ، وبما أنه يلتف كالدرج أماماً

---

(١) يقول اكرمان : «سجي الجسم عارياً لايلفه إلاّ كفن أبيض... وأزاح فردريك الكفن عنه فهالتني الروعة المتألهة في الأعضاء ، كان الصدر قوياً واسعاً مقوّساً... أمامي إنسان كامل في جمال رائع» .

تحت الجسم ، ثمّ يقفز بسرعة الى الخلف فهو الذي يمكّن الحوت من حركة الانطلاق الفريد الواثب حين يسبح بعنف وهياج . أمّا زعانفه الجانبية فإنها تعينه على المخر ليس إلا .

ثانياً : ربّما كان أمراً ذا أهميّة ما أن نعلم بأنّ حوت العنبر حين يقاتل حوت عنبر آخر فإنه لايستخدم إلا رأسه وفكّيه ، ومع ذلك فإنه في صراعه مع الإنسان لايستخدم إلاّ ذنبه ـ في الدرجة الأولى ـ في استهانة وازدراء . فإذا ضرب قارباً حنى شطري ذنبه بسرعة عنه ، ثمّ سدّد الضربة اليه عند التراجع فقط . فإذا تمّت الضربة في الهواء الطلق وبخاصة إذا هوت على هدفها فإنها ضربة لاتصدّ ولا تقاوم ، وتعجز عن أن تتحمّلها أضلاع الإنسان وألواح القارب ، ولا نجاة للمرء إلاّ بأن يتحاشاها ، ولكن إن وقعت جانبيه خلال الماء فإنّ النتيجة الخطيرة التي تنجم عنها بعامة لخفّة قارب التحويت من ناحية ولمرونة مادّتها من ناحية أخرى إنّما هي كسر ضلع أو خلع لوح أو اثنين أو إحداث وخز في الجنب ، وكثيراً ما تحدث هذه الضربات الجانبية خلال الماء في حرفة التحويت حتّى أنّها لتعدّ عبث أطفال ، فقد يخلع أحدهم سترته ويسدّ الجرح أو الثقب .

ثالثاً : يبدو لي ، وإن كان مايبدو أمراً أعجز عن تأييده بالحجّة ، أنّ حاسة الشمّ في الحوت ترتكز في جنبه ، إذ فيه ـ من هذه الناحية ـ رهافة لايوازيها إلا الرهافة في خرطوم الفيل ، وتتجلّى هذه الرهافة على نحوٍ كبير في الجرف والكنس حين يحرك الحوت ، بلطف العذارى وبأناة ناعمة ، شطيرتي ذنبه الضخمتين من جانب الى جانب على سطح الماء ، ولو أنه أحسّ بشاربي بحّار فويل لذلك البحّار ولشاربيه ولكلّ ما لديه . ماذا في تلك اللمسة التحسّسية من رقة وإرهاف! لو كان في ذلك الذنب قوّة ممسكة لأخطرتُ تواً على بالي فيل درموندس الذي كان يتردّد على سوق الأزهار ، وينحني محيّياً العذارى ويقدّم لهنّ طاقات من الزهر ، ويداعب حجزاتهن[1] . وفي غير مناسبة واحدة يشعر المرء بالرثاء أن لايكون ذلك الذنب ذا قوّة على القبض والإمساك ، ذلك أنّي سمعت بفيل آخر كان إذا جرح في القتال ، طوى خرطومه وانتزع به النصل من جسمه .

رابعاً : إذا تسلّلت خلسة نحو الحوت وهو يظنّ نفسه آمناً مطمئناً في وسط البحار النائية وجدته صليباً لاينفكّ من الاستشعار بعزّته وجسامتها الجسيمة ، وهو يلعب على المحيط كأنه السنور وكأنّ المحيط مصطلاه . ولكنّك ترى قوّته في لعبه ، فإنه يرفع الراحتين العريضتين من ذنبه عاليتين في الفضاء ، ثمّ يلطم وجه الماء فيتردّد هزيم اللطمة على مدى أميال حتّى لتظنّ أنّ

---

(١) مثل هذه القصّة عن الفيل روى مونتين وكذلك تجدها عند بليني وفلوطارخس ، ولكن لم يذكر أحد منهم هذا الاسم « دروموندس » .

مدفعاً ضخماً قد انطلق ، وإذا لحظت الأكاليل الخفيفة من البخار الصاعد من الفوهة في طرفه الآخر ظننت أنّ هذا هو الدخان المنبعث من الثقب حيث تدسّ النار في البارود .

خامساً : حين يكون الحوت في وضع عاديّ من العوم ، تكون الشطيرتان على بعد غير قليل تحت مستوى ظهره ، ولذلك تكونان محجوبتين تماماً عن الأنظار تحت الماء ، فإذا همّ أن يغوص في الأعماق نصب شطيرتي الذنب مع ثلاثين قدماً ـ على الأقل ـ من جسمه في الفضاء وبقي يتذبذب كذلك لحظة حتّى يغوص سائره مختفياً عن النظر . وإذا أنت استثنيت قفزته الرائعة خارجاً من الماء ـ وذلك ماسوف أصفه في موضع اخر ـ فإنّ رفعه شطيرتي ذنبه منصوبتين في الفضاء ربّما كان أعظم منظر يراه المرء في الطبيعة الحيّة . من الأعماق التي لا قرارة لها يبدو الذنب الضخم وكأنه يحاول أن يتشبّث متشنّجاً بالسماء السابعة . كذلك رأيت الشيطان المهيب في أحلامي يدفع بمخلبه المعذب الجسيم من خلال بحار النار في السعير ،ولكن الحكم في مثل هذه الأمور وأنت ترمقها هو حالك النفسية عندئذ فإن كنت في حالة دانتية خطرت لك الشياطين وإن كنت في مثل مزاج أشعيا تذكّرت الملائكة الأبرار . ذات مرّة كنت أقف على قمّة الصاري في سفينتي عند الشروق وقد صبغت الشمس الأفق والبحر بلون قرمزي ، فرأيت قطيعاً كبيراً من الحيتان قِبَلَ المشرق كلّها عامدة في وجهتها نحو الشمس ، وظلّت لحظة تتذبذب في انسجامٍ وشطائر أذنابها منتصبة ، وقد خطر لي حينئذ أنّ مثل هذا التجسّد العظيم لعبادة الآلهة لم يشهد له مثيل ولاحتّى في فارس موطن عبّاد النيران . ومثلما أنّ بطليموس محب الأب قد شهد للفيل الافريقي(١) فإنّي عندئذ شهدت للحوت بأنه أشدّ المخلوقات تقوى وورعاً . إذ يقول الملك يوبا إنّ الأفيال الحربية في القديم كثيراً ماكانت تستقبل الصباح وخراطيمها مرفوعة وهي في أعمق سكون .

إنّ هذه السانحة للمقارنة بين الحوت والفيل في هذا الفصل ، من حيث بعض مظاهر الذنب في أحدهما والخرطوم في الآخر ، يجب ألا تجعل هذين العضوين المتضادين موضع المساواة ، أو تجعل صاحبيهما كذلك ، وشتّان ماهما ، لأنّ أقوى فيل لايعدو أن يكون كلباً صغيراً إزاء الحوت ، ولايعدو خرطومه إذا قارنته بذنب الحوت أن يكون سويقة زنبقة . وإذا قارنت ضربة الفيل بضربة الحوت ، وجدت أعتى ضربة للفيل بخرطومه لاتعدو أن تكون هشّة عابثة بمروحة ، أمّا شطيرتا ذنب الحوت الثقيلتان فإنهما

---

(١) يقول فلوطارخس أنّ بطليموس هذا شهد بأنّ الآلهة تحب هذا الحيوان ـ أي الفيل ـ وقال يوبا إنه يعبدها ويغتسل متطهّراً في البحر ويعبد الشمس الشارقة موجهاً نحوها خرطومه .

تحدثان دماراً وتحطيماً ، وكم من مرّة أطارتا في الفضاء قوارب كاملة بكلّ مافيها من مجاذيف وملاحين مثلما يقذف الحاوي الهندي الكرات* .

وكلّما ازددت تأمّلاً في هذا الذنب الجبّار زاد أسفي لعجزي عن وصفه . فله حركات في بعض الأحيان لو تلبّست يد إنسان لزانتها ومع ذلك تظلّ لغزاً لا يفسّر . وهي حركات وإيماءات صوفية يمارسها في القطيع الكبير أحياناً على نحوٍ فذّ ، حتّى لو سمعت بعض الصيّادين يقولون أنها شبيهة بالإشارات والرموز التي يستعملها الماسونيون ، وإنّ الحوت حقّاً يتحدّث بهذه الوسائل الى الكون في ذكاء وفطنة . وليست تعوز الحوت حركات أخرى في جسمه بعامة ، حافلة بالغرابة ولايستطيع تعليلها أمهر مهاجميه ، فكيفما أخذته بالتحليل والتشريح لم أتجاوز في العمق سمك بشرته ، فأنا أجهله وسأظلّ أجهله أبداً وإذا لم أعرف حتّى ذنبه فكيف أفهم رأسه ، ثمّ ـ وهذا أبلغ ـ كيف أدرك وجهه حين لايكون له وجه ؟ ويبدو لي أنه يقول : سترى أجزائي الخلفية ، سترى ذنبي أمّا وجهي فلن تراه[1] ، ولكنّي لا أستطيع أن أستبين أجزاءه الخلفية تمام الإستبانة ومهما يقل هو عن وجهه فإنّي أقول ثانية أنه لا وجه له .

* كلّ مقارنة في الجسامة عامّة بين الحوت والفيل منافية للطبيعة ، إذ الفيل إنّما يقف من الحوت مثلما يقف الكلب من الفيل ، ومع ذلك فإن بعض أوجه الشبه العجيب متوفّرة ثمة ، ومنها النفث فمن المعروف أنّ الفيل يأخذ الماء بخرطومه ثمّ يرفعه وينفثه مسترسلاً .

(١) قارن هذا بما جاء في سفر الخروج ٣٣ ، ٢٢ « وقال الربّ هو ذا عندي مكان ، فتقف على الصخرة ، ويكون متى اجتاز مجدي أنّي أضعك في نقرة من الصخرة واسترك بيدي حتى أجتاز ثمّ أرفع يدي فتنظر ورائي ، وأمّا وجهي فلا يرى » .

٨٧

اسطول ضخم من الحيتان

تكوّن شبه جزيرة مالقا الطويلة الضيّقة في امتدادها جنوباً شرقيّاً من مقاطعات برما آخر نقطة جنوبية في آسيا جميعاً ، ويمتد من شبه الجزيرة تلك على خط مسترسل ، جزائر سومطرة وجاوة وبالي وتيمور ، وهي تكوّن مع جزائر أخرى كثيرة سدّاً مديداً أو برزخاً يربط ربطاً طوليّاً بين آسيا واستراليا ، ويفصل بين المحيط الهندي المديد المسترسل والأرخبيلات المشرقية المرصّعة ترصيعاً كثيفاً . وتتخلّل هذا البرزخ موانىء خفيّة عديدة تفيد منها السفن والحيتان ، ومن أبرزها مضايق سندا ومالقة ، فالسفن العامدة نحو الصين من الغرب تنفذ على وجه الخصوص من مضايق سندا الى البحار الصينية .

ومضايق سندا الضيّقة هذه تفصل سومطرة عن جاوه ، وتتوسّط البرزخ الجزري المديد ، ويرفدها نتوء بارز أخضر يعرفه البحارة باسم رأس جاوه ، وهي تمثّل بوّابة متوسّطة شارعة نحو امبراطورية شاسعة مسوّرة ، وإذا اعتبرنا الثروة الثرّة التي تتمتّع بها آلاف الجزر في ذلك البحر الشرقي من أفاويه وحرائر وذهب وجواهر وعاج فيبدو أنّ من عناية الطبيعة ذات المغزى أن تكون هذه الكنوز حسب طبيعة تكوين البلاد تحمل مظهراً على الأقل - وإن كان قليل الغناء - يدل على أنها محروسة من جشع العالم الغربي . وليس على سواحل مضايق سندا مثل تلك القلاع المسيطرة التي تحرس مداخل البحر المتوسط وبحر البلطيق والبحر الأسود فهؤلاء الشرقيّون على خلاف الدنماركيين لايتطلّبون الولاء الخانع الذي تبديه مواكب السفن المسترسلة حين تخفض أشرعتها العليا أمام الريح ، وهي السفن التي ظلّت على مدى قرون في الماضي تمر ليلاً ونهاراً بين جزيرتي سومطرة وجاوة ، محمّلة بأغلى بضائع الشرق . ولكن إن كان هؤلاء الشرقيّون يتنازلون راضين عن مثل هذه الشعائر فإنهم لايتنازلون أبداً عن استدعاء جزية أبهظ .

فمنذ زمن غابر لا تحقُّه الذاكرة كانت زوارق القراصنة الملايوية تهجم وهي كامنة بين الكهوف والمنافذ المظلّلة من جزيرة سومطرة على المراكب المبحرة خلال المضايق ، مطالبة في إلحاف وعنف بجزية تحصلها على رؤوس الحراب ، وكم نال هؤلاء من عقوبات دموية متكرّرة على أيدي المراكب الأوروبية الجوّابة ، تضاءلت بها قحة هؤلاء القراصنة في السنوات الأخيرة ، إلاّ أننا حتّى اليوم مانزال نسمع أنّ مراكب انجليزية وأمريكية وقعت في تلك المياه فهوجمت ونهبت دونما رحمة .

كانت السفينة الباقوطة تدنو من تلك المضايق في ريح طلقة رخاء ، وآخاب يهدف الى أن ينفذ خلالها الى بحر جاوه ثمّ يذهب في التطواف شمالاً في مياه يعرف البحارة أنها مثابة حوت العنبر هنا وهناك ، ثمّ يساحل موازياً جزائر الفلبين ويقترب من شاطىء اليابان البعيد لكي يدرك موسم التحويت في إبانه . وبذلك تكون الباقوطة الجوّابة قد ألمّت بجلّ مواقع التطواف المعروفة لصيد حوت العنبر في العالم ، قبل أن تهبط على خط الصيد في المحيط الهادي حيث كان آخاب يقدّر في إصرار أنه سينازل موبي ديك ، وإن أدركته الخيبة في مطاردته له في سائر المواقع ، سينازله في البحر الذي شهر بأنه يعتاده وفي موسم يفترض دون شطط أنه يلمّ به .

وأنّى ذاك ؟ في هذا البحث الدائري ألا يريد آخاب أن يفيء الى البر ؟ أيشرب بحّارته هواء ؟ يقيناً لابدّ له من أن يتوقّف للحصول على الماء . كلا إنّ الشمس التي تجري لمستقرّ لها ظلّت طويلاً تجري في فلكها اللاهب ولاتريد زاداً إلاّ زادها الكامن في نفسها . وكذلك هو آخاب . تأمّلوا هذا الأمر في الحوّاتات أيضاً . بينما تحمّل سائر السفن بمواد غريبة لكي تنقل الى أرصفة الموانىء الأجنبية فإنّ سفينة التحويت التي تجوب العالم لاتحمل من المشحونات إلاّ نفسها وملاّحيها ، وأسلحتهم وحاجاتهم ، وقد عبّأت في عنبرها الوسيع ماء بحيرة كاملة . لقد تطرّمت بالمواد النافعة ولكن لم تزوّد بما لاتحتاج اليه من صوابير الرصاص الخام والحديد المطاوع . إنها تحمل زاد سنوات من الماء ، ماء نانتوكت الصافي الفاخر ، وهو ماء يؤثر النانتوكتي في المحيط الهادي بعد أن يبحر ثلاث سنوات أن يشربه دون السائل الأجاج الذي عبّىء أمس فحسب في البراميل من جداول بيرو أو الهند . ومن ثمّ فإنّ السفن الأخرى قد تذهب من نيويورك الى الصين وتؤوب فتقف عند عشرين ميناء ، أمّا سفينة التحويت فإنها طوال فترة تجوالها قد لاترى ذرّة واحدة من اليابسة ، وقد لا يرى بحارتها من الناس إلاّ من كان بحاراً مثلهم في عرض البحر ، حتّى لو أنّك أخبرتهم أنّ طوفاناً جديداً قد طغى على الأرض لأجابوك قائلين : « حسناً أيّها الفتيان ها نحن لدينا سفينة نوح! » .

اصطيدت حيتان عنبر كثيرة بإزاء الساحل الغربي من جاوة في الجوار القريب من مضايق سندا ، وكانت معظم المواقع من حول ذلك الموقع لدى الصيادين محطاً ممتازاً للتطواف حقاً . ولذا فإن الباقوطة كانت كلّما اقتربت من رأس جاوه ذكّر الرقباء مراراً وأنذروا بأنّ يظلّوا على رقبة واعية . وأطلّت الهضاب الخضر النخيلية من اليابسة عن ميمنة القيدوم ، وأخذ البحارة يتنسّمون بأنوف جذلى أرواح القرفة دون أن تبدو للأعين نفاثة واحدة . وكانوا ينفون من أذهانهم كلّ خاطرة بالانقضاض على صيد ما في تلك النواحي ، وقاربت السفينة أن تدخل المضايق ، حين ارتفعت الصيحة المعتادة المنعشة من قمم الصواري ، وقبل وقت طويل اكتحلت أبصارنا بمرأى ذي مغزى فريد .

ولأستهل الحديث هنا فأقول : بما أنّ همماً لاتنكل توجّهت الى صيد الحيتان في الأيام الأخيرة ، همماً طاردتها في عرض المحيطات الأربعة جميعاً فإنّ تلك حيتان لم تعد تحافظ على خطّتها بالإبحار في شراذم صغيرة متباعدة ـ كما كانت تفعل فيما مضى ـ وإنّما أصبح الصيادون يواجهونها كثيراً وهي سائرة في قطعان كبيرة تضمّ أحياناً أعداداً كثيرة ، حتّى لتكاد توحي أنّ شعوباً عديدة منها قد أقسمت بمحرجات الإيمان وتعاهدت قاطعة على أنفسها أغلظ المواثيق على أن تتبادل فيما بينها العون والحماية . والى تجمع حوت العنبر في قوافل ضخمة يمكن أن يعزى عدم ظهورها في خير مواقع التطواف ، حتّى أنّك قد تبحر أحياناً أسابيع وأشهراً جملة دون أن تحييَ نظرك نفاثة واحدة ، وفجأة يحييك أحياناً ماقد يبدو لعينيك آلافاً وآلافاً .

كانت سلسلة مسترسلة من نفاثات الحيتان مرتفعة تلتمع في فضاء الظهيرة ، مديدة على طول المقدمتين ، على مسافة نحو ميلين أو ثلاثة ، مكوّنة نصف دائرة واسعة المحيط ، محتضنة نصف مستوى الأفق . ونفاثة حوت العنبر المفردة المائلة الى الأمام تمثّل غابة ملتفّة كثيفة من الضباب الأبيض ، وتظلّ ترتفع وتهبط في اتّجاه الريح ، وهي بذلك لاتشبه نفاثة الحوت الأثين المستقيمة العامودية المزدوجة التي تنشطر عند القمة ثمّ تهبط في فرعين كأنها غصنان منشعبان ساقطان عن شجرة الصفصاف .

وعندما رأينا ذلك الحشد من النفاثات البخارية ، من على ظهر الباقوطة وهي تسمو فوق هضبة بحرية ، والنفاثات تتلوّى كلّ على حدة في الفضاء ، وتتجلّى من خلال جوّ مختلط من سديم مائل الى الزرقة ، رأيناها كأنّما هي آلاف من المداخن الجذلى في عاصمة مكتظّة بالسكان يرقبها امرؤ يركب جواده فوق الأعالي ، في صباح يوم عاطر من أيام الخريف .

ومثلما تتقدّم الجيوش الزاحفة نحو مضيق محفوف بالخطر في الجبال ، فتزيد من سرعتها وكلّها لهفة لكي تخلف ذلك الممر الخطر وراءها وتفضي الى الاطمئنان النسبي فوق

السهل ، كذلك بدا ذلك الأسطول الضخم من الحيتان مسرعاً في تقدّمه خلال المضايق ، مضيّقاً جناحي الدائرة النصفية سابحاً قدماً حول مركز ثابت إلاّ أنه هلالي الشكل .

وإذ حشدت الباقوطة كلّ أشرعتها شدّت في آثارها ، وتناول الزراقون رماحهم وأخذوا يجهرون بالهتاف من عند رؤوس قواربهم التي ماتزال معلّقة ، ولم يكن لديهم ريب في أنّ لو استمرّت الريح ، فإن ذلك الجيش اللجب الذي كان يطارد خلال مضايق سندا سينتشر في البحار المشرقية ليشهد فحسب القضاء على عدد غير قليل من أفراده . ومن يدري أنّ موبي ديك نفسه قد يكون سابحاً سبحاً طويلاً في تلك القافلة المحتشدة ، كأنه الفيل الأبيض المعبود في موكب التتويج عند السياميين! وهكذا أبحرنا قدماً وقد كدّسنا الأشرعة الخفيفة الجانبية أحدها فوق الآخر ، ونحن نسوق تلك الحيتان أمامنا ، وفجأة سمعنا صوت طاشطيقو ينبّهنا جهراً بأنّ شيئاً يجري في أثرنا .

وتطلّعنا الى الخلف فرأينا هلالاً آخر كالذي كان يتقدّمنا ، وبدا كأنه مصنوع من أبخرة بيضاء متباعدة ، ترتفع وتهبط بما يشبه نفثات الحيتان ، إلا أنها لا تجيء تماماً وتذهب ، وإنّما تظلّ شاخصة دون أن تختفي في النهاية . وصوّب آخاب منظاره نحو المنظر ، فأدار نفسه بعجلة حول رجله المندسّة في محجنها وصاح : «هيّا اصعدوا ، وهيّئوا الأرشية والدلاء لبلّ الأشرعة ـ هؤلاء من أبناء الملايو ، سيدي ، وهم في أعقابنا» .

كان أولئك الاسيويون الخبثاء عندئذٍ في طرادٍ متحمّس ، كأنّما كانوا قد أطالوا الكمون خلف ألسنة البرّ الى أن أتيح للباقوطة أن تلج المضايق ، فهم بحماستهم يعوضون عمّا فوّته عليهم الغلوّ في الحذر . ولكن عندما دخلت الباقوطة السريعة نفسها بعون من ريح مسعفة في طرادٍ وشدّ ، فما كان ألطف أولئك الصُحم المفعمين بالأخوّة والحب لبني الإنسان وهم يعينونها على الإسراع نحو هدفها المبتغى ـ وهم سياط ومهاميز تحثّها وتسوّطها . ووضع آخاب المنظار تحت إبطه وأخذ يذرع ظهر السفينة ذاهباً جائياً ، فإذا أدار وجهه صوب المقدّمة رأى الوحوش التي يطاردها ، وإذا انفلت نحو المؤخّرة رأى القرصان الظامئين للدماء يطاردونه ، مثل هذه الخواطر مرّت بباله . وعندما رمق بطرفه الأسوار الخضر على جانبي الممر الذي كانت السفينة تبحر فيه ، وتصوّر لنفسه أنّ طريقه الى الانتقام تمتد خلال تلك البوّابة وكيف أنه كان من خلالها يُطارِد ويُطَارَدُ الى مصيره المحتوم ، وإنّ الأمر لم يقف عند هذا الحدّ ، بل إنّ قطيعاً من القراصنة المتوحّشين الغلاظ والشياطين الدهريين اللاإنسانيين كانوا يهيّجونه ويحمّسونه بلعناتهم الجهنّمية ـ أقول : عندما مرّت هذه الأخيلة جميعاً خلال رأسه أصبح جبينه

شاحباً عبوساً كأنه الشاطئ الرملي الأسود بعد مدٍّ طاغٍ كان يأكل من جوانبه ، دون أن يقدر ذلك المدّ على جرّه من مكانه لأنه ثابت مكين .

إلاّ أنّ أفكاراً كهذه لم تزعج البحارة السادرين إلا قليلاً ، وعندما مضت الباقوطة في شوطها وسقط القراصنة في مؤخّرتها إعياءً وتخاذلاً ، وانطلقت أخيراً من جانب رأس كوكاتو الأخضر على ساحل سومطرة نافذة في النهاية على صدر المياه الرحيب من دونها ، عندئذ بدا أن الزراقين أسفوا لأنّ الحيتان فاتت السفينة بأكثر ممّا ابتهجوا لأنّ السفينة قد كسبت الجولة من أبناء الملايو . ولكنّا مضينا في آثار الحيتان وقد بدا لنا أنّها عندئذٍ قد خفّفت من سرعتها ، فاقتربت السفينة منها تدريجيّاً ، وسكتت الريح ، فصدرت الأوامر بأن نقفز نحو القوارب ، وماكاد قطيع الحيتان ـ بغريزة عجيبة فيما أقدّر ـ يحسّ بالقوارب الثلاثة تلاحقه ، وإن كانت المسافة بينها وبينه تبلغ ميلاً ، حتّى انتظمت صفوفه من جديد وتشكّلت في صفوف وطوابير متلاصقة ، وبدت نفاثاتها جميعاً وكأنها صفوف لامعة من «السنجات» المكدّسة ومضت في شدّها مضاعفة من سرعتها .

وشمّرنا عن سواعدنا وسيقاننا وقفزنا نحو القوارب الدردارية ، وبعد عدّة ساعات من التجديف كدنا نجنح الى التخلّي عن المطاردة ، حين حدثت حركة اضطراب عامّة معوّقة بين الحيتان ، فجاءت أمارة شاحذة للهمم تحدّثنا أنّ الحيتان قد أصبحت أخيراً تحت تأثير ذلك النوع من الحيرة الغريبة التي يمليها التردّد القاصر ، وإذا لحظها الصيادون في الحوت قالوا إنه قد ثارت به الصفراء . وإذا تلك الصفوف العسكرية المتراصّة التي كانت تتقدّم حتّى ذلك الحين في سرعة وثبات قد اختلّت فأصبحت كأنها فلّ منهزم شرّ انهزام ، وبدت كأنّما قد جنّت ذعراً وذهولاً ، كأنّما أفيال الملك بورس في المعركة الهندية بينه وبين الاسكندر[1] ، وتشتّت في جميع الوجهات على شكل دوائر مضطربة تسبح هنا وهناك دون هدى ، وتنفث نفثات قصيرة كثيفة ، وتفضح بذلك كله ارتباكها الناجم عن الهلع . ولعلّ أغرب ما عايناه هو أنّ بعضها كأنّما أصيب بالشلل ، فعام على الماء منطرحاً مخذولاً كأنه سفن على الماء محطّمة معطّلة . ولو كانت تلك الحيتان قطيعاً من الضائنة الحمقاء ، وقد طاردتها في مرعاها ثلاثة من الذئاب الشرسة ، لما انفضح فيها هذا الهلع البالغ على هذا النحو ، ولكن هذا الخور العارض سمة تكاد تعمّ كلّ الكائنات التي تعيش في القطيع ، فالجواميس البرّية في الغرب الأمريكي ، ذوات الأعراف كألباد الأسود تحتشد في أعداد تبلغ عشرات الألوف ، وتفرّ

---

(١) حدثت المعركة عند نهر Hydaspes عام ٣٢٧ق .م .

هاربة أمام خيّال واحد . وتأمّل أيضاً جميع بني البشر ، كيف يكونون محتشدين في حظيرة يسمّونها قاعة المسرح فإذا أنذروا محض إنذار طفيف باشتعال النار اندفعوا في هياط ومياط نحو المنافذ ، متجمهرين متكدّسين يطأ بعضهم بعضاً ، ويدفع أحدهم الآخر الى الموت دون إشفاق . خير لك إذن أن تحبس دهشتك إذا رأيت منظر الحيتان الغريب وقد ثارت بها الصفراء ، إذ ليس في حيوانات الأرض حمقٌ وطيشٌ إلا الإنسان يبذّه على قدر لا يحدّ .

ومع أنّ كثيراً من الحيتان ـ حسبما تقدّم القول ـ كانت تتحرّك حركة عنيفة ، فعلينا أن نلحظ أنّ القطيع من حيث هو لم يتقدّم ولم يتأخّر وإنّما بقي مجتمعاً في مكان واحد . فتفرّقت القوارب حالاً ، كما يحدث في مثل هذه الأحوال ، وكلّ منها يعمد الى حوت منفرد في طرف من أطراف القطيع . وبعد حوالي ثلاث دقائق كان رمح كويكوج قد انطلق ، فنثر الحوت المصاب رذاذاً معشياً في وجوهنا ، ثم انطلق يجري بنا كأنه البرق عامداً نحو قلب القطيع ، ولم تكن تلك الحركة من الحوت المضروب في تلك الظروف أمراً عاديّاً غير مألوف بل إنّها شيء يتوقّعه المرء حيناً بعد حين ، إلاّ أنها تمثّل الجانب الأخطر من صروف حرفة الصيد ، إذ كلّما جرّك الحيوان المنطلق متوغّلاً بك في أعماق القطيع الهائج فقد ودّعتَ حياة الحذر والحيطة ، ولم يعد لك وجود إلاّ في اختلاجة من البحران الهاذي .

وفي حالة من العمى والصمم انطلق الحوت غائصاً كأنّما محض القدرة على الاسراع تخلصه من العلقة الحديدية التي ألحّت عليه ، أمّا نحن فشققنا في جسم البحر جرحاً أبيض ونحن في انطلاقنا مهدّدون ، من جميع الجوانب ، بالحيوانات المهتاجة الممسوسة التي تندفع حولنا يمنة ويسرة ، وقاربنا المحصور كأنه سفينة تألّبت عليها جزر الجليد في عاصفة ، فجهدت كي تمخر خلال القنوات والمضايق المعقّدة ، وهي لاتعرف في أية لحظة يطبّق عليها الجليد ويحطّمها .

ولكنّ كويكوج لم يعرف الخوف أبداً فمضى بنا في جسارة ورجوليّة ، آناً يزوّر عن هذا الوحش الذي اعترض طريقنا عامداً لدى تقدّمنا ، وآنًا يحيد عن ذاك الذي جعل شطيرتيه الضخمتين مشبوحتين الى أعلى ، بينما وقف استاربك طوال ذلك الوقت كلّه في مقدّمة القارب ، والحربة في يده ، يبعد من طريقنا بالوخز والنخس أي حيتان يمكن أن تبلغها النصال القصيرة ، إذ لم يكن الوقت يسمح باستعمال الطويلة منها . هذا ولم يكن القائمون على المجاذيف متوانين خاملين وإن كانت مهمّتهم المعتادة قد أصبحت غير لازمة ، فوجهوا همّهم في الدرجة الأولى الى إرسال الصيحات : «ابعد ياكومودور!» ـ كذلك صاح أحدهم في «هجين» ضخم ارتفع جسمه فجأة فوق سطح الماء ، وكاد في لحظة خاطفة يغطّنا في البحر ،

- «انزل ذنبك يا هذا» - ذلك ماقاله آخر مخاطباً هجيناً آخر كان على مقربة من الحافة يروّح في هدوء عن نفسه بطرفه الآخر الذي يشبه المروحة .

كلّ قوارب التحويت مزوّدة بوسائل غريبة اخترعها في الأصل هنود نانتوكت وسمّوها : «الدرق» ، والدرقة مربعان ثخينان من الخشب متساويان في الحجم يسمّران بقوّة معاً حتّى يتقاطعا عند جانبيهما في زاوية قائمة ، ثمّ يوصل بوسط هذه الدرقة حبل ذو حظّ من الطول ، ويجعل الطرف الآخر من الحبل في صورة أنشوطة حتى يمكن أن يوثّق برمح في لحظة . وهذه الدرقة تستعمل أكثر ما تستعمل بين الحيتان التي ثارت بها الصفراء ، إذ حينئذٍ تكون الحيتان القريبة من حول الصيادين ممّا لايستطيعون مطاردته في آنٍ واحد . ثمّ إنّ حيتان العنبر لا تصادَف كلّ يوم ، فعليهم إذن أن يقتلوا منها مايقدرون على قتله . وإذا لم يقتلوها حالاً كان عليهم أن يهيضوا أجنحتها حتّى يقتلوها من بعد على هينتهم . ومن ثمّ كانت الدرق في مثل هذه الأوقات شيئاً ضرورياً . وكان قاربنا مزوّداً بثلاث درقات ، وفقنا في قذف الأولى والثانية منها ، ورأينا الحيتان تندّ مترنّحة وقد قيّدتها المقاومة الجانبية الهائلة من الدرقة التي تشدّها . فتشنّجت كأنها مجرمون ربطوا بالسلاسل والكلبشات ، ولكنّا حين شئنا أن نطرح الثالثة علقت ونحن نهم بقذف تلك القطعة الخشبية الخشناء ، تحت أحد مقاعد القارب فنزعته معها وذهبت به ، وأسقطت المجذّف في قاع القارب حين انزلق المقعد من تحته ، وهجم البحر من الجانبين على الألواح الجريحة ولكنّا حشونا في الثقب ثلاثة من السراويل والقمصان وحلنا دون تسرّب الماء آنئذٍ .

كان شيئاً يشبه المستحيل أن نلقي بتلك الرماح الموصولة بالدرقات لولا أننا حين تقدّمنا خلال القطيع ضاقت الطريق بنا وبالحوت . ثمّ أننا حين أوغلنا في التقدّم من محيط الاضطراب بدت لنا الفوضى المفزعة آخذة بالاضمحلال ، حتّى أننا حين نزعنا أخيراً الرمح المتأطّر واختفى الحوت الذي يجرّنا في اتّجاه جانبي ، انسابت بنا الطريق ، بتلاشي القوّة من زخمه المتبدّد ، بين حوتين في صميم القطيع كأننا انحدرنا فوق سيل جبلي الى بحيرة مطمئنة في سرارة الوادي . هنالك كنّا نسمع العواصف في الوهدات المزمجرة بين حيتان الظواهر والأطراف ولكن لانلمسها ، وكان البحر في هذه الرحبة المتوسّطة قد لبس سطحاً ناعماً رقيقاً كأنه الساتان ، وهو مايسمّونه «السطح المصقول» وهو ينجم عن الرطوبة الدقيقة التي يقذفها الحوت في حالة هدونه . أجل ، كنّا في تلك الهدأة المسحورة التي يقولون إنها تكمن في وسط العاصفة والاضطراب . ومن تلك المسافة المذهولة رأينا تضرّبَ الدوائر الخارجية المتّحدة في مركزها ، وشاهدنا أصورة متتالية من الحيتان . في

كلّ صوار ثمانية أو عشرة ، تدور وتدور في سرعة كأنها أزواج كثيرة من الخيول تدور في حلقة ، وتصاقبت جنباً لجنب حتى أن أي فارس ميدان جبار قد يستطيع في يسر أن ينحني فيمس الوسطى منها وينتقل على ظهورها ذاهباً جائياً . وتكاثفت جماهير الحيتان المطمئنة ، وزاد في الحال عدد التي أحاطت بمحور القطيع المحصور ، لذا لم تكن لتسنح لنا في الحال فرصة ممكنة للهرب . وكان علينا أن نرقب ثغرة في ذلك الجدار الذي يسدّ علينا الطريق ، ذلك الجدار الذي أذن لنا بالدخول لينغلق من حولنا ويجعلنا سجناء . وإذ لبثنا في وسط البحيرة كانت تعتادنا بين الحين والحين بقرات وعجول أليفة صغيرة ، أعني إناث القطيع المنهزم وأطفاله .

وإذا أخذنا في حسابنا المسافات الواسعة التي تعرض بين الدوائر الخارجية الدوّارة ، والمسافات بين الأصورة المختلفة في كل دائرة من تلك الدوائر ، كانت المساحة الكلية التي يشغلها كل ذلك الرعيل في تلك الآونة تضم ميلين مربعين أو ثلاثة أميال مربعة ، على الأقل . وعلى أي حال فقد كان يمكننا أن نستكشف ، من قاربنا الوطيء ، نفاثات حيتان تتلاعب في الفضاء وتكاد تمس حافة الأفق ، غير أن مثل هذا في مثل ذلك الوقت قد يكون شيئاً خادعاً مضللاً . وأنا أذكر هذه الحادثة لأن البقرات والعجول كانت كأنما وضعت عن قصد في وسط الحظيرة وصينت فيها ، وكأنما الامتداد الشاسع الذي يشغله القطيع إنما منعها من أن تفهم وجه العلة في توقفه ، أو لعلها لحداثة أسنانها وغرارتها وبراءتها وضعف تجاربها ، أو لأي سبب آخر ، كانت تجيء من حوافي البحيرة لتزور قاربنا الذي اضطر للاستقرار ، وتبدي جرأة وثقة عجيبتين أو تبدي هلعاً مسحوراً ليس من الممكن أن لايندهش له الرائي . كانت ككلاب المنازل تجيء لتتشمم من حولنا وتعمد إلى حوافي قواربنا فتمسها ، حتى لكدت أظن أن ضرباً من السحر قد دجّنها فجأة ، وكان كويكوج يربت على جباهها ، وكان استاربك يخدش بحربته ظهورها إلا أنه تجنب أن يزرقها مؤقتاً تحسباً للنتائج .

غير أن عالماً آخر تحت هذا العالم العجيب الواقع على السطح ، عالماً أغرب وأعجب ، واجه أعيننا ونحن نحدق فوق القارب ، في تلك الأقبية المائية تعلقت عائمة أشكال من أمهات الحيتان المرضعات ، وأخرياتٌ تدل استفاضة خصورهن على أنهن سيصبحن أمهات عن قريب . وكانت البحيرة كما ألمحت ، شفافة كثيراً على مدى عمق غير قليل ، ومثلما أن أطفال الآدميين يحدقون في هدوء وثبات بعيداً عن الثدي وهم يرضعون كأنما يحيون حياتين في آن معاً ، وبينا هم يمتكون الغذاء الجسدي مايزالون روحياً يستطيبون ذكريات غير

أرضية ، كذلك كان يفعل صغار أولئك الحيتان ، كانوا كأنما ينظرون نحونا إلى أعلى ولكنهم لا ينظروننا كأننا كنا عشبة من أعشاب الخليج في أنظارهم الوليدة الحديثة العهد بالنظر . أما الأمهات فكن عائمات على جوانبهن وكن يبدون أيضاً وكأنما ينظرن إلينا نظراً ساجياً . وقد يبلغ أحد أولئك الأطفال ـ وبعض الدلائل الغريبة توحي بأن عمره لايتجاوز يوماً واحداً ـ أربعة عشر قدماً طولاً ونحو ستة أقدام عرضاً . كان مرحاً بعض المرح وإن لم يكد جسمه ينفلت من ذلك الوضع المتعب الذي كان قد اعتاده وهو في المشيمة ، حيث الحوت الجنين يلتقي رأسه والذنب ويتحفز للانطلاقة الأخيرة ، وهو مستلقٍ كأنه قوس محارب تتري . أما زعانفه الجانبية الرقيقة وراحتا شطيرتيه فماتزال تحمل ذلك الظهر المتغضن المتكرمش الذي تحمله أذنا طفل حديث عهد بالمجيء من تلك المناطق الخفية .

وصاح كويكوج وهو ينظر من فوق حافة القارب : «حبل!حبل! بسرعة ، بسرعة ، من ربطه . من أثبته ؟ حوتان واحد كبير وواحد صغير!» .

فصاح استاربك : «ما يكربك أيها الرجل ؟» .

فقال كويكرج وهو يشير إلى أسفل : «انظر ـ ه ـ هنا» .

مثلما أن الحوت المصاب قد يحلّ من الحبل الملفوف في البرميل مئات القامات ، ومثلما أنه بعد القمس يعوم ثانية ويرجع الحبل الملتف مسترخياً مترفعاً في خفة متلوياً نحو الفضاء ، كذلك شاهد استاربك لفافات طويلة من حبل السرّة في «السيدة لوياثان» ، لايزال الوليد الرضيع يبدو موثقاً بها إلى أمه . وليس يندر في الصروف العاجلة من حياة الصيد أن يصبح هذا الحبل الطبيعي ، وقد انفلت الطرف المتصل بالأم منه ، عالقاً منشبكاً بحبل القنب ، وبهذا يقع الوليد في الاحبولة . لقد انكشف لنا أدق أسرار البحر في تلك البركة المسحورة ، ورأينا مناظر العشق والوصال في الماء بين الفتيان والفتيات من الحيتان* .

هكذا كانت تلك الحيوانات الغامضة في المركز مقبلة على التمتع بشؤون السلم والطمأنينة في حرية ودون وجل بل تعربد جادة في التبذل والطرب ، مع أنها محاطة

* ليس للولادة لدى حوت العنبر ، كما هي الحال لدى سائر فصائل الحيتان ، موسم معين ، وهو بذلك يختلف عن معظم الأسماك . فبعد حمل لعله يبلغ تسعة أشهر تلد أنثى الحوت واحداً ، وإن كانت هناك أمثلة قليلة معروفة وضعت فيها توأمين . حدث تتهيأ له من أجل الرضاع حلمتان تقعان في وضع غريب ، كل واحدة منهما على جانب من جانبي الاست ، أما الثديان نفساهما فيمتدان إلى أعلى من ذلك الموقع . فإذا اتفق أن قطعت هذه الأجزاء الحيوية في المرضع بضربة من حربة الصياد فإن لبن الأم المنسكب ودمها يخضبان الماء المتناوب على مدى قصبات عديدة . واللبن حلو بالغ الحلاوة دسم ، وقد ذاقه الأدميون ، وقد يحسن لو مزج بشراب الفريز . وإذا فاض بالحيتان التقدير المتبادل فيما بينها حيث بعضها قائلة : «الموت للإنسان!» .

بدائرة وراء دائرة من الهلع والمخاوف . وحتى في هذا أراني أنا نفسي وسط هادر إعصاريّ من ذاتي ، مازال إلى الأبد ألهو في سكينة مطمئنة ، وبينا تدور من حولي أفلاك ثقيلة الجرم من ويل لايأفل ، فإني مازال أنقع نفسي - هناك في الأعماق وفي قرارة الذات - في وداعة الجذل الخالد .

وبينا سبحنا كذلك في غيبوبة كانت المناظر المفاجئة العارضة الهائجة على البعد تدل على نشاط القوارب الأخرى التي ماتزال منهمكة في قذف الحيتان بالدرقات عند الحدّ الذي تقف عنده جيوش الحوت ، أو لعلها ماتزال تشن الغارة خلال الدائرة الأولى ، حيث المكان واسع والتقهقر المناسب ميسور لها . ولكن منظر الحيتان المغضبة المضروبة بالدرقات ، وهي بين الحين والحين تنطلق على غير هدى عبر الدوائر جيئة وذهوباً ، لم يكن شيئاً بالنسبة لما علقت به أبصارنا أخيراً . من العادة أحياناً حين يصمم الصياد نحو حوت مسرف في القوة والحركة بقدر يزيد على المألوف أن يسعى لأن يعرقله - إن صحّ القول - وذلك بأنّ يقطّع أطناب ذنبه الهائلة أو يشوّهها ، وهذا يتمّ بقذف مجرفة قاطعة ذات نصاب قصير مربوط اليها حبل لتسحب ثانية . وقد علمنا من بعد أنّ حوتاً جرح في ذلك الجزء من جسمه جرحاً مشوياً غير بالغ - فيما يبدو - فندّ منطلقاً من وجه القارب حاملاً معه نصف حبل الرمح ، وأخذ يندفع بين الدوائر الدوّارة بسبب الألم المبرح في جرحه كأنه أرنولد الأرعن وحده في معركة سرتوغا حاملاً الوبال معه أنّى توجّه[1] .

لقد كان جرح ذلك الحوت مؤلماً وكان منظره مخيفاً مفزعاً على أية حال ، غير أن الرعب الذي يبدو أنه بثّه في سائر القطيع إنّما كان ناجماً عن سبب خفي علينا بادئ الأمر ، ونحن على بعد يحول دون معرفته ، ولكن بعد برهة لحظنا أنّ هذا الحوت ، بقوّة مصادفة من أغرب المصادفات التي لايبلغها الخيال في حرفة التحويت ، قد أصبح محتبلاً بحبل الرمح الذي كان يجرّه معه . وأنه أيضاً هرب والمجرفة القاطعة قد غرزت فيه ، وبينما كان الطرف المنفلت من الحبل المربوط بذلك الرمح قد امتسك ثابتاً في لفائف حبل الرمح حول ذنبه ، فإنّ المجرفة القاطعة نفسها قد انفلتت من لحمه ، حتّى إذا خرج به الألم الى حدّ الجنون أصبح يتضرّب خلال الماء داقّاً بذنبه المرن دقّاً عنيفاً ، مؤرجحاً المجرفة الحادّة من حوله ، جارحاً وقاتلاً رفاقه أنفسهم .

---

(١) هو بندكت آرنولد ، وكانت المعركة المذكورة عام ١٧٧٧ وقد أتّهم بأنه كان يومئذ مخموراً . فعرض نفسه بحماقة للكتيبة الألمانية .

ويبدو أنّ هذا المنظر المرعب قد أيقظ جميع القطيع من فزعه الساكن ، فبدأت أولاً الحيتان التي تمثّل إطار بحيرتنا تتجمهر بعض التجمهر ، ويرتطم أحدها بالآخر ، كأنّما ترفعها أمواج شبه معيية من بعيد ، ثمّ بدأت البحيرة نفسها ترتفع وتتمعّج في فتور ، واختفت عن الأنظار مخادع الأعراس وغرف الحضانة القائمة تحت الماء ، وبدأت الحيتان في الدوائر المركزيّة تقصّر مداراتها وتسبح في جموع متكاثفة . أجل بدأت الهدأة الطويلة تزول وسمعتُ في الحال همهمة تأتي خافتة ، وجاء جيش الحيتان كلّه يتهاوى على المركز الداخلي كأنّما كانت الحيتان تريد أن تكدّس نفسها في جبلٍ واحد ، كأنها كتل صاخبة من جبال الثلج حين يجري بها نهر هدسن العظيم في الربيع . وعلى التوّ تبادل استاربك وكويكوج مكانيهما ، فحلّ استاربك في المؤخرة .

وهمس في حماسة وقد أمسك بالدفة ، «المجاذيف! المجاذيف! اقبضوا على مجاذيفكم وامسكوا أرواحكم ، الآن ، يالله يا رجال تأهبوا! رده ياكويكوج! الحوت هناك! انخسه! اضربه! قف ـ قف وابقَ واقفاً ـ ثبوا يارجال جذّفوا يا رجال . ولا تخشوا ظهورها ، اسحجوها ، دقّوها!» .

أصبح القارب بين جرمين أسودين جسيمين لو تقاربا لسحقاه ، ولكن ظلّ بين طوليهما المديدين مضيق ضيّق ، غير أنّا في محاولة مستينسة انطلقنا أخيراً نحو منفذٍ فسيحٍ مؤقّت ، ثمّ جذّفنا بسرعة وتطلّعنا بجدّ في الوقت نفسه لبلوغ منفذٍ آخر ، وبعد عدّة مرّات نجونا فيها ولم نكد ، انساب بنا القارب بسرعة في النهاية الى دائرة كانت قبل قليل إحدى الدوائر الخارجية ، لكن أخذت تجتازها آننذٍ الحيتان التائهة وهي تهدف جميعاً الى مركزٍ واحد . وقد اشترينا هذه النجاة الموفّقة بثمنٍ بخس هو فقدان قبّعة كويكوج ، إذ بينا كان في مقدّم القارب ينخس الحيتان الهاربة طارت قبّعته عن رأسه في دوّامة هوائية أحدثتها شطيرتا ذنب عريضتان كانتا قريبتين منه حين تموجتا فجأة .وعلى ماكان التقلقل العام يحمل من فوضى واضطراب فإنه سرعان ماتمخّض عمّا بدا حركة منتظمة ، إذ ما ان احتشدت الحيتان أخيراً معاً ، في بنيان متراص حتى استعادت هربها قدماً بسرعة متزايدة ، وأصبحت كل مطاردة دون جدوى ، ولكن القوارب ظلت تتلبث في آثارها لتلتقط الحيتان التي قد تسقط في المؤخرة من جراء الضرب بالدرق ولكي تؤمن الاستيلاء على حوت كان فلاسك قد قتله وأعلمه ، والعلم في هذا المقام عمود في رأسه خرقة ، يحمل منه كل قارب ثلاثة أو أربعة ، فإذا كان هناك مزيد من الصيد غرس قائماً في الجسم العائم ـ جسم الحوت القتيل ـ لكي يدل على

مكانه في البحر ولكي يكون أمارة على السبق إلى الاحتياز لو اقتربت منه قوارب أية سفينة أخرى .

كانت نتيجة هذه المطاردة تصور إلى حد ما صدق تلك القولة الحكيمة في حرفة الصيد :« كلما كثرت الحيتان قلّ الصيد » ، فإنه لم يقتل من الحيتان التي قذفت بالدرق إلا واحد ، أما سائرها فدبرت النجاة عندئذ ، وسنرى من بعد أنها كانت من نصيب مركب آخر غير الباقوطة .

٨٨

مدارس ونظارها

قدم لنا الفصل السابق خبراً عن قطيع حيتان العنبر ، وهناك أيضاً ورد السبب المحتمل الذي يغري الحيتان بهذه التجمعات الضخمة .

وقد يصادف البحارة مثل تلك الحشود الكبيرة أحياناً ولكن لعلّ القارئ قد عرف أن هناك عصابات صغيرة متباعدة لاتزال حتى اليوم ترى بين الحين والحين ، وتضم الواحدة منها من عشرين إلى خمسن حوتاً . وهذه العصائب تسمى «مدارس» وهي بعامة نوعان : نوع مؤلف كله من إناث الحوت ، ونوع لا يأوي إليه إلا الفتيان الأشداء أو «الثيران» حسبما تسمى في مألوف البحارة .

ولابد لك من أن ترى في الاشراف الفروسي على مدرسة الإناث ذكراً ناضجاً غير مسنَ إذا ألمّ ما يفزع أبدى عن شهامته بالانحياز في المؤخرة ، وضمن هرب السيّدات آمنات تحت حمايته . والحق أن هذا السيد تركيٌ مترف يسبح خلال العالم المائي وقد أحاط به كل مافي «الحريم» من مسليات وتوددات .

والفارق بين هذا التركي وجواريه لافت للنظر ، ذلك أنه دوماً من ذوي الجسامة المفرطة أما السيدات فلا يبلغن أكثر من ثلث حجم حوت عاديّ وهن في أشد أحوالهن نضجاً . غير أنهن إذا قورن به رقيقات مرهفات وأستطيع أن أقول أن الخصر منهن لايتجاوز ست ياردات ، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن ينكر أن لهن الحق عن طريق الوراثة ـ على الجملة ـ بنيل تقدير جيد في باب السمنة .

ومن الأمور العجيبة المثيرة أن يرقب المرء هذا الحريم وسيده وهم في تجوالاتهم المسترخية ، وهم كعشاق البدع والأزياء يتنقلون دائماً في بحث متمهل عن التنوع ، تراهم على خط الصيد في الوقت المناسب ، طلباً لموسم الغذاء في المناطق الاستوائية وهو في

إبّانه ، ولعلهم أن يكونوا قد عادوا لتوهم من قضاء صيف في البحار الشمالية وبذا يتحاشون كل ماقد يجيء به الصيف من إعياء وحرارة مزعجة . فإذا قطعوا النزهة عند خط الاستواء وقتاً ما ، ذاهبين آيبين في تسكع ، عمدوا إلى المياه الشرقية يستبقون فصل الابتراد هنالك وبذلك يتجنبون أيضاً شدة الحرارة في ما تبقى من العام .

وفيما هم يتقدمون باطمئنان في إحدى هذه الرحلات ترى« سيدي » الحوت إذا رأى أي مناظر غريبة مريبة يضع على أسرته الظريفة عين اليقظان الحذر ، فلو أن حوتاً شاباً متوقحاً لايحسب حساب النتائج جاء في تلك الطريق وتجرأ فاقترب اقتراب السرار من إحدى السيدات فأي غضب مريع ذاك الذي يلم بالباشا فيهاجمه ويطرده بعيداً ! حقاً لم ينن الأوان بعد لمثله من الفتيان الجامحين الخلعاء أن يؤذن لهم بالعدوان على قداسة السعادة المنزلية ، ولكن مهما تكن غيرة الباشا فإنه لا يستطيع أن يصد أشد الفتاك عن فراشه إذ أن فراش الحيتان وا أسفاه مشاع! وكثيراً ماتكون السيدات سبباً في أشد أنواع المبارزات وأهولها بين المعجبين المتنافسين ، وكما هي الحال على البر كذلك يحدث بين الحيتان فإنهم كثيراً ما يقتتلون حتى الموت في سبيل الحب . فيتبارزون بالفك الأسفل الطويل وأحياناً يشبكون الفكين السفليين أحدهما بالآخر ، ويكافحون من أجل السيادة كأنهم حيوانات العلك التي تعترك فتتشابك شعاب قرونها لدى اعتراكها . وغير قليلة هي الحيتان التي يحرزها الصيادون وفيها جراح عميقة من جراء هذه العراكات ـ من رؤوس مثلمة ، وأضراس مكسرة ، وزعانف مبتورة ، وفي بعض الأحايين ، أفواه محرفة ملوية عن مواضعها .ولكن هب أن الذي يغزو السعادة المنزلية ولّى هارباً عند أول اندفاعه قام بها سيد الحريم ، فإن مراقبة ذلك السيد في تلك الحال أمر سار ممتع ، فهو يدس جثته الجسيمة بلطف بين حريمه وهناك يقضي وطره في عربدة ومرح ، وقتاً ما ، وهو مايزال بمرأى من الشابّ يعذبه بما لم ينل ، كأنه سليمان التقي يتعبد في خشوع بين جواريه الألف . فإذا كانت بعض الحيتان الأخرى بمرأى من الصيادين فإنهم قلما يطاردون هذه الحيتان التي يشبه أحدها التركي الجليل ، لأن أمثال هذا التركي الجليل يسرفون في تبديد متّتهم ولذلك يكون دهنهم قليلاً . أما الأبناء والبنات الذين يرزقون بهم فعليهم أن يعنوا بأنفسهم ، أو قل إنهم لا ينالون إلا عطف الأمومة . إذ أن سيدي الحوت ، كبعض العشاق الجوابين من الحيوانات المنهومة الرمّامة الأخرى التي يمكن أن نسميها بأسمائها ، ليس لديه ميل لتربية الأطفال ، مهما يكن ميله لمخدع الحب كبيراً ، وبما أنه رحالة كبير فإنه يخلف أبناءه المجهولين في جميع أنحاء العالم ،.وكل طفل منهم غريب ، ومع ذلك فإنه في الوقت المناسب حين تخبو فيه حميّة الشباب وحين تزداد

السنون والعشرات ، وحين يهجم التأمل بالسهوم والوجوم ، وباختصار : حين يستولي على التركي المتخم الاسترخاء العام والخمول عندئذ فإن حبّ الراحة والفضيلة يَعْقُب لديه حب العذارى ، ويدخل التركي في دور العفة والتوبة والندم ، من أدوار عمره ، فيطلق حريمه ويسرحهن ، وإذ يغدو قدوة في سلوكه ، امرءاً عجوزاً متبرماً ، فإنه يذهب وحيداً بين خطوط الزوال وخطوط العرض مردداً أدعيته وصلواته ، محذراً كل حوت شاب من أخطاء الحب وورطاته .

وإذ يسمي الصيادون حريم الحوت باسم «المدرسة» فإنهم يسمون سيد تلك المدرسة وراعيها باسم « ناظر المدرسة» . وإذن فليس من الدعة والخلق النبيل أن ينطلق بعد أن كان هو نفسه في المدرسة ، ليفشي في الناس وجه الحماقة والجهل فيما تعلمه ، دون أن يبث ماتعلّمه على وجهه ، مهما يكن موقفه جذّاباً في صورته النقدية اللاذعة . أمّا تلقيبه بلقب ناظر المدرسة فيبدو أنه اكتسبه على نحو طبيعي من الإسم الذي أطلق على الحريم أنفسهن ولكن بعضهم استنتج أنّ المرء الذي أضفى عليه هذا اللقب أول مرّة قرأ ، ولابدّ ، مذكّرات فيدوم[1] وعلم أيّ نوع من نظّار المدارس الريفية كان ذلك الفرنسي المشهور في شبابه ، وماذا كانت طبيعة تلك الدروس السحرية الغامضة التي كان يبثّها بين بعض تلامذته .

وهذه العزلة والوحدة التي يفيء اليها ناظر المدرسة في سنّ كبيرة تصدّق على حيتان العنبر التي أدركها الهرم . فإذا وجدت حوتاً منفرداً ـ وهم يسمّونه اللوثايان الناسك ـ فقدّر بوجه عام أنه حوت عجوز وهو مثل دانيال بون[2] المبجّل ذو اللحية المطحلبة لايطيق أحداً على مقربة منه سوى الطبيعة نفسها ، أمّا التي يتّخذها له زوجاً في متأبّد المياه الموحشة ، فهي خير الزوجات ، وإن كانت تحتفظ بأسرار ونزوات متقلّبة .

أمّا المدارس التي لاتضمّ سوى ذكور شباب أقوياء ، ممّن تقدّم ذكرهم ، فإنها تمثّل مفارقة بالغة لمدارس الحريم ، إذ بينما نجد إناث الحيتان خوّارة هلوعة على نحوٍ جليّ متميّز فإنّ الحيتان الشبّان ـ أو الثيران ذوات الأربعين برميلاً كما يسمّيهم الصيّادون ـ هم أشدّ

---

(١) فرنسوا يوجين فيدوك (١٧٧٥ ـ ١٨٥٧) قضى فترة عسكرياً مغامراً ثمّ انضمّ لبوليس باريس عام ١٨٠٩ وبعد استعفائه بقليل ظهر كتاب عنوانه «مذكّرات فيدوك» (١٨٢٨) يقصّ كيف أصبح معلّماً في مدرسة ريفية للبنات متنكّراً في لبوس راهب ويقدّم نصائح فاضحة .

(٢) دانيال بون (١٧٣٤ ـ ١٨٢٠) معمّر ، كان قد بلغ الثانية والتسعين من العمر عندما هاجر من كنتوكي الى مسوري لأنّ الولاية الأولى اكتظّت بالسكّان فأصبح فيها عشرة لكل ميل مربّع!!

الحيتان شراسة وعناداً وأشدّها خطراً عند اللقاء ، حتّى كانت مضرب المثل في ذلك ، وإذا استثنيت تلك الحيتان الغريبة ذوات الرؤوس الشمطاء المجلّلة بالشيب التي قد تصادفها أحياناً فإنّ هذه الحيتان الفتيّة تقاتلك كأنّها شياطين عابسة قد اسخطها نقرس نزل بها عقاباً .

ومدارس الثيران ذوات الأربعين برميلاً أكبر من مدارس الحريم ، وهم كجمهور من طلبة الكلّيات الشبان متترعون الى القتال والمرح والعبث ، يتعثّرون حول العالم على مستوى بالغ من قلّة المبالاة والعبث ، حتّى أنّ أي صاحب شركة تأمين ذكي فطن لا يؤمّن لهم على حياته بأكثر ممّا يؤمّن على حياة فتى خليع من طلبة بيل أو هارفارد . وسرعان ما يكفّون عن هذا الهياج الفائر فإذا كبروا بقدر ثلاثة أرباع النمو الكامل فإنّ شملهم يتصدّع ويذهبون فرادى بحثاً عن الاستقرار ، أعني بحثاً عن حريم .

وثمّة مسألة أخرى من الفرق بين مدارس الذكور ومدارس الإناث تميّز جنساً عن جنس . هب أنّك ضربت ثوراً ذا أربعين برميلاً ـ ياللشيطان المسكين! فإنّ جميع رفاقه يتخلّون عنه ، ولكن اضرب واحدة من أفراد مدرسة الحريم تجد صواحبها يلتففن حولها بكل إمارات الإهتمام ، وأحياناً يتلبّثن على مقربة منها ويبقين كذلك مدّة طويلة حتّى يقعن هنّ أنفسهنّ فرائس للصيّادين .

٨٩

سمكة موثقة وسمكة مخلاة

إن الإشارة التي تناولنا بها الاعلام وعصا العلم في الفصل الواقع قبل الفصل الأخير يتطلّب بعض بيان عن قوانين حرفة التحويت وأنظمتها ، لأنّ العلم فيها قد يحسب رمزاً كبيراً وشارة فخيمة .

كثيراً مايحدث حين تكون عدّة سفن أخرى آخذة في التطواف مجتمعة أن تصيب إحداها حوتاً ما وينجو هارباً ، فتلقاه في النهاية سفينة أخرى ويقتله بحّارتها ويجرّونه اليها ، وهذا نفسه يتضمّن على نحوٍ غير مباشر عدّة أحداث وسوانح صغيرة تشترك جميعاً في هذا المظهر العظيم . فمثلاً ـ بعد مطاردة للحوت مضنية محفوفة بالخطر وبعد أسره ـ قد تنفلت جثّته من السفينة بسبب عاصفة عنيفة فتنجرف بعيداً في اتّجاه الريح ، فتستعيدها حوّاتة أخرى تربطها الى جانبها في هدأة الريح بكلّ ارتياح دون أن تغامر بحياة امرئ أو بقطعة حبل . وهكذا كان من الممكن أن تثور بين الصيّادين أشدّ ضروب الكدر والمنازعات الحادّة لولا أنّ هناك قوانين مكتوبة أو غير مكتوبة ، قوانين عامة لا ينازع فيها أحد ، تطبّق على جميع القضايا والأحوال .

ولعلّ القانون الرسمي الوحيد للتحويت الذي سنّته السلطة التشريعية هو القانون الهولندي ، فقد أصدره مجلس الطبقات عام ١٦٩٥ ب . م . وليس هناك شعب آخر قد كتب قانوناً للتحويت أبداً ومع ذلك فإنّ للصيادين الأمريكيين مشرّعيهم وقضاتهم في هذه المسألة . فقد أوجدوا نظاماً يفوق في شموله ومحكم عبارته مجموعة قوانين جستنيان ، وقوانين الجمعيّة الصينية ، لقمع التدخل في شؤون الآخرين ، أجل إنّ تلك القوانين يمكن أن تحفر على دانق من عملة الملكة آن أو على كلاب رمح التحويت وقد تلبس حول العنق لشدّة صغرها :

(١) السمكة الموثقة تنتمي الى الفريق الذي أوثقها .

(٢) السمكة المخلاة صيد حلال لمن أسرع الى صيدها .

ولكن مايجلب الأذى في هذا القانون الطريف ذلك الإيجاز المعجب فيه إذ يحتاج مجلداً ضخماً من التعليقات لشرحه وتفسيره .

أوّلاً ما السمكة الموثقة ؟ تعدّ السمكة الموثقة سواء أكانت حيّة أم ميّتة حين تكون موصولة بسفينة فيها ناس أو قارب ، موصولة بأيّة وسيلة يمكن أن يسيطر عليها القائم في السفينة أوالقارب أو القائمون فيهما ، وقد تكون تلك الوسيلة سارية أو مجذافاً أو حبلاً طوله تسع بوصات أو سلك تلغراف أو خيطاً من نسيج العنكبوت ، فذلك كلّه سواء . وكذلك فإنّ السمكة موثقة حين تحمل علماً أو أيّ رمز آخر معترف به يدل على التملّك مادام الفريق الذي أعلمها يبدي بصراحة قدرته في أي وقت على أن يأخذها فيجنبها الى سفينته كما يبدي نيّته في ذلك .

هذه تعليقات علمية ، غير أنّ تعليقات الحوّاتين أنفسهم تشمل أحياناً كلمات نابية وكلمات ضاربة بجمع اليد . حقّاً إنّ هناك تسامحاً في بعض الأحوال بين المستقيمين الشرفاء من الحوّاتين ، حيث يكون من الظلم الأخلاقي الصراح أن يدّعي فريق امتلاك حوت كان طارده من قبل أو اصطاده فريق آخر . ولكن بعضهم ليس حيّ الضمير بأيّة حال .

منذ حوالي خمسين سنة كانت هناك قضيّة غريبة حول حوت لُقْطة ، جرى الترافع فيها بإنجلترا حيث عرض المدعون أنهم بعد مطاردة شاقة لأحد الحيتان في البحار الشماليّة وعندما وفقوا ـ هم المدّعين ـ حقّاً في زرق الحوت برماحهم اضطرّوا أخيراً بسبب خوفهم من المجازفة بحياتهم أن يهجروا قاربهم نفسه فضلاً عن الحبال . وبعد وقتٍ أحضر المدّعى عليه (وهم بحّارة سفينة أخرى) الحوت مضروباً مقتولاً موثّقاً وعرضوه آخر الآمر أمام أعين المدّعين . وعندما ووجه المدّعى عليهم بالاحتجاج قام قبطانهم يكايد المدّعين ، وأكّد لهم ، أنه قد يحتفظ بحبلهم ورماحهم وقاربهم وهي التي بقيت عالقة بالحوت وقت القبض عليه على نحو يشبه ترنيمة تمجيديّة للعمل الذي قام به ، وعلى ذلك طالب المدّعون بردّ قيمة الحوت والحبل والرماح والقارب .

وكان السيد أرسكين محامياً للمدّعى عليهم ، وكان القاضي هو اللورد ألين بري ، وفي سياق الدفاع ذهب أرسكين الفطن ليوضح موقفه بالإشارة الى قضية زنا ، أخفق الزوج فيها عن أن يردّ زوجته عن غيها ، فتركها أخيراً على وجه بحر الحياة ، ومرّت السنون ، فأدركته الندامة على مافعل ، وشرع في إجراء يستعيد بموجبه ملكيّتها ، غير أنّ أرسكين كان في

جانب الزوجة وقد أيّد موقفه بقوله : « صحيح أنّ الزوج اصطاد زوجته في البداية وأنه قد أوثقها اليه برباط ، وأنه لم يهجرها أخيراً إلاّ حين ازدادت وطأة خلاعتها وانغماسها فيها ، ولكنّ هجرها مافي ذلك ريب حتّى أصبحت سمكة مخلاة مسرحة ، ولذا فحين اصطادها رجلُ آخر ، أصبحت تلك السيّدة ملكاً لذلك الرجل مع أيّ رمح وجد مغروساً فيها » .

في هذه القضية الراهنة احتجّ أرسكين بأنّ مثل الحوت والسيدة يوضح أحدهما الآخر بالتبادل .

وإذ استمع القاضي المتبحّر الى هذه المرافعة والى المرافعة المعاكسة قرّر جازماً مايلي :- أمّا القارب فإنه يحكم به للمدّعين لأنهم لم يغادروه إلاّ طلباً للنجاة بأنفسهم ، وأمّا فيما يتّصل بالحوت موضع التنازع وكذلك الرماح والحبل فإنّها من حقّ المدّعى عليهم : الحوت لأنه كان سمكة مخلاة حين وقع عليه الاحتياز الأخير ، والرمح والحبال ، لأنّ الحوت حين هرب بها فقد أوقع عليها حقّ التملّك الذاتي ، وكلّ من استولى على الحوت من بعد كان له حقٌ فيها . فالمدّعون استولوا من بعد على الحوت ، إذاً فتلك الأدوات المذكورة من حقّهم .

لو أنّ امرءاً عادياً نظر في هذا القرار الذي أصدره ذلك القاضي المتبحّر فقد يعترض عليه ولكن إذا تعمّق المرء المسألة حتّى جذورها وجد أنّ المبدأين الكبيرين اللذين جعلا مادّتين في شريعة التحويت ، وسبق إيرادهما ، وهما اللذين طبّقهما وبينّهما اللورد ألين بري في القضيّة المذكورة أعلاه ، أقول هذان القانونان اللذان يتعلّقان بالسمكة الموثقة والسمكة المخلاة إذا تدبّرهما المرء وجدهما أساسيين في كلّ التشريعات الإنسانية ، إذ أنّ هيكل التشريع ، على تعقيد الزخارف في مبناه ، يشبه هيكل الفلسطينيين في أنه لايقوم الا على دعامتين اثنتين .

أليس معنى هذا أننا نقول بكلّ لسان : التملّك نصف القانون بغضّ النظر عن كيف حدث التملّك ؟ ولكن كثيراً مايكون التملّك هو القانون كلّه . ماهي أعصاب الأرقّاء الروسيين والعبيد الجمهوريين ، وأرواحهم ، سوى أن تعدّ سمكة موثقة ، والتملّك فيها هو كلّ القانون ؟ وأيّ شيء هو تلك البناية الرخامية المعلّمة على بابها بصفحة معدنية تحمل الاسم الأفقي الذي يملكها دون أن يطاله قانون ، أليست هي سمكة موثقة ؟ وماهي تلك الفائدة الهدّامة التي يتقاضاها « مردخاي » السمسار من « تعيس أفندي » المفلس على قرض يريد به تعيس أفندي أن ينقذ عائلته من الموت جوعاً ، أيّ شيء هي تلك الفائدة الهدّامة إلا أن تكون سمكة موثقة ؟ ما هو دخل رئيس أساقفة « خلاص النفوس » البالغ مائة ألف دولار الذي يبتزّه من الخبز العزيز والجبنة النادرة ممّا يتغذّى به مئات الألوف من العمال المهيضي

الأجنحة (وكلّهم واثق من بلوغ السماء دون عون من خلاص النفوس») ماهي تلك المائة الألف المكوّرة إلا أن تكون سمكة موثقة ؟ والمدن والقرى التي ورثها دوق دندر أليست هي سمكة موثقة ؟ وماذا يرى ذلك الحوّات المشهور ، جون بل[1] في ارلنده ، سوى أن تكون سمكة موثقة ؟ وأيّ شيء هي تكساس لدى ذلك الحرّاب الرسولي ، الأخ يوناثان[2] ، إلا أنها سمكة موثقة ؟ أليس التملّك فيما يتعلّق بهؤلاء جميعاً هو القانون كلّه ؟

هل كانت أمريكا عام ١٤٩٢ إلاّ سمكة مخلاة غرز فيها كولومبس العلم الاسباني ليعلمها ويحتازها من أجل سيّده وسيّدته ؟ وماذا كانت بولندة لدى القيصر ؟ ويونان لدى تركيا ، والهند عند انجلترا ؟ وماذا تكون مكسيكو في النهاية لدى الولايات المتّحدة ؟ كل هذه أسماك مخلاة .

وهل حقوق الإنسان وحرّيات العالم إلاّ سمكة مخلاّة ؟ وهل عقول الناس جميعاً وآراؤهم إلا سمكة مخلاة ؟ وأيّ شيء هو مبدأ الإيمان الديني فيهم إلاّ أن يكون سمكة مخلاّة ؟ وماهي أفكار المفكّرين في نظر ذوي الشقشقة اللاغية الخادعين ، أليست هي سمكة مخلاّة ؟ والكرة الأرضية العظمى نفسها أليست سمكة مخلاّة . وأنت أيها القارىء ، هل أنت إلاّ سمكة مخلاّة وسمكة موثقة أيضاً[3] ؟

---

(١) اسم يطلق على انجلترا .

(٢) اسم يطلق على الولايات المتحدة . وقد ضمّت تكساس الى الإتّحاد عام ١٨٤٥ .

(٣) وإذا كان مبدأ السمكة الموثقة ينطبق على هذا النحو ، فإنّ صنوه مبدأ السمكة المخلاّة أكثر انطباقاً ، أعني أنه ينطبق انطباقاً عامّاً شاملاً .

٩٠

رؤوس أو أذناب

"De balena vero suffcit, si rex habeat caput, et regina caudam"

Bracton I. 3. c. 3.

الجملة اللاتينية المقتبسة من كتب القوانين الانجليزية إذا أخذت في قرائنها تعني أنّ البلينة (الحيتان) التي يصطادها أيّ صيّاد على ساحل تلك البلاد ، لابدّ أن يكون الرأس منها للملك الحوّات الأعظم ، ورئيس الشرف للحوّاتين ، أمّا الملكة فيقدّم لها الذنب في احترام . وهي قسمة في الحوت تشبه قسمة التفاحة في نصفين ، لاتبقي على شيء بعد ذلك . وبما أنّ هذا القانون ، في صورة معدّلة ، لايزال ساري المفعول بانجلترا حتّى اليوم ، وبما أنه يمثّل من جوانب مختلفة شذوذاً غريباً على القانون العام المتّصل بالسمكة الموثقة والمخلاّة ، فإنّي أرى أن أتصدّى له في هذا المقام في فصل مستقل على نفس المبدأ الرقيق الذي يدفع السكك الحديدية الانجليزية لأن تكون على حساب عربة منفصلة ، تجعل خصّيصاً للعائلة المالكة . وكي أبرهن ـ وإن كان برهاناً غريباً ـ على أنّ القانون المذكور مايزال ساري المفعول أتقدّم في المقام الأوّل لأضع بين أيديكم حادثة جرت خلال السنتين الأخيرتين :

يبدو أنّ بعض البحّارة الشرفاء من دوفر أو ساندوتش أو لعلّهم من سانك بور (الموانى الخمسة) وفّقوا بعد مطاردة قاسية الى قتل حوت لطيف وجرّه الى الشاطىء بعد أن رأوه عن بعدٌ وهم على البرّ . والموانىء الخمسة تعدّ جزئيّاً أو على نحو ما تحت حكم رجل شرطة أو «قوّاص» اسمه لورد واردن . وبما أنه يتسلّم منصبه من التاج مباشرة ، فيما أعتقد ، فإنّ جميع الأرباح التي تدرّها مقاطعات الموانى الخمسة تصبح له بموجب التنازل . وهذه وظيفة يسمّيها بعض الكتّاب «السنقور» ـ وظيفة بمرتّب دون عمل

متكافىء ـ ولكنها ليست كذلك لأنّ لورد واردن ينشغل منهمكاً أحياناً في الاحتيال على احتياز العوائد والأجور التي هي له بحكم احتياله على احتيازها .

هؤلاء الملاّحون المساكين الحفاة الذين لوّحتهم الشمس ، وشمّروا سراويلهم فوق سيقانهم النحيلة التي تشبه سمك الإنكليس ، جرّوا السمكة السمينة حتّى طرحوها على البر ، وقد رجوا لأنفسهم مبلغ ١٥٠ جنيهاً من زيتها وعظمها ، وأخذوا وهم سابحون في خيالاتهم يحتسون الشاي العزيز مع زوجاتهم ، والجعة الطيبة مع ندمانهم ، بقوة مايخص كلاً منهم من نصيب ، وعندئذ تقدّم منهم سيد عالم مسيحي ممعن ، وله في الإحسان قدم ، يحمل تحت إبطه نسخة من قوانين بلاكستون ووضعها على رأس الحوت وقال : « كفّوا عنه أيديكم! هذا الحوت ياسادتي حوت موثّق ، وأنا أحوزه باسم لورد واردن » . وعلى الأثر أخذ كلّ واحد من هؤلاء البحّارة المساكين وهم في حيرة مشوبة باحترام ـ فهم يمثّلون الخلق الانجليزي الأصيل ـ يحكّ رأسه بشدّة دون أن يعرف مايقول ، وينقّل نظره في الوقت نفسه كئيباً بين الحوت والرجل الغريب . ولكنّ هذا كلّه لم يحسّن الوضع بحال ولارقّق القلب القاسي بين أضلاع ذلك العالم الغريب الذي يحمل نسخة من تشريعات بلاكستون . وبعد هنيهة تجرّأ أحدهم على الكلام بعد أن حكّ رأسه طويلاً مستثيراً أفكاره :

ـ عفواً سيّدي من هو اللورد واردن ؟

ـ هو الدوق .

ـ ولكنّ الدوق لاشأنَ له بأخذ السمكة .

ـ إنها له .

ـ لقد تحمّلنا التعب الكبير والخطر والكلفة ، فهل يذهب هذا كلّه لمنفعة الدوق ولانتقاضى شيئاً لقاء الألم والتعب إلاّ الدمامل والقروح ؟

ـ إنها له .

ـ هل الدوق من الفقر بحيث يضطر الى هذه الطريقة المستسينة للحصول على الكفاف ؟

ـ إنها له .

ـ لقد كنت أرجو أن أنقذ أمّي التي طال بها العهد وهي طريحة الفراش بما أناله من حصّة في هذا الحوت .

ـ إنها له .

ـ ألا يقتنع الدوق بربعها أو بنصفها ؟

ـ إنها له .

بإيجاز أخذ الحوت وبيع وتسلّم النقود « جناب » دوق ولنجتون . وسمع بالقصة قسيس شريف بالمدينة فظنّ أنه إذا نظر اليها تحت أضواء معيّنة فإنها قد تبدو قضية تعسة تحت تلك الظروف ، ولو الى حدّ قليل ، فرفع باحترام خطاباً الى جناب الدوق يرجوه أن يولي قضية البحارين التعساء شيئاً من نظر ، فأجاب الدوق بما معناه (وكلتا الرسالتين نشرتا على الناس) أنه قد فعل مافعل ، وتسلّم المال ، وهو يكون ممتناً للقسّيس المبجّل لو أنه في المستقبل كفّ (أي القسيس المبجّل) عن التدخّل في شؤون الآخرين . أهذا هو العسكري العجوز الذي يقف عند زوايا الممالك الثلاث يبتزّ الصدقات من الشحّاذين في كلّ وجه ؟

لابدّ أن يدرك القارىء أنّ الحقّ المزعوم للدوق في هذه القضيّة إنّما هو مستمد من حقّ الملك نفسه ، وعلينا أن نبحث بأيّ مبدأ منح الملك في الاصل هذا الحق . أمّا القانون فقد قدّمنا ذكره ، وأمّا السبب فيه فقد قدّمه بلودون حين قال : «الحوت المصيد حق للملك والملكة» ، لامتيازه وتفوّقه في الجودة ، ويرى أعمق الشرّاح أنّ هذا التفسير كان هو الحجّة المعتمدة في مثل هذه الشؤون .

ولكن لم يختص الملك بالرأس والملكة بالذنب ؟ هاتوا سبباً لذلك ياحضرات المشرّعين!

هنالك مؤلّف اسمه وليم برين ، وهو أحد المؤلّفين في شؤون القضاء الملكي ، كتب مقالاً في مال الملكة وفي حقّ النفقة للملكة ، وكان ممّا قاله : «الذنب من نصيب الملكة حتّى تمتلئ خزانتها بعظم الحوت» . هذا شيء كتب يوم كان العظم الأسود اللون في الحوت الأثين ـ أو حوت جرينلاند ـ يتّخذ كثيراً في صدارات السيدات . ولكن هذا العظم نفسه لايوجد في الذنب وإنّما في الرأس وهو خطأ مؤسف لقانوني حكيم مثل برين . لكن هل الملكة حورية بحر ياترى حتّى تزوّد بذنب ؟ قد يكمن في هذا كلّه معنى رمزي .

هناك سمكتان يسمّيهما كتّاب القانون الانجليز سمكتين ملكيّتين وهما : الحوت والحفش ، وكلتاهما من الأملاك الملكية في ظروف معيّنة ، وهما اسمياً يمدّان دخل التاج العادي بالعشر العاشر ، ولاأعرف أيّ مؤلّف آخر ألمح الى هذه المسألة ، ولكن يبدو لي استنتاجاً أنّ سمكة الحفش يجب أن تقسّم كما يقسّم الحوت ، فيأخذ الملك رأسها وهو شديد الكثافة مرن ، وإذا اتّخذنا ذلك رمزاً فقد نزعم من زاوية فكهة أنّ هناك تشابهاً وتناظراً بين الرأسين ، وهكذا يبدو أنّ لكلّ شيء سبباً حتّى في القانون .

٩١

الباقوطة تلتقي ببرعم الوردة

«كان من العبث أن تفتش عن العنبر في كرش ذلك الحوت، وإن كان النتن الخانق لا يحول دون تفتيشه.[1]

السيرت. براون V.E.

مضى أسبوع أو اثنان على آخر منظر وصفته من مناظر التحويت وكنّا نبحر في بطء فوق بحر هامد كثير البخار في منتصف النهار ، حتّى برهنت الأنوف الكثيرة فوق ظهر الباقوطة على أنّ قدرتها على اليقظة والاستكشاف أكبر من قدرة العيون الست في الأعالي فقد شممنا في البحر رائحة متميّزة غير ممتعة كثيراً .

فقال اسطب : «أراهن الآن أنّ من حولنا في مكان ما بعض الحيتان التي أصبناها أمس بالدرق ، وقد كنت أقدّر أنها ستنقلب قبل مضي وقت طويل» .

وفي الحال انقشعت الأبخرة من حولنا الى جانب ، ورأينا على بعدٍ سفينةً دلّت أشرعتها المنشورة على أنها قد أجنبت اليها حوتاً . واذ اقتربنا منها منسابين رأينا في قمّتها علماً فرنسيّاً ، واتّضح لنا من عصائب طيور البحر الرخمية المدومة كأنها سحب ، الملتفّة المرنقة المنقضة من فوق الحوت المجنّب ، أنّ ذلك الحوت لا بدّ من أن يكون مايسمّيه الصيّادون «الحوت المنفجر» ، أي الحوت الذي مات في البحر دون أن يصيبه أذى وعام جثّة مشاعاً فوق الماء . وقد يدرك المرء أية رائحة كريهة كانت تفحّ بها تلك الكتلة ، لعلّها أسوأ من رائحة مدينة أشورية في أيّام الطاعون حين يعجز الأحياء فيها عن دفن الموتى . وبعض الناس يرونها في الحقّ شيئاً لايطاق حتّى إنه ليست ثمّة شهوة تغريهم بأن يرسوا سفينتهم الى جانبها ، غير أنّ هناك من يرضون بذلك على الرغم من أنّ الزيت الذي يؤخذ من مثلها من صنف حقير القيمة ولا علاقة له أبداً بعطر الورد في طبيعته .

وعندما اقتربنا منها على هبّات النسيم المتلاشي رأينا تلك الحوّاتة الفرنسية قد أجنبت

---

(١) أخطأ ملفل هنا فأدرج في هذه الإقتباسة كلمة «لا» .

اليها حوتاً ثانياً ، وبدا لنا أنّ هذا الثاني أشدّ نتناً من الأوّل ، بل تجلّى لنا في الحقيقة أنه نوع من تلك الحيتان التي تستثير الريبة إذ يبدو أنها تجفّ وتموت بسبب نوع مهوّل من سوء الهضم أو عسره ، فتظلّ أجسامها الميتة مفلسة تماماً أو تكاد من أيّ قطرة زيت ، ومع ذلك فسوف نعرف في موضع ملائم من هذا الكتاب كيف أنّ الصيّاد العارف لن يشيح بوجهه عن مثل هذا الحوت ، مهما يتجنّب الحيتان المتفجّرة بعامة .

وقد كانت الباقوطة تلك السفينة الغريبة الى حد أنّ اسطب أقسم أنه تعرّف الى عصا مجرفته القاطعة في حبال كانت معقودة حول ذنب أحد هذين الحوتين .

وضحك في تماجن وهو يقف في مقدم السفينة وقال : « ها إنّ فتى ظريفاً يعرض لكم ، ذلك الثعلب ماكر! أنا أعلم حقّ العلم أنّ هؤلاء « الضفادع » الذين نسمّيهم الفرنسيين قليلو الدربة في شؤون الصيد ، أحياناً ينزلون قواربهم وراء الموجات الكبيرة ظنّاً منهم أنّها نفاثات حيتان العنبر ، نعم وأحياناً يبحرون من مينائهم وعنبر سفينتهم مليء بصناديق من شمع الشحم وحقائب من مقاريض الذبالة اذ يتكهّنون بأنّ الزيت الذي يحصلون عليه لن يكفي ليغطّي الذبالة التي يستعملها القبطان . أجل نحن جميعاً نعرف هذه الأمور ، ولكن انظروا ها هنا « ضفدع » بائس قد قنع بما خلفناه أعني الحوت الذي ضربناه بالدرق ، نعم هو قانع بأن يقشر العظام الجافة من تلك السمكة الثمينة التي حصل عليها هنالك . يا للمسكين البائس ، أقول ليأتِ أحدكم بقبّعة ويمرها علينا ونقدّم له فيها هدية من زيت قليل على سبيل الإحسان ، إذ أنّ أيّ زيت سيحصل عليه من ذلك الحوت المضروب بالدرق لن يصلح للوقود في سجن ، لا ولا في زنزانة امرئ محكوم بالإعدام ، فأمّا الحوت الآخر فأنا أرى أنني أحصل على كميّة من الزيت أكثر من التي يحصل عليها هو من تلك الرزمة من العظام إذا أنا قطّعت هذه الصواري الثلاثة من سفينتنا وعصرت ما فيها من زيت . ويخطر لي الآن أنه قد يحوي شيئاً أثمن من الزيت بكثير ، أعني العنبر ، ترى هل فكّر صاحبنا الشيخ في هذا ؟ ذلك أمر يستحقّ التجربة ، أجل ، أنا لها » . وما أن أكمل حديثه حتّى توجّه نحو الربعة خلف الدقل الأعظم .

في هذا الوقت كان الهواء الفاتر الضعيف قد استحال الى سكون تام ، حتّى أنّ الباقوطة شاءت أم أبت وقعت ضمن ربقة الرائحة المنتنة ، ولم يكن لها من أمل في النجاة منها إلا إذا انتعش هبوب النسيم . فخرج اسطب من القمرة ونادى ملاحي قاربه وجذّفوا متّجهين نحو السفينة الغريبة ، وإذ كان يعترض مقدّمتها لحظ أنّ الجزء العلوي من رأس مقدّمتها (حسب مايمليه الذوق الفرنسي الذي يحبّ البهرجة) محفورٌ على شكل سويقة ، ضخمة منكّسة الرأس ، مدهونة باللون الأخضر وتحمل في موضع الشوك إبراً من نحاس قد نتأت منها هنا

وهناك ، وتنتهي جميعاً ببصيلة منتظمة مطبّقة ذات لون أحمر لامع ، وعلى اللافتة القائمة عند رأسها قرأ بحروف كبيرة مذهّبة «زرّ الورد » أو برعم الورد ، وقد كان هذا اسماً رومنطيقياً لتلك السفينة العطرة .

ومع أنّ اسطب لم يفهم الكلمة الفرنسية التي تعني «زرّ» في ذلك النقش فإنّ كلمة «ورد » وصورة البرعم البصيلي في رأسها ، حين وضعهما جنباً الى جنب ، وضّحا له كلّ شيء توضيحاً كافياً .

فصاح وهو يزمّ أنفه بيديه : «برعم ورد خشبي ، أليس كذلك ؟ هذا أحسن ولكن أيّة رائحة تنبعث من هذه الوردة!! »

ومن أجل أن يقيم اتّصالاً مباشراً بينه وبين الناس على ظهر تلك السفينة كان عليه أن يجذّف حول صدر السفينة الى الجهة اليمنى منها ، وبذلك يقترب من الحوت المتفجّر ويرسل الحديث من فوقه .

وحين بلغ هذا الموقع وإحدى يديه ماتزال على أنفه جأر قائلاً : «انتم يازرّ الورد! أفيكم يازرّ الورد أحد يتكلّم الانجليزية ؟ » .

ـ «نعم» أجابه من حافة السفينة رجل من أهالي جزر بحر المانش ، واستبان من بعد أنه رأس الضابط .

ـ اذن فيا زرّ الورد ، هل رأيتم الحوت الأبيض ؟

ـ أيّ حوت ؟

ـ الحوت الأبيض ، حوت عنبر ، موبي ديك ، هل رأيتموه ؟

ـ لم نسمع بمثل هذا الحوت أبداً ، القشلوط الأبيض! الحوت الأبيض ، كلا .

ـ حسناً ، وداعاً الآن ، وسأعود اليكم ثانية بعد قليل .

ثمّ جذّف مسرعاً نحو الباقوطة ورأى آخاب منحنياً فوق إفريز الرابعة خلف الدقل منتظراً جوابه ، فاتّخذ من يديه بوقاً وصاح : « كلاّ ياسيّدي ، كلاّ! » وعلى الأثر انسحب آخاب وعاد اسطب الى السفينة الفرنسية .

وحينئذ لحظ أنّ ذلك الرجل المانشي الذي كان قد تغلغل بين السلاسل وأخذ يستعمل المجرفة القاطعة قد وضع أنفه في مايشبه الكيس .

فقال له اسطب : «مابال أنفك ؟ هل هشّمته ؟ » فأجابه الرجل المانشي الذي لم يكن يستسيغ كثيراً المهمّة الموكولة اليه قائلاً : «لتمنّيت أنه كان مهشّماً أو أنه لم يكن لي أنف أبداً! ولكن مابالك تمسك أنفك أنت ؟ » .

ـ آه ، لاشيء ، إنه أنف من شمع ولابدّ أن أضع عليه يدي لئلا يسقط . يوم جميل ، أليس كذلك ؟ أقول إن الهواء كأنه مرّ على روضة حزن ، ألقِ الينا ضميمة من الزهر بحقّك يازرّ الورد » .

فاستبدّ بالمانشي غضب مفاجيء وجأر قائلاً : « بحقّ الشيطان ماذا تريد منّا ؟ » .

ـ « آه رُوقْ رُوقْ ، نعم ، هذه هي الكلمة ، لِمَ لا تكدّس هذين الحوتين في الثلج وأنتَ تعمل فيهما . دعنا من المزاح . هل تعلم يا برعم الورد أنّ من العبث أن تجرّب الحصول على شيءٍ من زيت من مثل هذين الحوتين ؟ أمّا ذلك الذي جفّ وتقدّد فليس في جثّته كلّها ملء محجم من زيت » .

ـ « أعرف ذلك جيّداً ولكن من لي بالقبطان فإنه لايصدّق ذلك ، هذه أولى سفراته وكان من قبلها يصنع عطر الكولونيا ، لكن اصعد الينا وواجهه فلعلّه يصدّقك إن لم يصدّقني ، وبذلك تخلّصني من هذا السمج القذر » .

ـ « في خدمتكم بكلّ معروف يرضيك يا صديقي العذب الظريف » ذلك ماقاله اسطب وصعد على الأثر الى ظهر السفينة وهناك عرض مشهد غريب . فقد كان البحّارة يلبسون قبّعات مزخرفة بخيوط حمراء على شكل خصل مزهرة ، وهم يأخذون المرافع استعداداً لرفع الحوتين إلاّ أنهم كانوا يعملون في بطء ويتكلّمون في عجلة ومهما قلت فيهم لم تعدم أن تراهم منحرفي المزاج ، قد صعّدوا أنوفهم جميعاً من وجوههم الى أعلى كأنها صواري البوم وبين الحين والحين يكفّ كلّ اثنين منهم معاً عن العمل ويجريان نحو قمّة الصاري ليستنشقا الهواء الطلق ، وبعضهم يظنّون أنهم سيصابون بالطاعون ، فهم يغمسون الدُسر في قار الفحم ويرفعونها عند خياشيمهم بين فترة وأخرى . وآخرون قد كسّروا أعواد غلايينهم وجعلوها قصيرة جداً لاتتعدّى أحواض الغلايين إلا مايطبّق عليه الفم وجعلوا ينفخون دخان التبغ بقوّة حتّى يظل يملأ أنوفهم على الدوام .

انصبّ على رأس اسطب سيل من الصيحات واللعنات صادرة من غرفة القبطان عند الكوثلة ، فتطلّع في تلك الوجهة فرأى وجهاً محتقناً بالغضب يطلّ من خلف الباب وكان موارب الفتحة في داخل ، ذلك هو الجراح المعذّب الذي احتجّ على تلك الإجراءات في ذلك اليوم ، وعبثاً مافعل ، فانزوى في غرفة القبطان (وهو يسمّيها الكابينه cabinet) لكي يتجنّب الوباء إلاّ أنه لم يكف عن أن يجهر بتوسّلاته وتسخطاته أحياناً .

وإذ رأى اسطب ذلك كلّه دبّر خطّته في إحكام ، والتفت الى المانشي وحادثه قليلاً ، وفي أثناء الحديث كشف الضابط الغريب عن مقته لقبطانه ، ونعته بأنه جاهل مغرور ، جرّهم

جميعاً في تلك الحمأة الردغة المنتنة التي لن تجدي عليهم شيئاً ، وسبر اسطب غوره بعناية فأدرك أنّ هذا المانشي ليست لديه أدنى خاطرة عن شيء اسمه العنبر فطوى كلّ شيء عن هذا الموضوع في صدره ، أمّا فيما عدا ذلك فكان صريحاً معه يبادله الثقة التامّة ، حتّى دبّر الاثنان في سرعة خطّة صغيرة لكي يخدعا القبطان ويعبثا به في آنٍ معاً دون أن يعنّ له أبداً أن يتشكّك في إخلاصهما . وتقضي هذه الخطّة الصغيرة أن يقف المانشي فيقول للقبطان ـ تحت ستار الرحمة لما يقوله اسطب ـ كلّ مايبغي أن يقوله على أنه كلام اسطب نفسه ، وأمّا اسطب فينطق بأيّ هذر يسبق الى طرف لسانه خلال تلك المقابلة .

حينئذ برز ضحيّتهما المرتقب من قمرته ، فإذا به رجل أسمر قميء إلا أنه سمحُ التقاطيع إذا قسته الى قباطنة البحر ، وله سبلة كبيرة وشاربان ويلبس رداء مخمليّاً أحمر قطنيّاً وعلى جنبه أختام تتدلى من سلسلة ساعته . فقام المانشي بتعريف اسطب الى هذا السيّد في جوّ مهذّب ، واتّخذ المانشي صورة المترجم بينهما ظاهريّاً وقال : «ماذا أقول له ؟» .

فقال اسطب وهو يحدّج الرداء المخملي والساعة والأختام : «لك أن تبدأ القول بأن تخبره أنّ منظره يبدو لي منظر طفل وإن كنت لاأدّعي أنّي أصلح حكماً» .

فقال المانشي بالفرنسية وهو يحوّل نظره نحو قبطانه : «يقول لك إنه بالأمس فقط تحدّثت سفينته الى سفينة مات قبطانها ورأس ضبّاطها وستة من ملاّحيها بسبب حمّى علقت بهم من حوت منفجر أجنبوه الى سفينتهم» .

فأجفل القبطان لدى سماعه ذلك واستبدّ به التلهّف لمعرفة المزيد . فقال المانشي لأسطب : «ثمّ ماذا ؟» .

ـ «مادام يستسهل المسألة فأخبره أنني حدّقت فيه البصر باهتمام وأصبحت واثقاً أنه لايصلح لقيادة سفينة بأكثر ممّا يصلح لذلك قرد من سنتياغو . بل الحقّ أخبره على لساني أنه قرد من نوع البابون» .

ـ «إنه ليحلف غير آلٍ أيها السيد إن الحوت الثاني أيّ الذي جفّ وتقدّد أخطر كثيراً من المنفجر ، وباختصار أنه ـ أيها السيد ـ ليستحلفنا اذا كان لحياتنا من قيمة لدينا أن نسيّب ذلك الحوت» .

وعلى التو جرى القبطان الى الأمام وأمر ملاّحيه بصوت جهير أن يتوقّفوا عن رفع المرافع وأن يرخوا الحبال والسلاسل التي تربط الحوتين الى السفينة .

وعندما عاد القبطان اليهما قال الرجل المانشي : «ثمّ ماذا ؟» .

ـ « دعني أرى ، أجل ، تستطيع أن تقول له الآن أنني ، في الواقع ، أخبره أنني قد ضحكت عليه وإنني (منتحياً جانباً متحدثاً لنفسه) ربّما ضحكت أيضاً على شخصٍ آخر » .

ـ « يقول ياسيّدي أنه ليحسّ بالسعادة إذا استطاع أن يؤدّي لنا معروفاً » .

فلمّا سمع القبطان ذلك أقسم أنهما هما الممتنّان الشاكران (يعني نفسه والضابط) وأنهى كلامه بدعوة اسطب الى قمرته ليشرب زجاجة من نبيذ بوردو .

قال المترجم : « يريدك أن تشرب معه زجاجة نبيذ » .

ـ « أبلغه شكري القلبي ولكن قل له أنه ليس من مبدأي أن أنادم رجلاً خدعته وضحكت عليه ، قل له في الواقع أنني لابدّ أن أنصرف » .

ـ « يقول ياسيّدي أنّ مبادئه لا تسمح له بأن يشرب ، ولكن إن كان لابدّ ياسيدي أن يعيش يوماً آخر ليشرب فيه فمن الخير له أن ينزل القوارب الأربعة لتسحب السفينة بعيداً عن هذين الحوتين ، لأنهما لن يبتعدا بسبب سكون الهواء » .

في هذا الوقت كان اسطب قد أصبح فوق جانب السفينة ونزل في قاربه ، ونادى الرجل المانشي يقول له ـ بما أنّ لديه حبلَ جرٍّ طويلاً في قاربه فإنه سيبذل ما في وسعه لمساعدتهم بجرّ أخفّ الحوتين من جانب السفينة ، وبينا انهمكت القوارب الفرنسية في سحب السفينة بعيداً في وجه ، كان اسطب بكرمِ نفسٍ يجرّ الحوت في وجه آخر ، وقد تظاهر بأنه يرخي حبلاً طويلاً مفرط الطول .

وسرعان ما انبعث النسيم ، وتظاهر اسطب بأنه قد نأى عن الحوت ، ورفعت القوارب الفرنسية الى السفينة فازدادت بعداً ، بينما انسابت الباقوطة بين السفينة الفرنسية وقارب اسطب ، وعلى الأثر جذف اسطب بسرعة متّجهاً نحو الجثّة العائمة ونادى الباقوطة لينبئها بما انتواه ، وابتدأ توّاً يحصد ثمرة مكره الملتوي . فأمسك بمجرفة قاربه الحادة وابتدأ التنقيب في الجثّة في مكان يقف خلف الزعنفة الجانبية قليلاً ، ولو رأيته لكدت تتصوّره يحفر مخدعاً هنالك في الماء ، وعندما أمضى وقتاً وهو يضرب بمجرفته على الأضلاع الضامرة كان كمن يستلّ بلاطاً وخزفاً رومانيّاً قديماً مدفوناً في طَفَلٍ انجليزي كثيف . وقد كان ملاّحو قاربه في هياج شديد يعينون رئيسهم باحتدام ورغبة ، ويبدو عليهم القلق والترقّب كأنهم باحثون عن الذهب .

وطوال ذلك كله كانت طيور لاتحصى تخوت وتنتفض وتصرخ وتزعق وتتقاتل من حولهم ، وأخذت خيبة الأمل تبدو على ملامح اسطب وبخاصة حين ازداد سطوع النتن الفظيع ، ولكن فجأة من جوف هذا الطاعون الوبيء انسلّ جدول دقيق من العطر جرى خلال

مدّ الروائح الكريهة دون أن يختلط بها مثلما أنّ نهراً يجري في آخر ويحاذيه ويمضي وقتٌ قبل أن يتمازج النهران ويتلاشى أحدهما في الآخر .

فصاح اسطب في سرور وهو يتحسّس شيئاً في المناطق الداخلية : «وجدته ، وجدته ، هميان! هميان! » .

وألقى مجرفته ودسّ في الداخل كلتا يديه فعادتا بحفنتين من شيء يبدو منتفخاً كأنه صابون وندسور المكتنز أو جبنة قديمة دسمة رقشاء ، اذا اطلعت عليه رأيته دهني القوام طيّب الشذا ، وقد يثوخ فيه إبهامك في يسر ولونه بين الصفرة ودكنة الرماد . هذا أيها الرفاق الطيّبون هو العنبر ، وكلّ أوقية منه تسوى لدى أيّ صيدلي جنيهاً ذهبيّاً . وقد استخلص اسطب منه حوالي ست حفنات إلا أنّ مافقد منه في البحر ـ دون إهمال ـ كان أكثر ، وكان من الممكن الحصول على ماهو أكثر من ذلك لولا أوامر آخاب الجهورية الجازعة الى اسطب بأن يكفّ ويعود الى ظهر السفينة وإلاّ قالت لهم السفينة : وداعاً .

٩٢

العنبر الرمادي

هذا العنبر مادة غريبة بالغة الغرابة إلاّ أنها سلعة هامة في التجارة حتّى أنّ قبطاناً من أسرة «التابوتيين» في نانتوكت جرى استجوابه حولها عام ١٧٩١ في قفص الإتهام بمجلس العموم البريطاني . ذلك أنّ الأصل الصحيح للعنبر الرمادي كان في ذلك الحين وظلّ الى تاريخ متأخر نسبيّاً ، مشكلة لدى العلماء ، مثل العنبر نفسه ، والكلمة الدالة عليه هي am-bergris وهي مركّبة من كلمتين amber بمعنى العنبر ، و gris كلمة فرنسية تعني الرماديّ . فالعنبر بعامة قد يوجد أحياناً على ساحل البحر ، وقد يستخرج من الأرض في البرّ ، أمّا العنبر الرمادي فلا يوجد إلا في البحر ، ثمّ أن العنبر بعامة مادة صلبة شفّافة هشّة لارائحة لها تتّخذ منها أنابيب الغلايين وأنواع من الخرز والزينة ، وأمّا العنبر الرمادي فإنه ناعم شمعي ذو رائحة نفّاذة وشذا طيّب حتّى أنه يستعمل على الأكثر في العطور وكرات البخور والشموع الثمينة والمساحيق والأدهنة المستعملة للشعر . ويستعمله الأتراك في الطبخ ويأخذونه معهم أيضاً الى مكّة للغاية نفسها التي يحمل المسيحيّون من أجلها البخور الى كنيسة القدّيس بطرس في روما ، وبعض تجّار النبيذ يضعون منه في النبيذ حبّات يسيرات لتطيب رائحته .

من كان يظنّ أنّ السيدات الجميلات والسادة المتأنّقين يتلذّذون بخلاصة عطرية توجد في الأحشاء المهينة من حوت عليل! ولكن ذلك هو واقع الأمر .وبعض الناس يظنّون أنّ العنبر هو سبب عسر الهضم في الحوت وبعضهم يظنونه نتيجة له . ومن العسير أن نقول كيف يمكن معالجة ذلك المرض ، إلاّ إذا جرّعناه ملء ثلاثة قوارب أو أربعة من أقراص براندرث ، ثمّ هربنا من وجه الخطر كما يفعل العمال لدى تفجير الصخور .

وقد أنسيت أن أقول إنه وجدت في هذا العنبر الرمادي أقراص صلبة مستديرة عظمية

ظنّها اسطب بادئ الأمر أزرار سراويل بعض البحارة ، ثمّ تبيّن بعد ذلك أنها ليست سوى قطع من عظام السبيدج الصغير حنّطت على ذلك الوجه .

أقليل هذا ؟ أقليل أن يوجد عدم الفساد من هذا العنبر الرمادي العطر الشاذي في صميم ذلك الفساد ؟ تفكّروا في قول القدّيس بولس في رسالته الى أهل كورنثوس حول الفساد وعدم الفساد (١ كورنثوس : ٤٢) وكيف أنّا نزرع في هوان ونقام في مجد (٤٣) . وهو كذلك يذكّرنا بقول براكيلس حول ماهية الشيء الذي يستخرج منه أجود المسك[١] . كذلك لا تنسوا الحقيقة الغريبة وهي أنّ ماء الكولونيا بين جميع الأشياء ذات الرائحة الكريهة هو أردؤها جميعاً في مراحل صنعة الأوّلية .

قد كنت أرغب في أن أختم هذا الفصل بالاستشهاد المتقدّم ولكنّي لاأستطيع نظراً لأنّي أتوق لأنقض تهمة توجّه كثيراً الى الحوّاتين وقد يعدّها بعض أصحاب العقول القائمة على التحيّز مؤيّدة على نحوٍ غير مباشر بما ذكرناه عن الحوتين اللذين كانا مجنّبين الى السفينة الفرنسية . في موضع آخر من هذا الكتاب أبطلنا الطعن العيّاب القائل أنّ مهنة التحويت عمل قذر دنس في مجمله ، غير أنّ هناك شيئاً آخر ننقضه بالبرهان ، فالناس يلمّحون الى أنّ جميع الحيتان دائماً كريهة الرائحة فكيف نشأت هذه الوصمة البغيضة ؟

أرى أنها تعود بصراحة الى أوّل مرّة وصلت فيها سفن التحويت من جرينلاند الى لندن قبل ما يزيد على قرنين . ذلك أنّ هؤلاء الحوّاتين لم يكونوا يستخرجون الزيت ـ ولاهم يستخرجونه حتى اليوم ـ وهم في عرض البحر ، كما تفعل السفن في البحار الجنوبية دائماً ، وإنّما هم يقطعون الشحم الطازج في قطع صغيرة ويدسّونه من خلال ثقوب مفدّمة في براميل كبيرة ويحملونه الى الوطن على هذه الحال . لأنّ قِصر الصيف في تلك البحار الجليدية وتعرّض الحوّاتين لهبوب العواصف العنيفة فجأة يحول دون إيثار طريقة أخرى . وتكون النتيجة أنّ الملاحين إذا دخلوا المستودع وأنزلوا واحدة من تلك المقابر الحوتية في حوض جرينلاند انبعثت رائحة تشبه بعض الشيء الرائحة اتي تنطلق عند حفر مقبرة قديمة لتأسيس مستشفى للولادة .

وأنا أستخلص ـ من بعض النواحي ـ أنّ هذه التهمة الخبيثة ضدّ الحوّاتات قد تعزى بالمثل الى وجود قرية هولندية على ساحل جرينلاند في الأيام المواضي ، تدعى شميرنبرج أو سميرنبرج والاسم الثاني هو الذي يستعمله العلامة فوجو فون سلاك[٢] في كتابه الضخم

---

(١) يشير الى قوله : من البراز والروث يستخرج أجود المسك .

(٢) اسم من أسماء السخرية التي أطلقها ملفل على اسكورسبي .

في الروائح ، وهو كتاب معتمد في ذلك الموضوع . واسمه يوحي (إذ أنّ كلمة سمير تعني الشحم وبرج تعني نزع) إنّ هذه القرية قد أُنشئت هنالك لكي تكون موقعاً صالحاً لنزع شحم الحيتان وإذابتها ، ممّا يصيده اسطول التحويت الهولندي ، دون الحاجة الى أخذها لهولندا لتحقيق تلك الغاية ، وكانت القرية مجموعة من المواقد ومراجل غلي اللحم وعنابر الزيت ، وعندما كانت الأعمال فيها تقوم على قدم وساق فإنها كانت تبعث في الواقع رائحة غير مريحة أو ممتعة . ولكنّ هذا كلّه يختلف تماماً عن سفينة التحويت التي تصيد حوت العنبر في البحار الجنوبية فهي إذا قامت برحلة مداها أربع سنوات ، فإنها بعد أن يطفح عنبرها بالزيت ربما لم تستنفد خمسين يوماً في شؤون الغليان ، فإذا أصبح الزيت معبأ في البراميل فإنه يصبح دون رائحة تقريباً . والحق أن فصيلة الحيتان ، حية كانت أو ميّتة ، إذا عولجت معالجة نظيفة فإنها ليست من الكائنات ذوات الرائحة المستكرهة ولا الحوّاتون يميّزون بقوّة الشمّ مثلما كان أهل القرون الوسطى يميّزون اليهودي من سواه في الجمهور . ولايمكن للحوت أن يكون في الحق إلا شذي الرائحة مادام يتمتّع بصحة جيدة ويأخذ نفسه بالرياضة الكثيرة وهو يعيش طليقاً غير حبيس في بيت ، وإن كان قلّما يتاح له حقّاً أن يكون في الهواء الطلق ، وأنا أقول إنّ شطيرتي ذنب حوت العنبر حين تنتصبان فوق الماء ترسلان رائحة كالتي تنبعث من سيّدة مضمّخة بالمسك تجرّ ذيوله في بهوٍ دافىء . فإذا تمثّلت ضخامة الحوت فبأيّ شيء أشبهه من حيث شذاه العطر ؟ ألا أشبهه بذلك الفيل الشهير ذي النابين المجوهرين المضمّخ بالمر الذي خرج به الهنود من إحدى مدنهم ليستقبلوا به الاسكندر الكبير مرحّبين(١) ؟

---

(١) بعد قهر بورس قدم كثير من أمراء الهند الطاعة للاسكندر ، وأهدوه عدداً من الأفيال .

٩٣

طريح بين الأمواج

لم يمضِ على لقائنا الحوّاتة الفرنسية إلا بضعة أيّام حين وقعت حادثة مشهّرة هامة لأقل الملاحين على الباقوطة أهمية وشهرة . حادثة مؤسفة جدّ مؤسفة ، انتهت الى أن تزوّد السفينة ، التي خطّ القدر لها مصيرها المحتوم والتي كانت تغدو أحياناً طياشة في مرحها وحبورها ، بنبوءة حيّة لاتنفكّ تصاحبها أنّى اتّجهت عن أيّة عاقبة محطّمة قد تكون من نصيبها .

ليس كلّ امرىء في الحوّاتة يبلغ أن ينزل في القوارب وإنّما يبقى بعض العاملين الذين يسمون « قوّام السفينة » ومجالهم أن يُعملوها حين تأخذ القوارب في مطاردة الحوت . وهؤلاء القوام بعامة من الأشدّاء كالذين تألّف منهم عصبة الملاحين في القوارب ، فإذا اتّفق أن كان في السفينة امرؤ بالغ النحافة ، عوير رعديد ، فمن اليقيني أن يظلّ مثل هذا المرء مع القوّام ، وهذا هو ماحدث في الباقوطة للزنجي القميء المسمّى باسم بيبين ، فإذا رخّم أصبح بيب . مسكين هو بيب! لقد سمعتم به من قبل ، ولابدّ أنّكم تذكرون طنبوره في تلك الليلة الصاخبة التي كانت مشبعة بالمرح والكآبة معاً .

وإذا اطلعت على ظاهر الرجلين : بيب والعجان وجدتهما « مهري رهان » أحدهما مهر سيسي أسود والآخر أبيض ، حجمان متشابهان وإن اختلف اللونان ، وقد أطلقا في شوط دائري واحد . ولكن بينما كان الفتى العجّان المنكود بليداً خامل الذكاء جبلة وطبعاً ، كان بيب في أعماقه ذكيّاً ألمعيّاً ـ وإن كان مسرفاً في رقّة القلب ـ وألمعيّته من ذلك النوع الطريف الأصيل المرح الذي تتميّز به قبيلته . وهي قبيلة تستمتع بجميع أيام الإجازات والأعياد استمتاعاً جميلاً طليقاً لاتوازيها فيه أية قبيلة أخرى . إذ أنّ التقويم السنوي لدى السود يجب ألا يكون سوى ثلاثمائة وخمسة وستّين نيروزاً وذكرى حرية . ولا تبتسموا

ساخرين إذا قلت إنّ هذا الأسيود كان ألمعيّاً ذكيّاً لأنّ للسواد نفسه لمعاناً : وشاهدي على ذلك الأبنوس اللامع الذي تزيّن به غرف الملك . غير أنّ بيب كان يحبّ الحياة وماتكفله الحياة من ضمانات مطمئنة ، حتّى أنّ العمل المرعب الذي وجد نفسه في ربقته ، على نحو ما دون أن يجد لذلك تعليلاً ، قد شوّه لمعانه تشويهاً مؤسفاً ، هذا مع أنني سأبيّن بعد قليل أنّ ما أخمد فيه مؤقّتاً قدّر له في النهاية أن يضيء في شحوب بقوّة نيران شاذة غريبة ، فإذا لمعانه يصبح ، على نحو لايصدّق ، عشرة أمثال ماكان له من لألاء طبيعي يوم كان يحيي ليالي الطرب الكثيرة على العشب الأخضر في مقاطعة تولاند من نانتوكت . وعلى المدّ المستوي النغيم قد حوّل ، بهأهأته المرحة ، جميع الأفق المستدير الى طنبور واحد تدقّ فيه أجراس النجوم . في وضح النهار تتألّق النقطة الماسية الصافيةبلألاء سليم إذا جعلتها معلّقة إزاء عنق أزرق العروق . غير أنّ الجواهري الذكي يعرض عليك الماسة في أشدّ أحوالها لألاء أخّاذاً حين يضعها إزاء جسم معتّم ثمّ يسلّط عليها ضوءاً من الغازات الصناعية لا ضوءاً من أشعة الشمس ، ثمّ ينبعث ذلك الإشراق الناري المتوهّج ، الرائع على أنه ابن الأرض ، ثمّ تبدو الماسة التي تشعّ اشعاعاً شيطانيّاً وكأنها جوهرة تاج سرقت من أحد ملوك الجحيم بعد أن كانت أقدس رمز للسّماوات البلّورية . ولكن لنعد الى سياق القصّة .

واتّفق أنّ المجذّف في المؤخّرة من قارب اسطب في حادث استخلاص العنبر الرمادي أوهى يده ، وعجز عن العمل ، فعهد الى بيب أن يخلفه مؤقّتاً في القارب .

وأبدى بيب أوّل مرّة نزل فيها في القارب بصحبة أسطب كثيراً من التوتّر العصبي (النرفزة) ولكنه لحسن حظّه حينئذ نجا من احتكاك مباشر بالحوت ، ولذا انتهى دون أن يعلق به خزي كبير ، وإن كان اسطب اهتمّ من بعد وقد لحظ حاله بأن يشجّعه لكي يستثير شجاعته الى أقصاها إذ قد يجد نفسه بحاجة اليها .

وعند إنزال القوارب كرّة أخرى ، جذّف الملاحون به نحو الحوت فلمّا تلقّى هذا الحديدة المزروقة ردّ عليها باللطمة المعهودة منه واتّفق أن وقعت تماماً حينئذٍ تحت مقعد بيب المسكين . فجعله الفزع اللاإرادي في تلك اللحظة يقفز من القارب والمجذاف في يده وبهذه الطريقة وقع ذلك الجزء من حبل التحويت المسترخي فوق صدره إذ جرّه على صدره وهو يهوي ، فإذا هو محتبل به حين ذهب يغوص في الماء . في تلك اللحظة أخذ الحوت المصاب يجري بشدّة ، وأخذ الحبل يشتدّ مستقيماً بسرعة . وعلى التوّ جاء بيب التعس مكلّلاً بالزبد عند معقفات القارب الخطّافية وقد جرّه الحبل الى هنالك دون شفقة بعد أن لفّ عدّة لفّات حول صدره وعنقه .

كان طاشطيقو يقف في مقدمة القارب ، وكانت تملأ صدره حرارة الصيد ، وكان يمقت بيب إذ يرى فيه رعديداً جباناً ، ولكنه استل مدية القارب من غمدها وسدّد شفرتها فوق الحبل والتفت الى اسطب وصاح متسائلاً : « أقطع ؟ » بينما كان وجه بيب المزرقّ المختنق كأنما يقول له : « اقطع بالله عليك » . كلّ شيء مرّ لمحاً . في أقل من نصف دقيقة حدث كلّ ذلك .

« لُعِن . اقطع! » ـ بذلك زمجر اسطب ، وبذلك ضاع الحوت ونجا بيب .

وما أن عاد الزنجي القميء الى وعيه حتّى احتوشته صيحات الملاحين ولعناتهم ، وفي هدوء ترك اسطب هذه اللعنات المصبوبة على غير نظام تتبخّر ، ثمّ تناول بيب بلعنة الرئيس للمرؤوس ، على نحو واضح صريح مقيّد بتقاليد المهنة ، وإن كان مشوباً بشيء من الفكاهة ، ثمّ قدّم اليه وقد انتهى من ذلك ما يقدّمه الرفيق لرفيق من نصيحة نافعة . وخلاصة تلك النصيحة : لا تقفز من القارب يا بيب إلا ـ ثمّ كان ما ورد بعد « إلاّ » غير محدّد شأن أعمق النصائح دائماً . حقّاً إنّ الشعار الحق للملاّح بعامة هو « الزم القارب » ولكن في بعض الحالات يصبح : « اقفز من القارب » خيراً منه . غير أنّ اسطب كأنما كان يدرك في النهاية أنه إن قدّم لبيب نصيحة مركرة قائمة على وحي الضمير الحسّاس فإنه يترك له ندحة ليقفز في المستقبل ولذا فإنه تخلّى فجأة عن النصح وختم كلامه بأمر جازم : « الزم القارب يابيب وإلاّ وحقّ الإله لا أنقذتك إذا قفزت . تذكّر هذا . لسنا لنفقد الحيتان بسبب أمثالك ، الحوت يأتينا بثمن يبلغ ثلاثين مرّة قدر ثمنك في ألباما يا بيب! لا تنسَ ذلك وإيّاك أن تقفز مرّة أخرى » . ولعلّ اسطب كان يلمّح بطريق غير مباشر الى أنّ المرء قد يحبّ أخاه الانسان ، غير أنّ الإنسان حيوان جمّاعُ مال ، وهذا الميل فيه يعترض مافيه من حنوّ وطيبة .

لكنّ المقدّر كائن ، فقد قفز بيب مرّة أخرى في ظروف شبيهة بظروف الحادث الأوّل إلاّ أنّ الحبل لم يصدّره في الثاني ، ومن ثمّ فإنّ الحوت أخذ يجري شدّاً فخلف بيب على سطح الماء كأنه حقيبة مسافر منسيّة . واأسفاه! فقد كان اسطب وفيّاً بما قال . كان يوماً جميلاً كريماً أزرق اللون ، والبحر اللامع الصقيل هادىء منعش ممتد على انبساط دائري حتّى حوافي الأفق كأنه الغشاء الداخلي لأمعاء الثور وقد مدّ الى أقصاه . وبدا رأس بيب الأبنوسي وهو يصعد ويهبط في ذلك الماء كأنه رأس من القرنفل ، ولم ترتفع أيّة مدية حتّى سقط سريعاً نحو مؤخّرة القارب ، وأدار له اسطب ظهره الجافي المتزمّت ، أمّا الحوت فغدا مهيض الجناح . وفي مدى دقائق ثلاث أصبح يفصل بين بيب واسطب ميل من محيط لاشاطىء له . ومن وسط البحر حوّل بيب المسكين رأسه الأسود الهش المعقوص نحو الشمس ، طريح موج آخر وحيداً ، وإن كان أسمى الطريحين وأشدهما لمعاناً .

إذا كان الجوّ ساكناً كانت السباحة في المحيط الرحب سهلة على السبّاح الدرب . كالركوب في عربة في الربيع على البرّ . إلاّ أنّ الشعور بالوحدة الموحشة لايطاق ، يالله! من يدري كيف يكون الانطواء الذاتي الحادّ في قلب تلك الأبعاد القاسية التي لاقلب لها . تأمّلوا البحارة حين يستحمّون في هدأة الجو في رحبة البحر ، تأمّلوا كيف ينشبون أيديهم في سفينتهم ولايبارحون جوانبها .

أترى اسطب خلّى ذلك الزنجي الصغير المسكين يواجه مصيره حقّاً ؟ كلا ، بل إنه لم يقصد ذلك على الأقل . كان على أثره قاربان وظنّ دون ريب أنهما سيسرعان الى بيب ويلتقطانه ، هذا مع أنّ تعريض المجذفين أنفسهم للتهلكة بسبب من جبن أو هلع أمر لايظهره الصيادون دوماً في مثل هذه الأحوال ، ومثل هذه الأحوال تعرض على غير قلّة . ويكاد الناس يجمعون في حرفة الصيد على أنّ من يسمّى جباناً يقابل بالمقت الصارخ الذي يقابل به الجبان في الأساطيل الحربية والجيوش .

ولكنْ اتّفق أنّ هذين القاربين رأيا فجأة حيتاناً قريبة من أحد الجانبين فاستدارا دون أن يريا بيب ، وأخذا يطاردان الحيتان ، وأصبح قارب أسطب عندئذٍ نائياً ، وكان هو وملاحوه متهممين عامدين نحو الحوت ، فبدأ أفق بيب المستدير ينداح من حوله وينبسط على نحو تاعس . وبمحض المصادفة أنقذته السفينة نفسها أخيراً . ومنذ ذلك الحين أصبح الزنجي الصغير أبله ممروراً ، أو هذا هو ماقالوه فيه على الأقل . لقد ردّ البحر جسده المحدود في سخرية ، ولكنه أغرق اللامحدود من روحه وإن لم يغرقه إغراقاً تامّاً . بل أوثر أن أقول إنه انساق حيّاً الى الأعماق العجيبة حيث أشكال غريبة من العالم الأوّلي العاري تنساب يمنة ويسرة أمام عينيه الشاخصتين . وإذا الحكمة ، ذلك الانسان البحري البخيل ، قد فتحت له كنوزها المكنوزة ، وبين أبعاد الخلود الجذلة التي لاقلب لها ولاتشيخ أبداً رأى بيب الحشرات المرجانية الكثيرة التي حلّت فيها الألوهية ، والتي تخرج من جَلَد الماء وتدفع الأفلاك الهائلة ، رأى قدم الإله على دوّاسة الحياكة في المنسج وناجاها . ومن ثمّ دعاه رفاقه مجنوناً . وجنون الانسان لدنيّةُ السّماء . فإذا انخلع عن العقل وصل الى الكشف السّماوي الذي يبدو في نظر العقل هذياناً وجنوناً ، وسواء أكان ذلك لخير أم لشر فإنه يشعر أنه كالإله لايبالي ولا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون .

أمّا فيما تبقّى فلا تعنّفوا كثيراً في لوم اسطب . فمثل هذا أمر مألوف في حرفة الصيد ، وسوف أقصّ عليكم في سياق قصّتي هذه ماأصابني أنا من شعور بالضياع والخذلان .

٩٤

عصر الاكر الشحمية

كلّف حوت اسطب غالياً ولذلك جرّ الى جانب الباقوطة وجرت عليه عمليّات التقطيع والرفع التي وصفت من قبل حسب نظام لايختلّ حتّى لقد تمّ استخراج مافي دن هيدلبرج أو «دنية الحوت» .

وبينا كان بعض الرجال منهمكاً في هذه المهمّة الأخيرة كان آخرون يعملون في جرّ البراميل الكبرى حالما تملأ بالزيت ، وحين يحلّ الوقت الملائم فإنّ هذا الزيت يدبّر بعناية قبل أن يذهب الى مصانع التصفية وهي ماسنتحدّث عنه عمّا قليل .

كان الزيت قد برد وتكوّرت فيه البلّورات حتّى أنني حين جلست أمام حوض كبير منه (كأنه حمام قسطنطين) أنا وعدد من الآخرين ، وجدته قد تجسّد كتلاً تتدحرج هنا وهناك في القسم السائل منه . وكانت مهمّتنا أن نعتصر تلك الكتل حتّى تصبح سائلة ، مهمّة عذبة دهنية! لاعجب إن كان هذا الزيت في الأيام الخوالي دهاناً للزينة أثيراً .أيّ منظّف! أيّ مزيّن! أي ملطّف! أي مهدئ لذيذ! بعد أن وضعت يديّ فيه بضع دقائق احسست أصابعي كأنها سمك الانكليس فقد بدأت تتلوى وتتمعّج .

كنت أجلس على الدكّة متقاطع الرجلين في ارتياح ، بعد الإنهاك المرير عند الدولاب الرافع ، تحت سماء ناعمة زرقاء ، والسفينة تحت شراع مسترخٍ تنساب في جلال ، كنت اغسل يدي بين تلك الكرات الناعمة اللطيفة من تلك الأنسجة المنقّاة ، التي تحاك في خلال ساعة أو تكاد ، كانت تتعلّق تحت أصابعي وتمجّ كلّ خصبها كما تدفّق الأعناب الناضجة خمرها ، كنت أستنشي ذلك العطر الخالص الذي لم تشبه شائبة ـ حقّاً وصدقاً ـ كأنه رائحة البنفسج في الربيع . أصدقكم القول إنني عشت لحظة وكأنّي في حقل مسكيّ ، نسيت كلّ شيء عن قسمنا المفزع الذي أقسمناه ، في ذلك الزيت الذي لايحده تعبير غسلت من

القسم المعقود يديّ وقلبيّ معاً ، لكدت أؤمن بالأسطورة البراقليسية القديمة التي تقول إنّ زيت العنبر ذو فضل فذّ في تخفيف حدّة الغضب ، حين كنت أستحمّ في ذلك الحمّام شعرت ، شعوراً سماوياً - بأنّي بارىء من كلّ نيّة سيّئة أو من كلّ نكد أو حقد أو أيّ شيء من ذلك .

عصراً! عصراً! عصراً! طوال الصباح كلّه . عصرت ذلك الشحم حتّى كدت أذوب فيه ، عصرت ذلك الشحم حتّى استولى عليّ نوع فذّ من الجنون ، ووجدتني أعتصر - دون أن أدري - أيدي زملائي العاملين معي في الحوض ، ظانّاً أنّ أيديهم كرات لطيفة . ولّد هذا العمل فيّ شعوراً فيّاضاً وديّاً حبيباً متحبّباً حتّى أنني في النهاية أصبحت أشدّ على أيديهم وأنظر في عيونهم في حنان كأنني أقول لهم : آه يارفاقي الأعزّاء لم نظلّ بعد اليوم نستطعم أيّ صور الجفاء الاجتماعي أو نتعرّف الى أقلّ الحسد أو نكد الطبع! هيّا بنا نشدّ على أيدي بعضنا بعضاً ، لا بل نعتصر أنفسنا بعضها في بعض ، لنعتصر أنفسنا جميعاً نحن الآدميين في حليب اللطف الوديع وزيته .

ليتني أستطعت أن أظلّ أعتصر ذلك الشحم الى الأبد! اذ دلّتني التجارب الكثيرة الطويلة المكرورة أنّ المرء في كلّ الأحوال يجب أن يطامن في آخر الأمر من خياله الواهم الذي يزيّن له أنّ الغبطة أمر ميسور ، أو على الأقل أن ينقل هذا الخيال عنها الى مجال آخر ، عليه أن لايطلب الغبطة في شؤون الفكر أو الخيال وإنّما يطلبها في الزوجة والقلب والفراش والمائدة والسرج والموقد والريف ، ومذ أدركت ذلك كلّه أصبحت على استعداد لحالة الاعتصار أبداً . وفي تخيّلاتي عن رؤى الليل رأيت صفّاً طويلاً من الملائكة في الفردوس وفي يدّ كلّ ملك منهم جرّة من زيت حوت العنبر .

* * *

يحسن بي أن أحدّثكم ، في معرض حديثي عن زيت حوت العنبر ، عن أشياء ذات صلة وثيقة به ، تعرض في اعداد حوت العنبر لأعمال الإذابة والتصفية .

يجيء أوّلاً مايسمّى «الردهة البيضاء» وتؤخذ من الجزء المستدقّ من الحوت ومن الأجزاء الأكثر سمكاً في شطيرتي ذنبه ، وهي صلبة متينة ذات ألياف متعقّدة - حزمة من العضل - ولكنها مع ذلك تحتوي بعض الزيت ، وبعد أن تفصل هذه «الردهة البيضاء» عن الحوت تقطّع في مستطيلات يمكن نقلها قبل أن تذهب الى المفرمة ، وهذه المستطيلات تبدو كأنها قطع من رخام بركشير .

أمّا «حلاوة البرقوق» فهو الاسم الذي يطلقونه على نوع من المزع من لحم الحوت ،

تظلّ عالقة هنا وهناك ببطانية الشحم وكثيراً ماتشاركها دهنيّتها الى حدّ غير قليل . وهذه «الحلاوة» شيء منعش بهيج جميل للناظر ، وهي ـ حسبما يوحي اسمها ـ ذات صبغ بالغ الخصب والبقع ، وقاعدتها ثلجية ذهبية مولّعة ، منقّطة ببقع من أعمق لون قرمزي وأرجواني ، إنها برقوق من اليواقيت في صور من البرتقال . وقد ينهاك العقل عن أكلها فلا تكاد تملك نفسك دون ذلك ، وإنّي لأعترف أنّي تسلّلت خلف الصاري الأمامي لأجرّب طعمها ، وإذ ذقتها تصوّرت أنّ مذاقها يمكن أن يكون كمذاق شريحة لحم ملكي انتزعت من فخذ لويس السمين إذا افترضت أنه قتل أوّل يوم بعد موسم صيد الغزلان ، وإنّ ذلك الموسم عينه كان معاصراً لقطاف جميل غير عادي من الكروم في مقاطعة شمبانيا .

وهناك مادة أخرى فريدة غاية في تفرّدها ، تبرز خلال هذا العمل ولكنّي أحسّ بالحرج من أن أصفها وصفاً كفاء بتحديدها ، يسمّونها «الردغية» ، وهو اسم من وضع الحوّاتين وينطبق على طبيعة تلك المادة فهي ردغية نشاشة غروية يقصر عنها التعبير ، وأكثر ماتوجد في براميل الزيت بعد العصر الطويل وما يتلوه من تعبئة ، وأنا أراها الأغشية الرقيقة المدهشة في رقّتها ، المتمزّقة التي تكون في القحف ، وقد تضامّت والتحمت .

«والغري» كلمة صالحة في حال الحوت الأثين ولكن يستعملها أحياناً صيّادو حوت العنبر ، وهي تدلّ على مادة سوداء لزجة غروية تنزع عن ظهر حوت جرينلاند أو الحوت الأثين ، وكثير منها يغطّي قمم تلك النفوس المتدنية التي تذهب لصيد ذلك اللوياثان المهين .

ثمّ النتّاش : وهي لفظة ليست من صميم معجم التحويت ولكن اذا استعملها الحواتون أصبحت كذلك ، والنتاش لدى الحوات شريحة قصيرة ركينة من مادة ليفية تقطّع من الجزء المستدقّ من ذنب الحوت ومعدّل سمكها بوصة واحدة ، أمّا سائرها فيكون في حجم الجزء الحديدي من الفأس ، فإذا حرّكت حدها على ظهر السفينة الزيتي عملت عمل المِكشَط الجلدي الذي تُحتّ به بقايا الدهن والشحم وإذا دلّكت بها متلطّفاً كشطت كلّ زهومةٍ عالقة ، كأنها تفعل ذلك بقوّة السحر .

ولكن خير طريقة تعلم بها جميع هذه المسائل الخفية هي أن تهبط حالاً الى غرفة الشحم وتتحدّث حديثاً طويلاً الى نزلائها . لقد قلنا من قبل أنّ هذا المكان هو الموضع الذي تتسلّم فيه قطع «البطانية» حين تنزع وتسلخ عن الحوت ، وحين يجيء الوقت الصالح لتقطيع محتوياتها تصبح هذه الغرفة مشهد رعب لدى كلّ مبتدىء وبخاصة في الليل ، وقد تركت على أحد الجوانب فسحة يضيئها قنديل باهت ، فارغة ليحتلّها العمال ، وهم عادة

يذهبون اثنين اثنين أحدهما يحمل حربة وخطّافاً والآخر يحمل مجرفة . وحربة التحويت تشبه سلاحاً للتخزين يستعملونه في الفرقاطة ويسمّونه حربة أيضاً . أمّا الخطّاف فيشبه سنّارة القارب ، وصاحب الخطّاف يعلّق خطّافه بقطعة من الشحم ، ويحاول أن يحول دون انزلاقها ، بينا السفينة تتأرجح وتتمايل . وفي الوقت نفسه يقف صاحب المجرفة على القطعة نفسها فيجزّئها عمودياً في قطع كبيرة يستطاع حملها . وهذه المجرفة حادة بقدر مايستطيع المسنّ شحذها ويكون صاحب المجرفة حافي القدمين ، وقد ينزلق الشيء الذي يقف عليه أحياناً دون أن يستطيع تثبيته ، فهل تستغرب كثيراً أن يقطع أحد أصابع قدميه أو أقدام مساعديه ؟ إنّ أصابع الرجلين قليلة لدى رجال غرفة الشحم المجرّبين .

٩٥

الكازاك[١]

لو أنّك خطوت على ظهر الباقوطة في لحظة حرجة بعد صلاة الجنازة على ذلك الحوت ، ولو تمشّيت حتّى بلغت قريباً من الدولاب الرافع ، فأناعلى مثل اليقين أنّك كنت ترى ، بقسط غير قليل من الفضول ، شيئاً غريباً لغزيّاً بالغ الغرابة ، تراه هنالك وقد تمدّد طولاً على المصارف اليمنى . ولو أنّك شهدت النافورة العجيبة في رأس الحوت الضخم ، أو ضخامة فكّه السفلي الذي يتحرّك على غير عقب ، أو المعجزة الماثلة في ذنبه المنتظم ، لم يدهشك أحد هذه الأمور كما تدهشك التماحة عابرة ترى فيها ذلك المخروط الذي لاتجد له تعليلاً ، أطول من أطول رجل كنتوكي ، قطره عند القاعدة يقارب القدم ، أسود حالك السواد مثل يوجو ذلك الصنم الأبنوسي الذي كان يتعبّد له كويكوج . والحق أنه صنم أو قل كان يشبه الصنم في الأيام القديمة كذلك الصنم الذي وجد في الحدائق السرّية التي كانت تملكها الملكة معكة في يهوذا ، وبما أنها كانت تعبده فقد خلعها ابنها آسا من الملك وقطّع معبودها وأحرقه لإظهار مقته له في وادي قدرون ، حسبما قصّ علينا ذلك سفر الملوك الأوّل في الإصحاح الخامس عشر ، على نحوٍ مبهم .

تأمّل البحار الذي يسمّونه « الفرّام » ، يأتي عامداً ومعه اثنان يساعدانه ، ويحمل « المعظّم » كما يسمّيه الملاحون ، ويترنّح تحته وظهره محنيّ ويمضي متثاقلاً كأنه جندي يحمل رفيقاً له سقط ميّتاً في الميدان . ثمّ يمده على ربعة المنارة ويأخذ بإزالة إهابه الأسود عنه على نحو اسطواني مثلما يسلخ الصيّاد الافريقي جلد الحيّة الكبيرة . فإذا فعل ذلك قلب الجلد مثلما تقلب رجل السروال فمطّها ما امتدّت حتى يجعل قطرها ضعفي ماكان ، وأخيراً

---

(١) Cassock وهو رداء القسيس .

يعلقها ممدودة على الحبال كي تجفّ ، وبعد قليل ينزلها ويزيل منها نحو ثلاثة أقدام من جهة الطرف المستدقّ ، ثمّ يثقب فيها شقّين لدخول الذراعين في الطرف الآخر ثمّ ينساب فيها طولاً . وعندئذٍ يقف «الفرّام» أمامك وقد ارتدى ماتتطلّبه شعائر حرفته من زيّ كهنوتي . ولاأحد من أبناء مذهبه يعرف متى اتّخذ هذا الزيّ ، إلاّ أنه الرداء الوحيد الذي يقيه وقاية كافية حين يذهب في أداء ماتتطلّبه وظيفته من مهمّات .

وتشمل تلك الوظيفة فرم القطع الكبيرة من الشحم لتوضع في المراجل ، وهو عمل يقوم به «الفرّام» فوق وضمٍ خشبي في شكل حصان قد غرس من آخره في هيكل السفينة ، وتحته برميل واسع تسقط فيه القطع المفرومة سريعاً كأنها صفحات تسقط عن منصّة خطيب سابح في ملكوت الغيب . رجل يلبس الزيّ الأسود الوقور وقد وقف على منبرٍ سامٍ وأكبّ على صفحات التوراة ، ما أجدر هذا الفرّام أن يكون مرشّحاً لرئاسة الأساقفة ، وما أحراه أن يكون فتى في حاشية البابا*!

* صحائف التوراة! صحائف التوراة! تلك هي الصيحة الراسخة التي يرسلها الضباط الى الفرام ، وهي تحثّه على أن يكون شديد العناية لتجيء القطعة أرق ما تكون ، فبهذا يمكن الاسراع في غلي الشحم ، وزيادة الكمّية المأخوذة منه زيادة ملحوظة ، وربّما أعان ذلك على تحسين نوعه .

٩٦

معامل التصفية

تتميّز الحوّاتة الامريكية تميّزاً ظاهراً بما فيها من معامل تصفية فضلاً عن أنّ قواربها تكون مرفوعة . فهي تقدّم للناظر أغرب شذوذ تقع عليه عيناه في صورة مبنى مرصوص قوي مجاور للخشب والقنّب ، ومنها جميعاً تتكوّن السفينة كاملة ، وكأنّما نقل اليها من الحقل الفضاء أتون آجر وجُعل فوق ألواحها .

وتقع معامل التصفية بين الصاري الأمامي والصاري الرئيس وهو أوسع جزء في ظهر السفينة ، والأخشاب تحتها ذات قوّة متميّزة صالحة لحمل ثقل من كتلة صلبة من الآجر والملاط تبلغ نحو عشرة أقدام طولاً في ثمانية عرضاً في خمسة ارتفاعاً . ولاينفذ الأساس في ألواح الظهر غير أنّ المبنى مؤمّن الثبات على السطح بزوايا ثقيلة من الحديد تطوّقها من جميع جوانبها وتثبّتها بالدسر الراسخة في الخشب .

أمّا حوافيها فإنها محفوفة بخشب وعند القمّة تغطّيها تماماً فوهة واسعة منحدرة مسدودة ، فإذا رفع سدّادها ظهر مرجلان من مراجل التصفية ، وكلّ واحد منهما يتّسع لعدّة براميل . فإذا لم يكونا في حال استعمال ظلاّ نظيفين على نحوٍ فذّ . وأحياناً يجليان بحجر الصابون والرمل حتّى يلتمع داخلهما كأنهما قدحا فضة يتّخذان للشراب ، ويندسّ فيهما في نوبات الحراسة الليلية بعض شيوخ الملاحين الأوغاد ويتطوون طلباً لسنة من نوم . وحين يستخدم الرجال في «تبييض» المرجلين وفي كلّ مرجل رجل ، تجري بينهما وهما متصاقبان مناجيات بأسرار كثيرة فوق الحوافي الحديدية ، وهذا أيضاً مكان صالح للتأمّل الرياضي العميق ، ففي مرجل التصفية الأيسر بالباقوطة وحجر الصابون يلتفّ دائراً من حولي بنشاط ، خطرت لي أوّل مرّة بطريقة غير مباشرة حقيقية فذّة في الهندسة وهي أنّ جميع الأجسام التي تنساب على قوس ، كحجر الصابون الذي استعمله مثلاً ، ستسقط

من أية نقطة في الوقت نفسه بالضبط .

فإذا أزيل لوح النار من أمام معامل التصفية ، انكشف المبنى العاري من ذلك الجانب وقد نفذت فيه فوهتان حديديّتان للتنانير تحت المراجل مباشرة ، وقد نصب على هاتين الفوهتين بابان ثقيلان من حديد ، ويحال بين حرارة النار الشديدة وبين الوصول الى ظهر السفينة بوساطة حوض ضحل يمتدّ تحت جميع السطح الذي يحدق بالمعامل ، ويظلّ هذا الحوض يمد بالماء بسرعة كسرعة تبخّره عن طريق نفق نافذ من الخلف . وليس هناك مداخن نافذة الى الخارج ، وإنّما تنفتح مباشرة من الجدار الخلفي ، وهنا لنعد لحظة .

حوالي الساعة التاسعة ليلاً بدأت معامل التصفية في الباقوطة عملها ، أوّل مرّة في هذه الرحلة الراهنة ، وكان قد عهد الى أسطب أن يشرف على العمل .

«أأنتم جميعاً مستعدّون هناك ؟ انزعوا سدّاد الكوّة ، وابدأوا ، وأنت أيها الطباخ ، أشعل النار» . وكان ذلك أمراً سهلاً لأنّ النجار كان يلقي النشارة طوال الرحلة في الأتون ، ولنقل في هذا المقام أنّ أوّل نار توقد في معامل التصفية في سفرة التحويت لابدّ أن تُمدّ بالخشب بعض الوقت ، ثمّ لايستعمل الخشب أبداً إلا أن يكون وسيلة لإشعال الوقود الرئيسي في سرعة . وفي إيجاز أقول إنّ الشحم الهش المتكمّش الذي أصبح يسمّى المِزَعَ أو الأرب مايزال فيه قسط وفير من خصائصه الدهنية ، وهذه المزع تتخذ وقوداً للنيران ، وهكذا يمدّ الحوت النيران بوقوده ويحترق بلهيب جسمه كأنه شهيد ألقي في النار فهو يغذّيها بدمه ، أو كأنه كاره للبشر فهو يستهلك ذاته في أتون كرهه . ليت الحوت يستهلك دخّان ذاته ، لأنّ دخّانه مرعب اذا استنشي ، ولابدّ للمرء من أن يملأ به صدره ، وليس هذا فحسب بل عليه أن يعيش فيه بعض الوقت ، وله رائحة هندية غريبة لاتوصف كالرائحة التي تكمن في جوار محارق الجثث . رائحته كرائحة الجانب الأيسر من يوم الحساب ، وهي حجة تشهد بهول جهنّم .

وعند منتصف الليل كانت المعامل في أقصى نشاطها ، فقد تخلّصنا من جثة الحوت ، وأبحرنا ، والريح رخاء وظلام المحيط الموحش متراكم حالك ، ولكن ألسنة اللهب الحادة لعقتْ ذلك الظلام ، وكانت بين الحين والحين تمتد متطاولة من الوقود الساجي وتضوىء كلّ حبل عالٍ من حبائل السفينة كأنها النار اليونانية المشهورة . ومضت السفينة اللاهبة في طريقها كأنّما قد فوّض اليها القيام بعمل انتقامي ، كذلك السفن الصغيرة المحمّلة بالقار والكبريت ، سفن كاناريس الهيدري الجسور وقد انطلقت في منتصف الليل من موانيها

جاعلة صفحات اللهيب عوضاً عن الأشرعة ، انقضّت على الفرقاطات التركية وطوتها في أحشاء النيران[1] .

وحين أزيل السداد عن فوهة المعامل ، أصبح أمامها موقد واسع ، يقف عنده الزراقون الوثنيّون الذين يشبهون التتر في صورهم ، وهم دائماً الوقّادون في سفن التحويت ، وفي أيديهم سفافيد ضخمة مشعّبة بها يلقون في المراجل الساطة كتلاً من الشحم ذات أطيط أو يؤرثون بها النيران تحت المراجل حتّى تنطلق أفاعي اللهيب متلوّية متحوّية من الأبواب وتنهس أقدامهم . والدخان يتحشّد منطلقاً دفعاً دفعاً في لونٍ كدريّ ، وكلّما مالت السفينة ميلة مال معها الزيت المغليّ ، وبدا كأنه ذو لهفة ليثب في وجوههم . وفي مقابل فوهة المعامل على الجانب الآخر من الموقد الخشبي الوسيع يقوم الدولاب الرافع ، ويتّخذ مرتفقاً أو مضطجعاً ، هنالك يحوم الحرّاس حين لايكون لديهم عمل آخر وهم يحدّقون إلى حمرة النار اللاهبة حتّى تحسّ أعينهم أنها تلذّعت في محاجرها . وعلى ضوء اللهيب المتقلّب المتموّج في المعامل ظهرت ـ ظهوراً غريباً ـ ملامح أولئك البحارة الصحم وقد سوّدها الدخان والعرق ، وتبدّت لحاهم المتلبّدة ، على مفارقة ساطعة إزاء اللمعان الوحشي في أسنانهم ، وقصّ أحدهم على الآخر قصة مغامراته المستهترة ، وحكوا حكايات الرعب في كلمات ضاحكة ، وتموّج ضحكهم الوحشي صعداً من أفواههم كأنه ألسنه اللهيب في الأتون ، وفي الطليعة وقف الزراقون يحرّكون أجسامهم وفق تحريكهم للأشواك الضخمة المشعّبة والمغارف ، كلّ هذا والريح تجأر والبحر يتوثّب والسفينة تئن وتغوص ، ثمّ رغم ذلك تطلق جهنّم التي في جوفها بعيداً بعيداً في حلكة البحر والليل ، وتعلك اللجام العظمي الأبيض في فمها ، باستخفاف ، وتبصق من حولها في جميع الجهات ، باستهتار : هذه الباقوطة المشحونة بالمتوحّشين ، المحمّلة بالنار وبجثّة تحترق ، الغائصة في حلكة الظلمات بدت وكأنها الصنو الماديّ لروح آمرها المجنون المتشبّث في جنونه بغاية لا يحيد عنها .

كذلك تبدّت لي حين وقفت عند دفّتها وظللت الساعات الطوال أوجّه في صمت تلك السفينة النارية في طريقها على الماء وكان الظلام حينئذٍ يلفّني أنا أيضاً بردائه ، فاستطعت أن أستبين من موقفي مايسبح فيه الآخرون من حمرة وجنون وصفرة كالحة ، واسترسل أمامي منظر الأشكال الشيطانية ، وهي تثب ونصفها في الدخان ، ونصفها الآخر في النيران ،

---

(١) قسطنطين كاناريس (١٧٩٠ـ١٨٧٧) هاجم في ١٨ـ١٩ حزيران ١٨٢٢ السفن التركية ، والهيدري نسبة الى HYDRA التي اتّخذها الثوار اليونان مركزاً لهم .

فولّدت رؤيتها في روحي رؤى مماثلة حالما بدأت استسلم لذلك النعاس الذي لاأجد له تعليلاً ، النعاس الذي يعقد أجفاني كلّما كنت عند الدقّة في منتصف الليل .

لكن في تلك الليلة بخاصة حدث لي شيء غريب (ومنذ ذلك الحين ظلّ لغزاً لاأستطيع تفسيره) ، أجفلت من نومة غرارٍ وأنا واقف فاستيقظ شعوري على شيء خاطىء فادح خطؤه ، كنت أستند بجنبي على المخل الذي يدير السكان ، وهو من عظم فك الحوت ، فأفقت على لطمة منه ، وعلى طنين الأشرعة المهمهم في أذني وقد بدأت الريح تهزّها ، ظننت عينيّ مفتوحتين ، وفي شيء بين الوعي والمنام وضعت أصابعي على الأجفان وباعدت مابين الجفنين لأفتحهما ، ورغم ذلك كلّه لم أستطع أن أرى أمامي بوصلة أتوجّه بحسبها ، وإن بدا لي أنّي كنت أنظر الى اللوحة قبيل دقيقة واحدة ، على ضوء مصباح صندوق البوصلة الدائم الذي يلقي عليها نوره ، لم يبدُ أمامي شيء سوى ظلمة سوداء لامعة تزداد ويلاً بومضات من الاحمرار ، وفي أمّ رأسي وجدتني أتصوّر أنه مهما يكن الشيءالذي أقف عليه سريعاً مندفعاً فإنه غير عامد الى ميناء أمين أمامه ، بمقدار ماهو هارب من كلّ الموانىء الأمينة من خلفه . وتملّكني شعور حيران متيبّس كأنه الشعور بالموت . قَبَضَتْ يداي في تشنّج على المخل الذي يوجّه السكّان وأنا أتخيّل تخيّل الملتاث أنّ ذلك المخل قد قلب ، بطريقة سحرية ، ربّاه! مابالي ماذا جرى لي ؟ مه! ها أنذا في تلك النومة القصيرة حوّلت وجهي فأصبحت أواجه مؤخّرة السفينة وأصبح ظهري نحو مقدّمها يواجه البوصلة ، واستدرت في لحظة في الوقت المناسب لكي أمنع السفينة من أن تطير في قلب الريح ، ولو فعلت فربّما انقلبت ، ماأكبر سروري وما أشدّ امتناني للخلاص من الهلاس الممرور في ذلك الليل ، والنجاة من تلك السانحة القاتلة التي كانت ستجعلنا تحت رحمة الريح!

يا ابن آدم! لا تحدّق طويلاً في صفحة النار ، وإيّاك أن تحلم ويدك على الدفّة ، لاتدرْ ظهرك للبوصلة ، تقبّل أوّل غمزة يغمزك بها المخل الجاذب ، لاتصدّق النار المصطنعة حين تجعل حمرتها كلّ شيء يبدو شاحباً مخيفاً ، غداً تحت ضوء الشمس الأصيلة تصبح السماوات صافية ، ومن كانوا يتألّقون كالشياطين في ضوء اللهب المتموّج سيبرزهم الصباح في وضع آخر ، أحبّ وألطف . القنديل الحق ـ الفجر الصادق ـ هو تلك الشمس المجيدة الذهبية الجذلى ، وماعداها فإنه فجر كاذب .

ومع ذلك فإنّ الشمس لاتخفي المستنقع المشؤوم في فرجينيا ، وكامبانيا الملعونة في روما ، والصحارى المترامية وملايين الأميال من الجدب والحزن الواقعين تحت ضوء القمر . الشمس لا تخفي المحيط ، ذلك الجانب المظلم من الأرض وهو يبلغ ثلثي مساحتها ، ولذلك

فإنّ الإنسان الذي كتب عليه الفناء ، الإنسان الذي يستطعم السرور أكثر من الأسى ، ذلك الفاني ، لايمكن أن يكون صادقاً مع ذاته ـ إنه غير صادق ، غير راقٍ في التطوّر . والأمر في الكتب كذلك . أصدق الرجال «رجل الأحزان» ، وأصدق الكتب «سفر سليمان» ، وفولاذ الحزن الرقيق المطرّق هو سفر الجامعة : «كلّ ذلك باطل» ـ كلّه أجمع ، إنّ هذا العالم العنيد لم يقع بعد على حكمة سليمان ، وهي حكمة غير مسيحية . ولكن من يتفادى المستشفيات والسجون ويسرع وهو يعبر المقابر ويؤثر أن يتحدّث عن الأوبّرا لاعن جهنّم ويدعو كوبر ويونج وبسكال وروسو مساكين تعساء من المرضى وفي أثناء لهوه يحلف برابالية أنه من العقلاء وأنه لذلك مفراح جذل ـ فمثل ذلك المرء ليس هو الذي يصلح أن يجلس على أحجار القبور ويشقّ ذلك القالب الرطب المخضوضر بعمق كعمق حكمة سليمان المتأملة التي لا يسبر غورها .

ولكنّ سليمان نفسه يقول (أمثال ٢١ ، ١٦) : «الرجل الضال عن طريق المعرفة يسكن (أي وهو مايزال حيّاً) بين جماعة الأخيلة (يعني مجتمع الموتى)» .

لاتسلّم نفسك الى النار لئلاً تقلّبك وتميتك مثلما فعلت بي مؤقّتاً . ثمّة حكمة هي ويل ولكن ثمّة ويلاً هو جنون ، وفي بعض الأرواح نسر (كنسركاتسكل) يستطيع أن يخوت في أشدّ المنفهقات ظلاماً وأن يحلّق صاعداً منها حتّى لايحقه البصر في مجال الشمس ، ولو أنه ظلّ في المنفهق مدوّماً الى الأبد ، فإنّ ذلك المنفهق ، إنّما يقوم بين الجبال ، فالنسر الجبلي في أدنى هُويِّه أعلى من سائر الطيور التي على السهل وإن ارتفعت في الأفق محلّقة .

٩٧

المصباح

لو أنّك هبطت من معامل التصفية في الباقوطة الى منارتها حيث ينام الحرّاس الذين أدّوا نوبتهم لظننت لحظة ، أو كدت تظنّ ، أنّك تقف في ضريح منوّر دفن فيه ملوك شرعيّون ومستشارون . هنالك يستلقي الملاحون في أقبيتهم الخشبية المثلّثة الأشكال ، وكلّ واحد منهم كأنه صمت محفور في موضعه ، وعلى رأسه المقلّس يلتمع عشرون مصباحاً .

الزيت في السفن التجارية نادر لا يناله البحّار وكأنه أندر من حليب الملكات ، وقد كتب على ذلك البحّار أن يلبس في الظلام ويأكل في الظلام ، ويتعثّر في الظلام نحو فراشه أمّا الحوّات فإنه يعيش في الضوء لأنه يفتّش عن غذاء القناديل ، فهو يجعل من سريره مصباح علاء الدين ويلقي بنفسه فيه حتّى أنّ هيكل السفينة لايزال يزوي ضوءاً في أشد الليالي سواداً كأنها القار .

تأمّل بأيّ حرّية يأخذ الحوّات ملء يده من المصابيح ـ وعادة لاتكون إلاّ زجاجات وقوارير قديمة ـ الى المبرّد النحاسي في معامل التصفية ويملؤها هنالك مثلما تملأ أباريق الجعة من الدن ، وهو يوقد أنقى زيت في حالته الخام أي قبل ان يفسد ، وذلك الزيت سائل لا تعرفه المبتكرات الشمسية أو القمرية أو النجوميّة على البرّ ، عذب كأنه زبدة الريف التي تجيء في بواكير الربيع . إنه ليذهب متلمّساً زيته لكي يكون على ثقة من أنه أصيل طازج مثلما يتلمّس المسافر في السهوب صيداً يتّخذه عشاء .

٩٨

التعبئة والتفريغ

قد قصصنا عليك كيف يُرى الليوثان العظيم من رأس الصاري عن بعد سحيق ، وكيف يطارد فوق المروج المائية ويذبح في وديان البحر ، وكيف يجرّ ، ويحتزّ رأسه وكيف (قياساً على المبدأ الذي يخوّل الجلاد في العصور القديمة أن يأخذ ملابس القتيل الذي قطع رأسه) تصبح عباءته المحشوّة ملكاً لجلاده ، وكيف يحكم عليه بالنزول في المراجل ، في الوقت المناسب ، وكيف يمر زيته وعظمه مثل شدرخ وميشخ وعبدنغو الى النار دون أن يصيبه أذى[١] ، ويتبقّى عليّ أن أجيء بالفصل الأخير لهذا الجزء من الوصف بأنَ أرتل ـ أو إن استطعت أن أغني ـ تلك العمليّة الرومنطيقية من تعبئة زيته في البراميل ، وحشدها في العنبر حيث يرجع الحوت مرّة أخرى الى الأعماق المألوفة ، منزلقاً دون مستوى السطح كما كان يفعل من قبل ، ولكنه واأسفاه لن يبرز مرّة أخرى ويرسل نفثاته أبداً!

ويؤخذ الزيت وهو ساخن كشراب البنش الساخن ويعبأ في الخزّانات التي يتّسع الواحد منها لستّة براميل ، وبينا تتطوّح السفينة وتتأرجح يمنة ويسرة في البحر عند منتصف الليل تتثنّى الخزّانات الضخمة وتنقلب رأساً على عقب وأحياناً تهرب متزحلقة ـ في خطر الانفجار على ظهر السفينة اللزج ككثير من الأجسام المتدحرجة على السطوح المائلة في البرّ حتّى يتلقّاها أحد الرجال ويوقفها عن تدحرجها ، ومن حول الأطواق تمضي المطارق دقّاً دقّاً مهما يكن عددها إذ كلّ بحّار بحكم الوضع الراهن يصبح صانع براميل .

وعندما تعبّأ آخر قطرة من الزيت ، بعد وقت ، ويفتر كلّ شيء ، تفتح المنافذ الواسعة ، وتكشف أحشاء السفينة وتلقى الخزّانات لتستقر في القاع ـ مستقرّها الأخير ـ

---

(١) إشارة الى ماورد في سفر دانيال عن هؤلاء الثلاثة وكيف رفضوا السجود لتمثال الذهب الذي نصبه نبوخذ نصر ، فأمر بهم الى الأتون فألقوا فيه فخرجوا من النار دون أن تصيبهم بأذى (انظر الأصحاح الرابع من سفر دانيال) .

فإذا تمّ ذلك سدّت المنافذ وأغلقت كأنها صومعة قد بنيت من حولها الأسوار .

ربّما كانت هذه الحادثة في صيد الحيتان من أبرز الحوادث في مهنة التحويت جميعاً ؛ في أحد الأيّام تعجّ الألواح بجدول من الدم والزيت الناضرين ، وعلى الربعة المقدّسة تكوّم كتل ضخمة من رؤوس الحوت دون احترام ، وتستلقي هنا وهناك خزانات ضخمة صدئة كأنها في ساحة مصنع للخمور ، ويصبغ الدخان المتصاعد من معامل التصفية هيكل السفينة بالسناج ، وينتقل البحارة وهم قد تخضّبوا بالدهن والوضر ، وتبدو السفينة وكأنها اللوياثان العظيم نفسه ، بينا العمال يُصْدِرونَ في عملهم طنيناً يصمّ الآذان .

ولكنّك تتلفّت حولك بعد يوم أو يومين وترهف سمعك في السفينة نفسها ، ولولا القوارب ومعامل التصفية التي قد تنبئك بما كان لحلفت جهد يمينك إنّك إنّما وقعت في سفينة تجارية وفيها رانس نظيف البزّة ، مشهّر النظافة . إنّ زيت الحوت الخام ذو قدرة فذّة على التنظيف ولهذا السبب لا يبدو ظهر السفينة ناصعاً مثلما يبدو بعيد مايسمّونه أعمال استخراج الزيت . ثمّ إنهم يصنعون على التوّ من رماد الفضلات الحوتيّة المحترقة ماء رمادٍ قلوياً قوياً ، فإذا بقيت أيّ لزوجة من ظهر الحوت عالقة بالجنب فإنّ ذلك الماء يستأصلها . وتمضي الأيدي نشيطة على جوانب السفينة وهيكلها وتدلق عليها أسجال الماء وتعمل فيها المماسح فتعيدها الى سابق نظافتها ، ويزال السناج بالفرشة عن الحبائل الدنيا . وكلّ الأدوات العديدة التي استعملت تنظّف كذلك تنظيفاً دقيقاً وتودع في مواضعها ، ويفرك غطاء الفوهة الكبرى ثمّ يوضع فوق معامل التصفية وبذلك يستر المراجل تماماً ، ويودع كلّ خزّان بعيداً عن الأنظار ، وكلّ الروافع تلفّ في زوايا خفيّة ، وحين تختّتم هذه المهمّة الحسّاسة بعون من جميع عصبة السفينة مجتمعين وفي وقت واحد ، يتوجّه البحارة الى الاغتسال ويغيّرون ملابسهم من قمّة الرأس حتّى أخمص القدم وأخيراً يتوجّهون الى الدكّة الطهور ناضرين متألّقين كأنهم عرسان برزوا لتوهم في أبهى زيّ وأجمل حلّة .

ثمّ يذرعون الألواح في خيلاء مثنى مثنى وثلاث ثلاث ويتحدّثون في مرح عن القاعات والطنافس والسجاد والقماش الأبيض الناعم ، ويقترحون أن يفرشوا ظهر السفينة بالبسط ، ويرون أنّ القمة لابدّ أن يكون فيها مشاجب ، ويقولون لابأس بشرب الشاي في ضوء القمر على باحة المنارة . من القحّة العارمة أن تلمّح الى هؤلاء البحّارة الذين يعبق بهم المسك عن الزيت والعظم والشحم ، إنهم لايعرفون شيئاً عمّا تلمّح اليه ، هيّا اذهب وهات لنا الفوط والمناشف!

لكنْ تأمّل . في الأعالي هنالك ، عند رؤوس الصواري الثلاثة يقف ثلاثة رجال محملقين

في حدّة لعلّهم يرون مزيداً من الحيتان ، ولو أنهم أمسكوها للوثت هذا الأثاث الخشبي العتيق مرّة أخرى ، وألقت على الأقل بقعة واحدة من الشحم في مكانٍ ما ، أجل . بعد أعمالٍ قاسية لا تفتر ولا يعرف فيها سبات وتستمر كذلك ستّاً وتسعين ساعة دون انقطاع ، وما أكثرما يخطو هؤلاء الملاحون ، من القارب حيث انتفخت أرساغهم من التجذيف على خطّ الصيد طوال اليوم ، منتقلين الى ظهر السفينة ليحملوا السلاسل الضخمة ويرفعوا الدولاب الرافع الثقيل ، ويقطّعوا ويؤربوا ، أجل والعرق ينضح منهم ، والدخان يلفّهم والنيران تلسعهم ، نيران شمس الاستواء وأتون معامل التصفية ، ثمّ يذهبون في أعقاب ذلك كله وينهضون بأنفسهم أخيراً لتنظيف السفينة فيجعلون منها غرفة ناصعة لابقعة فيها ، وما أكثر ما تفزع هؤلاء المساكين ـ وهم يزرّرون بنائق صدائرهم النظيفة ـ صيحة تقول : « ذاك هو ينفث » فيهبّون سراعاً للقاء حوت آخر ويستأنفون العمل المضني ويمضون فيه مرّة أخرى .
أوّاه ياأصدقائي هذا شيء قاتل! ولكن هذه هي الحياة ، إذ مانكاد ، نحن الفانين ، نستخلص بعد الكدّ والجهد من هذا العالم الجسيم زيته الثمين ثمّ ننظّف أنفسنا من أوضاره في صبرٍ مضنٍ ونتعلّم كيف نعيش هنا في هياكل الروح النظيفة ، مانكاد نفعل ذلك حتّى يصيح بنا المنادي : « ذاك هو ينفث! » ـ لقد انبثقت نفثات الشبح ، فإليه نبحر كي نكافح عالماً آخر ، ونتغلغل في الروتين القديم الذي تستدعيه حياة الشباب مرّة أخرى .

آه ياللتناسخ! أواه يافيثاغورس! يامن متّ منذ ألفي سنة في يونان المتألّقة ، متّ فاضلاً حكيماً وديعاً . لقد أبحرت معك الرحلة الأخيرة على طول ساحل بيرو ، وعلّمتك أنا الأحمق ، أنا الغلام الساذج الفجّ ، كيف تفتل حبلاً!

٩٩

الدبلون أو الدينار الاسباني

قبل هذا قصصت عليك كيف تعوّد آخاب أن يذرع الربعة خلف الدقل الأعظم ، مستديراً استدارة منتظمة عند كلّ طرف من الطرفين : عند صندوق الابرة المغناطيسية والصاري الرئيس ، ولكن في غمار الأشياء الأخرى التي تستدعي أن أسردها لم أقل لك كيف تعوّد في بعض تلك التمشّيات ، حين يكون أشدّ شيء استغراقاً في حاله ، أن يتوقّف عند كلّ موقع من الموقعين بدوره ، ويشخص هنالك محدّقاً في ما يعرض لعينيه تحديقاً غريباً ، وحين كان يقف أمام صندوق الإبرة ، وقد حدّد طرفه في الإبرة ذات الرأس الدقيق في البوصلة ، كانت نظرته تنطلق كالسهم مع الحدّة الحادّة التي ينطوي عليها هدفه ، فإذا استأنف سيره توقّف ثانية أمام الصاري الرئيس ، وركّز النظرة المحكمة على القطعة الذهبية المثبّتة هناك ، وهو مايزال يحمل مظهر التصميم النافذ إلاّ أنه يسوطه توقان وحشي إن لم نقل رجاء آمل .

وحين تحوّل ذات صباح ليمرّ بالدبلون «الدينار الاسباني» بدا وكأنه مجذوب انجذاباً طارئاً الى الأشكال والنقوش الغريبة المطبوعة عليه كإنّما هو قد بدأ لأوّل مرّة يؤول لنفسه ، على نحوٍ ملتاث مجنون ، المغزى الذي قد يكمن فيها . وفي الأشياء كلّها مغزى كمين وإلاّ لكانت جميع الأشياء ذات قيمة هينة ، ولكان العالم المستدير نفسه لايعدو أن يكون صفراً أجوف ، لاينفع إلاّ ليباع بالجملة ، كما تباع التلال حول بوسطن ، ليملأ أرضاً بوراً في نهر المجرة .

كان هذا الدينار الاسباني من الذهب البكر الخالص اقتطع من جوف التلال الضخمة حيث تجري مياه كثير من الأنهار ـ كنهر بقطولس[١] ـ شرقاً وغرباً على رمال حافلة بالتبر ،

(١) هذا النهر ذكره هيرودوت وقال إنه يحمل معه التبر في ولاية ليديا ويصب في نهر هرمس . وأصبح النهر ذهباً خالصاً ـ في زعم الأسطورة ـ حين استحمّ فيه ميداس ، وقيل إن ثروة قارون جاءت منه .

وقد سمّر وسط كل ضرب من صدأ المسامير الحديدية وزنجارة البراغي النحاسية ، إلاّ أنه ظلّ يحتفظ بلألائه الكيتوي لأنه كان نائياً عن أن يمسّ أو أن يدنّس بأي قذر أو نجاسة . وقد وضع بين أشدّ الملاحين فظاظة ، وكانت تمرّ به كل ساعة أخشن الأيدي ، وخلال الليالي الطوال كانت تغلّفه الظلمات الكثيفة التي قد تحجب كلّ تسلّل وتلصص ، ومع ذلك فإنّ كلّ شروق كان يشهده حيث تركته شمس الأمس عند الغروب . ذلك أنه ميّز من أجل غاية محدّدة تبعث الرهبة ، ومن أجلها «كرّس» وجوده . ومهما يكن البحّارة زرافات ووحداناً مستهترين في نظرتهم فإنهم أولوه القداسة والاحترام إذ رأوا فيه طلّسم الحوت الأبيض ، وكانوا أحياناً يتحدّثون عنه في ليالي الحراسة المضنية ويتساءلون في دهشة من نصيب من سيكون في آخر الأمر وهل يعيش من يناله لينفقه أبداً ؟

هذه العملة الذهبية الرفيعة من عملة امريكا الجنوبية إنّما هي كالميداليات التي تمثّل تدويرة الشمس ، والقطع الاستوائية التي تتّخذ للذكريات الهامة ، فيها أشجار الكاكاو وحيوانات الألباكا والبراكين ، قد طبعت عليها في وفرة مترفة أقراص الشمس والنجوم ، فيها مناظر الكسوف والقرون رمز الوفرة ، وأعلام كثيرة الألوان متموّجة(١) ، حتّى كأنّما الذهب الغالي يكاد يستمد قيمة زائدة وألقاً إضافياً بمروره خلال دار السكّة العجيبة ، التي تحمل شاعرية اسبانية .

واتّفق أن كان الدينار الاسباني مثلاً على وفرة هذه الأمور فيه فعلى حافته المستديرة كتبت هذه الكلمات «جمهورية اكوادور : كيتو» إذن فهذا الدينار المتلألىء قد جاء من بلد مغروس في نصف العالم دون خط الاستواء ، وباسمه سمّي [لأنّ أكوادور تعني الاستواء] ، وسكّ في المنطقة الوسطى فوق جبال الأنديز في ذلك المناخ السرمد الذي لا يعرف خريفاً ، وفي داخل هذه الجملة الدائرية ترى شبهاً بثلاث من قمم الأنديز ، إحداها يتصاعد منها لهب ، وعلى الأخرى برج ، وعلى الثالثة ديك يصيح . ويستدير فوق الجميع قوس يمثل قطاعاً من منطقة البروج مجزّأة الأقسام ، وقد أعلم كلّ برج برموزه ، والشمس - وهي حجر الزاوية في المنظر - تهمّ أن تحلّ النقطة الاستوائية في برج الميزان .

كان آخاب يقف أمام هذه القطعة النقدية الاستوائية ، دون أن تمضي وقفته غير ملحوظة من الآخرين :

«هناك دوماً شيء عجرفي في قمم الجبال والأبراج وفي سائر الأشياء الفخيمة الرفيعة ،

---

(١) كلّ رمز يشير الى بلد : أشجار الكاكاو (بوليفيا) ، الألباكا (بوليفيا وبيرو) ، البراكين (جنوب بيرو وتشيلي) ، أقراص الشمس (الأرجنتين) ، النجوم (بوليفيا والأكوادور) ، الكسوف (البرازيل) ، القرون (بوليفيا وبيرو) ، الأعلام (بيرو) .

تأمّل هذا ، هذه ثلاث قمم مستكبرة كأنها الشيطان ، ذلك البرج الراسخ ، ذلك هو آخاب ، وذلك البركان الثائر ، وهو آخاب ، وذلك الديك الفائز الشجاع الجسور ، ذلك هو آخاب أيضاً ، كلّ الثلاثة آخاب ، وهذه القطعة الذهبية المستديرة إنّما هي صورة الكرة التي هي أكثر استدارة منها تلك الكرة التي تشبه مرآة الساحر في أنها تحكي لكل امرئ على حدة صورة نفسه العجيبة ، إنّ من سألوا العالم أن يحلّ لهم سرّ الآلام الكبرى خرجوا بقليل من جدوى ، فالعالم يعجز عن أن يفسّر نفسه ، تصوّر هذه الشمس المحفورة على قطعة نقد تلبس وجهاً أحمر ، تأمّلها ، أجل ، إنها تدخل برج العواصف ، تدخل المنطقة الاستوائية ، وقبل ستة أشهر كانت تدور خارجة من منطقة أخرى استوائية في برج الحمل . من عاصفة الى عاصفة! ليكن الحال كذلك . من اللائق أن يعيش الإنسان في الآلام ويعاني عند الموت سكراته مادام يولد من بين آلام المخاض! ليكن الأمر كذلك! هذه مادة قوية يفعل فيها الحزن والأسى فعله ، ليكن الأمر ـ اذن ـ كذلك! » .

وتمتم استاربك لنفسه وهو يستند الى حافة السفينة ، « لاأظن أصابع حورية قد ضغطت على هذه القطعة الذهبية ، وإنّما مخالب الشيطان قد تركت عليها طوابعها مذ أمس . يبد أنّ الرجل العجوز يقرأ كتابة بيلشاصر الرهيبة[1] ، لم أتأمّل هذه القطعة النقدية معايناً ، هاهو قد هبط الى أسفل فلأقرأ ماعليها : وادٍ معتّم بين ثلاث قمم جبّارة تحتضن السماء كأنها الأقانيم الثلاثة متمثّلة في رمز أرضي واهٍ ، في وادي الموت هذا يطوّقنا الله من كلّ ناحية ، وعلى جميع أحزاننا ماتزال شمس الحق تشرق هادياً ورجاءً . فإذا أرخينا أبصارنا الى أسفل رأينا الوادي المعتّم يبرز لنا ترابه المتعفّن ، فإذا رفعناها الى أعلى واجهت الشمس نظراتنا في منتصف المسافة ، لتشجّعنا وتهزّ أريحيتنا ، لكن واهاً للشمس العظمى فإنها غير ثابتة في مستقرّها ولو أننا في منتصف الليل خطر لنا أن نسترق عزاء عذباً من لدنها لطال ترقّبنا دون جدوى! هذه القطعة النقدية تتحدّث بحكمة ولطف وصدق ولكنها تحدّثني في أسىً ، سأغادرها لئلا تهزّني الحقيقة فتكشف زيفي » .

وناجى اسطب نفسه عند معامل التصفية قائلاً : « ذلك هو المغولي العجوز ، كان يتأمّل القطعة الذهبية ، وها هو استاربك ينصرف أيضاً عنها وكلاهما يحمل وجهاً أستطيع أن أقول فيه إنه قد يكون ممطوط « البوز » مطّاً لا يتعدّى تسع قامات . وكلّ ذلك من النظر الى قطعة من ذهب ، لو كانت لديّ وأنا في « تلة الزنوج » أو في « ثنية كورلير » لما نظرت اليها

---

(١) هي : « منا منا تقيل وفرسين » وهذا تفسير الكلام : منا : احصى الله ملكوتك وانهاه ، تقيل : وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً ، فرسين : قسمت مملكتك وأعطيت لمادي وفارس (دانيال ٥ : ٢٥ـ٢٨) .

طويلاً قبل أن أنفقها . أف! في رأيي العاجز الضعيف أعدُ هذا شيئاً شاذاً ، لقد رأيت في رحلاتي دنانير ذهبية من قبل : دنانير اسبانيا القديمة ، ودنانير بيرو ، ودنانير شيلي ، ودنانير بوليفيا ودنانير بوبايان(١) ورأيت عدداً وفيراً من العملة البرتغالية الذهبية والعملة الاسبانية القديمة والعملة البرتغالية الذهبية التي تسمّى «جو» وأنصاف «الجو» وأرباعه . فماذا في هذا الدبلون الاستوائي ، ماذا فيه ممّا يعجب الرائين الى درجة أن يسلب ألبابهم ؟ ذلك الشيء هو الذي يسمّيه بودتش(٢) في «موجزه» باسم منطقة البروج ، والتقويم في القمرة يسمّيه كذلك أيضاً ، سأجيء بالتقويم وسأعمل فيه يدي لأستخرج معنى من هذه الإلتواءات الغريبة ها هنا مع «أجندة» مساشوست ، مثلما سمعتهم يقولون إنّ الشياطين قد تستخرج بحساب دابُلَ . هيّا نتبصّر ما هنالك! إشارات وعجائب ، والشمس ، الشمس بينها دوماً .ها . ها . ها . ها هي هنا ـ ها هي ذي جميعاً ، جميعاً قائمة : الحمل والثور والجوزاء ، هذه هي الجوزاء نفسها . حسن . والشمس تدور بينها ، أجل ها هي ذي على القطعة النقدية تعبر أو تهمّ بعبور العتبة القائمة بين منزلتين من اثنتي عشرة منزلة قائمة في حلقة واحدة ، أيها الكتاب! إنّك لتكذب ، الحق أيّتها الكتب أنه يجب عليك أن تعرفي حدّك ، أنت تعطيننا الكلمات والحقائق العارية ولكنّا نحن نملؤها بالأفكار . الى هنا تبلغ تجربتي المتواضعة فيما يتّصل بأجندة مساشوست وزيج بودتش وحساب دابل . إشارات وعجائب ، أليس كذلك ؟ ما أتعس أن لايكون في الإشارات شيء عجيب ، وفي العجائب سرّ هام! لابدّ من مفتاح للسرّ قائم في مكانٍ ما . مهلاً ، صه! وحقّ جوبتر لقد وجدته ، انظر أيها الدينار الإسباني إنّ منطقة بروجك هي حياة الإنسان في فصل واحد مستدير وسأقرأ هذا الفصل من الكتاب توّاً . تعال أيها التقويم اليّ ، لنبدأ . ها هو ذا الحمل ، كلب داعر يلدنا . ثمّ الثور ، يلزّنا بقرنيه أوّل ما ينطح ، ثمّ الجوزاء ، التوأمان من فضيلة ورذيلة ، نحاول أن نبلغ الفضيلة فإذا السرطان يعترض ويجرّنا الى الخلف ، وهنا ـ وقد تحوّل عن الفضيلة ـ أسد يزأر مستلقياً في الطريق ـ يعض عضّات منكرة ويلطم ، ماكراً ، بمخلبه ، فننجو من شرّه وننادي السنبلة البكر العذراء أيّ أوّل حب لنا ، ونتزوّج ونظنّ أننا سنسعد وأيّ سعادة! وفجأة يبرز الميزان ، فيزن السعادة ، فيجدها خفيفة ناقصة ، فنستشعر الأسف لذلك ، وحين يبلغ بنا الأسف الغاية ، ربّاه! ننطّ فجأة عندما تلدغنا عقرب في القفا ، فنأخذ في معالجة الجرح ، وإذا السهام من كلّ صوب تمطرنا ، ربّ «القوس» يتسلّى ، وننزع السهام ،

(١) بوبّايان : مدينة في كولومبيا .

(٢) هو الرياضي الامريكي ناثانيل بودتش (١٧٧٣ـ ١٨٣٨) نشر موجزاً في الملاحة عام ١٨٠٢ .

وننتحي جانباً فإذا بالجدي يبدو ، محدّداً روقيه وينقضّ علينا نطحاً وطعناً حتّى ينكسنا رأساً على عقب ، وإذا الدلو يسكب طوفانه الغامر ويغرقنا ، فننام كي نتمكّن من التدحرج مع «الحوت» . في السماء العليا موعظة مكتوبة ، تخترقها الشمس كلّ عام وتخرج منها حيّة مستبشرة ، في الأعالي هناك تدور مرحة طروباً خلال الجهد والإضطراب ، وفي الأداني يفعل اسطب مثلها ، «طروب» تلك هي الكلمة المعبّرة ، وداعاً أيها الدينار! لكن مهلاً ها هو «الدعامة الكبرى» يجيء ، لأتسلّل حول معامل التصفية وأتسمّع مايقول . ها هو ذا أمامه ، سيتفوّه بشيء على التوّ . كذا ، كذا ، ها هو ذا يبدأ :

ـ «لا أرى ها هنا إلاّ شيئاً مدوّراً من ذهب ، ومن اصطاد حوتاً معيّناً أصبح هذا الشيء المدوّر من نصيبه ، فلِمَ قام من قبلي بكل هذا التأمّل والتحديق ؟ نعم إنه دينار قيمته ستّة عشر دولاراً ، هذا صحيح ، والسيجار يكلّف سنتين اثنين ، أي أنه يكفي لشراء تسعمائة وستّين سيجاراً ، أنا لا أحبّ الغلايين القذرة التي يحبّها اسطب وإنّما أحبّ السيجار وها لدي منه تسعمائة وستّون ، وها هو فلاسك يصعد الى أعلى ليرصدها .

« هل أدعو هذا حكمة أو حماقة ، إن كانت حكمة فإنّ لها سمة من حماقة وإن كانت حماقة حقّاً فإنّ لها بعض سمة من حكمة . ولكن على رسلك ، ها هو ذا الشيخ ابن جزيرة مان يظهر ـ ذلك الذي كان سائقاً لعربات الجنائز أعني أنه لابدّ كان كذلك قبل أن يجتذبه البحر . ها هو ذا يتوجّه نحو الدينار الذهبي . هالو! وها هو ذا يدور حول الجهة الثانية من الصاري ، ففي ذلك الجانب قد سمّرت حدوة حصان وها هو ذا يعود ثانية . ماذا يعني ذلك ؟ صه! إنه يتمتم ـ صوت كأنه منبعث من طاحونة قهوة عتيقة بالية حدّد اذنيك وتسمع!» .

ـ «إن كان الحوت الأبيض سيظهر للعيان فلا بدّ أن يكون ذلك في شهر ويوم حين تحلّ الشمس في أحد هذه الأبراج . لقد درست الأبراج وعرفت دلالاتها ، لقد علمتها قبل أربعين عاماً مضت علمتنيها الساحرة العجوز في كوبنهاجن . في أيّ برج ستحلّ الشمس ياترى ؟ فيما يشبه حذاء الحصان لأنها هنالك في مقابل الدينار الذهبي ؟ وماهي علامة حذاء الحصان ؟ الأسد هو برج حدوة الحصان ـ الأسد الفرّاس ذو الزئير . سفينتي يا سفينتي العتيقة! إنّ رأسي العجوز ليهتزّ حين يفكّر فيك» .

«ها هنا الآن تفسير جديد لنص واحد لايتغير ، عالم واحد يحتوي أصنافاً متنوّعة من الناس ، أليس كذلك ؟ حسّ مشي! ها هو ذا كويكوج . موشوم كلّه ، كأنما هو نفس أبراج الفلك ترى ماذا سيقول هذا المتوحّش ؟ إنه لعمري يقارن ماهو مكتوب على جسمه بما هو مكتوب على العملة ، إنه ينظر الى عظم فخذه ، يظنّ أن الشمس في الفخذ أو في عضلة

الساق أو في الأحشاء ، فيما أظنّ كما تتحدّث العجائز عن علم الفلك في الريف النائي . وحقّ جوبيتر لقد وجد شيئاً لصق فخذه أظنّه برج القوس ، كلا! إنه لايدري كيف يفهم ذلك الدينار ، يحسبه زراً قديماً سقط من سروال بعض الملوك . ولكن تنحّى مرّة أخرى ، ها هو ذا فيض الله ذلك الشبح الشيطان يتقدّم ، ذنبه مطوي مخفي عن الأنظار كالعادة ، والدُسَر في أصابع نعله كالعادة ، ترى ماذا تعبّر نظرته تلك ؟ آه إنه يشير للبرج وينحني له . على قطعة النقد شمس صدّقني ياعابد النار! أف! زاد العدد ، ها هو ذا بيب يحضر ـ يا للغلام المسكين! ليته مات أو متّ أنا ، منظره لديّ لايخلو من رعب ، لقد راقب أيضاً جميع الذين حاولوا قراءة هذا النقد ـ وأنا منهم ـ فانظر اليه ، فقد جاء يقرأ بوجهه الأبله الذي لا ينتمي الى الأرض ، تنحَّ جانباً مرة أخرى وتسمع ما يقول . أصخ! » .

ـ « انظر ، تنظر ، ينظر ، ننظر ، تنظرون ، ينظرون » .

ـ « وحق روحي أنه كان يدرس كتاب الصرف[1] ! كان يحسن ذهنه ، المسكين! صه . ترى ماذا يقول الآن! » .

ـ « انظر ـ تنظر ـ ينظر ـ ننظر ـ تنظرون ، ينظرون » .

ـ « أحسنت والله فإنّك حفظتها غيباً . صه ، وأصخ له مرّة أخرى » .

ـ « انظر ـ تنظر ـ ينظر ـ ننظر ـ تنظرون ، ينظرون » .

« هذا شيء مضحك! » .

ـ « وأنا وأنت وهو ونحن وأنتم وهم جميعاً خفافيش ، وأنا غراب وخصوصاً عندما أقف فوق هذا الجذع السندياني هنالك ، غاق! غاق! غاق! غاق! غاق! غاق! ألست غراباً ؟ وأين « الزوال »[2] ؟ ذلك هو عظمتان قد حشرتا في رجلي سروال قديم وعظمتان أخريان قد دسّتا في كمّي صدارة عتيقة » .

ـ « أتراه يعنيني ؟ هذا إطراء! ياللفتى المسكين! لقد أستطيع أشنق نفسي على أيّ حال ، سأبعد من جوار بيب في اللحظة الراهنة وأستطيع أن أتحمّل بقيّة المعلّقين لأنّ لديهم ذكاءً مألوفاً أمّا هو فإنّ ذكاءه من النوع الذي لا يبلغه عقلي . كذا كذا ، اتركه وهو يتمتم » .

ـ « ها هي سرة السفينة ، أعني هذا الدينار ، وكلّهم متحمّسون لكي ينزعوه ، ولكنّك

---

(١) في الأصل : Murray's Grammar وهو لندلي مري (١٧٤٥ ـ ١٨٢٦) كويكري من بنسلفانيا ومؤلف « قواعد اللغة الانجليزية » وكان شائع الإستعمال في المدارس الاميركية خلال النصف الأوّل من القرن التاسع عشر .

(٢) Scare- crow ، شبح ينصب في المزارع لتخويف الطير من غراب وغيره .

إذا نزعت سرتك فماذا تكون العاقبة[1] ؟ غير إنه إن بقي هنالك كان أيضاً منظراً بشعاً لأنك حين تسمّر بالصاري شيئاً فقد جعلت الأمور تبدو مستيئسة ها! ها! ياآخاب العجوز! الحوت الأبيض! سيسمّرك! فهذه شجرة سرو . والدي في بلاد تولاند قطع ذات مرّة شجرة سرو ووجد فيها خاتماً فضّياً ، لعلّه خاتم زواج أحد الزنوج ، ولكن كيف بلغ الخاتم ذلك المكان ؟ وكذلك سيقولون يوم الحشر حين يجيئون ليأخذوا هذا الصاري العتيق ويجدون ديناراً ذهبياً قد عشش فيه وحواليه محار قد اندسّ في اللحاء المشعث ، آه يا للذهب! الذهب الغالي الثمين! البخيل الغرّ سيضيفك توّاً الى مكنوزاته . صمتاً! صمتاً إنّ الله يتخلّل العوالم ناهباً سالباً ، طباخ ياطباخ ، اطبخنا ياجنّي هاي هاي جني جني! وأسرع بصنع الكعكة! » .

(١) قارن هذا بما جاء في سفر أيوب ٤٠ : ١٦ « هوذا بهيموث... هاهي قوّته في متنيه ، وشدّته في عضل بطنه » .

١٠٠

ساق وذراع. الباقوطة النانتوكتية تلتقي بصومويئيل اندربي اللندنية

- «أنت أيّتها السفينة هناك! هل رأيت الحوت الأبيض ؟» .

كذلك صرخ اخاب وهو يهتف مرّة أخرى بسفينة ترفع علماً انجليزياً ، كان الرجل العجوز يقف ، وقد جعل البوق في فمه ، عند قاربه المرفوع وقد انكشفت رجله العاجية للقبطان الأجنبي الذي كان متّكئاً بغير مبالاة عند مقدم قاربه ، كان رجلاً غامق البشرة بديناً دمث الأخلاق جميل الطلعة يبلغ الستّين أو يناهزها ، وقد ارتدى سترة واسعة تدلّت عليه وقد وشّحت بزخارف من قماش البحارة الأزرق وأحد أكمامها خالٍ يتدلّى وراءه كأنه كم فضفاض مزخرف من عباءة يلبسها .

- «هل رأيت الحوت الأبيض ؟» .

- «أترى هذه ؟» وسحبها من بين الثنايا التي تخفيها وإذا بذراع بيضاء من عظم حوت العنبر ينتهي طرفها برأس خشبي يشبه الدقماق .

- فصاح اخاب ، وقد استبدّ به الحرص اللهيف ، وقذف بالمجاذيف القريبة منه : أعدّوا قاربي! قرّبوا لإنزاله!» .

وفي أقلّ من دقيقة - ودون أن يترك قاربه الصغير - كان هو وبحّارته قد نزلوا الى الماء وأصبحوا تواً على محاذاة السفينة الغريبة . لكن صعوبة غريبة عرضت عندئذ ، فقد نسي آخاب في حومة انفعاله في تلك اللحظة أنه منذ فقد رجله لم يصعد الى سفينة في البحر إلا سفينته ، وإنّ ذلك كان دائماً يتمّ بوسيلة آلية فذّة ميسّرة مقصورة على الباقوطة ، وإنّ ذلك شيء لاتتوفّر له الحبال والوسائل في أية سفينة أخرى في مدى لحظة . وليس من الهيّن الميسّر لكل إنسان - إلاّ أولئك الذين مارسوا الأمر كلّ ساعة أو كادوا من أمثال الحوّاتين - أن يتسلّقوا جانب سفينة صاعدين اليها من قارب في عرض البحر ، لأنّ الأمواج الهائلة ترفع القارب الى

أعلى نحو هيكل السفينة ثمّ تهوي بـه على التوالي الى أن يبلغ منتصف المسافة من الكلزون . وإذ كان آخاب قد حرم إحدى رجليه وكانت السفينة الأجنبية ـ طبعاً ـ غير مزوّدة أبداً بالوسيلة الرفيقة التي تعوّدها ، فإنه وجد نفسه وقد تحوّل في زراية الى رجل عاجز من رجال البرّ ، يرمق العلو المتقلّب النائي في يأس ، ويكاد لا يدركه الرجاء أنه بالغه .

لعلّني ألمحت من قبل الى أنّ كلّ حادثة صغيرة مثيرة ألمّت بآخاب وكانت ناجمة ـ بطريقة غير مباشرة ـ عن الآفة المحدودة التي أصابته فإنها كانت دوماً تستفزّه أو تأخذ بخناقه ، وممّا زاده استفزازاً في الحادث الراهن أنه رأى ضابطي السفينة الغريبة وقد انحنيا فوق جانب السفينة عند سلّم عمودي مسمّر هنالك وهما يطوّحان نحوه زوجين من الحبال الجانبية التي زخرفت بمهارة وحسن ذوق ، إذ أنهما بادئ بدء لم يبد أنهما يتصوّران أنّ رجلاً ذا رجل واحدة لابدّ أن يكون مقعداً بحيث يستعمل الدرابزون البحري الذي لديهما .

إلا أن هذا الخرق المحرج لم يستمر إلا لحظة إذ لحظ القبطان الغريب في لمحة كيف حال الأمور فصاح : «فهمت! فهمت! توقّفوا عن الرفع هنالك! اقفزوا أيها الغلمان وطوّحوا مرفع القطع» .

ومن حسن الحظ أنهم كانوا قبل يوم أو يومين قدأجنبوا حوتاً الى سفينتهم فكانت المرافع العظمى ماتزال منصوبة ، وكانت كلابة الشحم الجسيمة المتقوّسة ماتزال مربوطة الى طرفها وقد أصبحت نظيفة جافة ، فأنزلوها نحو آخاب في سرعة ، ففهم على التو ماهنالك ، ودسّ فخذه الوحيدة في قوس الكلابة . وكان ذلك كالجلوس في كلابة المرساة أو في مشعب شجرة تفاح ثمّ أعطى الأمر بالسحب ووقف ثابتاً مستمسكاً ، وفي الوقت نفسه أعان على رفع ثقله بأن جرّ ـ واضعاً يداً فوق يد ـ أحد الأجزاء الصاعدة من المرفع وعلى التوّ تطوّح بعناية الى داخل الهيكل العالي وحطّ بلطف على قمة المسحاب . وتقدّم اليه القبطان الآخر ماداً ذراعه العاجية مرحّباً في انفتاح ، فقدم آخاب رجله العاجية وسايف بها الذراع العاجية (كأنهما شفرتا سمكتين سيفيتين) وصاح بطريقته التي تشبه طريقة حيوان الفظ : «أجل! أجل لتتصافح العظمتان! ذراع ورجل ـ ذراع لا يمكن لها أن تنثني ورجل يا عزيزي لا يمكن لها أن تجري ـ أين رأيت الحوت الأبيض ؟ ـ منذ متى ؟» .

فقال الرجل الإنجليزي مشيراً بذراعه العاجية نحو المشرق ناظراًعلى طولها نظرة كئيبة كأنها تلسكوب : «الحوت الأبيض ـ هنالك رأيته ، على خط الصيد في الموسم الفائت» .

وسأله آخاب وهو ينزلق نازلاً من رأس المسحاب متكئاً على كتف الإنجليزي عند ذلك : «وهو الذي انتزع تلك الذراع . أليس كذلك ؟» .

- «أجل كان هو على الأقل سبباً في انتزاعها . أكذلك هو الأمر بالنسبة لتلك الرجل أيضاً ؟ » .

- «أسرد عليَ قصّتك . كيف حدث ذلك ؟ » .

فقال الإنجليزي : « كانت أوّل مرّة في حياتي أطوف فيها على خطّ الصيد وكنت حينئذ أجهل كلّ شيء من أمر الحوت الأبيض . وذات يوم أنزلنا قواربنا لملاحقة صوارٍ من حيتان يبلغ أربعة أو خمسة عدداً ، وعلق قاربي بأحدها . كان فرس رهان مدرّباً ذهب يدور ويدور حتّى أنّ بحّارة قاربي لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً سوى أن يجلسوا متحلّقين ، وذلك أن يجعل كلّ منهم مؤخّرته على الحافة الخارجية . وعلى التوّ انبثق من قاع البحر حوت عظيم منقضّ ذو رأس وحردبة في بياض اللبن وكأنّما كان جسمه كلّه مغطّى بالغضون والمناسر » .

فصاح آخاب وقد أطلق فجأة أنفاسه المحبوسة : « ذلك هو! ذلك هو! » .

- «وعلى مقربة من زعنفته اليمنى مزارق مغروسة » .

- «أجل ، أجل! هي مزارقي ، هي الحدائد التي قذفته بها » - كذلك صرخ آخاب في زهو - « ولكن خذ في حديثك! » .

فقال الإنجليزي في فكاهة طيّبة : « لكن أعطني الفرصة لأكمل حديثي . أقول : ذلك الجدّ المعمّر ذو الرأس الأبيض والحردبّة البيضاء كان يجري وقد تغشاه الزبد بين القطيع ، وأخذ ينهش الحبل المتين بحردٍ حارد » .

- «أجل! فهمت يريد أن يفصمه ، لينجّي الحوت العالق به - حيلة قديمة من حيله - فأنا أعرفه حقّ المعرفة » .

فمضى القبطان ذو الذراع الواحدة يقول : « كيف حدث ذلك ؟ ذلك شيء لاأدريه بالضبط . ولكنه في عضّه للحبل أوهاه بأنيابه وقد أمسكه بها حيناً من الزمن ، غير أنّا لم ندرك ذلك في حينه ، فحين جررنا الحبل من بعد ، انتفضنا واثبين فجأة على حردبّته بدلاً من حردبة الحوت الآخر الذي انطلق هارباً مع مهبّ الريح يخبط في عشواء . ولمّا استبنت الأمر على حقيقته ، وأي حوت جسيم فخيم هو - أضخم مارأيته من الحيتان وأفخمها - طوال حياتي - ياسيّدي ، عزمت على أسره رغم الغضب الهائج الذي كان يبدو فيه ، وإذ ظننت أنّ الحبل المطوّح قد ينفلت أو أنّ السنّ العالقة به قد تتراجع (إذ كان لديّ عصبة من مردة الملاحين في القارب كي يجرّوا حبل التحويت) أقول : عندما رأيت ذلك كله قفزت في قارب رأس الضباط - أعني السيّد مونتتوب (بهذه المناسبة أعرّف أحدكما للآخر : يا قبطان - هذا هو مونتتوب يا منتتوب ، هذا هو القبطان) ، كنت أقول : قفزت في قارب مونتتوب وهو - طال

عمرك ـ قد كان لصيق قاربي جنباً الى جنب عندئذٍ واختطفت أوّل رمح عرض وقذفت به ذلك الجدّ الهرم . ولكنّ ربّاه ، حنانيك ياسيدي ـ وحقّ القلوب والأرواح الحيّة ، أيها الرجل ـ في اللحظة التالية ، على التوّ وجدتني أعمى كأنني خفّاش ـ قد جحظت عيناي معاً ـ قد غشاهما وأطفأ النور منهما زبد أسود ـ ومن خلال الزبد ينتصب ذنب الحوت عمودياً في الفضاء كأنه منارة من رخام . لاجدوى في التراجع حينئذٍ ، ولكنّي بينما كنت أتلمّس في رائعة النهار وكأنّما فوقي شمس تغشي العيون ، لها لألاء كلألاء تاج مرصّع بالجواهر ، أقول : بينما كنت أتلمّس الحديدة الثانية لأقذفه بها ، هبط الذنب كأنه برج ليما ، شاقّاً قاربي نصفين ، تاركاً كلّ نصف منهما شظايا ، وبعد أن هبطت شطيرتا الذنب تبعتهما الحردبة البيضاء سارية من خلال الحطام كأنها تجري مكسوّة بطبقة من الشظايا ، وانتفضناجميعاً متطوّحين ومن أجل أن أتّقي ضرباته المريعة ، قبضت بكلتا يديّ على قناة الرمح المنغرس فيه وتعلّقت به لحظة كأنني سمكة من سمك اليمصوص ، إلا أنّ الموجات المتدحرجة دفعتني بعيداً وفي اللحظة نفسها مضى الحوت مطلقاً كبيراً الى الأمام ثمّ هبط كأنه التماعة برق ، وإذ بثعلبة ذلك الزجّ الثاني الملعون تنجذب منحنية على مقربة منّي فتعلق بي هنا (وعندئذٍ أمسك يده أدنى قليلاً من الكتف) ـ نعم ، علقت بي في هذا المكان بالضبط ، حتّى لتصوّرت أنّها حملتني هابطة الى نيران الجحيم ، وفجأة ، والحمد لله الرحيم شقّت الثعلبة طريقها على طول اللحم ـ على امتداد ذراعي كلّها ـ وانطلقت على مقربة من رسغي ، وإذ بي أصعد عائماً ـ وذلك السيّد هناك سيحكي لك بقيّة القصّة (هذه سانحة للتعارف ، أيها القبطان هذا هو الطبيب بنجر جرّاح السفينة ، بنجر أيّها الفتى هذا هو القبطان) والآن ، بنجر أيها الفتى أكمل مايخصّك من غزل في هذا النول» .

كان الطبيب الذي أشار اليه القبطان دون كلفة يقف طوال الوقت على مقربة منهم ، وليس فيه من المميزات الواضحة مايكشف عن منزلته على ظهر السفينة ، كان وجهه بالغ الاستدارة إلاّ أنه كان وجهاً رزيناً ، وكان يلبس صدارة أو قميصاً صوفياً حائل اللون وسروالاً مرقّعاً ، وكان يقسم اللحظ بين مخرز يحمله في إحدى يديه وبين علبة دواء يضعها في الأخرى ، مرسلاً بين الحين والحين نظرة فاحصة الى العضوين العاجيين لدى القبطانين المصابين ، ولكن عندما عرّفه رئيسه الى آخاب ، انحنى في أدب ، ومضى يؤدّي مايأمره به قبطانه دون تردّد .

بدأ الجرّاح يقول : «كان جرحاً مروّعاً خبيثاً ، ونصحت القبطان بومر أن يبحر بصومي العتيقة ـ» .

فقاطعه القبطان ذو اليد الواحدة مخاطباً آخاب قائلاً : «صومي ترخيم صومونيل ، وسفينتي اسمها صومونيل اندربي» .

ـ «أن يبحر بصومي العتيقة بعيداً نحو الشمال كي يخرج من هذا الجوّ الحار المتوهّج على خطّ الصيد ، ففعل ، ولكن ذلك لم يجده نفعاً ـ أنفدت كلّ طاقتي ، سهرت الى جانبه الليالي ، كنت شديد القسوة في أمر الحمية ـ»

فرنّ صوت المريض نفسه يقول : «آه : شديد القسوة!» ثمّ غيّر صوته فجأة وقال : «كان يشرب شراب الروم الساخن معي كلّ ليلة حتّى يعجز عن أين يرى أين يضع الأربطة ثمّ يرسلني الى السرير حوالي الثالثة صباحاً وأنا أتعتع سكراً ، آه أيّتها النجوم لقد كان يسهر معي حقّاً وكان شديد القسوة في أمر الحمية . أوه إنّ الدكتور بنجر رقيب لايغفل وهو قاسٍ في شؤون الحمية! (بنجر أيها الكلب جلجل بالضحك! مالك لاتفعل ؟ أنت تعلم إنّك عيّار ظريف أثير) امض في حديثك أيها الفتى إنّي لأوثر أن أقتل بيدك على أن أظلّ حيّاً بيد أي امرىء سواك» .

فقال بنجر الرصين ذو المظهر الورع : «إنّ قبطاني ، كما لعلّك لحظت قبل هذا ياسيدي المحترم ، ذو ميل لأن يكون ذا دعابة أحياناً ، فهو ينسج لنا من خياله أشياء كثيرة بارعة من هذا القبيل ، ولكن اسمح لي أن أقول ـ en passant كما يقول الفرنسيّون ـ بأنني أنا نفسي أعني أنا جاك بنجر ، نسل القساوسة المبجلين ـ أنا ممّن يحرّم الخمر على نفسه فلا يقربها ، أعني أنني لاأشرب ـ» .

فصاح القبطان «لايشرب الماء ، إنه لايشربه أبداً ، شرب الماء يلقيه في نوبات ، الماء القراح يبعث فيه مرض الفزع من الماء ، لكن امضِ ـ امضِ في حديثك عن قصة الذراع» .

فقال الجرّاح في برود : «هذا ماكنت أريد أن أحكيه . كنت أريد أن أنوّه ياسيدي ـ قبل أن يقاطعني القبطان بومر بدعاباته ـ بأنه رغم محاولاتي المخلصة الشديدة ظلّ الجرح يتطوّر من سيّء الى أسوأ ، والحق ياسيدي أنه كان جرحاً فاغراً بشعاً كأقبح مارآه جرّاح في حياته ، يزيد طوله على قدمين وعدّة بوصات فقد قسته بحبل الرصاص ودون تطويل أقول إنه أسود ، كنت أعرف العاقبة فجاءت كما قدّرتها ، ولكن لم تكن لي يد في وضع تلك الذراع العاجية هنالك فذلك مخالف لكلّ قاعدة» ـ وأشار اليها بالمخرز الذي يحمله ـ «ذلك من صنع القبطان نفسه لامن صنعي ، فقد أمر النجار أن يصنعها ، وعند طرفها وضع تلك المطرقة لكي ينثر بها دماغ من يريد ـ فيما أظنّ ـ كما فعل ذات مرّات معي ، ذلك أنه

أحياناً يهيج هيجان الشياطين . هل ترى هذه النقرة هنا ياسيدي» ـ ورفع قبّعته وحوّل شعره الى جنب وكشف عن نقرة مجوّفة كالطاس في جمجمته ولكن ليس فيها أيّ أثر لجرح مهما يكن طفيفاً ولا أية علامة تدل على أنها كانت جرحاً ـ «لابأس ، فالقبطان سيخبرك كيف حدثت ، فهو يعرف ذلك» .

فقال القبطان : «لا لست أعرف ، إلاّ أنّ أمه تعرف فقد ولد بها ، آه أيها الأفقي الوقور يابنجر! هل لك مثيل أبداً في عالم المياه ؟ حين تموت يابنجر فيجب أن تموت في المخللات ياكلب ، يجب أن تحفظ للأجيال القادمة أيها العيّار» .

ـ «ماذا حدث للحوت الأبيض ؟» كذلك صاح آخاب وقد أصغى حتّى تلك اللحظة فارغ الصبر لهذا الحوار الاستطرادي بين الانجليزيين .

فصاح القبطان ذو الذراع : «آه ، حقاً ، أجل! بعد أن قمس في الأعماق غاب عن أنظارنا بعض الوقت ، والواقع أنني كما ألمعت من قبل لم أعرف أيّ حوت لعب عليّ هذه الحيلة حتّى مضى زمن ما وعدت الى خط الصيد فسمعنا عن موبي ديك ـ كما يسمّيه بعضهم ـ وعندئذٍ عرفت أنه هو» .

ـ «هل عبرت خطّ مخره مرّة أخرى ؟» .

ـ «مرّتين» .

ـ «ولكنّك عجزت عن أن تضبطه» .

ـ «لم أرد أن أجرّب ذلك . أليس في عضو واحد عبرة ؟ مانفعي لو فقدت الذراع الأخرى ؟ وأنا أظنّ أنّ موبي ديك لايضرّس بأنيابه ، وهو يبتلع ما يلتهمه» .

فقاطعه بنجر قائلاً : «حسن إذن ، اعطه ذراعك اليسرى طُعماً لتسترد اليمنى ، هل تعرفان أيها السيدان» ـ وانحنى في خشوع وتقدير مقدّر لكلّ واحد من القبطانين على حدة ـ «هل تعرفان أيها السيدان . إنّ جهاز الهضم في الحوت قد ركّبته العناية الإلهية على نحوٍ غامض لايدرك حتّى ليستحيل عليه ان يُتم هضم ذراع إنسان ؟ وهو يعرف ذلك أيضاً ، حتّى أنّ ما تعده حقد الحوت الأبيض إنّما هو قلّة حيلته لأنه لايهدف الى أن يبتلع أي عضو وإنّما يريد أن يبثّ الرعب بالخدع ، غير أنه أحياناً كذلك المشعوذ الذي كان فيما مضى أحد من عالجتهم في سيلان ، كان يوهم الناس بأنه يبلع السكاكين ، ومرّة ترك إحداها تسقط في جوفه حقيقة لا وهماً فاستقرّت هنالك اثني عشر شهراً أو أكثر فسقيته مقيّناً فقذف بها قطعاً صغيرة . لاسبيل له الى أن يهضم سكّيناً وأن يتمثّلها في بنيته . أجل ، بومر أيها القبطان ، إن كنت متعجّلاً الأمر وترغب في أن ترهن ذراعاً من أجل أن يكون لك حقّ دفن الأخرى دفناً

شريفاً ففي هذه الحال أنت صاحب الأمر في المسألة ، إذ الذراع ذراعك ، ما عليك إلا أن تسمح للحوت بفرصة أخرى في القريب العاجل ، وذلك كلّ ما هنالك» .

فقال القبطان الإنجليزي : «لا وشكراً يابنجر ، هنيئاً له بالذراع التي أخذها مادمت لاأملك أن أستردّها ـ ولم أكن أعرفه حينئذ ـ ولكنّي لن أجازف بالأخرى . لاأريد حيتاناً بيضاً بعد اليوم ، لقد طاردته مرة وذلك حسبي ، قد يكون في قتله مجد عظيم ، ذلك ماأدريه ، وفيه ملء سفينة من العنبر الثمين ولكن أصخ لي ، من الخير أن يترك في حال سبيله ، ألست تعتقد ذلك أيها القبطان ؟ » ـ ولحظ الرجل العاجية .

ـ «صحيح . ولكن سيظلّ هنالك من يطارده رغم ذلك . كان تركه في حال سبيله أولى لولا أنّ ذلك الحيوان اللعين شديد الإغراء والجاذبية ، كأنه جسم من المغناطيس . منذ متى رأيته آخر مرّة ؟ وفي أيّ طريق كان يتوجّه ؟ » .

فصاح بنجر وهو ينحني دائراً حول آخابَ متشمّماً ، على نحو غريب كأنه كلب : «بارك اللهم روحي والعن الشيطان الرجيم ـ دم هذا الرجل ـ هاتوا ميزان الحرارة! لقدبلغ دمه درجة الغليان! نبضه يهزّ ألواح السفينة ـ سيّدي!» واستخرج من جيبه مبضعاً واقترب من ذراع آخاب .

فزأر آخاب وهو يدفعه نحو حافة السفينة : «اليك عنّي! هيّئوا القارب! فبأيّ وجهة مضى ؟ » .

فصاح القبطان الإنجليزي وكان السؤال موجّهاً اليه : «يارب يارحيم! ماذا دهاه ؟ أظنّه كان متوجّهاً شرقاً ـ» ثمّ همس يسأل فيض الله : «هل قبطانكم مجنون ؟ » .

ولكن فيض الله وضع اصبعه على شفتيه ، وانزلق عن حافة السفينة لكي يقوم على المجذاف الرئيسي في القارب ، وطوّح آخاب بالمرفاع نحوه آمراً بحّارة السفينة أن يقفوا على مقربة منه لإنزاله .

وبعد لحظة كان يقف في مؤخّرة القارب وكان أبناء مانيلا يثبون نحو مجاذيفهم ، وناداه القبطان الانجليزي ، فطارت نداءاته في الفضاء . لقد أدار آخاب ظهره للسفينة الغريبة ، وصوّب نظره كأنه الصوّان نحو سفينته ، ووقف منتصباً حتّى حاذى قاربه الباقوطة .

١٠١

القارورة

لأدوّن في هذا المقام قبل أن تغيب السفينة الإنجليزية عن الأنظار أنها صَدَرت من لندن وأنها سمّيت باسم المتوفّى صومونيل اندربي أحد تجّار تلك المدينة ومؤسّس أسرة التحويت المشهورة التي تسمّى «أسرة أندربي وأولاده» ، وهي أسرة لاتتخلّف كثيراً في رأي حوّات متواضع مثلي وراء آل تيودور وبوربون مجتمعين ، في أهمّيتها التاريخية . إنّ وثائق الصيد العديدة التي في حوزتي لاتوضّح متى وجدت هذه الأسرة التحويتية الكبرى ، ولكنها في عام ١٧٧٥ جَهّزت أوّل سفن انجليزية بدأت صيد حوت العنبر بانتظام مع أنه قبل حوالي أربعة عقود من هذا التاريخ (أي منذ ١٧٢٦) كان آل كوفن وماسي البواسل من نانتوكت وفنيارد قد طاردوا ذلك اللوياثان في أساطيل ضخمة مقتصرين في صيدهم على الأطلسي الشمالي والجنوبي دون أن يتعدّوهما ، ولكنّ الوثائق تفيد أنّ أبناء نانتوكت كانوا أوّل الناس الذين مارسوا قذف حوت العنبر بالفولاذ المثقف ، وأنهم ظلّوا على مدى نصف قرن وحدهم من بين أبناء الكرة الأرضية هم الذين يصيدونه على هذا النحو .

وفي عام ١٧٧٨[١] خرجت سفينة لطيفة تسمّى أميليا لغاية محدّدة ، على نفقة آل أندربي النشطاء ، فدارت بجسارة حول رأس هورن ، وكانت أوّل سفينة تنزل قارب تحويت من أيّ نوع في البحر الجنوبي الكبير . وكانت الرحلة ماهرة مجدودة ، إذ عادت أميليا الى مرفئها وقد امتلأ عنبرها بزيت العنبر الثمين ، وسرعان ماحذت حذوها سفن أخرى انجليزية وأميركية ، فانفتحت بذلك مجالات الصيد الفسيحة في المحيط الهادي لاقتناص حوت العنبر ، ولكنّ آل اندربي الذين لايدركهم الإعياء والفتور لم يقنعوا بهذا العمل الجليل بل

---

(١) أخطأ ملفل النقل هنا والصواب ١٧٨٨ .

أنهم همّوا من جديد : صمونيل وأبناؤه ـ كم كان عددهم ؟ أمهم وحدها تعلم ذلك ـ وتحت إشرافهم المباشر ، وأظنّ أنهم تكفّلوا بقسم من النفقات ـ اقتنعت الحكومة البريطانية بأن ترسل السفينة راتلر ـ وهي حربية ذات مدفع ـ في رحلة تحويت للاستكشاف في البحار الجنوبية ، يقودها قبطان أصبح فيما بعد من قباطنة الأسطول ، فقامت (واسمها يعني المجلجلة) برحلة مجلجلة وأدّت شيئاً ما ، ولكن ماأدّته غير معروف على وجه الدقة . ولم يكن هذا هو كلّ ماهنالك . بل إنّ آل اندربي جهّزوا من أنفسهم عام ١٨١٩ سفينة تحويت للاستكشاف ، كي تذهب في جولة استطلاعية الى بحار اليابان النائية وقد قامت تلك السفينة ـ وبحقّ سمّيت SYREN ـ بتجواب تجريبي رفيع الشأن ، وعن طريقها أصبح الناس يعرفون مجالات التحويت اليابانية الكبرى لأوّل مرّة . وكان قبطانها في هذه الرحلة نانتوكتياً من آل كوفن .

ما أحرى آل اندربي لهذا بالتمجيد والإشادة! ولايزال بيتهم فيما أظن قائماً حتّى اليوم ، ولكن لاريب في أنّ صومونيل جدّ هذه الأسرة قد زلقت رجله عن حبل سفينته وهو ذاهب الى البحار الجنوبية في العالم الآخر منذ عهد طويل .

وكانت السفينة التي سمّيت باسمه جديرة بذلك الشرف لأنها كانت سريعة نبيلة من كلّ وجه ، وقد ركبت فيها ذات مرّة عند منتصف الليل على مبعدة من ساحل بتاغونيا ، وشربت في منارتها مزراً لذيذاً ، كانت عصبة ظريفة وكان كل من فيها ـ كلّ نفس على ظهر السفينة ـ أخاً في الضّراء . عاشوا حياة قصيرة وماتوا موتاً جميلاً ، وتلك العصبة التي عرفتها ـ بعد وقت طويل طويل من ملامسة آخاب الشيخ لألواحها بكعبه العاجي ـ تذكّرني بذلك الكرم السكسوني النبيل المتأصّل في تلك السفينة ، نسيني راعيّ وتذكّرني الشيطان إن هي غابت عن ناظري أبداً . مزراً ؟ هل قلت : شربنا مزراً ؟ أجل وقد «مزرناه» بنسبة عشرة جالونات في الساعة . وعندما هبّت العاصفة (والجوّ كثير العواصف إزاء بتاغونيا) ودعي جميع الموجودين ـ من ضيوف وغيرهم ـ ليلفّوا الأشرعة العليا كنّا قد أصبحنا متعتعين سكراً حتّى كان على الواحد منّا أن يطوّح بالآخر عالياً في حبال الأشرعة كأنه يدفعه في أرجوحة . وبجهل منّا لففنا حوافي صدائرنا في الأشرعة ، فتعلّقنا هنالك ملفوفين مشبوحين في العاصف العاوي ، نذيراً يعتبر به كلّ بحّار مخمور . ومهما يكن من شيء فإنّ الصواري لم تهبط على ظهر السفينة ورويداً رويداً نزلنا زاحفين ، وقد طار السكر من رؤوسنا حتّى لعدنا ندير المزر مرّة أخرى ، ولكنّ الرذاذ الملح الشرس الذي كان ينقضّ نحو ناروزة المنارة جعلني أحسّ أنّ المزر قد خفّ حدّة وتملّح طعماً حين مازجه الرذاذ .

أمّا لحم البقرِ فكان لذيذاً ـ كان جاسياً بعض الشيء ولكنه كان مكتنزاً حنيذاً ، قالوا إنه لحم عجل وقال بعضهم بل هو لحم ثور هجين ، ولكني لاأدري كيف كان ذلك على وجه اليقين ، وكان لديهم فطير سكّري أيضاً ، صغير إلا أنه غني كروي تام الكرية لايسهل كسره . ولقد خيّل اليّ أنّ المرء قد يحسّ بكراته ويديرها في جوفه بعد أن يبتلعها ، وإذا انحنى كثيراً الى الأمام فربّما انطلقت من جوفه كأنها كرات البليارد .والخبز وما أدراك ما الخبز ؟ كان فيه مايمنع فساد الدمّ وبإيجاز كان الخبز يحوي الغذاء الوحيد الذي يعدّ لديهم طازجاً ، إلا أنّ المنارة لم تكن حسنة الإضاءة كثيراً ، فكان من السهل على المرء أن ينحاز الى زاوية معتّمة إذا أخذ يأكله . لكن اذا اعتبرت صومونيل اندربي من كوثلها حتّى دفتها وقدّرت أبعاد المراجل التي لدى طباخها وعددت فيها مرجله الحي[1] ، أقول : إنّ صومونيل اندربي من حيث رمقتها وجدتها سفينة ظريفة : الغذاء فيها طيب وفير ، والمزر قوي لذيذ ، والزملاء ظرفاء ، كلّ امرىء فيهم ممتاز من أخمص قدمه حتّى مفرق رأسه .

ولكن لِمَ كانت ـ فيما تخمّن ـ صومونيل اندربي وبعض الحواتات الانجليزية الأخرى التي أعرفها ـ لاكلّها ـ سفناً مشهورة مضيافة ، تقدّم لحم البقر والخبز والكأس والنادرة ولايدركها السأم من الأكل والشرب والضحك ؟ سأخبرك . إنّ هذا المرح الوفير في الحوّاتات الانجليزية مسألة تحتاج بحثاً تاريخياً ولم أكن أنا أبداً متلكئاً بالبحث التاريخي في شؤون الحيتان والتحويت إن بدا ذلك أمراً مطلوباً .

إنّ الهولنديين والزيلنديين والدنماركيين سبقوا الإنجليز في التحويت ، ومن هذه الأمم استعار الانجليز مصطلحات كثيرة لاتزال مستعملة في حرفة الصيد ، بل استعاروا منهم عاداتهم القديمة في الإكثار من الأكل والشراب إذ أنّ السفن التجارية الإنجليزية تقلل عدد الملاحين اقتصاداً ، ولكنّ الأمر ليس كذلك في الحواتات ، وإذن فإنّ هذا المرح والتفنّق لدى الانجليز في التحويت غير عادي وغير طبيعي وإنّما هو عارض وخاص ولذلك كان لابدّ له من أصل ، وقد بينت أصله في هذا المقام وسأوليه تبياناً فيما يلي .

أثناء بحثي في تواريخ الحيتان وقعت على كتاب هولندي قديم[2] وعرفت من رائحة العفونة التحويتية فيه أنه لابدّ أن يكون عن الحواتات ، كان عنوانه «دان كوبمان» فاستنتجت أنه لابدّ أن يكون مذكّرات بالغة القيمة كتبها صانع براميل أمستردامي يعمل في الحواتة ، إذ كلّ حوّاتة لابدّ أن يكون فيها مثل هذا الصانع ، وقويّ هذا الرأي لديّ حين

---

(١) يعني معدته .

(٢) ها هنا يحاكي ملفل طريقة اسكورسبي واحصاءاته ساخراً في هذه الفقرة .

وجدته من تأليف «فتز الحداد» غير أنّ صديقي الدكتور زنودهد وهو عالم ضليع وأستاذ للهولندية والألمانية في كلّية سنتا كلوز وسنت بوتس ، وقد سلّمته الكتاب ليترجمه وأعطيته لقاء تعبه صندوقاً من شمع حوت العنبر ـ هذا الدكتور زنودهد نفسه ما أن ألقى نظرة على الكتاب حتّى أكّد لي أنّ «دان كوبمان» لاتعني «صانع البراميل» وإنّما تعني «التاجر» . وبإيجاز أقول إنّ هذا الكتاب الهولندي العتيق العميق يعالج تجارة هولنده ، وفيه ـ بين سائر ما فيه ـ خبر هام ممتع عن التحويت وفي هذا الفصل منه وعنوانه «الشحم» وجدت قائمة طويلة تحتوي على أسماء المواد التي تودع في مخازن ومخادع ١٨٠ سفينة من الحواتات الهولندية وأنا أثبت من القائمة مايلي ، حسبما ترجمها الدكتور زنودهد :

٤٠٠٠٠٠ رطل من لحم البقر .
٦٠٠٠٠ رطل من لحم خنزير فريزلاند .
١٥٠٠٠٠ رطل من السمك القديد .
٥٥٠٠٠٠ رطل من البسكويت .
٧٢٠٠٠ رطل من الخبز الناعم .
٢٨٠٠ فركين (ربعة) من الزبدة .
٢٠٠٠٠ رطل من جبنة تكسل وليدن
١٤٤٠٠٠ رطل جبنة (لعلها أقل جودة من الجبنة السابقة) .
٥٥٠ أنكر من الجن (الأنكر = ١٠ جالونات) .
١٠٨٠٠ برميل من البيرة .

أكثر القوائم الإحصائية جاف متيبّس لدى القراءة ، إلاّ أنّ هذه القائمة بخلاف ذلك حيث يغرق القارىء بين دفق من أنابيب وبراميل وربعات وجداول من شراب الجن والمرح الطيبين .

في ذلك الوقت أنفقت ثلاثة أيام وأنا أحاول جاهداً أن أهضم كلّ هذه البيرة ولحم البقر والخبز فعرض لي في أثناء ذلك كثير من الأفكار العميقة التي يمكن أن تتقبّل التطبيق الأفلاطوني والتجريدي ، ثمّ إني أضفت جداول أخرى استكملتها بنفسي ، تتناول كمية السمك القديد وغيره من المواد التي يستهلكها كلّ حوّات هولندي في الحوّاتة القديمة عند جرينلاند وسبتزبرجن ، وتبدّى لي لأوّل وهلة أنّ كمّية مايستهلك من الزبدة وجبنة تكسل وليدن كمّية مذهلة ، وعزوتها من ثمّ الى طبائعهم الدهنية ـ بطبيعتها ـ وقد زادت دهنيّتها بطبيعة الحرفة نفسها ، وبخاصّة لمطاردتهم الحيتان في البحار القطبية المتجمّدة قريباً من

سواحل منطقة الأسكيمو حيث سكان تلك البلاد المرحون يشرب أحدهم نخب الآخر كؤوساً من زيت الأسماك أو الحيتان .

كذلك كمّية البيرة كبيرة جداً ، أعني ١٠٨٠٠ برميل . فإذا عرفت أنّ التحويت في المناطق القطبية لايمكن اجراؤه الا في الفترة القصيرة التي يسمّونها صيفاً في ذلك المناخ حتّى إن الرحلة التي تقوم بها إحدى الحوّاتات الهولندية بما في ذلك السفرة القصيرة من بحر سبتزبرجن ذهاباً وإياباً لاتتجاوز ثلاثة أشهر بكثير ، وإذا قدّرت ثلاثين رجلاً لكلّ سفينة في اسطولهم ذي الـ١٨٠ سفينة كان لديك ٥٤٠٠ بحّار . لذلك أقول فإنّ كلّ شخص يصيبه على وجه الدقة برميلان من البيرة يصرفان له في خلال اثني عشر اسبوعاً ، هذا دون أن نحسب مايخصّه من الـ ٥٥٠ أنكر من شراب الجن . ترى هل هؤلاء الحوّاتون الذين تملأوا بيرة وجناً ـ وقد أفرطوا في السكر حسبما قد يتخيّلهم المرء ـ هم الناس الصالحون ليقفوا عند رأس القارب ويسددوا الرماح نحو الحيتان الطائرة . قد يبدو هذا مجاوزاً للاحتمال بعض الشيء ، ولكنهم طالما سدّدوا اليها الرماح وأصابوها . غير أنّ علينا أن نتذكر بأنّ هذا كان في أقصى الشمال حيث البيرة تناسب البيئة . أمّا على خطّ الاستواء ـ في المجالات الجنوبية ـ فإنّ البيرة ترمي الحوّات بالنعاس إذا كان في قمّة الصاري ، وتجعله نشوان وهو في قاربه ، ومثل هذا يجرّ خسارة بالغة على نانتوكت ونيوبدفورد .

لا مزيد . لقد أشبعت القول لأبيّن أنّ الحوّاتات الهولندية القديمة قبل قرنين أو ثلاثة قرون كانت تتفنق في الترف وإنّ الحوّاتات الانجليزية لم تغفل هذا المثال الطيب . وفي المثل : إذا كنت تطوف البحار في سفينة فارغة فاستخرج من العالم عشاءً طيّباً على الأقل إن عجزت عن استخلاص ماهو خير من ذلك . بهذا تفرغ الجعبة ، وتصفرُ القارورة .

١٠٢

ظلة في البلاد الأرسكية

قصرت أكثر اهتمامي - حتى هذا الحدّ ، وأنا أعالج حوت العنبر واصفاً - على أعاجيب مظهره الخارجي ، وعلى بعض الملامح الداخلية في بنيته ، وتناولت هذه الأخيرة في مواضع متفرقة وفي شيء من الاسهاب ، ولكن يخلق بي من أجل الاحاطة الشاملة والفهم المحيط المستفيض ان أفك عنه سائر الأزرار وأن أمزق معاقد جوربيه ، وان أحل أربطة ساقيه ، وأرخي الاوتار والمحاجىء في مفاصل عظامه الموغلة في بنية جسده ، وأبرزه لكم في عريه الكامل ، أعني في هيكله الذي انحسرت عنه القيود والأعلاق .

ولكن أنى لك ذلك يا اسماعيل ؟ كيف تدعي وأنت محض مجذّف في حرفة التحويت أنك تعرف شيئاً عن الاجزاء الدخيلة في الحوت ؟ هل امتطى اسطب اللوذعي الاريب مسحاب قاربك وألقى محاضرات في تشريح الحيتان ، وبعون الدولاب الرافع اتخذ أحد الاضلاع وسيلة للتوضيح والبيان ؟ أفصح عن نفسك يا اسماعيل . هل تستطيع ان تطرح على ظهر سفينتك حوتاً للفحص والاختبار مثلما يُجزىء الطباخ الخنزير المشويّ ؟ طبعاً لا . حتى هذا الحد كنت يا اسماعيل شاهداً موثّقاً ، ولكن تدبر كيف تحتاز الميزة التي استقلّ بها يونان وحده ، ميزة الحديث عن الدعائم والعمد والعوارض وسنادات الجسور والاسرة ومواد التأسيس جميعاً في بنية الحوت ، وعن خوابي الشحم وغرف اللبن وحوانيت الخبز والزبدة ودكاكين الجبن في أحشائه .

وأنا اعترف انه قلما أتيح لأحد من الحواتين ، بعد يونان ، ان يتغلغل بعيداً وراء إهاب الحوت الفتيّ ، ومع ذلك فقد سنحت لي الفرصة لكي أشرّحَ صورة منه مصغرة . كنت في احدى السفن فرفع الى ظهرها ذات مرة حوت عنبر صغير طلباً لجرابه أو كيسه لتصنع منه أغماد لثعالب الرماح وظبا الحراب ، فهل تظنني ادع هذه الفرصة تفلت من يدي دون ان

استعمل بلطتي الصغيرة ومديتي ، فأفض الختام واقرأ كل ما هو مكتوب في ذلك الحُوِيْت ؟

وأما معرفتي الدقيقة بعظام اللوياثان في حال اكتمالها نمواً وضخامة فأنا مدين بتلك المعرفة النادرة الفذة الى صديقي الراحل ترانكو ملك ترانكه احدى الجزر الارسكيديه[1] . ذلك أني منذ سنوات كنت في ترانكه اذ كنت تابعاً للسفينة التجارية «صبغة الجزائر» فدعيت لقضاء جانب من عطلتي الارسكيدية مع عاهل ترانكه ، في قصره البعيد المحفوف بالنخيل في بوبلاً ، وهدة عند البحر لا تبعد كثيراً عما يدعوه ملاحونا مدينة البامبو عاصمته .

وصديقي ترانكو ربيب المُلكِ قد وهب بين ما وهبه من صفات ظريفة حباً مكيناً لكلّ ما يتصل بالفضائل البربرية فحشد في بوبلا كل الطُرف النادرة التي استطاع الافذاذ من بني قومه ابتكارها ، وبخاصة الخشب المحفور في أشكال عجيبة والاصداف المنحوتة والحراب المرصعة والمجاذيف الثمينة والزوارق الشذية ، وكل هذه قد وزعت بين ما اتفق وجوده من عجائب طبيعية تحملها الامواج حمّالة العجائب وتؤديها جزية لذلك الملك على شواطىء بلاده .

ومن أبرز هذه العجائب الطبيعية حوت عنبر جسيم وجد ميتاً مطروحاً ، بعد عاصفة غاضبة ثائرة طال بها الغضب والهياج ، وقد استند رأسه الى شجرة جوز الهند فبدت ثنياتها المقنزعة التي تشبه الريش كأنها نفاثته المخضوضرة وحين انتزع الجسم الجسيم اخيراً من بين المواد التي تكتنفه وهي تبلغ القامة ارتفاعاً وأصبحت العظام جافة كيبيس الثرى تحت الشمس نقل الهيكل باعتناء الى وهدة بوبلا حيث يقيه اليوم هيكل عظيم من النخل العمّ الطوال .

أما الاضلاع فعلقت عليها أسلاب النصر ، وأما الفقارات فنقشت فيها التواريخ الارسكيدية في خطوط غريبة ؛ وأما الجمجمة فقد وضع فيها الكهنة شعلة شذية لا تنطفىء حتى ان الرأس العجيب ظلّ يرسل نفثاته البخارية بينا علق الفك الاسفل المريع من احد الاغصان ليتذبذب فوق رؤوس العابدين الاتقياء كأنه السيف المفزع المعلق بشعرة فوق رأس داموقليس .

كان منظراً عجباً : الغابة خضراء كأنها طحالب الوهدة الجليدية ، والاشجار سامقة مستكبرة تحسّ عصارتها الحية ، والارض الكدود من دونها كأنها نول النساج وعليه بساط رائع فاخر ، وعساليج الكرمة الارضية تمثل السداة واللحمة ، والازهار الحية تمثل الزخارف والرسوم ؛ كل شيء لا يكف عن النشاط والحيوية : كل الاشجار وكلّ ما فيها من غصون مشقلة ، كل الاعشاب والسرخس والحشائش ، والهواء الذي ينقل بينها الرسالات .

(١) مجموعة من الجزر عند الطرف الجنوبي من جزائر سليمان ، وليست ترانكه منها وانما هي جزيرة صغيرة على مسافة من شاطىء شيلي .

والشمس العظيمة تبدو بين فجوات الاوراق وشيعة تنسج الخضرة التي لايدركها حؤول . آه ايها الحائك المنهمك ، ايها الحائك الخفي! توقف ، لي اليك كلمة! الى أين يفيض هذا النسيج ، اي قصر قد يزين ؟ ما غاية هذا الكد الدائب ؟ أجب ايها الحائك . أوقف يدك! لي اليك كلمة واحدة! لا... ان المكوك يدور ، والزخارف تفيض عن النول والبساط المندفع كالجدول يظل ينزلق بعيداً . اما الرب الحائك فيمضي في حياكته ، ويصمّه النسج فلا يسمع صوتاً بشرياً ، ونحن الذين ننظر الى النول يصمّنا الطنين ، ولا نسمع آلاف الاصوات التي تتحدث من خلاله إلا اذا نجونا من ربقته ، وكذاك هي الحال في جميع المصانع المادية : فان الكلمات المنطوقة التي لا تسمع بين المغازل الدائرة هي نفسها تسمع بوضوح وراء الجدران مندفعة من خلال المنافذ المفتوحة . على هذا النحو اكتشفت الدسائس ؛ فتنبه اذن يا ابن آدم اذ ان أدق أفكارك وأخفاها في ضجيج هذا النول الكوني قد يكون مسموعاً من بعيد .

وسط هذا النول الأخضر ، نول الحياة التي لاتعرف الفتور في الغابة الارسكيدية يقع ذلك الهيكل الجسيم المعبود كسولاً مسترخياً ـ هو كسلان هائل ؛ ولكن بينا تلتقي السداة واللحمة المخضوضرتان اللتان لا تكفان عن التداخل والتلاقي والطنين من حوله فان ذلك الكسلان القوي يبدو وكأنه الحائك الذكي وهو نفسه ينسج حول نفسه عساليج الكرمة ، وفي كل شهر ينتحل لنفسه خضرة جديدة أشدّ من سابقتها اخضراراً ، إلا انه لا يعدو ان يكون هيكلاً . الحياة تغلف الموت ؛ الموت ينسج الحياة ، والرب الجاهم يعرس بالحياة الناضرة الفتية فينجبان أمجاداً مجعدة الشعور .

وحين زرت هذا الحوت العجيب في صحبة ترانكو سليل الملوك ورأيت الجمجمة قد جعلت مذبحاً والدخان يتصاعد من حيث تنبثق النفثات الحقيقية عجبت للملك كيف يعتبر المعبد موضعاً للفضيلة ، فضحك ؛ ولكن عجبي زاد حين عرفت ان الكهنة يقسمون ان نفاثته المدخنة كانت أصيلة لا مصنوعة . خطوت أمام هذا الهيكل ذاهباً آيباً ، أزحت عنه عساليج النبات ، تغلغلت داخل الاضلاع ، وتجولت فيه وانا أحمل كبة من خيوط القنب الارسكيدي ، وطوفت في منعطفاته الكثيرة ومساربه وعرانشه الظليلة ولكن سرعان ما نفد الطِّوَل المرخى فعدت أتتبعه وخرجت من الفتحة التي منها دخلت فلم أرَ فيه شيئاً حياً ، ولم يكن هنالك شيء سوى العظام .

وقطعت قضيباً أخضر يصلح ان يتخذ مقياساً وغصت في الهيكل مرة أخرى فرآني الكهنة من شق في الجمجمة أقيس طول الضلع الأخيرة ، فصاحوا بي : « كيف تجرؤ على ان تقيس إلهنا . هذا لنا وحدنا » فقلت : « صدقتم أيها الكهنة ولكن كم تقدرون طوله إذن ؟ » وهنا

ثار بينهم جدل حادّ حول الاقدام والبوصات ، فكسروا رؤوس بعضهم بعضاً بعصيّهم ، ورددت الجمجمة الضخمة الصدى ، فانتهزت هذه الفرصة السعيدة وأنهيت مسرعاً قياساتي .

هذه القياسات هي ما أزمع الآن ان اضعه أمام أعينكم ولكن لأقرّر هاهنا اولاً أنني في هذا الامر غير حرّ لاتفوه بأي تقدير مزعوم أشاوه ، لان لديكم ثقات في شؤون الهياكل تستطيعون الاحتكام اليهم لتختبروا دقتي . فقد أخبرت ان في مدينة هل بانجلترا ـ وهي احدى موانىء التحويت في تلك البلاد ـ متحفاً للحيتان فيه عينات ونماذج لطيفة من الحيتان المزعنفة والحيتان الاخرى . وسمعت ايضاً ان في متحف مانشستر في نيوهامبشير ما يسميه المالكون له : «العينة الوحيدة الكاملة من حوت جرينلاند او حوت النهر في الولايات المتحدة» ثم ان في مكان بيوركشير في انجلترا اسمه بيرتون كونستابل رجلاً يدعى سير كلفورد كونستابل وهو يملك هيكل حوت عنبر إلا انه ذو حجم معتدل وهو لا يبلغ بأي حال مبلغ الحوت المكتمل الذي لدى صديقي الملك ترانكو .

وفي الحالين تتشابه الاسس التي تم بموجبها أصلاً امتلاك هذين الحوتين اللذين طرحهما البحر وأخذ منهما الهيكلان . اما الملك ترانكو فقد استولى على الحوت الذي حازه لانه بحاجة اليه ، واما السير كلفورد فقد استأثر به لانه كان رب السلطة في تلك النواحي ؛ وقد فصّل حوت السير كلفورد في جميع أجزائه فأصبحت تستطيع ان تفتحه وتغلقه في كل فجواته العظمية كأنه صندوق ضخم من الادراج وتمدّ اضلاعه كالمروحة الضخمة وتتأرجح طوال اليوم على فكه الاسفل . وستوضع الاقفال على بعض مغالقه وأبوابه المسحورة ، وسيكون دليل الزوار ففي المستقبل رجلاً يعلق حزمة من المفاتيح على جنبه ، ويرى السير كلفورد ان يتقاضى بنسين على من يطلّ في السقيفة الهامسة في العمود الفقري ، وثلاثة بنسات على سماع الصدى في تجويف المخيخ ، وستة على المنظر الفذ الذي لا يضاهى من جهة جبهته .

وأبعاد الهيكل التي سآخذ في تقييدها هاهنا قد نسختها حرفياً عن ذراعي اليمنى حيث كنت قد سجلتها بالوشم ، اذ لم يكن لدي في سفراتي المغامرة يومئذ اي طريقة مأمونة اخرى تكفل الاحتفاظ بهذه الاحصاءات القيمة ؛ ولكن بما أن المساحة كانت متضايقة ، وكنت أرغب في ان أبقي سائر أجزاء جسدي صفحة بيضاء لأكتب عليها قصيدة كنت أنظمها حينئذٍ ـ او على الاقل اكتبها على ماتبقى من أجزاء غير موشومة ـ لذلك لم أعنّ نفسي بتقييد البوصات ، والحق ان البوصات يجب ألا تدخل في أي مقياس مناسب يؤخذ للحوت .

١٠٣

قياس هيكل الحوت

أريد ان اضع بين أيديكم ـ في المقام الاول ـ تقريراً خاصاً واضحاً حول البنية الحية لهذا اللوياثان الذي سأعرض عليكم هيكله في ايجاز ، فقد يكون هذا التقرير في هذا الموطن مفيداً .

حسب التقدير الدقيق الذي قمت به وبنيته ـ من بعض نواحيه ـ على قول القبطان اسكورسبي : ان اكبر حوت اثين (حوت جرينلاند) . يبلغ ستين قدماً في الطول فانه يزن سبعين طناً ، أقول : حسب تقديري الدقيق ان اضخم حوت عنبر يقع بين ٨٥ ـ ٩٠ قدماً في الطول وان محيطه في أعرض المواضع اقل قليلاً من اربعين قدماً وان مثل هذا الحوت يزن تسعين طناً على الاقل فاذا قدرت لكل طن ثلاثة عشر رجلاً فانه يرجح كثيراً بسكان قرية كاملة مجتمعين يعدون ألفاً ومائة نسمة .

ألا ترى معي انه لابد من وضع أدمغة كثيرة في هذا اللوياثان ، كالبقر التي تضعها تحت النير ، كي تجعله يتزحزح فيدخل في خيال اي واحد من ابناء الارض ؟ وبما انه قد سبق لي ان وضعت امامك جمجمته ووقب نفاثته وفكه واسنانه وذنبه وجبهته وزعانفه واجزاء اخرى متنوعة منه فاني اكتفي هنا بأن ابين اشد ما يثير الاهتمام في الحجم العام من عظامه التي لا يعترض دونها عارض ؛ وبما ان الجمجمة الجسيمة تحتل نسبة كبيرة جداً من طول الهيكل الكلي مثلما انها اشد اجزائه تعقيداً ، وبما اني لن اكرر شيئاً عنها في هذا الفصل فلا أرينك تعجز عن حملها في ذهنك او تحت ابطك فيما نحن نذهب قدماً ، وإلا لم تستطع ان تكسب فكرة كاملة عن بنيته العامة التي سنلقي عليها النظر بعد قليل .

كان طول هيكل حوت العنبر في ترانكه اثنين وسبعين قدماً ، فاذا كسوته اللحم والاهاب وجعلته يمتد حياً كان طوله تسعين قدماً ولابد ؛ لان هيكل الحوت يفقد حوالي خُمس طوله اذا قيس ببنيته وهو حيّ . وتساوي جمجمته وفكه عشرين قدماً من طوله كله ،

ويبقى خمسون قدماً تمثل العمود الفقري ؛ ويتصل بهذا العمود ـ على طول يبلغ اقل من ثلث طوله الكلي ـ قفص دائري هائل من الاضلاع كانت تضم ذات مرة اعضاءه الهامة .

وكنت ارى هذا الصدر ذا الحنايا العاجية وذلك الصلب الطويل الموثق به يمتد طويلاً في خط مستقيم فأرى شيئاً يشبه هيكل سفينة ضخمة قد وضعت حديثاً على الالواح ولم يصف الصُنّاع من اضلاعها العارية سوى عشرين او نحوها ، فأما أرينتها فما تعدو ان تكون في ذلك الحين ، خشباً طويلاً غير موصول الاواصر .

وعلى كل جهة عشرة اضلاع وأولها ـ اذا بدأنا العدّ من جهة العنق ـ يبلغ ما يقرب من ستة اقدام طولاً ، والثاني اطول منه وكذلك الثالث والرابع على التوالي ، حتى تبلغ ذروة الضلع الخامس أو واحداً من الاضلاع الوسطى وطول الواحد منها ثمانية اقدام وبضع بوصات ، ومن ثمّ تتناقص اطوال الاضلاع الباقية حتى العاشر آخرها ، وهو لا يبلغ سوى خمسة اقدام وبضع بوصات . وأما في السُمك فانها جميعاً ذات سُمك مناسب لاطوالها ، وأشدها تقوساً الاضلاع الوسطى ، وهي تستعمل في بعض جهات الاراضي الارسكية عوارض تمد فوقها الجسور للعبور فوق الجداول .

وحين تأملت هذه الاضلاع لم املك الا ان أعجب عجباً مستأنفاً من الامر الذي أبدأت فيه وأعدت في هذا الكتاب وهو ان هيكل الحوت لا يمثل شكله الكلي وهو مطبّق لحماً وشحماً ، واكبر اضلاع الحوت الذي رأيته في ترانكه ـ وهو احد الاضلاع الوسطى ـ يشغل ذلك الجزء الذي يعد في الحوت ـ وهو حي ـ أبعد الاجزاء غوراً ؛ واعظم غور لجسم ذلك الحوت قبل ان يجرّد من اهابه يبلغ ستين قدماً ، في الاقل ، بينا لا يبلغ طول الضلع المصاقب لذلك الغور إلا ثمانية اقدام او أزيد قليلاً ، فهذا الضلع لاينقل الينا من حقيقة الغور في ذلك الجزء من الحوت الحيَ إلا نصفها ، ثم ان الموضع الذي لم أرَ فيه الا فقاراً عارياً كان مكسواً ذات يوم بأطنان من اللحم والعضل والدم والاحشاء تزيد من ضخامته . زد على ذلك اني لم أرَ مكان الزعانف المستعرضة الا بضعة مفاصل مفككة ، وما رأيت في موضع الشطيرتين الراجحتين الفخمتين اللتين لاعظم فيهما شيئاً سوى فراغ مديد .

وقلت لنفسي حينئذ : ما احمق واجهل المرء الفروقة الذي لم يتمرس بالاسفار وهو يجرب ان يتصوّر هذا الحوت العجيب تصوراً شاملاً صحيحاً بالاستغراق في تأمل هيكله الميت المهزول وهو ممتد في هذه الغابة الآمنة . كلا! لا يدرك احد الحوت وهو في كامل لبوسه ادراكاً صحيحاً حياً إلا وهو في قلب الخطر الوحيّ ، إلا وهو دون خطران شطيرتيه الغاضبتين ، إلا وهو على أثباج البحر العميق المترامي .

والعمود الفقري وما ادراك ماهو! خير وضع تتأمله فيه وتقدر جسامته هو ان تكدس الفقرات فيه صعداً بقوة المرفاع . عملٌ لايتمّ لمحاً . ولكن اذا كان في الامكان إتمامه بدا لك وكأنه سارية بومبي[1] .

وعدد الفقرات اربعون ونيف غير موثقة في الهيكل معاً وانما تتراءى كالقطع الحجرية العقداء في مسلّة قوطية وتشكل مداميك صلبة من بناء راسخ ؛ واكبرها احدى الفقرات الوسطى ويبلغ اتساعها اقل من ثلاثة اقدام بقليل وتزيد في الارتفاع على اربعة ، واصغرها حيث يستدق العمود الفقري عند الذنب تبلغ القدمين اتساعاً وتبدو كأنها كرة بليارد بيضاء وقد قيل لي إن هناك فقرات اصغر منها ولكن استطارها بعض الجنّ الصغار العابثين اعني تلامذة القسيس الذين سرقوها ليلعبوا بها لعبة الأكر . وهكذا نرى ان فقار اضخم الموجودات الحية تستدق حتى تصبح في النهاية لعبة في يد طفل .

(١) طولها ٦٧ قدماً على قاعدة تبلغ ٢١ قدماً وتقع على بعد ثلاثة أرباع ميل من الاسكندرية .

١٠٤

الحوت في حالة تحجر

ان جسامة الحوت لتجعل منه موضوعاً غاية في الامتاع يمكن ان يمتد ويتسع ويسترسل اسهاباً واطناباً ، ولو شئت ان توجز فيه لما قدرت ، فمن حقه ان لا يكتب عنه إلا اضخم المجلدات لا لتعيد القول في الابعاد الممتدة بين مخطمه وذنبه والمسافة التي يبلغها محيطه عند وسطه وانما فكّر فحسب في تلافيف احشائه الهائلة حيث ترقد في جوفه كأنها حبال ومواصر غليظة قد تطوّت والتفت في أغوار العنبر الاسفل من سفينة حربية .

وبما اني قد اخذت على عاتقي أن أدير هذا الحوت بيدي فمن الجدير بي ان اكون كفاءً بهذا العمل وان أحيط به احاطة العالم الذي احصى كل شيء فيه علماً ، فلا أغفل أصغر جرثومة منوية في دمه ، وأنشر تلافيف احشائه امام الانظار حتى آخرها . وبما اني قد وصفته في خصائصه البينية والتشريحية ، فانه يتبقى عليّ ان الحظه من زاوية علم الآثار وأراه مستحجراً في أحافير كانت قبل عهد الطوفان . واذا انت استعملت هذه الالفاظ الفخمة - مثل الآثار والاستحجار والأحافير وما قبل الطوفان - وانت تتحدث عن مخلوق آخر سوى هذا اللوياثان ، كأن يكون نملة او برغوثاً ظنّ الناس - بحق - انك تجعل من الحبة قبة ، وتنتحل تفحصاً وتضجعاً لا يجد له مسوغاً . ولكن ان كان اللوياثان هو موضوع حديثك فقد اختلفت القصة . لشد ما تملأ الغبطة جوانحي وأنا أترنح نحو هذه المغامرة تحت وطأة اثقل الالفاظ في القاموس ؛ ولأقرر في هذا الموطن انني كلما وجدت من المناسب أن أراجع قاموساً في سياق هذه المقالات فانني على الدوام استعمل طبعة ضخمة من قاموس الدكتور جونسون اشتريتها لهذه الغاية ، اقولها دون مواربة ، لان حجم ذلك اللغوي المشهور ، وهو حجم غير عادي في ضخامته ، قد أهّله خير تأهيل لتصنيف قاموس يستعمله مؤلف عن الحيتان مثلي .

وكثيراً ما يسمع المرء عن كُتّاب ارتفعوا وتضخموا عن طريق موضوعهم وان كان يبدو موضوعاً عادياً مألوفاً فكيف حالي اذن وأنا أكتب عن اللوياثان ؟ ان خطي ليمتد حينئذٍ لاشعورياً حتى يغدو حروفاً كبيرة كالتي تخط بها الاعلانات . أعطوني ريشة من ريش نسر الانديز اكتب بها! هاتوا لي فوهة بركان فيزوف، لأتخذها دواة! أعينوا ساعدي ايها الاصدقاء! اذ انني وأنا أحصر أفكاري حول هذا اللوياثان محض حصر تثقلني وتعجزني ، فيغمى عليّ من غمرتها المترامية وهي تعبّ عباً فائضاً كأنني أحاول ان أحيط بدائرة العلوم جميعاً وبكل اجيال الحيتان والناس والمستودونات في الماضي والحاضر والمستقبل ، وبكل مجالي هذا الكون الارضي الدوّار ومن خلل العلم كله ، لا أستثني من ذلك ضواحيه . ذلك هو فضل الموضوع الضخم الطليق وذلك هو الكبر الذي ينفخ به النفس فنحن نمتد حتى نناظره حجماً ، واذا شئت ان تؤلف كتاباً جسيماً فعليك ان تختار موضوعاً جسيماً ولكنك لن تستطيع ان تكتب مجلداً عظيماً خالداً عن البرغوث وان كان من حاولوا هذا ناساً كثيرين .

وقبل ان آخذ في موضوع الحيتان المتحجرة أقدم الوثائق التي تثبت اني عالم جيولوجي فأقرر انني في اوقات متعددة متفاوتة كنت بناءً بالحجر وحفّاراً عظيماً للخنادق والقنوات والآبار وأقبية الخمر والمخادع والصهاريج من كل نوع[1] ؛ ثم أحب ـ على سبيل التقدمة ـ ان اذكر القارىء انه بينا توجد في الطبقات الجيولوجية القديمة متحجرات وحوش انقرضت او كادت فان الآثار التالية التي استكشفت فيما يسمى «التكوينات الثلثية» تبدو كأنها صلة الوصل ـ او على اي حال الحلقات المتوسطة ـ بين المخلوقات التي وجدت قبل التاريخ والمخلوقات التي يقال ان نسلها البعيد قد دخل السفينة مع نوح . وكل الحيتان المتحجرة التي كشفت حتى اليوم تنتمي الى الفترة الثلثية وهي الاخيرة التي تسبق التكوينات السطحية ، وليس في هذه الحيتان ما يطابق بدقة اي فصيلة من الفصائل الباقية حتى يومنا هذا ، غير انها قريبة الشبه منها في مظاهر عامة قرابة تسوغ عدّها متحجرات حوتية .

وجدت متحجرات متفرقة مهشمة لحيتان قبل عهد آدم وهي شظايا من عظامها وهياكلها ، وجدت خلال السنوات الثلاثين الماضية وفي فترات متعاقبة عند قاعدة جبال الألب وفي لمبارديا وفرنسا وانجلترا وسكوتلنده وفي ولايات لويزيانا ومسسبي وألباما . ولعلّ من أغرب ما وجد منها جزءاً من جمجمة استخرج عام ١٧٧٩ من شارع دوفينيه بباريس وهو شارع قصير يكاد يفضي رأساً الى قصر التويلري ؛ وعظاماً استخرجت أثناء حفر

---

(١) أنفق ملفل عدة أشهر من عامي ١٨٢٨ ــ ١٨٢٩ يدرس الهندسة والمساحة واستعان بجاه عمه ليكسب وظيفة في قنال إيري وأخفق فسافر الى لفربول على السفينة «سنت لورنس» .

أحواض السفن بمدينة أنتورب في ايام نابليون . وقد صرّح كوفييه ان هذه الشظايا تنتمي الى فصيلة من فصائل اللوياثان غير معروفة أبداً .

ولكن أشد الآثار الحوتية جميعاً اثارة للدهشة والعجب هيكل ضخم يكاد ان يكون كاملاً لوحش بائد وجد عام ١٨٤٢ في مزرعة القاضي كريج بولاية ألباما وقد ظنه العبيد السذّج في المنطقة المجاورة الذين تملكتهم الرهبة لدى رؤيته عظامَ أحد الملائكة الذين هووا من السماء ، أما علماء ألباما فقالوا انه زاحف من الزواحف ضخم ودعوه باسم بسيلوساورس ولكن عيّنات من عظامه نقلت بحراً الى أون عالم التشريح الانجليزي فاذا بهذا الزاحف المزعوم حوت وان كان من فصيلة بائدة ، وهذا شاهد فذ على الحقيقة التي طالما رددناها في هذا الكتاب ، أعني ان هيكل الحوت لايهيىء إلا دليلاً صغيراً على الشكل الحقيقي للحوت الحي . وأعاد أون تسميته فسمّاه زيوجلودون وقال في بحثه الذي ألقاه أمام الجمعية الجيولوجية اللندنية انه في جوهره من أغرب المخلوقات الغريبة ، التي طمسها من الوجود تقلبات الكرة الارضية .

وأقف بين هذه الهياكل والجماجم والانياب والفكوك والاضلاع والفقرات ، وكلها جسيم هائل ، وكلها ذات شبه جزئي للسلالات الباقية من وحوش البحر ، إلا أنها في الوقت نفسه مشابه باللوياثانات الدارسة المنقرضة التي وجدت قبل عهد التاريخ ، تلك اللوياثانات التي تمثل جدودها العليا التي تعز على الحصر والاحصاء . وحين أقف بينها يحملني طوفان عوْداً الى تلك الحقبة العجيبة قبل ان يبدأ الزمن نفسه ، ان صح القول ، لان الزمن بدأ بظهور الانسان . ثمة يعب فوق رأسي العماء الرمادي الذي ينشره زحل وأحظى بالتماعات معتمة مرتعشة في تلك الازليات القطبية حين كانت الابراج المتراكبة من الجليد ترهص بوطأتها ما يسمى اليوم المناطق الاستوائية ولم يكن ليرى في مدى الاميال التي تمثل محيط الكون (وعددها ٢٥ ألفاً) عرض الراحة من أرض مأهولة . يومئذ كان العالم كله عالماً للحوت ، وترك وهو ملك المخلوقات أثره على طول الخطوط الراهنة في جبال الانديز والهملايا . من ذا يستطيع ان يدلّ بنسب كنسب الحوت ؟ لقد أهرقت حربة آخاب دماً أبعد في العتق والقدم من دم فرعون . وأما متوشالح فانه ليس ازاءه الا طالباً صغيراً . وانظر حولي لأصافح سام بن نوح ، ويملأ الرعب قلبي وأنا انظر الى ويلات الحوت التي لا يمكن الافصاح عنها ، وويلاته التي كان وجودها الذي لا يعرف مبتدأه قبل عهد موسى ، وويلات وجدت قبل ان يكون الزمن ولابد ان تظل بعد ان تنطوي العصور الانسانية .

ولم يترك هذا اللوياثان آثاره القبل آدمية فحسب مطبوعة على صفحات الطبيعة ، ولم

يخلف قاعدته القديمة في الجير والثرى الكلسي فحسب ، وانما نجد طوابع لا تخطئها العين دمغتها زعنفته على الالواح المصرية التي اكتسب لها قدمها طابع المتحجرات او كاد : منذ خمسين سنة استكشفت في احدى غرف الهيكل الكبير في دندره على السقف الجرانيتي خريطة للبروج منحوتة مدهونة وقد حفلت بصورة السنطور والعنقاوات والدلافن تشبه الصور العجيبة على الكرة السماوية لدى المحدثين ، وينساب بينها اللوياثان القديم سابحاً كما كان يفعل في سالف الازمان . أكانت هناك سباحة في خريطة البروج قبل قرون من وضع سليمان في المهد ؟

وعلينا ان لانتناسى شاهداً آخر غريباً على قدم الحوت في كيانه العظمي التالي لعهد الطوفان كما دوّنه جون ليو المحترم رحالة شمال افريقية :

«وغير بعيد عن ساحل البحر يقوم لهم هيكل عوارضه وعمده مصنوعة من عظام الحوت ، اذ ان حيتاناً ذات حجوم هائلة كثيراً ما يقذف بها البحر ميتة على الساحل ويعتقد العامة ان لا حوت يستطيع ان يجاوز ذلك الهيكل دون ان يدركه الموت الوحيّ وذلك من سرّ قوة أودعها الله في ذلك الهيكل . وحقيقة الامر ان على جانبي الهيكل صخوراً تمتد في البحر على مدى ميلين وهي تجرح الحيتان كلما حطت فوقها . وهم يتخذون ضلع حوت ذي طول بالغ من أجل اظهار المعجزة وهذا الضلع على الارض وجانبه المحدب في أعلى ، وبذلك أصبح قنطرة لا يستطيع ان يبلغ ذروتها رجل يمتطي جملاً» . ويقول جون ليو «ان هذا الضلع كان هناك منذ مئات السنين قبل ان أراه ، ويؤكد مؤرخوهم ان نبياً بشّر بظهور محمد خرج من ذلك الهيكل ، وبعضهم لايتورع عن ان يؤكد بأن النبي يونان (ذا النون) قد ألقى به الحوت عند قاعدة ذلك الهيكل» .

في هذا الهيكل الافريقي ـ هيكل الحوت ـ اتركك أيها القارىء واذا كنت من أهالي نانتوكت وكنت حواتاً جلست هنالك تتعبد في صمت .

١٠٥

هل ينقص جرم الحوت؟ أتراه يندرس؟

بقدر ما يبذل الحوت من جهد منحدراً الينا من منابع الابدية ، يليق بنا ان نسأل : أتراه في السياق الطويل لاجياله لم يتضاءل حجماً بالنسبة لحجم أجداده أصلاً ؟

ولكنا لدى البحث لانجد فحسب ان حيتان العصر الحاضر أسمى جرماً من تلك التي بقيت منها ، في صورة متحجرات ، بقايا في العصر الثلثي (اي في فترة جيولوجية متميزة قبل ان يكون الانسان) بل نجد ان الحيتان التي وجدت في الفترة المتأخرة من العصر الثلثي تفوق في حجمها الحيتان التي وجدت في الفترات الاولى من ذلك العصر .

وأضخم الحيتان التي استخرجت وهي تنتمي الى عصر ما قبل آدم حوت الباما الذي ذكرته في الفصل السابق ، وطول هيكله أقل من سبعين قدماً ، بينا قد رأينا ان المقياس يشير الى ان هيكل الحوت الحديث ذي الجرم الضخم يبلغ اثنين وسبعين قدماً ، وقد سمعت والعهدة على الحواتين أنهم صادوا حيتان عنبر بلغت مئة قدم طولاً وقت صيدها .

ولكن ان كانت الحيتان في الايام الراهنة قد زادت في الجرم على حيتان جميع الفترات الجيولوجية السابقة ألا يصح ان تكون الحيتان منذ عهد آدم حتى اليوم قد تضاءلت حجوماً ؟

يقيناً لابد من ان نقر بهذه النتيجة إن نحن صدقنا أخبار سيد مثل بليني ومؤرخي الطبيعة القدماء بعامة ، اذ يخبرنا بليني عن حيتان كانت تفترش أفدنة وهي حية ، ويحدثنا الدروفاندس عن حيتان أخرى يبلغ طول أحدها ثمانمائة قدم ـ كأنما هي حبال ممدودة او أنفاق ممتدة تحت نهر التيمس . بل حتى في أيام بانكس وسولاندر المؤرخين الطبيعيين المرافقين لكوك نجد عضواً دنماركياً في أكاديمية العلوم يقول ان بعض حيتان ايسلنده (من ذوات الكروش المغضنة) تبلغ ١٢٠ ياردة أي ٣٦٠ قدماً . ويقول لاسيبيد العالم الطبيعي الفرنسي في كتابه المفصل عن تاريخ الحيتان ، وفي فاتحة الكتاب نفسها ، على الصفحة

الثالثة ان الحوت الاثين يبلغ مائة متر اي ٣٢٨ قدماً ؛ وقد نشر هذا الكتاب في عام ١٨٢٥ .

ولكن أيصدق اي حوات مثل هذه القصص ؟ كلا ، فحوت الايام الحاضرة يبلغ في الحجم مبلغ أجداده الذين عاشوا في أيام بليني واذا قدر لي ان أذهب أبداً الى حيث يقيم بليني فاني انا الحوات (ولم يبلغ هو في ذلك مبلغي) سأتجرأ وأخبره بما أعتقده . لاني لست أفهم كيف ان المومياءات المصرية التي ألحدت قبل آلاف السنين ، قبل ان يولد بليني نفسه ، لاتزيد لو انك قست طولها وهي في لحودها عن طول فرد من أهالي كنتوكي وهو مرتد جوربه ؛ وكيف ان الماشية وغيرها من الحيوانات المنحوتة على الالواح المصرية والاشورية القديمة حسب مقاييس الرسم النسبية التي رسمت فيها ، تبرهن بوضوح على ان ماشية سمثفيلد[١] التي يجري التحري في تناتجها ، وتقدم لها التغذية في مذاودها ، وتُعرض لنيل الجوائز ، لاتساوي فحسب ، بل تبذ في جرمها ، أسمن ما كان لدى فرعون من بقر حينئذ ؛ لست أفهم كيف يكون ذلك كذلك ثم يرجى مني ان أقر بأن الحوت وحده من بين جميع الحيوانات قد تضاءل جرماً .

ويتبقى سؤال آخر ، سؤال كثيراً ما يثيره أبناء نانتوكت ذوو الغموض والابهام : مادامت الحواتات مزودة بمراقب عند رؤوس الصواري عليها رقباء كأنما لا تخفى عليهم خافية وهي تتغلغل نافذة حتى من مضيق برنج وفي أقصى مسارب العالم المائي ومغالقه ، ومادامت آلاف الرماح والحراب تقذف على طول السواحل القارية جميعاً : مادام الامر كذلك فالنقطة التي يدور حولها الجدل هي : هل يظل اللوياثان يتحمل هذه المطاردة الواسعة وهذه الابادة التي لاتشوبها رحمة ؟ أليس مصيره ولابد في النهاية ان يستأصل من البحار ، وآخر حوت كآخر إنسان ينفث دخان غليونه ثم يتلاشى هو نفسه في النفثة الاخيرة ؟

لنقارن بين القطعان ذوات الحرادب من الحيتان وقطعان الجاموس البري ذوات الحرادب ايضاً فماذا توحي المقارنة ؟ كانت هذه الثانية قبل ما يقلَ عن أربعين عاماً منتشرة في عشرات الالوف على وجه السهوب في الينوي ومسوري وتهز معارفها الحديدية وتعقد جباهها المتجهمة التي كأنما ساطها الرعد فوق مواقع ما أصبح عواصم نهرية كثيفة السكان ، حيث يبيعك السمسار المهذب كل بوصة من أرض بمبلغ دولار . مثل هذه المقارنة قد تهيىء حجة دامغة لا نجد لها نقضاً ، اذ تدلّ على ان الحوت المصيد لن ينجو من مثل هذا الفناء السريع .

---

(١) سوق المواشي بلندن منذ عام ١١٥٠ او قبل ذلك .

ولكن علينا ان ننظر الى الامر من جميع وجوهه . حقاً إن عدد الجاموس البري في الينوي منذ مدة قصيرة ـ لا تحسن ان تسمى عمراً ـ كان يربو على عدد الناس اليوم في لندن ؛ وأنك لا ترى اليوم في كل تلك المنطقة ظلفاً او قرناً باقياً ؛ وأن سبب هذا الاستئصال المذهل انما هو حربة الانسان ؛ كل هذا صحيح ، غير ان طبيعة صيد الحوت المباينة لصيد الجاموس تحول حتماً بين الحوت ومثل هذا المصير المزري . أربعون رجلاً في سفينة تصطاد حوت العنبر مدة ثمانية وأربعين شهراً قد يحسبون أنهم أحسنوا صنعاً ويحمدون الله ان عادوا الى وطنهم في النهاية وهم يحملون زيت أربعين حوتاً . أما في أيام الصيادين الكنديين والهنود القدماء وناصبي الاشراك من أبناء الغرب ، حين كان الغرب (الذي لاتزال الشموس تطلع في مغربه) قفراً بكراً فان العدد نفسه من الرجال ذوي الاحذية المقسينية ينفقون عدداً مساوياً من الشهور ويعودون وقد ذبحوا أربعين ألفاً من الجواميس او تزيد ، لا أربعين عدداً ، وتلك حقيقة يمكن ان تدعم عن طريق الاحصاءات ان شاء أحد ذلك .

بل انك اذا تأملت هذه الحجة على وجهها الصحيح لم تكن دليلاً يؤيد القول بالفناء المتدرج لحوت العنبر مثلاً ، ففي السنوات السابقة (الفترة الاخيرة من القرن الماضي على سبيل المثال) كان الحواتون يرون هذا الحوت في أصورة صغيرة بأكثر مما يرونه اليوم ، ومن ثم لم تكن رحلاتهم تطول كما أنها كانت دارّة بخير وفير ، ذلك ان هذه الحيتان كما لحظنا في غير هذا الموضع سيطرت عليها فكرة عن السلامة والنجاة فهي اليوم تمخر عباب البحار في قوافل كبيرة بحيث تقول ، وقولك لا يباعد الصواب ، بأن الحيتان المفردة وأزواج الحيتان ، والا صورة ، وفئات الايام الاولى أخذت اليوم تتجمع على شكل جيوش كثيفة ضخمة وان كانت جيوشاً متباعدة . ذلك كل ما هنالك . ويستوي مع تلك الحجة في تضليلها توهم من ظنّ أن الحيتان البلينية وقد كفت عن التردد على مجالات كانت من قبل حافلة بها فهي إذن فصيلة آخذة بالانحدار . ذلك انها إنما طُردَتْ من أكمة بحرية الى رأس بحري ، واذا لم يعد أحد الشواطىء ينتعش بنفاثاتها فكن على يقين من ان هناك سيفاً آخر أنأى منه قد أصبح منذ عهد قريب مفزَّعاً بذلك المنظر الغريب .

ثم ان لدى هذه الحيتان التي ذكرتها أخيراً قلعتين ثابتتين ركينتين ستظلان ، على وجه ما يقدره بنو الانسان من احتمالات ، عاتيتين منيعتين أبد الدهر . حين تعرضت وديان سويسرا للهجمات تراجع السويسريون أبناء الصقيع الى جبالهم وهكذا الحيتان البلينية : اذا طاردها الصيادون من سهوب البحار الوسطى ومساربها استطاعت ان تأوى الى حِصْنَيْها القطبيين وأن تغوص تحت الحواجز والجدران الزجاجية القصوى ، وأن تبرز

بين حقول الجليد والأطواف الثلجية ، فاذا تجرم الحول وعاد اليها كانون الأول العائد أبداً ، تحدث كل مطاردة يقوم بها الانسان .

وكلما اصطاد الحواتون خمسين من الحيتان البلينية صادوا في مقابلها قشلوطاً عنبرياً واحداً ، ولهذا استنتج بعض فلاسفة المنارة ان هذه الابادة قد أنقصت من كتائبها إنقاصاً بالغاً . حقاً كان ما يصاد من هذه الحيتان ، طوال مدة ماضية ، لا يقل عن ثلاثة عشر ألفاً كل عام على الساحل الشمالي الغربي من الامريكتين وحدهما ، ولكن هناك اعتبارات تجعل هذا الامر نفسه قليل القيمة او معدومها في اتخاذه حجة مضادة في هذه القضية .

من الطبيعي ان نتردد في تصديق كثرة الحيوانات الضخمة على ظهر الكرة الارضية : ولكن ماذا نقول لهارتو مؤرخ جوا حين يخبرنا ان ملك سيام اصطاد في مرة واحدة أربعمائة فيل ، وأن الفيلة في تلك النواحي عديدة كقطعان الماشية في المناطق المعتدلة . واذا كانت الفيلة التي مرت عليها آلاف السنين وهي تصاد ـ صادتها سمير اميس وبورس وهنيبال وجميع من تلاهم من ملوك الشرق ـ اذا كانت ماتزال باقية في أعداد كبيرة ، فان الحوت العظيم أجدر ان يبقى رغم المطاردات ، ولا سبب يدعونا الى ان نرتاب في ذلك ، ما دام لديه مرعى ينتشر فيه ، مرعى يساوي ضعفي آسيا كلها ومعها قارتا امريكا وأوربا وافريقية وهولنده الجديدة وجزر البحر مجتمعة .

ثم ان الحوت يطول به العمر كثيراً وهذا يجعلنا نقدر ان الواحد منها قد يعيش قرناً او اكثر ، واذن ففي حقبة واحة من الزمن ، تكون أجيال كثيرة متمايزة من الحيتان الفتية متعاصرة ، وانا لنستطيع ان نكوّن فكرة عما تعنيه هذه الحقيقة اذا نحن تخيلنا المقابر والجبانات والفستقيات وهي تبعث من في بطونها أحياء من رجال ونساء وأطفال كانوا على قيد الحياة قبل خمسة وسبعين عاماً ، وتضيف هذا الجيش العرمرم الى السكان الاحياء فوق ظهر الارض .

لأجل هذه الامور جميعاً نعد الحوت خالداً زرافات وفصائل مهما يكن الفناء من نصيبه افراداً ، لقد كان يجوب البحار قبل ان ينشق الماء عن القارات ، وكان ذات يوم يسبح فوق موقع التويلري وقلعة وندسر والكرملين . ويوم عمّ الكون طوفان نوح ازدرى سفينته ؛ فاذا غمر الطوفان العالم مرة أخرى ، كما تنغمر أراضي هولندة ، ليقتل ما فيه من جرذان فان الحوت الخالد سيقاوم الفناء ، وسوف يرسل نفثاته المزبدة متحدياً السماء وهو محمول على أعلى قمة في الطوفان الاستوائي .

١٠٦

رِجلْ آخاب

تلك الطريقة العجلى المتهوّرة التي غادر بها آخاب السفينة صوموئيل أندربي اللندنية كانت مصحوبة ببعض العنف اليسير الذي اصاب شخصه ، فقد نزل على مقعد المجذاف في قاربه باندفاع حتى ان رجله العاجية تلقت صدمة كادت تشظّيها وعندما اصبح على ظهر سفينته ووضع رجله في الثقب المحوري دار دورة حادة وهو يلقي امراً عاجلاً الى القائم على الدفة (كان خطؤه هو الخطأ المعتاد في انه لم ينحنِ بدفته انحناءً كافياً) ؛ عندئذٍ تلقت العاجة التي اوهتها الصدمة الاولى وثياً وليّاً جديداً ، ومع انها ظلت في ظاهرها سليمة قوية فان آخاب لم يعد يرى انه يمكن ان يوليها ثقته الكاملة .

والحق ان آخاب احياناً رغم تهوّره الاحمق الغالب وقلة توقيه كان يولي حال هذه الرجل الميتة التي يتحامل بجانب من جسمه فوقها عناية فائقة ، وتلك مسألة صغيرة لكنها لا تخلو من اثارة العجب ؛ فقبل وقت غير طويل من مغادرة الباقوطة لميناء نانتوكت وجد آخاب ذات ليلة منبطحاً على الارض فاقداً وعيه . وقد انتثر عضوه العاجي من مكانه بعنف حتى انه ضرب برأسه طرف وركه وكاد يخترقه ، وبعد جهد جهيد شفي من جرحه الأليم . اما كيف حدث ذلك فذلك يعزى الى قدر مجهول لا يستطاع تفسيره ولا يمكن تصوره .

ورسخ في ذهنه الممرور يومئذ ان جميع العذاب الناجم عن ذلك الألم الراهن انما كان وليد بلية سابقة ، ويبدو انه استبان لنفسه ان كل الاحداث التعيسة تلد ـ بطبيعة الامر ـ اشباهها ، مثلما ان اشد الزواحف أذى وسمّا في المستنقع وأحبّ الطيور المغردة في الحديقة يخلد كل منهما نوعه بالتوالد ، على نحو محتوم ، ويتم هذا التوالد في صور الخير والشر جميعاً على قدر واحد من الهناءة والغبطة . بل ان آخاب قال لنفسه : على قدرين متفاوتين ، اذ أن نسل الاسى يعمّر اكثر من نسل الفرح ، لا اعني انني أُلمّح الى ما جاء في بعض حكم

التوراة اذ ورد فيها ان بعض الافراح الطبيعية لا تنجب لها اولاداً في العالم الآخر ، انما الفرح العقيم سيتلوه كل يأس جهنم ، بينا بعض التعاسات البشرية الآثمة ستكون ولوداً فتنجب الى الابد نسلاً من الحزن ، وراء القبر ؛ لا لست ألمح ابداً الى هذه الحكمة ، انما على ذلك لايزال أمر الحزن والفرح اذا حللتهما قائماً على عدم التساوي ، وقد قال آخاب لنفسه : ان أرفع المسرات الارضية تحتوي على تفاهة تافهة كامنة فيها أما احزان القلب فإن في اغوارها اهمية مغيبة ولها لدى بعض الناس رفعة ملائكية . وعلى هذا فان نتاجها اللازب لا يكذب هذا الاستنتاج الواضح . واذا شئنا ان نتتبع نسب هذه التعاسات الانسانية العليا نقلنا ذلك اخيراً الى الابناء البكر المنسوبين الى الآلهة والذين جاءوا من لا أين ، حتى نقر امام وجه الشموس الجذلى التي تصنع الحدائق وأمام وجوه الاقمار المرنّمة المستديرة التي تنضج الجنى ، ان الآلهة انفسهم لا يخايلهم السرور الى الابد . فعلامة الميلاد الحزينة المدموغة دمغاً لا يطمس على جباه الناس انما هي طابع الأسى في نفوس الذين طبعوها هنالك .

ها قد أفشينا في هذا الموطن سراً ، دون ان نتفطن لذلك ، وربما كان من الانسب لو كشفنا عنه من قبل على نحو عامد : لمَ مكث آخاب مختفياً قبل ان تغادر الباقوطة الميناء وبعد ان غادرته ، مدة من الزمن ، في وحدة كأنها وحدة اللاما الجليل[1] ، ولِمَ لاذ الى وحدة صامتة في تلك الفترة بين مجمع الرخام الذي يضمُّ الموتى ؟ ذلك أمر ظلّ ، مع امور اخرى تتصل بآخاب ، سراً خفياً لدى بعضهم . اما السبب المختلق الذي أشاعه القبطان فالج حول هذا الامر فلم يكن مقنعاً بحال وان كان كل كشف يمسُّ الجوانب الأعمق من آخاب يعود بنصيب من الظلام المميز اكثر من الضياء الكاشف . غير ان كل شيء اتضح في النهاية او قل ان هذا الامر في الاقل انكشف ، فقد كانت تلك الحادثة المحزنة هي السبب في عزلته المؤقتة ، ولم يقف الامر عند هذا الحدّ بل ان العصبة التي كانت تتناقص ويقل عدد أفرادها على الشاطىء ، العصبة الذين كان لهم ، لأي سبب ، حق يبيح لهم ان يقتربوا منه اكثر من سواهم ، تلك العصبة الخوّارة تلبست لها تلك الحادثة التي ذكرتها آنفاً بلبوس الرعب وذهب بهم خيالهم الى انها قد تكون من عمل الاشباح ومن دنيا الاتراح ، أما آخاب نفسه فإنه لم يقدم لما أصابه تعليلاً وان ظلَّ مكدر النفس به ، ومن خلال حماسة تلك العصبة له اتفقوا فيما بينهم ما دام العلم بالامر مقصوراً عليهم ، ان يطووه في صدورهم عن الآخرين ؛ وهكذا لم يذع فوق ظهر الباقوطة إلا بعد مضي فترة غير قصيرة من الزمن .

---

(١) يقولون ان اللاما في بلاد التبت لا تقع عليه عين .

وليكن من كل هذا ما يكون : سواء أكان الذي تمرس ـ او لم يتمرس ـ بآخاب ابن الارض مجمع غامض محجوب في الفضاء او أسياد النار وسدنتها المنتقمون ، أقول مهما يكن من امر فان آخاب في هذا الامر المتعلق برجله لجأ الى طرق عملية ـ اعني انه استدعى النجار .

وحين حضر ذلك العامل بين يديه أمره ان يشرع في صنع رجل جديدة ، دون ابطاء ، وأمر ضباطه ان يراعوا انه قد زود بكل الدسر والمسامير من الفك العاجي (فك حوت العنبر) مما كانوا قد جمعوه اثناء الرحلة حتى ينتقي منها اقواها وأمتنها وأنصعها وأصفاها من العروق ، وحين تم ذلك تلقى النجار أوامر بأن ينجز صنع الرجل في تلك الليلة وان يزودها بكل مستلزماتها دون اعتماد على الادوات التي كانت مستعملة في الرجل الموثوءة الواهية ، ثم أمر ان ترفع عدة الحداد من حيث تقبع في العنبر وأمر الحداد ، رغبة في الاسراع ، ان يبدأ حالاً بصنع ما يحتاج اليه من أدوات حديدية .

١٠٧

النجار

اتخذ لنفسك عرشاً سلطانياً وجلسة متعاظمة بين أقمار زحل ، وتخيل الانسان من زاوية تجريدية سامية يتبدَ لك عجباً وجلالاً وويلاً ، ثم اعتبر بني الانسان جملة وسيبدون لك في معظم الحال رعاعاً من صور مكرورة بعضها حديث وبعضها قديم . غير ان نجار الباقوطة لم يكن صورة مكرورة ، على انه متواضع لايمكن ان يتخذ مثالاً لتجريد انساني سام ، ولذا يظهر على هذا المسرح وحده .

كان هذا النجار ككل النجارين في السفن التي تجتاب البحار ، وبخاصة من كان منهم ينتمي الى الحواتات ، ذا خبرة في حرف وصناعات عديدة الى جانب حرفته ، وكان يمارسها الى حدَ عملي في سهولة ودون تعمّل ، إلا ان حرفة النجارة كانت هي الجذع القديم الذي تتفرّع منه بقية الحرف اليدوية المتصلة ـ اتصالاً كثيراً او قليلاً ـ بمادة الخشب من حيث هي مادة فرعية ؛ وزيادة على الملحظ العام الذي أضفيناه على نجار الباقوطة فيما تقدم نقول انه كان ينفرد في كفايته في ممارسة تلك الامور الطارئة الآلية التي تبلغ الالف عدداً ولا تحمل اسماء مميزة لها ، وهي امور تجري مراراً وتكراراً في السفينة الكبيرة حين تقضي في رحلتها ثلاث سنوات او اربعاً في بحار موحشة نائية . دع عنك ذكر استعداده لانجاز الشؤون العادية من اصلاح القوارب المشقوقة والسواري المتخلعة واصلاح اشكال المجاذيف التي كلّ حدها وتركيب الكوى في ظهر السفينة وغرز الخوابير الجديدة في الالواح الجانبية وغير ذلك من المواد المختلفة المتصلة مباشرة بصنعته ، دع ذلك كله تجد أنه زيادة عليه كان ماهراً دون تردد في كل انواع الاهليات المتضاربة سواء في ذلك المفيد منها او الذي يتولد عن نزوة .

وكان المسرح الذي يمثل عليه كل هذه الفصول المتعددة هو الدكة ذات الملزمات ، وهي طاولة طويلة خشنة ثقيلة مزودة بملزمات عديدة من حجوم مختلفة بعضها من حديد

وبعضها من خشب ، وهذه الدكة تظل في جميع الاوقات مربوطة بالعرض الى جانب السفينة ربطاً وثيقاً في مواجهة مؤخرة مصانع التصفية إلا حين تكون الحيتان مجنبة الى المركب .

هذا وتد للحبال اكبر من ان يدخل بسهولة في الثقب ، فالنجار « يلزمه » بين فكي واحدة من ملزماته المعدة ابداً وعلى التوّ يسحل منه وتداً اصغر . وذلك طير من طيور البر ضال ذو ريش غريب فهو يتلدد حائراً على ظهر السفينة ويؤخذ أسيراً : فالنجار يصنع له قفصاً على هيئة الباغوده « المعبد الهندي » من قضبان مجردة معروقة بيضاء تتخذ من عظم الحوت الاثيں تعارضها قضبان اخرى من عاج حوت العنبر . ويوهي أحد المجذفين رسغه فيطبخ له النجار غسولاً مسكناً . ويتوق اسطب الى ان يرى على شفرة كل مجذاف لديه صور النجوم مدهونة بالزنجفر ، فيلزم النجار كل مجذاف في ملزمته الخشبية الكبيرة ويزوده في انتظام بالصور النجومية ؛ ويرغب احد البحارة في ان يعلق في أذنيه شنوفاً من عظم القرش فيثقب النجار له حجوتي أذنيه . وهذا آخر يشكو ألماً في ضرسه فيبرو النجار ملقطه ويلزم احدى يديه الى الدكة ويأمره ان يجلس هنالك ، غير ان الفتى المسكين يتوجع متلوياً متفلتاً أثناء العملية قبل ان تبلغ الختام ، أما النجار فيدير مقبض الملزم الخشبي ويومئ إليه ان يدخل فكه فيه ان شاء ان يقتلع النجار ضرسه .

وهكذا كان النجار مستعداً في جميع الامور ، وكان في أدائها جميعاً قليل المبالاة قليل السرعة على حد سواء : كان يحسب الاضراس نتفاً من العاج ، والرؤوس بكرات في قمم الصواري ، وكان يحسب الرجال انفسهم في استخفاف مساحب في سفينة ، ولكن بما أنه كان يعمل في ميدان واسع وينجز هذه المتنوعات بحيوية في المهارة فكل هذا قد يوحي بأنه كان ذا حظ فذ من الذكاء . ولكن الأمر ليس كذلك على وجه الدقة ، اذ لم يكن هذا الرجل يتميز بشيء اكثر من بلادة بليدة مجردة من الحسّ الشخصي ؛ أقول مجردة من الحس الشخصي لانها كانت تلقي ظلها على ما لا يحصر من الاشياء المحيطة حتى لترى وكأنها جزء لا يتجزأ من البلادة العامة التي نتحققها في جميع العالم المنظور ، وهي قد تكون نشيطة دائبة في أحوال لا تحصى ولكنها مطمئنة قارّة أبد الدهر تتجاهلك حتى ولو كنت تحفر أسساً للكاتدرائيات . إلا ان هذه البلادة التي قد تروّع بعض ارتياع فيه تشمل ايضاً فيما يظهر قسوة قلب متشعبة في جميع الوجهات غير انها كانت تنهرها على وجه غريب احياناً روح فكاهة كأنها العكازة عريقة شهدت ما قبل الطوفان تجيء هادرة صافرة تتخللها بين الحين والحين التماعات فضية من الفطنة ، قد تكون من قبيل تلك الفكاهة الصالحة لازجاء الوقت الواقع خلال رقابة منتصف الليل في المنارة المدببة من سفينة نوح . أكان ذلك لان هذا

النجار العجوز كان جواباً مدى الحياة فكان اهتزازه وراءً وأماماً سبباً في انه لم يجعل الطحلب يعلق به ، بل زاد فحتَّ عنه اي عوائق خارجية قد تكون في الاصل عالقة به ؟ كان تجريداً مجرداً ؛ عدداً صحيحاً من غير كسر ؛ ناداً عنيداً كأنه وليد ؛ يحيا دون انتماء مبيّت الى هذا العالم او العالم الآخر . وربما كدت تقول ان هذا النداد الغريب فيه يتضمن نوعاً من الغباء اذ لم يكن يبدو انه يمارس حرفه العديدة بالعقل او بالغريزة او لانه درب فيها محض تدريب او بمزيج من هذه الامور كلها ، سواء أكان مزيجاً متعادلاً او غير متعادل ، وانما كان يؤدي ما يؤديه على نحو أصم أخرس تلقائي حرفي . كان محض امرىء صناع ، اما ذهنه ، ان كان له ذهن أبداً ، فقد ترشح في عضلات أصابعه . كان شأنه شأن احدى ادوات شفيلد المبتكرة ، مفيدة كبيرة الفائدة ولا عقل لها ـ « متعدد في مفرد » ـ تتخذ ظاهر موسى الجيب المعروفة وان كانت اكثر منها انتفاخاً لا تحتوي فحسب على شفرات من جميع الحجوم وانما تحتوي ايضاً مثبتات القلاووظ والبرانم والملاقط والمخارز والأقلام والمساطر ومبارد المسامير وسكاكين التخويش . فاذا أراد أسياد النجار ان يستغلوه مثبتاً بقلاووظ فكل ما عليهم ان يفعلوه هو ان يفتحوا ذلك الجانب منه ، واذا بالقلاووظ ثابت في موضعه ، واذا شاءوا اتخاذه ملقطاً رفعوه من رجليه فاذا هو ملقط في ايديهم .

ولكن هذا النجار الحريف المتعدد الادوات الذي يعمل بالفتح والاغلاق لم يكن ـ حسبما سبق ان ألمحنا ـ محض آلة ذاتية الحركة . فاذا لم يكن ثمة روح منبثة فيه فقد كان فيه شيء خفي يعمل عمل الروح على نحو شاذ . ماذا كان ذلك الشيء ؟ أكان روح الزئبق او بضع قطرات من ايدرات الامونيوم ؟ ذلك ما لا احد يدريه ، غير انه كان ثمة ؛ وثمة عاش نحو ستين عاماً او تزيد . وكان مبدأ الحياة هذا الماكر المتدسس فيه الذي لا نجد له تعليلاً وتفسيراً ، ذلك المبدأ هو الذي جعله يقضي اكثر الوقت مناجياً نفسه ، إلا انه ليس إلا كالدولاب الجماد الذي يناجي نفسه بالطنين ، او قل ان جسمه كان مأوى الحارس وكان هذا المناجي حارساً فيه فهو يتحدث طوال الوقت ليبقى مستيقظاً .

١٠٨

آخاب والنجار

ظهر السفينة ـ النوبة الاولى من الحراسة الليلية

«النجار واقف أمام دكته ذات الملازم وهو منهمك في برد دسار عاجي من أجل الرجل على ضوء قنديلين، والدسار مثبت في الملزمة، وتنتشر حول الطاولة شظايا من العاج وقطع الجلد واللباد والبراغي ومختلف الادوات من كل نوع. والى الامام تلوح نار الحدادة حيث القين منكب على العمل».

المبرد يصيء والعظمة تصيء . صلبة هي التي يجب ان تكون رقيقة ، ورقيق هو الذي يجب ان يكون صلباً ، كذلك بختنا نحن الذين نبرد الفكوك القديمة والظنابيب . لنجرب واحدة أخرى . أجل ، هذه أحسن (يعطس) هالو ، غبار العظم هذا (يعطس) ، ولكن (يعطس) نعم انه (يعطس) رحمة الله على روحي ان العِطاس لا يدعني أتكلم ، هذا ما يجنيه رجل عجوز يعمل في خشب موات . إنشرْ شجرة حية فانك لا تصادف هذا الغبار ، اقطع عظمة حية فلا تجده ايضاً (يعطس) . هيا . هيا يا اسمط العجوز أعطني يدك ودعنا نأخذ تلك الهراوة وبرغي الابزيم . سأكون مستعداً لهما في الحال . من حسن الحظ (يعطس) أننا لن نصنع مفصل ركبة فذلك يحير بعض الشيء وانما نصنع قصبة ساق ـ وهذا أمر سهل كصنع مساند الدوالي ، إلا أني أحتاج ان اصقلها جيداً . المهم هو الوقت ، الوقت ، لو كان لدي وقت لجعلت منه رجلاً صالحة كخير (يعطس) رجل انحنت لسيدة في قاعة . تلك الارجل المصنوعة من جلود الغزلان او العجول ، رأيتها في فترينات الحوانيت ولا أقارنها بها . انها تتشرب الماء ، انها تتشرب وتصبح سبباً في الروماتزم ولابد من تطبيبها (يعطس) بالغسول والماء كالأرجل الحية . قدك ؛ قبل ان أنجزها لابد ان أدعو «جنابه» وأرى ان كان الطول مناسباً ، لعلها أقصر من اللازم ـ فيما أخمّن ـ ان كان يعتورها شيء . ها . ذلك هو الكعب! نحن محظوظون . ها هو قادم او لعله غيره ما في قدوم أحد من ريب .

آخاب [متقدماً] .

[خلال المنظر التالي يعتاد العطس النجارَ بين الحين والحين] .

ـ هلا يا صانع الآدميين!

ـ في الوقت المناسب جئت يا سيدي ؛ ان سمح القبطان فإني أقيس الطول ، دعني آخذ القياس سيدي .

ـ تقيس طول الرجل! حسناً ؛ ليست هذه أول مرة . هيا! تنبه دع اصبعك عليها ؛ هذه ملزمة مفحمة تلك التي لديك هنا أيها النجار ، دعني أحس قبضتها مرة . كذا . كذا . انها لتؤذي بالقرص بعض الشيء .

ـ أواه يا سيدي انها تكسر العظام ، حذار! حذار!

ـ لا تخف انا أحب القبضة المحكمة ، أحب ان أحس شيئاً في هذا العالم الزلق يتشبث ويقبض باحكام ، ايها الرجل . ماذا يفعل بروميثيوس هنالك ـ أعني الحداد ـ فيم هو ؟

ـ لابد أنه يصنع برغي الابزيم .

ـ صدقت . هذه مشاركة فهو يصنع الجزء العضلي . انه يوقد شعلة حمراء قوية!

ـ أجل سيدي ؛ لابد من ان تكون لديه الحرارة البيضاء من أجل هذا النوع من العمل الدقيق .

ـ ها . ها . لابد له . اظن هذا شيئاً حافلاً بالمغزى ، أعني ان الاغريقي القديم بروميثيوس الذي صنع الناس كان حداداً ، ولابد ، ووضع فيهم نسمة الحياة من النار لأن ما يصنع من النار لابد ان ينتمي الى النار ، فوجود جهنم أمر محتمل . كيف يتطاير السناج! لابد ان تكون هذه هي الحثالة التي صنع بروميثيوس منها الافريقيين . نجار! حين ينتهي من صنع الابزيم فقل له ان يصنع زوجاً من الاكتاف الفولاذية فعلى ظهر السفينة تاجر جواب يحمل حملاً يقض الظهر .

ـ سيدي ؟

ـ أمسك عليك ؛ مادام بروميثيوس في الميدان فاني سآمر بصنع انسان كامل حسب أنموذج مرغوب . أولاً طوله وهو في جوربه خمسون قدماً ، وأما الصدر فيسوى على نسق نفق التيمس وللرجلين جذور تقفان عليها في مكان واحد ، والذراعان ؛ محيط الواحد منهما عند الرسغ ثلاثة أقدام ، القلب أبداً . جبهة نحاسية وحوالي ربع فدان من المخ الرقيق ، ثم دعني أنظر ـ أأوصي بعينين تريان الى خارج ؟ كلا وانما أضع ناروزة في يافوخه لتضيء نحو الداخل . ويحك تلقَّ الأمر وامضِ به!

ـ ترى عم يتكلم ولمن يتكلم ، أود ان أعرف ؟ أأظل واقفاً هنا ؟ (منتحياً جانباً) .

ـ من يصنع قُبة دون كوة فانما ذلك منه عدم مبالاة في فنه المعماري لا . لا . لا . لابد من قنديل .

ـ ها . ها . ها هو . ها هما اثنان يا سيدي فأنا يكفيني واحد منهما في عملي .

ـ لم تزجّ كشاف اللصوص في وجهي يا رجل ؟ ألست تعلم ان دفع الضوء في الوجه أسوأ من اهداء المسدسات .

ـ ظننتك سيدي تكلمت الى النجار .

ـ النجار ؟ ذلك ـ لكن لا ـ أقول : هذا عمل متقن جداً مهذب غاية في التهذيب ، ذلك الذي تقوم به أيها النجار ـ او تحب ان تكون مادتك هي الصلصال .

ـ سيدي ؟ الصلصال ؟ تقول الصلصال يا سيدي ؟ ذلك طين ، ونحن نترك الطين لحفاري الخنادق يا سيدي!

ـ يا له من فتى زنديق! مابك تعطس كثيراً ؟

ـ العظم مغبّر يا سيدي .

ـ اتعظ اذن ، وحين تموت لاتدفن نفسك دون أنوف الناس الاحياء .

ـ سيدي ؟ اوه! آه! ذلك ما أخمنه ـ نعم ـ رباه!

ـ اسمع ايها النجار . لاغرابة اذا قلت لك إنك تدعو نفسك عاملاً صنّاعاً متقناً كأنك عامل ، أليس كذلك ؟ طيب . اذن اذا أحسست عندما امتطي هذه الرجل التي تصنعها ان هناك رجلاً أخرى في نفس المكان معها فهل يكون هذا ثناء على عملك ؟ وأعني بالرِجل الثانية يا نجار رجلي القديمة المفقودة ، أعني ذات اللحم والدم . ألا تستطيع ان تطرد هذا الاحساس عني كما طُرد آدم من الجنة ؟

ـ حقاً سيدي أخذ بصيص من الفهم يتسرب الى رأسي . نعم ، سمعت شيئاً غريباً من هذا القبيل يا سيدي وكيف ان الرجل الذي انحطم صاريه لا يفقد الاحساس تماماً بصاريه القديم بل يظل الصاري يخزه أحياناً . أيجوز لي ان أسأل في تواضع يا سيدي أحقاً ان الحال كذلك ؟

ـ هو كذلك ايها الرجل . اسمع . ضع رجلك الحية هنا في الموضع الذي كانت فيه رجلي . ها هنا رجل واحدة في نظر العين ولكن الروح تبصر اثنتين . حيث تحس انت بالحياة التي تخز هناك ، تماماً ، هناك ، هناك أحس بها أنا ايضاً في أدق صورها . أهذا لغز ؟

ـ بل اسميه في تواضع معضلة ، يا سيدي .

ـ أصخ اذن . كيف تعرف ان شيئاً حياً مفكراً لا يقف خفياً متغلغلاً بالضبط حيث تقف أنت الآن ؟ أجل ، بل يقف هنالك رغماً عنك ؟ في أشد ساعات الوحدة اذن ألا تخشى من يسترقون السمع ؟ أمسك ، لا تتكلم . واذا كنت انا ما أزال أحس وخز رجلي المحطومة ، وان طال العهد على انفصالها عني ، فلمَ لا تحس أنت ايها النجار آلام جهنم النارية الى الابد ودون ان يكون لك جسم ؟ ما قولك ؟

ـ رباه! حقاً ، سيدي ، ان كان الامر يبلغ ذلك فلابد من ان أعيد الحساب ، أظنني لم أحتقب منه رقماً صغيراً يا سيدي .

ـ اسمع ان الرؤوس التي في شكل البودنج ليس لها ان تقدم المقدمات المنطقية ـ كم يستغرق انجاز الرجل ؟

ـ لعله يحتاج ساعة يا سيدي .

ـ جرب غباءك في انجازها وأحضرها اليّ (يدور ذاهباً) آه أيتها الحياة . ها أنا مستكبر كأحد الارباب الاغريقية ومع هذا أراني مديوناً لهذا الغبي من أجل عظمة أقف عليها ، لعن هذا التقارض البشري الذي لايستغني عن دفاتر الحسابات ؛ أستطيع ان اكون طليقاً كالهواء ، وها أنا مقيد في دفاتر العالم كلها . انا غني حتى لقد كنت أستطيع ان أقف نداً لأغنى البريتوريين في مزاد الامبراطورية الرومانية (وكانت يومئذٍ هي العالم) ومع ذلك فأنا مدين باللحم في اللسان الذي أتشدق به ؛ وحق السماء لأحضرن بوتقة وأدخل فيها وأتلاشى حتى أحولَ عظمة فقارية صغيرة موجزة .

النجار [مستأنفاً عمله]

« حيلك! حيلك! اسطب خير من يعرفه ، ويقول اسطب دائماً انه طوريّ[1] . لا يقول شيئاً سوى هذه الكلمة الصغيرة الجامعة : «طوريّ» . يقول اسطب فيه : طوري ؛ هو طوري ـ طوري ، طوريّ ولايفتأ يدندن بها في اذن السيد استاربك طول الوقت ـ سيدي هو طوري ، طوري ، طوري ، طوري جداً . وها هي رجله! أجل ، كلما فكرت فيها وجدت فيها رفيقته في الفراش! انه اتخذ عصا من عظم فك الحوت زوجة ؛ وهذه هي رجله ، سيقف على هذه . كيف قال ان رجلاً واحدة تقف في ثلاثة مواضع ، والمواضع الثلاثة جميعاً تقف في جهنم ، كيف كان ذلك ؟ آه . لا أعجب اذا نظر اليّ بازدراء . انا انسان غريب التفكير أحياناً ، هكذا يقولون عني ، ولكن هذا لايجيء إلا من قبيل المصادفة . ان قامة قصيرة قميئة مثل قامتي

(١) طوريّ : متقلب المزاج

يجب ألا تضطلع بالخوض في المياه العميقة مع القباطنة الفارعين ذوي البنية السامقة كبنية مالك الحزين ؛ مثلي اذا نزل في الماء داعبه الماء تحت ذقنه في سرعة ، فأرسل صرخة عالية يطلب قوارب النجاة . وها هي رجل مالك الحزين ، طويلة دقيقة ، بالتأكيد! اكثر الناس لديهم رجلان تعيشان العمر كله وما ذلك الا لانهم يستعملونها في شفقة مثلما تستعمل العجوز ذات القلب الرقيق حصاني عربتها العجوزين المرتجفين كبراً وهزالاً . أما آخاب ، أواه ، انه سواقٌ حُطَم . طرح ساق احدى رجليه الى الموت وعرقب الاخرى طول الحياة ، وها هو الآن يلبس أرجلاً عظمية يربطها بالخيوط . هالو انت يا اسمط! مدّ يدك بتلك البراغي ولننتهِ من هذه الرجل قبل ان يجيء نافخ الصور داعياً بصورِهِ جميع الارجل ، أصلية كانت او مصنوعة ، مثلما يدور رجال المَعاصر ليجمعوا براميل البيرة القديمة كي يملأوها مرة أخرى . أي رجل هي! تبدو وكأنها رجل حية ، قد تلاشت على الصقل فلم يبقَ الا لبها . سيقف عليها غداً ، وسيذرع بها المسافات . هالو! كدت أنسى قطعة الاردواز البيضوية الصغيرة أعني قطعة العاج الملساء حيث يقيد المسافات . كذا . كذا الى الازميل ، الآن ، والمبرد وورق الصنفرة!

١٠٩

آخاب واستاربك في القمرة

كانوا يضخّون السفينة حسبما جرت العادة في الصباح التالي وها هو الزيت الذي ذهب مع الماء غير قليل . لابد ان تكون البراميل في الاسفل قد اصيبت بعطب فتسرب الزيت منها . وأبدى القوم كثيراً من الاهتمام ونزل استاربك الى القمرة لينقل هذا الخبر المزعج* .

عندئذ كانت الباقوطة من الجنوب والغرب تقترب من فرموزه وجزائر باشي التي يقع بينها احد المنافذ الاستوائية المؤدية من المياه الصينية الى المحيط الهادي . فلما دخل استاربك على آخاب وجده قد نشر امامه خريطة عامة للأرخبيلات المشرقية ، وخريطة اخرى منفصلة تمثل الشواطىء الشرقية من الجزائر اليابانية ـ نيفون و ماتسمي و سيكوكه . وكان الرجل العجيب قد قطب جبينه وهو يتتبع طرقه القديمة ، وقد جعل رجله العاجية الجديدة الناصعة تطوق قائمة الطاولة المثبتة بالبراغي وحمل في يده مدية ذات كلاّب طويل للتقليم ، وجعل ظهره نحو الباب الشارع على الممرّ .

وعندما سمع وقع الخطى صاح دون ان يلتفت : «من هذا! عد الى ظهر السفينة! انصرف! »

ـ «القبطان اخاب مخطئ ، هذا أنا . الزيت في العنبر يرشح متسرباً يا سيدي . علينا ان نرفع مرافع الاثقال البرتونية ونستخرج البراميل لمعاينتها » .

ـ «نرفع مرافع الاثقال البرتونية ونستخرج البراميل ؟ أهذا ونحن نقترب من اليابان ؟

---

* في حواتات العنبر التي حملت ايه كمية غير قليلة من الزيت جرت العادة كل نصف اسبوع ـ دون اخلال ـ ان يمدّ خرطوم في العنبر ، وتبلل البراميل بماء البحر ، ثم يصرف هذا في فترات متفاوتة من بعد بمضخات السفينة ، بهذا العمل يريدون ليحفظوا البراميل متماسكة محكمة بالترطيب ، بينا يستطيع الملاحون ان يستكشفوا اي صدع خطير في هذه الشحنة الثمينة وذلك اذا تغيرت طبيعة الماء الذي يسحبونه .

نوقف السفينة أسبوعاً هنا ، لترأب مجموعة من الاطواق العتيقة ؟ » .

ـ «اما ان نفعل هذا يا سيدي او نضيع زيتاً في يوم اكثر مما قد نكسبه في عام . ان ما قطعنا عشرين ألف ميل للحصول عليه يستحق الحرص يا سيدي » .

ـ « صحيح ، هو كذلك ان استطعنا ان نحصل عليه » .

ـ « كنت أتحدث عن الزيت في العنبر يا سيدي » .

ـ « وأنا لم اكن اتحدث عن هذا او افكر فيه ابداً . انصرف! دعه يرشح ، أنا نفسي ارشح . اجل رشحات في رشحات . لست فحسب ملينأ ببراميل ترشح وانما هذه البراميل الراشحة مودعة في سفينة مشقوقة . وهذه ورطة اسوأ من حال الباقوطة ايها الرجل . ولكنني لا أقف لأرأب الصدع الذي فيَ ، اذ من ذا الذي يستطيع ان يجد الصدع في الهيكل المثقل وكيف يمكن رأبه إذا وجدته في عاصف الحياة العاوي ؟ استاربك! لن آمر برفع مرافع الاثقال البرتونية » .

ـ « ماذا يقول اصحاب السفينة يا سيدي ؟ » .

ـ « ليقفوا على شاطىء نانتوكت ويتفوقوا على صوت الزعزع بصراخهم . ماذا يهم آخاب ؟ اصحاب السفينة ، اصحاب السفينة ؟ دائماً تهرف لي يا استاربك عن هؤلاء التعساء كأن اصحابها هم ضميري . اعلم ان صاحب الشيء هو آمره الموجّه . وأصخ يا هذا فان ضميري في آرينة هذه السفينة ـ عد الى ظهر السفينة! » .

فقال الضابط المحمر خجلاً وهو يتقدم في القمرة بجرأة غريبة في توقيرها وحذرها حتى لكادت تبدو انها تحاول بكل وجه ان تتجنب أبسط ضروب الاعلان عن نفسها وانها ايضاً في داخل النفس لتبدو قليلة الثقة بذاتها : « رجل افضل مني قد يغرس في نفسك ما قد يستنكره ـ على عجل ـ في من هو اصغر منك سناً ، اجل ، وفي من هو اكثر منك سعادة ، يا قبطان آخاب » .

ـ « يا للشياطين! ابلغت بك الجرأة حدّ ان تنظر الي ناقداً ؟ انصرف الى ظهر السفينة! » .

ـ « لا يا سيدي ، لم يحن اوان انصرافي ، ارجوك واتوسل ؛ وأنا أجرؤ يا سيدي ـ على ان امتنع عن الامتثال! ألن يفهم احدنا الآخر فهماً خيراً مما كنا فيه حتى اليوم يا قبطان آخاب ؟ » .

تناول آخاب غدارة محشوة من وقب في الصندوق ذي الكوى (وهو يشكل جزءاً في اكثر الاثاث المزودة به قمرات من يسافرون في المحيط الجنوبي) وصوبها نحو استاربك وهتف : « هناك اله واحد هو سيد الارض وقبطان واحد هو سيد الباقوطة ، عد الى ظهر السفينة! » .

لو رأيت لحظة عيني الضابط وهما تومضان وخديه الملتهبين لكدت تظن انه حقاً اقتبس وهجاً من الانبوب المصوّب نحوه . ولكنه ضبط مشاعره ونهض في بعض هدوء وتوقف لحظة وهو يغادر القمرة وقال : «لقد هجت غضبي ولم تحقرني يا سيدي ، وانا اسألك ألا تأخذ حذرك مني لذلك ، قد تضحك ولكن ليكن آخاب على حذر من آخاب . حذار من نفسك ايها الشيخ » .

فتمتم آخاب حين توارى عنه استاربك : «انه يزداد شجاعة ولكنه مع ذلك يطيع . تلك شجاعة محترزة شديدة التوقي! ما الذي قاله ـ ليكن آخاب على حذر من آخاب ـ في كلامه خبيء!»

ثم اتخذ الغدارة عكازاً ـ دون ان يشعر ـ واخذ يذرع القمرة الصغيرة جيئة وذهوباً وجبينه مقطب صارم وسرعان ما اخذت الغضون الكثيفة فوق جبهته تملّس فأرجع الغدارة الى كوّتها وصعد الى ظهر السفينة .

واقترب من الضابط استاربك وقال له بصوت خفيض : «انت نعم الرفيق» ثم رفع صوته مخاطباً البحارة وقال : «انشروا الاشرعة النبيلة العليا ، ولفوا الاشرعة العليا أماماً وخلفاً ؛ اسندوا الدعامة الساندة الكبرى ، عالوا مرافع الثقل البرتونية ، وانشلوا البراميل من العنبر الرنيس » .

ربما كان من العبث ان نستنتج على وجه الدقة لِمَ تصرف آخاب كذلك فيما يتصل باستاربك ؛ لعل ذلك كان ومضة من النزاهة فيه او كان سياسة ذكية بصيرة حجبت بصلف في تلك الحادثة ادنى عرض من اعراض الكراهية المصرّحة ، مهما تكن عابرة مؤقتة ـ نحو رأس الضباط في سفينته . وأياً كان الامر فان اوامره نفذت ورفعت مرافع الثقل البرتونية .

١١٠

كويكوج في تابوته

وعند التفتيش وجدوا ان البراميل التي أودعوها اخيراً في العنبر كانت سليمة لا عيب فيها ، وأن الصدع لابد ان يكون بعيداً في البراميل الجوانية . ولما كان الجو هادئاً مضوا يستخرجونها موغلين وهو يوقظون البراميل الضخمة الكبيرة اللاصقة بالأرض من سباتها ، ويرسلون تلك المناجذ الجسيمة من حلكة الليل الى ضياء النهار في أعلى السفينة . وتوغلوا متعمقين ، وتراءت البراميل الدنيا قديمة متهرئة مطحلبة حتى ان من كان يراها ليكاد ان يتوقع بعدها خابية حجرية في الزاوية تحتوي نقود القبطان نوح قد لصقت عليها صور من اعلانات ضخمة تحذر العالم العجوز المتصابي من الطوفان فيضيع تحذيرها سدىً . ورفعوا برميلاً اثر برميل مليئة بالماء والخبز ولحم البقر وقطع السواري وحزماً حديدية من الاطواق ، حتى أصبحت الربعات عند ظهر السفينة مكتظة لا يستطاع التنقل فيها ، وأصبح الهيكل الحالي دونها يردد الصدى تحت وطأة الاقدام ، كأنما يدوس المرء على رموس خاوية ، وأخذت السفينة تترنح وتتدحرج في البحر كأنها دمجانة معبأة بالهواء . وثقل رأسها حتى كانت كأنها طالب خاوي المعدة وقد حشا كل فلسفة أرسطوطاليس في رأسه . ومن حسن الحظ ان الزعزع الهوجاء لم تقم بزيارة البحارة أثناء ذلك .

في هذا الوقت نفسه أصيب كويكوج رفيقي الوثني المسكين وصديقي الحميم بحمى قربته كثيراً من النهاية التي لا تعرف نهاية .

ولابد من أن أقول هنا ان مهنة التحويت ليس فيها موظفون فخريون ، يتقاضون الأجر ولا يعملون ، بل ان الارتقاء في مناصبها والخطر توأمان لا يفترقان ، وكلما اعتليت في المنصب بذلت قسطاً أكبر من الجهد الى ان تصبح قبطاناً . وكذلك كان حال كويكوج المسكين ، فهو زرّاق ليس يجب عليه فحسب ان يواجه هياج الحوت الحي ولكن عليه

ـ حسبما رأينا من قبل ـ ان يمتطي ظهره وهو ميت في البحر المتضرب ، وأخيراً عليه ان يهبط في ظلمة العنبر ، وينضح العرق بمرارة طوال النهار في ذلك المحبس التحتاني ، ويستخرج بعزم أبشع البراميل ويفحص تعبئتها . وأقول بإيجاز ان الزراقين بين الحواتين هم «القَوَمة» ـ وكذلك يسمون .

يا لكويكوج المسكين! عندما انتزع نصف احشاء السفينة ، او قرابة ذلك ، كان حرياً بك ان تنحني فوق الكوة وان تطل عليه لتراه وقد تجرد من ثيابه فلم يبقَ عليه الا التبان الصوفي ، وأخذ ذلك المتوحش الموشوم يزحف في وسط الرطوبة واللزوجة كأنه سعلاة خضراء بقعاء في قعر بئر . وقد دلَّ المستودع على انه كان بالنسبة لذلك الوثني المسكين بئراً او بيتاً من الجليد . اذ رغم الحرارة الناجمة عن جهاده أصيب ـ وما أغرب ذلك ـ بقشعريرة مفزعة تحولت الى حمّى ، وأخيراً وبعد عذاب دام بضعة ايام ، أضجعوه في أرجوحته قريباً من عتبة باب الموت . كيف ذوى وأدركه الهزال في تلك الايام القليلة البطيئة حتى بدا وكأن ما بقي منه ـ عدا هيكله ووشمه ـ شيء ضنيل . كل شيء ما عدا هذين هزل وزاد بروز وجنتيه حدة ، أما عيناه فبدا أنهما ـ رغم ذلك ـ تستديران وتكتملان وأصبح لهما نعومة في البريق غريبة ، واذا رأيتهما وهما تنظران اليك في دعة وعمق من وسط المرض والاعياء وجدت فيهما شهادة عجيبة على تلك العافية الخالدة فيه التي لا تموت ولا يدركها الوهن . وبدت عيناه تستديران وتستديران كحلقات الابدية ، مثلما ان الدوائر في الماء تمتد وتنداح حين تصبح باهتة ضعيفة . ولقد تتسلل اليك رهبة لايمكن ان تُوصَف او تُسمى ، وأنت تجلس الى جانب ذلك المتوحش الشاحب الذاوي وتبصر في وجهه أشياء غريبة كالتي رآها من شهدوا موت زرادشت[1] . ذلك ان ماهو عجيب مخيف حقاً في الانسان لم يصنع بعد في كلمات ولم يدوّن في كتاب . والاقتراب من الموت وهو مصوب نحو الناس جميعاً يطبع الناس جميعاً بانكشاف نهائي لا يستطيع ان ينبئنا عن حقيقته إلا مؤلف يجيئنا من عالم الموتى . ولنقل مرة أخرى : ان اي كلداني او اغريقي محتضر لم يملك لدى احتضاره أفكاراً أعلى وأقدس من تلك الافكار التي كنت ترى ظلالها الغريبة زاحفة فوق وجه كويكوج المسكين وهو مضطجع في سكون في أرجوحته الخطّارة والبحر المتدحرج يهدهده بلطف الى راحته الابدية ، وتيار المحيط الخفي يرفعه أعلى فأعلى نحو سمائه المقدورة .

ولم يبقَ أحد في البحارة إلا وأدركه اليأس من شفائه . أما ما كان كويكوج نفسه

---

(١) نزل برق من السماء ، فارتفع فيه كأنه نجم وغاب عن الانظار .

يحمله من رأي حول وضعه حينئذٍ فقد دلت عليه بشدة أكرومة غريبة سألها رفاقه . فقد دعا إليه أحد الرفاق في نوبة الصباح الرماديّ حين كان الفجر ينبلج وأمسك بيده وقال انه حين كان في نانتوكت اتفق له ان رأى زوارق صغيرة مصنوعة من خشب أسود كخشب الحرب الكثير الذي يستعمل في وطنه ، وسأل عنه فعلم ان جميع الحواتين الذين ماتوا في نانتوكت وضعوا في تلك الزوارق السوداء نفسها وقد سرّه كثيراً أن يتصور نفسه مسجّى في واحد منها ، فذلك أمرٌ لم يكن مبايناً للعادة المتبعة بين بني قومه ، ذلك أنهم كانوا بعد ان يحنطوا المحارب الراحل يسجّونه في زورقه ، ويتركونه ليعوم بعيداً نحو أرخبيلات النجوم ، اذ كانوا يعتقدون ان النجوم جزر ، وان بحارهم الوديعة التي لا تحدها يابسة تتداخل مياهها بعيداً وراء جميع الآفاق المرئية ، مع السماوات الزرقاء ، ومن هذا التداخل تتكوّن الامواج الكبيرة البيضاء في نهر المجرة . وأضاف يقول : انه اقشعرّ وهو يتصور أنهم سيضعونه في أرجوحته حسب العادة البحرية المألوفة ، ويقذفون به كأنه شيء كريه الى اسماك القرش التي تلتهم الموت لو عرض لها . كلا انه ليرغب في زورق كتلك الزوارق في نانتوكت ، فذلك أقرب الى طبيعته وأشكل بأمثاله ، فانه حوات وهذه الزوارق المتخذة توابيت تشبه قوارب التحويت من حيث أنها دون أرينة ، وان كان هذا يعني ضلالاً في الاتجاه ، واذعاناً للريح حتى تنحدر بالزورق في خضم العصور المبهمة .

وحين علم من في مؤخرة السفينة بهذا المطلب الغريب ألقوا الأمر الى النجار على التو ليلبي ما أمر به كويكوج أياً كان فحواه مادياً ومعنوياً . وكان على ظهر السفينة خشبة عتيقة ذات سمة وثنية ولون كلون التوابيت ، قطعت في رحلة طويلة سابقة من الغابات الاصلية في جزائر لاكادي(١) ، فأوصي النجار ان يصنع التابوت من تلك الألواح السود . وما كاد النجار يتلقى هذا الأمر حتى تناول آلة القياس ، ثم توجه بكل ما في طبيعته من استجابة سادرة الى المنارة ، وقدّر مقياس كويكوج بمنتهى الدقة والضبط وهو يخط على جسمه بالطباشير ، دون اخلال ، كلما نقل آلة القياس .

وانبعث بحار لونج آيلاند يقول : «آه يا للمسكين! عليه ان يموت الآن» .

وعاد النجار الى دكته ذات الملازم فقاس عليها ـ اهتماماً بالاصلح وطلباً لنموذج يعود اليه في عمله ـ طول التابوت الذي سيصنعه وتيقن ان صورة النموذج لن تنطمس حين حزّ حزّين في طرفي الدكة . وحين انتهى من ذلك أحضر الالواح والادوات وشرع يعمل .

(١) لعله يعني جزائر لاكاديف على مسافة من الساحل الجنوبي الغربي من الهند ، وقد عرفها البحارة العرب منذ عهد بعيد وسموها المائة ألف جزيرة .

وحين دق آخر مسمار في ذلك النعش وسحج غطاءه بالفارة وثبته في مكانه ، حمل التابوت - بخفة - على كتفه ، وتقدم به ، متسائلاً أتراهم في ذلك الصوب على استعداد لتلقيه .

وتأدى الى سمع كويكوج صرخات الناس المستائين الذين يمازج استياءهم بعض الدعابة ، حين أرادوا وهم على ظهر السفينة ان يبعدوا التابوت ، فأمر - مثيراً الذهول في كل نفس - ان يحضروا اليه ذلك الشيء على التوّ ، فلم يحرموه ما طلب ، لان بعض المحتضرين من بين جميع البشر أشدهم جبروتاً وطغياناً ، وبما ان عهد تنكيدهم للاحياء لن يطول ، فان هؤلاء المساكين يجب ان يقابلوا بالهوادة والتدليل .

وانحنى فوق التابوت من حافة أرجوحته وتأمله طويلاً بعين فاحصة ، ثم دعا برمحه ونزع منه القناة وجعل السنان في التابوت مع واحد من بدالات قاربه . وتلبية لرجائه ايضاً صفت قطع البسكويت حول الجوانب من داخل ، وعند الرأس وضعت زجاجة من ماء قراح ، وعند التجويف المخصص للقدمين ثبت جراب صغير من التراب المخلوط بالخشب ، وطويت قطعة من قماش الأشرعة وجعلت وسادة ، ورجاهم كويكوج ان يرفعوه ويضعوه في سريره الاخير ، ليجرب ما فيه من بواعث الراحة ان كان فيه شيء منها ؛ واضطجع هنالك بضع دقائق دون حراك ثم سأل أحدهم ان يذهب الى حقيبته ويستخرج منها إلهه الصغير يوجو ثم عارض ما بين ذراعيه فوق صدره ويوجو بينهما وسألهم ان يضعوا فوقه غطاء التابوت (كان يسميه باب التابوت) ، وكان الجزء الواقع جهة الرأس من ذلك الغطاء يدور على عقب من جلد ، فأدير ، وتمدد كويكوج في تابوته لا يبدو منه شيء سوى وجهه المطمئن الهادئ . وتمتم أخيراً بلغته Rarmai : (معقول - هين) ثم أشار لهم كي ينقلوه الى أرجوحته .

ولكن قبل ان يتم نقله جاء اليه بيب وكان مايزال يحوم قريباً منه في مكرّ - طوال ذلك الوقت - فاقترب من حيث يضطجع وأمسك بيده وهو يرسل تنهدات رقيقة ، أما في يده الأخرى فكان يحمل طنبوره :

« أيها الجوّاب المسكين! أتراك لن تنتهي من تجوابك المضني ؟ الى أين تمضي ؟ ان حملتك التيارات الى جزائر الانتيل العذبة حيث الشواطئ لا تنبت إلا زنابق الماء فهل لك ان تؤدي لي رسالة صغيرة ؟ فتش عن شخص اسمه بيب فقد منذ زمن بعيد ؛ انا أظنه في تلك الجزر النائية ، اذا وجدته فطيّب خاطره وطمننه اذ انه ولابد أسيان حزين ، ذلك انه خلّف طنبوره وراءه ، وأنا وجدته رج - آ - دج - دج - دج! مت يا كويكوج وسأعزف لك لحن الجناز » .

تمتم استاربك وهو يحدق من الناروزة الى ما دونه : «سمعت ان الناس في الحمى العنيفة وقد استبدت بهم الغيبوبة يتحدثون بلغات قديمة ، وحين تسبر سرّ الأمر يتكشف لك دائماً ان هذه اللغات القديمة كانت تحكى في طفولتهم المنسيّة وكانوا يسمعون بعض العلماء العلويين يتحدثون بها ؛ وأرى حسب معتقدي العميق هذا ان بيب في هذه الحلاوة الغريبة من لوثته يأتي بشواهد سماوية من جميع بيوتنا السماوية . أين تعلم ذلك ألا يكون قد تعلمه هنالك ؟ أصخ . ها هوذا يستأنف حديثه على نحو اكثر غرابة وشروداً» .

- «صفوا اثنين اثنين . لنحيّه تحية القائد . أين رمحه . عارضوا به . رج - آ - دج - دج دج . هُزّاه! ليت لدينا ديكاً رابط الجأش يقعد على رأسه ويصيح! يموت كويكوج رابط الجأش . تأملوا هذا! يموت كويكوج رابط الجأش ، تأملوا جيداً هذا! يموت كويكوج رابط الجأش . أقول : رابط الجأش ، الجأش ، الجأش ، اما بيب القميء الحقير فمات رعديداً . مات وهو يرتعش . هيا اهجموا على بيب! أنصت ، اذا وجدت بيب فخبر كل جزائر الانتيل انه هارب . جبان ، جبان ، جبان! قل لهم انه قفز من قارب التحويت . لن أحرك طنبوري من أجل بيب الحقير ، لن أحييه تحية القائد اذا قدر له ان يحتضر مرة أخرى في هذا المكان . لا . لا . على كل الجبناء العار والشنار! ركبهم العار! ليغرقوا كما غرق بيب الذي قفز من قارب التحويت . العار والشنار!» .

كان كويكوج أثناء ذلك كله مغمض العينين كأنه في حلم ، وأبعد بيب عنه وأعيد الرجل المريض الى أرجوحته .

وبينا كان كويكوج قد أخذ كل أهبة للموت ، وبينا وجد ان تابوته صالح له ، ادركه الانتعاش فجأة وبدا على التوّ ان لا حاجة به لصندوق النجار ، وعلى الاثر قال ما محصّله - حين أبدى بعضهم دهشة جذلى - ان سبب نقاهته المفاجئة هو هذا : في لحظة حرجة تذكر ان لديه على البر واجباً صغيراً تركه دون انجاز ، ولذلك غيّر رأيه في الوفاة ، وأقرّ بأنه لا يستطيع ان يموت حينئذٍ ، فسألوه : هل الحياة والموت من صنع ارادته المهيمنة ؟ فأجاب : يقيناً ؛ ولأقل بايجاز ان كويكوج كان يتصور ان المرء اذا حزم أمره على ان يظلّ حياً فان المرض لا يستطيع ان يقتله ، لا يقتله إلا حوت او عاصف او مخرّب من هذا القبيل عنيف عاثر غبي .

بين المتوحش والمتمدن فرق يستحق التنويه ؛ ان المتمدن المريض قد يستغرق ستة أشهر في دور النقاهة ، اما المتوحش المريض فانه - بوجه عام - يستعيد اكثر عافيته في يوم ، وهكذا استعاد صديقي كويكوج قوته في وقت صالح ، وبعد ان جلس على الدولاب

الرافع بضعة أيام مسترخية متكاسلة (متناولاً الطعام بشهوة قوية) وثب فجأة واقفاً على قدميه وتمطى بيديه ورجليه ، ومطّ قامته وتثاءب قليلاً ثم قفز في رأس قاربه المعلق ، واعتقل رمحاً ، وقال انه مستعد للقتال .

وأدركته نزوة غريبة فاتخذ من تابوته سواناً أفرغ فيه ما كان في جرابه الخيشي من ثياب ونضدها هنالك . وكم من الساعات أنفقها وهو يحفر على الغطاء جميع الصنوف الغريبة من الاشكال والرسوم ، ويبدو انه كان يحاول بطريقته الفجة ان ينسخ نماذج من الوشوم المتلوية فوق جسمه ، وكانت تلك الوشوم من صنع نبي عرّاف راحل في جزيرته ، كتب بتلك العلامات الهيروغليفية على جسمه نظرية كاملة عن السموات والارض ، ومقالةً صوفيةً عن فن بلوغ الحقيقة ، وبذا كان كويكوج في شخصه وكيانه أحجية تتطلب حلاً ، مؤلفاً عجيباً في مجلد واحد ، ولكنه هو نفسه يعجز عن قراءة أسرار ذلك المؤلف ، وان كان قلبه الحيّ ينبض عند تلك الاسرار ، وكان مقدوراً لهذه الاسرار ، من ثمّ ، ان تبلى مع الرقّ الحيّ الذي رقمت عليه ، وتستعصي على الحل حتى النهاية ؛ ولعل هذه الفكرة هي التي أوحت لآخاب بتلك الهتفة الغريبة حين أشاح ببصره ذات صباح عن كويكوج بعد ان تفحصه وهو يقول : «آه يا عذاباً شيطانياً بالأمل أرسلته الآلهة» .

١١١

المحيط الهادي

حين انسابت بنا السفينة عند جزائر باشي دخلنا اخيراً في حومة المحيط الجنوبي العظيم ؛ ولولا أمور اخرى لازجيت لصديقي العزيز المحيط الهادي شكراً لا يبلغه حصر لان ضراعات شبابي التي طال بي انتظارها قد استجيبت ، فذلك المحيط الوقور كان يتدحرج الى الشرق مني على مدى آلاف الفراسخ من الزرقة .

في هذا البحر سرٌّ غريب عذب لا يدرك كنهه الانسان فكأن وثباته الرهيبة الرفيقة تتحدث عن روح خبيئة تحتها كتلك التموجات الاسطورية في مروج افسوس فوق قبر القديس يوحنا الانجيلي[1] ؛ وما أنسب ما ترتفع الامواج وتهبط وتنبسط وتنحسر دون توقف فوق هذه المروج المائية والسهوب البحرية المترامية وحقول بوترز الشاسعة المنتمية الى القارات الاربع جميعاً . هنالك ملايين الاخيلة والظلال المتمازجة والاحلام الغارقة ، وحالات المشي اثناء النوم ، والنشوات ، وكل ما ندعوه حيوات وارواحاً ، هنالك تقبع جميعاً حالمة ، حالمة هادئة ، وتظل الامواج متقلبة ابداً كالنوّام في أسرتهم ، بسبب من تضربها دونها .

هذا المحيط الهادىء المطمئن لو رآته مرة عين المجوسي المتأمل لظلّ من بعدُ البحرَ الذي تؤثره نفسه . فهو الذي يحرك أشد الامواه توسطاً في العالم ، وليس المحيط الهندي والاطلسي إلا ذراعين له . وهذه الموجات نفسها تغسل حواجز المرافىء التي بنيت حديثاً في مدن كاليفورنيا ، التي لم تغرسها احدث اجناس الناس الا بالأمس القريب ، وترحض حوافي البلاد الآسيوية الشاحبة التي ما تزال تحتفظ بفتنتها ، تلك البلاد الاقدم من إبراهيم

(١) اشارة الى ماكان يعتقده بعض السذج من اهالي افسوس ـ حسبما قصّ ذلك القديس اوغسطين ـ من ان يوحنا لم يكن ميتاً وانما كان يتخذ قبره مثلما يتخذ الحيّ سريره وان القبر كان يصعد او يهبط كما يصعد السرير ويهبط .

عهداً ؛ وبين هذا كله تعوم مجرّات من جزر المرجان وأرخبيلات وطينة مجهولة لا نهاية لها وجزائر كجزائر اليابان مستغلقة لا يستطاع ارتيادها . هكذا يطوق المحيط الهادئ المتأله المنطوي على الاسرار جسمَ العالم كله ويجعل جميع السواحل خليجاً واحداً له ويتبدى وكأنه قلب الارض النابض بالمدّ ، واذا ارتفعتَ فوق هذه الاسنمة الخالدة ، انتميت الى رب مضلّ ، وعنا وجهك للرب بان Pan .

ولكن الخواطر عن « بان » قلما استثارت ذهن آخاب وهو واقف كتمثال من حديد في موضعه المعتاد الى جانب حبال المظين فاستنشق بأحد وقبي منخريه - لا واعياً - المسك المعسول من جزائر باشي (وفي غاباتها العذبة عشاق دمثون يتمشون حينئذ ولابد) ، واستنشق بالثاني - واعياً - النفس الملح من البحر الذي دخل حديثاً في حومته ، البحر الذي كان الحوت الابيض البغيض يعوم ولابد فيه حينئذ . وحين انساق الرجل الشيخ على طول الامواه التي تكاد تعد نهائية وانساب نحو ارض التطواف اليابانية ، ترسخت غايته نفسها وتمكنت . والتقت شفتاه كما يلتقي حدّا المِلْزَم ، وانتفخت دال عروق جبهته كأنها جداول قد طفحت ، وفي نومه نفسه انطلقت صيحته من خلال هيكل السفينة المقبب : «الى الوراء جميعاً! ها هو الحوت الابيض ينفث دماً متخثراً!» .

١١٢

الحدّاد

أما برث الحدّاد العجوز القرحان الملطخ بالسواد فقد اغتنم الجو الوديع الصيفي البرود الذي ران على تلك البقاع واستعدّ لمواجهة التكليفات اللازمة المتوقعة منه بعيد وقت قصير ، فلم ينقل عدته المحمولة الى العنبر بعد ان انتهى من نصيبه في تسوية رجل آخاب ، وانما استبقاها على ظهر السفينة مربوطة ربطاً محكماً الى المزلاج الحلقي عند الصاري الامامي ، اذ كان الرؤساء والزراقون وأرباب القوارب لا يفتأون يستثيرونه لبؤدي لهم هذا العمل الصغير او ذاك ، فهو يغير او يصلح او يثقف اسلحتهم المتنوعة وأثاث قواربهم ، وكثيراً ما كانت تحف به حلقة من المتلهفين وكلهم ينتظر دوره من خدماته ، هذا يمسك مجرفة قارب ، وذاك رأس حربة ، وثالث يمسك مزراقاً ، ورابع حربة ، وكلهم يرقب في تململ حركته السحماء وهو دائب جاهد . وعلى الرغم من ذلك كانت مطرقة هذا الشيخ مطرقة صبوراً تصرّفها ذراع صبور ، فلا تذمر ولا جزع ، ولا نكد يصدر عنه ، وانما هو صامت بطيء جاهم يزيد في انحناء ظهره المنكسر تحت وطأة الزمن ، ويجهد جهده كأن الجهد هو الحياة نفسها ، ووقع المطرقة الثقيل هو نبض قلبه البطيء . وكذلك كان الامر ـ ما أتعسه!

مشية خاصة كان يمشيها هذا الشيخ ، مظهر طفيف لكنه مؤلم فاغر في مشيته ، أثار في الملاحين في دور مبكر من الرحلة فضولاً وأذعن لإلحاف اسئلتهم الملحة في النهاية وهكذا حدث ان عرف كل واحد القصة المشينة ، قصة حظه التاعس المنكود .

في منتصف ليلة مريرة من ليالي الشتاء تأخر الحداد ـ ولم يكن تأخره بريئاً طاهراً ـ على طريق تمرّ بين قريتين . فأحسّ ـ احساساً لا تنقصه البلادة ـ ان الخدر المميت يستبد به ، فسعى الى مخزن مهدم يريد ان ينقض واتخذ فيه ملاذاً . فكانت نتيجة ذلك

ان فقد أطراف قدميه . وبعد هذه الفاتحة جاءت اخيراً الفصول الاربعة من السرور - مشهداً مشهداً - تم تلاها الفصل الخامس الطويل - فصل الحزن في مسرحية حياته - وان لم يختم بعد بكارثة الختام .

كان شيخاً واجه في سن تناهز الستين ذلك الشيء الذي ارجأته له الايام من اساليب الحزن الذي يسمونه الدمار ، فقد كان صانعاً ذا مهارة مشهورة وعمل وفير ، فملك بيتاً وحديقة ، ورزق بزوجة شابة عروبٍ في سن ابنته وبثلاثة اطفال مرحين موردي الخدود . وفي كل يوم أحد كانوا يذهبون الى كنيسة مغروسة في حديقة منظرها مجليً للعين ؛ وذات ليلة تحت جنح الظلام تسلل لصّ مستيئس ، زاده تنكره الخبيث الماكر اختفاء وتستراً ، الى بيته السعيد وجرده من كل ما فيه . وأشد حلكة من الظلام ان يكون الحداد نفسه هو الذي هدى ذلك اللص - في جهالة - الى قلب أسرته ؛ كان هو العرّاف الذي يفتح القمقم[١] ، وحين طار ذلك السداد المميت أفلت الشيطان من محبسه وطوى بيته تحت جناحه . كانت دكان الحداد - لاسباب معقولة حكيمة اقتصادية - تقع في الدور الارضي من مسكنه الا انها ذات مدخل مستقل ، وكانت الزوجة الشابة العروب الريّا تنصت دائماً بقلق سعيد ولذة شديدة الى الطرقات القوية تحدثها مطرقة زوجها الشيخ ذي الذراع الفتيّ ، وتتخافت ذبذبات المطرقة حين تمر من خَلَل الابواب والجدران فتتأدى اليها في شيء من عذوبة ، وهي في غرفة أطفالها . وهكذا كان اطفال الحدّاد يهدهدون للنوم بترنيمة حديدية يغنيها رب العمل العصبي .

اواه يا ويلاً على ويل! آه ايها الموت لمَ لا تستطيع احياناً ان تجيء في أوانك ؟ لو انك اخذت الحدّاد العجوز اليك قبل ان يحلّ به الدمار الكامل إذن لوجدتْ أرملته الشابة حزناً لذيذاً ، ولوجد يتاماه أباً محترماً اسطورياً يحلمون به في مقبل السنين ، وكلا الامرين كفاء بالهمّ يستطيع ان يصرعه . ولكن الموت انتزع اخاً اكبر فاضلاً كانت مسؤوليات عائلة أخرى معلقة بكدّه اليومي الصافر ، وترك العجوز الذي لا نفع فيه ماثلاً حتى يجعله بِلى الحياة الكريه اسهل لدى الجنى .

ولمَ نسرد القصة كلها ؟ ان ضربات المطرقة في الدور الارضي اخذت تتضاءل وتخفت ، واصبحت كل ضربة في كل يوم اشد خفوتاً من آخر ضربة ، وجلست الزوجة متجمدة الاطراف عند النافذة ، وعيناها لا تسكبان دمعة ، تحدق بألق في وجوه اطفالها الباكين ،

(١) واضح ان الصورة مأخوذة من بعض قصص ألف ليلة وليلة .

وخبا الكير وامتلأ مصنع الحداد بالرماد ، وبيع البيت ، وغاصت الأم تحت العشب الطويل في باحة الكنيسة ، ولحق بها ابناؤها مرتين ، وذهب العجوز الطريد الشريد الوحيد متلدداً في أسماله ، مصيبته لا يأبه بها احد ، وشيبه يهزأ بكل الضفائر التي تشبه الكتان .

ولعل الموت هو خير عاقبة يتمناها من بلغ هذا الحد ، ولكن الموت ليس فحسب إبحاراً في منطقة تسمى «المجهول الغريب» انه التحية الاولى لامكانات النائي المديد والموحش والمائيّ وما لا ساحل له . لذلك فان العيون التي تشتاق الموت ـ عيون الرجال الذين تبقّى فيهم شيء من وخز الضمير ضد الانتحار ـ يمدّ لها المحيط المضياف الفاتح ذراعيه كل مجاله لصالح مغامرات لا يدركها الخيال ، مغامرات مليئة بالمخاوف عجيبة تَعِدُ بحياة جديدة ، وتغني لها آلاف الحوريات البحرية من قلوب المحيطات الهوادي اللامحدودة : «تعالوا اليّ يا كسيري القلوب ، هاهنا حياة لا يتخللها اثم من موت وسيط . ها هنا عجائب خارقة لا يدركها الموت . تعالوا اليّ . ادفنوا انفسكم في حياة اشدّ اغفالاً ونسياناً من الموت اذا قستموها الى عالمكم الكاره المكروه . تعالوا اليّ! ضعوا شاهد قبركم ايضاً في باحة الكنيسة وتعالوا اليّ ، الى ان نتحد معاً!» .

أجابت روح الحداد هذه النداءات حين أصغت إليها ، شرقاً وغرباً ، عند طلوع الشمس وعند حلول المساء ، وقالت ها انا ذَا آتية! وهكذا ذهب بيرث في رحلة التحويت .

١١٣

نار الحداد

كان بيرث يقف وقد تلبدت لحيته والتفّ في فوطة جاسية من جلد القرش . قبيل انتصاف النهار ، بين النار والسندان ـ وهذا الثاني كان موضوعاً على وضم خشبي حديدي ـ ويده الواحدة تمسك رأس حربة مدسوسة في الجمر ، ويده الأخرى على الكير ، واذا بآخاب يقبل حاملاً في يده جراباً جلدياً صغيراً في لون الصدأ ، وعندما أصبح آخاب المتقلب المزاج على مسافة قصيرة من النار توقف ، وأخيراً سحب بيرث الحديدة من النار وأخذ يطرقها على السندان ، وأخذت الكتلة الحمراء ترسل شرراً يتطاير رفوفاً متكاثفة طار بعضها حتى اقترب من آخاب .

ـ «أهذه فراخ العجوز كاري[١] يا بيرث ؟ انها دائماً تطير في أثرك ، طيور سانحة ميمونة ولكنها ليست كذلك لجميع الناس . انظر انها تحرق ، ولكنك تعيش بينها دون ان تلدغك» .

فأجابه بيرث وقد اتكأ لحظة فوق مطرقته : «ذلك لأني محرّق في سائر جسدي ، لقد عتوت على اللذع . ليس من السهل ان تلذع جلداً تبلّد من التحريق» .

ـ «طيب . طيب . كفى . ان صوتك المنقبض ليتأدى اليّ في هدوء ويبلغني في تعقّله مهموماً مكروباً . وبما أني لست في الفردوس ولا في رياض النعيم فأنا أجزع من كل تعاسة في الآخرين ليست مجنونة . لابد ان تصبح مجنوناً أيها الحداد ؛ قل لي لماذا لا تغدو مجنوناً ؟ كيف تطيق ما تطيقه دون ان تكون مجنوناً ؟ أما تزال السموات تمقتك فهي تحرمك الجنون ؟ ماذا كنت تصنع هنا ؟» .

---

(١) طيور كالسنونو يقولون ان ورودها ارهاص بجو عاصف ، وبها يشبه آخاب الشرر المتطاير .

ـ « كنت ألحم وأسوّي رأس حربة قديمة يا سيدي فقد كانت فيه نقب وأخاديد » .

ـ « وهل تستطيع ان تسوّيه أملس مستوياً أيها الحداد بعد ان تجرّش في الشدّات واللزبات ؟ »

ـ « أظن ذلك يا سيدي » .

ـ « وأنا أظن انك لا تستطيع ان تسوّي اي نقب او تحزيز . أتستطيع دون اكتراث منك بصلابة المعدن يا حداد ؟ »

ـ « نعم يا سيدي أظنني أستطيع . أستطيع ان أسوّي كل النقب والتحزيزات إلا واحدة » .

فصرخ آخاب ـ وهو يقترب منفعلاً واستند بكلتا يديه فوق كتفي بيرث : « انظر هنا اذن ، انظر هنا ـ هنا ـ أتستطيع ان تسوي نقبة كهذه يا حداد ؟ » وجرّ راحته فوق جبينه المغضن ـ « اذا كنت تستطيع يا حداد ، وضعت رأسي راضياً جذلان فوق سندانك ، وتلقيت أثقل مطرقة لديك بين عيني . أجب! آتستطيع ان تجتلي هذه النقبة او تسوّي التحزيز ؟ »

ـ « آه يا سيدي هذه هي الواحدة . ألم اقل انني استطيع تسوية كل النقب والتحزيزات الا واحدة ؟ »

ـ « صدقت يا حداد انها الواحدة التي لا تسوّى . اجل يا رجل انها لا تجتلى ، صحيح انك تراها بارزة في لحمي ولكنها قد تغلغلت في عظام جمجمتي ـ وجمجمتي كلها غضون! ولكن د ع عنك لعب الاطفال هذا! لا تسوية لخطاطيف وحراب اليوم . انظر هنا! » ـ وأخذ يخشخش بالجراب الجلدي كأنه مليء بالقطع الذهبية : « انا ايضاً اريد ان تصنع لي رمحاً ، واحداً لا يستطيع الفا شيطان ان يكسروه يا بيرث ، رمحاً ينغرز في الحوت مكيناً كأنه عظم زعنفته ، وها هي المادة » ـ وطرح الجراب على السندان ـ « تنبه ايها الحداد هذه اعقاب مسامير جمعت من النعال الفولاذية التي تنتعلها خيول الرهان » .

ـ « اعقاب نعال الخيل يا سيدي ؟ اذن فإن لديك هنا يا قبطان آخاب خير مادة نعمل فيها واشدها مراساً » .

ـ « اعرفها ايها الشيخ . هذه الاعقاب ستلتحم معاً كالغراء الذي يؤخذ من عظام القتلة بعد ان تذاب . عجل! اصنع لي الرمح ، واصنع لي اولاً اثني عشر قضيباً لتكون له كعباً ، ثم افتل وابرم وطرّق هذه القضبان معاً كأنها وشائع وجدائل الكرور ، اسرع! وها انا انفخ على النار » .

وحين خرجت القضبان الاثنا عشر اخيراً جرّبها آخاب واحداً بعد واحد ، وذلك بأن

يلفها بيده على شكل حلزوني حول وتد حديدي طويل ثقيل ، ثم ردّ الاخير منها قائلاً : « هذا مختلّ! اصنعه من جديد ، يابيرث » .

ولما انتهى بيرث من اصلاحه كان على وشك ان يبدأ ملاحمة القضبان ليجعل منها واحداً حين اوقف آخاب يده وقال انه هو نفسه سيلحم رمحه ، واخذ يطرّق الحديد على السندان في همهمات متقطعة منتظمة وبيرث يوصل اليه القضبان المتوهجة واحداً بعد آخر ، والنار التي يؤزها الكير تطلق لهبها الشديد صعداً ، وعندئذٍ مرّ الرجل البارسي في صمت فأحنى رأسه للنار وكأنما هو يستنزل لعنة او بركة على هذا العمل ، فلما رفع آخاب رأسه انتحى البارسي جانباً .

وتمتم اسطب وهو ينظر من المنارة : « ماذا تصنع عصبة الشياطين هذه اذ تروغ وتتسلل هنالك ؟ هذا البارسي يشم النار كأنها ثقاب الأمن ومنه تضوع رائحتها كأنه خزان البندقية الساخن » .

واخيراً تلقت ضفيرة الكعب وقد غدت في صورة قضيب واحد آخر إحماء ، ولما ان شاء بيرث ان يسقي حديدها فدسها وهي تهسهس في برميل الماء القريب ، انطلق البخار السامط في وجه آخاب المكب فوقها .

- « اتريد ان تعلمني بوسمٍ يا بيرث ؟ » - واجفل متوجعاً لحظة من الألم ثم اردف : « أكنت اذن اصنع ميسمي بيدي ؟ » .

- « بحقك! ليس الامر كذلك ، ولكني أخشى شيئاً يا قبطان آخاب . أليس هذا الرمح من اجل الحوت الابيض ؟ » .

- « من اجل الشيطان الابيض! والآن هيّا لصنع الكلاّبات ؛ عليك انت نفسك ان تصنعها يا هذا ، هذه هي الامواس التي أحلق بها - من خير الفولاذ ، خذها ، واصنع منها الكلابات حادة كوخز ابر الثلج في البحر الجليدي » .

ورمق الحداد الشيخ تلك الامواس لحظة كأنه كان يريد ان يردها فلا يستعملها .

- « خذها يا رجل لا حاجة لي اليها ، لاني لن أحلق ولن اغتذي ولن أصلي حتى - هاك - الى العمل! » .

ولما ان جعل بيرث الفولاذ أخيراً في شكل سهم وألحمه الى الكعب ، دل الفرق بين المعدنين اينْ ينتهي طرف الحديد ، ولما ان كان الحداد يضع الكلابات في النار ليحميها آخر مرة قبل ان يسقيها صاح بآخاب ان يدني منه برميل الماء :

- « لا . لا . لا ماء ولا سقي! أريدها من سقي الموت نفسه . انتم هناك يا طاشطيقو

وكويكوج ودغة! ماذا ترون ايها الوثنيون ؟ هل تعطونني دماً يغطي هذا الكلاّب ؟ » ورفعه في الفضاء فأجابته «أن نعم» ثلة من الرؤوس السود أنغضت اليه ، وثقبت الجلود الوثنية في ثلاثة مواضع ، وسقيت بالدم عندئذٍ كلابات الحوت الابيض .

وعوى آخاب وهو ذاهب في البحران ، والحديد يتشرب بنهم دم العماد : «انا لا أُعمّدك باسم الآب وانما أُعمّدك باسم الشيطان!»

وجمع آخاب الأعمدة الزائدة من أسفل واختار من بينها عموداً من شجر الحيقور مايزال لحاؤه عالقاً به ودسّ طرفه في وقب الحديدة . ثم امر بحبل جديد فحلَّ وأخذت منه بضع قامات الى الدولاب الرافع ومدَّ حتى توتر كثيرا . ووطئه آخاب بقدمه حتى أز الحبل أزيز وتر القيثار ، ثم انحنى بلهفة فوقه ، واذ لم يرَ فيه فتائله متمايزة هتف : «عظيم! والآن هيا بنا الى الاربطة المقيّرة» .

حلّ الحبل من أحد طرفيه واخذت الفتائل المنشورة وضفرت جميعاً ونسجت حول ثعلبة الرمح ، ودسَ العمود بعيداً في وقب الثعلبة ، ومن الطرف الأدنى مدّ الحبل على نصف طول العمود ، وثبت هنالك باحكام وذلك بمداخلة الخيوط وتشابكها . واذ انتهى ذلك أصبح العمود والحديد والحبل ـ كأنها ربات القدر الثلاث ـ متواشجة لا تنفصم ، ومشى آخاب في خيلاء معتقلاً الرمح وصوت رجله العاجية وصوت عمود الحيقور كلاهما يرن رنيناً أجوف على كل لوح خشبي . وقبل ان يلج قمرته سمع صوت خفيض شاذ يشوبه تماجن ولكنه من أشد الاصوات اثارة للشفقة . آه يا بيب! ان ضحكتك التاعسة وان عينك الكسلى المسهدة ، وكل هذه الاقنعة المجونية التي تتلبس بها ـ كل هذه قد امتزجت امتزاجاً ذا مغزى بالمأساة السوداء ـ مأساة هذه السفينة السوداوية ، وسخرت هازئة منها!

١١٤

الشَرَك[١]

حين تغلغلت الباقوطة مبعدة في قلب ارض التطواف اليابانية هاج بحواتيها هائج الصيد حتى كانوا يقضون في الجو الوديع الرضيَ اثنتي عشرة ساعة وخمس عشرة وثماني عشرة وعشرين وهم في ذروة الكدّ ، منهمكين في قواربهم ، مجذفين باتزان او مبحرين او مطاردين للحيتان أو ، منتظرين في هدوء بروزها من الماء ، مدة ستين او سبعين دقيقة ، وان كان النجاح الذي أصابوه ضيئلاً لا يوازي جهودهم .

في مثل تلك الاوقات تحت شمس خبت حزارتها ، يعوم البحار طوال اليوم فوق اثباج مُلسٍ بطينة المدّ ، ويجلس في قاربه خفيفاً كأنه زورق من خشب التامول ، ويمتزج امتزاجاً حميماً بالموجات الناعمة نفسها تلك التي تبربر ازاء حافة السفين كالقطط عند احجار الموقد . هذه هي لحظات السكينة الحالمة ، اذ ينسى المرء حين يرى الجمال الهادىء والألق في جَلَد المحيط ان قلب النمر ينبض في جوانحه ، ولايذكر ـ الا بشق النفس ـ ان هذا القفاز المخملي يخفي مخلباً ضارياً .

هذه هي الاوقات التي يحس فيها الجوّاب وهو في قارب التحويت ، احساساً ناعماً ، بشعور بنوي واثق مطمئن نحو البحر كشعور ابناء البرّ نحو البرّ ، فيظن البحر براً مزداناً بالازاهير! اما السفينة النائية التي لا تبدو منها إلا قمم صواريها وهي تجهد قدماً ، فتتبدى وكأنها لا تمخر الامواج المتدحرجة وانما تتهادى بين الحشائش الطويلة في سهوب متموجة . كخيول المهاجرين الغربيين ، لا يظهر منها إلا آذانها المؤللة ، اما اجسامها المختفية فتخوض غمار الخضرة المذهلة .

---

(١) بلغ القاص لحظة حرجة تذكر فيها ما قاله في الفصل ٤٢ : « واذا كان اكثر مظاهر الكون المرئي قد خلق من مادة الحب فان الافلاك غير المرئية انما صُنعت من الرعب » وتذكر ان الطبيعة تتبرج وكأنها عاهرة ؛ فتوقف في هذا الفصل لحظة يتأمل هذا الظاهر قبل ان يغوص الى « منطقة الرعب » .

والوديان الطويلة البكر وسفوح التلال الوادعة الزرقاء يتسلل فوقها الصمت والطنين حتى لتكاد تقسم ان تلك الخلوات ينام فيها اطفال انهكهم اللعب ، في ايار الطروب حين ذهبوا يقطفون ازاهير الغابات ، ويخالط هذا كله مزاجك الصوفي ، فاذا الواقع والوهم ـ وقد التقيا في منتصف الطريق ـ يتشابكان ويتداخلان ويكونان كلاً واحداً لا فاصل بين جزءيه .

ومهما تكن هذه المناظر المسكنة مؤقتة عابرة فانها لم تكن تعجز عن ان تترك أثرها في آخاب ، ولكن ان كانت هذه المفاتيح الخفية الذهبية قادرة على ان تفتح خزائنه الذهبية الخفية فان انفاسه فوقها كانت تصبغها بالدنس .

ايتها المسارب المكسوة بالاعشاب! ايتها المجالي الربيعية المترامية في الروح! فيك ـ وان أيبسك الجدب الموات الذي يلفحك من الحياة الدنيا ـ فيك يستطيع الناس ان يتمرغوا كالمهارى في البرسيم الناضر عند الصباح ، ويحسون ندى الحياة البرود خالداً لديهم ، في لحظات تمرَ مرَّ السحاب . يا رب ليت هذه الهدأة المباركة تدوم! غير ان وشائع الحياة المختلطة المتشابكة تنتسج لحمة وسدى ، فلكل هدأةٍ عاصفة تعارضها . ليس في هذه الحياة تقدم دائب قدماً لا يتقهقر . فنحن لا نتقدم خلال مراحل معينة متدرجة ثم نقف الوقفة الاخيرة ، لا نفعل كذلك خلال سحر الطفولة اللاواعي ، وايمان اليفاعة التسليمي ، وشك عهد الفتاء (وهو مصيرنا جميعاً) ثم الريبة الكلبية ثم الجحود ، بحيث نقف في طمأنينة الرجولة المتأملة التي تعبر عنها « إذا » . ولكنا كلما قطعنا هذه المراحل عدنا فيها من جديد ونظل الى الابد اطفالاً ويافعين ورجالاً وصوراً من « إذا »[1] . اين يقع الميناء الاخير حيث لا نزحزح المرساة من بعد ؟ في اي اثير سابح يبحر العالم الذي لا يعيا به اكثر الناس إعياءً ؟ اين يختفي والد هذا اللقيط ؟ ارواحنا كأولئك اليتامى ، ماتت أمهاتهم اللائي لم يتزوجن بعقود وهن يضعنهم : ان سرّ الأبوّة قد دخل القبر معهن ، فاذا شئنا ان نتعرفه كان علينا ان نذهب هناك .

وفي ذلك اليوم نفسه اطل استاربك من حافة قاربه على البحر الذهبي نفسه وتمتم قائلاً : « ايتها الروعة التي لا يسبر غورها ، كالتي يراها المحب في عيني عروسه الشابة ، لا تحدثيني عن اسماك القرش المرصوصة فيك كالأسنان ، ولا تحدثيني عن اساليبك في اختطاف لحوم البشر . ليطرد الايمان الواقع . ليطرد الوهم الذكرى ، انا ارسل النظرة عميقة فأحتقب ايماناً » .

اما اسطب فقد قفز في ذلك الضياء الذهبي نفسه كالسمكة ذات الحراشف البراقة وقال : «انا اسطب ، واسطب رجل ذو تاريخ ، ولكنْ اسطب في هذا الموقف يحلف انه كان دائماً محبوراً » .

---

(١) كلمة EI اليونانية وهي منقوشة على باب هيكل ابولون في دلفي .

١١٥

الباقوطة والعزب يتلاقيان

بعد بضعة اسابيع مضت على تسوية رمح آخاب كانت المشاهد والمسموعات التي عرضت امام الريح بهيجة طروباً .

وكان ما واجهته الباقوطة مركباً نانتوكتياً اسمه «العزب» صفّ في العنبر آخر برميل من الزيت وأغلق المنافذ التي تكاد ان تنشق امتلاءً ، وكان في ثوب ايام الزينة يبحر ، مسروراً جذلاً وان شابه شيء من اعتداد المغرور ، بين السفن المتباعدة في مواقعها على مجالات الصيد ، قبل ان يحوّل قيدومه عائداً الى الوطن .

وكان الرجال الثلاثة في قمم صواريه يلبسون اعلاماً طويلة من قماش ضيق احمر فوق قبعاتهم ، ومن المؤخرة تعلق قارب تحويت ، قاعه متجه الى اسفل ، اما الدقل المائل فقد شبح فيه مأسوراً الفكُّ الاسفل الطويل من آخر حوت ذبحوه ؛ ومن الحبال والاشرعة في كل جانب كانت ترفرف اعلام وشارات ورايات ذات ألوان . اما الجوانب فقد ربط في كل قمة من قممها الثلاث المجوفة كالسلال برميلان من زيت العنبر ومن فوقها في مشعبة الصاري العلويّ تبدو براميل صغيرة لطيفة تحوي ذلك السائل الثمين ايضاً . وفي القرص الواقع عند أعلى الصاري الرئيس سمّر قنديل نحاسي .

وقد علمنا من بعد ان هذا المركب «العزب» احرز نجاحاً مدهشاً غاية في ذلك ، ومما زاد الامر ادهاشاً ان سواه من السفائن الاخرى العديدة قد قضت اشهراً كاملة دون ان تصيب حوتاً واحداً . وقد ألقيت منه براميل لحم البقر والخبز تخلصاً لتفسح مكاناً لما هو اثمن منها من زيت العنبر ، ليس هذا فحسب بل ان هذا المركب قايض المراكب الاخرى التي واجهها على براميل اضافية ، صفّت فيه على طول ظهر المركب وأودعت في غرف القبطان والضباط . حتى المائدة في القمرة كسرت وجعلت وقوداً وأصبح الرفاق الذين يأكلون في

القمرة يتناولون طعامهم عند الطرف العريض من برميل زيت مربوط الى ارض الغرفة ليكون زينة متوسطة ؛ وقيّر البحارة في المنارة صناديقهم ـ في الواقع ـ وملأوها بالزيت ، وقيل على سبيل التندر ان الطباخ اتخذ لاكبر حلة لديه غطاء وملأه ، وان قيّم الاغذية سدَّ ابريق القهوة الاضافي لديه وعبأه ، وان الزراقين غطوا ثعالب اسنتهم وملأوها ، وان كل شيء مُلىء بزيت العنبر إلا جيوب سروال القبطان ، فقد ابقاها خالية ليدس فيها يديه كي يكون ذلك شاهداً ناطقاً بأنه قانع تمام القناعة .

وعندما اتجه هذا المركب الطروب ذو الجسد السعيد نحو الباقوطة ذات المزاج المتقلب ، سمعنا صوتاً بربرياً من طبول ضخمة آتياً الينا من المنارة ، وعندما زاد اقترابنا منه رأينا حشداً من رجالها واقفين حول مراجل التصفية الضخمة فيها وهي مغطاة بخيش يشبه ورق البرشمان او جلد كروش السمكة السوداء ، وكلما دقت عليها قبضات البحارة احدثت زئيراً عالياً . وعلى الربعة خلف الدقل كان الضباط والزراقون يراقصون فتيات سمراوات بلون الزيتون هربن معهم من الجزائر البولونيزية بينا يهيمن على الرقصة الطروب ثلاثة من زنوج لونج آيلاند قد احتقبوا اقواس كمانات من عاج الحوت ، وهم قد تعلقوا في قارب مزخرف ، مثبت باحكام في الأعلى بين الصاري الامامي والصاري الرئيس . وفي الوقت نفسه كان آخرون من عصبة السفينة منهمكين بصخب عند مبنى معامل التصفية حيث نقلوا منها المراجل الضخمة ؛ ولقد يخيل اليك انهم كانوا يهدمون اسوار الباستيل اللعين فقد كانوا يرسلون صرخات وحشية عندما كانوا يلقون ما استغنوا عنه من الآجر والجص في البحر .

اما القبطان سيد هذا المشهد وصاحبه فقد وقف منتصب القامة فوق الربعة المرتفعة خلف الدقل الاعظم حتى كانت الرواية البهيجة تجري كلها تحت بصره وكأنها إنما ابتدعت طلباً لتسليته .

وآخاب ايضاً كان واقفاً على الربعة اشعث اسود تعلوه كآبة عنيدة لا تريم ، وعندما عبرت كل من السفينتين مخر أختها واحداهما تقيم افراحاً لأمور مضت واخرى تتوجس النذر من امور آتية ـ كان القبطانان يمثلان في شخصيهما موضع المفارقة اللافتة في ذلك المشهد .

صاح قبطان «العزب» الطروب وهو يرفع كأساً وزجاجة في الفضاء : «تعالوا الينا ، تعالوا الينا!»

فصرَّ آخاب بأسنانه مجيباً : «هل رأيت الحوت الابيض ؟ »

فقال الآخر في دعابة ومرح : «كلا ، انما سمعت به ، ولكن لا يكن لك به اعتقاد . تعال الى ظهر سفينتنا!»

- «انت مفرط في مرحك اللعين . أبحر . هل فقدت رجالاً ؟ »

- «لم أفقد شيئاً يستأهل ذكراً - اثنين من ابناء الجزر ، ذلك كل ما فقدت ، لكن تفضل يا رفيق القلب ، تعال الينا ، انا لا استطيع ان أنزع ذلك السهوم الاسود من جبينك تواً . أقبل ، ألا تقبل! (هذا اوان الجذل) ، سفينتنا ممتلئة مزمعة نحو الوطن » .

فتمتم آخاب : «ما اقرب الاحمق من ان يألف ويؤلف! » ثم بصوت جهوري :«تقول ان سفينتكم ممتلئة وانها مزمعة نحو الوطن ، اذن فاعلم ان سفينتنا خالية وانها مبعدة عن الوطن ، فاذهب في طريقك وانا في طريقي . انتم في الامام! انشروا الاشرعة وأقبلوها وجه الريح! »

وبينا ذهبت احدى السفينتين امام النسمات جذلى مسمحة ، ناطحت الاخرى الريح جاهمة عنيدة ، وافترقت السفينتان ، اما بحارة الباقوطة فينظرون نظرات رصينة مترددة نحو «العزب» العائد ، واما رجال «العزب» فلم يلقوا بالاً لنظرات أولئك وهم في نشوة وحبور . وعندما كان آخاب مستنداً على أعلى الكوثلة ورمق السفينة المزمعة نحو وطنها استخرج من جيبه قارورة من رمل ، وحول نظره من السفينة الى القارورة ، فبدا كأنما يجمع بذلك بين متباعدين لان تلك القارورة كانت ملينة بمستخرجات من بحر نانتوكت .

١١٦

الحوت المحتضر

حين يامننا ابناء السعد المجدودون ويبحرون على مقربة منا ، نقبس لانفسنا ، وان كان القنوط يأخذ بمجامع نفوسنا من قبل ، قبساً من ذلك النسيم الهابّ ، ونحسَ في مرح ان اشرعتنا قد انتفخت بالأمل . هذا شيء غير نادر في الحياة وذلك هو ما حدث للباقوطة ، فان ملاحيها بعد ان قابلوا «العزب» الممراح ، رأوا الحيتان في اليوم التالي وذبحوا اربعة منها ، وذبح آخاب من الاربعة واحداً .

كانت الشمس قد طفلت ؛ وعندما قرّت الرماح جميعاً في تلك المعركة القرمزية ، طفا في بحر الغروب الجميل والسماء الجميلة اثنان : الشمس والحوت ، ثم أفلا في سكون الموت معاً ، ثم تمعجت في الافق الوردي عذوبة وكآبة ، وتصاعدت ابتهالات متضافرة متلاحمة ، حتى بدا وكأن نسيم البر الاسباني ، بعيداً صاعداً من الوديان الخضر في جزائر مانيلا ، قد تقحمت به همته فتحول بحاراً فولى وجهه نحو البحر محملاً بتلك الابتهالات والاناشيد المسائية .

وتبددت جهامة آخاب وانبسطت اساريره مرة اخرى ، وانما انبسطت تمهيداً لجهامة اعتى واعمق ، وكان حينئذ قد ذهب الى المؤخرة بعيداً عن الحوت وجلس ممعناً يرقب سكراته الاخيرة من قاربه الهادىء . ولحوت العنبر مشهد غريب وهو يحتضر اذ يوليَ رأسه وجهة الشمس ثم يلفظ أنفاسه الاخيرة ؛ ذلك المنظر الغريب في ذلك المساء الوادع المطمئن نقل الى آخاب عجباً لم يعرفه من قبل : «يدور ويدير جبهته مستقبلاً لحظة الختام ، ما ابطأه ولكن ما أحزمه وهو يحوّل جبهة عانية بالخشوع مبتهلة ضارعة مشفوعة بآخر ايماءات الاحتضار! هو ايضاً يعبد النار ، ياتبِعَ الشمس الأمين الكبير الرفيع! أوّهِ لك ان ترى هذه الاعينُ المفعمة بالود هذه المشاهد المفعمة بالود . تأمل! هاهنا وراء محبس

الماء ، خلف كل طنين تبتعثه السعادة والتعاسة في دنيا البشر ، في هذه البحار الصريحة النزيهة حيث لا صخور تقدم ألواحاً تخط فوقها التقاليد ، حيث الامواج منذ عصور صينية طويلة ماتزال تتقلب خرساء لا يحدثها احد ، كالنجوم التي تتلألأ فوق منابع النيجر المجهولة ، هنا ايضاً تموت الحياة مولية وجهها شطر الشمس ، مفعمة بالايمان ؛ ولكن أرجع البصر كرة! ما يكاد الموت يدركها حتى يلتف الموت حول الجثة فتولي وجهها وجهة اخرى » .

« آه ايها الهندوسي الاسود ، يا نصف الطبيعة ، يا من بنيت من العظام الغارقة عرشك في مكان ما في قلب هذه البحار التي لا يكسوها اخضرار ، انت يا كافر ، ايها الملك ، وأنت تنطق بالحقيقة اذ تحدثني في الزعزع الصرصر التي يعم بها الخراب والموتان ، وفي المدفن الساكن الذي يسمى هدأة بعد جيشان . ان حوتك هذا اذ يحوّل رأسه المحتضر نحو الشمس ثم يدور مرة أخرى ليحمل اليّ عبرة اي عبرة » .

« وانت يا عاتق القوة الموشح الملتحم في ثلاث طاقات ، أنت ايتها النفاثة الطمّاحة الموشاة بقوس قزح ، كيف يجهد المرء منا ، كيف يوالي نفثاته باطلاً! باطلاً ايها الحوت تطلب الشفاعة لدى الشمس العجلى التي تسترد الحياة ولا ترجعها بعد ؛ غير انك ايها الجانب الاسود تهدهدني بايمان أشد سواداً واكثر كبرياء ، كلّ الاشياء التي تمازجت لديك ولايمكن حصرها تسبح دوني ؛ ترفعني انفاس اشياء كانت قبل حية ، تضوع كالهواء فأصبحت ماء » .

« تحية لك ، تحية الى الابد ايها البحر يا من لا يجد الطائر البري راحة نفسه إلا فوق اضطرابك الابدي . انا ابن الارض ، أرضعني البحر : السفح والوادي كفلاني غير ان الامواج اخوتي بالرضاع » .

١١٧

السهر على الحوت

ماتت الحيتان الاربعة التي ذبحت في ذلك المساء ، متباعدة ، أحدها مات نائياً ضد الريح والثاني أقرب منه وجهة الريح ومات الثالث على محاذاة القيدوم والرابع على محاذاة الكوثلة . وجُرَّت الثلاثة الاخيرة وأجنبت الى السفينة قبل حلول الليل ، اما الذي مات ضد الريح فلم يمكن الوصول اليه حتى الصباح وكان القارب الذي تولى ذبحه هو الذي سهر الى جانبه طوال الليل ، وذلك هو قارب آخاب .

وقد غرست عصا الراية قائمة في نفاثة الحوت الميت والقنديل معلق في اعلاها يرسل لألاء مضطرباً متردداً على الظهر الاسود الصقيل ويلقي ومضات بعيدة على امواج الليل التي كانت تمس في رفق جانب الحوت العريض كأنها امواج ناعمة تتكسر على الشاطئ الصخري .

وبدا آخاب وجميع ملاحي قاربه نائمين الا البارسي الذي أقعى في مقدم القارب ، وجلس يرقب أسماك القرش وهي تتلعب كالاطياف من حول الحوت ، وتدق ألواح الصنوبر الخفيفة بذيولها ، وجرى في الفضاء صوت راعش كأنه صوت النواح بين الجنود على الذين خسفت بهم الارض وتحوّلوا قاراً من اشباح عامورة المذنبين الذين لم تدركهم المغفرة .

وهب آخاب من نومه ، فاذا به وجهاً لوجه امام البارسي ، وكانت حلكة الليل تطوّق الرجلين فيبدوان وكأنهما آخر اثنين في عالم طغى عليه الطوفان . وقال : «عاودتني الرؤيا مرة أخرى» .

- «رؤيا عربات الموت ؟ ألم اقل لك ايها الشيخ انك لن تعرف تابوتاً او عربة ؟» .
- «وهل يحتاج من يموت في البحر عربة تنقله ؟» .
- «ولكني قلت ، ايها الشيخ ، انك قبل ان يدركك الموت في هذه الرحلة سترى

عربتين حقاً على البحر اما الاولى فلم تصنعها أيدٍ بشرية واما الخشب الملموس في الثانية فلابد انه من اشجار امريكية » .

ـ « اجل ، اجل . منظر غريب حقاً ، يا بارسي ـ ان ترى عربة والريش من فوقها عائمة على المحيط ، والموجات هي حاملة النعش . ها! مثل هذا المنظر لن نراه وشيكاً » .

ـ « صدق او لا تصدق ، انك لن تموت الا حتى ترى هذا المنظر ، ايها الشيخ » .

ـ « وما ذاك الذي قلته عن نفسك ؟ » .

ـ « مع ان الامر آجلٌ فيما يتصل بي ، الا اني سأكون ربينة لك ، أمضي قبلك » .

ـ « وحين تمضي قبلي ـ ان حدث ذلك ابداً ـ فاني قبل ان ألحق بك ، فلابد من ان تظهر لي ، لتكون دليلاً لي ؟ أليس كذلك ؟ حسن ، اني أصدق كل ما تقوله يا دليلي وربيئتي ؛ مايزال عليّ عهدان : ان أقتل موبي ديك وأن أبقى حياً بعد قتله » .

فقال البارسي وعيناه تومضان كأنهما يراعتان من نار الحباحب في الحلك : « اقطع على نفسك عهداً ثالثاً ايها الشيخ ، فلن يقتلك الا القنّب » .

ـ « تعنى حبال المشنقة[١] . اذن فأنا خالد على البر وعلى البحر » ـ كذلك صاح آخاب بضحكة ساخرة ـ : « خالد على البر وعلى البحر » .

ولاذ الرجلان بالصمت كأنهما رجل واحد ، وطلع الفجر الداكن ، ونهض الملاحون النائمون من قعر القارب ، وقبل الظهر جُرَّ الحوت الى السفينة .

---

(١) هنا اخطأ آخاب التقدير وظن ان القنب لا يعني الا حبال المشنقة .

١١٨

مقياس الزوايا

مع الزمن اقترب موسم الصيد على الخطّ ، وحين كان آخاب يصدر كل يوم من قمرته ويلقي نظرة الى اعلى كان قيّم الدفة اليقظ ، يعالج محاور دولابه[١] متباهياً ، والبحارة اللاهفون يجرون بسرعة الى حلقات الحبال ويقفون هنالك وعيونهم مصوبة على الدبلون المسمّر ، وقد فرغ صبرهم في انتظار الامر بأن يوجهوا قيدوم السفينة نحو خط الاستواء . وجاء الامر في إبانه ، كان الوقت يقترب كثيراً من الظهيرة وكان آخاب وهو جالس في صدر قاربه المرفوع عالياً ، يهم برصد الشمس ـ حسب عادته اليومية ـ لتقدير مدى ارتفاعها .

ونهار الصيف في البحار اليابانية كجدول من الألق الوضاء ، فالشمس اليابانية الحيّة التي لا يطرف جفنها تبدو وكأنها البؤرة المتوهجة في مجهر المحيط الزجاجي المترامي ، وتبدو السماء مصبوغة باللليلك ولا سحاب هنالك ، والأفق سابح ، وهذا العري ذو الألق الذي لا يخبو كأنما هو سناء عرش الله لا تستطيع العيون ان تحدق إليه . ومن الخير أن كان مقياس الزوايا لدى آخاب مزوداً بعدسات ملونة يستطيع من خلالها ان يبصر تلك النار الشمسية ؛ وبقي آخاب في جلسته لحظات ليقع على اللحظة الدقيقة التي تحلّ فيها الشمس في الأوج ، وهو قد جعل يراوح جسمه على حسب تقلبات السفينة ، ووضع على عينيه منظاره الذي يشبه آلات التنجيم . وبينا كان انتباهه كله مستغرقاً ، كان البارسي راكعاً دونه على ظهر السفينة ، ووجهه متجه الى أعلى كوجه آخاب ، وهو يرقب الشمس مثله ، إلا ان جفنيْ عينيه كانا يخفيان حدقتيه بعض اخفاء ، ووجهه الغريب قد استبد به ركود ارضي . وأخذ آخاب نتيجة الرصد بعد ذلك ، وحسب بقلمه على رجله العاجية ماذا كان ارتفاع

(١) هنا جعل للدفة دولاباً وكان قد قال في الفصل ١٦ إن لها مخلاً اتخذ من فك حوت .

الشمس في تلك اللحظة نفسها ، وعاد يتردى في غمرة حلم مدة لحظة ثم رفع رأسه الى الشمس وتمتم قائلاً : «انت يا علامة بحرية ، انت ايها الرائد القوي الرفيع ، انت تصدقينني الخبر عن موضعي في الحاضر ، ولكن أتستطيعين ان تلمحي اليّ تلميحاً أين أكون في المستقبل ؟ او تستطيعين ان تخبري اين تعيش بعض الاشياء الاخرى سواي في هذه اللحظة ؟ أين موبي ديك ؟ لابد من انك في هذه اللحظة تبصرينه ، ان عيني لتنظران في نفس العين التي تبصره ، أجل وفي العين التي ترى الاشياء على الجانب الآخر المجهول منك ايتها الشمس ، على حد سواء» .

ثم نظر الى آلة قياس الزوايا ، ومسّ مبتدعاتها ورموزها العديدة واحداً بعد آخر ثم تفكر ثانية وتمتم : «لعبة حمقاء! ألهية اطفال يحملها الاميرالات المستكبرون والقومودورات والقباطنة ؛ ان العالم ليباهي بك ، ويزهو بحيلتك وقوتك ، ولكن ماذا بعد كل هذا تستطيعين ان تفعلي سوى ان تعيّني النقطة المسكينة الذليلة التي تكونين انت نفسك فيها على هذا الكوكب الواسع ، واليد التي تمسك بك : لا . لا شيء سوى ذلك ، ولو كان مقدار ذرة! انك لا تستطيعين ان تنبئينا اين تكون غداً عند الظهر قطرة ماء او ذرة رمل ، ومع ذلك فانك من القحة بحيث تحقرين الشمس! علم! لعنت ايتها اللعبة المغرورة! ولعنت جميع الاشياء التي توجه عيون الانسان نحو تلك السماء ، فان حيويتها الحية انما تلفح عينيه مثلما ان هاتين العينين الشائختين يحرقهما ضوؤك ايتها الشمس . ألحاظ عيني الانسان على مستوى واحدٍ وأفق الارضِ بطبيعتهما ، ولم ينبتهما الله في أم رأسه كأن الله قد أراده ان يحدق في جَلَد سمائه . لعنت ايتها الآلة التي تقيس الزوايا!» ثم قذف بها على ظهر السفينة : «بعد اليوم لن استبين طريقي الارضي بك ، سيهديني ويريني موقعي في البحر ، بوصلة السفينة المستوية ، والاعتماد على التقديرات التخمينية المرتجلة» . - ثم اضاف وهو نازل من القارب الى ظهر السفينة : «اجل! كذا أدوسك انت يا شيئاً خسيساً يشير بوهن الى الاعالي ، هكذا احطمك واضربك!»

وما ان نطق الشيخ الهائج بهذه الكلمات وما ان داس برجليه كلتيهما الحية منهما والميتة على الآلة حتى مرت على وجه البارسي الاخرس القابع دون حراك سحابتان : احداهما نصرٌ ساخر كأن المقصود بها هو آخاب والاخرى يأس قاتل كأن نفسه هي المعنية بها . ونهض دون ان يلحظه احد وانسلّ ذاهباً ، اما البحارة الذين تملكتهم الرهبة لمنظر رئيسهم فانهم احتشدوا فوق أعلى المقدمة حتى صرخ آخاب وهو يذرع ظهر السفينة في اضطراب : «الى حلقات الحبال! ارفعوا الدفة - أديروا الدعائم الساندة!» .

وفي لحظة دارت الدعائم الساندة ، واستدارت السفينة على عقبها نصف دورة ، وصواريها الثابتة الجليلة مصوبة في انتصاب على هيكلها الطويل المضلع كأنما هي ثلاثة فرسان ـ كل واحد منهم اسمه هوراتيوس[١] ـ يرقصون على حصان واسع الظهر .

وكان استاربك يقف بين رؤوس اولئك الفرسان يرقب طريق الباقوطة الصخاب ويرقب آخاب ايضاً حين ذهب يتمايل على ظهر السفينة .

ـ «لقد جلست امام نار الفحم الكثيفة وشهدتها وهي تتوهج مفعمة بحياة اللهيب الملتوي ورأيتها وهي تأخذ في الخمود ، وتنطفىء ، حتى تصبح رماداً اخرس! يا شيخ البحار هذه الحياة الناريّة التي فيك ما الذي يبقى منها في الختام سوى حفنة من رماد!»

وصاح اسطب : «اجل إلا انه رماد فحم البحر ـ تأمل هذا يا سيد استاربك ـ قولي «فحم البحر» ـ لا فحماً عادياً مبتذلاً . طيب! طيب! سمعت آخاب يتمتم قائلاً : «ها قد دس بعضهم هذه الورقات في يدي وحلف ان ألعب بها أنا ولا احد سواي» . عليَّ اللعنة ان كنت يا آخاب لا تلعب لعباً سليماً ؛ عش في اللعبة حازماً ، ومت حازماً» .

(١) ثلاثة اخوة هم ابناء هوراتيوس حاربوا ضد الاخوة الكورياتيين حفاظاً على سيادة ألبا .

١١٩

الشموع

أشد المناخات دفئاً يربّي اضرى الضواري : فنمر البنغال يقعي في حدائق الافاويه ذات الخضرة الدائمة . والسماء أشد شيء اشراقاً الا انها تحتقب اشد الصواعق فتكاً : هذه كوبا الفاتنة تعرف الاعاصير التي لم تطف ابداً ببلاد الشمال ؛ كذلك هي الحال في هذه البحار اليابانية المتألقة ، فالبحّار يواجه فيها أعتى العواصف اعني الزعزع الهوجاء «التيفون» . فهي تنبثق احياناً من ذلك الفضاء الصافي كأنها قنبلة متفجرة في مدينة مبهورة نائمة .

قبل مساء ذلك اليوم تمزقت أشرعة الباقوطة واضحى على الصواري العارية ان تنازل الزعزع التي ضربتها ضربة على أم رأسها ؛ وحين حل الظلام كان البحر والسماء يهدران ، والرعد يشقهما والبرق يتوهج فيهما ، ويفضح الصواري العاجزة ، والمزق ترفرف حولها من هنا وهناك ، وهي كل ما تركه لها هياج العاصفة الاول ، لتتلهى به في لعبها المقبل .

وكان استاربك يقف على الربعة خلف الدقل الاعظم وهو ممسك باحدى هذه المزق ، ولدى كل لمعة برق يرفع بصره الى اعلى ليرى اية كارثة اخرى قد اصابت الادوات الضرورية هنالك . اما اسطب وفلاسك فكانا يوجهان الرجال في رفع القوارب الى اقصى علو وفي كيفية الربط بأقصى احكام ، وبدا ان جهدهم يضيع هباء ، فمع ان القوارب رفعت الى قمة الروافع فان قارب الربعة المضادة للريح (قارب آخاب) لم تكتب له النجاة فقد اندفقت امواج هائلة متضربة ضدّ جانب السفينة المترنح العالي وشقت قاعدة القارب عند المؤخرة وتركته مرة اخرى يقطر ماء كأنه غربال .

قال اسطب وهو يتأمل القارب المتصدع : «صنعته رديئة! صنعته رديئة يا سيد استاربك ولكن لابد للبحر ان يفعل ما يريد . انا واحد من الناس الذين لا يستطيعون منازلته . اما ترى يا سيد استاربك ان الموجة تطيل التحفز قبل ان تثب ، فهي تجري حول العالم كله ثم

تقفز ، اما انا فكل مسافة التحفز التي لديّ هي عرض هذه الالواح ها هنا . لكن لا بأس بذلك ، فكله يتم في دعابة ، كذلك تقول الاغنية القديمة : (يغني)

آه ان الريح طروب
والحوت ساخر ضحوك
وذيله ناضر
والبحر فتى دعبوب   مرح لعوب   ساخر ضاحك مجّان ،

والرشاش يتطاير
وهذه اصبعه تثير زبدا
حين يتململ في العبير
والبحر فتى دعبوب   مرح لعوب   ساخر ضاحك مجان

والرعد يشق السفين
وانما هو يتمطق
اذ يلعق اصبعه
والبحر فتى دعبوب   مرح لعوب   ساخر ضاحك مجان

فصاح استاربك : «حسبك يا اسطب ودع الزعزع تغني وتضرب قيثارتها هاهنا في حبالنا وأشرعتنا ، ولو انك كنت رجلاً شجاعاً للزمت الصمت» .

ـ «ولكني لست رجلاً شجاعاً ، ابداً ما قلت انني رجل شجاع ، انا جبان ، وانا أغني تشجيعاً لقلبي وانا اخبرك بالأمر يا سيد استاربك : لا شيء يوقف غنائي في هذا العالم الا ان يقطع حلقي ، وحين يحدث ذلك فأنا اراهنك انني سأنشد تسابيح الختام» .

ـ «احمق! انظر من خلال عيني ان لم يكن لك عينان» .

ـ «مه! كيف ترى من الليلة الظلماء خيراً مما يراه سواك مهما يكن حمقه ؟»

فصاح استاربك وهو يقبض على كتف اسطب ويشير بيده نحو مقياس الطقس : «افتح عينيك! ألا ترى الريح تهب من الشرق ، اي من الجهة نفسها التي سيجري فيها آخاب من اجل موبي ديك ؟ الجهة نفسها التي أمر بالدوران نحوها ظهر اليوم ؟ تأمل قاربه هناك اين وقع التشقق ؟ في أشرعة المؤخرة ، يا رجل ، حيث تعود ان يقف ، لقد انشقت البقعة التي يقف فيها يا رجل! والآن اقفز من حافة السفينة وتغن متلاشياً ان كان لابد من غناء!» .

- « لا أفهمك حتى بعض الفهم ، ماذا في الريح ؟ » .

فناجى استاربك نفسه فجأة غير آبه لسؤال اسطب قائلاً : « نعم ، نعم . الدوران حول رأس الرجاء الصالح أقصر طريق الى نانتوكت ، والريح التي تدقنا بمطرقتها الآن لتشق سفينتنا يمكن لنا ان نحولها الى ريح رخاء تسوقنا الى الوطن ، هناك ضد مهب الريح ظلمة مصير اما مع مهب الريح ، فالوجهة هي الوطن - أراها تضوىء هناك ، لكن ذلك ليس من فعل البرق » .

في تلك اللحظة اثناء احدى فترات الظلمة الحالكة التي تتلو التماع البرق سمع استاربك صوتاً الى جانبه وفي اللحظة نفسها على وجه التقريب تدحرجت فوق رأسه زخة من قصف الرعد .

- « من هناك ؟ » .

- « الرعد الرعّاص » - قال آخاب ذلك وهو يتلمس طريقه على حافة الربعة العليا ذاهباً الى الثقب المحوري ، إلا انه فجأة وجد طريقه واضحاً أمامه على ضوء حراب مقذوفة من نار .

ومثلما ان مانعة الصواعق في برج على البر انما يراد منها ان تصرّف التيار الخطر في الارض فكذلك اختها مانعة الصواعق التي تحملها بعض السفن على كل صار فانما يراد منها أن تسرّبَ التيار نفسه في الماء ، ولكن بما ان هذا الموصل يجب ان ينزل الى عمق غير قليل حتى تتحاشى نهايته كل مساس بهيكل السفينة وبما انه زيادة على ذلك اذا ظلّ هنالك مجذوباً على الدوام فانه يكون عرضة لكثير من الكوارث ، هذا علاوة على انه قد يتدخل تدخلاً غير قليل ببعض الحبال والاشرعة وبذلك يعيق طريق المركب في الماء كثيراً او قليلاً ، من اجل ذلك كله فان الاجزاء الدنيا من موانع الصواعق في السفينة لا تكون دائماً على ظهرها وانما هي بعامة تصنع من حلقات طويلة دقيقة لكي يتم سحبها الى أعلى في السلاسل الى خارج او القاؤها في البحر حسبما يتطلبه الموقف .

صاح استاربك للبحارة وقد استفاق فجأة بقوة البرق اللماح الذي كان قد اخذ يرسل شعله المنطلقة لتنير موقع آخاب :

« موانع الصواعق! موانع الصواعق! أهي فوق الظهر ، أنزلوها في المقدمة والمؤخرة! عجّلوا! » .

فصاح آخاب :« حسبك! دعنا نتذرع بروح رياضية في هذا النزال وان كنا نحن الفريق الاضعف . اني قد اسهم في رفع موانع الصواعق على جبال الهملايا والانديز حتى أحفظ العالم كله من الخطر ، ولكن دعنا من استغلال الامتيازات لانفسنا ، دعها حيث هي يا سيدي » .

فصاح استاربك : «انظر الى أعلى ، انها شعل القديس اميليو (جسم قديس) انها جسم قديس! جسم قديس! » .

كانت كل الدعامات الساندة في السفينة قد مالت على وهج نار صفراء وكانت كل نهاية مثلثة الرؤوس في كل طرفٍ من اطراف مانعة الصواعق الثلاثة قد علقت بها ثلاث شعل بيضاء مستدقة ، وكل واحد من الصواري الطوال الثلاثة كان يلتهب في صمت في الفضاء الكبريتي وكأنها جميعاً ثلاثة رؤوس مستدقة من شموع ضخمة منصوبة امام المذبح .

«سحقاً للقارب! ليذهب! » كذلك صرخ اسطب في تلك اللحظة عندما ارتفع الماء المتلاطم تحت قاربه الصغير حتى ان حافته لطمت يده بعنف وهو يمرّ حبلاً . «سحقاً له» ـ ثم انزلق الى الوراء على ظهر السفينة وعيناه المصعدتان تبصران الشعل . ثم على التو صاح مغيراً نغمته : «ارجو ان تولينا شعل القديس جميعاً رحمتها! » .

في لعنات البحارة كلمات مألوفة ، فهم قد يلعنون وهو في نشوة السكينة مثلما يلعنون وهو بين نواجذ العاصفة ، وهم قد يصبون اللعنات من نهايات الدعامات الساندة عند الشراع الاعلى حين يكونون اشد شيء ترنحاً من بحر هائج . ولكني قلما سمعت في كل رحلاتي لعنة مترددة حين يكون اصبع الرب الملتهب قد نزل على السفينة حين تصبح كلمات بليشاصر «منا منا تقيل وفرسين» منسوجة مع الاشرعة والحبال .

وبينا كانت هذه الصفرة تتلهب في الاعالي لم يسمع بين البحارة المسحورين كلام الا قليلاً ، وكان البحارة قد تجمعوا في عصبة كثيفة واقفين عند منارة السفينة وعيونهم جميعاً تلتمع في تلك الصفرة الفوسفورية الشاحبة كأنهم عِقْد ناءٍ من النجوم . واذ تبدى دغة ذلك الزنجي الضخم اللامع إزاء الضياء الشبحي لاح في الطول ثلاثة امثال قامته الحقيقية ، وبدا كأنما هو السحابة السوداء التي انطلق البرق منها . واما شفتا طاشطيقو المنفرجتان فقد كشفتا عن اسنان في بياض القرش تلتمع التماعاً غريباً حتى كأنما قد مستها شعل القديس اميليو . واما وشم كويكوج فانه حين سطعت عليه الاضواء السماوية ، توهج فوق جسمه كأنه شعل شيطانية زرقاء .

وذوى رواء الصورة جميعاً حين طغت عليها الصفرة الشاحبة في الاعالي ، ومرة اخرى كانت الباقوطة وكل نفس عليها ملفعين في عباءة ، ومرت لحظة او اثنتان حين اصطدم استاربك بشخص وهو يتقدم الى الامام ، كان الشخص هو اسطب ، فقال له : «ما رأيك ايها الرجل الآن ، سمعت صيحتك ، فلم تكن نظير ما جاد في الاغنية» .

ـ «لا . لا . لم تكن ، لقد قلت : ارجو ان تولينا شعل القديس جميعاً رحمتها ، وانا

لاأزال ارجو ان تفعل ذلك ، أتراها لا تولي الرحمة الا الوجوه العابسة ؟ أليس لديها طاقة لتقبل الضحك ، وانظر يا سيد استاربك أقول «انظر» والظلام حالك يحول دون الرؤية ، والصواب ان اقول : «اسمع» : اني اعد الشعلة التي علقت برأس الصاري علامة الحظ السعيد ، لان هذه الصواري مغروسة في عنبر سيطفح بزيت العنبر ، ـ فهمت ؟ ـ وبذا فان الزيت سيتغلغل في الصواري كعصير الحياة في الشجرة . اجل ان صوارينا الثلاثة ستصبح ثلاث شموع من زيت العنبر ـ ذلك هو الفأل الحسن الذي رأيناه » .

في تلك اللحظة رأى استاربك وجه اسطب وقد أخذ في بطء يلوح منه بصيص ، ونظر الى اعلى وصاح : «انظر! انظر!» ومرة اخرى تراءت الشعل العالية المستدقة وقد بدا في شحوبها ما لاح كأنه شيء فوق طبيعي قد تضاعف ما فيه من سمات علوية .

وصاح اسطب مرة اخرى : «أرجو ان تولينا شعل القديس جميعاً رحمتها» .

وعند قاعدة الصاري الرئيس تحت الدبلون واللهب تماماً كان البارسي راكعاً امام آخاب ورأسه منحنٍ بعيداً عنه ، بينا كان عدد من البحارة عن كثب منه ، عند الحبال المقوسة والمدلاّة ، منهمكين في حفظ احد الصواري من العطب فشدهم الوهج فتلاصقوا ملتحمين ، ووقفوا معلقين كأنهم ثلة من الزنابير المخدّرة تعلقت من غصن متدلٍ من شجرة ، وبقي آخرون مغروسي الاقدام في ظهر السفينة في وقفات متنوعة مسحورة كأنهم الهياكل الجسيمة في هركولانيوم بعضها واقف وبعضها يمد الخطو وبعضها راكض . الا ان عيونهم جميعاً كانت مصوبة الى أعلى .

فصاح آخاب : «أجل ، أجل ، يا رجال صوبوا النظر اليها ، عاينوها جيداً ، ان الشعلة البيضاء لتنير الطريق الى الحوت الابيض ، ناولوني حلقات الصاري الرئيس هناك ، انه ليسرني ان ألمس هذا النبض وادع نبضي يدق ازاءه . دم يواجه ناراً! كذا هو» .

ثم استدار وقد قبض بإحكام على آخر حلقة ووضع قدمه على البارسي وأثبت نظره الى أعلى وطرح ذراعه الايمن على امتداده الى اعلى ووقف منتصباً امام ذلك الثالوث العالي ذي الرؤوس الثلاثية من الشعل :

«آه يا روحاً صافية من نار صافية ، كنت اعبدها ذات يوم فوق هذه البحار كما يعبدها الفارسي حتى حرقتني في شعيرة قربانية فأنا لاأزال احمل ندوبها حتى الساعة[1] . انا اعرفك

---

(١) درس احد النقاد رمز «النار» في قصة موبي ديك ففسر هذه العبارة بقوله : «كان آخاب يعبد النار اولاً لانه يرى فيها محطماً للشر على الطريقة الزرادشتية الصحيحة ، اذ كان يعدها مبدأ النور ، واذ فعل ذلك ضربه البرق فأحرقته النار ، فكان فعلها موازياً للتشويه الذي أحدثه موبي ديك...» .

الآن ، ايتها الروح الوضاءة ، وانا اعرف الآن ان عبادتك الحق تحدٍّ ، انك لا تعطفين على الحب او الاحترام ، واما الكراهية نفسها فلا يمكنك إلا قتلها ، وكل شيء تقتلين . فاليوم لا يقف في وجهك احمق سادر لا يعرف الخوف . فيَّ قوتك التي لا تتكلم ولا تتحيز في مكان ، ولكني سأظل حتى الرمق الاخير من حياتي الزلزالية انازع في هيمنتها المطلقة غير المتكاملة على نفسي . في وسط حومة اللاشخصاني المتشخص ، ها هنا تقف شخصية ، وان كانت في خير احوالها نقطة . من أين أتيت والى اين اذهب ؟ غير اني مادامت لي حياة البشر ستظل تحيا فيَّ الشخصية الملوكية وتستشعر حقوقها الملوكية . غير ان الحرب ألم والكره ويل . تعالي في أدنى اشكال الحبّ وسأركع امامك وأقبلك ، اما في اعلى صورك فتعالي محض قوة علوية ، ومع انك تسوقين اساطيل من عوالم مفعمة بمشحوناتها فهناك ذلك الذي لايزال قليل المبالاة بك ، آه ايتها الروح الصافية ، من نارك خلقتني ، وانا مثل ابن النار البار انفثها مردودة اليك» .

[تعود خطفات البرق مكرورة مفاجئة . تقفز الشعل التسع في اتجاه طولي بحيث تصبح ثلاثة اضعاف ارتفاعها الاول . آخاب وسائر الرجال يغمضون أعينهم ، وقد غطّوها براحاتهم] .

«فيَّ قوتك التي لا تتكلم ولا تتحيز في مكان . ألم اقل كذلك ؟ وهي لم تنتزع مني ، ولا انا القي هذه الحلقات الآن . انت تستطيعين ان تضربيني بالعمى ولكني عندئذ استطيع ان أتلمس طريقي .انت تستطيعين ان تهلكيني ولكني استطيع عندئذ ان اكون رماداً . خذي اليك ولاء هذه العيون البائسة وهذه الراحات المتخذة وقاءً . أما انا فلا أريد ولاءً . ان البرق ليلتمع خلال جمجمتي ، وحدقتاي تؤلمان وتوجعان ، وذهني المصعوق كأنه مقطوع الرأس يتدحرج على ارض صعّاقة . آه! آه ، وان غشيني العمى فأنا اتكلم اليك ، انت ضياء ، ومع ذلك فانك تنبثقين من الظلام ، وانا ظلام انبثق من الضياء ، انبثق منك انت! قد كفت حراب البرق عن الانطلاق ، ها انا افتح عيني ، فهل أبصر ؟ هناك تلتهب الشعل ، آه ايتها الفخيمة! ما اشد ما اعتز الآن بانتسابي اليك! ولكنك ليس ضياؤك إلا والدي الناري اما أمي الحلوة فلا اعرفها . آه ايتها الجائرة انك لا تعرفين كيف جئت ولذلك تقولين لم تلدك أمّ ؛ يقيناً انك لا تعرفين مبتدأك ومن ثم تقولين انك قديمة لا أول لك ، انا اعرف ذلك من نفسي اعرف ما لا تعرفينه من نفسك ايتها الجبارة المهيمنة . وراءك شيء لا يمتزج بغيره ايتها الروح الوضاءة ليست ابديتك إزاءه الا زمناً ، ليست قدرتك على الخلق ازاءه الا آلية ؛ من خلالك ، من خلال نفسك الملتهبة تراه عيناي المحرقتان رؤية غائمة ، ايتها النار اللقيطة ، ايتها الناسكة الازلية

ان فيك لغزك الذي لا يحل ، فيك حزنك الذي لا يشركك فيه احد . ها هنا في ألم مستكبر اجد جدي وأقرأ اسراره . اقفزي ، اقفزي الى اعلى والحسي السماء ، انا اقفز معك ، احترق معك . ويسرني ان التحم بك ، بتحدٍ اعبدك! »

فصاح استاربك : « القارب! القارب! انظر ما حلّ بقاربك ايها الشيخ! »

بقي رمح آخاب الذي صنعه في نار بيرث مربوطاً ربطاً محكماً في محجأه المرئي الظاهر حتى انه نتأ بعيداً عن مقدم قارب التحويت ، ولكن البحر الذي شق قاعدته قد جعل الغمد الجلدي المرتخي يسقط عنه ، ومن كلاّبة السنان الفولاذي الحادّ سطعت شعلة مستوية من نار شاحبة ذات شعب ؛ وعندما كان الرمح الاخرس يحترق هنالك كأنه لسان حية ، قبض استاربك على ذراع آخاب قائلاً : « الله ، الله ضدك ايها الشيخ ؛ كفَّ عما اعتزمته! فهذه رحلة منكودة الطالع ، بدايتها منكودة والاستمرار فيها منحوس ، دعني احول وجهة السفينة ، مادام في مقدورنا ذلك ، ايها الشيخ ، ونساير الريح الرخاء نحو الوطن حتى يتاح لنا ان نخرج في رحلة خير منها » .

وتأدى الى البحارة الذين كان قد تملكهم الفزع ما قاله استاربك فجروا الى حيث الحلقات ، وان لم يكن هناك شراع واحد مرفوع ، ومرت عليهم لحظة كانت افكار الضابط المبهور فيها هي افكارهم ، فرفعوا عقائرهم بصيحة تمردية ـ بعض التمرد ، ولكن آخاب قذف بحلقات موانع الصواعق المقعقعة على ظهر السفينة ، واختطف الرمح المحترق وهزه كأنه شعلة بينهم وأقسم ان يسم به اول بحار يحلّ طرف حبل ، وشلهم منظره عن الحركة ، وأخافهم المزراق الناري الذي يحمله فانكمشوا وتراجعوا في فزع ، وتكلم آخاب ثانية فقال :

« كل أيمانكم التي حلفتموها لصيد الحوت الابيض تلزمكم كما يلزمني يميني ، ان اخاب الشيخ مرتبط بقسمه قلباً ونفساً وجسماً ورئتين وحياة ، وانتم كي تعرفوا لاي نغمة يدق قلبه انظروا ها هنا ، سأطفئ آخر خوف » . ونفخ نفخة واحدة على الشعلة فأطفأها .

ومثلما يهرب الناس في العاصفة التي تكتسح السهول من جوار شجرة دردار ضخمة منفردة ، يجعلها ارتفاعها وقوتها ابعد عن السلامة ، لانها تكون بذلك هدفاً واضحاً للصواعق ، كذلك فان كثيراً من البحارة حين سمعوا كلمات آخاب الاخيرة هربوا في هول الفزع مبتعدين عنه .

١٢٠

ظهر السفينة قريباً من نهاية النوبة الأولى في الحراسة الليلية

(آخاب جالس عند الدفة، واستاربك يقترب منه).

- « يجب ان ننزل الدعامة الرئيسية التي تسند الشراع العلوي يا سيدي فان الرباط قد استرخى ، والرافع الأيمن قد وهى حتى كاد ينقطع فهل أنزلها يا سيدي ؟ » .
- « لا تنزل شيئاً ، اربطها ، لو كانت لديّ دعائم اشرعة سماوية لأمرت برفعها الآن » .
- « سيدي ؟ بحق الاله! سيدي ؟ » .
- « طيب » .
- « المراسي تعمل يا سيدي فهل أجعلها تدخل فوق ظهر السفينة ؟ » .
- « لا تنزل شيئاً ولا تحرك شيئاً بل اربط كل شيء . الريح تعلو ولكنها لم تبلغ بعد الى هضباتي ، اسرع واهتم بالامر ، وحق الصواري والأرينات ، انه ليعدني قبطاناً أحدب مسؤولاً عن سفينة مساحلة ذات دقل واحد . يريد ان ينزل الدعامة الرئيسية التي تسند الشراع العلوي! واه يا قدور الغراء! أعلى تويجات الصواري انما صنعت لأقسى الرياح ، وتويج دماغي هذا يبحر وسط منطلق السحاب ، فهل انزله ؟ لا ينزل تويجات أدمغتهم في وقت العاصفة الا الجبناء ؛ اي فوضى هنالك في الأعلى! لكنت احسبها فوضى رائعة لولا ان القولنج مرض مزعج ؛ آه ، خذ دواء! خذ دواء!» .

١٢١

منتصف الليل ـ حوافي السفينة
عند المنارة

(اسطب وفلاسك قد ركبا حوافي السفينة عند المنارة وهما يمران أربطة اضافية فوق المراسي المعلقة هنالك).

ـ «لا يا اسطب ؛ تستطيع ان تدق تلك العقدة قدر ما تشاء حتى تسحقها ولكنك لن تستطيع ان تجعلني أزدرد ما كنت تقوله قبل قليل ، ترى كم مضى عليك مذ كنت تقول نقيضه تماماً ؟ ألم تقل ذات مرة ان اية سفينة يبحر فيها آخاب فتلك السفينة يجب ان تدفع شيئاً اضافياً على بوليصة تأمينها ، كأنها معبأة ببراميل بارود في مؤخرتها وصناديق من أعواد الثقاب في مقدمتها ؟ قف الآن : ألم تقل انت ذلك ؟ »

ـ «طيب هب انني قلته ؟ فماذا في ذلك ؟ منذ ذلك الوقت غيّرت لحمي جزنياً فلمَ لا أغير عقلي ؟ ثم هب ان سفينتنا معبأة ببراميل البارود في الخلف واعواد الثقاب في القيدوم فكيف بحق الشيطان يمكن لأعواد الثقاب ان تلتقط النار في هذا الرشاش البليل ؟ انت يا أخي ذو شعر أحمر جميل ولكنك لا تستطيع ان تلتهب . انفض نفسك ، انت اكواريوس او حامل الماء يا فلاسك . تستطيع ان تملأ جراراً واباريق عند ياقة معطفك ، ألا ترى اذن ان شركات التأمين البحريّ قد تطلب ضمانات اضافية من اجل هذه الاخطار الاضافية ؟ ها هنا صنابير كبرى يا فلاسك ، ولكن أصغ ـ مرة اخرى ـ وسأجيبك عن الامر الآخر . اولاً أبعد رجلك من قمة المرساة هنا ، حتى استطيع ان أجر الحبل ، أصغ اليّ : ما الفرق الكبير بين الامساك بمانعة صواعق في صارٍ اثناء العاصفة والوقوف لصق صار ليس فيه اية مانعة صواعق ابداً في العاصفة ؟ ألست ترى ، يا ذا الرأس اليابس ، ان لا اذى يصيب الممسك بقضيب المانعة الا اذا ضربت الصاعقة الصاري أولاً ؟ عمّ تتكلم اذن ؟ لا تجد سفينة واحدة في كل مائة مزودة بموانع الصواعق ؛ ولم يكن آخاب ، ايها الرجل ، ولا كنا جميعاً في خطر ،

حسب رأيي المتواضع ، اكثر من الخطر الذي يتعرض له البحارة في عشرة آلاف سفينة تبحر الآن في البحار . لكن انت ايها الدعامة الكبرى ، انت ، اظنك تتمنى لو ان كل فرد في الكون يمشي وقد جعل في زاوية قبعته قضيباً صغيراً يمنع الصواعق كالريشة المثبتة في قبعة ضابط الميليشيا ، ويجرجرها من خلفه كأنها حزامه . لمَ لا تكون عاقلاً يا فلاسك ؟ من السهل ان يكون المرء عاقلاً ، فلمَ لا تكون انت ؟ اي امرىء له نصف عين يستطيع ان يكون عاقلاً » .

- « لا أدري لمَ يا اسطب ، احياناً يجد المرء ذلك عسيراً » .

- « نعم عندما يكون المرء نقيعاً فمن العسير ان يكون متعقلاً ، هذا حق . وانا أكاد انتقع بهذا الرشاش . لابأس ، امسك اللفة هنالك وأمرّها ، يبدو لي اننا نربط هاتين المرساتين كأننا لن نستعملهما من بعد ابداً . ان ربط هاتين المرساتين يا فلاسك يشبه من يشد امرءاً كتافاً ، جاعلاً يديه وراء ظهره . وما اكبر هاتين اليدين واكرمهما ، يقيناً . هاتان قبضتاك الحديديتان ، مش كده ؟ واي قدرة فيهما على القبض ايضاً! ليت شعري يا فلاسك هل للعالم مرساة في مكان ما ؟ ان كانت له مرساة فانها تتأرجح من حبل طويل شاذٍ في مبلغ طوله . دقَّ تلك العقدة هناك وبذلك ينتهي عملنا . خير شيء يرضي النفس ، سوى النزول الى البرّ ، هو النزول على ظهر السفينة ، اقول : انفض حواشي صدارتي ، اتسمح ؟ شكراً لك . يسخر الناس من المعاطف الطويلة يا فلاسك ، ولكن يخيل اليّ ان المعطف ذا الذيل الطويل يجب ان يلبس دائماً اثناء كل العواصف في الاعالي ، فاذا كان الذيل مستدقاً الى اسفل فانه يأخذ الماء . فهمت ؟ وكذلك الامر في القبعة ذات العرف فإن العرف يا فلاسك يمثل طنف الجرن في نهاية السقف الهرميّ . لا اريد بعد اليوم الصدارات البحرية الضيقة او قبعات التربولين ، سأتخذ سترة فراك وقبعة محردة . كذا قررت . مرحى! ووه! هاهي قبعتي التربولين تهوي الى الماء ، رباه ، رباه كيف تكون الريح التي تهب من السماء قليلة الذوق! هذه ليلة قذرة يا فتى! »

١٢٢

في الأعالي عند منتصف الليل - الرعد والبرق

(الدعامة الرئيسية التي تسند الشراع الأعلى، وطاشطيقو يحزمها بأربطة جديدة).

«م ؛ م ؛ م . أوقف ذلك الرعد ، هذا رعد كثير هناك في الاعالي . ما فائدة الرعد ؟ م ؛ م ؛ م . لا نريد رعداً . نريد رمّاً . اعطنا كأساً من رمّ ؛ م ؛ م ؛ م ؛ م!»

١٢٣

البندقية

في خلال أعتى الصدمات التي كانت تحدثها الزعزع كان الرجل الواقف عند مخل السكان ، المصنوع من عظم الفك ، ينطرح مترنحاً عدة مرات على ظهر السفينة بسبب حركاتها المتقطعة مع ان حبالاً واقية كانت قد ربطت بها ـ اذ كانت حبالها مسترخية ـ لانه لم يكن ثمة معدى من ان يكون المخل حراً بعض الشيء .

وفي عواصف عديدة كهذه العاصفة ، حين لا تكون السفينة إلا خذروفاً متقلباً في يد الريح ، فانه ليس من المستغرب ان ترى الابر في البوصلات ، بين فترة واخرى ، تدور وتدور ، وذلك هو ماحدث في الباقوطة ، فان قيم الدفة لم يفته ان يلحظ عند كل صدمة تقريباً ، سرعة الدوران في الابر فوق لوحاتها ، وذلك منظر يكاد لا يلحظه اي انسان دون الاحساس بنوع من الشعور لم يألفه .

وبعد مضي بضع ساعات على انتصاف الليل خبت حدة الزعزع كثيراً حتى ان البقايا المترجرجة من الاشرعة : المقدم والمستأخر والعلويّ الرنيس ، انفصلت عن الصواري بالجهود المضنية التي بذلها كل من اسِتاربك واسطب ، واحدهما منهمك في الامام والآخر في الخلف ، وذهبت تغزل بعيداً مع مهب الريح كأنها ريش طائر البطروس ، وهو الريش الذي تتلعب به الريح حين يكون ذلك الطائر الذي تقلبه العاصفة ناشراً جناحيه .

وأميلت الاشرعة الثلاثة المناظرة وطويت ، ونشر شراع مرن في المقدمة ينشر مثله عادة في العواصف ، حتى ان السفينة جرت على الماء مرة اخرى بشيء من التثبت المتماسك ، وأمر قيم الدفة بأن يوجهها ان كان التوجه ممكناً في اتجاه شرقي جنوبي شرقي ، ذلك انه خلال هيج العاصفة انما كان يوجه السفينة حسب تقلب الحال بها واذ كان يقرّب السفينة من مجراها قدر الامكان ، مراقباً البوصلة في الوقت نفسه ـ يا لله! ما احلى هذه

العلامة! ها هي الريح تدور من المؤخرة ، اجل ان ما كان ريحاً نكباء قد اصبح ريحاً رخاء!

وعلى التّو أديرت الدعامات الساندة على نغمة اغنية حيوية مطلعها : «هو! الريح رخاء! او هي ـ هو ، تهللاً يا رجال» والبحارة يتغنون طرباً ؛ ومن عجيب ان الامل بالتغير قد زيف على التّو وجه نذر الشرّ التي سبقته .

وما كاد استاربك يعدّل الدعامات وفق المهب ـ في حرد وبرم وكآبة ـ وكان منوطاً به ان يعلن حالاً في اية ساعة من الساعات الاربع والعشرين عن كل تغير يحدث في شؤون ظهر السفينة ، امتثالاً منه في ذلك لأوامر رئيسه ، ما كاد يفعل ذلك حتى هبط آلياً الى الطابق السفليّ ليحيط آخاب علماً بتعديل الدعامات وفق المهب .

وتوقف لحظة امام غرفة رئيسه ـ توقفاً لا ارادياً ـ قبل ان يقرع الباب . كان قنديل القمرة اثناء تأرجحاته الطويلة ذاهباً جائياً يلتهب تلهباً مترجرجاً ويلقي ظلالاً متذبذبة على الباب المغلق(١) ـ وهو باب رقيق ثبتت فيه ستائر في موضع الالواح الخشبية العليا ، وكان انسفال القمرة في انعزالها يجعل الصمت المهمهم يرين في ذلك المكان وان طوّق ذلك الصمت من جميع النواحي بهدير العناصر جميعاً . وانكشفت البنادق المعبأة من محاجئها ، لامعة ، منصوبة عمودياً ازاء الجدار الحاجز الامامي . كان استاربك رجلاً نزيهاً مستقيماً ولكنه لحظة ان رأى البنادق انطلقت من قلبه ـ على نحو غريب ـ خاطرة شريرة ، إلا انها كانت مختلطة بأفكار اخرى بعضها خير وبعضها لا هو الى الخير ولا هو الى الشر ، حتى انه لم يكد يستبينها قائمة بنفسها في تلك اللحظة .

تمتم قائلاً : «كان يريد ان يرديني بالرصاص ذات مرة ؛ نعم تلك هي البندقية نفسها التي صوبها اليّ ـ تلك ذات الخزان المرصع ـ لألمسها ، لأرفعها ، من الغريب ان ارتعش وانا الذي تمرست بكثير من الحراب القاتلة . معبأة ؟ دعني افحصها . اجل ، اجل والبارود في الخزان ؛ ليس هذا امراً حسناً . أمن الافضل ان افرغها ؟ ـ مهلاً . سأبرأ مما انا فيه . سأمسك بها في جرأة ما دمت افكر ـ جئت اخبره بان الريح طيبة . كيف تكون طيبة ؟ طيبة تصلح للموت والفناء ـ اي هي صالحة لموبي ديك . ما من ريح طيبة الا الريح التي تصلح لذلك الحوت اللعين . هذا هو الانبوب نفسه الذي سدده اليّ ، نفسه ، هذا نفسه ، وانا امسك به ، كان يمكن ان يقتلني بالأداة التي اقبض عليها الآن بيدي . اجل ولعله يرتاح لو قتل جميع بحارته . ألا انه لا ينزل صواريه لأية عاصفة ؟ ألم يحطم مقياس الزوايا ؟ أليس

---

(١) قارن هذا بقنديل يونان في موعظة الاب مابل ص ٧٢٠ من هذا الكتاب .

يجد طريقه في هذه البحار الملينة بالمخاطر عن طريق التقدير التخميني المرتجل المستمد من سجل الرحلة وهو سجل حافل بالخطأ ؟ ألم يحلف في هذا الزعزع نفسها انه لن ينصب موانع صواعق ؟ ولكن أنظل نرضى لهذا الشيخ المجنون ان يجر جميع عصبة السفينة الى هوة العدم في صحبته ؟ نعم ان ذلك يجعله قاتل عمد لثلاثين رجلاً او اكثر ان لقيت هذه السفينة اذى بالغاً مميتاً . اما انها ستلقى اذى بالغاً مميتاً فان روحي تقسم ان ذلك حادث لا ريب فيه ان لم يجد آخاب من يكبح جماحه ، فاذا تمت تنحيته في هذه اللحظة فان تلك الجريمة لن تكون من صنعه . ها! أتراه يتمتم في نومه ؛ نعم هناك ـ في الداخل ـ انه نائم . نائم ؟ اجل ولكنه مايزال حياً ، وسيستيقظ حالاً . انا لا استطيع ان اعارضك عندما تفيق ايها الشيخ . انك لا تصيخ للتعقل ، للاحتجاج ، للتوسل ؛ كل هذه امور تزدريها . الطاعة الحاسمة لاوامرك الجازمة : ذلك هو كل ما تتردد به انفاسك . اجل وتقول ان الرجال نذروا على انفسهم مثل نذرك ، تقول ان كل واحد فينا آخاب ، لا سمح الله العظيم! ولكن اما من مخلص آخر ، مخلص شرعي ؟ نسجنه حتى نرجع الى الوطن ؟ مه! آترجو ان تنتزع القوة الحية في هذا الشيخ من يديه ؟ لا يجرب ذلك إلا أحمق . هب انه صفّد ، عقدت من حوله كل الحبال والمواصر ، قيد بالحلقات على ارض القمرة ، عندئذ يكون أشد إفزاعاً من نمر في قفص ، انا لا استطيع ان اطيق هذا المنظر ، وربما لم استطع ان اهرب من عوانه فالراحة والنوم والعقل الرزين ـ جميع هذه ستفارقني عندئذ في الرحلة الطويلة المشؤومة . وماذا يتبقى بعد ؟ بيننا وبين البرّ مئات الفراسخ واقرب برّ الينا اليابان التي يحرم علينا النزول فيها ، انا اقف وحدي فوق بحر منبسط وبيني وبين القانون محيطان وقارة ، أجل . اجل انه لكذلك ، أينسب ارتكاب القتل الى السماء حين تصيب بصواعقها من سيصبح قاتلاً ، وهو في سريره ، فتحرق الاغطية والجلد معاً ؟ أكون قاتلاً إذاً ـ » وفي بطء واستخفاء ، وهو يسترق النظر استراقاً ، وضع طرف البندقية المعبأة ازاء الباب .

« على هذا المستوى تتأرجح ارجوحة آخاب في الداخل ، ورأسه في هذه الجهة ، « كبسة » واحدة يستطيع استاربك بعدها ان يعيش ليعانق زوجته وطفله مرة اخرى . آه يا ماري! ماري! بني! بني! بني! ولكن ان لم أوقظك للموت ، ايها الشيخ ، فمن يدري في اية اعماق لا قرار لها يتردى جسد استاربك في هذا اليوم من الاسبوع ، مع جميع البحارة ، يارب يا عظيم! اين انت ؟ أأقدم ؟ أأقدم ؟ ـ قد هدأت الريح وتحوّلت ياسيدي ، وقد طوينا الأشرعة الامامية والرئيسية العليا وعادت السفينة الى مجراها » .

ـ « الى المؤخرة! آه يا موبي ديك اخيراً وضعت جُمْعَ يدي على قلبك! »

كذلك كانت الاصوات التي انبعثت من فم الشيخ في نومه المتقلب بالعذاب كأن صوت استاربك قد انطق الحلم الاخرس .

واهتزت البندقية التي ماتزال مصوبة ، ازاء الباب ، كأنها ذراع سكران ، وبدا استاربك وكأنه يصارع ملاكاً ، ولكنه استدار عن الباب وردّ انبوب الموت الى كنّه وغادر المكان .

ـ «انه في نوم عميق يا سيد اسطب ، اهبط اليه انت وأيقظه وابلغه الخبر ، انا سألقي نظرة على ظهر السفينة ، وانت تعرف ما تقول» .

١٢٤

الابرة

في اليوم التالي كان البحر الذي لم يخبُ هيجه تماماً يتقلب في امواج طويلة بطيئة ذات حجم هائل ويدفع الباقوطة قدماً وهو يتمطى في آثارها المقرقرة ، كأنه راحتا مارد مبسوطتان . وتكاثرت النسمات القوية الصامدة حتى بدا الفضاء والهواء وكأنهما شراعان ينتفخان انتفاخاً شديداً ، وكأن كل الكون يجيش متموجاً امام الريح . وانحجبت الشمس متلفعة في ضوء الصباح ، فلم نعد نستبينها إلا بما تنشره حولها من ضوء قويّ حيث كانت اشعتها الطعّانة تتجه محتشدة مكدسة . وهيمنت على كل شيء زخارف كالتي يزدان بها الملوك والملكات البابليون ؛ اما البحر فكان بوتقة ذهب مذاب ، يتوثب مرسلاً نفاخاته بقوة الضوء والحرارة .

ووقف آخاب منتحياً جانباً وقد طال به الصمت المسحور ، وكلما أمالت السفينة المترجرجة دقلها المائل الامامي وجه نظره الى اشعة الشمس اللامعة التي تنبعث في الامام . وكلما استقرت مطمئنة عند المؤخرة التفت الى خلف ورأى موقع الشمس عند المؤخرة ، وكيف ان اشعتها الصفراء تمتزج بمخر السفينة الذي لا يتعوّج ولا ينحرف .

ها ، ها ، يا سفينتي! ليستطيع المرء ان يعدّك عربة الشمس . هو! هو! ايتها الامم تلقاء القيدوم أنا آت اليك بالشمس! ضعوا النير فوق اعناق الامواج التالية ، هالو! اجعلوها عربة مردفة ، ها انا اسوق البحر! » .

ولكن خاطرة مناقضة كبحت جماحه فجأة فأسرع نحو الدفة وتساءل بصوت اجش : « كيف اتجاه السفينة ؟ »

فأجاب قيم الدفة المرتاع : « شرقاً ـ جنوب شرق يا سيدي » . فصفعه بقبضته مجتمعة وقال : « كذّاب! أتتجه شرقاً في هذه الساعة من الصباح والشمس في المؤخرة ؟ »

تحيرت لدى هذه الحقيقة كل نفس ، لان الظاهرة التي لحظها آخاب فاتت كل من عداه فلم يفطنوا لها ، ولكن السبب في ذلك هو انها كانت حقيقة ساطعة يعشي سطوعها عين الفكر .

ودسّ آخاب رأسه بعض الشيء في صندوق الابرة فلمح البوصلتين لمحاً ، وببطء هبطت ذراعه المرفوعة وبدا لحظة وكأنه يترنح ، ونظر استاربك الذي كان يقف وراءه ، يا للهول! كانت البوصلتان تشيران الى الشرق والباقوطة ذاهبة دون انحراف نحو الغرب .

ولكن قبل ان يتأدى النذير الاول المرعب بين البحارة هتف الشيخ في ضحكة جاسية : «لاحت لي! لقد حدثت قبلاً ؛ ان رعد الليلة الماضية يا سيد استاربك قد ادار بوصلتينا . هذا كل ما في الأمر ؛ وأنا اعتقد انك سمعت بمثل هذا من قبل» .

ـ «اجل ، ولكنه لم يحدث من قبل لي أبداً يا سيدي» ـ ذلك ما قاله الضابط الشاحب في اكتئاب ووجوم .

ولابد من ان اقرر في هذا المقام ان حوادث كهذه قد وقعت غير مرة للسفن اثناء العواصف العنيفة ، فان الطاقة المغناطيسية حسبما توجد في ابرة البحار ، هي كما يعرف الجميع ، لا تفترق في اساسها بشيء عن الكهرباء التي ترى في السماء ، ولذلك فيجب ألا يتملكنا العجب كثيراً اذا حدثت مثل هذه الامور ، وقد وقعت حوادث ، ضرب البرق فيها المركب وحطم بعض الصواري والمعدّات ، فكان التأثير على الابرة احياناً انكى واشد ، إذ انعدمت منها القوة المغنطيسية حتى اصبح ما كان فيها فولاذاً ممغنطاً لا نفع فيه اكثر مما في ابرة الخياطة في يد امرأة عجوز . ثم ان الابرة في الحالين لا تستعيد من ذاتها ما تبدد من قوتها الاصيلة او اضمحلّ ، واذا تأثرت البوصلة التي في الصندوق لقيت البقية الموجودة في السفينة مصيراً مماثلاً حتى ولو كانت بوصلة في ادنى اجزاء السفينة مودعة في الكلزون .

وقف الشيخ عامداً امام صندوق الابرة يلحظ البوصلتين المنحرفتين ، وبحدّ يده الممتدة عدّ لهما حسب وجهة الشمس بدقة ، ولما أن رضي عن دقة التحويل للابرتين أصدر أوامره بتغيير وجهة السفينة وفق ذلك ؛ فرفعت الباحات ومرة اخرى طعنت الباقوطة بمقدمتها الباسلة وجه الريح المضادة اذ ان الريح التي ظن انها طيبة انما كانت تمازحها وحسب .

وفي الوقت نفسه لم يقل استاربك شيئاً ، مهما تكن خواطره الخفية ، وانما أصدر في هدوء الاوامر المطلوبة ، وانصاع كل من اسطب وفلاسك للاوامر بالمثل دون تذمر ، وان بدا انهما كانا حينئذٍ يشاركانه المشاعر نفسها الى درجة قليلة . واما الرجال

الآخرون فان خوفهم من آخاب ـ وان بدا بعضهم يهمهم في خفوت ـ كان أشد من خوفهم من الاقدار ، واما الزراقون الوثنيون فظلوا كما كانوا ابداً من قبل غير عابئين بشيء ، او اذا هم اكترثوا فانما كان اكتراثهم مغناطيسية يطلقها قلب آخاب العاتي الذي لا يلين في قلوبهم العاتية التي لا تلين .

ومشى الرجل الشيخ مدة على ظهر السفينة في احلام متكوّرة ولكنه صادف ان زلق على كعبه العاجي ، فرأى انابيب المنظار النحاسية المحطمة ، وهي انابيب مقياس الزوايا الذي طرحه في اليوم السابق على ظهر السفينة .

«يا ناظور السماء المستكبر المسكين ، يا رائد الشمس! أمس حطمتك ، والبوصلة اليوم كانت تودّ لو تحطمني . كذا ، كذا ؛ ولكن آخاب مايزال سيد المغناطيس المشحون . يا سيد استاربك ـ هات حربة دون قناة ، ومطرقة واصغر ابرة من ابر صانعي الاشرعة ، عجّل» .

ربما كان الدافع الذي يملي عليه ما يريد ان يفعله مشفوعاً ببعض دوافع صادرة عن بصيرة ، وربما كانت غايتها انعاش نفوس البحارة بصنيع من مهارته الماكرة في امر مثير للعجب كأمر البوصلتين المحولتين . ثم ان ذلك الشيخ كان يعلم حق العلم ان الابحار على هدي ابرتين مواربتين ، وان كان امراً عملياً على نحو أرعن ، فانه ليس من الامور التي يمر بها البحارة المؤمنون بالخرافة مرَّ الكرام ، دون ان يحسوا بالقشعريرة ونذر الشرّ .

والتفت في رباطة جأش نحو البحارة حين سلمه الضابط الادوات التي طلبها : «يارجال ؛ يا رجالي لقد عكس الرعد إبر آخاب الشيخ ولكن آخاب يستطيع من هذه القطعة من الفولاذ ان يصنع ابراً ، تشير الى الوجهة الصحيحة كأي ابرٍ اخرى» .

تبادل البحارة بينهم نظرات مرتبكة تفيض بالدهشة الذليلة حين سمعوا هذا القول ، وترقبوا بعيون لهيفة اي سحرٍ يبدو . اما استاربك فحوّل نظره ناحية .

هوى آخاب بالمطرقة على الحربة الفولاذية فأطار رأسها بضربة ، وأعطى الضابط سائر القضيب الحديدي وأمره ان يمسكه عامودياً دون ان يمس ظهر السفينة ، ثم دق الطرف الاعلى من هذا القضيب الحديدي مراراً بالمطرقة ، ووضع الابرة الكليلة مقلوبة في طرف القضيب ، ودقها دقاً خفيفاً عدة مرات ، والضابط ما يزال ممسكاً بالقضيب . ثم حركها بضع حركات غريبة ـ ولا احد يدري أكانت ضرورية لمغنطة الفولاذ او قصد بها ليزيد من الرهبة في نفوس بحارته ـ وطلب خيطاً من الكتان ، ومشى الى صندوق البوصلة فزحزح الابرتين المعكوستين واستخرجهما ، وعلق ابرة الشراع من وسطها أفقياً

فوق واحد من قرصي البوصلة . فأخذ الفولاذ في بادىء الامر يدور ويدور مهتزاً متذبذباً في طرفيه واخيراً استقر في موضعه ، وعندئذٍ تراجع آخاب الذي كان يرقب هذه النتيجة بامعان من جانب صندوق الابرة ، وأشار اليه بذراع ممدودة نحوه وهتف : «احكموا انتم ان كان آخاب ـ او ان لم يكن ـ سيد المغناطيس . الشمس في المشرق ، وهذه البوصلة تقسم ان ذلك صحيح! » .

وأطلوا عليها واحداً اثر آخر اذ لم يكن يستطيع ان يبدد جهلاً كجهلهم الا المعاينة بالنظر ، وانسلّوا ذاهبين واحداً اثر آخر .

في نظراته النارية التي ترسل الاحتقار والانتصار كنت ترى آخاب وهو في ذروة خيلائه القاتلة .

١٢٥

مقياس السرعة وحبل المقياس

على الرغم من طول ماعامت الباقوطة الساعية الى مصيرها خلال هذه الرحلة فإنّ مقياس السرعة والحبل المتّصل به قلّما استعملا ، وبعض السفن التجارية وكثير من سفن الحوّاتة ، نظراً لإعتمادها المطمئن على وسائل أخرى في تحديد الموقع الذي تحلّ فيه ، وخاصّة أثناء تجوالها ، تغفل رفع مقياس السرعة إغفالاً تاماً . وإن كان قباطنتها في الوقت نفسه يسجّلون بانتظام على اللوحة المعهودة ، وكثيراً مايكون عملهم هذا حفاظاً على شكليّات الأمور دون أيّ شيء آخر ، المساقَ الذي أبحرت فيه السفينة ، كما يسجّلون نسبة التقدّم التخميني كلّ ساعة . وكذلك جرت الحال بالنسبة للباقوطة فقد ظلّت البكرة الخشبية والقرمة الخشبية ذات الزوايا المتّصلة بها معلّقة دون مساس مدة طويلة ، تحت الدرابزين الواقع في الحوافي الخلفية ، وقد نشعت بالرطوبة من الأمطار والرشاش ، وقلّصتها الشمس والريح ، أي تضافرت كلّ العناصر لتبلي شيئاً معلّقاً متبطّلاً . ولكن آخاب الذي لم يتنبه لكل هذا لفتت هذه الحال نظره عندما اتّفق له أن ألقى نظرة على البكرة الخشبية ، بعد مشهد المغناطيس بساعات غير كثيرة ، وتذكّر أنّ مقياس الزوايا لم يعد له وجود ، وتذكّر قسمه المحنق حول القرمة المستوية والحبل . كانت السفينة تبحر في الضباب ، والأمواج في مؤخّرتها تتدحرج صخّابة حين صاح : «أنتم في الأمام! ارفعوا مقياس السرعة» .

جاء اثنان من البحارة : التاهيتي ذو البشرة الذهبية وابن جزيرة مان الأشمط فقال لهما : «ليقف أحدكما عند البكرة الخشبية وأنا أسحب» .

فذهبا الى أقصى المؤخّرة على الجانب الأيمن من السفينة حيث كان ظهرها بقوة الريح المواربة يكاد ينغمس في البحر المزبد المندفع على انحراف .

فأمسك الرجل ابن جزيرة مان بالكرة الخشبية ورفعها الى أقصى ما يستطيع ممسكاً بها

من طرفي اليدين البارزتين في مغزلها الذي يلتفّ حوله ملف الحبل ، ووقف كذلك والقرمة ذات الزوايا معلّقة مدلاة حتّى اقترب منه آخاب .

وقف آخاب أمامه وكان يحلّ بخفّة ثلاثين أو أربعين لفّة لكي يكوّن منها طولاً يطرحه من فوق السفينة حين تجرأ ابن جزيرة مان الذي كان يلحظه في إمعان ويلحظ الحبل ، فتكلّم قائلاً :

ـ « سيدي أنا لاأثق فيه ، هذا الحبل هالك ، قد أتلفته الحرارة والرطوبة في المدى الطويل » .

ـ « لابأس به أيها الشيخ فإنه سيستمسك ، هل أتلفتك أنت الحرارة والرطوبة في المدى الطويل ؟ ماتزال مستمسكاً لابأس بك ، أو ربّما كان الأصوب أن أقول : إنّ الحياة لاتزال مستمسكة تقوم بك ، ولست أنت الذي تقوم بها » .

ـ « أنا أمسك الملف ياسيّدي . الأمر كما يقول قبطاني . ليس من الجدير بي وقد اشمطت الذوائب فوق ذهني أن أجادل ، وبخاصة أن أجادل رئيساً لن يعترف لي بالصواب » .

ـ « من هذا ؟ ها هنا استاذ رثّ الهيئة في كلية الطبيعة الملكة المبنية من حجارة الغرانيت ، ولكن يلوح أنه نافع حتّى ليتجاوز حدّ النفع . أين ولدت ؟ » .

ـ في الجزيرة الصغيرة الصخرية التي تسمّى جزيرة « الانسان » (مان) يا سيدي » .

ـ « عظيم! إنك تستطيع أن تحرز الكون بذلك! » .

ـ « لاأدري ياسيدي ، ولكنّي ولدت هنالك » .

ـ « في جزيرة « الانسان » ، مش كده ؟ لو عكست القول لكان أفضل . هاهنا إنسان من « الانسان » ـ إنسان ولد في« الانسان » التي كانت ذات يوم مستقلة ، واليوم جرّدت « الانسان » من الانسان ـ ابتلعت ، من ابتلعها ؟ ارفع البكرة إنّ الحاجز الجامد الأعمى ليدع كلّ الرؤوس الباحثة عن جواب في النهاية . ارفعها! هكذا » .

جرّ مقياس السرعة وتوتّرت اللفائف المسترخية على عجل في حبل طويل ممتد من المؤخّرة ، وعلى التوّ أخذت البكرة الخشبية تدور . ثمّ إنّ مقاومة الجذب في قرمة المقياس ، وقد رفعتها الموجات المتضربّة وانخفضت بها في ارتجاج ، قد جعلت بدورها الرجل العجوز الممسك بالبكرة يترنّح ترنّحاً غريباً .

ـ « تثبّت ممسكاً! » .

فرقعة! إنّ الحبل الذي تجاوز في توتّره الحدّ تدلّى متقوّساً في انحناءة مديدة وغابت القرمة المسحوبة .

- «أنا حطّمت مقياس الزوايا والرعد عكس الإبر ، وهذا البحر المجنون يقطع حبل مقياس السرعة ، لكن اخاب يستطيع أن يصلحه . اسحب الى هذه الناحية أيها التاهيتي ، لفّ أنت الحبل حول البكرة يا ابن جزيرة مان ، واسمع! قل للنجار يصنع قرمة أخرى وأنت اصلح الحبل . هيّا اهتم بالأمر» .

- «ها هو ينصرف . كأن لم يحدث شيء في نظره ، أمّا أنا فإنّي أرى أن المحور قد انفلت من وسط العالم . اسحب . اسحب . ياتاهيتي . هذه الحبال حين ترخيها تجري سليمة وحين تلفّها تأتي متقطّعة وتنجر ببطء . ها بيب ؟ جاء يقدّم العون ، ماذا يا بيب ؟» .

- «بيب ؟ من ذا الذي تناديه باسم بيب ؟ بيب قفز من قارب التحويت . بيب مفقود . دعني أرى إن كنت قد استخرجته من البحر أيها الصياد . إن الحبل ينجر بعسر وتثاقل ، وأنا أظن أنه ممسك بطرفه ، انفضه أيها التاهيتي ، اطرحه عنك! فنحن هنا لا نسحب جبناء . هو! ها هي ذراعه تشق الماء . البلطة! البلطة! اقطعوها ، فنحن هنا لا نسحب جبناء . يا قبطاننا آخاب! سيدي! سيدي! ها هو بيب يحاول أن يعود الى ظهر السفينة» .

فأمسك به ابن جزيرة مان من ذراعه وصرخ : «اهدأ أيها الممرور المجنون ، انصرف عن الربعة خلف الدقل الأعظم!» .

فتمتم آخاب وهو يقترب : «الأبله الأكبر يوبّخ الأبله الأصغر ، ارفع يديك عن تلك القداسة الطاهرة! أين تقول ذهب بيب أيها الغلام ؟» .

- «في المؤخرة ياسيدي هناك في المؤخرة!تأمّل! تأمّل!» .

- «ومن أنت أيها الغلام ؟ أنا لا أرى خيالي في إنساني عينيك الفارغين . رباه! هذا الإنسان شيء تتّخذه الأرواح الخالدة منتخلاً تنفذ منه! من أنت أيها الغلام ؟» .

- «أنا الجرّاس يا سيدي ، أنشد الضالة في السفينة . دن - رن - دن! بيب! بيب! بيب! من دلّ على بيب فله مائة رطل من صلصال ، ارتفاعها خمسة أقدام - علامته أنه جبان - تسهل معرفته بهذه العلامة! دن - رن - دن! من رأى بيب الجبان ؟» .

- «بعد خطّ الثلج لايمكن أن تكون هناك قلوب . آه أيّتها السماوات المتجمدة ، انظري من علٍّ الى ماهو هنا . أنت ولدت هذا الطفل التعس وهجرته ، أنت أيّتها الفاجرة الولود . اليّ ياغلام! إنّ قمرة آخاب ستكون بيت بيب مادام آخاب حيّاً . إنّك لتلمس سويداء قلبي أيها الفتى ، إنّك موصول بي بحبال منسوجة من خيوط قلبي . تعال هيا بنا نهبط الى القمرة» .

فقال بيب وهو يمعن محدّقاً في يد آخاب ويتحسّسها : «ماهذا ؟ هذا جلد قرش

مخملي . آه لو أنّ بيب المسكين لمس شيئاً لطيفاً كهذا فربّما لم يذهب فقيداً! هذا يبدو لي ياسيدي مثل حبلٍ جانبي في سفينة ، شيء تتعلّق به النفوس الضعيفة . آه ياسيدي ادع بيرث الحدّاد لكي يأتي و« بيرشم » هاتين اليدين معاً ، السوداء مع البيضاء ، لأنّي لن أدع هذه اليد تفلت من يدي » .

ـ « آه ياغلام ويدي لن تفلت من يدك إلاّ إذا جررت الى أهوال أسوأ من التي هنا . تعال اذن الى قمرتي . تأمّلوا يامن تعتقدون أن الآلهة فيها الخير كله وأنّ الإنسان فيه الشرّ كله ، تأمّلوا! انظروا كيف أن الآلهة العليمة بكلّ شيء تسهو عن الانسان المتألّم ، وأنّ الإنسان على بلاهته وجهله بما يأتيه مليء بالأشياء العذبة من حب وشكران . تعال! اشعر أنني أشد خيلاء حين أقودك بيدك السوداء ممّا لو أمسكت بيد امبراطور! » .

فتمتم الأشيب ابن جزيرة مان : « ها هنا يمشي اثنان مجنونان . أحدهما مجنون بالقوة والآخر مجنون بالضعف ، ولكن ها هي نهاية الحبل البالي ، كله يقطر ماء أيضاً . يقول لي أصلحه! أظن أنّ من الخير لنا جميعاً أن نجد لنا حبلاً جديداً تام الجدّة . سأقابل السيد اسطب في الأمر » .

١٢٦

عوامة الإنقاذ

أبحرت الباقوطة في اتّجاه جنوبي شرقي على هدى المؤشّر الفولاذي الذي طرقه آخاب . وليس فيها مايعيّن مقدار سرعتها سوى القرمة المستوية والحبل اللذين سوّاهما ، واستمرّ بها طريقها نحو خطّ الإستواء . فكان قيامها برحلة طويلة خلال مياه مهجورة بحيث لاترى سفناً وتصبح بعد وقت غير طويل مسوقة ـ على انحراف ـ بقوة رياح تجارية لايتغيّر مهبّها ـ على أمواج وديعة يستمر مرير وداعتها أبداً ، كلّ هذه الأمور بدت وكأنها الأشياء الهادئة الغريبة في هدونها التي تجيء ارهاصاً بمشهد صخّاب مستيئس .

وعندما اقتربت السفينة أخيراً من ضواحي مجال الصيد الإستوائية ـ إن صحّ التعبير ـ وكانت في الحلكة المبهمة التي تسبق الفجر تبحر الى جانب عنقود من الجزيرات الصخرية . عندئذٍ روّع حرّاس النوبة ـ وكان فلاسك يرأسهم ـ بصيحة وحشية منكرة ، لما تنضّح به من كآبة منتحبة كأنها ندب مغمغم ترسله أشباح جميع الأبرياء الذين أزهق أرواحهم هيرودس ، حتّى أنهم وحداناً وزرافة هبّوا من هجعاتهم ووقفوا أو جلسوا أو اتّكأوا صاغين في تصلّب كتمثال العبد الروماني المنحوت ـ على مدى بضع لحظات ـ وتلك الصيحة الغريبة الوحشية ماتزال منهم بمسمع . أمّا المسيحيّون أو الفريق المتمدّن بين البحارة فقالوا إنها حوريات البحر . وانتفضت أجسامهم ارتعاداً ، وأمّا الزراقون الوثنيون فظلّوا ساكنين لا يدركهم فزع . غير أنّ ابن جزيرة مان الأشيب ـ أكبر البحارة جميعاً في السن ـ أعلن أنّ الأصوات الوحشية المثيرة التي سمعوها إنّما كانت أصوات قوم حديثي الغرق في البحر .

وكان آخاب في ارجوحته في الأسفل فلم يسمع بهذا حتّى طلع الفجر الداكن وصعد هو الى ظهر السفينة ، فأفضى اليه فلاسك بالنبأ مشفوعاً بتلميحات الى بعض معاني الشؤم . فضحك ضحكة جوفاء وأورد التفسير التالي لذلك الأمر الغريب :

تلك الجزيرة الصخرية التي مرّت بها السفينة هي ملاذ عدد كبير من حيوان الصيل[1] وبعض أفراد الصيل الصغار الذين فقدوا أمهاتهم أو الأمَهات اللواتي ثكلن صغارهن قد اقترن ولابدّ من السفينة وظللن يرافقنها معولات نائحات على نحوٍ شبيه بإعوال بني الإنسان ونواحهم ، ولكنّ هذا التفسير كان أبلغ تأثيراً ممّا عداه في نفوس بعضهم لأنّ أكثر البحارة يستشعرون أحاسيس موشحة بالخرافات نحو حيوانات الصيل وذلك لم ينشأ لديهم فحسب من نغماتها المعولة حين يلم بها مصاب ، وإنّما نشأ أيضاً من مظهرها الإنساني فهي ذات رؤوس مستديرة ووجوه ذكية بعض ذكاء ، حين تبرز متطلّعة من الماء عن كثب . وكثيراً ما أخطأ الناس في البحر تحت ظروف معينة حقيقة الصيل وحسبوه آدمياً .

ولكن مخاوف البحارة أتيح لها أن تجد مايؤكّدها تأكيداً غاية في الاستصواب ، وذلك بالمصير الذي لقيه أحدهم ذلك الصباح ، فقد غادر ذلك الرجل أرجوحته عند طلوع الشمس الى قمة الصاري عند المقدمة ، أتراه لم يكن قد استكمل يقظته من النوم (لأن البحارة أحياناً يصعدون وهم في حال بين النوم واليقظة) ؟ أتراه كان كذلك ؟ لاأحد يدري . لكن مهما يكن الأمر فإنه لم يمكث طويلاً في مجثمه حتّى سمعت صيحة ـ صيحة وانقلاب ـ ونظر البحارة الى أعلى فرأوا في الفضاء شبحاً يهوي ، ونظروا الى أسفل فرأوا كومة صغيرة متموجة من الفقاقيع البيض في زرقة البحر .

وأنزلت عوامة الإنقاذ ـ وهي برميل نحيف طويل ـ من عند المؤخّرة حيث تظل دائماً معلّقة في انتظار وثبة لبقة إلا أنه لم تمتد يد للقبض عليها ، وبما أن الشمس كانت قد ضربت ذلك البرميل فقد تكمّش حتّى أنه امتلأ بالماء في بطء وتشبّع خشبه اليبيس بالرطوبة في كلّ مساماته ، ولذا فإن البرميل المسمّر بالدسر المطوّق بالحديد لحق بالبحار الى القعر كأنه يقدّم له من نفسه وسادة حقيقية وإن كانت صلبة الملمس .

وبذا فإنّ أوّل رجل من رجال الباقوطة اعتلى الصاري ليرقب الحوت الأبيض عند المجال الخاص بذلك الحوت ، ذلك الرجل ابتلعه اليم في جوفه . ولكن قلّ أن تجد أحداً تنبّه لهذا في الحين ، بل أنهم في الواقع لم يأسفوا لهذه الحادثة ، أو في الأقل لم تحزنهم بكونها نذير شرّ ، فقد عدّوها تحقيقاً لشرّ كانت قد جاءت به النذر لاإيذاناً بشر سيقع في المستقبل . فصرحوا أنهم قد أدركوا سبب الصيحات الوحشية التي سمعوها في الليلة السابقة . ومرة أخرى قال ابن مان العجوز : لا .

---

(١) SEAL .

وأصبح تدبير عوّامة انقاذ بدلاً من العوامة التي فقدت أمراً لزاماً . وولى استاربك أمر الإهتمام بذلك ، ولكنهم لم يجدو برميلاً مناسباً في خفّته ، وكانت جميع الأيدي ، في اللهفة المحمومة لما بدا أنه أزمة موشكة في الرحلة ، جازعةً من أن تبذل جهداً ألا أن يكون وثيق الصلة بغايتها القصوى ، أياً كانت تلك الغاية . لذلك كانوا يريدون أن يتركوا مؤخرة السفينة غير مزوّدة بعوامة انقاذ حين ألمح كويكوج الى تابوته في إشارات وإيماءات غريبة .

فصاح استاربك مجفلاً « تابوت يتّخذ عوّامة انقاذ! »

وقال اسطب : « ذلك شيء مستهجن في رأيي » .

وقال فلاسك : « إنه يصلح تماماً ، وهذا النجار سيسوّيه في يسر » .

فقال استاربك بعد توقّف سوداوي : « هاته ، ليس يصلح سواه . زوّده بالحبال يانجّار ، لا تنظر اليّ هكذا ، أنا أعني التابوت ، أتسمعني ؟ شدّه بالحبال » .

فقال النجار وهو يحرّك يده كأنه يحمل مطرقة : « وهل أدق غطاءه بالمسامير يا سيّدي ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « وهل أقيّر ملاقيه ياسيدي ؟ » ـ وحرّك يده كأنه يحمل وعاء القار .

ـ « انصرف! ماذا لديك فيما يتّصل به ؟ اصنع عوّامة إنقاذ من التابوت ، ولا شيء سوى ذلك . ياسيد اسطب ياسيد فلاسك تقدّما معي » .

ـ « لقد انصرف ساخطاً . يستطيع أن يتحمّل الكلّ ، أمّا عند الأجزاء فيحرن ويتسخّط . أنا لاأحب هذا . لقد صنعت رجلاً للقبطان آخاب وهو يلبسها كما يفعل الرجل الدمث المهذّب ثمّ صنعت صندوق قبّعات لكويكوج فرفض أن يدسّ رأسه فيه . أيذهب كلّ تعبي سدىً في ذلك التابوت ؟ وهو يأمرني الآن أن أصنع منه عوامة إنقاذ . هذا يشبه قلب معطف قديم فهذا يعني أنني سأجعل القفا وجهاً ، أنا لاأحبّ هذا النوع من العمل الذي يليق بالاسكاف . لاأحبّه أبداً . لاكرامة فيه . ليس هنا موضعي . تصليح الآنية يحتاج الى غلمان السمكرية . نحن خير من هؤلاء . لاأحبّ أن أمسّ بيدي إلا مهمات نظيفة بكراً رياضية قلباً وقالباً ، أمور تبدأ بانتظام في البداية وتكون في الوسط حين تبلغ الوسط وتأتي الى النهاية عند الختام ، لامهمة اسكاف تكون منتهية في الوسط ، وعند البداية تكون في النهاية . إنّ تكليف المرء بمهمات الاسكاف من حيل العجائز . ربّاه! ماأشدّ حب العجائز للسمكرية . أنا أعرف عجوزاً في الخامسة والستين هربت مع سمكري شاب أصلع وهذا هو السبب الذي كان يجعلني أمتنع من أداء أيّ عمل للعجائز المترمّلات « الوحدانيّات » على البرّ حين كان

لي دكان في فنيارد ، فلعله كان يخامر رؤوسهن الشائخة «الوحدانية» أن يهربن معي . لكن هي ـ هو! ليس في البحر قبعات إلا قبعات الثلج . خلني أرى . أسمَر الغطاء . أقيَر الملاقي ثمَ أطليها به مرة أخرى ، ثمَ أدقَ عليها خشباً مستعرضاً وأحكمه ثمَ أعلّقه باللولب النتّاش فوق مؤخرة السفينة . هل حدث من قبل أن أجريت هذه الأمور على تابوت ؟ بعض المسنّين من النجارين المؤمنين بالخرافات قد يشدّون بالقيود والحبال قبل أن يقبلوا إنجاز هذه المهمة ولكني مصنوع من شوكران خشب أرستوك الأعقد . لاأبالي . مقعدتي كفن وأطوف مبحراً في صينية من مقبرة! لابأس . نحن العاملين في الخشب نصنع أسرّة العرسان وموائد اللعب مثلما نصنع التوابيت وعربات الموتى . نعمل بالشهر أو بالحرفة أو بالفاندة ، لانسأل من صنعتنا ما مأتاها وما منتهاها ، إلا إن كانت ترقيعاً «وتسكيجاً» ، وعندئذ نتخلّى عنها إذا استطعنا . هِمْ! سأؤدي المهمة الآن في رفق ، سيكون لدي ـ ياسيدي ـ كم واحد في السفينة ، المجموع ؟ نسيت . على أيّ حال ، سأعمل ثلاثين حبل إنقاذ متفرّقة ، طرف كلّ منها معمم بعقدة كرأس التركي ، طول كلّ منها ثلاثة أقدام ، كلّها معلّقة حول التابوت . فإذا غرق هيكل السفينة فإنه يكون هناك ثلاثون شخصاً حيّاً يتنازعون كفناً واحداً ، منظر لاتبصره كثيراً تحت الشمس! الي أيّتها المطرقة والإسفين ووعاء القار والمخرز! الى العمل! » .

١٢٧

ظهر السفينة

(التابوت موضوع على برميلين من براميل الحبال بين الدكة ذات المَلازم والمدخل المفتوح، النجار يقيّر ملاقيه، خيط من الدسر الملوية ينحلّ ببطء من كبة كبيرة موضوعة في جيب صدارته الداخلية يأتي آخاب بطيئاً من باب القمرة ويسمع حسّ بيب وهو يتبعه).

- « ارجع يافتى! سأرجع اليك بعد قليل . ها هو ذهب! هذه اليد لاتناسب مزاجي بأكثر ممّا يناسبه ذلك الغلام - جناح متوسّط في كنيسة! ما يجري هنا ؟ » .
- « عوامة إنقاذ ياسيّدي . هذه هي أوامر السيد استاربك . آه ، انظر يا سيّدي . احذر أن ترتطم بالمدخل! » .
- « شكراً أيها الرجل . إنّ تابوتك قريب من القبو » .
- « مايقول سيدي ؟ يعني المدخل ؟ حقّاً هو كذلك سيّدي ، هو كذلك» .
- « ألست أنت صانع الرجل ؟ انظر ألم يأتِ هذا الجذم من حانوتك ؟ » .
- « أعتقد أنه منه ياسيّدي ، كيف حال الطوق[١] ؟ » .
- « جيّد . ألست أنت أيضاً حانوتياً ؟ » .
- « بلى سيّدي . أنا أقمت هذا الشيء تابوتاً لكويكوج . ولكنهم كلّفوني الآن أن أحوله الى شيء آخر » .
- « أخبرني إذن ، ألست أنت سافلاً لعيناً جشعاً متطفّلاً احتكارياً ذا ميول وثنية إذ تصنع يوماً أرجلاً ، ويوماً آخر توابيت لتلحد فيها الأرجل ثمّ تستخرج من هذه التوابيت نفسها عوّامات إنقاذ ؟ لا مبدأ يوجهك شأنك ؛ شأن الآلهة ، فأنت كمن يزاول حرفاً كثيرة » .

---

(١) Ferrule يعني الطوق المعدني الذي صنعه لرجله العاجية .

- « ولكنّي لم أعني بهذا شيئاً يا سيّدي . أنا أفعل حسبما يعنّ » .
- « هذا ماتفعله الآلهة أيضاً . أصخ . ألا تترنّم بالغناء وأنت تصنع تابوتاً ؟ يقولون إنّ العمالقة الطيطان كانوا يهمهمون بالغناء وهم يسوّون فوهات للبراكين ، وحفار القبور في « هملت » يغنّي والمجرفة في يده . ألم تفعل ذلك أبداً ؟ » .
- « أغنّي يا سيّدي ؟ هل أغنّي ؟ آه ، إنّ الغناء وعدمه لديّ سيّان ، يا سيّدي . ولكن السبب الذي جعل حفّار القبور يصنع موسيقى هو أنّ مجرفته لم يكن فيها أية موسيقى ياسيّدي . أمّا دقماق التقيير فإنه مليء بها . أصخ له » .
- « أجل وبسبب الغطاء أصبح لديك صندوق ألحان . والذي يصنع صندوق الألحان من بين الأشياء جميعاً هو أنه ليس تحته إلا فراغ ومع ذلك فإنّ التابوت الذي سجّي فيه جسم يرنّ نفس الرنين أيها النحار . هل إتّفق لك أن أعنت في حمل نعش وسمعت التابوت وهو يرتطم ببوابة المقبرة عند دخولهم اليها ؟ » .
- « وحقّ إيماني يا سيّدي لقد -» .
- « إيمان ؟ ما معنى هذا ؟ » .
- « إيماني - ياسيّدي - هذه لفظة تجري على طرف اللسان - لا أكثر يا سيّدي » .
- « م . م . امضِ في حديثك » .
- « كنت أوشك أن أقول ياسيدي إنّ... » .
- « أأنت دودة قز ؟ أتغزل أكفانك من ذاتك ؟ انظر الى صدرك ؟ وأزح هذه الأحابيل عن الأنظار » .
- « إنه يذهب الى المؤخّرة . ذلك شيء مفاجىء ، ولكن العاصف يجيء أيضاً فجأة في العروض الإستوائية . سمعت أنّ خط الإستواء يشقّ جزيرة ألبمارل وهي إحدى جزر جالبياجوس من وسطها . يبدو لي إنّ استواء ماء يشقّ هذا العجوز أيضاً في وسطه . فهو دائماً تحت خطّ الإستواء حار ناري ، صدّقوني! ها هو ينظر الى هذه الجهة . تعالي أيّتها الدسّر ، أسرعي ، ها هنا نذهب نحن . هذا الدقماق الخشبي هو السداد وأنا أستاذ في الكؤوس الموسيقية - سدّ! سدّ! » .
[آخاب يناجي نفسه] :
« هذاك منظر! هذا صوت! نقار الخشب الأشمط يسدّ شجرة جوفاء ، الأعمى والأخرس موضع حسد في مثل هذا الموقف . ما أرى! هذا الشيء الموضوع على برميلين من براميل الحبال ، مملوءاً من حبال الجرّ . ذلك المرء مهرّج ماكر شديد الخبث . رات - تات! هكذا

تدقّ دقائق العمر . آه لجميع الموادّ كيف إنها غير مادّية! أيّ شيء حقيقي في الكون إلا الأفكار التي تُعجز المتأمّل! ذلك هو رمز الموت الجاهم ، رمزه المخوف ، وقد أصبح إتّفاقاً العلامة الموضحة للعون والأمل في حياة محفوفة بالخطر ، عوامة إنقاذ تصنع من تابوت! أيمكن الإمعان في هذا الرمز ؟ أيكون أن التابوت بمعنى من المعاني الروحية ، بعد كلّ ذلك ، ليس إلا حافظة خلود! سأفكّر في هذا الأمر . لكن لا . لقد أمعنت في البعد الى الجانب المظلم من الأرض أي جانبها الآخر فإذا الجانب النظري المضاء يبدو لي شفقاً غير يقيني . ألست تنتهي أيها النجّار من هذا الصوت اللعين ؟ أنا أهبط الى قمرتي فلا أريد أن أرى هذا الشيء إذا عدت . بيب سيحدّثني في الأمر نفسه من جديد . إنني أشرب فلسفات عجيبة منك! لابدّ أنّ هناك قنوات مجهولة من عوالم مجهولة تفرغ تيّارها فيك! » .

١٢٨

الباقوطة تلتقي براحيل

لاحت في اليوم التالي سفينة كبيرة اسمها «راحيل» عامدة نحو الباقوطة وقد تجمّع البحارة محتشدين عند صواريها جميعاً . وكانت الباقوطة عندئذٍ قد أحرزت سرعة طيبة في الماء ، ولكن لمّا كانت السفينة الغريبة المنشورة الأجنحة مع المهبّ تدنو منها ، هبطت الأشرعة المنتفخة جميعاً كأنها مثانات فارغة انفجرت ، وهربت الحياة جميعها من الهيكل المصفوع .

تمتم العجوز ابن جزيرة مان يقول : «أخبار سيئة . إنها تحمل أخباراً سيئة» . وقبل أن يتمكّن قبطانها ، وقد وضع النفير على شفتيه ، من أن يقف في قاربه ، ويحيّي آخاب وملء نفسه الأمل ، سمع صوت آخاب ينادي :

ـ «أرأيتم الحوت الأبيض ؟» .

ـ «أجل . أمس . هل رأيتم قارب تحويت تائهاً يتقاذفه التيّار ؟» وخنق آخاب فرحته ، وأجاب عن ذلك السؤال المفاجىء بالنفي ، وكان على وشك أن ينزل الى السفينة الغريبة . حين أوقف القبطان الغريب طريق مركبه وشوهد وهو ينزل من جانبه ، وبعد بضع تجذيفات صادقة أعلق خطّاف قاربه الى السلاسل الرئيسية في الباقوطة وقفز فوق ظهرها . فعرف فيه آخاب على التو أحد أبناء نانتوكت ولكن لم تجرِ بينهما تحية رسمية .

ـ «أين كان ؟ ـ لم يقتل! لم يقتل!» ـ كذلك صرخ اخاب وهو يدنو متقدّماً ـ «كيف كان ؟» .

ومجمل الحكاية التي حكاها القبطان الغريب أن ثلاثة قوارب انهمكت ، في وقت متأخّر بعض الشيء من بعد ظهر اليوم السابق ، في مطاردة سرب من الحيتان قادها على بعد أربعة أميال أو خمسة من السفينة ، وبينا كانت في مطاردة سريعة مع المهبّ برزت فجأة حردبة

موبي ديك البيضاء ورأسه من الماء الأزرق ، غير بعيد في اتّجاه الهبوب ، وعلى أثر ذلك أنزل القارب الرابع المعدّ ـ وهو قارب احتياطي ـ للمطاردة توّاً ، وبعد إبحار مغذٍّ أمام الريح ، بدا وكأنّ هذا القارب الرابع ـ وهو أسرعها قاعدة ـ قد نجح في أن يشكّ الحوت ويعلّقه بالحبل على الأقل ، حسبما استطاع نظر الرجل الواقف في رأس الصاري أن يستبين من الأمر ، فقد رأى القارب المتضائل المنقّط على البعد ، ثمّ أبصر دفقة عاجلة من الماء الأبيض يعلوها الحبب ، ثمّ لم يرَ شيئاً اخر ، ولذا قدّر البحّارة أنّ الحوت المطعون قد جرى هارباً بمطارديه الى غير وجهة ، حسبما يحدث في أغلب الأحيان . كان هناك تخوّف ولكن الفزع الايجابي لم يتمكّن في النفوس ، ثمّ وضعت شارات الإستعادة في مكانٍ عالٍ ، غير أنّ الظلام حلّ واضطرّت السفينة أن تلتقط القوارب الثلاثة التي توغلت في الأبعاد مع المهبّ قبل أن تذهب في البحث عن الرابع الذي مضى في اتّجاه مضاد تماماً ؛ ولذا فإنها لم تجد لزاماً عليها فحسب أن تترك هذا القارب يلاقي مصيره حتّى قريب من منتصف الليل وإنّما اضطرّت لتزيد بعدها عنه في الوقت نفسه . ولمّا وجدت أنّ سائر البحارة أصبحوا على ظهرها في أمان حشدت أشرعتها جميعاً ـ الأشرعة الجانبية الخفيفة على نظائرها ـ وأزمعت خلف القارب المفقود ، مشعلة في مراجل التصفية ناراً جعلتها فناراً ، ووضعت كلّ امرىء في الأعالي ـ بالتناوب ـ رقيباً . ولمّا أن قطعت مسافة غير قليلة لتدرك المكان المفترض للبحارة المفقودين ، حيث لاحوا آخر مرّة ، ولمّا أن توقّفت لتنزل القوارب الإحتياطية كي تجذّف جميعاً من حولها ولم تجد شيئاً اندفعت ثانية في إبحارها ، ثمّ توقّفت ، ثمّ أنزلت قواربها ، واستمرّ مريرها على ذلك حتّى تبلّج ضوء النهار ، ولكن لم يلح من القارب المفقود أدنى لائحة .

ولمّا انتهى القبطان الغريب من سرد قصّته ، مضى على التوّ يكشف عن غايته في النزول الى ظهر الباقوطة ، فقال إنه يرغب أن تشترك هذه السفينة مع سفينته في البحث ، وذلك بأن تسير السفينتان في البحر أربعة أميال أو خمسة منفصلتين على خطّين متوازيين ، وبهذا ترودان أفقين بدلاً من أفق واحد .

فهمس اسطب في اذن فلاسك يقول : « أراهن على شيء . أراهن أنّ أحد الذين في القارب المفقود قد لبس خير معطف عند هذا القبطان أو لعله أخذ ساعته ، فهو قلق يريد أن يسترجعه أو يسترجعها . من سمع أبداً بسفينتي حوّاته ورعتين تجوبان البحر بحثاً عن قارب تحويت في ذروة موسم التحويت ؟ مارأيك يافلاسك ؟ انظر ما أشدّ شحوبه ، شحوب حتّى في بؤبؤي مقلتيه ـ تأمّل ـ لعلّه ليس المعطف ـ لابدّ أنه... » .

- «ابني ، ابني نفسه بين المفقودين ، بحق الإله أرجوك ، استحلفك -» هنا هتف القبطان الغريب قائلاً لآخاب : «دعني أستأجر سفينتك مدّة ثماني وأربعين ساعة - سأدفع الأجر راضياً ، وأدفع على آخر قرش - إن لم يكن هناك طريقة أخرى - لثماني وأربعين ساعة فقط - لا غير - لابدّ لك ، آه ، لا بدّ لك ، ولسوف تؤدّي لي هذا الصنيع» .

فصاح اسطب : «ابنه! آه إنّ المفقود هو ابنه! أنا أسحب ماقلته عن المعطف والساعة . ماذا يقول آخاب ؟ علينا أن ننجّي ذلك الولد» .

فقال ابن جزيرة مان وكان يقف خلفهم : «لقد غرق مع البقية ليلة أمس . لقد سمعت ، أنتم جميعاً سمعتم صراخ أرواحهم» .

وتبيّن لنا بعد قليل ماجعل حادثة راحيل أشجى وأعلق بالأسى ، ذلك أنّ القبطان لم يكن له ابن وحسب في عداد بحارة القارب المفقودين وإنّما كان له في الوقت نفسه ابن آخر بين بحارة القوارب الأخرى ، وقد انفصل أيضاً عن السفينة خلال الأحداث السود ، أحداث المطاردة ، حتّى أنّ الولد التعس ، ظلّ لذلك أمداً ، وهو غارق في قرارة أشد حيرة شدة وظلماً ، ولم ينقذه من حيرته تلك إلا رئيس ضبّاطه ، حين هدته الغريزة الى ما تعمله سفينة التحويت عادةً في مثل هذه اللزبات الملحّة ، أعني أنها إذا وقعت بين قوارب متباعدة معرضة للتهلكة فإنها دائماً تتّجه نحو إنقاذ الأغلبية . ولكنّ القبطان لسبب مزاجي مجهول تحاشى ذكر هذا كله ، فلم يلمّح الى ابنه الآخر المفقود إلا حين اضطرّته الى ذلك برودة آخاب ، كان ذلك الابن يافعاً في الثانية عشرة من عمره أراد والده له بكلّ ما في النانتوكي من حمية الحب الأبوي المؤيد ببسالة لايدركها ريب ، أن يتمرّس بأخطار المهنة وعجائبها ، فهي منذ القدم تمثّل القسمة التي قسّمت لبني قومه ، النانتوكتيين . وكثيراً مايحدث أن يرسل قبطان نانتوكي ابناً ، وهو في هذه السنّ الناعمة ، بعيداً عنه في رحلة طويلة تمتدّ ثلاث سنين أو أربعاً على سفينة غير سفينته ، حتّى لاتضعضع معرفته الأولى لحرفة التحويت بهوىً عارض أو توجّس نابٍ أو فضل اهتمام يبديه نحوه أبوه ، ومثل هذا أمر يعدّ طبيعياً في الآباء .

وكان القبطان الغريب في الوقت نفسه مايزال يتوسّل أن يمنحه آخاب ما سأل ، بينما ظلّ آخاب واقفاً كالسندان يتلقّى كلّ ضربة دون أن يقابلها بأدنى هزّة .

قال القبطان الغريب : «لن أتزحزح حتّى تقول لي : أجل ، اصنع من أجلي ماتريدني أن أصنعه من أجلك في مثل هذا الموقف ، فإنّ لك أنت أيضاً ابناً يا آخاب - هو طفل يترعرع بأمان في بيته - هو ابنك في شيخوختك أيضاً ــ نعم ، نعم ، أراك تلين ، أرى ذلك منك ، جرياً ، عدواً ، يارجال وقفوا على أهبة كي تديروا الباحات...» .

وصاح آخاب : « حسبك! لاتمسّ لفافة حبل » ، ثمّ أكمل في صوت نبر فيه كلّ لفظه في تؤدَه وأناة : « قبطان جاردنر . لن أفعل ذلك . بل إنّ الوقت بهذا يضيع من يدي . وداعاً ، وداعاً . لتنزل عليك بركات الله أيها الرجل ، وأرجو أن أغفر لنفسي ، غير أنه لابدّ لي من الذهاب . ياسيّد استاربك ، انظر ساعة البوصلة وأنذر جميع الغرباء بالرحيل بعد ثلاث دقائق من هذه اللحظة : ثمّ شدّوا الحبال والقلوع كي تبحر السفينة مثلما كانت قبلاً » .

واستدار مسرعاً مشيحاً بوجهه ، ونزل الى قمرته ، مخلفاً القبطان الغريب متصلّباً مندهشاً لهذا الرفض البات المطلق الذي واجه به رجاءه الملحّ . ولكن جاردنر صحا من ذهوله وأسرع في صمت الى جانب السفينة ، وقد تقول أنه ارتمى ساقطاً في قاربه ولم يهبط هبوطاً ، وعاد الى سفينته .

وسرعان ماتباعدت السفينتان في مخرهما ، وحين كانت السفينة ماتزال بمرأى منّا ، كانت تتلدّد هنا وهناك خارجة عن مجراها عند كلّ بقعة سوداء في الماء مهما تكن صغيرة ، وفي تلددها تدار باحاتها في هذه الوجهة وفي تلك ، وبقيت تجري شمالاً ويميناً ، أحياناً تواجه موجاً من أمامها وأحياناً تنساق أمام الموج ، بينا صواريها وباحاتها طوال ذلك قد احتشدت بالرجال كأنها ثلاث شجرات سامقة من الكرز والأطفال معلّقون لقطفه بين فروعها .

وكنت ترى بوضوح أنّ هذه السفينة ، وهي تتوقّف وتتعرّج بها طريقها التاعسة ، ماتزال مجهدة تبكي ، ودمعها رشاش الماء ، كانت هي راحيل تبكي أولادها ، لأنهم لم يبقوا لها[١] .

---

(١) ارميا ٣١ : ١٥ « هكذا قال الربّ : صوت سمع في الرامة ، نوح بكاء مر ، راحيل تبكي أولادها . وتأبى أن تتعزى عن أولادها لأنهم ليسوا بموجودين » .

١٢٩

القمرة

«يتحرك آخاب ذاهباً إلى ظهر السفينة؛

يمسك بيب بيده ليصطحبه».

- «يا فتى ، يا فتى ، أقول لك ، عليك ألا تتبع آخاب الآن . إنّ الساعة لآتية تلك التي لن يدعك اخاب فيها تفزع منه ، إلا أنه لايريد لك أن تكون معه . فيك أيها الفتى المسكين ماأحسّ أنه شفاء لدائي . هو كالدواء ، إلا أنّ دائي من أجل هذه الرحلة خير صحة أرجوها . قرَّ إذن في القمرة حيث يخدمونك كأنك القبطان نفسه . أجل يافتى ، ستجلس هنا فوق كرسي المثبّت بالقلاووظ ، وأنت ستكون فيه قلاووظاً ثانياً» .

- «لا . لا . لا! ليس لك جسم كامل ياسيدي . استعمل جسمي المسكين بدل رجلك المفقودة ، حسبي أن تدوس عليّ يا سيدي . ما أريد مزيداً ، وإنّما أظلّ جزءاً منك» .

- «آه! على رغم ملايين الأخسّاء ، يجعلني هذا متطرّف الإيمان في وفاء بني الانسان ، الذي لا يزول ولا يحول! - وهو أسود! وهو مجنون! ولكن يخيّل اليّ أنه يعتريه الشفاء ، فها هو يعود عاقلاً» .

- «يقولون لي يا سيدي إنّ اسطب تخلّى مرّة عن بيب الصغير المسكين ، الذي تلتمع عظامه الغارقة بياضاً رغم سواد بشرته ، ولكنّي لن أتخلّى عنك يا سيدي كما فعل اسطب لبيب . سيّدي لابدّ أن أذهب معك» .

- «إذا أطنبت في الحديث معي على هذا النحو فإنّ هدف آخاب ينقلب رأساً على عقب . أقول لك لا ، ذلك لن يكون» .

- «آه ياسيدي الطيب سيّدي ، سيّدي!» .

- «لئن انتحبت كما تفعل فإنني قاتلك! حذار ، فإنّ آخاب أيضاً مجنون . أصغِ وسوف تسمع قدمي العاجية كثيراً على ظهر السفينة وتعلم أنّي ماأزال هنا . هاأنا أغادرك . يَدَكَ

نتصَافح! تلاقتا! أنت صادق يافتى صدق المحيط حول المركز ، هكذا : حلّت عليك بركة الله أبداً ، وإذا بلغت الأمور هذا الحد ـ نجّاك الله أبداً وليكن مايكون » .

[يمضي آخاب ويتقدّم بيب خطوة الى الأمام]

ـ « هنا وقف في هذه اللحظة . أنا أتّخذ مثل هيئته ـ غير أنّي وحدي ، لو كان بيب المسكين هنا لتحمّلت ذلك ولكنه فقد . بيب! بيب! دن! رن! دن! من رأى بيب ؟ أظنه في الأعلى ، لأجرّب الباب . ماذا ؟ لاقفل ، لا مزلاج ، لاعارضة ، ثمّ لايفتح . لابدّ أن الحلقة السحرية . أمرني أن أمكث هنا ، أجل وقال أنّ هذا الكرسي المثبّت بالقلاووظ لي . ها هنا ، أجلس إذن قبالة الطرنسوم في منتصف السفينة عينه وأمامي كل أرينتها وصواريها الثلاثة . ها هنا فيما يحدّثنا ملاحونا الشيوخ يجلس أمراء البحر العظام أحياناً الى المائدة في مراكبهم السود المزوّدة بـ ٧٤ مدفعاً ويتزعّمون على المائدة ومن دونهم صفوف من القباطنة والنواب . ها! ماهذه اسبليطات ؟ اسبليطات[١] ؟ إنها تجيء محتشدة! أديروا القناني ، يسرّني أن أراك ، املأوا الكؤوس ياسادة! أيّ شعور غريب ينتابني حين يكون غلام أسود مضيفاً لرجال بيض يلبسون الأشرطة الذهبية فوق معاطفهم!

سادتي هل رأيتم فتى يدعى بيب ؟ فتى زنجي قميء طوله خمسة أقدام ، ملامحه كملامح الكلب التبيع الذليل ، تنضح جبناً . قفز مرة من قارب تحويت . هل رأيتموه ؟ لا! لابأس إذن ، املأوا كؤوسكم مرّة أخرى أيها القباطنة ولنشرب نخب عار الجبناء جميعاً ، لاأسمّي أحداً ، العار والشنار لهم! ضعوا قدماً على الطاولة . العار والشنار للجبناء جميعاً . صه! في أعلى أسمع صوت عاج ـ اه سيّدي! سيدي! يهبط قلبي حقّاً حين تمشي فوقي . ولكنّي سأبقى هنا وإن كانت هذه المؤخّرة ترتطم بالصخور فتنبعج ، ويجيء المحار ليرافقني » .

(١) الأسبليطة : رمانة مقصبة فوق كتف السترة العسكرية .

١٣٠

القبعة

بعد هذا التجوال الأوّلي المديد بدا وكأن آخاب ، في الزمان والمكان الملائمين ، قد ألجأ عدوه بعد أن جاب مياه التحويت الأخرى الى حظيرة بحرية كي يتسنّى له ذبحه دون أن يفلت من يده . لقد وجد نفسه في نفس البقعة التي أصيب فيها بجرحه الأليمة . لقد قابل سفينة وتحدّث الى قبطانها وعرف أنها أمس بالواقع التقت بموبي ديك . لقد كانت لقاءاته التالية لمختلف السفن كلّها متضافرة تدل عن طريق المفارقة على عدم المبالاة الشيطانية التي مزّق بها موبي ديك صيّاديه وسواء أثموا في حقه أم لم يأثموا ، لقد أخذت عينا الرجل الشيخ تومضان بشيء تكاد النفوس الضعيفة لاتطيق رؤيته . كانت غاية آخاب ثابتة تلتمع من علٍّ على جهامة البحارة الجاهمين وليل كآبتهم الذي لايريم ، كأنه النجم القطبي الذي لايغور وإنّما يظلّ يرسل خلال ليالي الأشهر الستة الطوال في المنطقة المتجمّدة نظرته النفّاذة المركّزة المسدّدة . كانت غايته تهيمن عليهم حتّى أنّ توجّساتهم وشكوكهم وريبهم ومخاوفهم كانت تؤثر أن تختفي تحت أرواحهم فلا تنطلق منها سنبلة أو ورقة .

وفي هذه الفترة المرقبة تلاشى كلّ ميل الى الفكاهة ، طبيعية كانت أو مصطنعة ، فلم يعد اسطب يحاول أن يثير الإبتسام ، ولم يعد استاربك يحاول أن يخفت ابتسامه . كلا النقيضين من سرور وحزن ، من رجاء وخوف ، كأنما سحقا فأصبحا غباراً دقيقاً وصبّا في الملاط المجبول ، حينئذ ، حول روح آخاب الحديدية كانوا كالآلات يتحرّكون صامتين فوق ظهر السفينة وهم على رقبة من أنّ عين الشيخ المستبدّة مسلطة عليهم .

ولكنّك لو تأمّلته في عمق ، وهو في إحدى ساعاته الأمينة الواثقة ، حين كان يظّن أنّ لاعين تراه إلا عين واحدة ، لرأيت أنه بينا كانت عينا آخاب ترهبان عيون البحارة فإنّ نظرة البارسي المبهمة كانت ترهب نظرة آخاب أو على الأقل تؤثّر فيها أحياناً على نحوٍ غريب .

ومثل هذا المزيد من الغرابة السـاربة أخذ يكتنف فيض الله النحيل ، مثل هذه الإرتعاشات المسترسلة أخذ يهزّه حتّى أخذ الرجال يتطلّعون اليه في ارتياب ، غير مستيقنين اليقين كله أنه حقاً مصنوع من مادة الآدميين أو أنه خيال مرعب ألقاه على جسم السفينة جسم كائن خفيّ ، وأنّ ذلك الخيال كان مايزال يحوّم دائماً هنالك إذ لم يعرف عن فيض الله أنه ينام أو ينزل الى الطابق السفلي حتّى في الليل ، إنّما هو يقف دون حراك ساعات وساعات . لايجلس ولايستند ، وعيناه الكئيبتان العجيبتان تقولان دون إبهام : « نحن الرقيبين لانرتاح أبداً » .

ثمّ أنّ البحارة لم يعودوا يستطيعون أن يمشوا في أيّ وقت ليلاً كان أو نهاراً على ظهر السفينة إلا إذا كان آخاب أمامهم ، إمّا واقفاً في الثقب المحوري وإمّا ذارعاً الألواح بين طرفين لايتجاوزهما ، وهما الصاري الرئيس والمظين ، فإن لم يكن هذا أو ذاك رأوه واقفاً في ناروزة القمرة ، وقد مدّ رجله الحيّة فوق ظهر السفينة كأنه يريد أن يخطو وانكفأت قبعته على عينيه بقوّة ، حتّى أنه مهما يكن ثابتاً دون حراك ، ومهما تمرّ الليالي والأيام عليه وهو لم يضطجع في أرجوحته ، فإن البحارة لايستطيعون أن يعلموا يقيناً لايعتوره خطأ إن كان هو حقّاً يغمض عينيه أحياناً لأنهما مختفيّتان تحت تلك القبعة المنكفئة أو إن كان مايزال منعماً النظر اليهم ، ثمّ لايهمّه بعد أن يقف هذه الوقفة في الناروزة ساعة كاملة على امتدادها ، غير عابئ أن تتجمّع رطوبة الليل حبّات من ندى على ذلك المعطف وتلك القبعة اللذين يتلبّسان صخراً منحوتاً ، فإن الثياب التي ينديّها الليل تجفّفها شمس اليوم التالي دون أن يخلعها ، ويوماً إثر يوم وليلة بعد ليلة لم يعد يلمُّ بالطابق السفلي ، وإنّما كان يرسل في طلب أيّ شيء يحتاج اليه من القمرة .

كان يتناول الطعام في ذلك الهواء الطلق ، اعني الوجبتين الوحيدتين : الفطور والغداء ، أمّا العشاء فلم يكن يمسّه ، ولم يكن يشذّب لحيته وإنّما نمت معثكلة متلبّدة كأنها جذور أشجار مقلوبة اقتلعت من الأرض ، ولاتزال تنمو في استرخاء فوق قاعدة عارية وقد جفّت خضرتها في الأعالي . ومع أنّ حياة اخاب كلّها أصبحت رقِبْةً واحدة متّصلة على ظهر السفينة ، ومع أنّ رقابة البارسي الغامضة كانت أيضاً كرقابة آخاب دون انقطاع ، فإنّ هذين الاثنين لم يكونا يتحدّثان أحدهما للآخر إلا أن تعرض مسألة عابرة غير ذات شأن . في فترات طويلة ، تجعل التحادث بينهما ضرورياً . كانت حلقة سحرية قوية كأنّما تربط سرّاً بين الاثنين ومع ذلك فإنهما كانا علناً في نظر البحارة المملوءين رهباً يبدوان متباعدين كأنهما قطبان ، فإذا اتّفق أن تبادلا كلمتين نهاراً ، ظلاّ كلاهما في الليل أخرسين حتّى فيما

يتّصل بأوهى تمتمة شفوية . وأحياناً كانا يقفان أطول الساعات دون أدنى هتفة ، متباعدين تحتَ ضوء النجوم . أمّا آخاب فهو في ناروزته وأمّا البارسي فيقف عند الصاري الرئيس ، غير أنهما يحدّقان أحدهما في الآخر بعيون نافذة ، كأنّ اخاب يرى في البارسي خياله ملقى أمامه ، وكأنّ البارسي يرى في اخاب كيانه الجسدي الذي بارحه .

غير أنّ آخاب ، فيما كان يفصح عن ذاته الحقّ يومياً وكلّ ساعة وفي كلّ لحظة بأوامر يلقيها الى مرؤوسيه ، آخاب بذلك كان يبدو السيّد المستقل ، بينما البارسي عبدٌ له . ومع ذلك ظلّ الاثنان وكأنهما مدمجان في قرن ، يسوقهما طاغية خفي ، ويمشي الخيال النحيل منهما الى جنب الدعامة الصلبة ، إذ مهما يكن البارسي فإنّ اخاب الصلب كان كلّه دعامة وأرينة .

وعندما بزغ أوّل خيط من خيوط الفجر متلألئاً سمع صوته الجهوري آتياً من المؤخّرة : « زوّدوا رؤوس الصواري بالرجال! » وطوال اليوم كلّه حتّى بعد المغيب وبعد الشفق يظلّ يسمع ذلك الصوت نفسه ـ كلّ ساعة عندما يدقّ جرس قيم الدفة ـ صارخاً : « ماذا ترون ؟ حدّدوا أنظاركم! حدّدوا! » .

ومضت ثلاثة أيام أو أربعة على لقاء راحيل التي كانت تنشد ولديها دون أن تظهر نفاثة واحدة ، وعندئذ بدا وكأنّ الشيخ الممرور يرتاب في أمانة ملاحيه ، أو على الأقل يرتاب فيهم ماعدا الزراقين الوثنيين ، بل أخذ يشكّ في اسطب وفلاسك وأنهما قد يغفلان عامدين المنظر الذي يسعى إليه ، ولكن إن كانت هذه الريب فيه فإنه تحاشى التعبير عنها بكلمات ، وكان ذلك من حكمته ، مهما تكن أعماله موحية بها .

فقال لنفسه : « سأكون أنا أوّل من يرى الحوت ، أجل إنّ آخاب سينال القطعة الذهبية! » ونسج بيديه عشّاً من حبال الأشرعة على هيئة زنبيل وأرسل يداً الى أعلى ببكرة ذات دولاب واحد ليربطها الى رأس الصاري الرئيس فتلقى طرفي الحبل المشدود الى أسفل ، وعقد أحد طرفيه بالزنبيل ، وأعدّ وتداً للطرف الآخر كي يوثقه الى اللوحة في حافة السفينة ، وما أن فعل ذلك ، والطرف الثاني مايزال في يده وهو واقف الى جانب الوتد ، حتّى نظر الى ملاحيه نظرة انتقلت من واحد الى آخر ، متوقّفة طويلاً عند دغة وكويكوج وطاشطيقو متحاشية فيض الله ، ثمّ ركّز بصره الثابت الواثق على رأس الضباط وقال : « أمسك الحبل ياسيّدي ـ أنا أضعه في عهدتك يا استاربك» . وبعد أن اتّخذ جلسته في الزنبيل أمر بأن يرفعوه الى مجثمه ، وكان استاربك هو الذي أمسك الحبل آخراً وبعدئذ وقف قريباً منه ، وكانت إحدى يدي آخاب تقبض على الصاري الملوكي بينا نظراته مرسلة عبر

السفينة الى مدى أميال وأميال في البحر ، أماماً وخلفاً والى هذا الجانب والى ذاك ـ ضمن الدائرة الواسعة المديدة التي يمكن أن يمتدّ اليها البصر من ذلك العلو الشاهق .

يرفع البحار الى ذلك الموضع حين يعمل بيديه في مكانٍ عالٍ يكاد يكون منعزلاً بين الحبال والأشرعة ، وربّما لم يكن لديه موطىء قدم فيه ، وإنّما يبقي معلّقاً بالحبل . وفي مثل هذه الظروف يعهد دائماً بطرف الحبل المربوط عند ظهر السفينة الى شخص يكون دقيق المسؤولية في النظر والحراسة . ذلك أن الحبال المسترسلة تشبه تيهاً ، ولايستطيع المراقب الذي يرى القسم المنظور منها عند ظهر السفينة أن يستبين دائماً ودون خطأ علاقاتها وتشابكاتها المختلفة في الأعالي . وإذا كانت أطراف هذه الحبال عند ظهر السفينة تنحلّ كلّ دقيقة من علائقها ، فإنّ من الخطر البالغ على البحار المرفوع ـ بطبيعة الحال ـ أن لاتزوّد الحبال بحارس دائم اليقظة ، إذ أنّ إهمال البحارة قد يجعله يهوي وينقض في الماء . لذا فإنّ ما صنعه آخاب في هذا الصدد لم يكن أمراً شاذاً ، إنّما الشيء الغريب في الأمر هو أنه عهد بالحراسة الى استاربك ، ويكاد استاربك أن يكون الرجل الوحيد الذي تجرّأ أبداً على مخالفته في أيّ شيء على نحوٍ لايقلّ عن الجزم البات إلا هنة يسيرة ، وهو أحد الذين كان يبدو على اخاب أنه يشكّ في أمانتهم في الحراسة ، لذا كان من المستغرب أن يقع اختياره على هذا الرجل نفسه ليقوم بحراسة الحبال ، إذ معنى ذلك أنه وضع حياته كلها مختاراً في يدي إنسان غير موثوق فيه .

وما أن جثم اخاب في الأعالي ، وقبل أن يمضي عليه عشر دقائق ، حتّى اقترب منه صقر من تلك الصقور البحرية الكاسرة ذوات المناقير الحمر التي كثيراً ماتطير على نحوٍ مزعج حول رؤوس صواري الحوّاتات المزوّدة بالرجال ، في تلك النواحي ، صقر من تلك الطيور جاء يدوّم ويصرخ حول رأس آخاب في تيه من الدورات السريعة التي لايستطيع النظر أن يحققها ، ثمّ انطلق على مدى ألف قدم مستقيماً في الفضاء ثمّ خات متلولباً وذهب يدوّم حول رأسه مرة أخرى .

وبدا كأنّ آخاب وهو معلّق النظرة في الأفق النائي المبهم لم يلمح هذا الطائر البرّي ولا كان لأيّ واحد آخر أن يعيره اهتماماً ، لأنه مظهر مألوف لديهم ، لولا أن أقلّ الناس يقظة عندئذ بدا وكأنما يرى في كلّ منظر معنى خبيئاً .

وفجأة صاح البحار الصقلي الذي كان جاثماً عند قمة المظين : «قبعتك! قبعتك ياسيّدي! » وكان يقف خلف آخاب وإن كان على صعيد أدنى ويفصل بينهما خليج عميق من فضاء .

ولكنَ الجناح الأسود كان قد أصبح أمام عينيَ الرجل الشيخ ، وأصبح المنسر الأعقف الطويل عند رأسه : وانطلق الصقر الأسود صارخاً وقد فاز بغنيمته .

حول رأس تاركوين[١] طار صقر ثلاثاً ، نازعاً قبَعته ليعيدها الى مكانها . ومن ثمَ أعلنت تناقيل زوجته أن تاركوين ربَما أصبح ملكاً على روما ، ولكنَ الحادث عدَ فألاً حسناً لأنَ القبعة أعيدت الى مكانها ، أمَا قبَعة آخاب فلم تعد أبداً ونأى بها الصقر طائراً ، ومضى بعيداً عن مقدم السفينة ، واختفى في النهاية ، وعند لحظة اختفائه رؤيت ـ في انبهام ـ هنة صغيرة سوداء ، تسقط من ذلك العلو الشاهق الى البحر .

(١) هو لقومو تاركوينوس . أصله من كورنث . غادر موطنه الأترسكي بحثاً عن ما يأتيه به الحظ في روما .

١٣١

لقاء بين الباقوطة والمسرة

مضت الباقوطة ذات النظر الشزر في إبحارها ، وتوالى كرّ الأمواج والأيام . والتابوت الذي جعل عوّامة إنقاذ مايزال يتأرجح بخفّة ، وشوهدت سفينة أخرى أساء أصحابها اختيار الاسم حين دعوها : « المسرة » . وحين اقتربت تعلّقت الأنظار جميعاً بعوارضها العريضة ويسمّونها « المقصّ » ، فهي تعارض في بعض سفن التحويت الربعة الواقعة خلف الدقل الأعظم على ارتفاع يبلغ ثمانية أقدام أو تسعة ، وتستعمل لحمل القوارب الإحتياطية أو غير المعدّة أو التي لم تعد صالحة .

وعلى مقصّ السفينة الغريبة شوهدت دعائم بيضاء محطّمة وبضعة ألواح متفلقة كانت من قبل تسمّى قارب تحويت ، ولكنّ البصر كان ينفذ من خلال ذلك الحطام فيرى ما وراءه بوضوح ، مثلما ينفذ من خلال هيكل حصان مسلوخ ناصع البياض يهتزّ بعض اهتزاز .

ـ « هل رأيتم الحوت الأبيض ؟ » .

فأجاب القبطان الغائر الوجنتين من أعلى الكوثلة : « تأمّل! » وأشار بالنفير الى الحطام .

ـ « هل قتلتموه ؟ » .

ـ « إنّ الرمح الذي قد يحقق ذلك لم يصنع بعد » ـ كذلك أجاب القبطان الآخر وهو يرمق في أسف أرجوحة مدوّرة على ظهر السفينة ، كان بعض البحارة منهمكين ـ في صمت ـ يخيّطون أطرافها المجموعة .

فاختطف آخاب الحديدة التي سوّاها بيرث من محجأها ، وأمسك بها وهتف : « لم يصنع بعد ، انظر أيها النانتوكتي ، في هذه اليد يقبع موته! سقيتها دماً هذه الكلابات ورويتها بالبرق وأنا أحلف أنّي سأثقفها ثالثة بغمسها في الموضع الحار خلف الزعنفة حيث يكون الحوت الأبيض أشدّ شيءاحساساً بحياته اللعينة! » .

ـ « إذن حماك الله أيها الشيخ » ـ وأضاف مشيراً الى الأرجوحة ـ « هل ترى هذه . فيها أدفن واحداً من خمسة رجال أشدّاء كانوا أحياء أمس ، لكنهم ماتوا قبل حلول الليل . هذا الوحيد هو الذي أدفنه أمّا البقية فدفنوا قبل أن يموتوا وأنت تبحر فوق قبرهم » ثمَ التفت الى بحّارته وقال : « أأنتم مستعدّون هنالك ؟ ضعوا اللوح على الحافة العليا وارفعوا الجثة . كذا . آه » ـ وتقدّم نحو الأرجوحة بيدين مرفوعتين وهو يقول : « يارب اجعل البعث والحياة... » .

فصاح آخاب في رجاله كأنه البرق : « شدّوا الحلقات! ارفعوا الدفة! » .

ولكنّ الباقوطة التي أجفلت فجأة لم تكن سرعتها كافية لتتحاشى الرشاش الذي أحدثته الجثة حين ارتطمت في الماء . لم تكن سرعتها كافية حقاً غير أنّ بعض الفقاعات المتطايرة بللت هيكلها بمعموديتها الروحية .

ولمّا انسابت السفينة بآخاب نائية عن « المسرة » الخائرة لاحت عوامة الإنقاذ الغريبة معلّقة في مؤخرة الباقوطة ، واضحة بارزة .

فانبعث صوت في مخرها محمّل بالنذر : « ها . هناك! انظروا هناك يا رجال! عبثاً أيها الغرباء تفرّون من جنازتنا الحزينة لأنكم إنّما تديرون لنا كوثلة سفينتكم كي تروا تابوتكم! » .

١٣٢

السيمفونية

كان يوماً صافياً كأنه الفولاذ زرقة ، وكان الجَلَدان الأزرقان : الفضاء والبحر لاينفصلان في تلك اللازوردية الشاملة ، ولكنهما يتباينان : فأمّا الهواء الساكن فإنه كان وضاحاً شفافاً ناعماً له وجه امرأة ، وأمّا البحر الصليب فإنه مسترجل تعلو فيه موجاته الطويلة القوية المتأنية كأنه صدر شمشون وهو نائم .

وهنا وهناك في الأعالي كانت تنساب أجنحة ناصعة ، أجنحة طيور صغيرة بيضاء لا شية فيها ، وتلك هي الأفكار الرقيقة التي يتمخّض عنها الهواء المؤنّث أمّا في الأعماق ، في دركات الأزرق الذي لاقرار له ، فكانت الحيتان وأسماك السيف وأسماك القرش تتدافع ــ جيئة وذهوباً ـ ، وتلك هي الأفكار القوية المضطربة القتالة التي يتمخّض عنها البحر المسترجل .

ومع إنّ هذه المفارقة كانت قائمة بينهما إذا اعتبرتهما من داخل ، فإنّ هذه المفارقة بينهما إنّما كانت في الظلال والأخيلة إذا اعتبرتها من خارج ، فكلا الإثنين كانا شيئاً واحداً ، ولافرق بينهما إلا فرق مابين التذكير والتأنيث .

وفي الأعالي كانت الشمس ، كأنما هي قيصر أو ملك فخيم ، تزف الهواء الرقيق للبحر الجسور المتضرّب كما تزفّ العروس الى زوجها . وعند طوق الأفق تنشأ حركة ناعمة مرتجفة ـ أكثر ماترى هنا على خط الإستواء ـ تدل على الثقة المدلهة النابضة ، والمخاوف الحبيبة التي تفتح العروس الخفِرة بها صدرها لتتلقّى حبيبها .

ووقف آخاب الصامد في وضح الصباح وقد رفع حاجباً يشبه الخوذة المشظّاة نحو جبهة السماء التي تشبه جبهة فتاة شقراء ، وهو مقيّد مبروم ، ملوّى معقّد بالتجاعيد والغضون ، ثابت لايلين على شحوبه ، وعيناه تتوهّجان كأنهما جمرتان ماتزالان تبصّان تحت رماد الدمار .

آه أيتها الطفولة الخالدة ، يابراءة الكون اللازوردي ؟ أيتها المخلوقات الخفيّة المجنحة التي تمرح من حولنا ، أيّتها الطفولة العذبة التي يمثّلها الفضاء والسماء! ما كان أشدّ غفلتك عن الويل المعشش في نفس آخاب الشيخ! غير إنّي رأيت مريم ومرتا ، حوريّتان تضحك عيونهما ، تلعبان دون اكتراث حول راعيهما الشيخ ، وتعبثان بدائرة الخصلات المشعوطة التي نبتت على حافة عربة دماغه الملتهبة .

عبر آخاب ظهر السفينة من الناروزة في بطء ، واستند على حافتها وراقب كيف يغرق خياله في الماء ويظلّ يغرق تحت بصره ، كلّما ازداد سعياً ليخترق الأعماق ، ولكن يبدو أنّ الأريج اللطيف في ذلك الهواء المسحور استطاع في النهاية أن يبدّد ـ لمدى لحظة ـ ذلك الشيء السرطاني في روحه . لقد استطاع ذلك الهواء المرح السعيد وتلك السماء الطروب أن يربتا عليه وأن يلاطفاه بالمداعبة . والدنيا أمّ دفر التي طالما كانت قاسية القلب ، أخفتت قسوتها وألقت من حول عنقه الصليب ذراعيها الحادبين ، وأخذت في سرور تتنهّد فوقه كأنّما تفعل ذلك فوق رأس امرىء تستطيع أن تجد له في قلبها عطفاً يقيه العثرات ويكفل له البركات ، مهما يكن فيه من عناد وأخطاء . وانحدرت من تحت قبّعة آخاب المنكفئة دمعة نزلت في البحر ، ولم يكن المحيط الهادي كلّه يحتوي ثراء كتلك الدمعة الصغيرة .

ورأى استاربك الرجل الشيخ ، رآه وهو يلقي ثقله مستنداً على الحافة ويبدو أنه سمع في قلبه الصادق ذلك التنهّد المديد الذي انسلّ من وسط السكون المحيط . وظلّ استاربك حريصاً على ألا يمسّ آخاب وأن لايلفت انتباهه ، ومع ذلك فإنه اقترب ووقف هنالك .

التفت آخاب .

ـ « استاربك! » .

ـ « سيّدي » .

ـ« آه ياستاربك هذه ريح عليلة عليلة ، وهذه السماء لطيفة وديعة . في مثل هذا اليوم ـ في عذوبة كهذه تماماً ـ طعنت أوّل حوت ـ كنت حوّاتاً صغيراً في الثامنة عشرة! أربعون ـ أربعون ـ أربعون سنة مضت! ـ مضت! أربعون سنة من التحويت المستمر الدائب! أربعون سنة من الحرمان والأخطار ومواسم العواصف! أربعون سنة على البحر القاسي الذي لايرحم . أربعين سنة هجر آخاب البرّ الآمن انمطمئن ، أربعين سنة لأشنّ الحرب على ويلات الماء ، أجل ونعم يا استاربك ، من هذه الأربعين لم أقضِ على الشاطىء ثلاثاً كاملات . حين أفكّر في الحياة التي عشتها ـ وكيف كانت وحشة الوحدة ، كانت عزلة قبطان مشيدة مسوّرة ،

لا تسمح لأية عاطفة من الأرض الخضراء أن تنسرب اليها إلا من خلال نافذة صغيرة ـ آه ، فيها الملل والسأم ، عبوديّة القيادة المتوحّدة! حين أفكّر في كلّ هذا ، ولم أكن أعرفه من قبل بهذا الوضوح وإنّما كنت أخمّن ما هنالك بعض التخمين ، عندما أفكّر كيف أنّي طوال أربعين عاماً عشت على طعام مملوح جاف ـ خير رمز للتغذية اليابسة التي عاشت عليها روحي ـ وعندما يكون في متناول أفقر رجل من أبناء البر فاكهة طازجة يومياً ، وهو يكسر أنضر الرغفان في الكون بينما أتناول أنا البقسماط اليابس ، بعيداً أيّتها المحيطات على سعتها ، بعيداً من تلك اللزوجة الفتاة التي تزوّجتها بعد أن تجاوزت الخمسين وسافرت في اليوم التالي الى رأس هورن ، تاركاً على مخدّة الزوجية أدحية واحدة لا غير ، زوجة ؟ أأقول زوجة ؟ بل الأحرى أرملة وزوجها حيّ! أجل ، لقد أرملت تلك الفتاة المسكينة حين تزوّجتها يا استاربك . ثمّ الجنون والحنق والفورة في الدم والحاجب المعقود بالدخان تلك الأمور التي كانت عدة آخاب آلاف المرّات لدى إنزال القوارب ، بها يطارد في هياج مزبد فريسته ، أقرب الى الشيطان في حاله من الإنسان ، أجل ، أجل! ماكان أحمق آخاب على مدى أربعين عاماً ـ أحمق ـ أحمق معرقاً في الحمق كان آخاب المسنّ! لِمَ هذا الجهد في الصيد ؟ لِمَ تضنى اليد حتّى تكاد تكون مشلولة على المجذاف والمزراق والحربة ؟ هل أصبح آخاب اليوم أغنى وأفضل ممّا كان ؟ تأمّل واحكم . آه يا استاربك! أليس من القسوة ـ وأنا أحمل هذا العبء المضني ـ أن تختطف منّي رِجل كنت بها أقوم ؟ أزح هذا الشعر الأشيب ناحية فإنه يعشني حتّى أبدوا كأنني أبكي . مثل هذه الخصلات التي اشتعلت شيباً لم تخرج إلا من رماد! ولكن أتراني أبدو هرماً ، هرماً جداً يا استاربك ؟ إنني لأحسّني خائراً مقوّس الظهر محدودباً كأنني آدم يترنّح تحت عبء القرون المتراكمة مذ أهبط من الفردوس . ربّاه! ربّاه! ربّاه! لينفطر قلبي! لينشقّ رأسي! سخرية! سخرية! ياسخرية مريرة لذّاعة يمثّلها هذا الشعر الأبيض! هل مارست السرور الكافي حتّى تجيء أيها الشيب له ختاماً فأبدو وأشعر أنني كبرت كبراً لا يطاق ؟ قرّب! قف بقربي يا استاربك . خلّني أنظر في عين إنسان ، ذلك أفضل من التحديق في البحر أو الفضاء ، أفضل من التوجه بالنظر الى الله . وحقّ الأرض الخضراء . وحقّ الموقد المتوهّج هذه هي المرآة السحرية يارجل ، فأنا أرى في عينيك زوجي وطفلي . لا . لا . إبق على ظهر السفينة ، على ظهر السفينة! لا تنزل قاربك حتّى أنزله أنا ، لا تنزله حين يأخذ آخاب الموسوم في مطاردة موبي ديك . لن تكون تلك المخاطرة من نصيبك . لا . لا . لن تفعل وأنت تحمل بيتي النائي في تلك العين! »

ـ « آه ياقبطاني! ياقبطاني! ياذا الروح النبيلة! ياذا القلب الكبير ، بعد هذا كلّه! لم

يطارد أحد تلك السمكة المقيتة! تعال معي! دعنا نهرب من هذه المياه القاتلة ، لنعد الى الوطن! إنّ استاربك لديه زوجة وطفل ـ زوجة وطفل يتمثّلان في لدات شبابه ، لدات كأنهم أخوته وأخواته ، كزوجتك وطفلك يا سيّدي هم اللدات الذين عرفهم العمر المتحبب التوّاق ذو الأحاسيس الأبوية . لنبتعد! هيّا بنا نبتعد! في هذه اللحظة دعني أغيّر وجهة السفينة! ماأسعدنا ، ما أشدّ تهلّلنا ياقبطاني ونحن نتدحرج في طريقنا لنرى نانتوكت القديمة ثانية! أظنّ ياسيدي أنهم في نانتوكت ينعمون بهذه الأيام الوادعة الزرقاء ، كيومنا هذا » .

ـ « ينعمون . ينعمون . رأيتهم ، بعض أيام الصيف وقت الصباح ، عند هذا الوقت أو قريباً منه ـ نعم إنّ ابني الآن في القيلولة . ثمّ يصحو مرحاً ويجلس في سريره ، وتحدّثه أمه عنّي ، عنّي أنا العتيّ المفترس ، وكيف أنّي أمعنت في الإبحار ، ولكنني سأعود اليه لأرقصه » .

ـ « إنها ماري زوجتي ، ماري زوجتي فعلت كذلك! فقد كانت تعد أن تحمل ابني كلّ صباح الى الرابية لكي يرى أوّل ومضة من أشرعة أبيه! نعم! نعم! حسبنا! قضي الأمر! إننا نتوجّه الى نانتوكت! تعال ياقبطاني قدّر الإتّجاه ، ولنذهب . انظر! انظر! هاهو وجه الطفل يطلّ من النافذة! ها هي يد الطفل على الرابية! » .

ولكنّ آخاب أشاح بوجهه واهتزّ كأنه شجرة تفاح منوفة وطرح آخر تفاحة مغبّرة على الثرى .

« ماهذا ؟ أيّ شيء غير أرضي لا يسمّى ولا يعلّل هو هذا ؟ أيّ سيّد خبيء خدّاع ، أيّ امبراطور جائر عسوف يوجهني ، حتّى أنني أظلّ أندفع واحتشد وأزجّ بنفسي كلّ وقت مقاوماً كلّ مظاهر الحب والشوق الطبيعيين ، ويجعلني مستعداً لأوذيَ دون مبالاة ما لو استأنست بشعور قلبي الطبيعي لم أجرؤ على أن أوذيه! أآخاب هو آخاب ؟ أأنا أم الله أم من ذا يرفع هذه الذراع ؟ ولكن إن كانت الشمس العظيمة لاتجري من نفسها وإنّما هي عبد مأمور في السماء ، ولايستطيع أيّ كوكب أن يدور إلاّ أن تديره قوّة خفيّة . فكيف إذن ينبض هذا القلب الصغير وكيف يفكّر هذا الذهن الضئيل لولا أن الله هو الذي يسبّب النبض والفكر ، هو موجد الحياة لاأنا . وحقّ السماء يارجل إننا ندار في هذا العالم كذلك الدولاب الرافع والقدَر هو المخل . وطوال الوقت ، تأمّل! تلك السماء الباسمة وذلك البحر الذي لايسبر له غور! انظر ، انظر ذلك البيقور! من ذا الذي أوحى اليه أن يطارد تلك السمكة الوثّابة ويقبض عليها ؟ أين يذهب القتلة يارجل ؟ من ذا الذي يصدع بالحكم حين يجرّ القاضي نفسه الى موقف المتّهم ؟ ولكنّ الريح وديعة لطيفة والسماء وديعة المحيّا .

والنسمات تنفح كأنّما هبّت من مرج ناءٍ بعيد ، كانوا يحصدون عند سفوح الأنديز يا استاربك والحصّادون نائمون بين القشّ الحديث حصاده . نائمون ؟ أجل ، مهما يكن مانبذله من كدّ فإننا ننام في النهاية في الحقل . ننام ؟ أجل ويعلونا الصدأ بين الزرع الأخضر ، كالمناجل التي طرحت وتركت بين الأغمار والشمالات ، يا استاربك! » .

ولكنّ اليأس ران على وجه الضابط فغدا في لون الجثّة ، وانسلّ ذاهباً .

واجتاز آخاب ظهر السفينة ليطلّ عن الجانب الآخر ، غير أنه أجفل إذ رأى خيال عينين محددتين في الماء . كان فيض الله متّكئاً دون حراك على تلك الحافة نفسها .

١٣٣

المطاردة ـ اليوم الأول

في النوبة الوسطى من الحراسة تلك الليلة حين انتقل القبطان الشيخ ـ حسب عادته بين الحين والحين ـ من الناروزة التي يستند فيها وذهب الى الثقب المحوري ، نصب وجهه فجأة بعنف ، مستنشياً هواء البحر ، كما يفعل كلب فطين على سفينة تقترب من إحدى الجزر المتأبدة . وأعلن أنّ ثمّة حوتا قريباً ، ولابدّ . وسرعان ما أصبحت تلك الرائحة الفريدة التي يبعثها حوت العنبر الحيّ على المدى البعيد أحياناً ، واضحة يشملها جميع الرقباء . ولم يندهش أيّ بحّار حين ذهب آخاب فعاين البوصلة ثمّ مؤشّر الريح وعيّن بدقة منشأ الرائحة قدر المستطاع ثمّ أمر في سرعة أن يغيّر اتّجاه السفينة تغييراً طفيفاً ، وأن يقصّر الشراع .

وكان لهذه السياسة الماضية التي تملي تلك التحرّكات مايسوغها عند انبلاج النهار . فقد كانت ملوسة مديدة تغشي البحر أماماً على اتّجاه طولي بعيد ، العلامات المصقولة كالمعدن التي يتركها انمراج التيّار السريع عند مصبّ جدول عميق سريع .

ـ « زوّدوا المراقب بالرجال! استدعوا جميع العاملين! » .

ودقّ دغة بمؤخرة ثلاث عتلات مجتمعة على ربعة المنارة فنبّه النائمين بدقّات كأنها نفخات الصور حتّى بدا وكأنّ الناروزة بعثرتهم منشورين ، فظهروا على التوّ وملابسهم في أيديهم .

صاح آخاب وقد بسط وجهه نحو السماء : « ماذا ترون ؟ » .

فكان الجواب الذي تأدّى من علٍ : « لاشيء! لاشيء ياسيّدي! » .

ـ « انشروا الأشرعة العليا النبيلة! والأشرعة الخفيفة الجانبية ، في الأعالي والأداني وعلى الجانبين! » .

ونشرت جميع الأشرعة فأرخى حبل الحياة الذي يستبقيه لكي ينقله الى رأس الصاري

الملكي الرئيس ، وفي بضع دقائق كانوا يرفعونه الى مرقبه . ولم يبلغ إلا ثلثي الإرتفاع المطلوب وهو يحدّق أمامه خلال الفراغ الأفقي بين الشراع العلوي الرئيس والشراع العلوي النبيل حتّى رفع عقيرته في الفضاء بصوت كأنه صراخ النورس : «هناك ينفث! هناك ينفث! حردبة كربوة ثلج! هو موبي ديك! » .

حمي الرجال على ظهر السفينة بتلك الصيحة التي رددها في الوقت نفسه الحرّاس الثلاثة ، فاندفعوا الى جانب الحبال والأشرعة ليروا الحوت المشهور الذي طاردوه - ومازالوا - طويلاً . وبلغ آخاب عندئذ مرقبه وهو يعلو أقداماً فوق المراقب الأخرى ومن دونه طاشطيقو على رأس الصاري العلوي النبيل حتّى كاد رأس هذا الرجل الهندي أن يكون على مستوى أخمص آخاب . ورأى المراقبون من مرتفعهم هذا ذلك الحوت على بضعة أميال أو نحوها الى الأمام ، وكلّما تقلّبت الأمواج انكشفت حردبته العالية اللامعة وهو يرسل نفاثته الصامتة بإنتظام في الفضاء . وبدت نفثاته لأعين البحارة السذج نفس النفثات التي طالما رأوها في المحيطين الأطلسي والهندي تحت ضوء القمر .

وصرخ آخاب وهو ينادي الرجال الجاثمين في مراقبهم من حوله :

- « أو لم يره أحدكم من قبل ؟ » .

فقال طاشطيقو : «أكاد أكون رأيته في نفس اللحظة التي رآه فيها القبطان آخاب ياسيّدي وقد صرخت عند ذلك» .

- « ليست نفس اللحظة ، كلاّ ليست نفسها ، لا . إنَ القطعة الذهبية من نصيبي . لقد حفظها القدر لي ، أنا وحدي ، لاأحد فيكم كان يمكن أن يبصر الحوت قبلي . ها هو ينفث! ها هو ينفث! ها هو ينفث هناك! هناك مرة أخرى! هناك ثانية! » - كذلك صرخ في نغمات مستطيلة بطيئة رتيبة ، منغومة حسب نفثات الحوت المسترسلة المنتظمة . - « يريد أن يقمس! اطووا الأشرعة الخفيفة الجانبية! أنزلوا الأشرعة العلوية النبيلة ، قفوا الى جانب قوارب ثلاثة . الدفة هناك! كاثب الريح ، اقترب منه درجة . هكذا . ثبات يارجل ثبات! هاهما شطيرتا ذنبه! لا . لا . ليس هذا إلاّ ماء كثيفاً أسود! أكلّ القوارب مستعدّة ؟ قرّبوا قرّبوا! انزلني ياسيّد استاربك! أنزل ، أنزل . سريعاً . أسرع! » وانزلق خلال الفضاء هابطاً الى ظهر السفينة .

فصاح اسطب : « إنه عامد نحو المهبّ ياسيّدي ، بعيداً عنّا ، لايمكن أن يكون قد رأى السفينة بعد » .

- « اخرس يارجل! قف عند حلقات الحبال . وجّه الدفة الى تحت! شدّ الحبال . هزّها! هزّها! هكذا . أحسنت! القوارب ، القوارب! » .

انزلت كلّ القوارب على التوّ إلا قارب استاربك ، ونشرت جميع أشرعتها وأعملت جميع بدالاتها وهي تنطلق نحو المهبّ بخفة متمعجة ، وآخاب في الطليعة يقود الهجوم . وضوءاً في عيني فيض الله الغائرتين بصيص شاحب ينتمي الى الموت ، ولوت فمه حركة شنيعة .

وأسرعت مخاطمها الخفيفة خلال الماء كأنها أصداف بحرية لاحفيف لها من نوع النوطل[1] ، ولكنها لم تكن تقترب من العدو إلاّ في بطء ، وعندما اقتربت منه زاد سكون البحر وانبساطه وكأنه ينشر بساطاً على الأمواج ، كأنه مرج مستوٍ في الظهيرة ، كذلك كان يمتد في هدوء وصفاء . وعلى المدى اقترب الصياد اللاهث من فريسته التي تبدو مطمئنة حتى بدت لعينيه بوضوح حردبته اللماعة المعشية كاملة ، سارية في عرض البحر كأنها كيان منعزل عمّا عداه ، وهو باستمرار يوضع في حلقة دوّارة من أرق الزبد الصوفيّ المخضوضر . ومن وراء ذلك رأى التجاعيد المتداخلة المترامية في رأسه البارز بروزاً طفيفاً . وأمام الرأس بعيداً على تلك الأمواج الناعمة كأنها سجّاد عجمي انطلق الخيال الأبيض اللمّاع من جمجمته العريضة الناصعة ، في تغضنات موسيقية تصاحب الخيال مرحة لاهية ، ومن خلف تطغى المياه الزرق متداخلة في الوادي المتحرّك الذي يشقه مخره المسترسل ، وعلى كلا الجانبين ترتفع نفاخات براقة وتتراقص من حوله . إلا أنّ هذه النفاخات انماثت مرة أخرى حين مسّتها أصابع رفيقة ، هي أصابع مئات الطيور المرحة ترفرف في نعومة فوق البحر ، وتعود فتحلق طائرة . وبرزت من ظهر الحوت الأبيض قناة طويلة محطومة لحربة غرست فيه حديثاً كأنها سارية راية ترتفع من سفينة تجارية وحيدة الشراع ذات هيكل مدهون . وبين الحين والحين كان سرب من الطيور المحلقة ذوات الأصابع الناعمة ، تسف في طيرانها فوق الحوت كأنها ظلّه وتحطّ على هذه القناة وتهتزّ متأرجحة ، والريش الطويل في ذيولها يتموّج كأنه أعلام .

كان يكتنف الحوت المنساب بهجة رقيقة ـ وداعة من سكينة مستحكمة في خفة ، ولا كذلك جوبتر نفسه في صورة ثور أبيض مختطفاً أوروبة عنوة ، سابحاً بها وهي ممسكة بقرنيه الرشيقين ، وقد أنعمت عيناه ـ المتودّدتان الغامزتان ـ نظراً موارباً الى الفتاة ، وهو يتلوّى عامداً في سرعة رشيقة أخّاذة نحو خميلة العرس في كريت ، ولاجوبتر نفسه ، ولا ذلك المتجلّي ذو الجلال العظيم ، كان يفوق الحوت الأبيض المجيد الفخيم ، وهو سابح في تأله وبهاء .

---

(١) Nautilus .

ومع وقع التموّجات التي يشقّها فإذا تركته أبعدت نائية . كان الحوت ، على جانبيه الناعمين ، على الجانبين اللامعين ، يكسب صنوف الإغراء . فلا عجب إذا وجد بين الصيّادين من جذبهم هذا الهدوء وأغراهم الى حدّ بعيد فغامروا بمهاجمته ولكنهم وجدوا بعد أن أصاب منهم مقتلاً أنّ السكينة إنّما تخفي وراءها إعصاراً غير أنّك أيها الحوت تنسرب هادئاً ، هدوءاً خلاباً معنوياً ، لكل من يرمقك أوّل مرة ، مهما يكن عدد الذين غرّرت بهم على هذا النحو وقضيت عليهم .

وهكذا مضى موبي ديك من خلل الهدأة الهادئة في البحار الإستوائية ، التي توقف بين أمواجها التصفيق بالأيدي لشدّة الإنبهار ، وهو قد حجب عن الأنظار المفزعات الكاملة التي يمثّلها جذعه الغاطس مخفياً إخفاءً تاماً البشاعة المخيفة التي يلتوي بها فكه ، وسرعان ما برز الجزء الأمامي منه ببطء من خلل الماء ، وعلى مدى لحظة كوّن جسمه الرخامي كله قنطرة عالية كأنها الجسر الطبيعي في فرجينيا ، وهزّ شطيرتي ذنبه في الفضاء منذراً . لقد تجلّى الله العظيم ثمّ قمس واختفى عن الأنظار ، وتوقّفت طيور البحر البيض مدوّمة ، وانحرفت على أجنحتها ، وتمطّت في توق فوق البركة المتموّجة التي بارحها .

وعامت القوارب الثلاثة في بطء وقد انتصبت مجاذيفها ، وهبطت بدالاتها ، وضلّت أشرعتها وهي ترقب عودة موبي ديك الى الظهور .

« ساعة » ـ كذلك قال آخاب وهو واقف راسخ في مؤخرة قاربه ونظر الى ماوراء موقع الحوت نحو المسافات الزرق المبهمة والفراغ المديد الحافز في اتّجاه الريح . ولم تكن إلا لحظة ، فقد عادت عيناه تدوران في محجريهما وهو يمدّهما ليمسح المجال المائي . وهبّ النسيم بروداً وأخذ البحر ينتفخ متموّجاً .

وصاح طاشطيقو : « الطيور! الطيور! » .

كانت الطيور البيض كلها تطير نحو قارب آخاب في طابور هندي طويل كأنها رفوف مالك الحزين محلّقة . وعندما أصبحت دونه على مسافة بضع ياردات بدأت تخفق بأجنحتها فوق الماء وتدور وتدور وهي ترسل صيحات البهجة والرجاء . كان بصرها أحدّ من نظر اخاب . فإنه لم يستطع أن يستكشف أية علامة في البحر ولكنه حين حدّق وأطال التحديق في الأعماق رأى على غور بعيد بقعة بيضاء حية ليست أكبر من ابن عرس أبيض ، ترتفع في سرعة عجيبة وتكبر كلّما ارتفعت ، حتّى تحوّلت عائمة من القعر الذي لايستطاع استجلاؤه . وعندئذ وضح فيها صفان طويلان أعوجان من أنياب بيض لامعة . كان ذلك هو فم موبي ديك المفتوح وفكه المنشاوي . أمّا جسده الضخم المحجوب فكان مايزال مختلطاً بعض

اختلاط بزرقة البحر ، وانفغر الفم المتلألىء تحت القارب كأنه قبر رخامي نزع بابه . فأدار آخاب القارب جانباً بضربة مواربة من مجذافه ليحيد عن شبحه المرعب ثمّ نادى فيض الله ، ليتبادلا مكانيهما وذهب الى مقدم القارب وأمسك بالرمح الذي صنعه بيرث وأمر بحارته أن يمسكوا بمجاذيفهم وأن يقفوا متأهّبين كي يتمكّنوا من العودة للوراء .

وبسبب من دورة القارب عندئذ حول محوره جعل مقدمه ، من قبيل المبادرة ، مواجهاً رأس الحوت وهو مايزال تحت الماء ، ولكن كأنّما لحظ موبي ديك هذه الخطة بذلك الذكاء الماكر الذي يعزى اليه ، فاستبدل في مواربة بمكانه مكاناً آخر ، في لحظة ، مطلقاً رأسه المغضّن طولياً من تحت القارب .

واهتزّ القارب من أقصاه الى أقصاه وسرت الهزّة لحظة في كلّ لوح ودعامة . والحوت مضطجع على ظهره في انحراف على نحوٍ ما يضطجع القرش الكدّام وهو يتناول مقدم القارب كله ببطء وتحسّس في فمه حتّى أنّ الفك السفلي الطويل الضيق المنشاري تلوّى بارزاً في الفضاء وعلق أحد الأنياب بأحد مساند المجذاف . وكان داخل الفك المائل الى الزرقة الأبيض بياض اللؤلؤ على بعد ست بوصات من رأس آخاب ثمّ بلغ الى أعلى من ذلك . وفي هذا الموقف هزّ الحوت الأبيض ذلك الرمث الضئيل كما تهزّ القطة الظالمة في وداعة طريدها الفأر . ونظر فيض الله بعينين لادهشة فيهما ، وشبّك مابين ذراعيه ، غير أنّ الملاحين الذين في صفرة النمور كانوا ينقلبون فوق رؤوس بعضهم البعض وكلّ منهم يبادر لينال لواذاً في أقصى المؤخرة .

وبينا كانت كلتا الحافّتين المرنتين تثبان داخلاً وخارجاً ، والحوت يداعب القارب الهالك بهذه الطريقة الشيطانية ، ولايمكن قذفه بالرماح من المقدّم ، لأنّ جسمه غاطس تحت القارب ، ولأن المقدم نفسه يكاد يكون داخل فكّه ، وبينما توقّفت القوارب الأخرى عفواً كأنها أمام أزمة سريعة يستحيل عليها مواجهتها ، عندئذ هاج آخاب لمصاقبة خصمه له مصاقبةً تعذّبه بوشك نجاز الأمل ، لأنها وضعته وهو حيّ أعزل بين الفكّين اللذين يمقتهما - هاج واستبدّ به الحنق ، فأمسك الفكّ الطويل بيديه المجرّدتين وحاول بضراوة أن يزحزحه عن ذلك الإطباق الضاغط الكزّ ، وفيما كان يجهد هذا الجهد الضائع انزلق الفكّ من بين يديه ، واستسلمت الحافّتان الهشّتان ، وانقلبتا ، وفرقعتا عندما انزلق الفكّان كأنهما مقصّان بعيداً الى الوراء ، وشقّا القارب نصفين ، ثمّ انطبقا في الماء في مسافة متوسّطة بين النصفين العائمين . ولمّا أن عاما تدلّت الأطراف المكسّرة ، وتعلّق الملاحون عند النصف الخلفي من القارب بالحافتين ، وجاهدوا ليستمسكوا بالمجاذيف حتّى يربطوها الى بقية الحطام .

في تلك اللحظة التمهيدية قبل أن يتمَ انشقاق القارب كان آخاب أوّل من أدرك قصد الحوت ، وذلك لأنه رفع رأسه بحركة ماكرة فتراخت عنه قبضة آخاب وقتاً ما ، في تلك اللحظة بذل آخاب بيده آخر محاولة ليدفع القارب بعيداً عن مكدم الحوت . ولكن القارب ماعتم أن انزلق هابطاً في فم الحوت وتمايل على جانبيه وهو ينزلق فحال بين قبضة آخاب وفك الحوت ، فهوى آخاب حين انحنى ليدفعه وسقط منبطحاً على وجهه فوق الماء .

أمّا موبي ديك الذي انسحب عن فريسته متمعجاً فقد استلقى على مسافة قصيرة وقد طعن برأسه الأبيض المستطيل عمودياً في الأمواج صعوداً ونزولاً وفي الوقت نفسه أدار ببطء جسمه المتطاول حتّى أن جبهته المغضّنة الفسيحة عندما برزت ـ على مدى عشرين قدماً خارج الماء ، أو تزيد ، تكسّرت تلقاءها الأثباج المتعالية بكل مافيها من أمواج مترافدة تكسّراً يبهر الأبصار وهي تقذف رشّاشها الراعش عالياً في الفضاء ، حقداً واضطراماً* . كذلك أمواج « القنال » التي ترتد على أعقابها مقهورة بعض الشيء أثناء العاصفة تتراجع عن قاعدة « اديستون » لا لشيء إلا لتطاول قمّتها زهواً في اندفاعها المتوثّب .

وسرعان ما استعاد موبي ديك وضعه الأفقي فسبح بخفة ولفّ حول الملاحين المتناثرين ودار ، وهو يمخض الماء في مخره الحقود ، كأنه يهمّ أن ينطلق في غارة جديدة أشدّ من أختها فتكاً . وبدا كأنما يهيج فيه منظر القارب المتشظّي جنوناً كما فعل الجريان القاني من دم العنب والتوت حين سكب أمام فيلة انطوخوس ، حسبما جاء في كتاب المكابيين . وفي الوقت نفسه كان آخاب يوشك أن يختنق في الزبد الذي أثاره ذنب الحوت الوقح ، وأعجزه عجزه عن أن يسبح ، وإن استطاع أن يبقى عائماً حتّى في قلب مثل تلك الدوّامة ، وظهر رأس آخاب الذي أدّه العجز وخانه الحول كأنه نفاخة متقلبة قد تفجرها أصغر صدمة عارضة . ورمقه فيض الله من مؤخرة القارب التي تناثرت شظايا بنظرة وديعة باردة فيها لهفة المتطلّع . فأمّا الملاحون المتشبّثون عند الطرف الآخر المتقاذف فلم يستطيعوا إغاثته ، إذ كان حسبهم أن ينظروا في ما دهمهم ، فقد كان منظر الحوت الأبيض مهولاً في دورانه ، وكانت الدوائر المنداحة التي يحدثها سريعة كأنها دورة كوكب ، حتّى خيّل اليهم أنه سينقضّ عليهم أفقياً ، وأمّا القوارب الأخرى فإنها ، وإن لم يمسّها أذى ، كانت تحوم عن كثب دون أن تجرؤ على التجذيف ودخول تلك الحومة ومباشرة الضرب ، لئلا يكون في ذلك أمارة على الهلاك الوحيّ للمطروحين بين أنياب التهلكة ، أعني آخاب وسائر الملاحين ، وفي مثل هذه الحال فإنهم أيضاً لا يرجون لأنفسهم نجاة ، ولذا وقفوا يتطلّعون بعيون

* هذه الحركة خاصة بحوت العنبر وتسمّى « قذف الحربة » تشبيهاً لها بتسديد الحربة صعوداً وهبوطاً في التحويت حسبما تقدم الوصف (انظر الفصل : ٨٤) وبهذه الحركة يستطيع الحوت أن يرى ، خير رؤية وأشملها ، أيّ شيء يحيط به .

متخازرة عند الحافة الخارجية من ذلك الفلك المريع الذي أصبحت نقطة المركز فيه رأس آخاب .

ومنذ البداية كان هذا كله في أثناء ذلك بمرأى من الرقباء في أعالي الصواري . فأدارت السفينة باحاتها ، وعمدت الى ذلك المشهد ، ودنت كثيراً حتى أنَ آخاب ناداها قائلاً : «ابحروا نحو... ...» وفي تلك اللحظة اندفع نحوه موج فاصل من لدن موبي ديك غمره حيناً ، غير أنه تخلص منه جاهداً ، واتّفق أن ارتفع على سنام موجة متعالية فصاح : «ابحروا نحو الحوت! ـ طرّوه شلاً!» .

أشرعت مقادم الباقوطة المحدّدة ، وكسرت الحلقة المسحورة فحالت بين الحوت الأبيض وضحيّته ، وعندما ابتعد ساخطاً متبرّماً سارعت القوارب مخفة الى النجدة .

جرَ اخاب الى قارب اسطب وعيناه اللتان تقدحان شرراً عشواءان ، والملح الأجاج يتقرّص في تجاعيده ، وقد انقطعت في جسمه أوتار القوة لطول النزع والتوتير . فاستسلم بلا حول لمصير جسده وظلّ بعض الوقت مستلقياً محطّماً في قعر قارب اسطب كأنه شخص داسه قطيع من الفيلة بالأقدام . ومن أعماق أعماقه السحيقة انبعثت أنات تعجز الوصف كأنها أصوات موحشة تنبعث من أخاديد .

ولكنَ هذه الحدّة في استسلامه الجسدي قصّرت من عمر هذا الاستسلام العاني . ذلك أنَ بعض القلوب الكبيرة أحياناً تستجمع ـ بلمح البصر ـ جميع الآلام الرقراقة المبثوثة برفق خلال أعمار الناس الضعفاء وتكثّفها في صورة غمرة عميقة من الألم ، فإذا شاءت الآلهة فإن مثل هذه القلوب تحتقب في عمرها وحده ألم عصر كامل ، ألماً مؤلّفاً من تلك المكثفات المفاجئة ، وإن كنت ترى فيها خلاصة ألم إذا نظرت اليها في كلّ فرد متألّم على حدة ، فهذه الكائنات النبيلة تحتوي في نقاط مراكزها الهندسية كلّ محيط من محيطات النفوس الضعيفة .

قال آخاب ناهضاً بعض نهوض ، مستنداً في تضجّع على ذراع واحدة محنيّة : «الرمح! ـ هل هو سليم ؟» .

فقال اسطب وهو يرفعه أمام عينيه : «أجل ياسيدي ، لأنه لم يقذف ، ذلك هو السبب» .

ـ «ضعه أمامي ـ هل فقدنا أحداً ؟» .

ـ «واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، كانت لدينا خمسة مجاذيف يا سيدي وها هنا خمسة رجال» .

ـ «حسن . أعنّي يارجل ، أودّ أن أقف . كذا ، كذا ، ذاك هو! هناك! هناك! مايزال ذاهباً في اتجاه الريح . إنه نفاثة وثّابة! حطّوا أيديكم عنّي! إنّ النسغ الخالد عاد يجري في عظام آخاب! انشروا الأشرعة . أحضروا المجاذيف ، الدفة!» .

إذا انشقّ قارب ما ، فإنّ بحارته في أغلب الأحيان ، حين يلتقطهم قارب آخر ، يعينون على التجذيف في الثاني وتستمر المطاردة بما يسمّونه المجاذيف المزدوجة ، وهذا هو ماحدث حينئذٍ ، ولكن القوة المزيدة في القارب لم تكن تساوي القوة المزيدة في الحوت لأنه يبدو أنه « ثلث » كلّ زعنفة من زعانفه ، فقد كان حينئذ يسبح بسرعة تدلّ بوضوح على أنّ البحارة إن اندفعوا نحوه في تلك الظروف فإن المطاردة ستكون طويلة لاتنتهي الى حدّ ،

هذا إذا لم تكن نتائجها غير مرجوّة . ولاتستطيع أيّ عصبة من الملاحين أن تطيق مثل هذا التوتّر الطويل المستمر دون راحة ، عند المجاذيف ، طول هذه المدة المديدة ، فذلك شيء لايطاق إلا في دورة قصيرة واحدة . ولذا فإنّ السفينة ، كانت كما يحدث أحياناً ، هي الوسيلة المرجوة الوحيدة للإضطلاع بعبء المطاردة ، ومن ثمّ عمدت القوارب نحوها ورفعت في التوّ الى معالقها ، وكانت قد احتازت نصفي القارب المحطوم من قبل ، فرفع كلّ شيء الى جانبها ، وكوّمت جميع مافيها من أشرعة في الأعالي ، ومدّت من جوانبها الأشرعة الجانبية الخفيفة كأنها جناحا البطروس المزوّدين بمفصلين ، واشتدّت تجري في مخر موبي ديك الذاهب في اتّجاه الريح .

وكان الرقباء في أعالي الصواري يهتفون بانتظام بأنهم رأوا نفاثة الحوت المتلألئة في فترات معروفة رتيبة فإذا قيل لآخاب أنه قمس توّاً ، عين الوقت ، ثمّ أخذ يذرع ظهر السفينة ، وساعة صندوق الأبرة في يده ، فإذا انقضت آخر ثانية من الساعة المقدّرة سمع صوته يقول : « لمن القطعة الذهبية الآن ؟ هل ترونه ؟ » فإذا كان الجواب : « لاياسيّدي » أمرهم على التوّ أن يرفعوه الى مرقبه ، على هذه الحال تصرّم النهار : حيناً يكون آخاب في الأعالي جاثماً دون حراك ، وآونة يذرع الألواح قلقاً .

وحين كان يتمشّى كذلك دون أن يحدث صوتاً إلا أن يهتف بالرجال في الأعالي أو يأمرهم أن يرفعوا شراعاً الى ارتفاع أكبر ، أو ينشروه على عرضٍ أوسع - حين كان كذلك يتمشّى جيئة وذهوباً كان عند كلّ دورة يدورها وهو معتمر قبّعته المنكفئة يمرّ بقاربه المحطّم الذي كان قد أنزله على الربعة ، خلف الدقل الأعظم ، ووضع هناك مقلوباً ، مقدمه مكسور وكوثله محطوم . وأخيراً توقّف أمامه ، وانسلّ فوق وجهه الشائخ مزيد من كآبة ، مثلما أن السماء الملبّدة بالغيوم يزحف على وجهها مزيد من أسراب جديدة من السحب في بعض الأحايين .

ورآه اسطب متوقّفاً ولعله أراد دون أن يخامره الغرور أن يبدي عزيمته التي لم تهن ويبقي لنفسه في ذهن قبطانه مكانة الباسل الشجاع ، فتقدّم منه ورمق القارب المحطوم وهتف : « الحمار رفض الشوكة . لقد وخزت فمه بحدّة ياسيّدي ، ها! ها! » .

- « أيّ شيء تعوزه الروح هذا الذي يضحك وهو قبالة شيء محطوم ؟ يا رجل ، يارجل! لو لم أكن أعلم أنك شجاع كالنار التي لاتعرف الخوف (ومثلها حركة آلية) لأقسمت أنك جبان رعديد . يجب ألا تصدر أنة أو ضحكة أمام شيء محطوم » .

فقال استاربك وهو يدنو منه : « أجل سيّدي ، هذا منظر جليل ، إنه فأل ، وإنه فأل سيئ »

- « فأل ؟ فأل ؟ ـ لفظة في المعجم! إذا كانت الآلهة ترى أن تحدث الإنسان دون التواء فإنها تحدثه بشرف ونزاهة صراحة دون التواء ، ولكنها لا تهز رؤوسها وتغمغم بتلميحات مبهمة كالتي ترسلها العجائز . انصرفا! أنتما قطبان متضادان في شيء واحد . . ليس استاربك إلا اسطب معكوساً ، وليس اسطب إلا استاربك معكوساً . وأنتما تمثلان جميع البشر . وآخاب يقف وحده بين ملايين الأرض المأهولة ، وليس له جيران من بشر أو آلهة! برد . برد . أرتجف! كيف ذلك ؟ أنتم في الأعالي هل ترونه ؟ اهتفوا كلما رأيتم نفثة حتى لو نفث عشر مرات في الدقيقة! » .

كاد اليوم ينقضي ، ولاشيء يصدر حفيفاً سوى حواشي ثوبه الذهبي . وسرعان ماخيّم الظلام أو كاد ، ولكنّ المراقبين بقوا في أمكنتهم لايؤذن لهم .

فصاح صوت من الفضاء : « لانستطيع نرى النفاثة الآن ، سيّدي ، الظلام حالك » .

- « كيف كانت وجهته عندما رأيتموه آخر مرّة ؟ » .

- « كما كان من قبل ، سيّدي ، عامداً نحو مهبّ الريح » .

- « طيّب! مادام الليل قد حلّ فإنه سيتباطأ في رحلته . أنزلوا الأشرعة الملكية والعلوية النبيلة من الأشرعة الجانبية ياسيّد استاربك ، علينا ألا نسبقه قبل الصباح ، إنه يقوم برحلة الآن ولعلّه أن يتوقّف مدة . الدفة هناك! اجعلها منصوبة تماماً أمام الريح! أنتم في الأعالي! انزلوا! ياسيّد اسطب ، ابعث بديلاً الى قمة الصاري الأمامي ولاحظ أن يظلّ مزوّداً بمراقب حتّى الصباح » . ثمّ تقدّم نحو الدبلون المغروس في الصاري الرئيس وقال : « هذه القطعة الذهبية لي ، لأني كسبتها ، ولكنّي سأبقيها هنا حتّى يموت الحوت الأبيض ، وأيّ امرىء منكم ينبىء به أوّلاً في اليوم الذي يقتل فيه فستكون هذه القطعة من نصيبه ، وإذا كنت أنا الذي أنبىء به في ذلك اليوم فإن عشرة أمثالها ستقسم فيمابينكم . انصرفوا! أنت القيم على ظهر السفينة ياسيّدي » .

وما أن قال ذلك حتّى وضع نفسه في موقع وسط داخل الناروزة وكفأ قبعته ، ووقف هنالك حتّى الفجر إلا أن ينهض بقامته أحياناً ليرى كم انقضى من الليل .

١٣٤

المطاردة ـ اليوم الثاني

عند بزوغ الصبح زوّدت رؤوس الصواري بحراس جدد في موعدهم وصرخ آخاب بعد أن انتظر قليلاً حتّى ينتشر الضوء : «هل ترونه ؟» .

ـ «لانرى شيئاً ياسيّدي» .

ـ «تضافروا جميعاً في نشر القلوع! إنه ليسير بأسرع ممّا قدّرت . انشروا الأشرعة العلوية النبيلة . أجل كان الحق أن أبقيها منشورة طوال الليل . لابأس ، إنها الراحة قبل الإندفاع» .

لأقرّر في هذا المقام أن هذه المطاردة المصابرة وراء حوت واحد ، والليل فيها يفضي الى النهار والنهار الى الليل دون توقّف ، إنّما هي شيء لاتعزّ نظائره في حرفة التحويت بالبحار الجنوبية ، ذلك أن بعض العباقرة العظماء بفطرتهم بين القباطنة النانتوكتيين قد أحرزوا من المهارة العجيبة ومن لقانة التجربة ومن الثقة الصامدة المرابطة ماجعلهم ـ إذا لحظوا الحوت محض لحظ في آخر مرّة انكشف لأعينهم فيها ـ يتنبّأون ، على نحو دقيق في ظروف معيّنة ، بالإتّجاه الذي سيظلّ ينحوه في سباحته فترة ما ، وهو غائب عن الأبصار ، وبمقدار السرعة المحتملة في تقدّمه أثناء ذلك . وفي هذه الأحوال يفعل الحوّات بالنسبة للحوت ، وهو يرقب بوصلته ، مايفعله الربّان حين يوشك أن يختفي عن نظره ساحل يعرف سيفه حقّ المعرفة وهو يرغب في أن يعود اليه مرّة أخرى ، لا في الموقع الأوّل بل في موقع اخر أبعد منه ، فهذا الربان يقف عند بوصلته ويقدّر بدقة اتّجاه الرأس البادي لعينيه حينئذ لكي يستيقن أنه إن عاد لزيارة الرأس المحجوب عن عينيه فإنه سيتّخذ اليه مسلكاً مسدّداً لا ينحرف به يمنة أو يسرة .

كذلك هو شأن الحوّات ، بعد أن يطارد الحوت ويميّزه بعلامة فارقة خلال ساعات

عديدة في ضوء النهار ، ثمّ يحلّ عليه الليل فينحجب الحوت وراء ظلمته . هذا الحوّات يكاد يرتسم في عقله الراجح سياق مخر الحوت بدقة تحت الظلام ، كما يرتسم السيّف في ذهن الربان ، ويستوي في مهارة هذا الحوّات ـ وهي مهارة مدهشة ـ النقش على الماء ـ أعني سياق المخر ـ والنقش في الحجر ، فهما لديه سيّان من حيث الكفاية والغناء ، في كلّ مايراد منهما ، وإن ضرب المثل بقلّة غناء النقش على الماء . ألست ترى الرجال يعرفون « الحوت » الحديدي الجبار الحديث بكلّ خطوة من خطواته ويقدرون . وساعاتهم في أيديهم ، نسبة سرعته كما يقدّر الأطباء نبض الطفل ويقولون في يسر : القطار الغادي أو القطار الرائح سيصل المكان الفلاني في الساعة الفلانية ؟ يكاد ذلك أن يكون هو عين مايحدث لدى الصيادين من أبناء نانتوكت فإنهم في بعض الأحيان يوقّتون لحوت البحار حسب ما لحظوه من نسبة في سرعته ويقولون لأنفسهم : بعد كذا وكذا ساعة يقطع هذا الحوت مائتي ميل ، ويبلغ هذه أو تلك الدرجة العرضية أو الطولية . ولكن إن كان لهذه الحذاقة أن لا تفيل في النهاية فلا بدّ أن يظلّ البحر والريح حليفين للحوّات . إذ ماذا تُغني الحذاقة عن ملاح سكن بحره أو واجهته الريح حين تؤكّد له أنه على بعد ثلاثة وتسعين فرسخاً وربع الفرسخ من الميناء ؟ وبعد فالحوّات يستطيع أن يستخلص من هذه الحقائق أموراً دقيقة أخرى تناظرها فيما يتّصل بصيد الحيتان ومطاردتها .

ومضت السفينة تشقّ الماء ، مخلّفة في البحر ثلماً ، كأنها قنبلة مدفع طاشت فاتّخذت سكّة محراث فهي تشقّ الحقل المستوي أثلاماً .

وصاح اسطب : وحقّ الملح والقنّب! إنّ هذه الخفّة في حركة ظهر السفينة لتنسلّ في رجل المرء وتطنّ في القلب . أنا وهذه السفينة رفيقان باسلان ـ ها! ها! ليت أحداً يرفعني ويلقيني في الماء على ظهري ، أحلف بالبلوط الرطب أن ظهري أرينة . ها! ها! إننا نسير في طريق لايثور فيها غبار! » .

ـ « هناك ينفث! ينفث! ينفث! أمامنا تماماً! » ـ تلك هي الصيحة التي أرسلها الحرّاس من رؤوس الصواري .

فصاح اسطب : « أجل ، أجل! عرفت ذلك ـ لن تنجو ـ انفث وفجّر نفاثتك أيها الحوت! الشيطان نفسه في أثرك . انفخ في بوقك حتّى تتقرّح رئتاك! آخاب سيهريق دمك مثلما الطحّان يغلق منفذ الماء الشارع على الجدول! »

وكان اسطب يتحدّث بهذا والملاحون جميعاً عن كثب ، وكان الحنق الذي أثارته المطاردة قد جاش بهم عندئذ جيشان الحبب ، كالخمر المعتّقة تبدأ صنعها من جديد . فما

كان أن أحسّ به بعضهم قبل من مخاوف وهواجس شاحبة لم تبقَ خفية عن الأنظار فحسب بسبب تزايد آخاب هيبة ، وإنّما إنماثت تلك المخاوف والهواجس كالأرانب المذعورة على السهوب وهي تذهب بدداً أمام البيسون الجمّاز ، فقد اختطفت يد القدر أرواحهم جميعاً وبالمخاطر المثيرة في اليوم السابق وعذاب الترقّب في الليلة الفائتة والطريقة العامدة العمياء السادرة المستأسدة التي ذهبت بها سفينتهم الوحشية غائصة تمرّ مرّ السحاب . بهذه الأمور جميعاً تدحرجت قلوبهم قدماً . أمّا الريح التي كانت تنفخ من أشرعتهم كروشاً ضخمة . وتدفع السفينة بسواعد خفيّة لاتقاوم ، فقد بدت وكأنها رمز لذلك الفعّال الخفي الذي اتّخذهم عبيداً في هذا المضمار .

كانوا رجلاً واحداً لا ثلاثين ، كلّ تميّز فردي في كلّ امرىء منهم : شجاعة هذا وخوف ذاك ، إثم هذا وبراءة الآخر[1] ، جميع هذه الأنواع امتزجت في وحدة واحدة ، ووجّهت كلّها نحو الهدف المهلك الذي كان يسعى اليه سيّدهم وسندهم اخاب . كانوا في ذلك شأنهم شأن سفينتهم فقد صنعت من أشياء متنافرة : دخل في تركيبها الخشب من سنديان وغُرب وصنوبر ، والحديد والقار والقنب ، وكلّ هذه تضافرت وتداخلت لتكوّن هيكلاً واحداً ملموساً ، ينطلق في طريقه متّزناً مستنداً على أرينة متوسطة طويلة توجهه أنّى شاءت .

عمّروا الأشرعة والحبال فدبّت فيها الحياة ، وأضحت رؤوس الصواري كقمم النخلات العمّ الطوال تصنع لها جمّة من سواعد وأرجل ، وكان بعضهم يتعلّق بالسارية بيد واحدة فيصل السارية الأخرى ، وهو يتأرجح متناوحاً ، وآخرون جلسوا على أقصى الباحات المتأرجحة وهم يظلّلون أعينهم من وهج الشمس ، كانت جميع الدعائم والسواري قد أثمرت بشراً ، وقد نضج ثمرها ، وحان أن تؤتي للقدر أكلها . ياالله! كيف مضوا يجاهدون خلال تلك الزرقة اللانهائية سعياً وراء ماقد يرديهم في هوّة الأبد .

وصرخ آخاب بعد أن مضى على الهتف الأوّل بضع دقائق ولم يسمع هتافاً آخر : «لِمَ لاتهتفون إن كنتم ترونه ؟ إرفعوني يارجال ، لقد خدعتكم أبصاركم . ليس موبي ديك بالذي يبعث نفثة مستهجنة واحدة ثمّ يختفي» .

وقد صدق ، فإنّ الرجال في لهفتهم الحافزة قد رأوا شيئاً ظنّوه نفاثة الحوت ، وسرعان ما أيّدت الأحداث ذلك ، إذ ما كاد آخاب يبلغ مجثمه ، وما كاد الحبل يربط بالوتد المخصّص له على ظهر السفينة ، حتّى حرّك مفتاح النغم لجوقة موسيقية جعلت الهواء

(١) في الأصل : Guilt and guiltiness والكلمة الثانية يجب أن تكون Guiltessness أي براءة .

يتذبذب كأنه وقع تحت طلقات بنادق مجتمعة ، وسمعت هتفة ظاهرة ، كأنّ ثلاثين بوقاً من جلد الغزال تنبعث معاً حين لاح موبي ديك ـ أقرب الى السفينة من النفاثة الكاذبة أي أقل من ميل الى الأمام ـ ، ذلك أن الحوت الأبيض لم يعلن حينئذ عن مكاثبته بالنفثات الهادئة المتراخية ، لم يعلن عنها بذلك الدفق المطمئن من تلك النافورة الخفية في رأسه ، وإنّما بتلك الظاهرة المدهشة التي يسمّونها الوثب العلويّ ، إذ يرتفع حوت العنبر بأقصى سرعته من أبعد الأعماق ويمطّ جسمه كلّه في الهواء الخالص ، مكدّساً جبلاً من الزبد الباهر ويكشف عن موضعه على بعد سبعة أميال أو أكثر ، وتشبه أن تكون الأمواج الممزّقة المحنقة التي يرجّها في تلك اللحظات عرفاً له ، ويكون هذا الوثب العلوي في بعض الحالات تحدّياً .

وارتفعت الصيحة : « هناك يثب وثبته العلوية! هناك يثب وثبته العلوية! » وذلك حين قذف الحوت الأبيض نفسه في الفضاء كأنه سمكة سلمون ، مزهواً متحدّثاً بنغمة شجاعة متطرّفة . أمّا الرشاش الذي أثاره ، فقد شوهد فجأة في وضح الزرقة على بسيط الماء ثمّ وهو يرتفع إزاء زرقة أشدّ في حاشية السماء ، فتلألأ وتوهّج لحظة يزوغ عنه فيها البصر كأنه جبل من جليد ، وتلبّث هنالك وحدّة وهجه الأوّل تتضاءل وتأفل تدريجيّاً . حتّى تحوّل الى ضبابية غائمة كأنه سحابة توشك أن ترسل قطراتها في الوادي .

فصاح اخاب : « أجل . ثب وثبتك الأخيرة نحو الشمس ياموبي ديك! دنت ساعتك ودنا من يدي الرمح الذي سيرديك! انزلوا! انزلوا جميعاً إلا واحداً في المقدّمة . القوارب! تأهّبوا! » .

أغفل البحارة استخدام سلالم الحبال المملّة عند القلوع وانزلقوا هابطين على ظهر السفينة كأنهم رجوم الشهب ، عن طريق الدعائم الخلفية المتفرّقة وحبال الأعلام ، بينما أنزل آخاب من مرقبه في انطلاق أقل وسرعة أكثر .

ولمّا أن بلغ قاربه ـ وهو قارب احتياطي أعدّ بعد ظهر اليوم الفائت ـ صاح : « انزلوا القوارب . السفينة في عهدتك ياسيّد استاربك ، ابق متحاشياً للقوارب ولكن كن قريباً منها . انزلوا قواربكم جميعاً! » .

وكأنّما أراد موبي ديك أن يلقي رعباً وحيّاً في قلوب العصب الثلاث من الملاحين ، إذ كان هذه المرة هو البادىء بالهجوم فقد استدار وتقدّم نحوهم . وكان قارب آخاب متوسّطاً ، فأخذ يشجّع رجاله ويخبرهم أنه سيعمد الى أخذ الحوت « رواسي » ، أي أنه سيجذّف عامداً نحو جبهته ـ وهو شيء غير شاذ في التحويت ، فمثل هذا المسلك على بعد معيّن يمنع الحوت من أن يرى الهجمة القادمة لأن رؤيته جانبيه لارأسية . ولكن قبل أن تبلغ القوارب الثلاثة ذلك الحدّ ، وفيما هي واضحة لعيني الحوت كأنها الصواري الثلاثة في السفينة ،

تمعّج موبي ديك وتلوّى في سرعة هائجة وفي لمح البصر اندفع منطلقاً بين القوارب الثلاثة وفكّاه فاغران وذنبه يتقلّب كالسوط وهو يطلب النزال على كلّ جانب في معركة مفزعة غير عابىء بالحراب التي تُقذف نحوه من كلّ قارب ، وكأنما هو قد صمّم على أن يفني كلّ لوح من ألواح تلك القوارب ، ولكنّ القوارب داورته بمهارة وظلّت تدور دون توقّف كأنها مهاجمون مدرّبون في ميدان ، وتروغ من طريقه وإن كان روغانها لاينأى بها عنه أكثر من عرض لوح خشبي ، أمّا نداءات آخاب الوحشية طوال ذلك الوقت فقد كانت تمزّق كلّ صيحة أخرى سوى صيحة الحوت نفسه وتلقيها بدداً .

ودار الحوت دورات لم تخلف أثراً فاجتاز الحبال الثلاثة العالقة به وأعاد اجتيازها ، وعقد أجزاءها المرخاة في ألف طريقة حتّى قصر مداها ، فقرّبت هي القوارب المتحمّسة من الشفار المغروسة فيه ، وإن كان الحوت قد انتحى جانباً لمدى لحظة كأنه يستجمع لإنقضاض مريع . وانتهز آخاب هذه الفرصة فأرخى مزيداً من الحبل ثمّ أخذ يجرّه وينخعه ـ أملاً منه أن يفك بعض تعقيداته ـ ولكن مهيم! لقد تمّ منظر أشدّ وحشية من أنياب القرش المتراصة!

ذلك أنّ الرماح والحراب التي انحلّت ، بكلاباتها الشائكة وشفراتها المشحوذة ، علقت بالحبل والتوت فيه وتداخلت بين تشابكاته التي جعلتها كالبريمة ، وومضت لامعة تقطر ماء عند خطافات المقدمة في قارب اخاب . وما كان في مقدرته أن يعمل إلا شيئاً واحداً ، فأمسك بسكّين القارب ووصل بشيء من عسر دون تلك الأدوات الفولاذية ثمّ من ورائها ، وقبض على الحبل هنالك وجرّه وأمرّه في القارب الى الرجل القائم عند المقدّمة ، ثمّ قطع الحبل في موضعين عند الخطافات ، وأسقط تلك الحزمة الفولاذية في البحر وربط الحبل مرة أخرى . وفي تلك اللحظة قام الحوت الأبيض بهجمة مفاجئة بين التشابكات الباقية في الحبال الأخرى ، وبهذا العمل جرّ قاربي فلاسك واسطب المتورّطين دون أن يستطيعا المقاومة نحو شطيرتي ذنبه ، وضرب أحدهما بالآخر كأنهما ثفالتا قمح متدحرجتان فوق أواذيّ شاطىء صخريّ ، ثمّ قمس في الماء واختفى في دردور جياش الغليان ظلّت فيه شظايا الشربين الشذي من القاربين المحطمين تتراقص وتدور ـ على مدى ـ كأنها شذرات من جوزة الطيب في كأس من شراب البنش يحرّك بخفّة .

وكان أفراد عصبتي الملاحين مايزالون يدورون في الماء سعياً وراء براميل الحبال المتقلّبة والمجاذيف وغيرها من أدوات العوم ، وفلاسك الصغير الجسم في انحدار يهتزّ صاعداً هابطاً كأنه قارورة فارغة ، مقرفصاً رجليه الى أعلى لينجو من فكوك القرش المخوفة . واسطب يغنّي بحرقة لعلّ أحداً ينتشله ، وحبل القبطان الشيخ ، وقد انفصل ، يمكّنه من

التجذيف في البركة المزبدة لينقذ من يقدر على إنقاذه ، في ذلك الجوّ الضاري الذي تحتشد فيه معاً آلاف المخاطر لتتجسّد ملموسة ، بدا وكأن القارب الذي مايزال سليماً ، قارب آخر ، تجرّه نحو السماء، أسلاك خفيّة ، ومن البحر عمودياً انقضّ الحوت الأبيض منطلقاً إنطلاقة السهم ، فصدم بجبهته الواسعة قاعدة القارب وأرسله متدحرجاً متقلّباً في الفضاء حتّى سقط ثانية وحافّته منكّسة ، وآخاب ورجاله يناضلون للخروج من تحته كأنهم حيوانات الصيل يحاولون الخروج من كهف في شاطىء بحر .

وكان أوّل زخم دافع للحوت قد ألقاه فوق السطح لا إرادياً فعدّل من وجهته حين لامس السطح ، على مسافة يسيرة من مركز الخراب الذي أحدثه ، واضطجع وهو مستدبر له لحظة يتحسس في بطء ويتقرّى بذنبه من جانب الى اخر ، وكلّما لامس جلده مجذاف ضال أو قطعة من خشب أو أقل شظيّة أو شذرة ، انحاش ذنبه متراجعاً وأخذ يلطم به البحر على الجانبين . وكأنّما أرضاه أنه أدّى عمله وانتهى منه في تلك النوبة فدفع على التوّ خطمه المغضّن خلال المحيط ، وخلفه تنسحب الحبال المعقّدة ، واستمرّ في طريقه وجهة الريح وكأنه رحالة يمشي بخطى منتظمة رتيبة .

ومرة أخرى جاءت السفينة وقد رقبت المعركة كلّها ـ كما فعلت من قبل ـ مخفّة للإنقاذ ، وأنزلت قارباً التقط الملاحين العائمين والبراميل والمجاذيف وكلّ ما أمكن بلوغه والتقاطه وأمنتهم على ظهرها سالمين ، أعني سلامة من الموت ، وإلا فقد كان فيهم أكتاف وأرساغ وأعقاب كلّها مرضوضة ، وكدمات مزرقة وكانت هناك رماح وحراب معوجّة ، وحبال معقدة لايمكن حلّها ، ومجاذيف وألواح محطّمة ، جميع هذه كانت هنالك . ولكن يبدو أنه لم يصب أحد منهم بسوء مميت أو خطير ، وقد جاء آخاب متشبّثاً في عناد بنصف قاربه المكسور ، كما فعل فيض الله في اليوم السابق ، وكان ذلك يهيىء له عوامة مريحة نسبياً ، بل إنه لم يصب بالإنهاك كما حدث في كارثة اليوم المنصرم .

غير أنه حين أعين على الصعود الى ظهر السفينة تركّزت فيه جميع العيون ، وبدلاً من أن ينتحي جانباً ظلّ شبه معلّق على كتف استاربك وكان حتّى عهدئذ في طليعة من يقدّمون له المساعدة . أمّا رجله العاجية فقد انقصفت ولم يبق منها إلا شظيّة محدّدة قصيرة .

ـ «أجل ، أجل ياستاربك ، جميل أن يتّكىء المرء أحياناً أيّاً كان هو الذي يتّكىء ، وليت آخاب الشيخ تذوّق الإتّكاء أكثر ممّا فعل» .

فقال النجّار وكان قادماً حينئذ : «طوق الحديد لم يتحمّل شدة ياسيدي ، لقد أخلصت العمل في هذه الرِجل» .

وقال اسطب في اهتمام صادق : «أرجو ألا يكون العظم قد أصيب ياسيدي» .

- «أجل! تراها وقد انقصفت شظايا يا اسطب! تراها ؟ ولكن آخاب الشيخ لم يصب بشيء، ولم تنكسر له عظمة واحدة وليس فيّ ذرة من عظم تشبهني مثل هذه العظمة الميتة التي فقدتها . لا أحد ، حوتاً أبيض أو إنساناً أو شيطاناً ، يستطيع أن يكشط شيئاً من كيان آخاب الصحيح الذي تتقاصر دونه الأيدي . أيستطيع الرصاص أن يلمس ذلك القاع ، أتستطيع سارية أن تخدش ذلك الجلد ؟ أنتم في الأعالي! ما وجهته ؟ » .

- «عامد وجهة الريح ياسيدي» .

- «عدّل الدفة اذن ، احشدوا الأشرعة مرة أخرى ، ياقوام السفينة ، انزلوا ماتبقى من القوارب الإحتياطية وجهّزوها . اذهب ياسيد استاربك واجمع ملاحي القوارب» .

- «دعني أساعدك أوّلاً على بلوغ الحافة ياسيدي» .

- «آه ، آه ، آه! ماأشدّ ماتؤلمني هذه الشظيّة! ياللقدر الملعون! كيف يكون للقبطان الذي لا تنهزم روحه رفيق جبان!» .

- «مايقول سيّدي ؟» .

- «لا أعنيك أنت يارجل ، إنّما أعني جسدي . أعطني شيئاً أتوكأ عليه ، تلك الحربة المترجرجة تصلح . اجمع الرجال . يقيناً لم أره بعد ، وحقّ السماء هذا مستحيل! ضاع ؟ أسرع! ادعهم اليّ جميعاً» .

كانت الخاطرة التي ألمّت بالشيخ صحيحة فعندما اجتمع الرجال لم يكن البارسي بينهم .

وصاح اسطب : «البارسي! لابدّ أنه علق في...» .

- «ذرعكم القيء الأسود! اركضوا جميعاً الى فوق ، الى أسفل ، في القمرة ، في المنارة ، اعثروا عليه - لم يذهب - كلا لم يذهب!» .

ولكنهم رجعوا في سرعة ليخبروه أن البارسي لا أثر له أبداً .

فقال اسطب : «أجل ياسيّدي علق في تشابك حبلك - أظنني رأيته مسحوباً الى أسفل» .

- «حبلي! حبلي أنا ؟ ذهب ؟ اذن ذهب ؟ ماذا تعني هذه الكلمة الهينة ؟ أيّ جرس جنازة يدقّ فيها حتّى أنّ آخاب الشيخ ليرتعش كأنه برج الجرس! والرمح أيضاً! يتقلّب فوق التابوت هنالك ، هل ترونه ؟ السنان الذي أعددته يارجال ، لقتل الحوت الأبيض - لا ، لا ، لا ، يالك من أحمق متقرّح! هذه اليد قذفته! إنه في الحوت! أنتم في الأعالي! اغرسوا أعينكم

فيه ، ـ أسرعوا! ليذهب الجميع لإعداد القوارب ـ اجمعوا المجاذيف ـ يازراقين! الشفار! الشفار! ـ ارفعوا الأشرعة الملكية أعلى فأعلى ـ شدّوا القلوع! الدفة! ثبات! ثبات من أجل حياتكم! سأطوّق الكرة الأرضية المستفيضة بالدوران عشر مرّات وأغوص عامداً خللها . إلا إنّي مصمّم على قتله! » .

فصاح استاربك : « ياالله! لحظة واحدة كفّ عن القول بأنّك ستقتله ، لن تقتله أيها الشيخ ، باسم المسيح حسبك ، فهذا شرّ من جنون الشيطان . طاردناه يومين ، وانشقّت قواربنا مرتين الى شظايا ، حتّى رجلك اختطفت من تحتك مرة أخرى ـ لقد بارحك شبحك الشرير ـ كلّ الملائكة الأبرار يتألّبون لتنبيهك بالنذر فأيّ مزيد تريد ؟ أنظل نطارد هذا الحوت القتّال حتّى يغرق آخر شخص فينا ؟ أيسحبنا الى قعر البحر ؟ أيجرّنا معه الى دركات العالم الأدنى ؟ آه آه ، إن المضي في مطاردته جحود وكفر! » .

ـ « استاربك! منذ عهد قريب أحسست بمشاعري تقترب منك على نحو غريب ، منذ تلك اللحظة التي رأينا فيها أحدنا ـ وأنت تعرف مارأينا ـ في عينيَ الآخر . ولكن ليكن وجهك لي في أمر هذا الحوت كراحة هذه اليد ، سطحاً لاشفة فيه ولا قسمات ، إن آخاب سيظلّ هو آخاب الى الأبد يارجل ، هذا العمل كله مقدور على نحوٍ لايتبدّل ، فقد حفظناه وتلوناه أنا وأنت قبل أن تتقلّب أمواج هذا المحيط ببلايين السنين . أحمق! أنا ساعد الأقدار ، أنا أئتمر بأمرها ، اسمع أيها التابع المرؤوس ها أنت تطيع أوامري . ـ تحلّقوا حولي يارجال ، أنتم ترون شيخاً قد قطع جذعه ولم يبقَ إلا جذمه يتّكىء على قناة حربة لينة تهتزّ ، ويستند على قدم واحدة . ذلك هو آخاب ، ذلك هو الجزء الجسدي منه ، أمّا روح آخاب فإنها ذات مئة قدم تمشي على مئة رجل . أنا أحسّ بالتوتّر وبأني جانح ضال كالحبال التي تربط فرقاطة حطّمت صواريها في العاصف ، وقد أبدوا لكم كذلك ، ولكنّي قبل أن أنقطع فإنّكم ستسمعون فرقعة . واعلموا ، حتّى تسمعوها ، أن موصار آخاب مايزال موثقاً الى هدفه . أتصدّقون أيها الرجال مايسمّونه الفأل والطيرة ؟ اذن فجلجلوا بالضحك وصيحوا ثانية! الأشياء التي تهتم بالغرق ترتفع مرّتين الى السطح قبل أن تغرق ، لكي تغوص الى الأبد . كذلك هو شأن موبي ديك ـ عام يومين ، وغداً يومه الثالث . أجل يارجال سيبحر مرة أخرى ـ لا لشيء إلا ليلفظ آخر نفثة . هل تحسّون أيها الرجال الشجعان أنكم شجعان ؟ » .

فصاح اسطب : « كالنار جرأة » .

وتمتم آخاب : « ومثلها آلية » . ثمّ مضى يتمتم والرجال يذهبون الى الأمام : « الأشياء التي تسمّى فألاً وطيرة! وأمس قلت الشيء نفسه لستاربك حول قاربي المكسور آه! كم

أسعى بجرأة لأسكب في قلوب الآخرين ما يتشبَث متعلّقاً بقلبي! البارسي . البارسي! ذهب . ذهب ؟ وكان لابد أن يذهب قبلي ، ولكن لابدّ أن أراه مرة أخرى قبل أن أموت ـ كيف ذلك ؟ ها هنا لغز قد يرد جميع الحقوقيين ومن ورائهم أشباح جميع القضاة خاسئين حائرين . وهو ينقر ذهني كأنه منقار الصقر ، لكنّي أنا أنا الذي يحله ولابد » .

وحين حلّ الغسق كان الحوت مايزال يتّجه نحو المهبّ . ومرة أخرى خففت سرعة الإقلاع ومرّ كلّ شيء كما مرّ في المرّة الفائتة إلا أن صوت المطارق وطنين المسنّ كان يسمع حتّى يكاد ينبلج الصباح إذ كان الرجال يكدّون على ضوء القناديل في إعداد القوارب الإحتياطية إعداداً كاملاً دقيقاً ويشحذون أسلحتهم من أجل الغد . وفي الوقت صنع النجار لآخاب من الأرينة المنكسرة في قاربه المحطم رجلاً أخرى . أمّا آخاب نفسه ذو القبعة المنكفنة فوقف ، كما وقف في الليلة الماضية ، ثابتاً داخل نطاق الناروزة ، وعينه المختبئة المترقبة ـ كأنها عبّاد الشمس ـ قد ركّزت خلفاً على المزولة في توقّع وانتظار ، وجلس قبالة المشرق يتطلّع متى يبزغ أوّل خيط من الضياء .

١٣٥

المطاردة ـ اليوم الثالث

تبلّج صباح اليوم الثالث جميلاً ناعشاً ومرّة أخرى انتهت نوبة الحارس الليلي الوحيد القائم عند قمّة الصاري الأمامي ، وحلّ محله جموع من رقباء النهار تعلّقوا بكل صارٍ وتشبّثوا بكلّ دعامة .

وصاح آخاب : « هل ترونه ؟ » ولكنّ الحوت لم يكن قد لاح بعد .

ـ « لايحيد عن مساق مخره ، اتبعوا ذلك المخر ، الدفة هناك! تثبّت وأنت ذاهب مثلما كنت تفعل حتّى الآن . ما أجمل هذا اليوم! لن يشرق على العالم يوم أجمل منه حتّى ولو خلق هذا العالم من جديد وأعدّ بيتاً يأوى اليه الملائكة في الصيف ، وجعل هذا الصباح أوّل يوم يستقبلهم فيه . ها هنا غذاء للفكر لو كان لدى اخاب ندحة للتفكير ، إلا أن آخاب لايفكّر أبداً انه ، يشعر ، يشعر ، يشعر وحسب ، وهذا حسب الآدميّ الذي قدّر عليه الموت! أمّا التفكير فإنه قحة . وليس هذا إلاّ حقّاً وميزة لله وحده ، فالتفكير برود أو هدوء أو يجب أن يكون كذلك ، وقلوبنا المسكينة تخفق ، وأدمغتنا المسكينة تجاوبها بقوة في ضرباتها . ومع ذلك فقد خيّل اليّ أحياناً أن عقلي هادئ . هادئ متجمّد ـ وهذه الجمجمة المسنّة تقعقع كأنها زجاجة تحوّلت محتوياتها الى ثلج وأنت تهزّها . وهذا الشعر نامٍ ، ومايزال ينمو في هذه اللحظة ، ونموه يتطلّب حرارة ، ولكن لا ، إنه كذلك النوع المعروف من العشب الذي قد ينمو في أي مكان ، بين وهدات الجليد في جرينلاند أو في حمم فيزوف . كيف تحرّكه الريح! إنها لتسوطني به كقطع ممزّقة من شراع مشقوق تسوّط السفينة المتقلّبة وهي به متشبّثة . ريح غادرة هبّت ولاريب قبل اليوم خلال دهاليز السجون وزنزاناتها وأقبية المستشفيات ، وجددت تهويتها وها هي تهبّ الينا بريئة كأنها جزر الصوف ، اطردوها! إنها ملوّثة . لو كنت ريحاً لما مضيت أهبّ على هذا العالم التعس

الشرير ، إذن لزحفت الى كهف وتسللت داخلاً فيه ، ومع هذا فهذه الريح شيء سامٍ بطولي! من ذا استطاع أن يغلبها ؟ في كلّ معركة تقوم بالضربة الفيصل المريرة . اهجم عليها طعناً تجد نفسك بين ثناياها . ها! رعديدة هي الريح التي تضرب الآدميين العراة عرياً تاماً ثمّ لا تقف لتتلقّى ضربة واحدة ، حتّى آخاب أقوى مراساً منها ، وأسمى من مثل سلوكها . ليت الريح كانت ذات جسم ، ولكن كلّ الأشياء التي تكاد تزهق الآدمي وتثير سخطه إنّما هي أشياء الأجسام لها ، لاأجسام لها إذا اعتبرتها موضوعاً لاحين تعتبرها فعّالة . ثمّة فرق بين الحالين ، فرق بالغ المكر ، بالغ الخبث! ومع ذلك فإنّي أقول ثانية وأقسم على ما أقول إنّ في الريح شيئاً كله عظمة وكله جلال . هذه الرياح التجارية الحارة ، على الأقل ، التي تهبّ في أثناء صفاء الجو على استقامة في وداعة قوية صامدة نشيطة ، لتتحوّل عن مجراها مهما تتحوّل تيّارات البحر الدنيا وتتبدّل ، ومهما تتعرّج الأنهار الجبارة الكبرى على اليابسة وتسرع غير مستيقنة الى أين تتّجه في النهاية . وحقّ القطبين الخالدين! إنّ هذه الريح التجارية نفسها التي تسوق سفينتي ، هذه الرياح أو مايشبهها ، شيء لايحول ، مثلها اكتمالاً وقوّة هو الذي يسوق سفينة روحي في وجهتها! اليه! أنتم في الأعالي! ماذا ترون ؟ » .

ـ « لا شيء ، ياسيّدي » .

ـ « لا شيء ، والظهر قريب! القطعة الذهبية ستجد رجلاً يستحقّها! أترون الشمس! أجل أجل ، فهمت ، لقد تجاوزته في الإبحار . كيف ؟ هل تسلّم زمام المبادرة ؟ أجل إنه الآن يطاردني ، لست أنا الذي أطارده . هذا سيئ . كنت أقدّر ذلك . أحمق! الحبال ـ الرماح يجرّها الآن . أجل . أجل لقد تجاوزته الليلة الماضية . حولي! حولي! انزلوا جميعاً إلا أصحاب النوبة! زوّدوا حلقات الحبال بالرجال! » .

كانت الريح والباقوطة مبحرة تصيب ربعها فلمّا عكست اتّجاهها أصبحت السفينة المشدودة الحبال تواجه النسمات متعسّفة وهي تثني الزبد في مخرها الأبيض عائدة .

وتمتم استاربك لنفسه وهو يلف الحبل الجديد الرئيسي في حلقته على الحافة : « ضدّ الريح يبحر سائراً الى الفم الفاغر . حمانا الله . حمانا الله ، غير أن عظامي تترشّح رطوبة في داخل جسمي وتبلّل اللحم من داخل ، أنا لا تخامرني ريبة في أنني أعصي الله إذ أطيعه! » .

وصاح آخاب وهو يقترب من زنبيل المصيص : « قرّب لكي ترفعني الى أعلى ، علينا أن نواجهه حالاً » .

ـ « أجل ، أجل ياسيّدي » . وامتثل استاربك أمره تواً ومرة أخرى كان آخاب يتأرجح مرتفعاً .

مضت ساعة كاملة ، طرّقت كما يطرق الذهب وسحبت فإذا هي عصور . وتجرّع الزمن نفسه أنفاساً طويلة من الهواء وهو في هيئة ترقّب حاد ، وأخيراً رأى آخاب النفاثة ثانية على بعد ثلاث درجات من مقياس الطقس . وعلى التوّ سمعت ثلاث زعقات من قمم الصواري انطلقت وكأنّ ألسنة اللهيب هي التي نطقت بها .

- « جبهة لجبهة سأقابلك للمرّة الثالثة ياموبي . أنتم يامن على ظهر السفينة ، جرّوا الحبال في حلقاتها ، احشدوها في عين الريح . مايزال أبعد من أن ينزل الينا قواربه ياسيّد استاربك . الأشرعة تهتزّ! قفوا فوق قيم الدفة ومعكم المطرقة الكبيرة! هكذا ، هكذا ، يبحر بسرعة ، وعليّ أن أنزل للقائه . ولكن لألقِ نظرة هنا على البحر وأنا في الأعالي ، مايزال لديّ وقت كافٍ . منظر قديم هرم ومع ذلك فإنه شاب جديد . لم يتغيّر قلامة ظفر منذ رأيته أوّل مرّة وأنا غلام من كثبان نانتوكت! المنظر نفسه! نفسه . سيّان هو في عيني نوح وفي عيني . ثمّة رذاذ ناعم مع المهب . ما أحبّ هذه الوجهات التي تذهب فيها الريح ، لابدّ أنها تقود الى مكانٍ ما ، الى مكان غير هذه الأرض المبتذلة ، أكثر نخليةً من النخيل ، مع الهبوب! الحوت الأبيض يذهب في تلك الوجهة ، اذن فانظر ضدّ الريح ، تلك هي الناحية الفضلى وإن كانت أمرّ الناحيتين . لكن وداعاً وداعاً ياقمّة الصاري القديم! ماهذا ؟ ـ الأخضر ؟ أجل طحالب دقيقة انتسجت في هذه الصدوع التي تمرّ فيها الحبال . مثل هذه الخضرة لا يلوّث رأس آخاب! ذلك فرق مابين هرم الإنسان وهرم المادة ، لكن أجل أيها الصاري كلانا نهزم معاً ، أمّا الهيكلان فإنهما سليمان ، أليس كذلك ياسفينتي ؟ إلا رِجل مفقودة ، ذلك كلّ ما هنالك ، وحقّ السماء إن هذا الخشب الميّت لخير حالاً من لحمي الحيّ من كلّ وجه ، فلا أستطيع أن أقارنه به ، لقد عرفت سفناً صنعت من أشجار ميّتة عاشت عمراً أطول من أعمار رجال صنعوا من « أحيا » مادة حيويّة كانت لدى آبائهم الحيويين . ما ذاك الذي قاله ؟ إنه يجب أن يذهب قبلي ، فهو ربيئتي ، وإنه سيرى ثانية ؟ لكن أين ؟ أيكون لي عينان تبصران في قاع البحر إذا نزلت هذه الدركات التي لا تنتهي الى قرار ؟ وها أنا طول الليل أبحر نائياً عنه ، أيّان غاص . أجل ، أجل لقد أخبرت حقيقة مريعة عن نفسك وكثيراً من حقائق أخرى يا بارسي! ولكن ماتنبّأت به لآخاب قصر عن المدى . وداعاً ياقمّة الصاري ، ارقبي الحوت بعين يقظة ، مادمت غائباً . سنتحدّث غداً ، لا ، بل الليلة حين يكون الحوت الأبيض ممدّداً هناك مربوط الرأس والذنب » .

وألقى الأمر بالنزول وكان مايزال يتلفّت حوله وهو ينزل متمكّناً شاقاً الهواء الأزرق ، الى ظهر السفينة .

وأنزلت القوارب في الوقت المناسب . وفيما كان آخاب واقفاً في كوثلة الشالوب وهو يهمّ أن يضع رجله في موقع النزول ، لوّح بيده للضابط الذي كان يمسك أحد حبال المرافع على ظهر السفينة وأمره أن يتوقّف .

ـ «استاربك!» .

ـ «سيّدي ؟» .

ـ «لثالث مرّة تبدأ سفينة روحي هذه الرحلة يا استاربك» .

ـ «أجل يا سيدي ، إنك أنت الذي تريد ذلك» .

ـ «بعض السفن تبحر في موانئها ، ومن ثمّ تصبح مفقودة الى الأبد يا استاربك!» .

ـ «صحيح ياسيّدي ، تلك حقيقة مؤسفة» .

ـ «بعض الناس يموتون عند الجزر ، بعضهم في مياه ضحلة ، بعضهم عند طغيان الماء . وأنا أحسّ الآن كأنّي موجة ، كلّها عرف مقنزع ، يا استاربك . أنا هرم ـ صافحني أيها الرجل» . وتلاقت يداهما ، والتحمت عيونهما وكانت دموع استاربك هي الغراء الذي دبّقها معاً . «آه ياقبطاني ، ياقبطاني! ياذا القلب النبيل ، لا تذهب ، لا تذهب! أترى ، إنّ هذا الذي يبكي أمامك رجل شجاع ، فما أشدّ عذاب الإقناع اذن!» .

فصرخ آخاب وهو ينفض ذراع الضابط عنه : «انزلوا القوارب! ليتأهّب الملاحون!» .

وفي لمحة كان المجذّفون يعملون القارب على كثب مكاثب من جهة الكوثلة ، وصاح صوت من نافذة القمرة السفلى : «القرش! القرش! سيّدي ، سيّدي ، ارجعوا!» .

غير أن آخاب لم يسمع شيئاً إذ كان صوته نفسه عالياً حينئذٍ ، وجمز القارب مبتعداً .

لكن الصوت لم يقل إلا حقّاً ، إذ ماكاد القارب يبتعد عن السفينة حتّى كانت أعداد من أسماك القرش ، كأنّما برزت من المياه السوداء تحت هيكل السفينة ، تنهش بحقد شفرات المجاذيف كاما اغمست في الماء ، وعلى هذا المنوال رافقت القارب بنهشاتها . ذلك شيء مألوف حدوثه لقوارب التحويت في تلك البحار المحتشدة ، إذ تلحقها أسماك القرش أحياناً ظاهرة للعيان على النحو التنبّؤي الذي تحوم فيه الطيور الكاسرة فوق رايات الكتائب الزاحفة في الشرق . ولكن هذه القرشان تراها الباقوطة منذ أن أبصرت الحوت الأبيض أوّل مرة . لقد كان ملاحو آخاب همجاً صفراً كالنمور ، ترى هل كان لحمهم أشدّ شذىً مسكياً من أنوف القرشان ، وهو أمر يؤثّر في نفوس هذه الحيوانات أحياناً كما هو متعارف ؟ أيّاً كان الأمر فإنها مشت في أعقاب ذلك القارب وحده ولم تقترب من القوارب الأخرى .

وتمتم استاربك وهو يحدّق من على حافة السفينة مادّاً عينيه نحو القارب المتقهقر : « ياقلباً من الفولاذ الخالص! أما تستطيع أن ترنَ في جسارة عند هذا المنظر ؟ تنزل قاربك بين القرشان الفرّاسة وهي تتبعك فاغرة الأفواه الى الصيد ، وهذا اليوم الثالث العصيب ؟ ذلك أنه إذا مضت ثلاثة أيام في مطاردة حادة دانية فكن على يقين أنّ أوّل يوم فيها هو الصباح وثانيها هو الظهيرة وثالثها هو المساء وهو نهاية ذلك الأمر ـ أيّاً ماتكون النهاية . ربّاه! ما هذا الذي ينطلق من داخلي ويجعلني في هدأة الموت متلبّثاً أتوقّع ـ مصلوباً على وشك الإرتعاد! شؤون المستقبل تطفو أمام عيني كأنها في هيئات فارغة وهياكل ، والماضي كله قد غدا مبهماً . ماري يافتاتي ، إن صورتك قد انبهمت في الأمجاد الشاحبة من ورائي . وأنت يابني! يبدو أنني لاأرى إلا أن عينيك قد غدتا زرقاوين جذّابتين . تتكشّف أغرب مشكلات الحياة لعيني ولكن السحب تحول بيني وبينها . أنهاية رحلتي آتية ؟ رجلاي يسري فيهما الإعياء كالذي ظلّ طول يومه يمشي . تحسّس قلبك ـ أتراه مايزال يخفق ؟ حرّك نفسك يا استاربك ـ شقّه نصفين ، حرّكه ، حرّكه! ارفع صوتك بالكلام! أنت ياقمة الصاري! هل ترين يد ابني على الرابية ؟ جننت ـ أنتم في الأعالي! ابقوا عيونكم يقظة مفتّحة على القوارب ـ عاينوا الحوت جيداً هو !ثانية! اطردوا ذلك الصقر! ترونه! إنه ينقر ـ إنه يمزّق دوّار الريح » ـ يشير الى الراية الحمراء التي ترفرف عند التويج الرئيسي ـ « ها! ها هو يفرّ بها! أين الرجل الشيخ الآن ؟ هل ترى هذا المنظر ياآخاب! ـ رعشة ، رعشة! » .

لم تكن القوارب قد أبعدت كثيراً حين صدرت إشارة من قمّة أحد الصواري وامتدّت ذراع تشير الى أسفل ، عرف منها آخاب أن الحوت قد قمس ، ولكنه رغبة منه في أن يقترب منه لدى بروزه ، ظلّ ذاهباً في طريقه منحرفاً قليلاً عن المركب ، وظلّ الملاحون المأخوذون في صمت عميق حين كانت الموجات الرأسية تدق وتدق على مقدم القارب .

«اغرزي ، اغرزي مساميرك أيّتها الأمواج حتّى نهاياتها ولكنك تدقّينها في شيء لاغطاء له ، ولن يكون لي تابوت أو عربة جنائز ، لايقتلني إلا القنب ، ها! ها!» .

وفجأة انتفخت المياه من حولهم ببطء في دوائر واسعة ثمّ ارتفعت بسرعة كأنها تنحدر عن جوانب جبل جليدي غاطس في الماء ، ناهض بسرعة الى السطح . وسمع صوت خافت مدمدم ، ثمّ طنين تحتاني ، ثمّ حبس كلّ منهم أنفاسه اذ انطلق جسم مديد طولياً على مواربة من جوف الماء ، وهو مشعث بالحبال المجرورة وقد تلفّع في حجاب رقيق متهافت من الضباب ، ثمّ سقط متمعكاً في الماء .

تناثر الماء في الجو على ارتفاع ثلاثين قدماً وأومض لحظة كأنه أكداس من النوافير .

ثمّ تهاوى منكسراً في زخة من الندف المتناثر تاركاً السطح المنداح مزبداً كالحليب الطازج حول جذع الحوت الرخامي .

صاح آخاب في المجذّفين : « وسّعوا المدى! » وانطلقت القوارب متقدمة للهجوم ولكن موبي ديك كان قد ثار ثائره بالشفرات الجديدة التي أخذت تأكل منه منذ أمس فبدا وكأنما تلبّست به مجتمعة كلّ الملائكة التي طردت من الجنة . وبدت الخطوط الواسعة من العضلات المتلاحمة المنتشرة في جبهته العريضة البيضاء تحت بشرته الشفافة وكأنها قد انعقدت معاً ،واجتاز رأسه القوارب فأخذ يتلعّب بذنبه فيما بينها ، ومرة أخرى دقّها ففرقعها ناثراً من قاربي الضابطين ما هنالك من شفرات وحراب ، ومندفعاً في جانب من الجزء العلوي من مقدّمتيهما غير أنه خلى قارب آخاب دون أن يحدث فيه خدشاً .

وبينا كان دغة وكويكوج يوقفان الألواح المضغوطة والحوت يسبح مبعداً عنها . فقد دار وأبرز زعنفة كاملة حين انطلق من جانبها ، في تلك اللحظة صعدت صيحة سريعة : رؤي جسم البارسي الممزّق مربوطاً في عدة مواضع الى ظهر الحوت ، إذ كان الحوت في الليلة الماضية قد لفّ حوله لفائف الحبال فقيّده بها وهو يدور طاقاً فوق طاق ، وقد أصبحت مسوحه السود ممزّقة إرباً إرباً وعيناه المنتفختان قد استدارتا مصوّبتين الى آخاب .

سقط الرمح من يده .

وأخذ نفساً طويلاً نحيلاً وهو يقول : « مخدوع! مخدوع! أجل يا بارسي! ها أنا أراك ثانية ـ أجل وأنت ربيئتي ، تتقدمني ، وهذه إذن ، هذه هي عربة الجنائز التي أنبأت بها . ولكنّي أحاسبك على كلّ كلمة قلتها . أين العربة الثانية ؟ امضيا ، أيها الضابطان ، الى السفينة . هذان القاربان قد أصبحا قليلي الجدوى . أصلحاهما إن استطعتما في الوقت المناسب وارجعا اليّ ، فإذا لم تستطيعا فحسب الموت أن يستقبل آخاب . انزلوا يا رجال! أوّل شيء يقفز من هذا القارب الذي أنا فيه ، فإني أقذفه بالمزراق . لستم أنتم رجالاً آخرين وإنّما أنتم ساعداي ورجلاي ولذا أطيعوني . ـ أين الحوت ؟ هل قمس مرة أخرى ؟ » .

ولكن موبي ديك بدا بالغ القرب من القارب ، إذ كان يسبح ثانية الى الأمام في ثبات كأنما انتوى أن يذهب هارباً بالجثة التي يحملها أو كأن موقع الجولة الأخيرة لم يكن سوى مرحلة في رحلته تحت الريح . وكان قد تجاوز السفينة التي كانت حتّى هذا الوقت تبحر في اتّجاه مضاد له وإن كانت قد توقّفت حينئذ عن المضي في وجهتها . وبدا أنه يسبح بأقصى ما لديه من سرعة وإنه لاينوي إلا المضيّ في طريقه المستقيم في الماء .

وصاح استاربك : « آه! يا آخاب لايزال لديك ندحة من وقت ، حتّى هذه اللحظة ، في

اليوم الثالث ، أن تكفّ عنه . تأمّل! إن موبي ديك لا يطلبك . إنما أنت الذي تطلبه وتسعى وراءه في جنون! » .

وأطلق القارب الوحيد أشرعته مع الريح الناشئة ، فاندفع تحتها في سرعة ، بقوة المجاذيف والقلوع ، وعندما كان آخاب ينزلق في النهاية على مقربة من السفينة ، مكاثباً بحيث يستبين وجه استاربك بوضوح وهو متّكىء على الحافة ، هتف به أن يدير السفينة ، وأن يتبعه دون إسراع كثير في فترة مقدورة . وعندما نظر الى أعلى رأى طاشطيقو وكويكوج ودغة قد امتطوا القمم الثلاث في لهف ، بينما كان المجذّفون يقلّبون القاربين المشقوقين اللذين رفعا قبيل قليل الى جانب السفينة وهم منهمكون في إصلاحهما . وإذ أسرع رأى من خلال المجازات الجانبية لمحة خاطفة كلاً من اسطب وفلاسك وهما متشغولان على ظهر السفينة بين أكوام من الشفرات والحراب الجديدة ، وبينما كان يرى هذا كله ، بينما كان يسمع المطارق في القاربين المكسورين كانت مطارق أخرى بعيدة وكأنما تدقّ مسماراً في قلبه ، غير أنه تشدّد مستجمعاً نشاطه . ورأى أن دوّار الريح أو العلم لم يعد موجوداً في قمة الصاري الرئيس فصاح بطاشطيقو ، الذي كان لتوّه قد بلغ ذلك المرقب ، لينزل فيحضر علماً آخر ومطرقة ومسامير ، لكي يسمّره الى الصاري .

وأخذت سرعة الحوت تخبو فيما يبدو فقد غدا القارب مرة أخرى قريباً منه في سرعته ، وإن كانت إجفالة الحوت الأخيرة غير طويلة مثلما كانت من ذي قبل . ترى ما سرّ هذه التؤدة ؟ أكان قد أصابه اللغوب بعد ثلاثة أيام من المطاردة الدائبة ومن المقاومة التي تحدثها له المعرقلات المعقّدة التي يحملها أثناء السباحة ؟ أكان تباطؤه وليد خداع وخبث كامنين فيه ؟ ربّما ، من يدري ؟ وفيما كان آخاب ينساب فوق الأمواج كانت القرشان الغلاظ القلوب ماتزال ترافقه وهي قد لزمت القارب في إصرار واستمرّت تنهش المجاذيف الدائبة حتّى أصبحت شفراتها مثلّمة متدغدغة ، وتكاد كلّما انغمست في الماء تخلّف فيه شذرات من شظايا .

ـ « لاتكترثوا بها! هذه الأسنان إنّما تهيّئ لمجاذيفكم مساند جديدة . فكّ القرش أفضل للراحة وأثبت ظهراً من الماء الخاذل » .

ـ « ولكن ياسيّدي في كل نهشة تصبح شفرات المجاذيف أصغر من ذي قبل » .

ـ تضاين وقتاً كافياً! جذّفوا » . ثمّ تمتم : « من يدري إن كانت هذه القرشان تسبح لتعيد على لحم الحوت أو على لحم آخاب ؟ ـ لكن جذّفوا! هيّا ، أجل بكلّ حيوية ، ها نحن نقترب منه . الدفة! خذ الدفة ، دعني أمرّ » . ـ وإذ قال ذلك أعانه اثنان من المجذّفين ليبلغ مقدم القارب الذي مايزال طائراً . وحين انحاز القارب الى جانب ، على طول المدى ـ وجرى

على محاذاة زعنفة الحوت الأبيض بدا وكأنّ الحوت ساهٍ عنه وعن تقدّمه ـ وهو شيء يعتري الحوت أحياناً ـ وأصبح آخاب في نطاق الضباب الدخاني الطودي الذي قذفت به نفاثة الحوت فأخذ يتلوّى حول حردبته الضخمة الرابية «المونادنوكية»[1] . وعلى هذا الوضع كان آخاب قد أصبح منه قريباً فتقاعس بجسمه ورفع ذراعيه كليهما طولاً الى أعلى التسديد ، وقذف بشفرته العنيفة وبلعنته الأعنف في الحوت البغيض ، ولمّا أن غاصت الشفرة واللعنة حتّى الثعلبة كأنّما ابتلعتهما ردغة سبخة تلوّى موبي ديك من الجانبين ألماً ، وكوّر زعنفته القريبة ، متشنجاً ، ضد مقدم القارب ، ودون أن يشقّ فيه ثقباً رماه فجأة بضربة أدارته على عقبيه ولولا أن آخاب أمسك بالجزء المستعلي من الحافة متشبّثاً لانطرح في البحر مرة أخرى ، غير أن ثلاثة من المجذّفين هووا في الماء لأنهم لم يكونوا يقدّرون اللحظة الحاسمة لهجومه ، ومن ثمّ لم يكونوا على استعداد لنتائجها . وأتيح لاثنين منهما أن يمسكا بحافة القارب وإذ ارتفعا الى مستواه على ظهر موجة طرحا نفسيهما على ظهره مرة أخرى . أمّا الثالث فقد سقط عند المؤخَرة بلا حول ولا قوة ، غير أنه ظلّ عائماً سابحاً .

وفي الوقت نفسه تقريباً ، انطلق الحوت الأبيض خلال البحر الخبّاب بعزم قوي وخفّة وحيّة ، دفعة واحدة ، فصاح آخاب بقيّم الدفة ليباشر أمر الحبل ويمسكه ، وأمر الملاحين أن يدوروا في مقاعدهم وأن يجرّوا القارب الى هدفه ، وما أن أحسّ الحبل الغدّار بذلك الشدّ والسحب المريبين حتّى فرقع في الفضاء الفارغ منقطعاً .

ـ «ما الذي انقطع فيّ ؟ بعض عضلاتي تتصدّع! عادت سليمة ، المجاذيف! المجاذيف! عليه ، هيّا! » .

ولمّا سمع الحوت صوت القارب يشقّ الماء في اندفاعة هائلة ، دار متحرّفاً بجبهته الناصعة متحدّياً ، ولكنه لمح في دورانه هيكل السفينة الأسود مقترباً ، وكأنما رأى فيها مصدر كلّ هذا التعقّب الجائر ، وربّما حدّث نفسه أنها عدو أكبر وأسمى فانقضّ فجأة على خطمها المقترب ، وفكّاه يصطكّان وسط وابل ناري من الزبد .

ترنّح آخاب ولطم جبهته بيده وقال : «أصبحت أعمى ، الأيدي ، مدّوا أيديكم كي أتحسّس طريقي . هل حلّ الليل ؟ » .

فصاح المجذّفون المنكمشون : «الحوت! السفينة! » .

ـ «المجاذيف! المجاذيف! انحدر أيها البحر الى أعماقك كي يستطيع آخاب ، قبل أن

---

(١) نسبة الى جبل مونادنوك وهو منعزل يشبه القبة في جنوبي نيوهامبشير

تضيع فرصته الى الأبد ، أن ينحدر هذه المرة الأخيرة الأخيرة منزلقاً الى هدفه . السفينة! السفينة! اندفعوا يارجالي! ألا تريدون أن تنجّوا سفينتي ؟ » .

وحين دفع المجذّفون عنوة خلال الأمواه المتلاطمة كالمطارق الضخمة عاط طرفا اللوحين في المقدم الذي لطمه الحوت ، وأصبح القارب المصاب مؤقّتاً في لمحة أو نحوها مسجّى على مستوى الأمواج تقريباً ، وملاحوه الذين غطسوا الى أنصاف الماء خائضين يحاولون جاهدين أن يسدّوا الثغرة وينزحوا المياه المنصبة فيه .

وفي تلك اللحظة نفسها ظلّت مطرقة طاشطيقو ، أثناء ذلك متصلّبة في الفضاء ، ولفّته الراية الحمراء بعض التفاف كأنها رداء بلاضي ثمّ تموّجت منحسرة عنه كأنها قلبه الذي جاش منفلتاً من قفصه ، أمّا استاربك واسطب اللذان كانا دونه على الدقل المائل فقد لحظا الوحش المنقض حالما لحظه طاشطيقو .

ـ « الحوت ، الحوت! ارفع الدفة! آه أيّتها القوى العذبة في الهواء جميعاً ، ضمّيني اليك بقوة! لاتجعلي استاربك يموت إن كان لابدّ من أن يموت ، في نوبة إغماء تليق بالنساء . ارفعوا الدفة ، أقول ، أيّها الأغبياء ، الفك! الفك! أهذه خاتمة صلواتي المتفجّرة ؟ كلّ ضروب الوفاء التي عرفتها طول عمري ، آه آخاب آخاب! تأمّل ما صنعت . ثباتِ ، ياقيّم الدفة ، ثبات ، لا . لا . ارفع الدفة مرة أخرى! إنه يدور ليلاقينا! آه إن جبهته الساخطة تنطلق نحو امرىء يقول له واجبه أنه لايستطيع أن يتخلّى عنه ، ربّاه! عونك ، كن الى جانبي! » .

ـ « لاتكن جنبي ، كن دوني أيّاً كنت يا من تريد أن تعين اسطب ، لأن اسطب أيضاً لابث هنا لايتحلحل . أنا أكشّر في وجهك أيها الحوت العبوس! من ذا أعان اسطب أو من ذا أبقاه يقظاً سوى عينه التي لاتطرف ؟ والآن يذهب اسطب المسكين لينام على حشية شديدة النعومة ، ليتها كانت محشوّة بالعصيّ . أنا أكشّر في وجهك أيها العبوس القمطرير! انظري أيتها الشمس ، أيها القمر ، أيّتها النجوم! أنا أدعوك أصحاب غيلة حشاشين لخير شخص ذي خيال كان أبداً ، ومع ذلك كله فأنا أقرع كأسي بكؤوسك ، فليتك تعطيني الكأس! آه ، آه ، آه ، آه! أيها الحوت العبوس ، سيتاح لك كثير من الجرع واللهوات . لِمَ لا تطير يا آخاب! أمّا أنا فإنّي أخلع نعليَ وصدارتي استعداداً له ، ليمت اسطب في تبانه ، موتاً شديد العفونة أجاجيَ الملوحة مع ذلك . كرز! كرز! كرز! آه يا فلاسك ليتني أنال كرزة حمراء واحدة قبل أن أموت! » .

ـ « كرز ؟ لتمنّيت فحسب أن نكون حيث ينمو الكرز ، آه يا اسطب أرجو أن تكون أمّي المسكينة قد تسلّمت القسط الباقي من مرتّبي قبل اليوم ، فإذا لم تفعل فإنّ ما تأخذه بعد لن يزيد على بضعة مليمات ، لأن الرحلة قد انتهت » .

أطلّ جلّ البحارة من مقدم السفينة متوقّفين عن العمل وقد بقيت في أيديهم المطارق وقطع الخشب والحراب والرماح دون أن يتنبّهوا لإلقانها . تماماً كما بارحوا أعمالهم المختلفة ، وعيونهم المسحورة جميعها مصوبة نحو الحوت الذي كان يراوح رأسه المتوعّد بالمصير من جانب الى جانب على نحوٍ غريب ، وقد أرسل أمامه وهو مندفع نطاقاً عريضاً من زبد متناثر في أشكال نصف دائرية . وفي منظره كله عقاب وانتقام وحيّ وحقد خالد ، ورغم كلّ ماقد يستطيع الانسان ابن الفناء أن يفعله ، فإن ذلك الركن البارز الصلد الأبيض من جبهته لطم المقدم اليساري من السفينة حتّى ترنّحت الرجال والأخشاب ، وبعضهم سقط مكبّاً على وجهه ، واهتزّت رؤوس الزراقين في الأعالي فوق أعناقهم الغليظة كأنها تويجات قد سحقت من أماكنها .

وصرخ آخاب من القارب : «السفينة! عربة الموتى! ـ هي العربة الثانية ، خشبها لا يكون إلا أمريكياً! » .

وغاص الحوت تحت السفينة المتفرشة وجرى يتأطّر على طول قاعدتها ، ثمّ استدار وهو تحت الماء وانطلق بخفة الى السطح ثانية بعيداً عن المقدم الأيمن إلا أنه من قارب آخاب على بضع ياردات واستلقى هنالك ساكناً مطمئناً .

ـ «ها أنا أحوّل جسمي عن الشمس ، أنت ياطاشطيقو! دعني أسمع مطرقتك ، آه أيّتها السواري الثلاث التي لاتعنو ، أنت أيّتها الأرينة التي لاتنصدع ، وأنت أيها الهيكل الجميل المتأله ، وأنت أيها الظهر الثابت ، أيّتها الدفة المستكبرة ، أيها المخطم المصوّب نحو القطب ـ ياسفينة مهيبة كالموت ، هل تفنين اذن ولابدّ ، دون أو أكون فيك ؟ هل أحرم من آخر كبرياء حمقاء ينالها أدنى القباطنة الذين تتحطّم سفنهم ؟ آهٍ يا موتاً موحشاً يختم حياة موحشة! أحسّ أنّ ذروة عظمتي تحل في ذروة حزني . هو ، هو! من أقصى حدودك ، انصبّي اليّ أيّتها الموجات الجرينة ، موجات حياتي الغابرة جميعاً وطاولي موجة موتي هذه المديدة المعرومة . نحوك أتدحرج أيها الحوت المبيد الذي لايحرز غلبة ، الى النهاية أصاولك مصارعاً ، من جوف الجحيم أسدّد اليك الطعن ، من أجل البغض أبصق عليك آخر أنفاسي . كلّ التوابيت وعربات الجنائز تغوص في بركة واحدة! وبما أنّي لن أحمل على تابوت أو عربة فلاتسحب مزقاً وأنا ما أزال أطاردك ، أيها الحوت اللعين . هكذا أبعث الحربة» .

فقذف الرمح ، فندّ الحوت المصاب الى الأمام ، وجرى الحبل خلال اخدوده بسرعة مضطرمة ـ جرى ملتوياً . ووقف آخاب ليسوّيه وسوّاه حقّاً ، ولكن اللفة علقت مارقةً حول

رقبته ، ودون نأمة ، كما يفعل خرس الأتراك حين يخنقون الضحية بوتر القوس ، انطلق من القارب قبل أن يعرف الملاحون أنه ذهب . وفي اللحظة التالية ندت الأنشوطة الثقيلة في طرف الحبل من البرميل الفارغ تماماً وصرعت أحد المجذفين فلطم وجه البحر واختفى في أعماقه .

وتوقّف بحارة القارب المأخوذون لحظة ثمّ داروا : «السفينة! يارب ياعظيم أين السفينة ؟» ومن خلل حجب وغشاوات محيرة رأوا خيالها المتلاشي يميل جانبياً ، كأنه ملفع بتلافيف السراب في مضيق مسينا ، ولم يبقَ بارزاً فوق الماء إلا الصواري العليا بينما ظلّ الزراقون الوثنيّون يرقبون البحر غاطسين وهم مستقرّون في مراقبهم العليا إمّا بقوة الهيام أو الوفاء أو القدر . وأحاطت بالقارب الوحيد دوائر منداحة ، فإذا كلّ ملاحيه وكلّ مجذاف عائم وكلّ قناة ، وكلّ ذي نسمة وغير ذي نسمة فيه ، يدورون ويدورون دورة الفلكة في دردور مائي واحد ، حمل أصغر شظية من الباقوطة وغاب بها عن الأنظار .

وعندما انصبّت الغمرات الأخيرة المتماوجة فوق رأس الهندي عند الصاري الرئيس تاركة بضع بوصات من السارية المنتصبة خارج الماء ، مع عصا الراية الطويلة المرفرفة ، التي أخذت تتموّج في هدوء ، محدثة مفارقة ساخرة ، فوق الأمواج المحطمة التي تكاد تلامسها - في تلك اللحظة ارتفع ساعد أحمر ومطرقة وحلّقا خلفياً في الفضاء ، يريدان تثبيت العلم وتسميره في السارية الهابطة ، وحطّ صقر سماوي تبع التويج الرئيسي زاجراً موبّخاً ، هابطاً من موطنه الطبيعي بين النجوم ، حطّ على الراية مزعجاً طاشطيقو هناك ، واتّفق أن دسّ هذا الطائر جناحه العريض المرفرف بين المطرقة والخشبة ، وفي الوقت نفسه أحسّ طاشطيقو المتوحّش الغاطس من دونه بتلك الهزّة الأثيرية وهو في سكرة الموت ، فأبقى مطرقته متصلبة لا تريم ، وهكذا فإنّ طير السماء ، ذا الزعقات ، بزعقاته التي تشبه نفخ الصور ، والمنقار الملكي المندفع الى أعلى ، والهيئة المستأسرة جميعاً الملفوفة في راية آخاب ، هبط مع سفينته وهي كالشيطان لاتغوص في جهنّم إلا إذا جرّت معها قطعة من السماء ، اتّخذتها خوذة لنفسها .

وطارت صغار الطير تزعق فوق الفوهة الفاغرة ، ثمّ تكسّرت موجة بيضاء نكدة على حوافيها المنحدرة ، ثمّ انهار كلّ شيء ، وانبسط كفن البحر المترامي ، متدرّجاً ، مثلما كان يفعل منذ خمسة آلاف عام .

خاتمة

«ونجوت انا وحدي لأخبرك» (سفر أيوب ١٥:١)

تمّت الرواية . فلن يعود هذا الممثّل للظهور على المسرح ؟ لأنّ واحداً ظلّ حيّاً بعد الدمار .

واتّفق أن كنت أنا الفتى التي كتبت له الأقدار بعد اختفاء البارسي أن يحلّ محلّ القيّم في المقدّمة في قارب آخاب ، حين احتلّ ذلك القيّم المكان الخالي بفقدان البارسي ، وهو نفسه ذلك الملاح الذي سقط عند المؤخرة حين قذف الملاحون الثلاثة ، آخر يوم من أيام المطاردة ، من قاربهم الخطّار . وكنت عائماً على حاشية المنظر التالي ، والمشهد كلّه بمرأى منّي ، وحين بلغني ضغط السفينة الغائصة ، وقد تبدّد بعض قوّته ، كنت حينئذ أنسحب ببطء نحو الدردور الآخذ بالإنغلاق ، وإذ وصلته كان قد تحوّل الى بركة بيضاء مزبدة ، فدرت ودرت مشدوداً نحو تلك النفاخة السوداء التي تشبه الزر في محور تلك الدائرة الدوّارة في بطء كأنّي اكسيون آخر[١] . حتّى إذا بلغت ذلك المركز الحيوي انفجرت النفاخة السوداء الى أعلى ، وإذا بالتابوت منفلتاً بقوّة مرونته الدقيقة وقابليته الكبرى للعوم ينطلق طولاً من البحر بقوة عظيمة ثمّ يهوي ثمّ يعوم الى جانبي ، وطفوت بعون ذلك التابوت مدّة يوم وليلة وعمت فوق بحر ناعم كأنه المرثية الحزينة ، وانسابت القرشان حولي دون أن تمسّني بأذى ، كأنّما وضعت على أفواهها أقفالاً ، وانسابت صقور البحر من فوقي بمناقير مغمدة . وفي اليوم التالي اقتربت منّي سفينة ، واقتربت ، وانتشلني ملاحوها أخيراً . كانت هي « راحيل » الجوّابة الضالة ، التي وجدت ، أثناء بحثها المتردّد عن ولديها الضائعين ، يتيماً آخر .

---

(١) في أساطير اليونان والرومان أن اكسيون ملك لبيطاي في تساليا عوقب على فجوره بأن أرسل الى الجحيم وربط الى دولاب ناري دائم الدوران .

ملحوظة

كل التعليقات التي رُمز إليها بعلامة كهذه * فهي مما كتبه ملثل نفسه .
أما التعليقات المصدّرة بالأرقام فهي من تقييدات المترجم .

الفهرس

فصل في الاشتقاق 5
مقتطفات 7
١ تباشير 23
٢ حقيبة من القماش 29
٣ حانة النفاث 33
٤ غطاء السرير 47
٥ الفطور 53
٦ الشارع 57
٧ المعبد 61
٨ المنبر 65
٩ الموعظة 69
١٠ صديق حميم 79
١١ المنامة 83
١٢ موجز سيرة 85
١٣ عربة يد 89
١٤ نانتوكت 95
١٥ الشودر 99
١٦ السفينة 103
١٧ الصوم 117
١٨ علامته 123
١٩ ايليا المتنبئ 127
٢٠ كل شيء على قدم وساق 133
٢١ ركوب البحر 135
٢٢ عيد ميلاد سعيد 139
٢٣ الشاطئ الآمن من الريح 145
٢٤ دفاع عن التحويت 147

٢٥ تذييل 153
٢٦ فرسان ووصفاء 155
٢٧ فرسان ووصفاء 159
٢٨ آخاب 163
٢٩ شجار 167
٣٠ الغليون 171
٣١ ربة الأحلام 173
٣٢ علم الحيتان 175
٣٣ مقطع الشحم 189
٣٤ المائدة في القمرة 193
٣٥ أعلى الدقل 199
٣٦ الربعة خلف الدقل الأعظم 207
٣٧ الغروب 215
٣٨ غبش الظلام 217
٣٩ النوبة الأولى في الحراسة الليلية 219
٤٠ منتصف الليل عند المنارة 221
٤١ موبي ديك 229
٤٢ بياض الحوت 239
٤٣ أصخ 247
٤٤ الخريطة 249
٤٥ الاقرار بيمين 255
٤٦ أوهام 263
٤٧ النساج 267
٤٨ القوارب تنزل أول مرة 271
٤٩ الضبع 281
٥٠ قارب آخاب وملاحوه ـ فيض الله 285
٥١ النفاثة الشبح 289
٥٢ الفطرس 293
٥٣ الجمة 295
٥٤ قصة تاونهو 299

٥٥	صور مشوهة ترسم للحيتان	319
٥٦	صور للحيتان أقل أخطاء وصور صحيحة لمشاهد التحويت	325
٥٧	الحيتان كما تتمثل في الألوان وفي الأسنان وفي الخشب وفي صفائح الحديد وفي الحجر وفي الجبال وفي النجوم	329
٥٨	القشريات	333
٥٩	السبيدج	337
٦٠	حبل الصيد	341
٦١	اسطب يصيد حوتاً	345
٦٢	المزراق	351
٦٣	الشعبة	353
٦٤	عشاء اسطب	355
٦٥	الحوت بين ألوان الطعام	363
٦٦	مذبحة بين أسماك القرش	367
٦٧	تقطيع شحم الحوت	369
٦٨	البطانية	371
٦٩	الجنازة	375
٧٠	أبو الهول	377
٧١	قصة السفينة يربعام	381
٧٢	حبل القرد	387
٧٣	اسطب وفلاسك يصيدان واحداً من الحيتان الأثينة ثم يشتركان عنده في حديث	393
٧٤	رأس حوت العنبر ـ موضع مفارقة	399
٧٥	رأس الحوت الأثين ـ موضع مفارقة	403
٧٦	المنجنيق	407
٧٧	دن هيدلبرج الكبير	411
٧٨	حوض ودلاء	413
٧٩	جبهة كالسهوب اتساعاً	417
٨٠	لب الجوزة	421
٨١	الباقوطة تلتقي بالسفينة «العذراء»	425
٨٢	ما في التحويت من شرف ومجد	437
٨٣	النظر في يونان من زاوية تاريخية	441

٨٤	قذف الحربة	443
٨٥	النافورة	447
٨٦	الذنب	453
٨٧	اسطول ضخم من الحيتان	459
٨٨	مدارس ونظارها	471
٨٩	سمكة موثقة وسمكة مخلاة	475
٩٠	رؤوس أو أذناب	479
٩١	الباقوطة تلتقي ببرعم الوردة	483
٩٢	العنبر الرمادي	491
٩٣	طريح بين أمواج	495
٩٤	عصر الاكر الشحمية	499
٩٥	الكازاك	503
٩٦	معامل التصفية	505
٩٧	المصباح	511
٩٨	التعبئة والتفريغ	513
٩٩	الدبلون أو الدينار الاسباني	517
١٠٠	ساق وذراع . الباقوطة النانتوكتية تلتقي بصومونيل اندربي اللندنية	525
١٠١	القارورة	533
١٠٢	ظلة في البلاد الارسكية	539
١٠٣	قياس هيكل الحوت	543
١٠٤	الحوت في حالة تحجر	547
١٠٥	هل ينقص جرم الحوت ؟ أتراه يندرس ؟	551
١٠٦	رجل آخاب	555
١٠٧	النجار	559
١٠٨	آخاب والنجار	563
١٠٩	آخاب واستاربك في القمرة	569
١١٠	كويكوج في تابوته	573
١١١	المحيط الهادي	579
١١٢	الحداد	581
١١٣	نار الحداد	585

١١٤ الشـرك 589
١١٥ الباقوطة والعزب يتلاقيان 591
١١٦ الحوت المحتضر 595
١١٧ السهر على الحوت 597
١١٨ مقياس الزوايا 599
١١٩ الشموع 603
١٢٠ ظهر السفينة قريباً من نهاية النوبة الأولى في الحراسة الليلية 611
١٢١ منتصف الليل ـ حوافي السفينة عند المنارة 613
١٢٢ في الأعالي عند منتصف الليل ـ الرعد والبرق 615
١٢٣ البندقية 617
١٢٤ الابرة 621
١٢٥ مقياس السرعة وحبل المقياس 625
١٢٦ عوامة الانقاذ 629
١٢٧ ظهر السفينة 633
١٢٨ الباقوطة تلتقي براحيل 637
١٢٩ القمرة 641
١٣٠ القبعة 643
١٣١ لقاء بين الباقوطة والمسرة 649
١٣٢ السيمفونية 651
١٣٣ المطاردة ـ اليوم الأول 657
١٣٤ المطاردة ـ اليوم الثاني 667
١٣٥ المطاردة ـ اليوم الثالث 677
خاتمة 689

موبي ديك، رائعة الأدب العالمي، استهوت القرّاء على اختلاف مستوياتهم.

اعتبرها البعض موسوعة دقيقة لصيد الحوت، ونظر إليها البعض على أنها رواية لمغامرة بحرية، فيما رأى فيها آخرون رموزاً لمعاناة إنسانية متعددة الجوانب، عميقة الدلالة.

ولقد أجمع القرّاء، رغم التفاوت في التفسير على الإعجاب بهذه الرائعة الخالدة باعتبارها أروع ما كُتب في الأدب القصصي الإنساني.

قال عنها برنارد شو:

"منذ عرف الإنسان كيف يكتب لم يوجد قط كتاب مثل هذا، وعقل الإنسان أضعف من أن ينتج كتاباً مثله، واني أضم مؤلفه في مصاف مؤلفات رابليه وسويفت وشكسبير".

فهذه الرواية لا تحكي صراع الإنسان مع الطبيعة، بل صراع "إنسان" مع الطبيعة، ترسم صورة (آخاب)، سجين فرديته ورهين ذاتيته، في سعيه اللاهث للتسيّد على الكون وتنصيب ذاته نظيراً للحقيقة ومثيلاً للمطلق.



ISBN 284305097-9
9782843050978

تصميم الغلاف: رولا ماجد